

بجدة النايف والرجمة والنشر

الحضارة الإسلامية

في
القرن الرابع الهجري

أو

عصر النهضة في الإسلام

Die Renaissance des Islams

الجزء الأول

تأليف

الأستاذ آدم ميتز

ADAM MEZ

أستاذ الفات الشرقية بجامعة • بازل • بسويسرا

نقله إلى العربية

محمد عبد الهادي أبو ريرة

بكلية الآداب بجامعة القاهرة

الطبعة الثالثة - منقحة مهيأة

قاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٣٧٧ هـ — ١٩٥٧ م

محتويات الكتاب

الصفحة	الموضوع
٥	تصدير
ط	كلمة المترجم للطبعة الثانية
٢	كلمة المترجم للطبعة الأولى
١	تفصل الأول - المملكة الإسلامية
١٥	» الثاني - الخلفاء
٢٧	» الثالث - الأمراء
٥٧	» الرابع - اليهود والنصارى
١٠١	» الخامس - الشيعة
١٢٩	» السادس - الإدارة
١٥٠	» السابع - الوزارة والوزراء
١٨٩	» الثامن - المسائل المالية
٢٢٧	» التاسع - رسوم دار الخلافة
٢٦١	» العاشر - الأشراف
٢٧٧	» الحادى عشر - الرقيق
٣٠١	» الثانى عشر - العلماء
٣٢٣	» الثالث عشر - علوم الدين
٣٦٩	» الرابع عشر - المذاهب الفقهية
٣٧٨	» الخامس عشر - القضاة
٤١٦	» السادس عشر - علم اللغة
٤٢١	» السابع عشر - الأدب
٤٥٥	استدراكات

تصدير

هذا كتاب في الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، وهو المصير الذي بلغت فيه الحضارة والعلوم والفنون الإسلامية ذروتها .

ألفه الأستاذ « منز » باللغة الألمانية ، وقد لفت نظري إليه فصول كانت تُنشر في مجلة (الثقافة الإسلامية) Islamic Culture التي تصدر في حيدرآباد باللغة الإنجليزية ، وكان يقوم بترجمتها من الألمانية إلى الإنجليزية المرحوم خُدايَ بخش ، فأعجبني منها دقة البحث وحسن الاستقصاء ، والاعتماد على المصادر الكثيرة المتنوعة اعتماداً يدمر إلى الدهش ، ويستخرج المعجب ، من الصبر على البحث ، والهدأ في العثور على مادة الموضوع .

وقد أحاط المؤلف بنواحي الحضارة الإسلامية من سكان ومال وإدارة وتجارة وعلم وفن وسياسة واجتماع ، وكشف ببعثه عن نواحي غائصة أخذ يعالجها في صبر وأناة حتى جلاها ؛ وكانت طريقة معالجته تكاد تقتصر على جمع الذموص الكثيرة المتعلقة بالموضوع من مصادر متعددة ، والاكتفاء بها ، من غير أن يدخل شخصيته وآراءه في المسائل إلا في القليل النادر .

وقد يؤخذ عليه أنه أحياناً يعسر عليه النص ، فيضمه على غير وجهه ، وأحياناً يكثر النص ، وقد كان الإنسيان به كاملاً يرضح رأيه أو يخالف وجهة نظره ؛ كما يؤخذ عليه أنه يستدل في بعض المسائل على رأي بنص واحد ،

ولو عرضت النصوص كلها لمخرج الباحث منها برأى يخالف رأيه ؛ رأياً نراه ،
بحكم عقيدته ونشأته واعتماده على النصوص فقط ، دون الروح والوقوف الفنى والجو
الإسلامى والوسط العربى ، يشرده فى رأيه ، ويخطئ فى نظره . ولكن هذا كله
لا يذهب بمعظم قيمة الكتاب وفائدته للباحثين الإسلاميين ؛ فالكتاب يملأنا
طرق البحث العلمى ، ويقدم لنا درساً قيماً فى صبر العلماء على معاناة البحث ،
والاستناد إلى أكبر عدد من المصادر وغرباتها وأخذ خير ما فيها ، ويكشف لنا
عن نواحٍ من الحضارة مجهولة .

ولعل كثيراً من المآخذ التى عددناها يرجع إلى أن المؤلف قد عاجلته منيته
والكتاب فى مسوداته لم يبيضها ، ولم يصفها فى شكلها الأخير .



وأيت الكتاب قد تَرجِم من الألمانية إلى الإنجليزية ثم تَرجِم إلى الإسبانية ،
نقلت إن الأولى أن يُترجم إلى العربية ، فأهلها هم وارثو الحضارة الإسلامية ،
وم أولى أن يطلعوا على كل ما كتب فيها .

فلما صنعت لى القرصة لترجمته برغبة بيت الغرب فى نشر كتب قيمة
فى هذا الموضوع وأمثاله ، انتدبت له الأستاذ محمد عبد الهادى أباريدة ، كما
انتدبته من قبل لترجمة كتاب الفلسفة الإسلامية للأستاذ دى بور ، فأبلى فيه
بلاء حسناً .

وعرفت أن كتابنا هذا يتطلب من مترجمه صبراً من جنس صبر المؤلف ،
فكل صفحة منه تتضمن عدة مصادر ، واشترطت أن تنقل عبارات هذه المصادر
بنص . وإنما لا بمعناها . وبعض هذه المصادر مخطوط بألمانيا وبعضها مخطوط
بهولندا ، وبعضها مخطوط بفرنسا إلى غير ذلك ، فتقبل الأستاذ أبو ريدة

(ز)

القيام بهذا الجهد كله بنفس طيبة تحب العلم ، وتصبر على الجهد ، وتستلذ العناء
في سبيل علم تنشره أو غير تقدمه ؛ وليس يعلم مقدار ما عانى في ذلك إلا الله ومن
شاهده أثناء ترجمته ومجته .

وكان من حسن حظه وحظ الكتاب وحظ القراء أن أرسل إلى بعثة في
فرنسا ، فأناحت له هذه البعثة فرصة طيبة للاطلاع على المصادر في المكتاب
الفرنسية ، ومكنت له من أن يسافر إلى برلين ، ويتصل بهولندا ليقوم بترجمة
هذه المصادر كلها ؛ فله الشكر الجزيل على ما عانى ، وعلى ما قدم لقراء العربية
من خير ، وليت المغرب الشكر على ما أنفق ، وعلى ما أنجه إليه من خزمة العلم .

أحمد أمين

كلمة المترجم

للطبعة الثانية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى سائر الأنبياء والمرسلين إلى
يوم الدين ، وبعد :

فهذه هي الطبعة الثانية لكتاب « الحضارة الإسلامية في القرن الرابع
الهجري » ، يسرني أن أقدمها للقراء والباحثين ، بعد أن لقي الكتاب من
التقدير والانتفاع به في مختلف ميادين البحث ما شجع على نشره من جديد .
وإني لتعودني الذاكرة ، عند مراجعتي للكتاب من جديد والإشراف
بنفسي على طبعه ، إلى سنة ١٩٣٩م حين أعددت أصوله ونصومه وترجمت هذا
الجزء الأول ، والعالم يتأهب للحرب ، وخصوصاً إلى عام ١٩٤٠م حيث أنتمت
ترجمة الجزء الثاني في باريس ومدريد ، والحرب قائمة تُذيق أوروبا الويلات
وتبليبل قلبَ الغريب بها ، وتقلق روحه ، فلا يستطيع أن ينسلي عن ذلك
إلا بالعمل وقد استطعت أن أرسل ترجمة الجزء الثاني ، رغم وقوف المواصلات
البريدية ، مفزقة مع أحد زملائي الأفاضل في البعثة ، وهو الدكتور يحيى الخشاب
وسم (صاحب السعادة) كامل البنداري (باشا) ، وزيرنا القوض في بروكسل
آنذاك ، فلهما اليوم الشكر الذي لم أستطع أن أبلغه إليهما في تلك الأيام .

وقد شاء القدر العجيب ، فى أثناء الحرب وتقلباتها ومفاجأتها أن أتم
 دراسى ، بعد انقطاعها بباريس ، فى جامعة بازل بسويسرة ، حيث كان مؤلف
 الكتاب أستاذا قبل عشرين عاما ، وأن أنتلذ على تلميذه وخليفته فى منصبه ،
 وهو أستاذى الكريم الفاضل المأمة المتواضع الأستاذ الدكتور رودلف تشودى
 (Rudolf Tschudi) . وكان الكتاب أحيانا موضع حديثنا ؛ فأجب أن أئبه
 القارئ إلى أن المؤلف كان يقصد من كتابه أن يسجل حضارة الإسلام فى القرنين
 الثالث والرابع مع الناية الخاصة بالقرن الرابع ، ليكون كتابه مقابلا ومُشاهبا
 لما كتب عن حضارة عصر النهضة فى أوروبا ، خصوصا ما كتبه ياكوب
 بوركهاردت Jacob Burckhardt السويسرى البازلى من عصر النهضة فى أوروبا .
 وفى إيطاليا . ولعل هذا هو السبب فى تسمية المؤلف لكتابه باسم Die Renaissance
 Des Islams ، أى « نهضة الإسلام » ؛ وهى عبارة مختصرة للدلالة على حضارة
 عصر النهضة فى الإسلام . وكان أن حضارة عصر النهضة فى أوروبا كانت قائمة
 على إحياء الحضارة القديمة فى نواح كثيرة ومُتفرقة بميلاد القوميات وتجزؤ الدولة
 الواحدة التى قام عليها بناء العصر الوسيط فى أوروبا إلى دول صغيرة ، فكذلك
 كانت حضارة الإسلام بوجه عام متصلة بإحياء ثقافات وحضارات متقدمة عليها ،
 وزاد على ذلك فى العصر الذى يتكلم عنه المؤلف ، وهو القرن الرابع الهجرى ،
 انحلال دولة الخلافة الكبرى إلى دول صغرى . فلا غرابة أن يُؤخذ المؤلف بهذا
 التشابه وأن يحمل له شائنا فى وضع اسم كتابه ، بل كأنه يؤكد ذلك بأن يشير فى
 كثير من الأحيان وفى مواضع متفرقة^(١) إلى أنه فى القرن الثالث ، وخصوصا
 فى القرن الرابع ، ظهرت بين المسلمين أفكار ونظم وذهاب وأجاليب فى الحياة

(١) انظر مثلا أول الفصل الرابع عشر وأول الفصل الثامن عشر ، وخمسا الفصل
 التاسع عشر فى مواضع كثيرة وغير ذلك .

(ك)

وبادات كانت موجودة قبل الإسلام عند أمم أخرى ، ثم عادت إلى الظهور من جديد ؛ ولعل هذا هو الدعاة الكبرى التي تستند إليها هذه التسمية التي لم يجد المؤلف ما يرضيه غيرها .

ونجم نقطة أخرى أحب أن أتبعه على بعضها ؛ فمن ذلك ما لاحظته في مواضع كثيرة جداً من عدالة هذا المؤلف في حكمه ؛ فهو لا يعرف التعمص ، ويذكر الأمثلة من الحضارة العربية ومن غيرها ؛ بل يبين أن بعض ما نجلده في تاريخ العرب أحياناً من قسوة تنفر منها قد أخذه العرب من غيرهم كالبورنظيين . وهو يؤكد ، في مواضع شتى ، خصائص الطبيعة العربية مبرئاً إياها أحياناً مما يظهر في تاريخها من مساوئ دخيلة عليها ، وهو منصف أيضاً في تصويره للنظم الإسلامية وفي مقارنته معاملة العرب لغيرهم بمعاملة غيرهم لهم . وإن مقارناته المتنوعة وأثرانه وعدم مبالغته في تقدير الوقائع الجزئية لمن الصفات التي يجب أن يربى الباحث نفسه عليها .

هذا إلى أني توخيت الدقة قد صححت الترجمة في مواضع متفرقة ، وذلك بفضل ما تبسر لي أثناء دراستي في جامعة أزل من إتقان اللغة التي كُتب بها الكتاب ، كما أني زدت تعليقات جديدة دون الإكثار منها .

والنصوص التي في الكتاب هي كما في مصادرها ؛ فإن كان فيها شيء غير واضح ، نعم وصافياً هو مأخوذ من مصادر مطبوعة ، فلا حاجة لي في ذلك ، لأن المصادر ليست كلها تحت يدي ، فالنصوص التي جمعها لا تزال في أوروبا ، وأيضاً لأن الأصول الأولى التي كتبتها بيدي ثلاث بدو طبع الكتاب في غابتي . ولكن هكذا كله لا شيء إلى جانب المصادر والمادة التي أتتني من الكتب بين يدي الباحث .

(J)

ويحتاج هذا الكتاب ، نظراً لكثرة ما فيه من موضوعات في الفصل الواحد
ولكثرة أسماء الأعلام ، إلى فهرس كبير ، أرجو أن شاء الله أن أُلحقه بالجزء الثاني
الذي قد بدأ ما طبعته الثانية .

وأخيراً فإن قراءتي للكتاب من جديد بعد سبع سنين قد أُناحت لي اللذة
التي ذقتها مرة في ترجمته ، كما ذكرتني بظروف هذه الترجمة وما كان فيها
من عناء .

وإني لأرجو أن يقال القاري "ثمرة ما يُبذل من جهد ، وأن تكون هذه الثمرة
له نافعة ، وما التوفيق إلا بالله .

محمد عبد الرهمن أبو ريرة

مدرس بكلية الآداب بجامعة القاهرة

القاهرة في ٦ ذي القعدة ١٣٦٦
٢١ سبتمبر ١٩٤٧

كلمة المترجم

للطبعة الأولى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله وحده ، وكان مزيده نعمه وجزيل إحسانه ؛ والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه إلى يوم الدين ، وبعد :

فهذا كتاب يتناول الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، من حيث أصلها وتطورها ، اختاره أستاذنا الجليل أحمد أمين بك ، وشرفتني بإسناد ترجمته إلى ، ليكون جزءاً من النشاط العلمي المحمود الذي يبعثه بيت الغرب . ولقد قبلت هذه المهمة متبشيراً مُشفقاً ، بعد أن بَلَوتُ الترجمة سراراً ، ولقيت منها ما لقيت .

غير أن الذي حثب إلى القيام بهذا العمل ، أنه ليس في كتب المستشرقين على كثرة تأليفهم إلا كتب قليلة جداً تبحث في تاريخ الحضارة الإسلامية^(١) على هذا النحو الذي سلكه مؤلف هذا الكتاب ، « آدم متز » المتوفى عام ١٩١٧ ميلادية . كان هذا العالم أستاذاً للغات الشرقية بجامعة بازل (Basel) في سويسرة ويبدل هذا الكتاب الذي أقدمه لقراء العربية على سعة اطلاع مؤلفه وتمتعه في موضوع البحث ؛ فقد تناول الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري من جميع

(١) مثل الكتاب القديم الذي ألّفه فون كريم (A. Von Kremer) - برلين -

Culturegeschichte des Orients unter den Chalifen, Wien, 1875-9

نواحيها العقلية والمادية بعد أن راجع المصادر الغربية وغير العربية مراجعة واسعة النطاق ، حتى لُتَمَدَّ مراجعته بالمثلث ؛ وقد بلغ عدد اللرات التي أشار إليها في الباب الواحد مئتين أيضاً في بعض الأحيان ؛ ومن جملة مصادره مخطوطات أرزت على الأربعين موجودة في مكاتب برلين وباريس وليفدن وليبتزج وميونخ وفتنا ولندن ؛ وبعض هذه المخطوطات لم يُنشر حتى الآن ، مع عظم قيمته ؛ كما أن المؤلف رجع إلى عدد كبير جداً من المجلات العلمية الأوروبية التي تبحث في شئون الشرق . غير أن الأجل أدركه ، وكتابه مكتوب بالآلة السكانية ، دون أن يتمكن من مراجعته مراجعة أخيرة تُهيئه للطبع ومن غير أن يضع له مقدمة . إلا أن قيمة هذا الكتاب كانت سبباً في إظهاره للباحثين ؛ فنشره الأستاذ ويكندورف (Reckendorf) عام ١٩٢٢م باسمه الذي اختاره المؤلف له ، وهو : «عصر النهضة في الإسلام» ^(١) ؛ ثم ترجمه إلى اللغة الأسبانية سلفادور فيلا (Salvador Vila) ونشره عام ١٩٣٦م ؛ وترجمه كذلك إلى اللغة الإنجليزية المرحوم صلاح الدين خُدا بختي المهندي الذي كان أستاذاً بجامعة كلكتا ؛ ومات قبل أن يتم الترجمة ، فأتمها الأستاذ مرجوليوت بجامعة أ كسفورد ، ونشرت كاملة سنة ١٩٣٦م .

هذه الظروف في مجموعها جعلت الترجمة شاقة كل الشققة ، لأن المراجع تُذكر بحيث لا يسهل الرجوع إليها ؛ فقد يُذكر الكتاب أحياناً من غير ذكر مؤلفه ولا ذكر المكان الذي يرجع الباحث إليه للمقارنة ، أو قد يُذكر المؤلف دون ذكر كتابه ؛ وفي كلتا الحالتين كان ينبغي أن يُذكر زمان الطبع أو مكانه أو رقم الكتاب في المكتبة التي هو فيها ، إن كان مخطوطاً . لذلك كان لا بد من البحث عن هذه المصادر في فهارس المكاتب الأوروبية

(س)

للطبوعات والمخطوطات ومراجعة ذلك . وقد استطعت أن أحصل على المواضيع التي أشار إليها المؤلف في المخطوطات ، وذلك بطلب تصويرها من مختلف مكاتب أوروبا ، كما راجعت بعضها بنفسى في باريس وبرلين أثناء التمام الماضى .

كما استطعت بعد مراجعة الأصول العربية أن أصحح أخطاء كثيرة في النصوص أحيانا وفي المراجع في أغلب الأحيان ؛ كما أنى زدت المراجع لإيضاح يستهل الرجوع إليها ، وقيمت أشياء يسيرة جدا وضعت علامة استفهام إلى جانبها لمحاول معالجتها من شاء . وكذلك وسمت بعض النصوص وبيّنت مناسبتها ، لتكون مفهومة للقارئ العربى ومشبعة لحاجته من معرفة أسماء الأعلام كاملة ، وعلقت تعليقات قليلة جدا يتطلبها المقام .

على أنى راجعت كل شىء تقريبا على الأصول التى ذكرها المؤلف مراجعة دقيقة طلبا لدقة والضبط ، وراعى فيما يتعلق بالمراجع العربية أن يكون الأسلوب متشبيها مع الأصل العربى الذى أشار إليه المؤلف ، لتكون بين يدى القارئ حضارة القرن الرابع بلغة القرن الرابع ولغة رجاله ومؤلفيه .

وإذا كان القارئ يرى فى بعض الأحيان ما يشبه التفتك فى العرض ، فرجع ذلك إلى أن الكتاب كتاب على معنى بضبط الوقائع وإحصائها والاستنباط منها .

وقد ترجمت القسم الأول من هذا الكتاب وعرضته على الأستاذ أحمد أمين بك ، فتمنّى بقراءته من أوله إلى آخره قراءة دقيقة استنفدت كثيرا من وقته الثمين ، وأبندى ملاحظات قيمة كان لها أكبر الفضل فى إخراج الكتاب على هذا النمط .

(ع)

ولا يفوتني أن أعبر عن شكرى العظيم للأستاذ بول كراوس المدرس بكلية
الآداب لماونتي في فهم كثير من البقط الغامضة في الأصل الألماني .

لقد كان أستاذنا الجليل أحمد أمين موفقاً كل التوفيق في اختيار هذا
الكتاب لترجمة ، لكي ينشره بيت المغرب في مجلة النشرات القيمة التي يخدم بها
الثقافة العربية . وأرجو أن أكون قد وفقت أنا أيضاً في القيام بهذا العمل على
الوجه الذي يحقق النفع ، مع طمى بأن كل جهد فهو دون الكمال .

وإني لأرجو أن أتمكن من ترجمة القسم الثاني وإكمله بالتمهات اللازمة
لكتاب ، وإضافة تبت للمراجع خدمة للقارئ .

كما أرجو أن يبد هذا الكتاب فراغا كبيراً في تاريخ الحضارة الإسلامية
وأن يحرك همّ الباحثين إلى العناية بتاريخ هذه الحضارة وبذل ماتت حقه
من جهود .

والله ولي التوفيق ، وهو نعم المولى ونعم النصير ؟

محمد عبد الرهاري أبو ربرة

باريس في } أول المحرم سنة ١٣٥٩
 } ٩ فبراير سنة ١٩٤٠

بكلية الآداب وعضو هيئة جامعة فؤاد الأول بباريس

الفصل الأول

المملكة الإسلامية

في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) عادت المملكة الإسلامية إلى ما كانت عليه قبل الفتح العربي ؛ ونشأت فيها دولٌ صغيرة منفصل بعضها عن بعض ، كما كان الحال دائماً في تاريخ الشرق ، إذا استثنينا فترات قصيرة . وقد تمّ هذا الانقسام حوالي سنة ٨٣٢٤ - ٩٣٥ م .

وشرع المؤرخون يبتنون الأجزاء التي آلت إليها المملكة ، كأنهم يصفون حسابها ؛ وهم يعتمدون في إحصائهم على مصدر واحد ، كما يدلّ على ذلك ترتيبهم لهذه الأجزاء : تغلب كل رئيس على ناحيته ، وانفرد بها ، فصارت فارس والري وأصبهان والجليل في أيدي بني بويه ، وكرمان في يد محمد بن إلياس ، والموصل وديار ربيعة وديار بكر وديار مضر في أيدي بني حمدان ، وأصبحت خسر والشام في يد محمد بن طنج الأخشيد ، والمغرب وإفريقية في يد الفاطميين ، والأندلس في يد عبد الرحمن الناصر الأموي ، وخراسان في يد نصر بن أحمد الساماني ، والأهواز وواسط والبصرة في يد البريديين ، واليمامة والبحرين في يد أبي طاهر القرمطي ، وطبرستان وجرجان في يد القديلم ؛ ولم يبق في يد الخليفة إلا بغداد وأعمالها^(١) . ويشبهه المسعودي في عام ٨٣٣٢ - ٩٤٤ م فقلّ

(١) تجارب الأمم لابن مسكويه ج ٥ ص ٥٥٣ - ٥٥٤ ؛ تاريخ ابن الأثير ، الطبعة الأوروبية ج ٨ ص ٢٤١ - ٢٤٢ ؛ تاريخ أبي الفدا تحت سنة ٨٣٢٤ [ج ٢ ص ٢٩٨ من الطبعة الأوروبية] : نلتفت في تاريخ الأمم لابن الأثير ج ١ ص ٩٤٣ مالمكة الأهلية بولن ص ١٥٨ ؛ الجزء الرابع من كتاب البون والمدايق مخطوط برلين أيضاً
دله ٩٤٩٧ ص ١٥٤ - ١٥٥

أصحاب الأطراف ، وتغلب كل واحد منهم على الصقع الذي هو فيه بفعل ملوك الطوائف بعد موت الإسكندر^(١) .

على أن شجعاً لسيادة الخليفة ببغداد ظلّ ونحاً مائلا في الأذهان ؛ والمسمودي نفسه يتكلم من « حمل » أمير المؤمنين ، وينقل عن الفزاري أنه « من فرغانة وأقصى خراسان إلى طنجة بالمغرب ثلاثة آلاف وسبعمائة فرسخ ، ومن باب الأبواب إلى جدة ستمائة فرسخ ، ومن الباب إلى بغداد ثلاثمائة فرسخ ومن مكة إلى جدة اثنان وثلاثون ميلا »^(٢) .

على أن أصحاب الأطراف أو ملوك الطوائف كانوا يعترفون بالسيادة العليا للدولة ، ويقدمون للخليفة الدعاء في المساجد ، ويشتركون منه ألقابهم ، ويرسلون إليه الهدايا في كل عام ؛ فمن ذلك أنه لما تمّ لعهد الدولة ابن بؤينة فتح كرمان في سنة ٣٥٧ هـ ، أنفذ إليه من الحضرة ببغداد عهد الخليفة وخيامه والمقد على أعمال كرمان كلها^(٣) . وكان مظهر سلطان الخليفة منصبه الجليل فحسب ، وهو يشبه في ذلك قيصرًا من قياصرة الإمبراطورية الرومانية المقدسة في ألمانيا ، يحكم الأمة الألمانية وليس له عليها إلا سلطان قليل . ولكن فكرة الدولة لم تنفذ ، رغم هذا ، ما كان له من القوة والسلطان ، حتى إن بني أمية في الأندلس لم يتخذوا لأنفسهم لقب الخليفة أو التسمية باسم « أمير المؤمنين » ، بل كانوا يسمون أنفسهم « بني الخلائف » . ثم جاء الفاطميون فكانوا أول من خرج على هذه القاعدة ، فلم يكتفوا بأن يكونوا أمراء ذوي سلطة دينية فقط ، بل

(١) مبدع الذهب المسمودي ، الطبعة الأوروبية ج ١ ص ٣٠٦ ، ج ٢ ص ٧٣ والصفحات التالية .

(٢) مبدع الذهب ج ٢ ص ٦٧ — ٦٨ .

(٣) مذكورة ج ٦ ص ٣٢٢ .

أرادوا أن يكونوا الخلفاء الحقيقيين لـ [عليه السلام] ، فأتخذوا لأنفسهم لقب الخلافة بعد فتح القيروان في سنة ٢٩٧ هـ - ٩٠٦ م^(١) . ثم أسرع قبيصة هذا اللقب إلى الملبوط حتى نجد حاكم سجلماسة ، جنوبي جبال أطلس ، وكان حاكماً صغيراً ، يسمى نفسه بأمر المؤمنين في سنة ٣٤٢ هـ - ٩٥٣ م وهو القب الذي كان من قبل يبعث في النفس رهبة عظيمة^(٢) .

ولما علم عبد الرحمن بالأندلس أن العلويين يافريقية تلقبوا بأمر المؤمنين اتخذ لنفسه أيضاً لقب الخلافة ، وتسمى بأمر المؤمنين في سنة ٣٥٠ هـ ٩٦١ م^(٣) .

ولكن لم يكن من شأن هذا الانقسام وتمدد أمراء المؤمنين أن يؤدي إلى خيق في معنى الإسلام أو في الوطن الإسلامي ، بل صارت كل هذه الأقاليم تؤلف مملكة واحدة ، سميت مملكة الإسلام - وهو الاصطلاح الذي لم يستعمله المسلمون - تمييزاً لها عن مملكة الكفر ، وقامت وحدة إسلامية لا تتقيد بالحدود السياسية الجديدة . وهذا عكس ما نشأ عن اتحاد الإمبراطورية الألمانية في القرن التاسع عشر^(٤) .

(١) كتاب الديون من ١٧٠ قتلا من ابن الجزائر للوردخ للفري التوف عام ٣٩٠ هـ ٢٠٠٤ م .

(٢) كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب لأبي سعيد عبد الله بن عبد العزيز السكري ، طبعة الجزائر عام ١٨٥٧ من ١٥١ .

(٣) أبو القدا تحت عام ٣٥٠ هـ ، فتح الطب المرقى ج ١ من ٢١٢ - ٢١٣ .

(٤) ربما يقصد المؤلف أن حركة الوحدة الألمانية في القرن التاسع عشر كان غرضها الوحدة ، ولكننا انصرفت على بعض الألمان ، فلم تشمل النمسا وغيرها : وشرك أهل هذه البلاد كنهم أمان ، وكانوا يهابون في ألمانيا معاداة الأمان . وهذا خلاف ما نشأ عن انقسام الدولة الإسلامية كما سبأني . على أن كلام المؤلف ينطبق على الوحدة الألمانية في القرن التاسع عشر ؛ أما في عهد المرزفد انبهت فكرة الوحدة الألمانية إلى إنشاء ما يسمى ألمانيا الكبرى على أساس الجنس واللغة ، وقد ضمت النمسا وغيرها وقيت أغليات صغيرة كان صدها من أسباب الحرب الماضية . (المترجم)

يعتبر المتقدمى أن مملكة الإسلام تمتد من كاشغر فى أقصى المشرق إلى
السوس الأقصى فى المغرب ، وأنها تُقَطَّع فى نحو عشرة أشهر^(١) . أما عند ابن
حوقل فحدود مملكة الإسلام هى : شرقها أرض الهند وبحر فارس ، وغربها
مملكة السودان الذين يسكنون على المحيط الأطلسى ، وشماليها بلاد الروم وما
يتصل بها من الأرمن والآلان والران والخزر والبُلغار والصقالبة والترك والصين ،
وجنوبها بحر فارس^(٢) .

وكان المسلم يستطيع أن يرتحل فى داخل حدود هذه المملكة فى ظل دينه
وتحت رايته ، وفيها يمد الناس يعبدون الإله الواحد الذى يعبد ، ويعملون كما
يعمل ، وكذلك يمد شريعة واحدة وعرفاً واحداً ، وعادات واحدة . وكان
يوجد فى هذه المملكة الإسلامية قانون على يضمن المسلم حق المواطن ، بحيث
يكون آمناً على حريته الشخصية أن يمسها أحد ، وبحيث لا يستطيع أحد أن
يسرقه على أى صورة من الصور^(٣) . وقد طوّف ناصر جسر فى هذه البلاد
كلها فى القرن الخامس الهجرى (الحسادى عشر الميلادى) دون أن يلاى من
المضايقات ما كان يلاقيه الألمانى الذى كان ينتقل فى ألمانيا فى القرن الثامن عشر
بعد المسيح [عليه السلام] .

وكان الخليفة الفاطمى على أشد ما يكون من المنافسة ابنى العباس ، فكان
يُحْتَضَر له فى اليمن والشام زيادة على إفريقية ومصر ، وكان لمذهب الفاطميين
« دعاة متبشرون فى كل صقع وناحية »^(٤) ؛ وتدلنا هذه الحكاية الصغيرة على أن

(١) المتقدمى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، طبعة ليدن ١٨٧٧ من ٦٤ .

(٢) السالك والممالك ، طبعة ليدن ١٨٧٢ من ١٠ — ١١ .

(٣) لا يقول بغير هذا القول إلا بعض شرار الفرق كالفرامطة .

(٤) كتاب الفهرست لآل النديم ، الطبعة الأوروبية من ١٨٩ .

الخليفة الفاطمي كان يُنسب له فعلٌ كُذِّبَ عنه : كان على صدر زربب السلطان
عضد الدولة صورةً لسبع من الفضة ، فسُرِقَ ؛ وعجب الناس كيف كان هذا مع
هيمية عضد الدولة المفرطة ، وكونه شديد المعاقبة على أقلّ جناية ؛ ثم قُلبت
الأرض في البحث عن السارق ، فلم يوقَف له على خبر ؛ فقبل عند ذلك إن
صاحب مصر ، يعني الخليفة الفاطمي ، دسّ من فعل هذا^(١) . وفي عام ٤٠١ هـ
بلغ من جرأة قرواش بن المقلد ، أمير بنى عقيل ، أنه خطب للحاكم بأمر الله في
أعماله كلها ، وهي الموصل والأنبار والمدائن والسكونة ، وذلك تحت سمع
العباسيين وبصرم ، حتى أرسل الخليفة القادر إلى بهاء الدولة فدير إليه جيشاً ؛
فبمَث قرواش يُعتذر ، وقطع الخطبة للموليين ، وأعادها للقادر^(٢) . وكان الخليفة
في بغداد يمجّد بعض العزّاء مما ضاع من سلطانه حين يرى مثلاً أن السلطان محموداً
صاحب غزنة ، وهو الأمير الذي أخذ نجمة في الصدود ، يُظهر له احتراماً عظيماً ،
ويوقفه على انتصاراته ، ويشكو إليه ما يمجّد ؛ وفي سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٢ م)
مثلاً أرسل الحاكم بأمر الله إلى السلطان محمود كتاباً يدهوه فيه إلى طاعته ،
فبمَث محمود بالكتاب إلى الخليفة القادر بعد أن خرّقه وبصق في وسطه^(٣) .

وكان النزاع على أشد ما يكون فيما يتعلق بمكة والمدينة من بين الأراضي
القدسية ، لأن امتلاكهما أصبح له شأنٌ أكبر من ذي قبل ؛ فلم تكن توجد من
قبل مناسبة للبحث في علامة الخليفة الحقيقي ؛ أما الآن فقد ظهرت من ثنايا النزاع
حول هذا المنصب نظريةٌ جديدة ، هي أن أمير المؤمنين الحقيقي هو من كان

(١) التنظم ص ١١٨ .

(٢) ابن الأنبرج ص ١٠٦ - ١٠٧ ؛ التجوم الزاهرة لابن خري بروجي ، نسخة

W. Popper بكافورنيا ص ١٠٧ .

(٣) نفس المصدر ص ١١٤ .

ملكاً للحرمين^(١) . وهذه هي النظرية التي يُسند إليها اليوم في إثبات حق
العثمانيين في الخلافة^(٢) .

وكان العلويون في هذا النزاع على الأراضي المقدسة هم الخصم الثالث لدى
يأني آخراً فيفوز بالغلبة ، وكان الحشانيون منهم يتمتعون دائماً حول المدينة بمال
وجاه عظيم ، ولذلك استطاعوا أن يفتحوا مكة حوالى منتصف القرن الرابع
المجربى . دون أن يعترض عليهم الطرفان الآخريان ، وهما العباسيون والفاطميون .
ونرى في أواخر هذا القرن في البلاد المقدسة الحسالة التي نراها اليوم : فالمدينة هي
مركز الحركة السياسى - وقد كانت العاصمة السياسية قديماً - ومنها يسير التيار
السياسى إلى مكة ، وكذلك نجد الأشراف سادة الحرمين^(٣) .

وفي هذا العصر نجد مملكة الإسلام تعود من الناحية الجغرافية إلى حدودها
الأولى ، وتفقد ممتلكاتها في الغرب ، وكان البحر الأبيض المتوسط بعد عصر
شارلمان قد أصبح بحراً عربياً ؛ واستطاع العباسيون منذ أوائل القرن الرابع أن
يحافظوا على حدودهم القريبة من اعتداء البوزنطيين ، وكانت أخبار الانتصارات
تُقرأ من أعلى المنابر ببغداد . وفي عام ٢٩٣ هـ - ٩٠٤ م أخذ قرصان المسلمين
مدينة سالونيق ، ثانية مدن الدولة البوزنطية ، وهي مدينة كبيرة محصنة بأسوار
وحصون وأبراج ، وأسروا من أهلها اثنين وعشرين ألفاً^(٤) .

غير أن زحف الروم بدأ سنة ٨٣٤ - ٩٢٦ م باستيلائهم على مدينة

(١) صوح لدمب ج ١ ص ٣٦٢ .

(٢) والآن قد تغير هذا المؤلف بعد إلغاء العثمانيين الخلافة منذ عام ١٩٢٤ . (الترجم)

(٣) Snouck-Hurgronje, Mekka 1. 69 . وقد تجر المؤلف اليوم في المجاز أميراً

كبيراً . (الترجم)

(٤) Joannes Cameniata, Corpus scripti Historiae Byzant. Bonae (٤)

وكان هذا المؤلف إيداك من بين الأسرى .

مملّية^(١) . وفي عام ٣٣١ هـ - ٩٤٢ م وافق جيوش الروم إلى ديار بكر ،
وبلغوا قرب نصيبين ، وطلبوا من أهل الرها أن يدفعوا إليهم المنديل الذي كان
المسيح عليه السلام مسح به وجهه ، وصارت صورة وجهه فيه ، وذلك في مقابل
إطلاق عدد من أسرى المسلمين ؛ وكاتب الخليفة المتقي في ذلك فاستحضر
الوجوه من أهل مملكته لأخذ رأيهم ، وقام جدال عظيم بينهم ، فذكر البعض
أن هذا المنديل منذ الدهر الطويل في كنيسة الرها ، لم يلتصقه ملك من ملوك
الروم ، وأن في دفعه إليهم غشاة على الإسلام ، لأن المسلمين أحق بمنديل
عيسى عليه السلام ، وفيه صورته . فقال علي بن عيسى ، وهو الوزير المُنين
إذ ذاك : إن خلاص المسلمين من الأسر ، وإخراجهم من دار الكفر ، مع
ما يأسونه من الضنك والضرر أوجب وأحق ، وواقفه جماعة ممن حضر على قوله ،
وسُلم المنديل إلى الروم ، فحملوه إلى القسطنطينية ، وخرج البطريرك وكبار رجال
الدولة لاستقباله ، ومشى أهل الدولة بأجمعهم بين يديه بالشع الكثير ، وحمل
إلى الكنيسة العظمى أجنيا صوفيا ، ومنها إلى البلاط^(٢) .

وبشكو السمودي من « ضعف الإسلام في هذا الوقت وذهابه ، وظهور
الروم على المسلمين ، وفساد الخنج ، وعدم الجهاد ، وانقطاع السبيل ، وفساد
الطريق ، وانفراد كل رئيس وتقلبه على الصقع الذي هو فيه ، كفعل ملوك
الطاوائف بعد مضي الإسكندر ... ولم يزل الإسلام مستظهِراً إلى هذا الوقت ،

(١) مكيه ج ٥ ص ٢٤٩ .

(٢) تاريخ سعيد بن الطريق ، بده تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكي مخطوط رقم ٢٩١
فالمكتبة الأعلى بباريس ص ١٨٤ - ب ، على أن المؤلف يشير أحيانا إلى نسخة مطبوعة
لها التي ذكرها بروكلمان في ملحق كتابه : تاريخ الأدب العربي ج ١ ص ٢٢٨ من طبعة
لندن ١٩٣٧ ؛ وقد وجدت الإشارة لجلتها كلها بحسب مخطوط باريس لصورة المصنوع على
النسخة المطبوعة . (الترجمة)

فتداعت دعايمه ، ووهى أسه ، وهى سنة اثنين وثلاثين وثلاثمائة ، فى خلافة
 أبى إسحاق إبراهيم التتقى لله أمير المؤمنين ، والله المستعان على ما نحن فيه ^(١) .
 أما الإمبراطورية البيزنطية فقد أسعدها الحظ فى هذا القرن بثلاثة قواد
 ذوى كفاية نادرة ، تعاقبوا على مرشها ، وهم نفقور فوكاس (Nikephoros Phokas)
 وزيمسكيس (Zimiskes) ، وباسيليوس (Basilios) . وقد مكث آخرهم وأكفؤهم
 على رأسها خمساً وخمسين سنة . وفى سنة ١٠٥٠ هـ - ٩٦١ م فتح نفقور جزيرة
 أقرطيش بعد حصار دام ثمانية أشهر ^(٢) ، وكانت هذه الجزيرة أكبر عيش
 للقرصان المسلمين . وبعد خمس سنين سقطت قبرص فى يد الروم ، فلم تعد للمسلمين
 السيادة المطلقة التى كانت لهم فى البحر الأبيض المتوسط . وفى سنة ١٠٥١ هـ -
 ٩٦٢ م ورد نفقور حلب ، وفى سنة ١٠٥٤ هـ - ٩٦٥ م فتحت مدينة المصيصة ^(٣) ،
 وأخيراً وقعت طرسوس ، مع ما سَجَّل لأهلها من شجاعة ، وكانت أكبر حصن
 للإسلام فى وجه المغيرين عليه ؛ وقد أخذها الروم بعد أن عظم بها القلاء والوباء
 حتى بلغ الأمر بالناس إلى أكل الميتة . وفى عام ١٠٥٧ هـ - ٩٦٨ م فتح نفقور
 حماة وحما ، وأخذ من حمص رأس القديس يوحنا المعمدان ، وكذلك فتح
 مدينة اللاذقية . وفى الشتاء التالى سقطت مدينة أنطاكية بعد أن كان يُخَيَّل
 للناس أنها لن تُغَلَّب ^(٤) .

ولما أهاد الروم فى سنة ١٠٦٢ هـ - ٩٧٢ م على الرُّها ونواحيها . وساروا
 فى ديار الجزيرة حتى بلغوا نصيبين ودخلوا ديار بكر ، ففتموا واستباحوا وقتلوا وسبوا

(١) مروج الذهب ٢ ص ٧٣ وأنى تليها .

(٢) يحيى بن سعيد ص ٩١ ب .

(٣) نفس المصدر ص ٩٤ ب .

(٤) نفس المصدر ص ٩٥ ب ٩ Michael Syrus, S. ٥٥١

وسرّوا البلاد ، قصد بغداد من نجا من أهل تلك البلاد مُستَغْفِرِينَ ، واجتمع معهم أهلُ بغداد في الجوامع ، وأصابهم جميعاً غضبُ اليانسين ، فكثروا النار ، ومنعوا الخطب ، وقصدوا دار الخليفة ، غارلوا الهجوم عليه ، واقتلوا بعض شبابيك دار الخلافة ، وخطبوا الخليفة بالتمنيف ، فرماهم الظلمان بالنشاب من الرواشن^(١) . وقد اجتمع من استنصار العامة لفُزاة جمعٌ عظيم من العامة والأجلاذ يبلغ زهاء ستين ألفاً ؛ فطلب عزُّ الدولة بختيار بن بويه من الخليفة المطيع لله أن يبعث له مالاً يُخرجه لفُزاة ، فامتنع الخليفة بحجة أن الأموال لا تُجبي إليه ، فلا تلزمه النفقة على الفُزاة ، وهدّد بالاعتزال ، وتردّت الرسائل بينه وبين بختيار ، حتى بلغ الأمر التهديد ، فبذل المطيع أربعمائة ألف درهم ، واحتاج في ذلك إلى بيع ثيابه وأنقاض داره من ساج وورصاص ، وشاع بين الحجاج أن الخليفة قد صودر^(٢) . ثم تحرّب الفُزاة إلى سَمْتَيْن وشيعة ، ووثب بعضهم على بعض ، وأعرضوا عن ذكر الروم جانباً ، ولما قبض بختيارُ المسالمة صرفه في مصالحه ، وبطل حديث الفُزاة^(٣) .

وفي عام ٣٦٤ هـ - ٩٧٤ م فتحت بطليق وبيروت ، وأخذت من بيروت صورة المسيح التي تنسب إليها الخوارق ، ونقلت إلى الكنييسة التي أسسها زيمسكيس في قصر البرنز بالقسطنطينية . أما أهل دمشق فقد اضطروا إلى أن يفتدوا أنفسهم بدفع ستين ألف دينار ، يحملونها لروم في كل عام^(٤) .

(١) يحيى بن سعيد ص ١٠٠ ب - ١٠١ ، والمنظوم ص ١٠١ ، وابن الأثير ج ٨ ص ٤٠١ - ٤٠٠ ، والنجوم الزاهرة لأبي الحسن بن تقي الدين ص ٤٠١ طبعته بيروت ١٨٥٠ ج ٢ ص ٤٣٥ .

(٢) مسكويه ج ٦ ص ٣٨٦ ، ٣٨٩ ، ويحيى بن سعيد . وابن الأثير ج ٨ ص ٤٠٠ - ٤٠٦ ، وأبو الحسن في نفس الموضوع .

(٣) يحيى بن سعيد ص ١٠٢ ب ، grand palais de .

Constantinople, Paris, 1910, p. 52

أما في جنوب المملكة الإسلامية فقد حافظ المسلمون على الحدود التي كانت
 هرومان قديما ، وصدوا هجمات النوبة . ويحدثنا السعدي وهو مصري في عام
 ٨٣٢ - ٩٤٣ م أن النوبة كانوا قد صولحوا منذ ولاية عبد الله بن سعد على
 رهوس من السبي معلومة ، وأن هذا السبي صار سنة جارية في كل سنة إلى عهده ؛
 ويدعى هذا السبي بأرض مصر والنوبة بالبقط ، ويقبضه نائب أمير مصر المقيم
 ببلاد أسوان^(١) . وفي عام ٨٤٥ - ٩٥٦ م سار عسكر مصر وفتحوا مدينة
 أبريم ، وهي آخر حصون النوبة مما يلي مصر^(٢) . وفي أقصى الجنوب الغربي
 دخلت في الإسلام مدينة أودغشت ، وهي المدينة التجارية الكبرى في غرب
 الصحراء الإفريقية ، فصارت هذه المدينة أقصى نقطة للإمبراطورية الإسلامية
 من ناحية وسط إفريقيا^(٣) .

على أنه إذا كان سلطان الإسلام كان ينحسر عن بلاد في الغرب ، فقد كان
 يقابل ذلك تقدمه المستمر في الشرق . ففي عام ٨٣١٣ - ٩٢٥ م فتحت
 بلوخستان ، وكانت حتى ذلك الحين على الوثنية^(٤) . وفي سنة ٨٤٩ - ٩٦٠ م
 أسلم من الأتراك نحو من مائتي ألف خركاة^(٥) . وعلى حين أنه في أواخر

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ٣٩ - ٤٠ .

(٢) يحيى بن سعيد ص ٩١ ب ٤ وكتاب الخطاط الدفريزي طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ
 ج ١ ص ١٩٨ .

(٣) ولقد ذكر المهلب الذي كتب في عام ٨٣٧٠ هـ أن ملك كوكو بالسودان كان
 يظاهر رعيته بالإسلام وأكثرهم يظاهر به (معظم البلدان لياقوت ج ٤ ص ٣٢٩ من الطبعة
 القديمة) ، ولكن البكري وابن سعيد لا يراها بعد إنيهم وثنيون (انظر J. Marquart ,
 Beninsammlung, S. XCIII .

(٤) مكسويه ج ٦ ص ٢٤٩ .

(٥) مكسويه ج ٦ ص ٢٤٠ ، وكتاب الميوس ص ١٢٦٩ .

القرن الثالث الهجري كانت أسبجياب^(١) آخر مدينة للمسلمين مما يلي الترك ، فإن دخول بفرخان في سلك أسراء المسلمين جعل حدود المملكة الإسلامية تمتد إلى حوض نهر التاريم . ويعتبر للقدسي أن مملكة الإسلام تنسحب حدودها إلى كاشغر^(٢) . وفي عام ٣٩٧ هـ - ١٠٠٦ م كان أهل بلاد ختن مسلمين^(٣) . وفي ذلك الوقت شتم السلطان محمود بن سبكتكين ، صاحب غزنة ، وأخضع بلاداً واسعة من بلاد الهند السلطان الإسلام ، وكانت علامة الثقة عند ملوك الهند أنهم يقطعون أصابعهم ، وكان عند السلطان محمود من أصابع من هادنه الكثير^(٤) .

ولا نريد أن نتعرض هنا للبحث فيما إذا كان انقسام دولة بني العباس دليلاً من دلائل التدهور ، إذا نظرنا في هذه المسألة بمنظار هذا العصر الذي نعيش فيه والذي يحكم في مثل هذه الأحوال على أساس الكم وعلى أساس ما يسمونه بالوحدة ؛ على أننا نستطيع أن نقول إن الإمبراطوريات العالمية الكبرى ترتكز

(١) كتاب البلدان ليطول طبعه ليدن ، ١٨٩١ ، ص ٢٩٥ . وقد قال أحد القراء المتأخرين إن أسبجياب هي مدينة صيم التي تقع على مسافة سبعة عشر كيلو متراً شرق كاشغيت ، وهذا يتفق مع تعيين ابن خرداذبة لمكانها . وقد واثق على هذا أيضاً ليفي (Grenard : *Archaeological Journey to Turkestan*, p. 35.) ، وجرينار : (JA, 1900, t. 15. S. 27, Ann. 4.) ولكن ماذا غير ذلك ، لأن السعاني (الذي توفي عام ١٠٦٢ هـ - ١١٦٧ م) ، وكان يرف آسيا الوسطى جيداً ، يتكلم عن أسبجياب باعتبارها مدينة كبرى (انظر كتاب تقويم البلدان لأبي الفدا طبعه باريس ١٨٤٠ ص ٤٩٤) ؛ ويصرح ياقوت في معجم البلدان (ج ١ ص ٢٥٠) بأن أسبجياب خربها النار عام ٦١٦ هـ - ١٢١٩ م ، ولكن الرحالة تشاو تشونغ (Caucung) يحكي أنه في نوفمبر سنة ١٢٢١ م نزل بمدينة تسمى ساي - لان : (انظر : (Hirthschneider, *Medieval Researches*, 1, S. 74

(٢) القدسي ص ٦٤ .

3. Marquart Ouwans Bericht über die Bekehrung der Uiguren, (٣)

SBBA, 1912, S. 493.

(٤) الخطيب ص ١٨٨١ - ب

دائماً إما على شخص زعيم عبقري وإما بنوع خاص على وجود طائفة من أهل
 الخشونة والقوة الوحشية ؛ ووجود هذه الإمبراطوريات على كلتا الحالتين ووجود
 غير طبيعي . على أننا لا نجد في مصر على عهد الإخشيد وكافور والفاطمين ما يدل
 على تأخرها ، بل هي قد كانت منعمة الجانب ، وافرة العدة ، عظيمة الخيرات ؛
 وكذلك يشهد الرحالون بمناقب السامانيين وعلمهم وشريف أعمالهم وما كان
 لمالكهم من عظمة ومنعة^(١) . أما بغداد فهي التي قد تنكرت لها الأيام ،
 وذلك منذ عام ٨٣١٥ - ٩٢٧ م حين أُرهبها العيارون ، وعانوا فيها فساداً ،
 وأعملوا فيها النهب^(٢) لأول مرة ؛ ثم صار أسرم يتفانم كما ضفت الحكومة ،
 وكانت أسوأ أيامها السنوات التي أفلت فيها الزمام من يد الحكومة فيما بين مقتل
 يحكم ودخول بني بويه ، أي ما بين عامي ٨٣٢٩ و ٨٣٣٤ = ٩٤٠ - ٩٤٥ م ؛
 وكانما كان سقوط رأس القبة الخضراء التي في قصر المنصور بمدينة السلام عام
 ٨٣٢٩ - ٩٤٠ م إرهاباً بأقول نجم بني عباس ، وكانت تلك القبة « تاج
 بغداد وعلم البلد » ؛ وكان ليلة سقوطها مطرٌ عظيم ورعد وبرق شديد^(٣) . وفي
 سنة ٨٣٣١ - ٩٤٢ م استطاع ابن حمدي ، وهو لص ظهر ببغداد على رأس
 جماعة من أصحابه ؛ أن يتهب أموال أهل بغداد ، وكان قد أعيا السلطان أسره ،
 وخلع عليه ابن شيرزاد ، ووافقه على أن يصحح في كل شهر خمسة عشر ألف
 دينار مما يسرقه هو وأصحابه ؛ فكان يستوفونها ويأخذ البراءات وروزات الجهاد
 بما يزدية أولاً فأولاً .

وكان ابن شيرزاد في ذلك الوقت كاتباً للقائد التركي المسمى توزون ، فكان

(١) ابن حوقل ص ٣٤١ والمسلحات التالية .

(٢) ابن الأثير ج ٤ ص ٢٢١ .

(٣) المتظم ص ١٦٧ ، وكتيب الميون ص ١٩٩ ب .

أمرُ الحكومة في يديه ، ومضى على الناس في أيام ابن حدى وقت تحارسوا فيه بالبوقات في الليل ، وامتنع عليهم النوم خوفاً من كبسات هذا اللص وأصحابه^(١) وخلت المنازل ببغداد من أهلها ، وصاروا يطلبون من يسكن الدار بأجرة يُعطاهما ليعتظهما ، وأغلقت عدة حمامات ، وتمطت أسواق ومساجد^(٢) ، وأضيف إلى هذا ما كان بين السنيين والشيعة من نزاع دائم ، فكأوا يُلقون النار بعضهم على بعض دائماً . وفي سنة ٣٦١ هـ - ٩٧١ م قامت بالكرخ فتنة ، فأرسل الوزير حاجبه لقتال العامة ، وكان شديد المصيبة للسنة ، فاضطر إلى إلقاء النار في أماكن كثيرة ليقضى على الفتنة ، فاحترق الكرخ حريقاً عظيماً ، وكان عدة من احترق فيه سبعة عشر ألف إنسان ، وثلاثمائة دكان ، وثلاثة وثلاثين مسجداً ، ومن الأموال ما لا يحصى . وبدأ الناس ينتقلون من الجانب الغربي إلى الجانب الشرقي ، ولا يزال هذا الجانب إلى اليوم أحمر وأكثراً سكاناً^(٣) . وفي عام ٣٣٢ هـ - ٩٧٢ م تولى ابن شيرزاد القيادة بعد موت توزون ، فأخذ في المصادرات ، وقسّط على العمال والكتاب والتجار وسائر الناس ببغداد مالا لأرزاق الجند ، وكثرت الضرائب حتى تهارب الناس من بغداد وفسد الأمن ، وكثرت كبسات اللصوص ، حتى إنهم دخلوا دار أحد القضاة ، فتساق حائطاً لينجوا منه ، فوقع ومات^(٤) .

وفي هذا العصر يصف القديس بغداد ويقول إنها « كانت أحسن شيء للدين ، وأجل بلد ، وفوق ما وصفنا ، حتى ضُف أمر الخلافة ، فاختات ،

(١) كتاب العيون ص ٢٠٦ ب .

(٢) المعظم ص ١٧٢ .

(٣) محيى بن حميد ص ١٠٠ ب - ١٠١ . وابن الأثير ج ٨ ص ١٦٢ .

(٤) كتاب العيون ص ٢٢٩ ب - ٢٣٠ .

وخفّ أهلها ؛ فأما المدينة فخراب ، والجامع فيها يُعمر في الجُمُع ، ثم يتخللها بعد ذلك الخراب ... وهي في كل يوم إلى ورا ، وأعشى أنها تعود كاصراً ، مع كثرة الفساد والبلل والنفس وجور السلف^(١) . ويدكر الصابي من جماعة من الناس أنهم في عام ٥٣٩٢ هـ - ١٠٠١ م شاهدوا صيتية الكرخ فيما بين طرفي الحدائين والخبزآزين ، والفواخت والمناظر تمشي في أرضها انتصاف النهار ، وفي الوقت الذي جرت العادة بازدهام الناس فيه بهذا المكان ؛ وذلك لأن البلد كان قد خرب ، وانتقل أهله منه^(٢) . ولأجل هذا نجد المقدسي يشيد بذكر مدينة القسطنطينية بمصر ، ويقول إنها « ناسخ بغداد » ، ومفخر الإسلام ، ومتجر الأنام ، وأجل من مدينة السلام^(٣) . وقد ظلت عاصمة مصر منذ ذلك الحين أكبر مدن الإسلام .

(١) المقدسي ص ١٢٠ .

(٢) كتاب حمة الاسراء في تاريخ الوزراء لأبو الحسن الهلال بن الحسن بن إبراهيم الصابي ، نسخة أمدرود بيروت سنة ١٩٠٤ ، ص ١٣٩ .

(٣) المقدسي ص ١٩٧ .

الفصل الثاني

الخلفاء

لما تُوُلِّت الدَّولة على الخليفة المكتفي في عام ٢٩٥ هـ - ٩٠٧ م كان الوزير أبو أحمد العباس بن الحسن راكباً من داره يوماً ومعه ، كما جرت العادة ، أحد الكُتّاب الأربعة الذين يتوَلَّون الدواوين ؛ فشاورة فيمن يُرَشِّع للخلافة بعد المكتفي ، وكان الوزير يميل إلى ابن المعتز ، فأجابه الكاتب ، وهو أبو الحسن علي بن محمد بن القرات الذي صار وزيراً فيما بعد ، أنه يجب ألا يوتى في هذا الأمر من عرف دار هذا ونعمة هذا وبستان هذا ، ومن لقي الناس ولقوه ، وعرف الأمور وحسن كنه التجارب ؛ فقال الوزير : صدقت والله يا أبا الحسن ، فمن نَقَلْ؟ فأشار ابن القرات بتقليد جعفر بن المعتضد (الخليفة المقتدر) ، « فإنه صبي لا يدري أين هو ، وعامة سروره أن يُصَرَّف من المكتب » ، فالت نفس الوزير إلى ذلك وعمل على تقليد المقتدر ، وكان صبياً في الثالثة عشرة ^(١) .

ونظراً لأن المقتدر كان صغيراً ، فقد كان انتخابه للخلافة انتخاباً غير شرعي ، واقد ذبح أحد القضاة ، لأنه أطاع ضميره حين قالوا له : تباع المقتدر ، فقال : هو صبي ، ولا تجوز المبايعة له ^(٢) .

ولكن الجماعة المتأسرين أخطأوا التقدير ، فإن أم المقتدر ، وهي أم ولد رومية ،

(١) كتاب العيون ص ٥٩ ب ، وكتاب الوزراء ص ١١٤ - ١١٦ .

(٢) صلة تاريخ الطبري لعريب بن سعيد القرطبي ، طبعة دي غوى ، ليدن .

تجسست على زمام الأمر هي وأولياؤها بيد القوة والحزم ؛ فكانت تولى وتفرل ،
وحالت بين القوم وبين انتهاب ما في بيت المال . وما يدل على قوة عزيمتها
وبعد نظرها طريقتها في العناية بمراقبة ما كان يقرؤه أبناؤها : يحدثنا الصولي أنه
كان يوماً عند الراضى ، يقرأ عليه شيئاً من شعر بشار ، وبين يدي الراضى كتب
لغة وكتب أخبار ، إذ جاء الخدم من خدم السيدة جدته ، وهى شغب أم المقتدر ،
فأخذوا جميع ما بين أيديهما من الكتب ، فجعلوه في منديل أبيض كان معهم
ومضوا ؛ فوجم الراضى واغتاض ، فسكن منه استأذنه ، وأمنه أنهم أرادوا أن
يمتنعوا الكتب ، ولما مضت ساعتان أو نحو ذلك ردوا الكتب بحالها ، فقال لم
الراضى : قولوا لمن أسركم بهذا : قد رأيت هذه الكتب ، وإنما هي حديث وفقه
وشعر ولغة وأخبار وكتب العلماء ، ومن كتبه الله بالنظر في مثاها ، وينفع بها ،
ولست من كتبكم التى تبالنون فيها مثل مجائب البحر وحديث سندباد والسنور
والقار ؛ فخاف الصولى أن يؤذى الخدم قوله ، فيقال : من كانت عنده ؟
فيذكرونه ، ويلحقه من ذلك مكروه ؛ فقام إلى الخدم ، فألمهم ألا يمدوا قوله ،
فقالوا : والله ما نحفظه ، فكيف نميده ^(١) ؟ وقد لبث المقتدر على عرش الخلافة
زهاء خمسة وعشرين عاماً ، تحت جناحى أمه ، وقد خلع فى أثناء هذه المدة
سنتين ، فكان يشور عليه بعض قواده ويزيلونه عن سريره ملسه يوماً أو يومين ،
ثم يعود إليه ؛ ولم يخرج فى جيش ليقاتل إلا مرة واحدة ، وقد قتل فيها ؛ وذلك
أن قواده طلبوا منه أن يخرج معهم لمحاربة مؤنس ، فأبى ؛ وما زالوا به حتى
خرج كارهاً ؛ وقد جهدت به أمه ألا يخرج ، وكشفت عن نديبها ، وبكت ،
ولسكن شغب الغضاء ، فخرج وعليه البرية البرية التى تسمى الخلفاء ؛

(١) كتاب الأوراق للصولى ، مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس رقم ٤٨٣٦

ورافى أصحاب مؤنس ، فضربه رجل منهم من خلفه ضربة سقط منها إلى الأرض ، فأضربه ، وذبحه بالسيف ؛ وسلبت ثيابه والبردة فيها حتى سراويله ؛ وترك مكشوف النورة إلى أن صر به رجل من الأكرّة ، فسرق عورته بحشيش ، وكان المقنذر رجع القامة ، إلى القصر أقرب ، دُرّى اللون ، صغير العينين ، أحور ، حسن الوجه ، واللحية أمهمهما^(١) ؛ وكل ما يحكى عنه يدل على الهدوء وحب الخير وسلامة الصدر : كان الوزير أبو الحسن على بن عيسى يُطلق في كل شهر في جملة نفقات المطبخ ثمن المسك نحو ثلاثمائة دينار ؛ وكان يوماً عند الخليفة فدار بينهما الحديث ، وعلم الوزير من سياق الكلام أن الخليفة لا يأكل طعاماً فيه مسك ، ولا يُطرح له من المسك إلا اليسير في الخشكناج ؛ ثم نهض الوزير ومشى للخروج ، فأمر المقنذر بالله برده ، وقال له : أظنك تنصرف الساعة ، وتفتح نظرك باحتضار المتولى للمطبخ وموافقته على ما جرى بيننا في أمر المسك ، وتُسقطه ، فقال : كذلك هو يا أمير المؤمنين ! فضحك الخليفة وقال : أحب ألا تفعل ذلك ، فليل هذه الدنانير تنصرف في أفوات ونفقات قوم ، ولا أريد قطعة عنهم^(٢) ؛ وكان المقنذر كثير الشراب^(٣) .

- ثم انتخب أخوه القاهر خليفة بعده ؛ وكان القوم قد اتفقوا بحكم المقنذر ، فغضبوا القاهر ، وقالوا : هو كهل ، ولا أم له ، نرجو أن تستقيم أمورنا معه^(٤) . وكان القاهر أيضاً مربوعاً ، حسن الجسم ، أبيض ، تلوّه حرة ، أمين ، وافر

(١) التوبة والإشراف السمرقندي ملحة دي غوري سنة ١٨٩١ ، ص ٣٧٦ - ٣٧٧ ، ومكسويه ج ٥ ص ٣٧٩ ؛ وعريب ص ١٧٦ والمنهاضات التالية ؛ وكتاب الجيوش ص ١١٣٠ .

(٢) كتاب الوزراء ص ٣٥٢ - ٣٥٣ .

(٣) تاريخ الإسلام قاضي ؛ انظر الدمة الإنجارية التي كتبها أندروز لكتاب

وزراء التقدم ، ص ١١ .

الاحية ، الثلج^(١) . وفي سنة ٨٣١٧ - ٩٢٩ م قامت ثورة قُصد منها خلعُ القنذر وتنصيب أخيه القاهر مكانه فأُخذت ، وحُل القاهر إلى أخيه فاستدبناه ، وجعل يَهْدِي من روعه ، ويلتمس له العذر ، وَيَبْرُئُهُ من إثم المؤامرة ، وهو يقول : نفسى نفسى ، الله الله يا أمير المؤمنين ! يرجو أخاه أن يَبْقَى على حياته^(٢) . وكان القاهر أهوج ، شديد الإقدام على سفك الدماء ، محبا للمال ، قبيح السياسة ، قليل الرقة في اصطناع الرجال ، غير مفكر في عواقب الأمور ؛ وكان مولماً بالشراب ، لا يكاد يصحو من السكر ، وكان يسمع الفناء ، ومع ذلك - رَم على الناس الحجر والقيان^(٣) ، ولكنه وَفَّق إلى القضاء على مؤنس القائد رغم ما كان لمؤنس هذا من سلطان عظيم^(٤) ؛ كما أنه وفر كثيراً من المال ؛ ولما طُأب منه أن يشهد على نفسه بالظلم أبى أن يُحِلَّ الطالبين من ييمته ، فخلع وسُملت عيناه ، ولم يُتَمَلَّ قبله أحد من الخلفاء وملوك الإسلام^(٥) . وسُمِل الأعين هذا عادة أخذها المسلمون من البوزنطيين ، ثم عاش القاهر بعد خلعه سبعة عشر عاماً في دار الخلافة ؛ حتى نقله المستكفي منها ، وكان قد بلغ به الضر والفقر إلى أن كان مُائِئاً بطن جُبَّة ، وفي رجله قيقاب خشب^(٦) . وقد خرج في يوم جمعة إلى جامع المنصور وغطى وجهه ، ووقف فترَف الناس نفسه وسألهم أن يتصدقوا عليه ، فقام إليه أحد الهاشميين فأعطاه ألف درهم وردّه إلى داره .

ولما عُيِّنَ الراضى (٣٢٢ - ٨٣٢٩ = ٩٢٣ - ٩٤٠ م) ابن أخى

(١) التنبية للمسعودى ص ٣٨٨ ؛ وكتاب المبون ص ١٤٢ ب .

(٢) كتاب المبون ص ١٢٤ ب .

(٣) مكذوبه ، ج ٥ ص ٢٤ ؛ التنبية ص ٣٨٨ ؛ مرئب ١٨٥ .

(٤) مكذوبه ، ج ١ ص ١١٩ (٢) .

(٥) التنبية ص ٣٨٨ .

(٦) ابن الأثير ج ١ ص ٢٢١ - ٢٢٢ .

القاهر خائفة كان له من العمر خمسة وعشرون سنة . وكان أسمر ، أعين ، دون
الأقنى ، مسنون الوجه ، خفيف المارضين والهمة ، دحداحاً نحيفاً^(١) . وكان
محبا للشعر والإنشاد ، ومن أحسن الناس علماً بالشعر وقدأ له ، كما ينقده العلماء ؛
وكان من أطيع ملوك بني العباس في الشعر ومن أكثرهم قولاً له ؛ وقد ترك أنا
من ذلك ديواناً مكتوباً . وكان مواعداً يجمع البلور حتى يقول المصولي : وما رأيت
البلور عند ملك أكثر منه عند الراضى ، ولا عمل مثلك منه ما عمل ، ولا بذل في
أنماه ما بذل ، حتى اجتمع له من آتائه ما لم يجتمع لملك قط^(٢) . وقد أروع بهدم
القصور في دار الخلافة وبناء غيرها أو تصييرها بساتين^(٣) . وكان الراضى سمحاً ،
عظيم العطاء ، واسع النفس ، ينفق ما وجد ؛ ويحكى أنه دخل عليه جماعة من
الجلساء ، وهو يهدم شيئاً ويبني شيئاً ، وكان جالساً على آجرة حيال الصنّاع ،
فأسرهم بالجلوس في حضرته ، فأخذ كل واحد منهم آجرة فجلس عليها ؛ فلما قاموا
أمر أن توزن آجرة كل واحد منهم ويدفع إليه وزنها دراهم أو دنانير^(٤) .
وكان ابن الأنباري يتردد إلى أولاد الراضى ؛ ويحكى عنه أنه مضى يوماً إلى
سوق النخاسين ، وجارية تُعرض حسنة كالأله الوصف ، ف وقعت في قلبه ؛ ثم
مضى إلى دار أمير المؤمنين الراضى ، فقال له : أين كنت فعرّفته ، فأمره بشراء
الجارية له ، وحملها إلى منزله ؛ فلما جاء إليه وجدها هناك^(٥) . ولم يجد أصحاب
الراضى فيه من العيب إلا أنه كان يؤثر لذته وشهوته على رأيه ، وأنه كان ، رغم
مرضه ، لا يحتجى ، وكان إذا وصف له أطباؤه شيئاً لا يستعمله ، وإذا أكل

(١) كتاب الميوسن ص ١٨٤ ب ، والتفصيل السعدي ص ٣٨٨ .

(٢) الأوراق المصولي ص ٢٧ . (٣) المنتظم ص ١٥١ .

(٤) نفس المصدر ص ١٥١ - ص ١٥٢ فلاح عن المصولي .

(٥) المنتظم ص ٦٥ ب .

الشيء الضار لم يُدْلِهِمْ^(١) ؛ ومات وهو في الثانية والثلاثين من العمر^(٢) . وفي آخر عُلته أخذ في قضاء ديونه ، وتقدم بميل المُفْتَسَل والتأبوت ، واختار لنفسه ثياباً لكفنه ، وعزله في سبط ، وكتب رقعة فيها : هذه جهاز الآخرة^(٣) . ولكن هذه لم يَسَلِّمْ من سفك الدماء ؛ فقد احتال على الوزير ابن مقله بعد تركه الوزارة ، حتى قبض عليه وسجنه . وقبض على جماعة من أهله وأقربيه ممن سعى في تقليد الأمر لنفسه وبايعه الناس عليه ، فمنهم من قتل ، ومنهم من ضربه وسجنه ، فمات في سجنه ، ومنهم من استمر طول مدته^(٤) .

ثم ارتقى عرش الخلافة بعده أخوه المُتَّقِي ، وهو في السادسة والعشرين من العمر ؛ وكان رُبَّةً دُرِّيَّ اللون ، حسن الوجه ، أبيض ، أشمل ، مستدير الصديق ، مقرون الحاجبين ، قصير الأنف ، في شعره شُقْرَةٌ وجُمُودَةٌ^(٥) . ولم يشرب النبيذ قط ، وكان يتمبّد ويصوم ، ولم يتخذ جلساء له ، وكان يقول : المصحف نديمي ولا أريد جليلاً غيره^(٦) ؛ ولكنه كان رجلاً لم يفارقه اليأس ، فلم يزل فيه إلى أن مات ؛ فن ذلك أنه لما أريد أن يُمَدَّرَ له ، وهو صغير ، عُمل له كل شيء حسن ؛ فكان فيما أُعِدَّ له عشرُ وصائف المِذْبَات وكِيزان الماء ،

(١) الأوراق المصولة من ٥٥ ، وكتاب الميون من ١٨٢ ب ، نقل من ذُكاه ، مولى الراضى ، وذلك من طريق الفرغاني الذي كان ذُكاه يحكى له بعض الحكايات . انظر مثلاً من ١٢١٥ - ٢١٥ ب .

(٢) كتاب الميون من ١٨٤ .

(٣) نفس المصدر من ١٨٣ .

(٤) نفس المصدر ١٦١ ب ، ١٨٤ ب - ١٨٥ ، وكتاب الأوراق

من ١٤٨ - ١٤٩ .

(٥) كتاب الميون من ١٢٢١ ، وكتاب التنبيه من ٢٩٧ ، والمنظوم من ٦٦ ب .

وأمر بأن ينظّمون ويترتبون ، فأدخلوا قبل أن يُفدّر له بليلة الحثام ، فقط عليهم ، فما أفلتت منهم واحدة ، فكان مويخن وأوانك يذفن ؛ ويقال إنه بعد نشأ ما جعل برسمه خادم لحضاته إلامات ، فكان الخدم إذا عرضت خدمته عليهم استعفوا ؛ وقد ركب مع ابن رائق يوماً في رحبة الجسر ، فاجتمع الناس يدعون له وازدحموا للنظر إليه ، فانقطع الكرسي وسقطوا إلى دجلة ، وهي زائدة ، فهلك في ذلك اليوم عالم عظيم من الأولياء والنساء والصبيان ^(١) . وظل البؤس حليفاً له بعد ارتقائه العرش ، فهو أول خليفة ترك « مدينة السلام » خوفاً وطلباً للنجاة ، ولحق بالحدانيين ، وظل ينتقل معهم في الجزيرة ، وهم يزعمون سرّة بعد أخرى ؛ وقد أشار عليه الإخشيد محمد بن طنج ، بعد أن كتب إليه يستقدمه ، بأن يسير معه إلى مصر والشام ، ويكون بين يديه ، فلم يفعل ^(٢) . وقد اطمأن إلى موافق القائد التركي توزون ، وأمين جانبه بعد أن استوثق منه سرّة بعد أخرى ؛ ولكن توزون غدر به لأجل ستائة ألف دينار أخذها من أحد طالبي عرش الخلافة ، قبض عليه وخلعه ، وأسر بإحضار الجارية الشيرازية حسن ، فوالت بماله بيد غلامها السندی وعاش النقي بعد خامه أربعاً وعشرين سنة ، ومات بداره ^(٣) .

ثم خانته المستكفي بعد أن تأسر عليه مع توزون ، وسفرت بينهما حسن الجارية الشيرازية ، فارتقى المستكفي عرش الخلافة بمار هذه المؤامرة ؛ وكانت أمّه ولدرومية تسمى غُسن ^(٤) ؛ وكان أبيض اللون ، صغير القم ، حسن الوجه

(١) كتاب العيون ص ١٢٢٢ — ب .

(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ٣٠٣ — ٣٠٤ ، ٣١٢ — ٣١٣ .

(٣) كتاب العيون ص ٢٢٠ ب ، ويحيى بن سعيد ص ٨٥ ب — ١٨٦ .

(٤) كتاب العيون ص ٢٢٣ ب ، وكتاب التنبيه ص ٣٩٨ .

والجسم ، بدينكا ، أعين ، طويل الأنف ، وافر البحية ، رُبْعَة ، إلى الطول أقرب ،
وقد وخطه الشيب ^(١) ؛ ونادراً ما كانت تقرّ عينه بمتنصبه ، وهو بين امرأة جشعة
رففته بدسائسها إلى منصب الخلافة ، وبين الترك الذين أصبحوا سادة بغداد .
وأخيراً جاء بنو بُويّنه ، فكان أول ما طلبه أحمد بن بويه من المستكفي أن
يستكتب ابن شيرزاد ؛ وكان المستكفي قد حلف ألا يتصرف ابن شيرزاد في أيامه
ودولته ؛ ولما ألح عليه ابن بويه أجابه إلى ما طلب على كُرّه منه ؛ قال ذكاه
مولى الراعي : وكنت حاضراً ، فأجابه المستكفي على كُرّه منه ، ورأيت عينيه
وقد ترعرعنا بالدموع ، اعظم ما ورد عليه من سؤال ابن بويه ^(٢) . ولما جاءوا
إليه ليخلموه رضى أن يخلع نفسه ؛ ولكنه شرط عليهم أن يقطعوا شيئاً من
أعضائه ^(٣) . غير أن المطيع أخا المتقي هو الذي خلف اليمسكفي ، فأمر أن يُسَلَّ
انتقاماً لأخيه ؛ وطلب من يسئله ، فلم يُقدِّم على ذلك أحد إلا خادمٌ صقلي
كان للمستكفي قد استخدمه ، ثم وجد عليه في بعض أوقاته فضربه مائتي سوط
وحبسه ؛ فكان هذا الخادم حقيقاً عليه ، فقال للمطيع : أنا أكله ، وقام
بهذه المهمة ^(٤) .

أما الخلفاء الآخرون فلم يكن لهم عمل بالفعل في إدارة الدولة ، فطال لذلك
حكمهم ؛ فأما المطيع فإنه خلع نفسه غير مُستَكْرِه ، وترك ولاية الخلافة لابنه
الطائع ؛ وذلك أن المطيع كان قد ناله فالج قديماً ، وكان يستتره ؛ فقام وتمذّرت
عليه الحركة . وثقل لسانه ، فترك ولاية الخلافة لابنه ^(٥) : ثم خلع الطائع بعد

(١) كتاب العيون ص ٢٣٩ ب ، والتبعية السمودي ص ٣٩٩ .

(٢) كتاب العيون ص ٢٣٢ ب .

(٣) نفس المصدر ص ٢٣٨ ب .

(٤) نفس المصدر ص ١٢٣٩ ب .

(٥) المعجم ص ١١٠٠ .

ثمان عشرة سنة من حكمه ، وتُبِضَ عليه . واعتُقلَ سيد الخليفة القادر مُكرَّمًا ، حتى مات بعد اثنتي عشرة سنة^(١) ؛ ولا نعرف كثيرًا من هؤلاء الخلفاء ؛ فأما المطيع فكانت أم ولد صقلبية ، وكانت أدهر منه ؛ وتعرف بالصقارة ، لأنها كانت تأخذ من ورق الموسى وذيرة الشجر السير ، وتجعله في فمها ، وتصفر به صغيرًا لم يسع بمثله ، تحكي به كل طائر أو غيره^(٢) .

وأما الطائع فكانت عليه ملامحُ الجنس الشمالى ؛ فقد كان أبيض أشقر ، حسن الجسم شديد القوة ؛ ويحكى أنه كان في دار الخلافة أَيْلٌ عظيم يقتل بقرنه الدواب ، ولا يتمكن أحد من مقاومته ؛ فاحتال الطائع حتى أمسك قرنيه بيديه ، فلم يقدر أن يخلصهما منه ؛ واستدعى النجار ، فركب المنشار عليهما ، ولما بقيا على يسير قطعهما بيديه^(٣) .

وكان القادر من أهل السر والديانة وإدامة النهج بالليل وكثرة البر والصدقات ؛ وكان يأخذ ثلثي الطعام الذي يُهيأ لإفطاره ويقسمه بين جامعين كبيرين^(٤) . وكان يخضب لحيته الطويلة الكثة ، ويلبس زى العوام ، ويقصد الأماكن المعروفة بالبركة مثل قبر معروف الكرخي ، وتربة ابن بشار ؛ وكان يتخفى ويغير زيه ، ويخرج ليتعرف أحوال رعيته ؛ وكان صحيح الاعتقاد ، ويحكى أنه صنف كتابًا في الأصول على مذهب أصحاب الحديث ؛ وكان هذا الكتاب يُقرأ كل جمعة في حلقة أصحاب الحديث بجامع المهدي ، ويحضر الناسُ سماعه^(٥) .

(١) نفس المصدر من ١١٣٠ — ب ، ١١٤٩ .

(٢) كتاب العيون من ١٢٤١ .

(٣) كتاب التتبع من ١١٠٦ .

(٤) نفس المصدر من ١٣٢ ب .

(٥) نفس المصدر من ١١٣٢ ، وطلائع السبكي ، ملحة القاهرة ، ج ٣ ص ٢ .

هذه صورة لبعض خلفاء بنى العباس أيام إديار دولتهم ؛ وهى تخالف صورة خلفاء الفاطميين الذين أخذ نجمهم إذ ذاك فى الارتفاع . يدعى الفاطميون أن الإمامة أو الأفضلية صفة خاصة تنتقل من الوالد إلى الولد ، فكفاهم ذلك من أول الأمر مؤونة التنازع على عرش الخلافة ؛ ويضاف إلى هذا هدوء السياسة الحازمة وطمانيتها فى عهدهم ؛ فمن أمثلة ذلك أن والى الشام كتب مرة إلى المعز لدين الله (٣٤١ - ٣٦٥ = ٩٥٢ - ٩٧٥ م) مباشرة وتخطى من دونه ، فنع الخليفة من ذلك ، وأعاد الكتاب إلى والى من غير أن تفض أحياه . وكان المعز (٣٦٥ - ٣٨٦ = ٩٧٥ - ٩٩٦ م) أعظم هؤلاء الخلفاء ؛ وكان أسمر ، طويل ، أصهب الشعر أزرق العينين كبيرهما ، عريض الفكبين ، عارفاً بالخليل والجوهر^(١) ، وكان صتياداً جريئاً ماهراً ؛ وقد ضرب أول مثل لفروسية العربية بما تنطوى عليه من العفو وكبر القلب ، وهى التى أقرت فيما بعد تأثيراً كبيراً فى الغرب ؛ فقد حدث أن أحد القواد الأتراك خرج على طاعة جوهر عام ٣٦٥ - ٩٧٥ م وهزم جوهرأ ؛ فالتجأ هذا إلى عسقلان ، فأدركه الترك وحاصره مدة طويلة حتى طلب الصلح ؛ فأجاب ، وعاق الترك سيفاً مجرداً على باب حصن عسقلان ، وخرج جوهر وأصحابه من تحت السيف ، ثم دخلوا إلى مصر ، فلم يرخص المعز بالصلح ، وسار بنفسه لمحاربة التركى ؛ فهزمه وأسر ، واستنقذه من بين يدي أمره ، بعد أن كاد يموت ضرباً ولسكاً ؛ وأمنه على نفسه ، ودفع إليه خاتمه ؛ واستبقى التركى ماء ، فأمر المعز بإحضار قدح شراب بآلاب ، فلما أتى بالقدح توقف التركى على الشرب خوفاً من أن يكون فى القدح سم فأتاه ؛ وتبين المعز ذلك ، فأخذ القدح ونسب

(١) ان الأمير ج ٩ من ٨١ .

منه ، ثم أعطاه ليشرب ؛ وأفرد له خيمة ، وتقدم بأن يُحمل إليه جميع ما يحتاج إليه ، وحمله على دوابه ، وأمره بالركوب على مركبه ؛ وسأله عن أناس ممن يأنس بهم ، فأنس إضرار قوم من أصحابه ، فأنى إليه بهم من بين الأسارى ، ولما رجع العزيز إلى مصر تقدم إلى وجوه دولته وقواده وأمرائه بإكرام للتركي وإجلاله^(١) .

وأخيراً جاء الحاكم بأمر الله ، وهو الشخصية النادرة المتناقضة ؛ كان الحاكم رجلاً غريباً في أطواره ؛ فن ذلك أنه أقام سنين يجلس في الشمع ليلاً ونهاراً ، ثم من له أن يجلس في الظلمة ، فجلس فيها مدة^(٢) . وكان أحياناً يواصل الركوب ليلاً ونهاراً من غير فتور ولا سكون ؛ وكان يركب في نفر من خاصته ليلاً ، فتقدم أصحاب الأعمال بمصر إلى التجار أن يوقدوا القناديل على حوانيتهم ودورهم ، وأنذ يبنوا بالليل ، فصارت الشوارع والأسواق في الليل بمنزلة النهار في العمارة^(٣) . وتقدم بقتل سائر ما في مصر من الكلاب إلا كلاب الصيد ، لأنها كانت تنبح بالليل إذا عبر الشوارع^(٤) ، ولما اعتل وضعف عن الركوب اتخذت له محفة يجلس فيها ويستلقي عليها ، ويحملها أربعة من رجاله ، ثم يدور الليل والنهار^(٥) ؛ وفي مثل هذه الأحوال كان يأخذ الرقاع والمظالم بشرط ألا يكتب فيها إلا سطر واحد على وجه واحد ، ويأمر صاحب الرقعة أن يأتي له من على يمينه ، وكانت يأمرهم أن يسكنوا بيمينه لهم في اليوم التالي ، وكان يضع توبيعاته وعطاياه في كفه ، ويسطيها لهم بدأ بيد . وكان الحاكم ينفق ما استطاع ، ويجزل العطاء .

(١) يحيى بن سعيد من ١١٠٤ - ب .

(٢) ابن أبي ردى ، طبعة كلغورنيا من ٦٧ - ٦٣ .

(٣) يحيى بن سعيد من ١١١٥ .

(٤) نفس المصدر من ١١١٦ .

(٥) نفس المصدر من ١١٢٢ - ب .

لرحمته ، « وأظهر من العدل ما لم يُسمع بمثله ، ولعمري إن أهل مملكته لا يزالون في أيامه آمنين على أموالهم غير مطعونين على نفوسهم ، ولم تمتد يده قط إلى أخذ مال أحد ، بل كان له جود عظيم وعطايا جزيلة »^(١) . أما رؤساء دولته فلم يكن أحد منهم آمناً على نفسه ؛ فكان يفاحي أغصان أحماسه ، ويثب عليه وثوب الجنون ؛ فن أسئلة ذلك أنه قَرَّب عَيْنًا انذارم الأسود ، ثم قَمَّ عليه ، فقطع يده اليمنى ؛ ثم اختص به بعد ذلك أعظم اختصاص ، ولقبه « قائد القواد ، وأستاذ الأستاذين » ، وكتباه وقدمه على سائر أهل دولته ، وكثر ميله إليه وشغفه به ، وبعد مدة تنكر له ، وقطع لسانه ؛ ثم أعقب ذلك بازدياد في عطاياه بالإععام عليه^(٢) . وسنتكلم في غير هذا المقام عن مثل هذا التصرف الذي لا ضابط له فيما يتعلق بمعاملته لليهود والنصارى ، وعن زهده ورفيقته في الورع ؛ ذلك أنه في آخر الأمر ربي شمره حتى طال على اكتافه ، وامتنع من تقصيصه ، ومن تقليم أظفاره ، وغير الثياب الصوف البيضاء بملابس سوداء ، واستبدل بالملمة الزرقاء حمالة سوداء ، وصار يلبس الكسوة الواحدة المدة الطويلة إلى أن تنلبد بما ينالها ويتداولها من العرق الدائم ، ويملوها من الغبار المتصل ؛ وواصل تدوير الصحرارى والفيافي ؛ وقصد جبل المقطم حيث كان ينفرد بنفسه ؛ لذلك نجد العالم المسيحي يحيى بن سعيد ، يقول إن حاله صارت غير بعيدة من حال مختصر ملك بابل الذي صارت البرارى مأوى له كالوحوش ؛ وزادت أظافيره ، فأشبهت مخالب العقاب ، وطال شعره كالأسد جزعاً على إبادته هيكل الرب الأورشليمي ؛ ولذلك أصاب يحيى حين شخص مرض الحاكم بأنه صنف من سوء المزاج اليابس المُتَرِض في دماغه أحدث له ضرباً من ضروب الما ليخويا وفساد الفكر ، فاحتاج في مداوانه منه إلى جلوسه في دهن البنفسج وترطيبه به^(٣) .

(١) نفس المصدر ص ١١٦٣ . (٢) نفس المصدر ص ١١٢٤ .

(٣) يحيى بن سعيد ص ١٢٧ ب — ١١٢٨ .

الفصل الثالث

الأمراء

هذا الاسم كان يُسمَّى ولاية البلاد — وكذلك أبناء بيت الخلافة — إلّا كافوراً بمصر، فإنه امتنع من التسمي بالإمارة، ورأى تواضعاً أن يجري على رسمه في الخطابة بالاستاذية^(١). أما لقب «أمير الأمراء» في بلاط الخلافة فلا شأن له في الأصل بولاية الحكم؛ فهو لا يعدوا أن يكون لقباً لأكبر رجل بيده الأمر، كما أن «وزير الوزراء» لقب لأكبر الوزراء؛ وقد كان مؤنس القائد صاحب الجيش يحمل لقب أمير الأمراء، وإن لم يكن يشعر في نفسه بأنه يلي حكم ولاية ما.

ولم يكن للأمراء للملكة الإسلامية علامة تميزهم من الجهة الرسمية؛ فكان يُدعى لهم في كل جهة مع الدعاء لحاكمها، وذلك بعد الدعاء للخليفة. أما في العراق فقط حيث كان أمير المؤمنين هو الذي يدير أمورهما بنفسه من غير والٍ فكان لا يُذكر أحدٌ مع الخليفة في الخطبة، لأن ذلك كان يُشعر بشيء من الانتقاص لمنصب الخليفة، وقد حدث أن أسندت الحجة ورئاسة الجيش لمحمد بن ياقوت في عام ٨٣٣ هـ — ٩٣٤ م فأدخل يده في تدبير كل شيء، ونظر فيما ينظر فيه

(١) يحيى بن سعيد ص ١٩٥. كان لقب الأستاذ في المشرق لقباً للوزراء؛ فكان ابن العميد يلقب بذلك (مكتوبة ج ٦ ص ٢١٩ — ٢٢٠)، وكان يلقب به غير ابن العميد (ابن تيمزج بردي طيبة كتاب توريثها ص ٣٤)، واليوم يطلق هذا الاسم في القاهرة على الموفى. [ولسكن التواريخ أن لقب الأستاذ اليوم يطلق على المدرس بوجه عام وعلى الموفق أيضاً، وإن كان العلامة لا يرلون يستعملونه فيما يتعلق بالشيخ المبرور بردي المصالح (١). (المترجم)]

الوزير ، وطالب أصحاب الدواوين بحضور مجلسه ، وألا يقبلوا توتيعاً في سائر الأحوال إلا بعد أن يوقع فيه بخطه ، واضطر الوزير إلى أن يحضر مجلسه ، وصار كالتعطل ملازماً لمنزله لا يعمل شيئاً^(١) ؛ ولكن لما دعا الأئمة له في الجانب الشرق والغرب ببغداد ، بعد دعائهم للخليفة الراضى ، وقرّظوه أنكر الراضى ذلك ، وأمر أن يقلد مكان الأئمة جميعاً أئمة من بني العباس^(٢) . غير أن الراضى اضطر في العام التالي أن يرضى بذكر ابن رائق بعده في الخطبة ، ومعنى هذا أنه اعترف بأمره دونه في العراق^(٣) .

وكان بنو حمدان ، من بين سائر أسراء البلاد أسوأ من يمثل خصال البدو . ومن أمثلة طباعهم البدوية أنه لما التقى على بن عبد الله بن حمدان مع التقي وابن رائق في الموصل نزل التقي دار ابن فهد الموصل ، ونزل ابن رائق في دار بالقرب منه ؛ أما على بن حمدان ، فإنه نزل بدير الأعلى في خيمة أقامها . وكان على هذه قد أنس بابن رائق ، وكان يدعوهم للشراب ، فكان إذا عمل الشراب فيه وصف نفسه بالشهامة والرجولة وازدري بنو حمدان وقال لعل : وأبى شيء تسرون أنتم ،

(١) مكيه ج ٥ ص ٤٧٣ — ٤٧٤ .

(٢) الأوراق لصولي ص ٨٣ .

(٣) كان لقب السلطان لا يطلق في ذلك الوقت إلا على الخليفة ، وكان يقال دار السلطان ببغداد أى دار الخليفة ؛ أما ما يقوله ابن خلدون (كتاب البرجينة بولاق ج ٣ ص ٤٢٠) من أن منزلة الدولة ملك ببغداد واختص باسم السلطان فهو غير صحيح . ويقول أبو المحاسن المؤلف المصري التأخر (النجوم الزاهرة ، لندن ج ٢ ص ٢٥٢) إن فرعون لقب ملك مصر قديماً والسلطان لقبهم حديثاً ، وكذلك يرى الظاهري (من علماء القرن التاسع الهجري) أن الحاكم الوحيد القوي يسمى السلطان بحق هو حاكم مصر . وهذا يتفق مع ما جرى عليه الأوروبيون في الصور الوسطى من استعمال كلمة سلطان دائماً فيها ينطلق بمصر . ويظهر أن الحكام المتأخرين ببغداد لم تكن لهم اليدوية بيد الخليفة في الصلاة ، حتى أكرم عند الدولة بهذا الشرف عام ٣٦٨ هـ — ٩٧٩ م ، وهو ما اختص به دون من مضى من الملوك على قديم الأيام وحديثها (مكيه ج ٦ ص ٤٩٩ — ٥٠٠) .

وأى يوم كان ليكم، وهل أنتم إلا أعراب (١)؟ وستحكم في غير هذا المقام عن
 - سيرة الحدانيين في الحكم ونهزم أموال الرعية وأملأكم ، وجورم على
 للزراع وعداوتهم للمارة والأشجار ، وتخريبهم ، ونهزم الدائم لليهود التي
 يقطعونها ؛ ومن أمثلة غدرهم أن الحسين بن حمدان ، وهو رأس أسرهم ، قتل
 العباس بن الحسن الوزير في عام ٢٩٦ هـ - ٩٠٨ م ، وهو راكب يوما إلى
 بستانه ؛ وذلك أنه أعرضه وعلاه بالسيف ، فقتله (٢) ؛ وكذلك فعل ناصر الدولة
 أبو محمد بن حمدان بآبن رائق ، فقتله وهو ضيف عنده في خيمته قتل غدر
 وخيانة (٣) . وكان النزاع وعدم رعاية حقوق الطاعة سائدين في بيت بني حمدان ،
 ولا سيما في فرعهم بالجزيرة (٤) . وكذلك كان الحال في فرعهم بالشام حيث قتل
 أبو المعالي بن سيف الدولة بن حمدان خاله أبا فراس ؛ فقد لحقه وقتله رغم
 استئمانه ، ثم أخذ رأسه وترك جثته في البرية (٥) . ولم يظهر أحد من الحدانيين
 بشيء من الفروسية والأعمال العظيمة إلا سيف الدولة . على أننا نلاحظ أنه كان
 في حربه مع الروم يقع دائما في نفس الفخ ، ولذلك يقول أبو الفدا : « وكان
 سيف الدولة مُعْجَبًا بنفسه ، يحب أن يستبد ، ولا يشاور أحدا ، لئلا يُقال إنه
 أصاب برأى غيره » (٦) . وكثيرا ما صلب القائدان التركمان ، توزون وبجكم ، على
 رأسه المزانم .

(١) كتاب العيون ص ١٩٣ ب - ١٩٤ .

(٢) نفس المصدر ص ١٦١ - ب .

(٣) مسكويه ج ٦ ص ٦٠ - ٦١ وكتاب العيون ص ١٩٨ - ب .

(٤) انظر مثلا مسكويه ج ٦ ص ٢٢٤ لثرى ما كان يقع بين ناصر الدولة وبين أولاده .

(٥) ابن الأثير ج ٨ ص ٤٣٤ ، وانظر ما حكاه ابن خلكان نقلا عن ثابت بن سنان

(الوفيات طبع ١٢٩٦ هـ ، ج ١ ص ١٠٩) وانظر ، Dvorak : Abū Firās, Leiden, 1895, S. 114 ff.

(٦) تاريخ أبي الفدا ج ٢ ص ٤٦٨ تحت عام ٤٤٩ هـ .

وكذلك يرجع أصل البريديين إلى الدولة الإسلامية الأولى ، فقد كانوا
 حكاماً لمراق زماناً طويلاً ، وكانوا في أول أمرهم كتاباً أصحاب دراريح^(١)
 أكثر مما كانوا قواداً . ومع هذا فقد خاضوا غمار كثير من الواقع وقاتلوا قتال
 البراسل ؛ ولكنهم من قصر النظر والجشع لم ينزلوا إلى حدان عن شيء . وقد
 بدأ عهد الفساد الحقيقي ببغداد عام ٣٣٠ هـ - ٩٤١ م ، وهو العام الذي فتح فيه
 البريديُّ بغداد وفرت فيه الخليفة إلى الموصل ؛ وذلك أن البريدي ظلم الناس ظلمة
 المروء ، وافتتح الخراج في آزار وخبط أصحاب الأراضي وخبط أهل الدمة
 ووظف على كل كرم من الحنطة سبعين درهماً ، وأخذ جزءاً من مال التجار
 غصباً^(٢) . وفرت آخر البريديين إلى القرامطة في جنوب جزيرة العرب ، ولكنه
 بعد ذلك كتب إلى معز الدولة يلتئم الأمان ليصير إلى حضرته ، فأعطاه من
 من التوثقة ما أحب ، فوافاه وقبل الأرض بين يديه ؛ وأكرمه معز الدولة ،
 وأعطاه الضياع ، ورسمه بمنادته^(٣) .

ولو أننا قارنا بين هؤلاء الأمراء الذين يقترن حكمهم بالنهب وبين القواد
 الذين جاءوا من الشمال وأقاموا ملكهم في داخل بلاد الإسلام ، لوجدنا أن هؤلاء
 الأخيرين أحسن سيرة في الحكم وأشبه بآباء لهميتهم . ومنهم السامانيون الذين
 أرادوا أن ينشئوا بينهم وبين الفرس نسباً ، وأن يرجعوا أصلهم للملك بنى ساسان .
 وقد بانوا أوج عزتهم في أواخر القرن الثالث الهجري حيث كانت بلاد ما وراء
 النهر والجبل وإيران كلها إلى كرمان تحت سلطانهم ؛ بل كان في داخل حدود
 دولتهم الكبيرة ولايات تكاد تكون مستقلة ، مثل بلاد سجستان التي يحكمها

(١) مذكور ج ٥ ص ٥٦٥ .

(٢) مذكور ج ٦ ص ٥٨ ، وكتاب العيون ص ١٩٣ .

(٣) مذكور ج ٦ ص ١٥٤ ، وكتاب العيون ص ٢١٧ .

بنو الصغار ؛ وهؤلاء وإن كانوا يخطبون لصاحب بخارى فلم يكن له عليهم إلا حل أموال وهدايا ؛ بل اضطروا السامانيون نظراً لعدة أرجاء دولتهم إلى إنشاء ما يشبه منصب « نائب الملك » ، فكانوا هم مثلاً يقيمون في بخارى على حين أن صاحب جيشهم كان يقيم في نيسابور التي جعلها الظاهريون قصبة خراسان . أما عن حكمهم فالقديسي يمدح سيرتهم في الحكم ، ويقول إنهم من أحسن الملوك سيرة ونظراً وإجلالاً لأمم وأهل ؛ فقد كان من رسومهم مثلاً أنهم لا يكلفون أهل الملم تقبيل الأرض بين أيديهم ، ويذكر القديسي أن في أمثال الناس : « لو أن شجرة خرجت على آل سامان ليبت » ، ويقول : « ألا ترى إلى عضد الدولة ونجشهر ونمكشة ، وكال دولته ، وقوة أمره ! قد فتحت له البلاد طوعاً ، وذلك ما ملك ، فلما تعرض لآل سامان وطلب خراسان أهلكه الله ، وشتت جمعه ، وفترق جيوشه » ، ويمكن أعداءه من ممالكه ، فتباً لمن عاند آل سامان ^(١) . ولعل هذا الإطراء من جانب القديسي كان لأسباب شخصية ؛ فالحقيقة أن الديلم أخذوا من السامانيين إيران كلها ، وإن كان ذلك لم يتم لهم إلا بعد نضال طويل ، حتى كان سيكتسكين قائد معز الدولة ببغداد يضطر إلى الإسراع للرى في كل عام تقريباً للمعاونة أخى معز الدولة في محاربه السامانيين ؛ ولم يمض أكثر من عشرين سنة على مباينة القديسي في مدح آل سامان حتى اجتاحت الترك دولتهم من الشمال والجنوب ، وقتل آخر ملوكهم هاربا . على أن ملوك السامانيين كانوا دائماً يظهرون ولائهم للخليفة في بغداد وتعلقهم به ، وكانوا دائماً يبعثون إليه الهدايا ، بل نجد أحمد بن إسماعيل يرسل في سنة ٣٠١ هـ — ٩١٣ م إلى الخليفة ببغداد شيخاً يستعبد إليه ما فعله من رد غارة الترك على المسلمين وقتل كثير منهم ، ويخطب إليه شرطة بغداد ، بعد أن خلا منصب

صاحب الشرطة بوفاة من كان يشغله من بنى طاهر^(١) ؛ وكذلك نجد نصراً
الساماني يرسل للخليفة عام ٢٣٠ هـ - ٩٤١ م هدية كبيرة ، وسها رأس أسد
توار الديلم ، فكان نصراً قد رضى أبى بضع نفسه في موضع رآه من ولاية
الخليفة^(٢) .

وكان المستقبل للشعوب التي تسكن جبال الألب الآسيوية في شمال فارس ،
والتي كانت حتى ذلك الحين بمثابة قواد مدغرين لوقت يظهرون فيه . وقد
استطاعوا أن يخضعوا لحكمهم بلاداً أوسع كثيراً من البلاد التي أخضعها نظرازم
السويسريون الذين يسكنون جبال الألب الأوربية حين بلغوا ذروة قوتهم ؛
وكان القائد مرداويج الديلمي أكبر من استرعى نظر المؤرخين من بين قواد الجبل
الذين حكموا إيران الغربية بعد موت يوسف بن أبى الساج . ولم يكن الإسلام
عميقاً في قلب هذا القائد ، فقد فعل بأبناء المسلمين وبناتهم فعل الكفار ، فأعمل
خيرهم السجى ، حتى قيل إنه نكح من الفلمن والجوارى في قول المقل خمسين ألفاً ،
وفي قول الكثير مائة ألف ؛ وأعمل السيف والنار في أهل ممدات كأنهم
كافرون^(٣) ؛ حتى إن أهل فارس شغبوا في سنة ٢٢٠ هـ - ٩٣٢ م أمام دار
الخليفة ببغداد واعترضوا على فرض الحكومة للضرائب في حين أنها لا تقف
إلى جانب المسلمين لتحميمهم . وبعث مرداويج بقائد من قواده إلى مدينة
الدينور ، فدخلها بالسيف ، وقتل من أهلها آلافاً كثيرة ؛ « فخرج إليه في
مستورى أهل البلد وصوفيتها وزهادها رجل يقال له ابن مشاده ، ويده مصحف
قد نضره ، فقال للقائد : اتق الله ، وارفع السيف عن هؤلاء المسلمين ، فلا ذنب لهم

(١) مريب ص ٤٣ .

(٢) كتاب العيون ص ١٩١ ب .

ولا جناية يستحقون بها ما قد نزل بهم ، فأمر بأخذ المصحف من يده فضرب به وجهه ، ثم أمر به فذبح ^(١) .

كان مرداويج رجلاً متفائلاً مريض الآمال والمشروعات ؛ فقد زعم أن يردّ دولة العجم ويبتذل دولة العرب ^(٢) ؛ وسأل عن تيجان الفرس وهيئتها ، فتمثلت له ، فاختار صفة تاج كسرى ، فعُمل له تاج من الذهب جُمعت فيه أنواع الجواهر ، وضرب له سرير من الذهب رُصّع بالجواهر ، فجلس عليه ، وجعل عليه منقحة عظيمة ، وجعل أمامه سريراً من الفضة عليه فرش مبسوط ، ودون ذلك كراسي مذهبة ليرتّب أصحاب الأقدار مراتبهم في الإجلال ؛ وكان ينوى قصد بغداد وتشيعت الدولة ؛ وكتب إلى عامل له أن يُؤدّ له إيوان كسرى منزلاً ، ويعمره كهيئته قبل الإسلام . وقد طاف به بعض شياطين الدهاة فزخرفوا له صورة ملك سيظهر ، وتُجَنَّب له كنوز الأرض ، قال إلى ذلك ، وأظهر أنه ذلك الملك الذي يملك الأرض فأراد أن يسير إلى مدينة السلام ويقبض على الخليفة ويوتّي أصحابه مدن الإسلام بأسرها في شرق الأرض وغربها ، مما في يد ولد العباس وغيرهم ؛ واسترسل في مثل هذا الخيال ^(٣) ؛ وكان جنوده يبخشون سطاوته وغدره وكبريائه . ولما حضرت ليلة الوقود في أصفهان (انظر فصل الأعياد) جُمعت الأحطاب من الجبال والنواحي البعيدة ، وأعدت الشوع المظلم ، وعُمل بمجلسه الخاص تماثيلُ وأساطين كبيرة من الشمع ، وحُشد على رؤوس الجبال واليافعات ما لم تجر المادة بمثله ؛ فلما خرج وطاف بذلك استحققه كله واستصغره ، قال وذلك لأجل سمة الصحراء ، ولأن البصر إذا امتد في فضاء واسع ثم انقلب عنه إلى هذه الأشياء المصنوعة استحققها . وإن كانت عظيمة ، وانحطاطت وسكنت ودخل إلى

(١) نفس المصدر ج ٩ ص ٢٤ - ٢٥ .

(٢) الأوراق لاصول ص ٨١ ، ومذكور ج ٤ ص ٤٨٨ .

(٣) سروج الذهب ج ٩ ص ٢٧ - ٢٨ ؛ ومذكور ج ٤ ص ٤٨٩ - ٤٩٠ .

خيمته واضطجع وانف بكسائه ، وحول وجهه إلى خلاف الباب ستر يحميه .
أحد ؛ ولم يحسر القواد والأمراء على مخاطبته ؛ ثم أقنعه الوزير بعد كد أن يظهر
للناس ، فركب كارهاً متحاملًا بعد لجاج وإباء ، فطاف خضبا مفتاظا ، وانصرف
إلى موضعه ، ولزم حالته الأولى ^(١) .

وكان له أربعة آلاف من الممالك الأتراك ^(٢) إلى جانب خمسين ألفاً من
الديلم ، وقد استخلص من هؤلاء الأتراك نفراً اختص بهم ، فوجد الديلم من
ذلك ^(٣) ، ورغم أنه كان يؤثر الفلمن الأتراك فقد اتفق يوما أن شغيت دوابهم ،
وارتفعت أصواتها وأصوات من يزجرها ، فانتبه مرداويج مذعوراً على هذه
الأصوات الهائلة المنكرة ، فأمر أن تُحطَّ السروج عن الدواب ، وتُجَعَلَ على
ظهور الفلمن الأتراك مع جميع آلتها ، وأن يقودوا الدواب بأنفسهم من أرسائها
إلى الإسطبلات ؛ وكانت الصورة قبيحة ، وقد حَقِدَ عليه الفلمن لذلك ثم انفقوا
على الفكك به ، فهجموا عليه وهو في الحتام وقتلوه ^(٤) . وقد استطاع أخوه
وشمكير وابنه قابوس أن يحتفظا بإمارة صغيرة في أقصى الشمال من إيران ؛ ثم
آل ميراثهم إلى بني بُوَيَّه ، وهم قواد مرتزقة من بلاد الجبل بفارس .

وكان بنو بُوَيَّه بعيدين عن الثقافة العربية ، حتى إن معز الدولة لما جاء إلى
بغداد ومَلَكَها احتاج إلى من يترجم له كلام الوزير علي بن عيسى ^(٥) ؛ وقد
رفع بنو بويه أنفسهم بالدهاء والمكر والمهارة الهندية ؛ وكانوا لا يترددون

(١) مسكويه ج ٥ ص ٣٧٩ — ٤٨٢ .

(٢) مروج الذهب ج ٩ ص ٢٨٠ ، ٢٩ .

(٣) الأوران لاصولي ص ٨٠ — ٨١ .

(٤) مسكويه ج ٥ ص ٤٨٢ — ٤٨٥ .

(٥) تاريخ المزداني مخطوط رقم ١٤٦٩ بياريس ص ١٠٠ ب والفدية الإنجليزية

لكتاب الوزراء ص ٧ .

ولا ينجلون من ترك خدمة قائد إلى خدمة آخر يدفع لهم أكثر من الأول ؛ فن ذلك أنه لما هُزم ما كان بن كاكي الهديلى ، وكان معه أبو الحسن على بن بويه وأخوه أبو على الحسن ، استأذناه فى الانحياز إلى مرداوىج ، وقالوا لما كان : « الأصلح لك مفارقةُنا إياك ، لتخفَ عنك مؤونتنا ، ويقعَ كلنا على غيرك ، فإذا تمكّنت عاردناك » ، فأذن لهما^(١) ، وكان من أكبر الصفات التى ظهرت فيها مقدرة بنى بويه أنهم كانوا يستطيعون جمع المال من كل وجه ، وأن يذخروه حتى يكون بين أيديهم المال دائماً ؛ وقد ساعدتهم الحظ فى ذلك بأمور هى من عجيب الاتفاقات ؛ فيحكى مثلاً أن على بن بويه لما دخل شيراز اجتمع أصحابه وطالبوه بالمال ، ولم يكن معه ما يرضيهم ، فأشرف أسره على الانحلال ، واشتغل قلبه واغتم غما شديداً ، فبينما هو مستلقى على ظهره ، وقد خلا لافكر والتدبير ، إذ رأى حية قد خرجت من سقف المجلس الذى كان فيه من موضع ودخلت موضعاً آخر ؛ وخاف أن تسقط عليه ، وهو نائم ، فأمر الفراشين بإخراجها ، فوجدوا السقف ينفض إلى غرفة بين سقطين ، فأمرهم بفتحها ، فوجدوا فيها عدة صناديق من المال وغيره ، فأشقى ذلك فى رجاله بعد أن أشقى أسره على الانحلال^(٢) .

وكان السبب فى ارتفاع على بن بويه سماحته وشجاعته وسعة صدره وحسن سياسته ؛ فن ذلك أنه كان فى الرى وشمكير وأبو عبد الله الحسين بن محمد اللقب بالصمد ، ولم يزل على بن بويه بأبى عبد الله هذا يلاحظه بالمدايا ، حتى غمره بالبر ، فكتبتم كتاباً من مرداوىج إلى وشمكير منع على من الخروج ، وأمر لى بالخروج ،

(١) مذكوبه ج ٥ ص ١٣٥ .

(٢) مذكوبه ج ٥ ص ١٦٣ — ١٦٤ .

فماز بالولاية ، ولما وصل إلى السكرج أحسن إلى الرجال ، ولأطف عامل البلد ،
فما كان يكتب بشكره وضبطه الناحية ؛ وأتفق أن افتتح قلاعاً كانت في أيدي
الخرمئة في تلك الأطراف ، ووقع بين أصحابها خلاف ، فأنماز بعضهم إليه ،
وأطلعه على ذخائر جلييلة أخذها وصرفها كلها في استمالة الرجال واستعطاف
القلوب ؛ ولأطف قواد سرداويج ، وأفضل عليهم ، حتى أوجبوا طاعته ، وكان
ذا فضل يتسامع به الناس فيميلون إليه ^(١) . فلا محجب إذن أن يسمل عليه الإقتصار
على جيش الخليفة حتى استولى على جنوب إيران . وكان بنو بويه إلى جانب
هذا يحسنون معاملة الأسرى ، ويمفون عنهم ، ويؤمنونهم من جميع ما يكرهون ،
حتى يطعنوا إليهم ، على حين كان أعداؤهم يمدون للأسرى قيوداً وبرانس
ليشهرهم بها ؛ ولقد ظهر على بن بويه بأعداء له معهم هذه الآلات فعدل عن
الغلب إلى العفو ، وابتمد عن الطغيان ^(٢)

كان ركن الدولة صاحب الري « لا يستجيب إلى عمارة نواحيه ، خوفاً من
إخراج درهم واحد من الخزنة ، ويقنع بارتفاع ما يحصل لوقت » ^(٣) .

وقد جمع عضد الدولة بما كان فيه من حرص نزوة هائلة ، وكذلك ترك غرض
الدولة (المتوفى عام ٣٨٧ هـ - ٩٩٧ م) في المصور الأخيرة ، التي لم تكن
مصور الغنى العظيم ، مالا كثيراً ؛ فقد ذكر ابن الصبابة أن ثلث ثمنه ٢,٨٧٥,٢٨٥
ديناراً ومن الورق والنقد والفضة ١٠٠,٨٦٠,٧٩٠ درهماً ، ومن الجواهر واليواقيت
والقواو والماس والبلور والسلاح وضروب المتاع شيئاً كثيراً ؛ وكان شحيحاً حتى

(١) نفس المصدر ج ٥ ص ٤٣٦ - ٤٣٩ .

(٢) مكيه ج ٥ ص ٤٤٤ - ٤٤٥ .

(٣) مكيه ج ٨ ص ٣٥٧ .

كانت مفاتيح خزائنه في الكيس الحديد مستقراً بالمسامير لا يفارقه^(١) . وكذلك
يشول ابن الجوزي إن بهاء الدولة جمع من الأموال ما لم يجمعه أحد من بني بويه،
وكان يبتذل بالدرهم الواحد ويؤثر المصادرات^(٢) .

والصفة الثانية الكبرى مما اتصف به بنو بويه التضافر الوثيق، والطاعة
النامية، وذلك في أجيالهم الأولى على الأقل؛ ورجع الفضل في ذلك إلى الصفات
العظيمة التي توفرت لدى بن بويه الذي لقب فيما بعد بهامد الدولة، وهو الذي
رجع إليه الفضل فيما بلغه بيت بن بويه من قوة وعزة. ومن أمثلة طاعتهم
والنزاهم النظام أن معز الدولة، وهو أصغر الإخوة الثلاثة، وكان حاكماً على
العراق إذ ذاك، لما لقي أخاه حماد الدولة بأرجان عام ٣٦٣ هـ قبل الأرض بين
يديه؛ وكان يقف قائماً عنده، فيأمره بالجلوس فلا يفعل^(٣). ولما مات الأخ
الأكبر انتقلت الرياسة إلى أخيه الثاني ركن الدولة في الرى، فكان معز الدولة
لا يخالف له أمراً، وكان ركن الدولة يأمره بإغناذ الجيوش فيفعل^(٤). ولما
أيقن معز الدولة بالتلف وصّى ابنه، وهو على سرير الموت، بطاعة ركن الدولة،
واستشارته في كل ما يعرض له من مهم، وكذلك ابن عمه عضد الدولة لأنه أسن
منه وأقوم بالسياسة^(٥).

ولما أراد عضد الدولة هذا أن يأخذ العراق من يد ابن عمه معز الدولة بعد
ما أظهر من عدم الكفاية، وسمع أبوه حال أولاد أخيه من القبض عليهم، رعى
بنفسه عن سريره، وأقبل يتمرغ ويتردد، ويمتنع من الأكل والشرب أياماً؛

(١) ابن تفرى برهى طبعه كليفورنيا ص ٨٧ - ٨٣ .

(٢) المنظم ص ١٥٩ ب .

(٣) ابن الأثير ج ٨ ص ٣١٣ .

(٤) ابن الأثير ج ٨ ص ٣٦٦ .

(٥) مكويه ج ٦ ص ٢٩٨ .

ومرض من ذلك مرضاً لم يستقل منه باقى حياته ؛ وكان يقول : إني أرى أخى معز الدولة متمثلاً إزائي يعض على أنامله ، ويقول : « يا أخى هكذا ضمت لى أن تخلفنى فى أهلى وولدى ا » ، وقد غضب والد معز الدولة على ابنه ، وأمره أن يخرج من بغداد ويسلها لأبناء عمه ، فخرج منها طاعةً لأبيه ، بعد أن كان قد أقام بها ، واتخذ لنفسه بها داراً^(١) .

أما عماد الدولة فلم يكن رجلاً يمثل خصال السيد الحاكم ، بل كان أشبه بتاجر مخادع ؛ وكانت له مواهب الأكره الأذكىاء المملعين ؛ فمن ذلك أنه تقلد من الخليفة الراضى أعمال فارس على أن يحمل له فى كل سنة بمد جميع المؤن والنفقات مائة ألف ألف درهم ؛ فأرسل إليه الوزير ابن مقلة الخلع والواو ورسم الرسول ألا يسلم الواو والخلع إلا بعد تسليم المال الذى استقر عليه الاتفاق . فلما قرب الرسول من البلد تلقاه على بن بويه على بُعد ، وسار معه وطالبه أن يسلم إليه الواو والخلع ؛ فعرّفه ما رسمه له الوزير ، فحاشنه على بن بويه ، وأرهبه حتى سلم الخلع ، فلبسها ودخل بها شيراز وبين يديه الواو ، وأقام الرسول مدة يطالب بالمال ، فلم يدفع على إليه شيئاً ، حتى اعتل الرسول ومات بشيراز^(٢) .

وأما ركن الدولة فقد كان حليماً ، واسع الكرم ، حسن السياسة لرعاياه وجفنده ، رءوفاً بهم ، بعيد الهمة ، يتحرّج من الظلم ، ويمنع أصحابه منه ، وقد أثنى المؤرخون على عدله وكرمه^(٣) .

ومن أمثلة ذلك أن إبراهيم السلار انهزم من بين يدي عدو له ، وورد

(١) مكويه ج ٦ ص ١١١ - ١١٦ .

(٢) كتاب الميون ص ١١٧ - ب .

(٣) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٩٣ .

حصيرة ركن الدولة « بدابته وسوطه » ؛ فأكرمه ركن الدولة ، وبالغ في إظهاره ، وحمل له من كل صنف يكون عند الملوك ؛ وكان المؤرخ ابن مسكويه حاضراً بالرى ، فركب للنظر إلى الهدايا المحمولة إلى إبراهيم ، وكانت كثيرة لم ير ابن مسكويه مثلاً^(١) ؛ وقد اقترح الأستاذ ابن العميد وزير ركن الدولة ، بعد ما رأى سوء تدبير إبراهيم واشتغاله بالنساء واللعب والسكر الدائم ، وبعد أن شاهد طمع الناس فيه ، أن يدير ركن الدولة الناحية لنفسه ، حتى لا يضيع سعيه في إرجاءها أصحابها ، ويعوض إبراهيم بشيء آخر حتى يحل محل أمنا فارغ البال ، ويشغل بما يؤثره من محبة المغنين والساخر ، « فأبى عليه ركن الدولة وفكر في شيء يفكر فيه مثله من أصحاب الهم الكبار وقال : يتحدث الناس أني افتتحت البلاد لرجل لجأ إلىي ؛ ثم طمعت فيه ! »^(٢) . ولقد قاسى ابن العميد الكثير في خدمته ؛ وكان ابن العميد وزيراً جيد التدبير علياً بصناعة الملك وإصلاح ما فسد من أموره ، ولكن ركن الدولة كان مغلوباً على أمره لا يرى النظر في العواقب ، ولا يستمع إلى آراء ابن العميد مع جودتها ، حتى إن ابن مسكويه يذكر ضعف ركن الدولة وفساد الأحوال في حكومته ، ويذكر كفاية ابن العميد وحسن تدبيره ثم يقول : « فاحيلة وزيره ومديره ! » ، وكان ركن الدولة مع فضله على أقرانه من الديلم على طريقة الجند المتفليين ، ينفم بما يتمجسل له ، ولا يرى النظر في عواقب أمره وعواقب أمور رعيته ، وكان يفسح لجنده وعسكره على طريق مداراتهم ، وكان يوسّع عليهم في الإقطاعات ؛ وكانوا يتواعدون من الليل إلى مواضع غامضة يجتمعون فيها ؛ وربما خرجوا إلى الصحراء ، واجتمعوا على ظهور دوابهم ، « وثنوا أرجاءهم على أعناقها بقدر ما يدرون الرأي في وجهه

(١) مسكويه ج ٦ ص ٢٨٠ — ٢٨١ ؛ و Amedroz : Der Islam, III, 355

(٢) مسكويه ج ٦ ص ٢٩٢ — ٢٩٣ ؛ و Amedroz : Der Islam, III, 336

الحيلة ، فإذا تمّ لهم تدمير يومهم فهو هيدّم ونشاطهم . وكان ركن الدولة يرى أن دولته مقرونة بدولة الأكراد ، فكان لذلك لا يمدّهم من العيش ولا يطلق يدّ حجة الأطراف في قصدهم ، « ويرضى أن يقال له قُطعت القافلة ، وسيبّت المواشي ، فيقول : لأن هؤلاء أيضاً ، يعنى الأكراد ، يحتاجون إلى القوت »^(١) .

وكان الأمير معز الدولة ، أمير العراق ، حديداً سريع الغضب بذي اللسان ، يُكثر سبّ وزرائه والمحتمسين من حشيه ، وكان يلحق المهلب من خشه وشتمه مالا صبر لأحد عليه ؛ بل كان يضربه بالمفرقة^(٢) . ولكن معز الدولة كان خوّاراً في أمراضه ، فكان كلما اشتدت عليه العلة ، وأيقن بالتلف (كان مريضاً بامتناع البول وبرمل في مثانته) بكى ونذب على نفسه على عادة الديلم^(٣) . وكان أيضاً « سريع الدمة » ، وكاد ينهزم في إحدى المواقع ، فبكى بين أيدى خطائه ، ثم سألهم أن يجتمعوا ، ويحملوا على العدو ، وهو في أولم ، فلما أن يظفر وإما أن يكون أول من يُقتل^(٤) . وكان لا يعرف للخليفة قدره ، فقد وثب عليه ، وهو تحت سلطانه ، وثبة الجندي المرتق الغليظ القلب ؛ ولما مات وزيره أبو محمد المهلب بعد أن ولي الوزارة له ثلاث عشرة سنة قبض معز الدولة أمواله وذخائره ، وأخذ المال من أهله وأصحابه وحواشييه ، حتى من ملاحه ومن خدمه يوماً واحداً ؛ فاستعظم الناس ذلك واستفبحوه^(٥) . وبني لنفسه داراً جديدة في شمال بغداد ، فكان جملة ما خرج عليها ثلاثة عشر ألف ألف درهم ، ولم يتردد في أن يصادر

(١) مكويه ج ٦ ص ٣٥٤ — ٣٥٧ .

(٢) نفس المصدر ج ٦ ص ١٩٢ — ١٩٣ ، ١٩٤ .

(٣) نفس المصدر ج ٦ ص ٢٤١ ، ٢٤٠ .

(٤) نفس المصدر ج ٦ ص ١٩٧ .

(٥) ابن الأثير ج ٨ ص ٤٠٥ .

بسبب ذلك جماعة من أصحابه^(١) . وكان لا يأبه كثيراً لحقوق رعيته ، فاضطر إلى ضبط الناس واستخراج الأموال من غير وجودها ، وأقطع قواده وخواصه وأتراكه ضياع السلطان وغيرها ، وكان يساع الوزاراء المقاطعين ، ويقتل منهم الرشي ؛ واتسع الخرق حتى صار الرسم جارياً بأن يخرب الجند إقطاعاتهم ، ثم يردوها ، ويمتاضوا عنها بما يخشون ، ويترصلوا إلى حصول الفضل والفوز بالرج . ورقت أحوال الرعية ، فن هارب جال ، إلى مظلوم صابر ، إلى مستريح لتسليم ضيقه إلى المقطع ليأمن شره وبوائقه ؛ وقل حقل الفاضل في الأعمال نمويلا على أخذ ما صفا ، وترك ما كدر ، والرجوع على السلطان بالمطالبة . وفوض معز الدولة تدبير كل ناحية إلى بعض الوجوه من خواص الديلم ، فأتخذوها مسكناً وطعمة ، ولتحف عليهم التمرقون الخوثة ، فبطلت العمارة ، وخرت البلاد ، واعتاض العمال عما يذهب من أموالهم بالمصادرة والحيف على الرعية ، وانصرف عمال المصالح عنها لخروج الأعمال عن يد السلطان^(٢) . ولكن معز الدولة كان يُعنى بسد البثوق في سدود الأنهار ، حتى خرج بنفسه مرة لسد بثنق بادوريا ، وحل التراب في طرف قبائه ، فعمل جميع العسكر مثل فعله ، وكذلك خرج إلى النهروانات فسد بثنقها ، فعمرت هذه الأجزاء بعد خرابها ، وعم الرخاء ، حتى مالت العامة ببغداد إلى أيام معز الدولة وأحبوه^(٣) .

أما ابنه يُختار الملقب بمعز الدولة فقد وهب قوة جسدية عظيمة ، وكان شجاعاً ، وبلغ من قوته أنه كان يمسك النور العظيم من قرنيه فلا يتحرك^(٤) .

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ٣٩٨ ، ومكويه ج ٦ ص ١٩٣ ، ويقول ابن الجوزي (المنتظم ص ١٩٠) إن معز الدولة أفق على البناء إلى أن مات مائة ألف دينار .

(٢) مكويه ج ٦ ص ١٣٩ - ١٣٨ .

(٣) مكويه ج ٦ ص ٢١٨ - ٢١٩ ب .

(٤) ابن تترى بردى طبعة كليفتونيا ص ١٩ .

ولكنه فيما عدا ذلك فشل فشلاً يرنى له ؛ « وكان يحب أن يقضى أوقاته في الصيد والأكل والشرب والسماع والاهو والعب بالنرد وتحرير الشكلاّب والديكة من الفخاخ ؛ فإذا وقعت أموره قيس على وزيره واستبدل به »^(١) . ويقول بعض أصحابه إنه كان من لذاته دفاتر مزبنة يضمن بها ، وجوار صوانع لا يسمح بهن ، وخيل عراب كان يستأثر بها ويحب أن يشترها من البادية^(٢) ؛ وقد اتفق مرة أن أسير له في موقعة بالأهواز غلام تركي ، فجنّ عليه جنوناً ، وتسلّى عن كل شيء خرج عن يده إلا عنه ، « وامتنع عن الطعام والشراب وأقطع إلى النحيب والشهيق والعويل ... وتضجّر بالجيش ، وتبرّم بحضورهم ، وأطرح التدبير ... ثم إذا وصل إليه وزيره وقواده وكتّابه وخواصته في المهمّ قطعهم عن ذلك بالشكوى بما حلّ به واليأس بما في نفسه ، وتقضت أوقاته وبجالسه بهذا الخطب الجليل عنده ... فخف ميزانه عند الناس وسقط من عيونهم »^(٣) .

وكان عضد الدولة (المتوفى عام ٣٧٢ هـ - ٩٨٢ م) ، دون سائر أعضاء أسرته ، هو الذي يمثل السيد الحاكم تمثيلاً حقيقياً ؛ وقد خضعت لسلطانه ، في آخر أسرته ، البلاد الممتدة من بحر الخزر إلى كرمان وعبّان ؛ فلا بدع أن يُلقب بشاهنشاه (ملك الملوك) لأول مرة في الإسلام^(٤) ، بعد أن كان هذا اللقب يُشِير من قبل بالتجرو على مقام الألوية ؛ وقد ظل هذا اللقب لمن جاء بعده من ملوك بني بُويه^(٥) ، فكان أيضاً إحياء لرسوم الشرق القديمة .

(١) مذكوبه ج ٦ ص ٣٨٦ - ٣٨٩ .

(٢) نفس المصدر ج ٦ ص ٤١٩ .

(٣) مذكوبه ج ٦ ص ٤٥٩ - ٤٧٠ .

(٤) انظر ص ١١٩ ب .

(٥) كتاب الوزراء ص ٣٨٨ ؛ وكتاب إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب (وهو

معجم الأديب) المجلد ١ ص ١٢٠ .

كان عضد الدولة يحمل طابع أهل الشمال ، فكان أزرق العينين ، أشقر ، أصهب الشعر^(١) . وكان الوزير ابن بقیة يسميه أبا بكر الغدوى تشبيهاً له برجل أشقر أزرق أمش يسمى أبا بكر كان يبيع الغدوى برسم السنائير ببغداد^(٢) . وكان عضد الدولة رجلاً قاسياً ، وقد بلغه عن الوزير ابن بقیة أمور ساءته ، فطلب من مختيار بن معز الدولة يسلّمه إليه ، فسلّمه إليه مسمولاً ؛ فطرحه عضد الدولة إلى الفيلة ، وأخبر به عليه ، فقتلته شر قتلة ؛ وهذه العقوبة هي الأولى من نوعها في الإسلام^(٣) . وقد بلغ من هيئته وخوف عماله منه أن الوزير المطاهر بن عبد الله خرج من مدينة السلام لطلب أحد الخارجين على عضد الدولة ، فالتفت على المطاهر الأمر وخاف تغير عضد الدولة عليه ، فقتل نفسه^(٤) ؛ ولكن عضد الدولة كان أيضاً قاسياً على نفسه ، فيحكى أن جارية كانت له شغلت قلبه بميله إليها من تدير المملكة ، فأمر بتفريقها^(٥) . وكان يعنى بمعرفة الأخبار وسرعة

(١) الإرشاد ج ٥ ص ٣٤٩ .

(٢) وفیات الأعيان لابن خلكان طبعة أوربا ١٨٣٩ ، ترجمة ابن بقیة رقم ٧٢٠ ، نقل عن عيون السيرة للذهبي .

(٣) مسكويه ج ٦ ص ٤٧٧ و ٤٨١ .

(٤) نفس المصدر ص ٥١١ — ٥١٤ : على أنه قد أسبب إلى عضد الدولة أشياء كثيرة من الظلم لم يفعلها حقيقة ؛ فيحكى ابن تفری بردی (طبعة كليفتوريا ص ١٥ — ١٦) أنه خطب الأميرة جميلة بنت ناصر الدولة بن حمدان ، قامت عليه ، فاغتال من ذلك ؛ وحين وقعت في الأسر ، لم يدع لها شيئاً إلا ، احتاجت وانفرت . وفي رواية أحدث عهداً أنه ما زال يعسف بها في الطالبة حتى مرّ بها وحسبها ، ثم ألزمها ، إما أن تصحح ما عليها من المال ، وإما أن تختلف إلى دار القحاب ، فتكسب فيها ما تؤديه من المال المقروض عليها ؛ ولما صارت بها الأمر ، وأشرفت على الفضيحة انتهزت غفلة الموكلين بها ومرت نفسها في نهر الدجلة (مطالع الدور للزولي ، طبعة مصر ١٣٠٠ هـ ج ٢ ص ٤٨) . والمفارقة أن جميلة فررت مع أخيها أبي تطلب عذر عضد الدولة ؛ فلما حانت اعتقالها عضد الدولة في بعض الحجر في داره مع جواريه ونسائه (مسكويه ج ٦ ص ٥٠٧) .

(٥) النظم ص ١٢٠ .

وسوطها ، شأن كل من يريد أن يحكم دولة كبيرة حكماً صحيحاً ؛ فكان يسأل عن الأخبار الواردة ، فإن تأخرت عن وقتها تمت قيامته ، وسأل عن سبب التعويق ؛ فإن كان من غير عذر أنزل البلاء على أصحاب الأخبار ؛ وكانت الأخبار تصل من شيراز إلى بغداد في سبعة أيام ؛ أى أنها تقطع كل يوم ما يزيد على مائة وخمسين كيلومتراً^(١) .

وقد أحكم نظام الجاسوسية ؛ « وكان يبحث عن أشرف الملوك ؛ وينقب عن سرائرهم ؛ وكانت أخبار الدنيا عنده ، حتى لو تكلم إنسان بمصر رقى إليه ذلك ؛ حتى إن رجلاً بمصر ذكره بكلمة ، فاحتال حتى جاء به وورثه عليها ، ثم رده ؛ فكان الناس يحتزون في كلامهم وأفعالهم من ناسهم وغفائهم »^(٢) . وقد طهر السبل من القصوص ، ومحاذير العابثين الذين كانوا يقطعون الطريق ؛ ويحكي أنه دس على القصوص في إحدى القوافل بغلا يحمل حلوى شيت بالسم ، فأكلوا منها فهلكوا ؛ وكانت هذه مكيدة مجيبة^(٣) . وأعاد النظام إلى صحراء جزيرة العرب وإلى صحراء كerman ، وكانت أشهر بمخاوفها ، حتى رفعت الحباية عن قوافل الحج ، وزال ما كان يجرى عليها من القبايح وضروب العسف ؛ وأقام للحجاج السواقي في الطريق واحترم الأبار ، واستفاض الينابيع وأدار السور على مدينة الرسول^(٤) ؛ وأمر بمارة منازل بغداد وأسواقها ، وكانت مخلة قد أحرق بعضها ، وخرّب البعض ؛ وابتدأ بالمساجد الجامعة ، وكانت في نهاية الخراب ؛ وهدم ما كان مستهدماً من بنيانها ، وأعاد بناءها ؛ وألزم أرباب

(١) نفس المصدر .

(٢) نفس المصدر من ١١٩ ب — ١٢٠ .

(٣) كتاب الأذكياء لابن الجوزي من ٣٨ الباب الحادي عشر ، خلا عن تاريخ الخلفاء .

(٤) المنتظم من ١١٩ ب — ب .

العقارات بالعمارة ، فمن قصرت يده من ذلك افتقر من بيت المال ؛ وأمر من كانت له دار على الشط من الأولياء والهاشمية أن يجتهد في هباتها وتحسينها . وكان الناس قد استطابوا عديم المنازل وبيع أنقاضها ، فأبطل هذه السنة وأعاد عمارة بها عرس دار العباس بن الحسين وغيره ، فامتلات الخرابات بالزهر والمضرة والعمارة ، « بعد أن كانت مأوى الكلاب ومطارج الجيف والآذنار » ؛ وجأبت إليها الفروس من فارس وسائر البلاد ؛ وكانت الأنهار ببغداد قد دفت مجاريها وعقت رسومها ، ونشأ جيل من الناس لا يعرفها ؛ فأمر بحفر عمارتها ورواضها ؛ وقد كانت على الأنهار قناطر قد تهدمت وأهل أمرها ، « فلم تكن تخلو من أن يجتاز عليها البهائم والنساء والأطفال والضعفاء فيستطون ، فيؤت كلها جديدة وثيقة ، ومعلمت حملا محكما ؛ وكذلك جرى أمر الجسر ببغداد ، فإنه كان لا يجتاز عليه إلا المخاطر بنفسه ، لاسيما الراكب لشدة ضيقه وضعفه وتراحم الناس عليه ؛ فاختيرت له السفن للكبار المتقنة ، وعرض حتى صار كالشوارع الفسيحة وحُصن بالدارازينات . . . وأعيد كثير من قناطر أفواه الأنهار »^(١) ؛ وحول من البادية قوما فأسكنهم فارس وكرمان فزرعوا وعمروا البرية^(٢) . ومع هذا فلم تكن العراق مركز الدولة ، بل كان مركز الدولة في فارس حيث كان يقع قاضي القضاة أيضا ، ويستخلف له أربعة خلفاء على أرباع بغداد^(٣) . وكان عقد الدولة كثير الغرض من أهل بغداد والازدراء لهم ، حتى قال : ما كنت عيني في هذا البلد على أحد يستحق اسم الفضل أو أن يسمى برجل غير نفسيين ، فلما تأملت وجدتهما ليسا من أهل بغداد ، وأصلهما من

(١) مكتوب ج ٦ ص ٥٠٧ - ٥١٠ .

(٢) التتلم ص ١١٩ ب .

(٣) مكتوب ج ٦ ص ٥٠٢ .

السكوفة^(١) ؛ وعمل سوقاً للبرازين ، ووقف عليه وقوفاً كثيرة^(٢) . وكان ينقل إلى بلاده ما لا يوجد بها من الأصناف ؛ فمما نقله إلى كرمان حب النيل^(٣) ؛ وبني بشيراز داراً عظيمة تشتمل على ثلاثمائة وستين حجرة^(٤) ، ووسّع المدار الكبيرة التي كانت للقائد سبكتكين ببغداد ، والتي تركها بعد وفاته ، وأجرى إلى بستانه للنساء في مجرى عالٍ يخترق الصحراء والأرباض ؛ واستخدم القيلة في نقض هذه الدور ، ورثى حيطانها ، وفي ذلك الأرض ، وكان أول من استعمل القبول في القتال^(٥) ؛ وكان عازماً على القيام بمشروعات بناء غير ما تقدم فوات قبل ذلك^(٦) . وكانت عادته أن يباكر دخول الحمام ، فإذا خرج وصلى الفجر دخل إليه خواصه ، فإذا ترجل النهار سأل عن الأخبار الواردة ؛ ثم يتفقدى ، والطبيب قائم ، وهو يسأله عن منافع الأطعمة ومضارها . ثم ينام إلى الظهر ، فإذا انقضى صلى الظهر وخرج إلى مجلس الغدما والراحة وسماع الغناء إلى أن يمضي من الليل صدر ثم يأوى إلى فراشه^(٧) . وكان قد تعلم على أحسن المعلمين ، وكان يفخر بعمله^(٨) ؛ وكان يحب العلم والعلماء ، ويمجى الجرايات على الفقهاء والمحدثين والمتكلمين والمفسرين والنحاة والشعراء والنسابين والأطباء والحنثاب والمهندسين^(٩) . وسنتكلم عن مكتبته وترتيبها وإعدادها في غير هذا المكان ،

(١) ملحق أخبار القضاة طبعة (Quest) ، ايدن ١٩١٢ ص ٥٧٤ .

(٢) المنتظم ص ١١٦ ب .

(٣) نفس المصدر ، مسكويه ص ٥٠٨ .

(٤) اللدسي ٤٤٩ .

(٥) مسكويه ص ٥٠٨ .

(٦) تاريخ بغداد الخطيب البغدادي طبعة سلون (Salmon) ص ٥٦ وما يليها .

(٧) المنتظم ص ١٢٠ .

(٨) أخبار العلماء بأخبار الحكماء للطبى طبعة ليبن ص ١٦٠ - ١٦٠٤ م

ص ٢٢٦ .

(٩) المنتظم ص ١١٢ ، وابن الأثير ج ٨ ص ٥١٨ .

(انظر القسطنطين بالعلماء) . على أن عضد الدولة كان يتشاغل بالسلم ويفترغ
للأرب في أيام دولته ؛ وقد وجد له في تذكرة : إذا فرغنا من حل إقليدس كله
تصدقت بعشرين ألف درهم ، وإذا فرغنا من كتاب أبي علي النحوي تصدقت
بخمسين ألف درهم ؛ وكان يحب الشعر ويعطى الشعراء ، ويؤثر بحالة الأدباء على
مناداة الأسراء^(١) ؛ وكان يقول الشعر وينشده ، ويحكم على معانيه بعد التقدير
له^(٢) . وقد ذكر له الثعالبي شعراً عربياً ينسب إليه ، وهو لا يعدو أن يكون
كلاماً موزوناً رديئاً^(٣) . ولكن هذا كله لم يمنع عضد الدولة من إساءة معاملة
الصالحين ، مع أنه كان سيد الكتاب في ذلك العصر . وقد أفرغ عضد الدولة في
داره لأهل الخصوص والحكام والفلاسفة موضعاً يقترب من مجلسه ، فكانوا
يحتمون فيه للفارضة آمنين من السفهاء ورعاع العامة . وأمر بإدراك الأرزاق على
قوائم المساجد والمؤذنين والأئمة والقراء فيها ، وإقامة الجرايات لمن بأوى إليها من
الغرباء والضعفاء^(٤) . وبنى مارستاناً كبيراً ببغداد . وقد وجد في تذكرة له :
وكل ابن يولد لنا كما نحب نتصدق بمشرة آلاف درهم ، فإن كان من فلانة
فبخمسين ألف درهم ؛ وكل بنت فبخمسة آلاف ، فإن كان منها فبثلثين ألفاً^(٥) ؛
وتجاوزت صدقاته أهل اللثة إلى أهل الذمّة ، فأذن للوزير نصر بن هارون في حمارة
البيع والهدية ، وإطلاق الأموال لفقراء أهل الذمّة^(٦) .

(١) ياب في شعراء أهل العصر الثعالبي في دمشق ج ٣ ص ٢ ، والمنظوم

ص ١١٢١ .

(٢) الإرشاد ج ٨ ص ٢٨٦ وكتاب الأذكياء لابن الجوزي ص ٣٨ .

(٣) نية الدهر ج ٢ ص ٣ وما بعدها .

(٤) مسكويه ج ٦ ص ٥٠٧ ، ٥١٠ ، ٥١١ .

(٥) المنظوم ص ١١٢٠ .

(٦) مسكويه ج ٦ ص ٥١١ ، وابن الأثير ج ٨ ص ٥١٨ .

غير أن عضد الدولة لم يكن أباً لرعيته ، بل ظل الحاكم الأجنبي عنهم ؛ وهو كالراعى الذى يحسن العناية بغمه لينتفع منها بأكثر نصيب ؛ وفى آخر أيامه أحدث رسوماً جائرة ، وزاد الرسوم القديمة ؛ وكان يتوصل إلى أخذ المال بكل طريق^(١) . وفى آخر عمره كانت دخله فى السنة ثلاثمائة ألف ألف وعشرين ألف ألف درهم ، فأراد أن يبلغ به ثلاثمائة وستين ألف ألف ، ليكون دخله كل يوم ألف ألف درهم ، « وكان مع صدقاته وإيصاله ينظر فى الدينار ويناقش فى القيراط^(٢) » .

والحكم الأخير الذى انتهى إليه مسكويه فى كلامه من عضد الدولة أنه قال : « فلولا خلال^(٣) كانت فى عضد الدولة يسيرة ، لا أستحسن ذكرها ، مع كثرة فضله لبلغ من الدنيا مائة ورجوت له من الآخرة رضا ، والله ينفعه بما قدمه من العمل الصالح ، ويغفر له ما وراء ذلك^(٤) » .

وتتجلى مواهب عضد الدولة السياسية فى اختياره لولائه : فقد ولّى على الجبل وهمدان والدينور ونهاند وأسد آباد وغيرها بدر بن حسنويه السكردى (التوفى عام ٤٠٥ هـ — ١٠١٤ م) ؛ وقد قامت هيئته بالشجاعة والمدل والسياسة وكثرة الصدقة ... وكانت جرياته وصدقاته متصلة على الفقهاء والأشراف والقضاة والشهود والأيتام والضعفاء ؛ وكان يصرف كل سنة ألف دينار إلى عشرين رجلاً يحبون عن والدته وعن عضد الدولة . وكان يتصدق كل جمعة بمشقة آلاف درهم على الضعفاء والأرامل ، وبصرف كل سنة ثلاثة آلاف دينار إلى إلى الأساكفة والخزائين بين همدان وبغداد ليقيموا المنقطعين من الحامح

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ١٦ .

(٢) المنظم ص ١٢٠ ب .

(٣) مسكويه ج ٦ ص ٥١١ ، وهذا المؤرخ كان من طرف عهد دولة وحمدية .

بالأخذية . وكان يسرف إلى تكفين الوتى كل شهر عشرين ألف درهم ؛ وغمر القناطر ؛ واستحدث في أعماله ثلاثة آلاف مسجد وخان للغرياء ؛ ولم يمر بماء جار إلا بهى عنده قرية ؛ وكان ينفذ كل سنة في الصدقات على أهل الحرمين وحفظ الطرق ومصالحها مائة ألف دينار ؛ وكان ينفق على عمارة المصانع وتنقية الآبار وجمع الطوفة في الطريق ، ويعطى سكان المنازل رسوماً لقيامهم ، وعمل إلى الحرمين والكوفة وبغداد ما يفرق على الأشراف والفقهاء والقراء والفقراء وأهل البيوتات^(١) .

وقد تخرج على يدى عضد الدولة القائد أمير الجيوش (التوفى عام ٥٤٠١ - ١٠١٠ م) ، وهو الذى ولّاه بهاء الدولة تدبير العراق لإعادة النظام إليها ، فقدم بغداد عام ٥٣٩٢ - ١٠٠٢ م ، واقتن قائمة ؛ فقتل وصلب وغرق ، حتى بلغ من هيئته أنه أعطى غلاماً له مئينة فضة فيها دنانير ؛ وأمره أن يأخذها على رأسه ويسير من أول بغداد إلى آخرها على أحداء يعترضه ، فعاد وقد انتصف الليل دون أن يعترضه أحد^(٢) .

ولم يخرج بيت بنى بويه بعد عضد الدولة جيلاً يصلح للحكم ؛ واضمحلت في أواخر الأسر موارد ماله ، واختلت الملكة أيام جلال الدولة ، وقطعت منه المادة حتى أخرج ثيابه وآلاته وباعها في الأسواق ، وخلت داره من حاجب وفراش وبواب ، وصار أكثر الأبواب مغاقاً ، وانقطع ضرب الطبل له في أكثر الأيام لانقطاع الطبالين^(٣) .

(١) المنظم ص ١٦٦ ب .

(٢) المنظم ص ١٥٦ ب وابن نوري بردى طبعة كاپيتولينا ص ١١١ .

(٣) المنظم ص ١٨٨ ب .

وأما أسراء الترك فيمثلهم بحكم ولاخشيده ، وكل منهما جندى ماهر وحام
قدير ، وإن كان مظهرها الخارجى لم يكن بشيء .

أما بحكم فقيه خصال قائد الجند المرتزة كلها ؛ فقد انتقل من خدمة ما كان
الديلى إلى خدمة مرداوىج ؛ وبعد قتل مرداوىج — ويقال إنه كانت لجكم يد
في قتله — ذهب مع مئات قليلة من الترك والفرس إلى ابن رائق ؛ وظل غلام
مرداوىج تحت إمرة بحكم^(١) ، ولم يكن عدوم عظيما ؛ فيقول مسكويه إنهم كانوا
ثلاثمائة غلام استأنوا إليه^(٢) ؛ ثم تقدم ابن رائق إلى بحكم بأن يكاتب كل من
بالجبل من الأتراك والديلم بالمصير إليه ، فكانتهم وصار إليه عدة وافرة منهم^(٣) .
ثم استقل بحكم بدوره السياسى الخاص ؛ فأزال اسم ابن رائق عن أعلامه ، وترك
الانتساب إليه^(٤) ، وحاربه حتى أخرجه من بغداد ، وصار هو أميرا على العراق ؛
وكان معه في ذلك الوقت سبعمائة من الترك وخمسمائة من العرب^(٥) . وكان الخليفة
الراضى يحب بحكم أكثر من حبه لابن رائق ، وقد خلع عليه خلع النادرة ،
وجعله أمير الأمراء^(٦) . وبعد موت الرضى طمع بحكم في جماعة من ندمائه ، وظن
أنه ينتفع مع هيجته بأدائهم ؛ فلما نظر لم يجد منهم من يفهمه ما ينتفع به
إلا الطيب بن ثابت رصده وأكومه ، وطلب منه أن يدلو به من غلبة

(١) كتاب العيون من ١١٤٨ — ب .

(٢) مسكويه ج ٦ من ٥٠٧ ، وفي كتاب العيون من ١٥٥ ب أنهم كانوا مائتين

وتسعين غلاما .

(٣) مسكويه ج ٦ من ٥٠٨ ، وكتاب العيون من ١١٤٨ — ب .

(٤) كتاب العيون من ١١٦٣ .

(٥) كتاب العيون من ١١٦٤ .

(٦) الأوراق اصولى من ٥٣ — ٥٥ ، وكتاب العيون من ١١٦٧

الغضب والغيظ ، وإذا عرف له عيباً إلا يحتشم من ذكره له ، ثم يرشده إلى علاجه ليزول عنه ^(١) .

وكان يحكم ذا شجاعة نادرة ، فقد لقي عشرة آلاف من عسكر البربدى بأنتم عذة وأكل سلاح ، ولم يكن معه إلا مائتان وتسعون من الأتراك ، فهزم عسكر البربدى ؛ وفي إحدى المواقع طرح يحكم نفسه مع جماعة من الأتراك في دبالى ، وسبحوا وعبروا إلى الأرض التى عليها المدو ، وذلك أمام عينه ؛ وعبر الدبلم فى الطيارات وبعضهم عبر سباحة ؛ وقاتل المدو ، وهو يظن أنه منه فى أمان ، حتى هُزموا وانصرفوا بين يديه ^(٢) ؛ وخرج ابن رائق من بغداد ، ولم يتشفَّ يحكم منه ، فلما كان مع الراضى فى سُر من رأى ، وورد الخبر بخروج ابن رائق إلى باب الأنبار استأذن يحكم الخليفة فى أن يعبر من سُر من رأى إلى هيت بجنازاً الصحراء ليأخذ على ابن رائق الطريق فلا يفوته ، فلم يأذن له الراضى وقال : هذا لا يصح ، لأنه رجل قد أمنتُه ، وإذا فعلنا ذلك بعد الأمان كان قبيحاً ^(٣) . وقد غلب يحكم هذا سيف الدولة صاحب الانتصارات المشهورة على الروم كما نزل سيف الدولة لمحاربتة .

ولما جاء يحكم إلى بغداد حل معه كثيراً من ضروب الغلظة التى اقترنت بحياته الجندية ؛ وعند ما دخل واسط طالب أهله بالمسال واشتدَّ فى تعذيبهم حتى كان يضغ على بطن الرجل منهم طسناً فيه جهر ؛ فنتهه البعض إلى أنه يفعل ما كان يفعل مرداويج بأهل الجبل ، وذكره بأنه فى بغداد ودار الخلافة لا يرى

(١) - مكتوبه ج ٦ ص ٢٦ والصفحات التالية

(٢) - كتاب الصون ص ١١٥ - ص .

(٣) - من المصدر ص ١١٦ .

وأصحابان ، ولا تحتل بتداد هذه الأخلاق^(١) . وقد أبغض أهل بتداد بحكم لقبج سيرته ، فلما ظهر ابن رائق سرّوا به ، وأظهروا ما في أنفسهم من بغض بحكم ، فكان العنارون والصبيان يهزأون ببحكم ورجاله ويقولون : بحكم جلقوا نصف سباه ؛ فإذا رأوا تركيا عليه قلنوة صاحوا به : قلنوة طبرى اليس أميرنا بحكم^(٢) .

على أن بحكم كان أميراً محباً لمارة البلاد ، حتى إنه رأى قصور الأكاسرة الخربة في المدن ، فعمّر مواضع كبيرة في تلك الناحية وأنشأها ، وأجرى إليها الأنهار ، وغرس بها غروساً^(٣) . وكان يدفن أمواله في الصحراء ويأخذ معه رجالاً ليعاونوه ، فيطبق عليهم الصناديق ، ويحملهم على بغال إلى جوف الصحراء ؛ وبعد أن يدفن المال يطبق عليهم الصناديق ويعود بهم فلا يلبثون إلى أين ذهبوا من أرض الله ولا من أين جاءوا . وكان هو يتخذ لنفسه علامات يهتدى بها^(٤) . وأصل هذا التصرف راجع إلى بساطة بحكم وتخبّطه فيما يحمله من الأمور غير العسكرية .

أما محمد بن طنج فأصله من أولاد ملوك فرغانة ، وكان جده قد جاء من التركستان في عهد الخليفة المعتصم ؛ وكان هذا الخليفة أول من جلب الكثير من الجنود الأتراك واستخدمهم ؛ أما أبوه فقد ارتقى حتى صار والياً على دمشق ، واسكنه عزل وسجن هو وابنه محمد ، فذاق هذا الأخير من الحياة حلوها ومرتها ؛ وختم ابن طنج قواداً كثيرين ، حتى إنه كان مرّة بازياراً لعامل الشام يخرج

(١) مسكويه ج ٥ ص ٧٠ ؛ وانظر أواخر الفصل الخامس بالآية فيما يأتي .

(٢) كتاب العيون ص ١٢٥ ب .

(٣) نفس المصدر ص ١١٨٠ .

(٤) مسكويه ج ٦ ص ٢٩ — ٢١ ؛ وانظر أيضاً الفصل الخامس بالآية فيما يأتي .

معه لصيد ويحمل معه الجوارح ؛ وقد أتيت له فرصة لإظهار شجاعته عند حاكم مصر عما رفعة إن منصب والى مصر ؛ ثم صار أميرها المستقل ، وامتد حكمه أخيراً على بلاد نساوى فى المساحة أكبر رقعة حكمها ملوك القراغنة ، فكانت له مصر والشام واليمن ومكة والمدينة وغيرها^(١) ؛ فلا محب إذا أن ترى الخليفة المستكفى يكتب إلى الإخشيد ويعرض عليه إمارة بغداد بعد موت توزون ، ويضمن له القيام بالأمر ، فلا ينشط لذلك ؛ وكان الإخشيد أزرق بطيئاً^(٢) ، وكان شديد القوة لا يقدر على أن يجر قوسه غيره ؛ ولكنه كان قد ثار به طرف من سوداء مرة ، فكان يعتاده فيخلط^(٣) ؛ وقد حسن حال مصر على يديه ، وعنى بالنظام فيها ، وأمر بضرب الدينار الإخشيدى على عيار كامل ، وصلحت النقود فى عهده بعد فسادها^(٤) . وكان جيشه أعظم جيوش عصره ، فلما استدعاه المتقى فى عام ٣٣٣ هـ — ٩٤٤ م ، واقترب من الرقة والرافقة أشرف أهلها على السواحل والأسوار ونظروا من عظم العسكر وحسن هدنه ما لم يشاهدوا مثله^(٥) . وقد التفت فى الإخشيد خصلتان : السذاجة وحب التملك ، فكان اجتماعهما طريقاً ؛ وقد بدأ بمصادرة جميع المال الأغنياء ، أصدقاء كانوا أم أعداء ، وأخذ أموالهم فى هدوء من جانبه وبرود ؛ وكثير منهم كان يستحق هذا . وقد اشتهرت عنه محبته للمعبر ، فكان أكثر ما يهدى إليه ؛ وكان إذا جاءت الأوقات التى يهدى إليه فيها أخرج من خزائنه المعبر وباعه إلى التجار ، فيشتريه الذين

(١) انظر ترجمة محمد بن طلح فى كتاب وفيات الأعيان ج ٣ ص ٦٤ — ٥٥ .
وكتاب المغترب فى رحل المغرب لابن سعيد طبعة ايدن ١٨٩٨ من ص ٤ إلى ص ٢٠ .

(٢) كتاب المغرب لابن سعيد ص ٣٩ .

(٣) نفس المصدر ص ١٦ — ١٧ .

(٤) كتاب الميون ص ٢٠٩ ب .

(٥) نفس المصدر ص ٢١٣ ب .

يهذونه إليه ، فيحصل له الثمن الوافر ، ثم يعود العنبر إليه ^(١) . ونحكي عنه
حكايات تدل على أنه كان لا يأنف أن يأخذ ما يعجبه إذا وجده عند أحد
من أصحابه ^(٢) .

ولكن كان الغالب على الإخشيد الحياء ورقة الوجه ، وكان إذا صادر أحداً
لم يمدّ به ولم يضربه ، ولم يضيق عليه ، ولم يره حتى تنتهي المصادرة ، وكان
رسمة ألا يتمرض للحرم ^(٣) ، وكان يحب الصالحين ويكرمهم ويركب إليهم
ويطلب دعاءهم . يقول ابن سعيد ^(٤) : « وحدثني مسلم بن عبد الله الحسيني قال :
وصفت للإخشيد رجلاً صالحاً بالترافة يعرف بابن السبب ، فركب معي إليه ،
وسأله الدعاء ، ثم انصرف . فقال لي : تعال أريك أنا أيضاً رجلاً صالحاً ؛
فصنيت معه إلى أبي سليمان بن يونس ، فرأيت شيخاً أديباً جالساً على حصر
سامان مبطن ، فقام فتلقى الإخشيد وأقده على الحصر ؛ ثم قال له يا أبا سهل :
اقرأ عليّ ! فإن الريح آذنت الساعة في الصحراء ؛ فأدخل يده تحت الحصر
فأخرج منه منديلاً نظيفاً مطوياً فغطاه على يده وقرأ عليه » . وكان الإخشيد
يحب قراءة القرآن ويبكي عند سماعها ^(٥) .

وقد وقع له مرة أمر عجيب ؛ وذلك أن رجلاً من أهل العراق صعد فوق
زمنهم بمكة وصاح : معاشر الناس ! أما رجل غريب ، ورأيت البارحة رسول الله

(١) المغرب لابن سعيد ص ٣٥ — ٣٦ .

(٢) اطر الفصل الخامس بالأخلاق والمعادن .

(٣) المغرب لابن سعيد ص ١٥ ، ٣٧ .

(٤) المغرب ص ٢٤ — ٢٥ ص ٣٩ .

(٥) من المصدر ص ٣٧ .

صلى الله عليه وسلم ، وهو يقول لى : سِرْ إلى مصر ، وأتى محمد بن طنج ، وقل له
 عنى بطاق محمد بن على المادراى ، فقد أضرت بولدى . ثم سارت القافلة إلى مصر ،
 وسار الرجل ووصل إلى مصر وبلغ الإخشيد خبره ، فأحضره ، وقال إيش
 رأيت ؟ فأخبره ، فقال : كم أنهقت فى سيرك إلى مصر ؟ قال : مائة دينار ،
 فقال : هذه مائة دينار من عندى ، وعُدْ إلى مكة ، ونم فى الموضع الذى رأيت
 فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا رأيتَه فقل لرسول الله : قد بلغتُ رسالتك
 إلى محمد بن طنج ، فقال : بقى لى عنده كذا وكذا ، وذكر شيئاً كثيراً ، فإذا
 دفعه إلى أطلقته ؟ فقال له الرجل : ليس فى ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم
 هزل ، وأنا أخرج إلى المدينة ، وأنفق من مالى وأسير إلى رسول الله صلى الله
 عليه وعلى آله وأقف بين يديه يقظان بنبر منام ، وأقول : يا رسول الله أدّيتُ
 رسالتك إلى محمد بن طنج ، فقال لى كذا وكذا ، وقام الرجل ؛ فأمسكه ، وقال :
 حصلنا فى الجدل ؛ إنما ظنمنا بك ظناً ، والآن فأتبرحْ حتى أطلقه ، فأرسل إليه
 الإخشيد من توسط فى أمره وأطلقه^(١)

وفى سنة ٥٣٣١ - ٩٤٢ م ورد الخبر من دمياط إلى مصر بأن رجلاً
 أقطع اليد قديماً ، ممن قد أخذ مع قوم اتهموا بقطع الطريق ، غاب عن البلد
 زماناً ثم عاد ويده صحيحة . وقد ادعى أنها كانت مقطوعة وأنها كانت عند أهله ؛
 وقال إنه كان فى مسجد يمد فيه وأن يده عادت صحيحة ؛ فافتن الناس به وكثر القول
 فيه ؛ فوجه الإخشيد من أحضره إلى داره ، وسأله عن قصته فقال : رأيت فى النوم

(١) المغرب لابن سيد بن ٣٥ .

كان سقف المسجد قد انفتح و نزل إلى منه ثلاثة أنفس : النبي وجبريل وهنئ
 عليهم السلام ؛ فسألتُ النبي رَدَّ يدي ، فَرَدَّها إلى ، وانتهتُ ، وقد عادت .
 وورد من دمياط كتاب بأن جماعة من المستورين رأوه مقطوع اليد ؛ فأوصله
 الإخشيد إليه وأكبره ، واستعظم قدرة الله تعالى فيه ، ثم قيل إن هذا الرجل
 دلس وكذب ، وزالت الفتنة والله أعلم^(١) .

(١) كتاب البيور - ٢٠٩ - ٢١٠ .

الفصل الرابع

اليهود والنصارى

إن أكبر فرق بين الإمبراطورية الإسلامية وبين أوروبا التي كانت كلها على المسيحية في المصور الوسطى وجود عدد هائل من أهل الديانات الأخرى بين المسلمين ، وأولئك هم « أهل الذمة » الذين كان وجودهم من أول الأمر حائلا بين شعوب الإسلام وبين تكوين وحدة سياسية . وقد ظلت كنائس اليهود والنصارى وأديرتهم أجزاء غريبة ، واستند أهل الذمة إلى ما كان بينهم وبين المسلمين من عهود وما منحوه من حقوق فلم يرضوا بالاندماج في المسلمين ؛ وقد حرص اليهود والنصارى على أن تظل « دار الإسلام » دائما غير تامة للتكوين ، حتى إن المسلمين ظلوا دائما يشعرون أنهم أجانب متصرفون لا أهل وطن ، وحتى إن الفكرة الإنطاكية لم تمت ؛ بل كان وجود النصارى بين المسلمين سببا لظهور مبادئ التسامح التي يتنادى بها المصلحون المحدثون . وكانت الحاجة إلى المباشرة المشتركة وما ينبغي أن يكون فيها من وفاق مما أوجد من أول الأمر نوعا من التسامح الذي لم يكن معروفا في أوروبا في المصور الوسطى ؛ ومظاهر هذا التسامح شوه علم مقارنة الأديان ، أى دراسة الملل والنحل على اختلافها ، والإنبال على هذا العلم بشغف عظيم .

وكان تمييز الدين لا يحوز إلا إذا كان دخولا في الإسلام ؛ فبكتات الطوائف الدينية منفصلة بعضها عن بعض تمام الاتصال ، وكان المسلم إذا ارتد

عن الإسلام عوفب ماقتل ، كما أن قانون الدولة البورنطانية كان يقضى بقتل المسيحي إذا هو غير دينه^(١) .

(١) ولا بد أن يكون قد سبق هذا التشريع محاولات إلى الارتداد عن الإسلام ، وقد حدث في أوائل عهد الفاطميين أنه : « رفع إلى محمد بن النعمان القاضي (٢٢٤٥ - ٢٣٨٩) أن نصرانياً أسلم ، ثم ارتد ، وقد جاور النصارى ، فاستناب فأبى ، وأنهى أمره إلى العزيز ، فسله لوالى الشرطة ، وأرسل إلى القاضي أن يرسل أربعة من الشهود يستغيثوه ، فإن تاب ضمن له عنه مائة دينار ، وإن أصر فليقتل ؟ فعرض عليه الإسلام فأبى ، فقتل ، ثم أمر بتفريته في النيل » (ملحق أخبار القضاة للكندي طبعة Quest ، ايدن ١٩١٢ من ٥٩٣) ؛ وقد حدث في بلدة سروج بالعراق في القرن الثالث الهجري أن رجلاً من المنتسدين في الإسلام عذب نصارى ارتدوا بعد إسلامهم بصروف المذاب ليهدم إلى الإسلام ، فأمر به القاضي فضرب وسجن (Michael Syrus, S. 635) ، ويقول أبو العلاء الممرى (التوفى عام ٤٤٩ هـ - ١٠٥٧ م) :

وقد أسلم الرجل النصراني مرتقباً وليس ذلك من حب لإسلام
أو شاء تزويج مثل الطي مملعة لناظرين بأسوار وعلاقم
(القرويات طبعة تباى ص ٢٥٠) .

ومن كبار رجال الدين المسيحيين من دخل الإسلام ، فصبّ عليه « ورخو الكنيّة لنتهم ؟ » في أواخر القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) اتهم رئيس الأساقفة النسطوريين بمدينة مرو بالواطأتهما عليهما ، فاعتنق الإسلام ؛ وكان يحط من شأن المسيحيين لدى البلاط (Barhebraeus, Chron. Eccles. III, 171 ff.) ؛ وحوالي عام ٣٦٠ هـ - ٩٨٠ م اعتنق أسقف أدريجان الإسلام بعد أن قضى عليه يزنى بامرأة مسلمة (نفس المصدر ص ٢٤٧) ، وفي سنة ٤٠٧ هـ - ١٠١٦ م هدد رئيس أساقفة مدينة نكريت بالخلع بسبب ارتكابه لقرنما ، فدخل الإسلام وتسمى بأبي سلم ، وتزوج كثيراً من النساء ؛ ويحكى المؤرخون المسيحيون مسرورين أنه لم يزل من التشريف عند الخلفاء ما كان ياله وهو رئيس لأبناء دينه ، وأنه في آخر حياته كان يجتمع من التسكف (Elias Nisibenus. S. 226, Barhebr. Chron. Eccles. III, 287 ff) وكذلك في الأندلس خلع أحد الأساقفة الكبار ، وهو سمونيل أسقف مدينة البيرا Elvira لدوره سيوفه ، فاعتنق الإسلام (Graf Baudissin, Eulogius Und alvar, 1872, S. 162) . وأند عتل أبو العيّنات يثل فريد في باب في القرن الثالث الهجري ، وذلك أنه استأذن يوماً على الوزير ساعد بن علد ، فقال له الحاجب : الوزير مشغول ، فانتظر ؛ فلما أبطأ إذنه قال الحاجب : ما سمع الوزير ؟ قال : بلى ، قال : صدقت ، لكل جديد لغة ؛ فمّيرة بأنه حديث عهد بالإسلام (مروج الذهب للمسعودي ج ٨ ص ١٢٢ - ١٢٣) .

ولم يكن ثمَّ تزواج بين المسلمين وغير المسلمين ، وذلك لأن القانون المسيحي لم يكن يميز للمرأة النصرانية أن تتزوج بغير نصراني ، لئلا تنتقل هي وأولادها إلى غير المذهب ، ولا كان يجوز للنصراني بحسب قانون الكنيسة أن يتزوج بغير نصرانية إلا رجاء إدخالها هي وأولادها في النصرانية^(١) .

أما زواج المسيحي من مسلمة فكان مستحيلا . على أنه كان في الدولة الإسلامية ما يضمن لكل ديانة من ديانات أهل الذمة كيانها الخاص ، فكان لا يجوز للمسيحي أن يتهود ، ولا لليهودي أن يتنصر ؛ ولا يكون تغيير الدين إلا إذا كان ذلك دخولا في الإسلام ؛ ولم يكن النصراني يرث اليهودي ولا العكس ، كما لم يكن اليهودي أو النصراني يرث المسلم ولا المسلم غير المسلم يهوديا كان أو نصرانيا^(٢) . وقد أصدر الخليفة المقتدر في سنة ٥٣١١ - ٩٢٣ م كتابا في المواريث أمر فيه بأن « تُردَّ تركة من مات من أهل الذمة ، ولم يخلف وارثا ، على أهل ملته » ، على حين أن تركة المسلم كانت تُردَّ إلى بيت المال^(٣) . وفي النصف الثاني من القرن الرابع الهجري صدر منشور كتب لأصابيين من

(١) Sachau : Syrische Rechtsbücher, II, S. 75, 170, 192.

(٢) كتاب الحراج وصنعة الكتاب لقدماء بن جعفر ، مخطوط رقم ٥٩٠٧ . بالمسكنة الأهلية بباريس ص ١٣ ب ، حيث ورد في عهد لفاض بولاية الحكم ألا يورث أهل ملتين .
(٣) كتاب الوزراء ص ٢٤٨ ؛ [ويظهر أن المال كانت قبل عهد المقتدر فيها ينطق بالمسلم أن تركته تركة من لا وارث له إلى بيت المال ، وكفك ما يفضل عن السهام المقروضة في القرآن ، إن لم يكن المتوفى عصبة تحوز باقي ميراثه ؛ وكان لذلك عمال يسمون عمال المواريث ، وقد اشتغلوا حتى شكى منهم الناس . والفهوم من نص كتاب المقتدر أنه أمر بصرف عمال المواريث في سائر الأوصاف ، وأمر برد ما يفضل من السهام المقروضة على أصحاب السهام من القرى ، ويعمل تركة من يتوفى ، ولا عصبة له ، تدوى رحمه ، إن لم يكن له وارث سواء ؛ وهذا رأي عمر وعلي وابن عباس وابن مسعود رضى الله عنهم . على أن الكتاب لم يقرر تركة المسلم لدى موت ولا يكون له وارث ولا رحمه — المترجم] .

أمير المؤمنين ، أمر فيه ، إلى جانب صيانتهم وحراستهم والذب عن حريمهم ورفع الظلم عنهم ونحو ذلك ، بالتخليفة بينهم وبين موارثهم ، وترك مداخلتهم ومشاركتهم فيها ، لأن أمير المؤمنين يرى في موارث الصابئين وغيرهم من المخالفين رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ يقول في الأثر الثابت عنه : « لا يتوارث أهل ملتين »^(١) .

وفي أثناء القرن الرابع الهجري اعترف للمجوس بأنهم أهل ذمة ، إلى جانب اليهود والنصارى ؛ وكان لهم ، كاليهود والنصارى ، رئيس يمثلهم في قصر الخلافة وعند الحكومة ؛ ولكن كان بين هذه الطوائف الثلاث فروق ؛ فأما اليهود فإنهم استطاعوا أن يستنفذوا مركزهم السياسي من خلال الاتحاد المكثك الذي كان للإمبراطورية البابلية رغم ما تعرضوا له من مخاطر وتقلبات ؛ وأما المجوس فهم بقية لعدو باسل مستقل لم يتم التغلب عليه في موطنه البعيدة النال ؛ أما النصارى فقد كانوا من قبل يخضعون لحكم الساسانيين على ما يشبه حال أهل الذمة ، وكانت الظروف التي عاشوا فيها أقسى عليهم من غيرهم وأقل حفظاً لمصالحهم من اليهود أو من شعوب الولايات التي أخذت من الروم^(٢) ؛ وكانت الرئاسة في المجوس واليهود وراثية ، وكانت يلقب رؤسؤهم بـ « الملوك » ، وكانوا يدفعون الضرائب لرؤسائهم ، خلافاً لما كان الحال عليه بالنسبة للنصارى^(٣) ، وقد قال بطريرك البغدادية في مجلس له مع الخليفة : إن رؤساء المجوس واليهود حكام دنيويون ، وإنه هو رئيس روحي ، ولا يستطيع إلا فرض

(١) رسائل الصابي مخطوط رقم ٧٦٦ مكتبة ليدن يولده س ١٢١١ — ب .

(٢) Nöldeke : Tabariübersetzung, S. 68. Anm.

(٣) Michael Syrus, ed. Chabot, S. 519. ؛ وكان أهل الذمة في الموصل

يدفع كل واحد منهم ديناراً ؛ وكان نصف ما يحصل من اليهود يعطى لرئيسهم ونصفه الآخر للحكومة (R. Petachjä, S. 276) .

العقوبة الروحية ، كانت يحكم بإزالة القس والأساقفة عن مناصبهم أو بمنع المعلمانيين من حضور البيعة^(١) . وصار الجاثليق النسطوري ، رئيس المسيحيين الشرقيين ، بعد أن انتقل مركز الدولة الإسلامية إلى الشرق ، هو الرئيس الأكبر للنصرانية ، وكانت تنتخبه الكنييسة ويصادق الخليفة على انتخابه ، ويكتب له عهداً كما يكتب لكبار العمال والنصرانيين ، وقد وردَ في نسخة عهد الجاثليق عام ٥٥٣٣ - ١١٣٩ م^(٢) ، « ولما أُنتهيتُ حالك إلى أمير المؤمنين ، وأنتك أنتلُ أهل مانتك طريقةً ، وأقربهم إلى الصلاح مذهباً ... وحضر جماعة من النصاري الذين يرجع إليهم في استلام سيرة أمثالك ... فاتفقوا باجتماع من آرائهم وأهوائهم على اختيارك لرياستهم ومراعاة شؤونهم وتبدير وقوفهم والتسوية في عدل الوساطة بينهم ، قوتهم وضعيفهم ، وسألوا أيضاً نصبتك عليهم بالإذن الذي به تثبت قواعد ... وبرز الإذن الإمامي الأشرف لا زالت أوامره معضودة بالتوفيق بقربتك جاثليقاً لنسطوري النصاري بمدينة السلام ومن تضمنته ديار الإسلام وزعماء لم ومن عدام من الروم واليماقية والمكسيكية في جميع البلاد وكل حاضر في هذه الطوائف وبإد وانفرادك عن كافة أهل ملتك بتقدم أهبة الجثلة المتعارفة في أماكن صلواتكم وبجامع عبادتكم غير مشارك في هذا الإنسان ولا مفسح في التحلي به لطران أو أسقف أو شماس^(٣) حطأ لم عن ريتك ووقوفاً بهم

Dionys von Tellmachre, ed. Chabot, 148, Barhebraeus, Chronicon (١)
ecclesiasticum, ed. Abbelios et Lamy 1,372

(٢) نقل عن تذكرة ابن حمدون التي نشرها أمدرود JRAS, 1903, 467 ff.

(٣) كانت علامة الجاثليق ، كما يقول الجاثليق ، برملة ويصفا (ز) وأمل الرملة آتية من الكلمة اليونانية hyperbole — انظر البيان والبيان طبعة مصر ١٣١٩ هـ ج ٢ ص ٧٦ — على أنه يمكن من أحد أصحاب الضياع المسلمين في القرن الثالث الهجري أنه كان طوب على صياغة وعلى رأسه برملة خوس ، انظر كتاب المحاسن والساوى قيسيني ؛ الطبعة الأوروبية ز نشرها (Friedrich Schwalli) عام ١٩٠٠ - ١٩٠١ م ص ٦٦ .

دون محلك ؛ وإن ولج أحد في باب المجادة ... وأبى النزول على حكمك ... كانت
 العقوبة به حاققة حتى تعدل قنائه ... وأمر بمحلك على مقتضى الأمثلة الإمامية
 في حق من تقدمك من الجناقة ... والحياطة لك ولأهل ملك في الأنفس
 والأموال والحراسة لكافة بصلاح الأحوال واتباع المادة المستمرة في مواراة
 أموالكم وحماية بيمكم ودياراتكم ... وأن يقتصر في استيفاء الجزية على تنازلها
 من العقلاء والواجدين من رجالكم^(١) ، دون النساء ومن لم يبلغ الحلم من
 أطفالكم ، ويكون استيفاءها نوبة واحدة في كل سنة من غير عدول في قبضها
 عن قبضة الشرع المستحقة ، وفَسَحَ (هكذا في النص) في أن تتوسط طوائف
 النصارى في محاکاتها فتأخذ النصف من القوى المستضعف » .

وكذلك كان يكتب لبطريق البغدادية عهداً ، فكان لابد له أن يذهب إلى
 قصر الخلافة عند تنصيب كل خليفة جديد^(٢) . ولكن الخليفة منحه حوالى عام
 ٨٣٠٠ - ٩١٢ م من أن يتخذ ببغداد مقراً له^(٣) . وكان للنصارى النوبيين
 دون سائر النصارى مركز خاص ممتاز في المملكة الإسلامية ، فكانوا يدفعون
 الضرائب إليهم ، وكان للضرائب عامل من قبله في بلاد الإسلام ، وقد حدث
 أن واحداً منهم اعتنق الإسلام ، وكان ابن ملك النوبة ببغداد زائراً ، فأمر
 باعتقاله وقله بالقيود^(٤) .

ولا يتكلم المؤرخون المسلمون كثيراً عن رئيس اليهود ؛ ويقول مؤرخو

(١) إن تخمين أمديوز لا ضرورة له ، فإن الجائز لم يكن يقبض الجزية بل القى
 كان يحبسها حامل المراج » ا

(٢) Michael Syrus, S. 319

(٣) Barhebraeus, Chron. Eccles. III, 273, Num. 1.

(٤) نفس المصدر ج ١ ص ٣٨١ ، و Michael Syrus, S. 532.

اليهود إنه عانى في القرن الرابع أياما شديدة^(١)؛ وقد تكلم عنه بنيامين (Benjamin von Tudela وبتاحيا (Petachjâ von Regensburg) في القرن السادس الهجري. وقد كان انقسام الإسلام إلى خلافة بغداد وأخرى بالقاهرة مما أثر في تنظيم المجتمع اليهودي، ولذلك نجد ببغداد رأس الجالوت الذي لقبه المسلمون بسيدنا، ولكن كلمته كانت لا تسرى إلا لشرقي القرات^(٢)؛ ونجد في القاهرة رئيساً آخر يُلقَّب مرهتاريم (أى أمير الأمراء)، وكان يعيِّن أحيار اليهود في الشام ومصر، أى في حدود مملكة الفاطميين^(٣). ولا بد أن يكون الفاطميون قد تكلفوا إيجاد هذه الطائفة الخاصة من الأسماء (ناجيد — أمير) بالقاهرة رغبة منهم في معارضة كل ما هو بغدادى؛ فنحن من القرن الثانى عشر الميلادى، أى بعد سقوط دولة الفاطميين مباشرة، كتاب رئيس الطائفة اليهودية بمصر موجه إلى بغداد يشكو فيه من إمام غير مقبول أرسل من بغداد^(٤)؛ ويقدِّر زبني بنيامين (وهو حالة سافر عام ١١٦٥ م) اليهود الذين في المملكة الإسلامية — بعد صرف النظر عن المغرب — بنحو ثلاثمائة ألف يهودى، على حين أن زبني بتاحيا — وقد سافر بعد صاحب بعشرين عاما — يقدِّر أن عدد

(١) H. Graetz, Geschichte der Juden, V, 4. Aufl. S. 276 ff. وفيما يتعلق بالمراجع العربية التي تكلمت عن رأس الجالوت انظر : Goldziher : Revue des études juives; VIII, 121 ff. وقد نقل جولدزير من مؤلف مرى مجهول : والجالوت رئيسهم، وزعم طاعتهم أنه لا يرأس [حتى يكون طوبى الباع] حتى تكون أبنائهم يدينون ركبته، انظر أيضاً مقتنيات العلوم لأبي عبد الله الحوارزى طبعة لندن ١٨٩٥ ص ٣٥. انظر أيضاً الأسراف...

(٢) Benjamin, S. 61. وعند بتاحيا أن أمره لائد في دمشق ومكة.

(٣) Benjamin, S. 99.

(٤) Mitteil. Samml. Erz. Rainer, V, 130.

اليهود في العراق وحدها يبلغ ستمائة ألف^(١) . ولا تنطبق هذه الأرقام على الشام في القرن الرابع المجري لأن السياسة التي جرى عليها قواد الصليبيين إزاء اليهود كادت تنفي الطائفة الإسرائيلية ؛ ويُقدَّر بنيامين عددًا سكان الحى الخاص باليهود في القدس بأربعة أنفس^(٢) ؛ ولم يجد بتاحيا هناك إلا شخصاً واحداً . ويقول بايلومارسيايوس جورجيوس (Bailo Marsilius Georgius) في خبر يرجع تاريخه إلى أكتوبر ١٢٤٣ م إنه لم يكن في الحى الخاص بالبندقيين في صور إلا تسعة من شبان اليهود^(٣) . أما بنيامين فيقول إنه كان يسكن دمشق ثلاثة آلاف يهودي تحت حكم المسلمين — وعند بتاحيا عشرة آلاف — وفي حلب خمسة آلاف يهودي . أما على نهري دجلة والفرات فكان اليهود مجتمعين بكثرة كما كانوا بألمانيا في ذلك الوقت على نهري الرين والموزل . وقد كانوا كثيرين على نهر دجلة بنوع خاص ، يقول رنُّ بتاحيا^(٤) : « ونتمَّ يهود في جميع المدن والقرى التي بين نينوى ودجلة » . وكان في جزيرة ابن عمر أربعة آلاف ، وفي الموصل سبعة آلاف (وعند بتاحيا ستة آلاف) ، وفي مدينة حرّبة بأقصى الشمال في العراق خمسة عشر ألفاً ، وفي عكبري وواسط عشرة آلاف ، ولكن من العجيب أنه لم يكن يوجد بينداد إلا ألف يهودي^(٥) ؛ وكانت المدن التي بها يهود كثيرون على الفرات هي مدينة الحلة ،

(١) Petachjá, S. 289.

(٢) ويُذكر أن عددهم مائتان ، وذلك في عطاوط واحد .

(٣) Tafel und Thomas, Urkunden zur älteren Handels-und Staatsgeschichte der Republik Venedig Wien, 1856, II, S. 359.

(٤) رنُّ بتاحيا .

(٥) من ٢٧٩ .

(٦) Benjamin S. 19 ، وكذلك Petachjá, S. 280 . ويقال إن بها اليوم أكثر

من أربعين ألف يهودي ، لهم إحدى وعشرون بيعة ؛ انظر كتاب Obermeyer, Modernes Judentum, Wien, 1907, S. 23.

وفي الطبعة الأخيرة لكتاب بنيامين أريون أما ،

وعندما سمع ما يقوله بتاحيا ، ولا مع ما كان يحصل من الجزية (انظر ص ٩١) .

وكان بها عشرة آلاف ، والكوفة ، وكان بها سبعة آلاف ، والبصرة وكان بها ألذان ، وفي أوائل القرن الرابع الهجري كان اليهود هم أكثر أهل مدينتي سورا ونهر ملك من بين أجزاء العراق الأخرى^(١) . وكلما تقدمنا شرقاً زاد عدد اليهود ، فكان بهذان ثلاثون ألفاً ، وبأصفهان خمسة عشر ألفاً ، وبشiraz عشرة آلاف ، وبغزة ثمانون ألفاً ، وبسمرقند ثلاثون ألفاً^(٢) . ويقول المقدسي في القرن الرابع ما يؤيد هذا فيذكر أن بخراسان يهوداً كثيرين ونصارى قليلين^(٣) ، وأن بالجليل يهوداً أكثر من النصارى^(٤) ؛ وكان بالمشرق أيضاً المدينتان الوحيدتان اللتان أطلق عليهما اسم اليهودية : إحداهما قرب أصفهان والأخرى شرق سمرقند . وكذلك وجد المقدسي إقليم خزرستان « قليل النصارى غير كثير اليهود أو المجوس » (ص ٤١٤) ، وكذلك في فارس وجد « المجوس أكثر من اليهود ، وبه نصارى قليل » (ص ٤٣٩)^(٥) . وكذلك الحال في جزيرة العرب ، فاليهود أكثر من النصارى (مقدس ص ٩٥) ، ومم الغالب على مدينة قرمح ، ثمانية مدن الحجاز عمارة وتجارة (مقدمي ص ٨٣ - ٨٤) . أما مصر فالأرقام التي ذكرها بنيامين أقل مما تقدم بكثير^(٦) : فكان بالقاهرة

(١) أخبار المسكاه للطبع الأوربية من ١٩١٤ .

(٢) هذه الأرقام تقريبية لأن بنيامين لم يزر الشرق ، ويقال إنه كان في مدينة خبز ، وهي مدينة صغيرة بجزيرة العرب ، غلبت الفأمن اليهود ، وهذا عجيب .

(٣) المقدسي ص ٣٢٣ .

(٤) نفس المصدر ص ٣٩٤ .

(٥) ويقول أحد مؤلفي القرن الرابع عشر الميلادي إن مدينة أبرلوة بخارس تمار بأن أبناء اليهود فيها لا يعيشون أكثر من أربعين يوماً ، انظر Handl. u. Mustawli von O. L. S. ١٩٠٦ .

(٦) وهو من مع المقدسي حيث يقول (ص ٢٠٢) : « ويهود البيل » . وقال : إن اليهود كانوا في العصور القديمة يؤمنون أكثر من غيرهم أن يكون « a o. ischaf » (Geschichte der Juden, I, 27)

سبعة آلاف وبالإسكندرية ثلاثة آلاف ، وعمدنا حولنا نحو ثلاثة آلاف ،
ونتم ستائة في المدن التجارية بالصعيد .

أما عدد النصارى فلا يمكن تعيينه إلا تعييناً تقريباً ناقصاً جداً ؛ وفي عهد عمر
ابن الخطاب رضى الله عنه كان عدد الذين دفعوا الجزية خمسمائة ألف إنسان^(١) ،
ومعنى هذا أن أهل القمة بلغوا خمسمائة ألف منهم اليهود^(٢) ؛ وبديل إحصاء
سكان مصر في القرن الثانى الهجرى على أنه كان خمسة ملايين من القبط
يدفعون الجزية^(٣) ، وهذا يدل على أنه كان بمصر خمسة عشر مليوناً من
النصارى الأقباط^(٤) ؛ وبلغ مقدار الجزية ببغداد في القرن الثالث الهجرى
مائة ألف وثلاثين ألف درهم^(٥) ، وفي أوائل القرن الرابع بلغت مائة وستين
ألف درهم^(٦) ؛ وبديل هذان الرقمان على أنه كان ببغداد نحو من خمسة عشر ألفاً
من أهل القمة يدفعون الجزية ، ويجب أن نلاحظ منهم ألف يهودى . ونستطيع
أن نقول بشئ من اليقين إنه كان ببغداد ما بين أربعين وخمسين ألف نصرانى ،
والمدينتان الوحيدتان فيما بين الفرات ودجلة اللتان يقول ابن حوقل إن أكثر
أهلها نصارى هما الرها وتكريت ؛ ويقول عن تكريت إنها مدينة قديمة
البناء ، وتجمع سائر فرق النصارى ، وبها من البيع والأديرة القديمة التى تقارب

(١) كتاب المالك والمالك لابن خردادبة ، طبعة لندن س ١٤ .

(٢) ولكن يجب أن يراعى أن الجزية لم تكن تؤخذ من جميع أهل القمة [المترجم]

(٣) Führer durch die Samml. Rainer, S. 152 .

(٤) يبلغ سكان مصر بحسب إحصاء ١٩٠٧ اثني عشر مليوناً ، [والآن (١٩٠٦)

يزيدون على اثنين وعشرين مليوناً — المترجم] .

(٥) ابن خردادبة س ١٢٠ ؛ ويقول لقدامة بن جعفر في كتاب الحراج (طبعة لندن

س ٢٥١) إن جزية أهل القمة كانت مائتي ألف درهم عام ٢٠٤ هـ .

(٦) Kremer : Einnahmehudget der Abbasiden, DWA. 36, S. 313 .

عهد عيسى عليه السلام والحواريين ، لم تغير أبنيتها وثاقه وجَلَدًا^(١) .
 أما المجوس فكانوا كثيرين بالعراق^(٢) ، وأكثر ما كانوا في جنوب
 فارس . وفي سنة ٣٦٩ هـ - ٩٧٩ م وقعت فتنة عظيمة بينهم وبين عامة شيراز
 من المسلمين ؛ ونهبت في هذه الفتنة دور المجوس ، وضربوا ، فسمع عضد الدولة
 الخليل وجمع كل من له أثر في ذلك وبأنح في تأديبهم وزجرهم^(٣) ؛ ولكن شيراز
 كانت مدينة هادئة في العادة ، وقد عجب للقدسي من أنه لم يَر فيها على مجوس
 غياراً يميزه ومن أن الأسواق تزين في أعياد الكفار . وفي عام ٨٣٧١ - ٩٨١ م
 مات أحد كبار الصوفية ، فشى في جنازته المسلمون واليهود والنصارى . وكانت
 تقع في القنطرة التي بشرق فارس مدينة القرينين ، وأهلها مجوس ، وكبهم من
 كرى حمير ، بضربون عليها إلى الأفاق^(٤) .

أما الصابئة فكان آخر عهد ازدهر أمرهم فيه أواخر القرن الثاني ، في عهد
 الخليفة الأمين ؛ ففي ذلك العصر « عاد شأن الوثنية بمران إلى الظهور ، وتبدت
 الثيران في جميع الشوارع مزينة بالمالى الثياب والورود والرياحين وبالأجراس على
 قرونها ، وسار خلفها الرجال بالزمامير^(٥) » . وفي حوالى عام ٨٣٢٠ هـ استنق الخليفة
 القاهر أبا سعيد الأسطخري محتسب بغداد في الصابئين ، فأفناه بقتلهم ، لأنه
 تبين له أنهم يخالفون اليهود والنصارى ويعبدون الكواكب ؛ فعزم الخليفة على
 ذلك حتى جمعوا من بينهم مالا كثيراً فكف عنهم^(٦) . وقد صدر حوالى

(١) ابن حوقل ص ١٥٦ .

(٢) القدسي ص ١٢٦ .

(٣) ابن الأثير ج ٨ ص ٥٢٢ .

(٤) كتاب الحراج وصناعة الكتاب لدمية بن جعفر طبعه لبنان ١٨٨٩ ص ١٠٩ .

(٥) Michael Syrus S. 497 .

(٦) طبقات السبكي ج ٢ ص ١٩٣ .

منتصف القرن الرابع الهجرى - شور كُتِبَ الصائين القيمين بحرّان والرقّة وديار
مضر أترّ فيه الخليفة بصيانتهم وحراستهم^(١) ؛ ولكنهم انقضوا حوالى
عام ٤٠٠ هـ - ١٠٠٩ م ، حتى إن ابن حزم يقول إنهم فى جميع الأرض
لا يملكون أربعين نفساً^(٢) .

ولم يكن فى التشريع الإسلامى ما يُفلق دون أهل الذمة أى باب من
أبواب الأعمال ؛ وكان قدمهم راسخاً فى الصنائع التى تدّر الأرباح الوفرة ،
فكانوا صيارفة وتجاراً وأصحاب ضياع وأطباء^(٣) ؛ بل إن أهل الذمة نظموا
أنفسهم بحيث كان معظم الصيارفة والجهابذة فى الشام مثلاً يهوداً ، على حين كان
أكثر الأطباء والكتبة نصارى^(٤) . وكان رئيس النصارى ببغداد هو طبيب
الخليفة ، وكان رؤساة اليهود جهابذتهم عنده^(٥) . وكان أصغر دافى الفرائب

(١) رسائل الصابى مخطوط رقم ٧٦٦ بمكتبة لندن م ١٢١١ - ب .

(٢) كتاب الفصل لابن حزم ج ١ ص ١٦٥ طبعه مصر عام ١٣١٧ هـ .

(٣) كتاب المراج لأبى يوسف القاضى ، طبعه بولاق م ٦٩ .

(٤) المقدسى م ١٨٢ .

(٥) وفى عام ٢١٠ هـ - ٨٢٥ م مثلاً ، قام الطبيب جبريل ووريله ميخائيل باختيار
المخاتلىق النسطورى (Barbebraeus, Chron. Eccles., III. 187) ، ويقول أبو نواس
(ديوانه طبعه القاهرة سنة ١٨٩٨ م ٣٥٦) :

سألت أخى أبا عيسى	وجبريل ، له عقل
فقلت : الراح تعجبنى	فقال : كثيرها قتل
فقلت له : فقدّر لى	فقال : وقوله فصل
رأيت طبائع الإنسا	ن أوبة ، من الأصل
فأربعة لأربعة	لكل طبيعة رطل

وبقول شاعر نيسابورى فى الفصد :

لما رأيت الجسم ذا اعتلال	ودبت الآلام فى أوصال
دمعت شجراً من بى الخوالى	بطريق عم جاتلى خال
فقل سيفاً ليس للقتل	ومرهقاً ليس من الصوالى

على آخر القصيدة ، بطريقه الدمع ج ١ م ٣٥٦)

م اليهود الخياطون والصباغون والأساكفة والخزازون ومن إليهم^(١) . وقد وجد بنيامين (ص ٣٥) في القدس في القرن الثاني عشر الميلادي أن اليهود يحتكرون صناعة الصباغة ، وكذلك الاثنى عشر يهوديا الذين وجدتم في بيت لحم ؛ فقد كانوا جميعا صباغين (ص ٤٠) ، لأن اليهودي ولو كان واحدا في بلد فإنه يشتغل بهذه الصناعة (بنيامين ص ٣٢ و ٤٣ و ٤٤ و ٤٩) .

أما حياة الذمى فإنها عند أبي حنيفة وابن حنبل تكافئ حياة المسلم ، وديته دية المسلم ؛ وهي مسألة مهمة جدا من حيث البداية . أما عند مالك فدية اليهودي أو النصراني نصف دية المسلم ، وعند الشافعي ثلثها ؛ أما المجوس فديته جزء من خمسة عشر جزءا من دية المسلم . وبما كان يستحق التأديب ، لا الحد ، عند فقهاء المسلمين أن يُقال للمسلم : يا يهودي أو يا نصراني أو ما جرى هذا الجري^(٢) . ولم تكن الحكومة الإسلامية تتدخل في الشعار الدينية لأهل الذمة ،

(١) كتاب المراج لأبي يوسف ص ٦٩ ؛ والقدس ص ١٧٣ ؛ ولد جاء في كتاب حكاية أبي القاسم البغدادي تأليف محمد بن علي المظهر الأزدي ، طبعة مترجيدلبرج سنة ١٩٠٢ ص ٤٢ : " كأنها نزل كتابي نصر " من دكان ابن هذره اليهودي " . وفي كتاب ذكر أخبار أسفهان لأبي نعيم (مخطوط رقم ٥٦٨ بمكتبة آيبن ص ١١١) ، [ولهذا الكتاب نسخة مطبوعة نشرها الدكتور سفين ديدريج Dr. Sven Dederling بليدن سنة ١٩٣١] : وسكنها اليهود قبلين على صناعتهم الفخرة كاللحجاة والفصارة والفصاية .

(٢) كتاب المراج ليعي بن آدم القرشي ، طبعة ليدن ١٨٩٥ ص ٥٥ : حكى أن رجلا من المسلمين قتل رجلا من أهل الكتاب فرمى إلى النهر صلى الله عليه وسلم فقال : أنا أحق من وف ذمة ، ثم أمر به فقتل ؛ وعن عداة بن مسعود قال : من كان له عهد أو ذمة

وانظر : Sachau : Muhammedanisches Recht, 1897, S. 787. وفي بلاد المال بغيره
ملا كانت دية النعمي الحر دية الروماني ص ٦٦٦ .

بل كان يبلغ من بعض الخلفاء أن يحضر مواكبهم وأعيادهم ويأمر بصيانتهم^(١)؛ وفي حالة انقطاع الطرقات المحكومة تأمر بعمل مواكب « يسير فيها النصارى، وعلى رأسهم الأسقف، واليهود ومعهم الناقحون في الأبواق^(٢) »؛ وكذلك ازدهرت الأدبيرة في هدوء؛ فمن ذلك القدير المسمى دير قتي، وهذا القدير كان « يقع على مسافة ستة عشر فرسخاً من بغداد، منحدرًا في الجانب الشرقي، بينه وبين دجلة ميل ونصف، وهو دير حسن نزهة عاشر، وفيه مائة قلابة لربانته والتبتلين فيه، لكل راهب قلابة؛ وهم يتناوبون هذه القلالي بينهم من ألف دينار إلى مائتي دينار إلى خمسين ديناراً^(٣)، وحول كل قلابة بستان فيه من جميع الشجر والنخل والزيتون، وتباع غلاته من مائتي دينار إلى خمسين ديناراً، وعليه سور عظيم يحيط به، وفي وسطه، نهر جار؛ وعبد القدي تجتمع الناس إليه عيد الصليب^(٤) ».

وكان أكبر الأدبيرة بمصر القدير المعروف بدير أنطانيوس، وبينه وبين النيل ثلاثة أيام في البرية؛ وهو يقع شرق إطفيح من قبلى مصر، وهو على جبل عال، وله بمصر وقوفات وأملاك عدة، وعليه حصن دائر، وداخل الحصن

(١) لم يكن يجوز للنصارى من حيث المبدأ أن يحملوا مواكبهم رايات أو صلباناً أو مشاعل، أو يخرجوا بسلاح (كتاب المراج لأبي يوسف طبعة بولاق سنة ١٣٠٢ م ص ٨٠ وما بعدها)؛ ولكن هذا لم يكن ينفذ عملياً. راجع أيضاً الفصل الخامس بالأبعاد.

(٢) Dionys. von Tellmachre, S. 176.

(٣) وحوالى عام ٢٠٠٠ هـ - ٩١٢ م كان الرجل يتناوب لابنه قلابة في القدير إذا أحب الرعيته ومال إليها (الإرشاد للقبول ج ٢ ص ٢٤).

(٤) كتاب الديارات الشاذلي مخطوط رقم ٨٣٢١ بمكتبة برلين ص ١١٥ - ١١٦، [ولهذا المخطوط سورة تسمية بدار الكتب المصرية]، أنظر أيضاً Streck, S. 284؛ ومن أراد معرفة حياة الرهبان في العراق حتى القرن الثالث الهجرى فليظر Budge: Book of Governors I. S. CXCLII II.

بستان كبير ، وفيه نخيل مشر ، وأشجار نخاع وكثرى وورمان وغير ذلك ، وأرضه مزروعة بالبقول ، وله ثلاثة عيون ماء تجري دائماً ويسقى منها البستان ؛ ومن جملة البستان فدان وسدس كرم عنب ، وقيل إن عذّة نخيله ألف رأس نخل ، وبه جوسق كبير وقلال لرهبان مطلة على البستان ، وله بإطفيح أيضاً أملاك وبساتين ، وليس مثله في سائر الديارات التي يسكنها رهبان المصريين^(١) .

على أن الكنيسة الرسمية في الدولة الرومانية الشرقية قد ذهبت في معاداتها للمسيحيين الذين يخالفون رجالها في التفكير أبعد مما ذهب إليه الإسلام بالنسبة لأهل الذمة ؛ فلما أعاد الإمبراطور ثيوفيلوس افتتاح بلاد الشام في القرن الرابع الهجري — العاشر الميلادي — كان مما وعد به أهل الشام وأمنهم به أن يحبسهم من مضايقة كنيسة الدولة ، ولكنه رغم هذا الأمان ، لم يأل جهداً في مضايقة اليعقوبيين ، فاضطرم مثلاً إلى الخروج من أنطاكية ، ولذلك يجد مؤرخي اليعقوبيين يصفون البطارقة التي عينتهم الدولة في أنطاكية بأنهم أضل من فرعون وأشد كفراً بالله من مختصر ؛ ولما أعيد فتح ملطية أخذ بطريرك اليعاقبة وسبعة من كبار أساقفتهم إلى القسطنطينية وسُجنوا هناك ، ووجدنا ثلاثمائة من أيديهم على الكنيسة الكبرى بملطية^(٢) ؛ فأما البطريرك فإنه مات متقياً على حدود باغاري ، وكذلك مات أحد أصحابه في السجن ، ورُجم الثالث أمام قصر الإمبراطور ، ورجع ثلاثة عن المذهب اليعقوبي ، وأعيد تعميدهم ، ولكنهم لم يجدوا السكنى التي يرجونها ، وصاروا موضع السخرية كأنهم شياطين .

(١) تاريخ الشيخ أنى صالح الأرمي ، طبعة أكسفورد سنة ١٨٩٤ م ١٥٤ هـ ؛ ولما كانت لوائح الرحمة بمصر تحتم الأمر أن نألبها فإن أدبرة مصر كانت تشاء أن نألبها بحالها .

وأخيراً لم يستطع رؤساء الكنيسة السريانية أن يقيموا في مقر بطريقتهم بعد دخول المذهب الملاكاني ، « وبعد أن أعيدت أنطاكية إلى المسيحية » ، كما يقول الملاكانيون ، فاضطروا إلى الانتقال إلى آمد طلباً لتسامح أكثر في بلاد الكفار^(١). ولقد منعت الكنيسة الرسمية نصارى أرمينية من استعمال الذوائس^(٢) ؛ وكثيراً ما كان رجال الشرطة المسلمون يتدخلون بين الفرق النصرانية منهم من المشاجرات ، حتى عين حاكم أنطاكية في القرن الثالث الهجري رجلاً يتقاضى ثلاثين ديناراً من النصارى في الشهر ، وكان مقره قرب المذبح ، وعمله أن يمنع المتخاصمين من قتل بعضهم بعضاً^(٣). وفي سنة ٥٣٢٢ م مات أسقف تنيس ، وكان بينه وبين البطريرك وخشنة ، فلما مات انقسم أهل مصر وأهل تنيس حزبين ، أحدهم مع البطريرك والآخر عليه ، « وقام لكل حزب من الحزبين غرض في نصرة هواء ، حتى كان الأب لا يكلم ابنه ولا المرأة تخاطب بعلها » ؛ وكان كل فريق يستعين بالسلطان على الآخر ، حتى خرج جماعة من النافرين عن البطريرك ، وذهبوا إلى الإخشيد محمد بن طنج ، فوجه معهم من ختم الكنيسة لحامسة التي كان الأسقف نازلاً بها ومنع الصلاة فيها وقبض على الأسقف والبطريرك^(٤). وفي سنة ٥٢٠٠ - ٨١٥ م أراد الخليفة المأمون أن يصدر كتاباً لأهل القسطنطينية يضمن لهم حرية الاعتقاد وحرية تدبير كنائسهم ، بحيث يكون لكل فريق منهم مهما كانت عقيدتهم ، ولو كانوا عشرة أنفس ،

(١) Barhebraeus Chron. Eccles., I, 432 ff. ولعله يقصد بالكفار هنا المسلمين .

(٢) انظر Schlumberger : Epopée Byzantine S. 168. وهكذا فلت

الكنيسة الإنجليز مع الكاثوليك حتى القرن التاسع عشر ، وكما لا تزال أسباباً وقاية لفلان حتى اليوم مع الرومانيين .

(٣) Michael Syrus, 536.

(٤) يعي ن سبدر ٨٣ ب .

أن يختاروا بطريقةهم ، ويُعترف له بذلك ، ولكن رؤساء الكنائس هاجموا وأحدثوا شغباً ، فمدل المأمون عن إصدار الكتاب^(١).

أما فيما يتعلق ببناء الكنائس فلم تكن الدولة الساسانية من قبل تسير على خطة ثابتة في ذلك ، [فـسكانت تسمح ببنائها أحياناً] ، على حين أن القانون الروماني في العهد الأخير كان يحرم على اليهود أن ينشئوا كنائس جديدة لهم ، ولا يسمح لهم إلا بإصلاح ما تهدم منها^(٢). أما في الإسلام فنجد سياسة الدولة تجمع في أوقات متتابعة بين السماح القرس وتمصّب الرومان ، فكان يُسمح للنصارى أحياناً ببناء كنائس جديدة ، وأحياناً كانوا يُمنعون حتى من إصلاح الكنائس القديمة^(٣) ؛ ففيما بين عامي ١٦٩ و ١٧١ هـ — ٧٨٥ و ٧٨٧ م هدم علي بن سليمان وإلى مصر من قبل الرشيد الكنائس المُحدثة بمصر ، ويُذلل له خمسون ألف دينار ليقرك الهدم ، فامتنع ؛ ثم جاء بعده وإلي آخر ، فأذن للنصارى في بنيان الكنائس التي هدمها علي بن سليمان ، فُبُنيت كلها بمشورة الأيثار بن سعد وعبد الله بن لمية ، وقالوا : هو من عمارة البلاد ، واحتجاً بأن عمارة الكنائس التي بمصر لم تُبنَ إلا في الإسلام في زمن الصحابة والتابعين^(٤). وفي عام ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م نار المسلمون فهدموا كنيسة بناها النصارى في تنيس ، فأعان السلطان النصارى حتى بنوا الكنيسة^(٥). وفي سنة ٨٣٢٦ — ٩٣٨ م انهدمت قطعة من

(١) Michael Syrus, S. 1.

(٢) Sachau, Von den rechtlichen Verhältnissen der Christen im Sasanidenreiche, Mitteil des Sem. für Orientalische Sprachen, X, 2, S. 78 f.

(٣) محمد الفارسي: كثيراً من الآراء في هذه المسألة عند Gottheil, Dhimmis and

Moslems in Egypt, S. 105 ff.

(٤) كتاب تاريخ مصر وولاتها للسكندى طبعه ليدن سنة ١٩١٢ م ١٣١ .

(٥) يحيى بن سعيد م ١٨٩١ .

كنيسة أبي شنودة بمصر ، فبذل النصارى للإخشيده الألبان عمارتها ، قتل :
 عدوا غموى المقهوه ؛ فأما ابن الحداد فألقى بالأا تمتر ، وألقى بذلك أصحاب مائت .
 وألقى محمد بن على بأن لم أن يرتوها ويمسروها ، واشهر ذلك عنه ، فحلت
 الرعية إلى داره النار وأرادوا قتله ، فاستروندم على فتياه . وشغبت الرعية وأغلقت
 الدروب وأحاطت بالكنيسة ؛ فأرسل الإخشيد عسكريا كبيرا ، فزحفت عليهم
 الرعية ورموم الحجارة ؛ فدعا الإخشيد بأبى بكر بن الحداد الفقيه ، وقال له :
 إركب إلى الكنيسة ، فإن كانت تبقى فانركها على حالها ، وإن كانت تحوثة فأهدمها
 إلى لعنة الله ... فأخذ ابن الحداد معه مهندسا ، فدخلها وأخذ بيده شمة ، فطاف
 بها وعاد إلى أبى بكر ، وقال له : تبقى هكذا خمس عشرة سنة ، ثم يسقط منها
 موضع ، ثم تقيم إلى تمام أربعين ويسقط جميعها ؛ فانصرف أبو بكر إلى الإخشيد
 وعرفته ، فتركها ، ولم يعمرها ، وكان أمرها كما قال المهندس ؛ فعمرت سنة
 ست وستين قبل تمام أربعين سنة ، ولو تركت لسقطت ^(١) .

وكان أهل الذمة يُعاملون في ماستانات بغداد معاملة المسلمين ، ولكن
 حدث وباء في أوائل القرن الرابع ؛ فوقع الوزير على بن عيسى إلى سنان بن ثابت
 طبيب الخليفة ، وهو الذى كان يتولى المعالجة وإعطاء الأدوية للمرضى خارج
 بغداد ، بأن يعالج المسلمين قبل أهل الذمة ^(٢) .

وكان موتى المسلمين وأهل الذمة يدفنون كل على حدة ، ولكن يمكن أن
 فى عام ٥٣١٩ هـ - ١١٣١ م جاء إلى تكريت سليل كبير ، ففرق منها أربعائة دار

(١) كتاب التاريخ لأبى سعيد بن ٣٢ - ٣٣ : وعلق أخبار الولاة والقضاة
 - كبرى من ٥٥٤ - ٥٥٥ ؛ وراجع : Tallquist, 32 f.
 (٢) أخبار المماليك - ٤٤٤ : من ١٠٤ - ١٠٥ .

وغرقى خلقاً كثيراً من الناس ، ودُفن المسجون والنصارى مجتمعين لا يُعرف بعضهم من بعض^(١) .

ولم يكن يوجد في المدن الإسلامية أحياء مختصة لليهود والنصارى بحيث لا يمتدونها ، وإن أترأه كل دين أن يعيشوا متقاربين . وكانت الأديرة المسيحية منتشرة في كل أجزاء بغداد حتى كادت لا تخلو منها ناحية .

ولما كان الشرع الإسلامي خاصاً بالمسلمين فقد خلت الدولة الإسلامية بين أهل الملل الأخرى وبين محاكمهم الخاصة بهم ؛ والذي نعلمه من أمر هذه المحاكم أنها كانت محاكم كنيسية ، وكان رؤساء المحاكم الروحيون يقرمون فيها مقام كبار القضاة أيضاً ؛ وقد كتبوا كثيراً من كتب القانون . ولم تقتصر أحكامهم على مسائل الزواج بل كانت تشمل إلى جانب ذلك مسائل الميراث وأكثر الفازعات التي تخص المسيحيين وحدهم مما لا شأن للدولة به . على أنه كان يجوز للذي أن يابغى للمحاكم الإسلامية ؛ ولم تكن الكنائس بطبيعة الحال تنظر إلى ذلك بعين الرضا ، ولذلك ألف الجاثليقي تيموثيوس (Timotheus) حوالى عام ٨٢٠٠ - ٨٠٠ م كتاباً في الأحكام القضائية المسيحية « لكي يقطع كل عذر يتعلل به النصارى الذين يلبأون إلى المحاكم غير النصرانية بدعوى نقصان القوانين المسيحية »^(٢) ؛ وفي الفصلين الثاني عشر والثالث عشر من هذا الكتاب فرض تيموثيوس على من يذهب طائفاً إلى المحاكم الإسلامية أن يتوب ويتصدق ، ويقوم على المسح والرماد^(٣) . ثم جاء خليفته فقرر أن النصارى إذا خرجوا إلى

(١) ان الأنبرج ٨ ص ١٧١ .

(٢) Sachau : Syrische Rechtsbücher, II, 57.

(٣) نصر النصر من ٦٧ ، ١٩١ .

الأحكام البرانية فإنهم يؤذون على قدر جرمهم ، ويُذَمُّون من البيعة إلى حين ^(١).

وفي عام ١٢٠ هـ - ٧٣٨ م ولي قضاء مصر خير بن نعيم ، فكان يقضى في المسجد بين المسلمين ، ثم يجلس على باب المسجد بعد العصر على الماراج ، فيقضى بين النصارى ^(٢). ثم خصص القضاء للنصارى يوماً يحضرون فيه إلى منازل القضاة ايجكوا بينهم ، حتى جاء القاضي محمد بن مسروق الذي ولي قضاء مصر عام ١٧٧ هـ ، فكان أول من أدخل النصارى في المسجد ليحكم بينهم ^(٣). وعلى أى حال فإن بعض قضاة الإسلام أجازوا تقليد الذي القضاء بين أهل دينه ، وهذا ، وإن كان العرف به جارياً ، فهو تقليد زعامة ورياسة وليس بتقليد حكم وقضاء ؛ وإنما يلزمهم حكمه لالتزامهم له ، وإذا امتنعوا من التحاكم إليه لم يجبروا على ذلك ؛ فإذا رجعوا إلى قاضي الإسلام فإنه يقضى بينهم بحكم الإسلام ، لأنه يكون عليهم أنفذ ولم ألزم ^(٤).

ولا نجد فيما انتهى إلينا من القوانين التي وضعتها البطارقة سوى عقوبات دينية كَنَفِيَّة ؛ فمنها التوبيخ أمام الناس ، والقيام على المسح والرماد أمام البيعة ، ودفع كفارة مالية للبيعة ، والمنع من حضورها ومن التمتع برسوم المباركة الدينية عند الموت ومن الدفن على الطريقة النصرانية ^(٥) ؛ ومن أمثلة العقوبة

(١) نفس المصدر ص ١٦٩ ، ٢٠٤ .

(٢) كتاب الولاية والقضاء لسكندى ص ٣٥١ .

(٣) نفس المصدر ص ٣٩٠ .

(٤) كتاب الأحكام الاطانية لأبي الحسن الماوردي طبعة بن (Bonn) بألمانيا ص ١٠٨ .

— ١٠٩ ، وهكذا جاء أيضاً في نسخة عهد للناس بولاية القضاء ، ثبت بعد عام ٢١٦ هـ .

— ١٢٨ م . انظر لقائمة ابن جعفر مخطوط باريس ص ١٣ ب .

(٥) Sachau : Syrische Rechtsbücher II, S. VI .

أن النصراني الذي يضرب آخر يُنتزع من البيعة ومن رسوم المباركة من القسيس
نهرين ، ويفف كل يوم أحد على المسح والرماد ، وعليه أن يتصدق على
الفقراء بحسب قدرته ^(١) .

أما في الأندلس فنحننا من مصدر جدير بالثقة أن النصراني كانوا يفصلون
في خصوماتهم بأنفسهم ، وأنهم لم يكونوا يلجأون للقاضي إلا في مسائل القتل ؛
فكانوا يقدمون المتهم إليه ويعرضون أدلتهم ، فإذا قال القاضي : « حَسَن » ،
قُتِلَ المجرم ^(٢) . ويقول ربي بتاحيا إن رؤساء اليهود في الموصل كانوا هم الذين
يعاقبون سرورسيهم ، حتى ولو كان أحد طرفي الخصومة مسلماً ؛ وكان بالموصل
سجن يسجن فيه اليهود ^(٣) .

وأكبر ما كان يُحرّم منه أهل القنّة ويؤثر في نفوسهم تأثيراً عميقاً أنه لم
يكن يُسمح لهم بالتقدم للشهادة أمام القضاء ، كأنهم عبيد . وذهب بعض الفقهاء
إلى أنه لا تقبل شهادتهم على أهل دينهم ، وذهب البعض مذهباً آخر ^(٤) .
أما المحاكم النصرانية فإنها كانت تقبل شهادة المسلم على النصراني على كره منها
لذلك بالطبع . وكل ما كانت تطلبه هو أن يكون الشاهد تقياً يخاف الله غير
مطعون في ذمته ، وهذه هي الشروط التي كان القاضي المسلم يحتم توفرها
في الشاهد ^(٥) .

(١) من المصدر ص ٦٨ والى عليها .

(٢) Graf Baudissin : Eulogius und Alvar, S. 13 Anm, 6 .

(٣) Petachjā, 276 .

(٤) Sachau, muhammedanisches Recht, S. 739 . وكانت ألقاضي عد

ابن سرور الذي ولي القضاء عام ١٧٧ هـ قبل شهادة النصراني واليهود بعضهم على بعض ،
ويسأل بين عدالتهم في أهل دينهم ؛ وفي عهد افاض بولاية القضاء أن يقبل شهادة بعض أهل

البلد على بعض ، انظر السكندى ص ٣٠١ ، وقراءة مخطوط باريس ص ١٣ ب .

(٥) Sachau : Syrische Rechtsbücher, II, 107 .

وكان أهل الذمة ، بحكم ما كانوا يتمتعون به من تسامح المسلمين معهم ومن حمايتهم لهم ، يدفعون الجزية ، كل واحد منهم بحسب قدرته ؛ وكانوا ثلاث طبقات : تدفع الدنيا منها اثني عشر درهما ، والوسطى أربعة وعشرين ، والامامية ثمانية وأربعين درهما في السنة ، أو ديناراً أو دينارين أو ثلاثة في البلاد التي عُمَّلتها الذهب ؛ وكانت هذه الجزية أشبه بضريبة للدفاع الوطني ، فكان لا يدفعها إلا الرجل القادر على حمل السلاح ، ولا يدفعها ذوو العاهات ، ولا المترهبون وأهل الصوامع إلا إذا كان لهم يسار^(١) . ويحكى ابن خردادبه^(٢) أن الروم كانوا يأخذون من اليهود والمجوس ديناراً في السنة ؛ وكذلك فرض النصارى على المسلمين الجزية لما فتحوا بلادهم^(٣) . على أن غالبية دافى الجزية كانوا يدفعون الحد الأدنى ، حتى أن بنيامين يقول : « إن اليهود في كل بلاد الإسلام يدفعون ديناراً واحداً »^(٤) . وكذلك يقول بتاحيا : « إن اليهود في العراق لا يدفعون شيئاً للخليفة ، وإنما يدفع الواحد منهم في كل عام ديناراً واحداً رأس الجالوت »^(٥) . ويحكى بيلوس سيليوس جورجيوس (Bailo Marsilius Georgius) في أكتوبر سنة ١٢٤٣ م ، وهو في مدينة صور ، أن « كل يهودي

(١) يذكر بنيامين (ص ٧٧) وموسى-يلوس (انظر ما يلي) أنه كان يُدفع منها من قبل سنة عن خمس عشرة سنة . وفي الدولة الفارسية كان لا يدفعها إلا من بلغ العشرين انظر . Nöldeke, Tabariübers., S. 247.

(٢) السالك والمالك ص ١١٩ .

(٣) ابن حوقل ص ١٢٧ ولما أخذ باسيل الإمبراطور مدينة حلب عام ٣٥٩ هـ — ٩٧٠ م تقرر الأمر بين الروم وبين أهل حلب على أن يدفع ديناراً عن كل رجل مسلم — يحيى بن سعيد ، ص ٩٨ ب .

(٤) Benjamin, 77. ولقد كان هناك الرحالة الصيغ عن الجزية ضد الفرس .

Nöldeke : Tabariübersetzung, 246, Anm. 2 .

(٥) Petachjá, 988, 275. (٥)

مضى بلغ الخامسة عشرة يدفع في كل عام ديناراً بوزن طياً لعاملنا ، وذلك في عيد القديسين ^(١).

وقد ظلت الجزية بوجه عام عند القدار الذي فرضه الشريعة . وإنما كانت تغيير تغييراً يسيراً بحسب تغير العملة . وكانت الحكومة في مصر في أول القرن الثالث الهجري تكفي بأخذ نصف دينار ؛ ولكن في سنة ٣٩٠ هـ - ١٠٠٠ م ، اضطر البطريرك جورج جوس المصري أن يدفع ديناراً ونصف دينار ، بعد أن كان يدفع ديناراً واحداً ^(٢) ؛ وكذلك ينجونا البطريرك ديونيسيوس ، وكان بمصر زائراً ، حوالي عام ٢٠٠ هـ - ٨١٥ م من مدينة تنيس المشهورة بصناعة النسيج ، فيقول : « ومع أن مدينة تنيس عاصمة بالسكان كثيرة السكان ، فإنني لم أر من البؤس في بلد أكثر من بؤس أهلها ؛ وقد سألتهم عن مصدر هذا البؤس فأجابوني : إن مدينتنا مُحاطة بالماء فلا نستطيع زرعاً ولا تربية ماشية ؛ والماء الذي نشربه يُجلب لنا من بعيد ، ونشترى الجرة منه بأربعة دراهم ؛ ولا شغل لنا سوى نسيج الكتان ، فمساوئنا تفرد ونحن نلججه ، ونُعطي على ذلك نصف درهم في اليوم من تجار الأقمشة ؛ ومع أن أجرتنا لا تكفي لإطعام كلابنا فإن على كل منا أن يدفع ضريبة مقدارها خمسة دنانير ، وفي ذلك يُضرب ونُسجن ونُلزم بإعطاء أبنائنا وبناتنا رهائن ، فيُلزمون بالعمل كالسيد سنتين لأجل كل دينار ؛ ولو ولدت عندهم امرأة طفلاً فإنهم يأخذون قَسَمًا بأن لا يطالب به ؛ وقد يحدث أن تحمل ضرائب جديدة قبل إطلاق هؤلاء النساء . فأجابه البطريرك أنه بحسب قانون العراق عليهم متى طلبت منهم الجزية أن يدفع ألفي منهم

(١) Tafel und Thomas : Urkunden..., II, 359

(٢) Mitteil. aus der Sammlungen Rainer III/III, S. 176 f.

ثمانية وأربعين درهما والمتوسط أربعة وعشرين والفقر اثني عشر درهما^(١) . وكانت الجزية تؤخذ مقسطة على ستة أجزاء أو خمسة أو أربعة أو ثلاثة^(٢) أو اثنين^(٣) ؛ وقد فرضت في أول الأمر بالراف في كل شهر^(٤) ، وذلك لأن عمال المسلمين كانوا يتقاضون منها مرتباتهم في كل شهر ؛ وكذلك كان الحال في الأندلس في القرن الثالث الهجري^(٥) . ولكن في عام ٣٦٦ هـ - ٩٧٦ م صدر أمر الخليفة الطائع بأن تؤخذ الجزية من أهل الذمة في الحرم من كل سنة بحسب منازلهم ، وألا تؤخذ من النساء ولا ممن لم يبلغ الحلم ، ولا من ذى سن عالية ولا ذى عاهة بادية ، ولا من فقير معدم ، ولا من راهب متبتل^(٦) . وكانت العادة جارية بإعطاء براءة لمن يدفع الجزية ، وفي العصور السنية كانت

(١) Michael Syrus, S. 516 ، وقد سار يفرض على الخنازير بالشام فيما بعد ضرائب خاصة بالنسبة للصاري ، ويجدنا بالمو البندق وهو بصور أنه حتى ذلك الحين يجب على كل من أراد أن يذبح خنزيراً أو يشترى خنزيراً أن يدفع للسلطان أربعة دنانير ، وقد ألقى البندقيون ذلك ؛ انظر : Tafel und Thomas, Urkunden, II, 360 .

(٢) كما كان الحال في الإمبراطورية الفارسية (Nöldeke, Tabari, S. 342) ، وانظر ما قاله كراباجك Karabacek في Sammel. Rainer II/III, 176 f. ، وكذلك أيضاً ما حكاه ديونيسيوس Dionysius, ed. Chabot, S. 61 .

(٣) Mittel. II/III, 163 .

(٤) كتاب المراجيع ليعي بن آدم ص ٥٦ .

(٥) Lenvilgildus, De habitu clericorum (Esp. sacr. XI) : vectigal, (٥) quod omni lunari mense pro Christi nomine solvere cogimur. Eulogius Memoriae f. 247 : quod lunatiter solvimus cum gravi moerore tributum.

انظر Graf Baudissin, Eulogius und Alvar S. 10 .

(٦) رسائل الصافي طمة مدنية جيداً (بازان) طمة ١٨٩٨ ص ١١٢ ، انظر أيضاً عهد الخلفاء لدى طمة صوره .

تعلق على رقبة أهل القمة علامة البراءة ، وتُختم أيديهم^(١) .

وهذه المادة قديمة ترجع إلى عصر الآشوريين الذين كانوا يطلقون في رقاب العبيد قطعة من الفخار أسطوانية مكتوباً عليها اسم العبد واسم سيده^(٢) . وكان اليهود في عهد التلمود يطلقون عبيدكم بالخطم على الرقبة أو التوب^(٣) . وفي عام ٥٠٠ م كان حاكم مدينة الرها يعلق إلى رقبة الفقراء الذين يأخذون رطل خبز كل يوم قطعة من الرصاص مختومة^(٤) . على أن التقهات القدماء ، مثل أبي يوسف وبجي بن آدم لم يقولوا شيئاً في هذا الباب ؛ ويظهر أن هذا الأمر نادراً ما كان يقع . ويقول ديونيسيوس إنه كان من التجارب المؤلمة لحصر أهل القمة وسمرة عديم أن يرسل مع عمال الضرائب ختامون يختمون كل واحد باسم بلده واسم قريته ، فكانوا يطبقون على يده اليمنى اسم البلد وعلى اليسرى اسم العراق ، ويطلقون على رقبة كل رجل حلقين على إحداهما اسم البلد وعلى الأخرى اسم القسم ، وكانوا يقيدون اسم الشخص وأوصافه الجسمية ومكانه . وكان ينشأ عن هذا اضطراب كبير ؛ لأنه كان يؤدي إلى القبض على كثير من الغرباء ، فيذكرون أسماء ما كن لهم ، فتُقيد ، ولا تكون لهم هذه المساكن في الحقيقة .

(١) فتلا في أواخر العهد الأموي في مصر وسمت أيدي الرعيان بحلقة من حديد فيها اسم الراعب واسم ديره وتاريخه ، وجعل على كل نصراني وسم ، وصورة أسد على أيديهم ، انظر المخطط المغربي طبعة بولاق ج ٢ ص ١٩٢ - ١٩٣ .

(٢) مجلة المشرق المجلد الخامس ص ٦٥١ .

(٣) Krauss : Talmudische Achaecologie, II, S. 89 .

(٤) Josua Stylites, ed. Wright, S. 49 . وكذلك في مدينة-استراسبرج في القرن الرابع عشر الميلادي كان يحمل فقراء البلد علامة ظاهرة (Brucker, Strassburger Zunft-und Polizeiverordnungen, S. 6 f. وفي القرن التاسع كان النساء الثنيات في ديون الزواني بالحب واللاق يذفن ضريبة البناء يحملن خاتماً من النحاس مطبوعاً بخاتم الملك ويحمله في أعنانهن . (انظر Renand, Relation des Voyages, S. 69 .

ولو أن هذا النظام أتبع إلى آخر ما يؤدي إليه لأحدث من الفساد أكثر من كل ما تقدمه من الأنظمة ؛ وإذا وجد العامل أن ما لديه من عمل لا يكفيه فإنه يذهب إلى أى جهة تصادفه ، ويقبض على الفادين والراغبين ؛ وقد يطوف بالمكان الواحد أكثر من عشرين مرة ، ولا يهدأ له بال حتى يصل إلى تقييد جميع السكان بحيث لا يفتت منهم أحد ؛ وهكذا وقع ما قاله النبي دانيال والرسول يوحنا : « كل الناس طُبِعوا بطابع هذا الحيوان على أيديهم وصدورهم وظهورهم »^(١) . ومن الواضح أن البطريك ديميتريوس لا يتكلم هنا عن الختم والعلامات باعتبارها شيئاً عادياً . على أن شاعراً بصرى من العصر العباسى الأول يقول :

ختم الحب لها في عنق موضع الخاتم من أهل القدم^(٢)

وقد حكى الجاحظ المتوفى عام ٢٥٥ هـ - ٨٦٩ م من أحد الثقات الذين يُعتمدُ عليهم أن من تمام آلة الخمار أن يكون ذمياً مختوم الخنق^(٣) ، وقد وُجدت حول مدينة همدان علامة من هذا النوع يرجع تاريخها إلى السنة الأولى من القرن الرابع^(٤) . وعندنا نص صريح على أنه كانت تكتب لأهل القمة في الربع الأول من القرن الرابع براءة مختومة عند أدائهم الجزية^(٥) . ولم يكن القرهٖيون المسيحيون يُنفون من الجزية إلا إذا كانوا مساكين يُتصدق عليهم كباقي المساكين^(٦) ؛ وهذا كان من حيث المبدأ العام والوجهة النظرية ؛ ذلك

(١) Dionys v. Tellmachre, ed Chabot, S. 148 f.

(٢) الأغاني ج ٣ ص ٢٦ ؛ وهذا البيت لبشار بن برد .

(٣) البيان والبيان الجاحظ ج ١ ص ٤١ . انظر ما يلى .

(٤) Mitteil. aus der Samml. Rainer II/III, S. 176

(٥) المروج المسمودى ج ١ ص ١٤ - ١٥ .

(٦) كتاب المراج لأبى يوسف ص ٧٠ .

أنه في مصر عام ٣١٢ هـ - ٩٢٤ م « أخذ الرهبان والأساقفة بأداء الجزية ، فأخذت الجزية منهم ، ومن الضعفاء والمساكين ومن جميع العائلات بأسفل مصر والصعيد ، ومن رهبان طور سيناء ؛ وسافر قوم من الرهبان إلى العراق واستنقوا بالقتدر ، فكتب لهم ألا تؤخذ الجزية من الرهبان ولا من الأساقفة ... وأن يجري أسرم على ما كانوا عليه »^(١) . على أنه في عام ١٦٦٤ م كان يُدفى من الجزية بمصر : « جميع الأوربيين والرهبان المتبطلين من المسيحيين والبطريرك وجميع الأتراك (أى المسلمين) »^(٢) . ولم يكن أخذ الجزية أرحم من غيرها من الضرائب ، وإن كانت الشريعة الإسلامية قد أسرت بدم القسوة في تحصيلها ، فقد نهى في الإسلام عن اتباع الأساليب القديعة القاسية ، من تعذيب ، أو تكليف أصحابها مالا يطيقون ، أو إقامتهم في الشمس وصب الزيت على رؤوسهم ونحو ذلك ؛ وإنما أجاز الفقهاء حبس أهل القمة حتى يؤدوها^(٣) .

وقد وجدت في بلاد الإسلام من أول الأمر تعليمات خاصة بالباس ؛ فقد أمر هارون الرشيد عام ١٩١ هـ - ٨٠٧ م بأن يؤخذ أهل القمة في مدينة السلام بمخالفة هيئتهم هيئة المسلمين في لباسهم وركوبهم ، فأخذوا بأن يحملوا في أوساطهم الزنارات مثل الخيط ، وبأن تكون قلائدكم مضربة ، وأن يحملوا شراك ضالم متدنية ، وأن يتخذوا على سروجهم في موضع القرايس مثل الرمانة من خشب ، وتُشنع نساؤهم من ركوب الرحائل ، ولا يركبن يهودى ولا نصرانى على سرج ، بل على أكاف^(٤) . وكان اليهود في القرن الثاني (الثامن الميلادى) يلبسون

(١) يحيى بن سعيد ص ١٨١ .

(٢) M. Wanslebs : Beschreibung von Aegypten, S. 57 .

(٣) كتاب المراح لأبي يوسف ص ٧١ .

(٤) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٧١٤ ، كتاب المراح ص ٢٥ .

براطيل طويلة شتتها بعض الشعراء بالأسيال الطوال أو بالمقاعيد على رؤوس القروء^(١). وكان النصارى في ذلك الوقت يلبسون البرانس، وانكسر لما سبغت القلائس الطوال عند المسلمين لباساً قديماً لبسها النصارى وبقيت خاصة بهم^(٢). أما الآن فلم يصلنا في التعليقات القديمة أن أحداً ألزم بأخذ لون معين؛ ويظهر أن هذه المسألة تفرقت لحادث الحلية، ويصف الجاحظ (المتوفى عام ٢٥٥ هـ - ٨٦٩ م) عادة العراقيين فيقول: «من تمام آلة الخمار أن يكون ذميّاً، ويكون اسمه آذين أو ملزبدا أو أزدانقاذا أو ميشا أو شلوما، ويكون أرقط الثياب مخيوط الخنق»^(٣). وقد حدث في عهد هارون الرشيد أن ولي القضاء محمد بن سمرونة، فتحامل على أهل مصر، فأساموا عليه الذكر والثناء، ودهوا عليه في المسجد الجامع، غوف على باب المقصورة غير خائف، وقال بأعلى صوته: «يا ابن أصحاب الأكيّة المصليّة؟ ابن بنو البغايا؟ لم لا يتكلم متكلمهم بما شاء حتى يرى ويسمع؟ فانكلم أحد بكلمة»^(٤)، وقد صدر أمر المتوكل في عام ٢٣٩ هـ - ٨٤٩ م بأخذ النصارى وأهل الذمة بلبس هذه الطيالة المصليّة؛ ومن أراد لبس قلنسوة مثل قلنسوة المسلمين فليجعل عليها زرين؛ وكذلك أسروا بأن يحملوا على ما ظهر من لباس مما يليكهم رقعتين، لوניהما بخالف لون التوب الظاهر، وأن تكون إحدى الرقعتين بين يديه عند

(١) الكندي ص ٤٢٤، وكان لبس الرأس عند اليهود يسمى بمصر برطة، وكانت هذه في الفرق جزءاً من أهبة الجاثليق. وفي سنة ١٥٣ هـ ألزم المنصور رعيته بلبس القلائس الطوال فتشبهوا أبو دلامة بدنان اليهود. (كتاب الأرائل لعل دده مخلوط برلين ٩٣٢٢ ص ١١٥٨).

(٢) انظر المستطرف، على هامش مفيد العلوم طبعة مصر ١٣١٠ ص ٢٠٠.

(٣) البيان والتبيين ج ١ ص ٤١.

(٤) الكندي ص ٣٩٠.

صدره ، والأخرى خلف ظهره ، وأن تكون كل واحدة من الرقتين قدر أربع أصابع ولونها مسلماً ، وكذلك أمر بمنع ممالئكم من لبس الناطق وأمرهم بلبس الزنابير ؛ وبأن يُجمل على أبواب دورهم صور شياطين من خشب تفرقاً بين منازلهم ومنازل المسلمين^(١) ، وفي عام ٢٣٩ هـ - ٨٥٣ م أمر المتوكل أن يقتصر أهل الذمة في سراكبهم على البغال والحمير ، دون الخيل والبراذين^(٢) .

على أن هذه الأوامر المضحكة لم تشر إلا قليلاً ؛ وكان أهل الذمة يأبون الخضوع لها بشجاعة ، وفي سنة ٢٧٢ هـ - ٨٨٥ م نار عامة بغداد على النصارى لأنهم خالفوا وركبوا الخيل ، وهدمت في هذا الشغب كنيسة كليل يشو^(٣) (كليل يسوع) ؛ وكذلك نجد الشاعر ابن المعتز يشكو حوالى عام ٢٩٠ هـ من مفالاة النصارى في البغال والسروج ، ومن تحكمهم في المسلمين ؛ ويعتبر هذا من علامات ظهور المسيخ الدجال^(٤) . وقبل أول القرن الرابع بأربع سنين عادت القوانين الخاصة باللباس إلى الظهور ، وشُدَّ في أمرها ، ثم لم نسع عن مثلها شيئاً في القرن الرابع كله ؛ فقد نامت ولم تظهر إلا عندما قوى أمر أهل السنة في القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) حيث عادت بشكل جدى .

(١) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ١٣٨٩ وما بعدها . انظر القرىزى (المخطوط) ج ٢ ص ٤٩٤ حيث يقول : على دراريمهم بدلا من على ذراريمهم . (أبو الحسن ج ٢ ص ١٧٤ - ١٧٥) . وكان الصابئة أيضا لباس ذو لون خاص (بنية الدهرج ٢ ص ٤٥) . وقد حدث لأول مرة في الغرب عام ١٢١٥ م في مؤتمر لانبران أن طلب إيجاد علامة خاصة لليهود ، ولعل هذا أتى من معرفة الفريسيين بأنظمة الفرق

(٢) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ١٤١٩ ، ويحكى بنيامين (ص ٢٤) أن اليهود كانوا يعمون في القرن الثانى عشر الميلادى من ركوب الخيل بالقسطنطينية .
(٣) Elias Nisibenus, S. 188 . ويحكى الطبرى تهديم العامة للبيع في حوادث

سنة ٢٧٢ هـ .

(٤) ديوان ابن المعتز طبعة مصر ١٨٩١ ج ٢ ص ٩ ، درن النجوم الزاهرة طبعة لندن ج ٢ ص ٢٢٤ - ٢٢٥ .

وفي عام ٤٢٩ هـ - ١٠٣٧ م صدر توقيع الخليفة بإلزام أهل الذمة ملابس يُمَرَفون بها عند المشاهدة ، واستدعى لذلك جاثليق النصارى ، ورأس جالوت اليهود في جمع حائل من الأشراف والوجوه ، وقالوا : السمع والطاعة^(١) .

وظهر في هذا العصر لأول مرة منع أهل الذمة من تلبية ييوتهم على أنية المسلمين ؛ فإن ملوكوا ييوتا عالية أقرؤا عليها ، ومنعوا من الإشراف منها على المسلمين وأهل الذمة^(٢) . وأول من ذكر هذا فيما أعلم هو أبو الحسن الماوردي المتوفى عام ٤٥٠ هـ - ١٠٥٨ م . وقد سرت هذه الفكرة بعد ذلك إلى الغرب ، فوجد البابا إتيمنت الثالث يشكو من أن اليهود بنوا في مدينة سِنس كنيسة لهم تعلو على كنيسة مسيحية مجاورة لها^(٣) .

ولم يكن الاستهزاء والبغضاء بين الأديان أقل منه بين الأجناس ؛ ومن أمثلة ذلك أن اليهود وصفوا بأنهم أنتن خالق الله فناء^(٤) ، وكذلك وصف النصارى بشدة السكر وخصوصاً غداة عيد الفصح^(٥) ، وبأن راهباتهم وشمامستهم ضعفاء الفضيلة . وكذلك يُرمى الصابئة بأن بينهم من الماداة ما لا يكون بين غيرهم ، وأن بعضهم يسمى في بعض ، ويقبَّح عليه ما وجد إلى ذلك سبيلا^(٦) . وكان المسلمون الثَّقَوْن يعلون حقا أن المسيحية قد حثت على المحبة ورقة القلب أكثر مما حثت على ذلك جميع الديانات ؛ ولكنهم كانوا يرون أن النصارى قلما يعملون

(١) التنظم ص ١٩٢ ب .

(٢) الأحكام السلطانية للماوردي ص ١٢٨ . . وقد بين الماوردي أن الأصل في ذلك

المنع من الإشراف على منازل الناس .

(٣) انظر Caro, I, 226 .

(٤) انظر مثلا أدب الكاتب لابن قتيبة طبعة مصر ١٢٠٠ هـ ص ٢٦ .

(٥) ينابيع الدهرج ٣ ص ٩٧ حيث يشتمل شاعر بكر النصارى في هذا اليوم .

(٦) أخبار الحكماء للقفطي ص ٣٩٨ من الطبعة الأوربية .

بذلك ؛ يقول الجاحظ : « وكلُّ خِصاء في الدنيا فإنما أصله من قِبَل الروم ؛ ومن العجب أنهم نصارى ، وهم يدَّعون من الرحمة والرافة ورقة القلب والكبد ما لا يدعيه أحد من جميع الأصناف ، وحَسْبُكَ بالخِصاء مُثَلَّةٌ وحسبك بصنيع الخاصى قوة »^(١) ؛ وكذلك تكلم البيروني في صدد كلامه عن العقوبات والكفارة عند المنوود عن فلسفة نبيلة بينهم فهو يقول : « مثال الحال فيهم على شبه بحال النصرانية فإنها مَبْنِيَّةٌ على الخير وكف الشر ، من ترك القتل أصلاً ، ورعى التقيص خلف غاصب الرداء ، وتمسك لطم الخلد من الخلد الأخرى ، والدعاء بالعدو بالخير ، والصلوات عليه ؛ وهى لعمري سيرة قاضية ، ولكن أهل الدنيا ليسوا بفلاسفة كلهم ؛ وإنما أكثرهم جهال ضلال ، لا يُقَوِّمُهم غيرُ السيف والوط ، ومنذ تنصَّرَ قسطنطينوس الظفر لم يترح كلاماً من الحركة ؛ فبغيرها لا تَمُتُ السياسة »^(٢).

ومن الأمور التي نجب لها كثرة عدد الدمال والمتصرفين غير المسلمين في الدولة الإسلامية ؛ فكان النصارى هم الذين يحكمون المسلمين في بلاد الإسلام^(٣) ؛ والشكوى من تمكيم أهل الذمة في أبشار المسلمين وأموالهم شكوى قديمة^(٤) ؛ ويحكى عن عُمر بن الخطاب أنه لما عرف أن لأبى موسى الأشعري كاتباً نصرانياً ضرب لخدمه ، وقال : ألا اتخذت رجلاً حنيفاً ، وكان عُمرُ أيضاً يأبى أن يتخذ الكتاب من النصارى أو اليهود^(٥) . وقد قلَّد ديوان جيش المسلمين لرجل

(١) كتاب الحيوان طبعة مصر ١٩٠٧ ص ٥٦ .

(٢) كتاب تحقيق ما للهند من مقولة طبعة سغاو ص ٢٨٠ .

(٣) بما يتعلق بالشام انظر المقدسي ص ١٨٢ ، وفيما يتعلق بمصر انظر يحيى بن سعيد

ص ١٢٢ .

(٤) عيون الأخبار لابن قنبر طبعة حوتاج سنة ١٨٩٩ ص ٩٩ .

(٥) نفس المصدر المتقدم ص ٦٠ .

نصراني مرتين في أثناء القرن الثالث ، فَوَجَّهَ اليومُ الوزير لأنه « جمال أنصار الدين وُجْهَة البيضة يقتلون يديه ويمتنلون أسره »^(١) . وكان المتصرفون النصارى واليهود يقسمون اليمين ، شأنهم شأن المسلمين ؛ وقد جاءت في كتاب ديوان الإيشاء الذي أُلِّفَ عام ٨٤٠ هـ - ١٤٣٦ م صيغة اليمين الذي كان يقسه اليهود في ذلك العهد ؛ وذكر أيضاً أن أوَّلَ من استحدث هذه الأيمان لأهل اليهودية الفضل بن الربيع وزير الرشيد ، أحدثها له كاتب عنده ، ومنها استنبطت هذه الألقاظ^(٢) .

وكانت الحركات التي يُقصد بها مقاومة النصارى موجَّهة أولاً إلى عمارية تسلط أهل الذمة على المسلمين ، وسيطرة أهل الذمة شيء لا يحتمله السلم الحق . وفي عام ٢٣٥ هـ - ٨٤٩ م أسر الخليفة التوكل الأيُّتمان بأهل الذمة في الدواوين وأعمال السلطان التي تجري أحكامهم فيها على المسلمين^(٣) ؛ فمن ذلك أمر بعزل النصارى من مقياس النيل^(٤) ، ولكن هذا الخليفة نفسه بنى بعد ذلك بشارنين ، قصره المسمى بالجفري ، وأجرى إليه نهراً ، وصير النفقة عليه إلى دُكَيْل بن يعقوب النصراني^(٥) ؛ وفي عام ٢٩٦ هـ - ٩٠٩ م كان النصارى قد علا أسْرُهم وغلبوا على الكتاب ، فأمر المقتدر بما أمر به التوكل من رفضهم وإطراحهم عن الخدمة^(٦) ؛ وفي هذه السنة نفسها أمر المقتدر ألا يُستخدم

(١) كتاب الوزراء ص ٩٥ .

(٢) كتاب ديوان الإنشاء مخطوط باريس رقم ٤٤٣٩ ص ١٢٠٣ - ١٢٠٤ ،

واظفر . Fagnan, Rev. Ét. julves, 1910 S. 229 .

(٣) تاريخ الطبري ج ٣ ص ١٣٨٩ - ١٣٩٠ .

(٤) الولاة الكندي ص ٢٠٣ .

(٥) تاريخ الطبري ج ٢ ص ١٤٣٨ .

(٦) حريب ص ٢٠ .

أحد من اليهود والنصارى إلا في النعيب والنجاسة^(١)، ولكن أنزى المقدر كان ضعيف الأنز إلى درجة مضحكة؛ فقد كان وزيره أبو الحسن علي بن الفرات يدعو أربعة من النصارى إلى طعامه كل يوم، وكانوا في جملة الكتّاب النسخة الذين اختص بهم^(٢). وكان الكتّاب المسيحيون منشرون في كل مكان حتى إن محمد بن عبد الله بن طاهر في القرن الثالث اتخذ له قهرماناً نصرانياً^(٣)، ولما أراد المقدر أن يستوزر الحسين بن القاسم عام ٣١٩ هـ - ٩٣١ م راسله في أن يجتهد في إصلاح أعدائه، فابتداً بيني رائق، فكان يمشي إلى كاتبهم النصراني ويضمن له الضمانات؛ ثم فعل ذلك بأصطفي بن يعقوب كاتب مؤنس، وقال له: «إن تقلدت الوزارة فانت قلدتها»، وكذلك فعل بغير هؤلاء من كتّاب النصارى^(٤). وكان الحسين بن القاسم يسعى دهره في طلب الوزارة، وكان يتقرب إلى النصارى الكتّاب بأن يقول لهم: «إن أهلي منكم، وأجدادى من كباركم، وإن صلياً سقط من يد عبيد الله بن سليمان، جدّى، في أيام المتعصّد، فلما رآه الناس قال: هذا شيء تبرك به مجازتنا، فتجعله في ثيابنا من حيث لا نعلم» تقرّباً إليهم بهذا وشبهه^(٥).

ولقد كان تقدير هذا الوزير صحيحاً، ففي عهد المقدر نفسه، وهو الذي أراد

(١) أبو الحسن طبعه ليدن ج ٢ ص ١٧٤ - ١٧٥؛ وكان النصارى في مصر مثلاً يستخدمون كثيراً في أعمال المهينة، كما يدل على ذلك أوراق البردى، وفي عام ٣٤٩ هـ - ٩٦٠ م كان أحدهم يطبع البرامات بحضرة القى عليه الصليب. (انظر Karabacek, Mitteilungen II/III S. 168.)

(٢) كتاب الوزراء ص ٢٤٠.

(٣) كتاب الديارات مخطوط برلين التقديم ص ١٥١.

(٤) مسكويه ج ٥ ص ٣٥٢.

(٥) عميد ص ١٦٤.

أطراح النصارى عن المناصب العامة ، تقلد هذا الرجل الذى كان يتقرب إلى النصارى ويتمتعهم منصب الوزارة . وإلى جانب ما ذكرنا نجد أن رئيس المتأمرين على مؤنس الظفر كان مفلحاً الأسود الخادم ، وكان الأمر كله ، كما يقول مريب ، لهذا الخادم ولكاتبه النصراني بشر بن عبد الله ، وكان بشر هذا مجبوباً^(١) . وفي عام ٣٢٤ هـ - ٩٣٥ م مات أصطف بن يعقوب النصراني صاحب بيت مال الخاصة^(٢) . وكذلك ابتداء على بن بويه بأن اتخذ له كاتباً نصرانياً من أهل الري^(٣) . ولما خرج الوزير عن الدولة إلى البصرة عام ٣٥٧ هـ - ٩٦٧ م استخلف أبا الملا صاعد بن ثابت النصراني بالخرقة^(٤) . وكذلك كان للخليفة الطائع (٣٦٣ - ٣٨١ هـ = ٩٧٣ - ٩٩١ م كاتب نصراني^(٥) . وفي النصف الثاني من القرن الرابع اتخذ كل من عضد الدولة (المتوفى عام ٣٧٢ هـ - ٩٨٢ م) في بغداد والخليفة العزيز في القاهرة وزيراً نصرانياً . وقد استأذن نصر بن هارون وزير عضد الدولة سيده في عمارة البيع والديرة وفي إطلاق المال لفقراء النصارى ، فأذن له^(٦) . وقد أفتى بعض فقهاء الإسلام السكبار بأنه يجوز أن يكون وزير التنفيذ لا وزير التفويض من أهل الذمة^(٧) . وقد وثق المأمون على مدينة بوره بمصر عاملاً مسيحياً ، فكان إذا

(١) مريب ص ١١١ - ١١٢ .

(٢) الأوراق لقنول ص ٩٦ .

(٣) مكوي ج ٥ ص ٤٦٤ - ٤٦٥ .

(٤) مكوي ج ٦ ص ٣١٠ .

(٥) ديوان ابن الحاج ج ١٠ ص ١٨ .

(٦) مكوي ج ٦ ص ٥١١ ؛ وابن الأثير ج ٨ ص ٥١٨ .

(٧) وزير التنفيذ لا يباشر الحكم ولا يملك المال ولا يدبر الجيش ؛ أما وزير التفويض فهو الذى يفوض السلطان إليه تدبير الملكة برأيه ، وهو يشارك السلطان في حكمه ، وليس وزير التنفيذ إلا سفيراً بين السلطان والرمية . انظر كتاب العقد الفريد لأبي سالم محمد بن طلحة المتوفى عام ٦٥٢ هـ ص ١٤٢ من طبعة مصر . [المرجع]

جاء يوم الجمعة لبس السواد وتقلد بالسيف والمنطقة ، وركب رذوناً وقدّاهه أصحابه ، فإذا وافى باب المسجد وقف ، ودخل خليفته ، وكان مسلماً يصلى بالناس ويخطب للخليفة ، ثم يخرج إليه ^(١) . وكان لخارويه وزير نصراني فاجتاز يوماً راكباً فتعرض له بُنَّان الحقال الصوفي وأرّله عن دابته ، وقال له : لا تركب الخيل ، فأمر خارويه أن يؤخذ بُنَّانُ ويُطرح بين يدي سبع ، فطرح وبقى ليلته ، فلما جاء الصباح وجدوا بُنَّاناً قاعداً مستقبلاً للقبلة ، والسبع بين يديه ^(٢) . وفي عام ٨٣٨٩ - ٩٩٩ م تولى القاضي محمد بن النعمان ، فوجد عليه مالٌ من أموال اليتامى وغيرهم ، فأرسل كاتب نصراني فهدأ ، فاحتاط على القاضي وشرع في تفريم الشهود الذين كان القاضي أودع عندم الأموال ، وأُثِّم ابن القاضي ببيع ما خلفه أبوه لولاء بالودائع ^(٣) .

ومن العجيب أنه على الرغم من هذا الوضع الذي لم يكن طبيعياً لا نجد المؤرخين ، حتى المسيحيين منهم ، يذكرّون إلا قليلاً من المشاغبات بين المسلمين وأهل الذمة في القرن الرابع الهجري ، وسأقتفها كما ذكروها : في سنة ٨٣١٢ - ٩٢٤ م تار المسلمون بدمشق وهدموا كنيسة كبيرة ، وأخذوا منها زهاء مائتي ألف دينار من صلبان ذهب وفضة وكنووس وصوّان ونحوها ، ونهبوا ديارات كثيرة ؛ وكذلك ثاروا بالرملة فهدموا كنيسين للعلانية وهدموا كنيسة فيسارية ؛ فرفع النصارى الأمر إلى القنديل فوقع لهم بينان هذه الكنائس ^(٤) . وكذلك تار المسلمون بسقلان ، فهدموا كنيسة كبيرة ، ونهبوا ما فيها ،

(١) يحيى بن سعيد ص ٧٤ ب .

(٢) أبو الحسن طبعه ليدن ج ٢ ص ٢٧٣ - ٢٧٤ .

(٣) القضاة لاسكندى ص ٥٩٥ ، ٥٩٦ .

(٤) يحيى بن سعيد ص ١٠١ ، وأما طبعه للمعري ج ١ ص ٤٩١ .

وأحرقوها ؛ وحاضد اليهود المسلمين في عدهما ، وكان اليهود يشعلون النار في
الحطب ويجرونه بالبكر إلى أعلى السقوف حتى يحرقوها وينحل رصاصها فتقع .
العمد ، وقد خرج أسقف عسقلان إلى مدينة السلام متوسلاً لردّها ، فلم ينجح له
سعى ^(١) . وفي سنة ٨٣٥ هـ - ٩٣٧ م ثار المسلمون في بيت المقدس ونهبوا بعض
الكنائس ^(٢) . وفي سنة ٨٣٨١ هـ - ٩٩١ م استهزأ رجلان من المسلمين بمنجّم
مسيحي لأنه لم يكن يحمل علامات النصرى . فشكا ذلك إلى رئيسه ، فجنهما
فشمت بعد ذلك كنيستان ؛ وقد هذا الجاثليق هذه القصة بعد هدايا كثيرة ^(٣) .
ثم هاج المسلمون بعد ذلك ، لأنهم وجدوا رأس خنزير في أحد المساجد ، وظنوا
أن النصرى هم الذين رموه ^(٤) . وفي عام ٨٣٩٢ هـ - ١٠٠٢ م ثار العامة
بالنصرى في مدينة السلام لقتل أحد المسلمين ، ونهبوا بيعة وأحرقوها ، فسقطت
على جماعة من المسلمين رجالاً وصبياناً ونساء ، وكان الأمر عظيماً ^(٥) . وفي عام
٨٤٠٣ هـ - ١٠١٢ م توفيت بنت أبي نوح الأهوازي الطبيب زوجة أبي نصر
ابن إسرائيل كاتب المناصب أبي الهيجاء ؛ فأخرجت جنازتها نهاراً ، ومعهما الطبول
والنوايح والزمرور والرهبان والصلبان والشموع ؛ فقام رجل من الهاشميين فأنكر
ذلك ، ورجم الجنازة ، فوثب أحد الغلمان بالهاشمي ، فضربه بدبوس على رأسه
فشجّه فسال دمه ؛ وهرب النصرى بالجنازة إلى بيعة باب الروم ؛ فقبههم المسلمون ،
ونهبوا البيعة وأكثروا دور النصرى المجاورة لها ؛ وثارت الفتنة بين غلمان

(١) يحيى بن سعيد ص ١٨٤ - ب .

(٢) نفس المصدر ص ١٨٢ .

(٣) Barhebraeus Chron. eccles. III, 259.

(٤) نفس المصدر .

(٥) نفس المصدر ص ٢٦٢ ، وما يليها ، كتاب الوزراء ص ٤٤٣ ، وللتأظم

لأن الجوزي ص ١٤٧ ب .

أبى الهيجاء وبين العامة ، ورُفقت المصاحف في الأسواق ، وغُلقت أبواب الجوامع ؛ وقصد الناس إلى دار الخليفة على سبيل الاستنار ، فطلب الخليفة الكاتب من المناصح ، فامتنع فغاظ الخليفة امتناعه ، وتقدم بإصلاح الطيار للخروج عن الباب ، وجمع الهاشميين إلى داره ، واجتمعت العوام في يوم الجمعة ؛ وقصدوا دار المناصح فذبح غلمان رجلاً ذُكر أنه علوى ، فزادت الشناعة ؛ وامتنع الناس من صلاة الجمعة ، وظفرت العامة بقوم من النصارى ، فقتلوا وتردّت الرسائل بين الخليفة وبين المناصح إلى أن بذل الكاتب النصراني إلى دار الخلافة ، فكف العامة عن ذلك ، ثم أفرج عن الكاتب بعد قليل ^(١) وهذه الحوادث قليلة جداً بالقياس إلى بلاد المشرق كلها على سبيلها . أما في مصر فكانت العلاقات بين المسلمين والنصارى متوترة ؛ فقد كان في مصر كنيسة متحدة أمام الإسلام ، وكان بها شعب له لفته الخاصة وشخصيته أمام العرب ، ولم يبدأ القبط في ترك لغتهم القبطية إلا حوالي أواخر القرن الرابع ^(٢) . وفي القرنين الأولين للهجرة لم تنقطع تورات القبط ؛ بل تابعت حتى أخذت آخرها عام ٢١٦ هـ - ٨٣١ م . وفي ذلك الوقت كان كل أهل الطبقة الوسطى بمصر نصارى ؛ وكان بين العرب والقبط

(١) التنظم ص ١٥٩ .

(٢) ولعل أحسن ما يعهد بهذا آر القديس ، وقد كان بمصر في أواخر القرن الرابع ، يقول عن أهل مصر : إن ذمتهم يتحدثون بالقبطية (ص ٢٠٣) ، على حين أن أسقف أشمون بمصر يقول في كتابه سير البطاركة القدي ألفه بعد عام ٤٠٠ هـ - ١٠١٠ م بقليل : إنه استعان ببعض السُحيين الأكفاء على نقل ما وجده من أخبار البطاركة بانظم القبطي واليوناني إلى القلم العربي . القدي هو الآن معروف عند أهل هذا الزمان بالإقليم ديار مصر لعدم اللسان القبطي واليوناني من أكثرهم . (كتاب سير البطاركة لساويرس بن المقفع طبعة بيروت سنة ١٩٠٤ ص ٦) . على أن الشمر القبطي الشبي القدي مرقناه من القرن العاشر الميلادي هو شمر ديني نالسي كما رأيت ذلك من ترجمة المألّف H. Junker, A. Erman لهذا الشمر .

من قلة التهام ما كان بين اليونان والمصريين من قبل ، وذلك على الرغم من أن الأقباط قد أدخلوا منذ أول الأمر في الحديث أحاديث يرمى فيها النبي بالأنباط خيراً ؛ ومن هذه الأحاديث ما يبين بكل جراءة الدور الذي يقوم به الكتاب النصارى في الدعوة الإسلامية ، ففي حديث ذكره : وم (القبط) أهوانكم على عدوكم وأهوانكم على دينكم ، قالوا : كيف يكونون أهواناً على ديننا يا رسول الله ؟ قال : يَكْفُونَكُمْ أَعْمَالَ الدُّنْيَا ، وتغفرون لعبادة ،^(١) ؛ ولقد قام الأقباط بهذا الدور خير قيام حتى إن أكثر القنن التي وقعت بين النصارى والمسلمين بمصر نشأت عن تحيز التصرفين الأقباط ؛ ولما جاءت انتصارات الروم على المسلمين حوالى منتصف القرن الرابع الهجرى كان لما صدها في مصر ؛ فلما ورد الخليفة بأن الروم دخلوا الشام عام ٣٤٩ هـ - ٩٦٠ م وقتلوا وخرّبوا ، هاج المسلمون على النصارى ، ووقعت صيحة في الجامع الشيعى بعد صلاة الجمعة فهاج الرعاع ونهبوا كنيسة^(٢) . ولما غزا الإمبراطور نقفور جزيرة أفرطيش في العام التالى ووصل خير ذلك إلى مصر تار المسلمون وقصدوا كنيسة ميخائيل التي للمسيحية بقصر الشمع فتمشوها وخرّبوها ، وظلت مغلقة مدة طويلة وأبرأها مطبورة بالتراب^(٣) .

وقد أظهر خلفاء الفاطميين الأولون لأهل الدمة تسامحاً نمتجبه له ؛ إذ لا يُنظر ذلك من قوم مثلهم ، لم مذهب خاص افردوا به ، وخالفوا به جمهور المسلمين ؛ قد كان لاخلفاء الفاطميين أطباء من اليهود ، ولم يحتج هؤلاء الأطباء إلى تغيير

(١) المخطوط للمعري ج ١ ص ٢٤ - ٢٥ ، وكتاب تاريخ الشيخ أبو صالح الأرمي ص ٢٨ ب قلا من كتاب فضائل مصر .

(٢) يحيى بن سعيد ص ١٩٢ .

(٣) نفس المصدر ص ٩٢ ب

دينهم^(١) ؛ وعَظُمَ تفوُّذُهم حتى صار لا يُعمل شيء في بلاط المزم إلا بمؤونة اليهود ؛ عرف ذلك الوزيرُ الداهيةُ ابنُ كلثُم الذي كان يهودياً ، فأسلم وصار يتبعين إلى إخوانه في الدين من قبل^(٢) . وكانت النزعة العقلية في مذهب الإسماعلية واعتقادهم بإمكان إقامة الدليل النظري عليه مما مهد للنفاضة العلنية بين السفين والنصارى لأول مرة في تاريخ الإسلام^(٣) . وفي عهد المزمير بأف زاد بلاط الخليفة في إكرام النصارى ؛ وذلك أنه كان للمزمير أصهارٌ مسيحيون منهم أرسطس خال السيدة ابنة المزمير بأف ، وقد صيّر بطريركا على بيت المقدس ، وصيّر أخوه أرمانيوس مطرانا على القاهرة ومصر ، وكان لهما جميعاً محلٌّ لطيف عند المزمير وتقدُّم في مملكته^(٤) . فلا عجب بعد هذا أن نجد الشاعر الحسن بن بشر الدمشقي يقول تقرِّباً بهذه الحالة :

تَنصُرُ ، فَالْتَنصُرُ دِينَ حَقٍّ عَلَيْهِ زَمَانُنَا هَذَا يَدُلُّ

وَقُلُّ بِلَانَةِ عَزْوَا وَجَلَّوْا وَعَظَلُّ مَا سَوَامٌ فَهُوَ عَطَلُ

فيعقوب الوزير أبٌ وهذا المزمير ابن وروح القدس فضل

ولما شكَّا الفضل إلى المزمير أمرَ هذا الشاعر وطلب معاقبته امتعض منه ،

إلا أنه قال : أعف عنه ، فمقاعته ؛ ثم دخل الوزير على المزمير وشكَّا إليه

أيضاً ، فقبض على الشاعر ثم أطلقه^(٥) . ثم إن هذا الخليفة نفسه استوزر

(١) Graetz : Gesch. der Juden V, 4. Aufl. S. 266.

(٢) De Goeje : ZDMG, 52, S. 77 . خلا عن ابن الجوزي (مخطوط Bodl.

Uri. 679 Jahr 380.

(٣) Guyard, Grand Maître des Assassins, S. 14.

(٤) يحيى بن سعيد ص ١٠٨ .

(٥) ابن الأثير ج ٩ ص ٨٢ .

بعد ذلك حبس بن نسطورس النصراني ، واستجاب بالشام يهودياً اسمه منشا ؛
 فاعتز بهما النصراني واليهود ، وأخذوا المسلمين ؛ فكتب أهل مصر رقعة
 وجعلوها في يد صورة عملوها من الورق ، وأقعدوا الصورة في طريق العزيز
 والرقعة بيدها ، وفيها : بالذي أعز اليهود بمنشا والنصارى ببيسى بن نسطورس ،
 وأذل المسلمين بك إلا كشفت ظلامتي أظفار آها العزيز لم ما أريد ، فقبض
 على الرجلين وصادهما^(١) . وفي عهد هذا الوزير النصراني وقعت فتنة بين
 المسيحيين والمسلمين وذلك أنه لما خرج الإمبراطور باسيليوس إلى الشام لفتحها
 في عام ٥٣٨٦ م — ٩٩٦ م برز العزيز في سائر جيوشه وأظهر العزم على غزو بلاد
 الروم ، وأمر حبس بن نسطورس بإنشاء أسطول يسير معه ؛ فلما تم إعداده
 وقعت فيه نار في اليوم الذي عزم فيه العزيز على السيرة ، واتهم الرمية تجار الروم
 الواردين بالبضائع إلى مصر بإحراقه ، قتل العامة وقتلوا منهم مائة وستين رجلاً ،
 ثم تحوّلوا عن الروم إلى نهب كنائس النصارى ، وجرح في هذا الشعب أسقف
 النسطوريين جراحات مات فيها . وقد أعاد الوزير النظام إلى نصابه وامتثل
 ثلاثة وستين من النهاية ، وأمر العزيز بإطلاق ثلثهم وضرب ثلثهم وقتل ثلثهم ،
 وذلك بأن كتب رقاعاً على بعضها : تُضْرَب ، وعلى بعضها تُقْتَل ، وعلى بعضها
 تُطْلَق ؛ وأمر كل واحد من النهاية أن يأخذ رقعة منها بعد أن وضعت تحت إزاره ،
 فكان يعمل به بحسب ما يخرج في يده^(٢) . وفي عام ٥٣٩٣ م — ١٠٠٣ م بدأت

(١) قس المصدر ٨١ — ٨٢ .

(٢) يحيى بن سعيد ص ١١٢ ب — ١١٣ ، ويحكى الفريرى (المخطوط ج ٢ ص ١٩٥ — ١٩٦) هذا باختصار ، ولكنه يزيد على ذلك أنه طيف بمن أطلق ، وفي عهد
 بني واحد رأس رجل ممن قتل من الروم . ولا نجد مثلاً آخر لهذه العلوية في القرن الرابع .

علامات العاصفة التي أنارها تمصب الخليفة الحاكم بأمر الله^(١). ولا رأى العامة أن العنان قد أرسل لهم، بدأوا يهدمون الكنائس، وبنى الخليفة مكانها مساجد، منها الجامع الأزهر المشهور؛ ثم أعاد الحاكم قوانين الباس القديمة على أشد صورها، فالزم النصراني أن يعلقوا في أعناقهم صليباً من الخشب؛ ومنعت مواكبهم العامة، وحُظر عليهم ضرب الدواقيس؛ وأمر ألا يظهر صليب ولا تقع عليه عين؛ فزعت الصليبيون من الكنائس وطُست آثارها من ظاهر البيع والكنائس. وأتلفت الكنائس الكبرى مثل كنيسة القبر بالقدس ودبر القصر الكبير للبي على سفح جبال المقطم؛ وقد انتهك المسلمون حرمة المقبرة الكبرى في هذا الدبر؛ ولكن الحاكم لم يرد ذلك، وقد أمر بمنه بمجرد علمه به. ورغم هذا كله استوزر الحاكم منصور بن سعدون النصراني، واتخذ لنفسه أطباء نصراني طول هذه المدة. وقد تقدم بإثبات أسماء سائر المسلمين المتطولين والنصرانيين من الكتاب الذين يصلحون للخدمة في دواوينه ليستعيض بهم عن النصراني. «وكان سائر كتابه وأصحاب خدمته وأطباء مملكته نصراني إلا نفرأ يسيراً من الكتاب»؛ ثم كثرت الشاعات السيئة في النصراني، فاجتمع سائر من بمصر من الكتاب والعمال والأطباء وغيرهم من أساقفتهم وكنيستهم وتوجهوا إلى قصره في يوم الخميس ثاني عشر ربيع الأول سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٢ م)، وكشفوا عن رؤوسهم من باب القاهرة، ومشوا حفاةً باكين مستغيثين إليه يسألونه الدفون

(١) religion des Druses, CCLXXVIII (II.) ولكن دى سانس لم يرجع إلى تاريخ يحيى بن سعيد معاصر الحاكم، وهو الذي أكل تاريخ يحيى بن الطريق، وهو مؤرخ ثقة معتدل. ومن هذا الكتاب نسخة المستطبع بمصر في المواد بحسب ترتيبه التاريخي لأول مرة، أما الكتب الأوروبية المعاصرة الأخرى مثل المؤلف بيرون (Savien) فهو أشبه

والصفح ، ولم يزالوا في طريقهم يقبلون التراب إلى أن وصلوا إلى قصره ، وم على تلك الحال ؛ فأنفذ إليهم أحد أصحابه ، وأخذ منهم رقعة كانوا قد كتبوها يلتمسون فيها عفوه عنهم ؛ ثم عاد الرسول إليهم ورد عليهم ردًا جميلًا ، وهدم بما اطمانت له قلوبهم ؛ فلما كان يوم الأحد النصف من شهر ربيع الآخر أمروا بتعظيم الصليبان التي في رقابهم ، وأن يجعلوا طولها ذراعًا ملكيًا في عرض مثلها ، وأن يكون سُمكها إصبعًا ، وأمر اليهود أن يعلقوا في أعناقهم أيضًا أكر خشب من خمسة أرتال إشارة إلى رأس العجل الذي عبده سلفًا ؛ وتهدد النصارى ، وكثر الإرجاف بهم ، فأسلم كثير من شيوخ الكتاب والتصرفين ، وتبعهم خلق من عوام النصارى ؛ وتلاحقوا فلم يبق منهم إلا نفر يسير ؛ ولم تزل الطرقات أيامًا عدة لا يرى فيها نصراني . على أن كثيرًا من أسلموا إنما تظاهروا بالإسلام تظاهرًا ،

محسن بن بدوس الذي قتل عام ٤١٥ هـ — ١٠٢٤ م وهو يلي بيت المال ، فقد قيل إنه لما قُتل وجد أغلف لأنه كان نصرانيًا ، وكان قد ظاهر عند إسلامه أنه أحضر الختان وختنه ، ولم يكن من ذلك شيء ^(١) . أما اليهود فإنهم تمسكوا بدينهم ولم يُسلم منهم إلا نفر يسير ، وكذلك النصارى الذين في بقية البلاد ، فلم يُسلم منهم في بقية أعمال المملكة إلا قليل ، وهدمت ألوف كثيرة من الكنائس والأديرة واستُخرج من المتولين أسرها من النصارى في كل بلدة ما دُفع إلى القفلة الذين قاموا بهدمها ؛ وأتى على جميع أديرة المملكة إلا الدبر القديم المجاور للإسكندرية والدويرة القريبة منه ، لأن بعض قبائل العرب دافعوا عنها لما نفع لهم فيها . وأوعز بهدم دبر طور سيناء ، وأقطعه الحاكم لرجل توجه إليه ،

(١) انظر مكاية الشجر (الزوف عام ٤٢٠ هـ — ١٠٢٩ م) التي ذكرها بكر

C. H. Becker, Beiträge Zur Geschichte Aegyptens, I, 5

سكان من حكمة الترهّب فيه أنه أحسن إقائه الرجل وسلّمه جميع آلات الدبر ،
ونلطّف في إقائه أن خدمه يصحب عليه وعلى غيره لحصانته ووثاقه بنيانه ، وأنه
يحتاج في خدمه إلى نفقات تفوق ما يحصل له منه ، فترك الرجل التعرّض له .
ولكن الحاكم لم يستمر على هذا الاضطهاد ، فلما وصلت إلى أفعه رائحة الذهب
الهرزى الذى كان قد ظهر حديثاً ومال إليه وأراد أن يُقوّيه على رغم معارضة
المسكين بأصول الإسلام الأولى لم يعد لديانات أهل الذمة ما كان لها من أثر
في نفسه ؛ ففي عام ٨٤١٠ - ١٠١٩ م رُفِعَ إليه عدة مرات أن النصارى يجتمعون
في بيوتهم ويقدّسون ويصلون ويحضر معهم جماعة من الذين أسلموا فيشاركونهم
في أخذ القربان ، فلم ينكر ذلك وأعرض عن كلام الساعين . وفي هذا العام
نفسه أعاد جميع الأوقاف المقبوضة التي كانت برسم دبر طور سيناء ، كما أذن بعبارة
دبر التقصير وأطلق ما كان برسمه من الأوقاف^(١) .

وفي بد الخليفة الظاهر الذى جاء بعد الحاكم عاد كل شيء إلى ما كان
عليه ، فـ النصارى إلى الظاهر بأعيادهم وخروج الباغوث إلى كنائسهم التي في
ظاهر المدينة والقاهرة ، والخليفة بمصر يحضر لمشاهدة اجتماعاتهم ويتقدم
بصياتهم^(٢) . وخففوا العيار الذى كان عليهم ، ولم يبق من ذكر عهد الخليفة
المجنون إلا لباس زنار أو عمامة سوداء ، وهي التي يلبسها المسيحيون منذ
ذلك الحين^(٣) .

(١) يحيى بن سعيد س ١٢١ ب - ١٢٣ ، س ١٢١ - ١٢٢ ب .

(٢) انظر القسام الحار بالأعياد .

(٣) يحيى بن سعيد س ١٢٢ ب ، س ١٢١ ب .

حين وآخر ، فر ذلك أن السلطان الناصر بن قلاوون في القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر
اليلادى) أمر أن يلبس النصارى العمامة الزرق ، واليهود العمامة الصفراء ، والسامرة العمامة
الحمراء (كتاب الأوائل لعل دده ، مطبوع برلين التقدم الذكر س ١٠٩) ، ولا يزال السامرة
فلسطين يلبسون العمامة الحمراء إلى اليوم .

وقد ولى الوزارة بالقاهرة منذ عام ٤٣٦ هـ إلى ٤٣٩ هـ = ١٠٤٤ إلى ١٠٤٧ م
 أبو نصر صدقة بن يوسف الفلاحى ، وكان يهوديا فأسلم ؛ وكان يدير الدولة معه
 أبو سعد التستري اليهودى . ولذلك قال الشاعر المصرى الحسن بن خاقان :
 يهودُ هذا الزمان قد بلغوا غايةَ آمالهم وقد ملكوا
 المَرْزُ فيهم والمال عندهم ومنهم المنشأ والملك
 يا أهل مصر إني نصحت لكم نهودوا ، قد نهود القلك^(١)

(١) حسن الحضارة السيوطى ج ٢ ص ١١٦ .

الفصل الخامس

الشيعة

لما جاء القرن الرابع الهجري كان حزب الخوارج قد فقد ما كان له من شأن ، بعد أن كان أقدم حزب يناوئ الخلافة الرسمية ؛ وأصبح الخوارج مفرقين في وسط المملكة الإسلامية ، يؤلفون جماعات صغيرة لها مذهبها الخاص ؛ وكان لهم خروج وحروب يديار ريمة وعمان وغيرها في أوائل القرن الرابع ^(١) . لم تكن لهم قوة وصولة إلا في الأطراف : في بلاد سجستان ونواحي هراة ^(٢) . وكذلك في القرب ، حيث دخل فيهم البربر المقيمون على شاطئ مضيق جبل طارق ^(٣) . وقد واصل الشيعة الهدية ، القرامطة والفاطميون ، ما كان قد بدأه الخوارج من مكاتفة الخلافة ؛ وكان هذا علامة من العلامات التي تنذر بنهاية الأصول الإسلامية الأولى ، ذلك أنه من أكبر ما يمتاز به الحركة الفكرية في القرن الرابع الهجري ظهور مذهب الشيعة بمثل بين ثنائاه الكثير من الأفكار الشرقية القديمة ، ويحطها مكان بعض الأفكار الإسلامية .

واقعد أمانت لنا مباحث فلها وزن بصورة أدنى إلى الصواب أن مذهب الشيعة

(١) مروج الذهب للمسعودي ج ٥ ص ٣٢٠ .

(٢) مقدسي ص ٣٢٣ .

(٣) Goldziher, ZDMG, 41, S. 31 ff. وكانوا إباضية نكارية ؛ أما في الشرق فكانوا على مذهب الصفرية المتطرفين . ويقول ابن حزم (الفصل ج ١ ص ١٩٠) : إن فرق الخوارج كلها لم يأت ولم يبق على عهد الخلافة الإباضية والصفرية . وفي أمانتنا هذه لم يبق من الخوارج جماعة تسميها العرب لسان ومن أثره في إفريقيا الشمالية .

ليس - كما كان يعتقد البعض - ردّ فعل من جانب الروح الأيرانية بخلاف الإسلام^(١). وما يؤيد أبحاث فلهاوزن التوزيع الجغرافي للشيعة في القرن الرابع؛ وقد ألمح الخوارزمي في أواخر القرن الرابع إلى أن العراق هو الموطن الأول للشيعة^(٢). وكانت الكوفة، وبها قبر علي (رضي الله عنه) أكبر مركز للشيعة حتى ذلك العهد، وكان يقال: «من أراد الشهادة فليدخل دار البطيخ (بالكوفة) وليقل: رحم الله عثمان بن عفان»^(٣). وفي غضون القرن الرابع امتدّ مذهب الشيعة إلى البصرة، وهي المنافى القديم للكوفة والتي كان يقال عنها في القرن الثالث: «أما البصرة وسوادها فقد غلب عليها عثمان وصنائع عثمان فليس بها من شيعة إلا القليل»، «وأما الكوفة وسوادها فقد غلب عليها علي وشيعته»^(٤)؛ وفي البصرة اضطر أبو بكر الصولي (المتوفى عام ٣٣٠ هـ - ٩٤٢ م) أن يستقر حتى مات لأنه روى خيراً في علي (رضي الله عنه)، فطلبته الخاصة والعامة لانتقله^(٥). وفي القرن الخامس الهجري كان في البصرة ما لا يقل عن ثلاثة عشر مكاناً تتصل بذكري علي^(٦)، وكان يقدها الشيعة. بل كان جد في المسجد الكبير في ذلك الوقت أثر من آثار علي يُعرض للناس، وهو قطعة من الخشب طولها ثلاثون ذراعاً وعرضها خمسة أشبار وسحما أربعة أصابع.

(١) راجع كتاب Julius Wellhausen, Die religiös-politischen Oppositions-parteien im alten Islam, Berlin, 1901, S. 91.

(٢) رسائل أبي بكر الخوارزمي طبعة القسطنطينية عام ١٢٩٧ م ص ٤٩.

(٣) تاريخ بغداد مخطوط رقم ٢١٢٨ بمكتبة باريس الأهلية ص ١٤ ب، ويقول النديم (ص ١٢٦): «إن أهل الكوفة شيعة إلا الكناسة فإنها سنية».

(٤) ثلاث رسائل لأبي عثمان الجاحظ طبعة فان فلوتن ليدن ١٩٠٣ م ص ٩.

(٥) الفهرست لابن النديم ص ١٥٠.

(٦) ناصر خسرو ص ٨٧.

يقال إن علياً جاء بها من الهند^(١). وكانت الشام منذ أول الأمر زنة غير صالحة
لدموة العلويين ؛ وبمكى أن أبا عبد الرحمن النسائي (٢١٥ - ٥٣٠) دخل
دمشق ، وكان يتشيع ، فسئل عن معاوية وما روى من فضائله فقال : أما يرضى
معاوية أن يخرج رأساً برأس حتى يفضل ؟ وفي رواية أنه قال : ما أعرف له
فضيلة إلا « لا أشبع الله بطناً » ، فزالوا يذمونه حتى أخرجوه من المسجد ،
ودأسوه ثم دأسوه ، ثم حمل إلى الرملة ، فمات وهو منقول بسبب ذلك الدرس^(٢)
وكان أهل طبرية ونصف نابلس وقُدس وأكثر عمان شيعة^(٣) ، ولا أدري كيف
كان ذلك . ورغم قيام الدولة الفاطمية نلاحظ أن حزب الشيعة لم يتقدم إلا قليلاً ؛
وإذا كان ناصر خسرو قد وجد أهل طرابلس في عام ٤٢٨ هـ - ١٠٣٧ م
شيعة^(٤) ، فقد جاء ذلك من أن بنى عمار ، وهم إحدى الأسرات الصغيرة الكثيرة
على الأطراف ، كانوا هناك على مذهب الشيعة ؛ ويظهر أنهم عملوا بمقتضى
القاعدة الليثية التي تجعل للأمير الحق في فرض المذهب الذي يريده^(٥) ، وهي
قاعدة لم يُنَادِ بها أحد في الإسلام فضلاً عن أن تُطبق تطبيقاً شرعياً . وكانت
جزيرة العرب شيعة كلها هذا المدن الكبرى مثل مكة وتهامة وضنعا وقرح ،
وكان للشيعة غلبة في بعض المدن أيضاً مثل عمان وجر وصدنة^(٦) . وفي بلاد

(١) حَسَنُ الْمَصْدَرِ .

(٢) الوفيات لابن خلكان طبعه مستطد ١٨٢٥ ج ١ ص ٣٧ ، انظر أيضاً طبقات
السبكي ج ٢ ص ٨٤ .

(٣) القُدسي ص ١٧٩ .

(٤) ناصر خسرو ص ٤٢ .

(٥) *cojus regio, ejus religio* ، وهذا ما تم الاتفاق عليه بين الأمراء الألمان
والإمبراطور في آخر القرن السادس عشر ، وهو أن يكون لكل أمير الحق في أن يقرر
على أهل إمارته المذهب الذي يراه . [الترجيم]

(٦) القُدسي ص ٩٦ .

خوزستان التي تلي العراق كانت نصف الأهواز، وهي القصبة، على مذنب الشيعة^(١)؛ أما في فارس فكان الشيعة كثيرين على السواحل التي تتصل اتصالاً وثيقاً بالعراق وخصوصاً بالقرب للشهيد^(٢)؛ أما في جميع الشرق فكانت الغلبة لأهل السنة إلا أهل قم فإنهم كانوا «شيعة غالية» قد تركوا الجماعات، وعملوا الجامع إلى أن ألزمهم ركن الدولة عمارته ولزومه^(٣). والسبب في نفوذ أهل قم ذلك أن هذه المدينة قد احتلها من قبل أصحاب ابن الأشعث، وكان رئيسهم قد أدب ابنه في الكوفة؛ وكان غلّز أهل قم موضع كثير من النوادر «... ومن ظريف ما يحكى أنه وُلّي عليهم وال، وكان شيئاً متشددًا، فبلغه عنهم أنهم لبعضهم الصحابة الكرام لا يوجد فيهم من اسمه أبو بكر قط ولا عمر، فجمعهم يوماً وقال لرؤسائهم: بلغني أنكم تفتخرون بحباية رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنكم لبعضكم الإمام لا تسون أولادكم بأسمائهم، وأنا أقسم بالله العظيم لئن لم تجيئوني بـرجل منكم اسمه أبو بكر أو عمر، ويثبت عدي أنه اسمه، لأضربن بكم ولأضعلن؛ فاستملوه ثلاثة أيام وفتشوا مدينتهم، واجتهدوا، فلم يروا إلا رجلاً معلوكًا حافياً عارياً أحول أقيح خلق الله منظرًا، اسمه أبو بكر، لأن أباه كان غريباً استوطنها فستاه ذلك فجاءوا به، فشتهم وقال: جشمتوني بأقيح خلق الله تفادرون على وأمر بعضهم فقال له بعض ظرفائهم: أيها الأمير اصنع ما شئت، فإن هواه

(٣) قس المصدر ص ٤١٥.

(٤) قس المصدر ص ٤٣٩.

(٥) المقدسي ص ٣٩٥، وقد نخل أحد القراء بذكر نساء قم العجبات:

فكانت شيعة قسبة وكان سيدنا الوزير إمامي

(بلية الدهر ج ٤ ص ١٣٥) وكان الشيعة إلى جانب ذلك عابدة في مدينة الرقة إحدى المدن الصغرى بدمشق (المقدسي ص ٣٢٣)؛ وقد كان عند رجل حبة ومبيالة أحد كبار

قَمٍّ لا يجرى منه من اسمه أبو بكر أحسن صورة من هذا ؛ فقلبه الضحك
وعفا عنهم ... »^(١).

. وكان في قَمٍّ فرقة من الذلاة وهم الغرابية ، ومذهبهم أن المال كله للبنات ،
فلما ولي عليهم قاضي حكم للبنات بالنصف هذوره بالقتل ؛ « وهم قوم من شرار
الروافض يذهبون إلى هذه المقالة لأجل فاطمة رضى الله عنها »^(٢) . وفي عام
٢٠١ هـ - ٨١٦ م دفنت في قَمٍّ السيدة فاطمة ابنة الإمام الثامن ، الرضا ، لأن
قَمٍّ كانت في ذلك الوقت أحب مكان يدفن القرس فيه موتاهم ، بعد مشهد . أما
أصفهان فقد كان في أهلها بَلَهٌ وغُلُوٌّ في معاوية على عهد للقدس ؛ ويحكى للقدس
أنه وُصف له رجلٌ بالزهد والتعبد ، فقصده ليسانه ، فرآه يقول إن معاوية نبيٌّ
سُرُتَل ، فلما أنكر للقدس عليه ذلك أصبح يشنع عليه ، ولولا أن القافلة
أدركته لبطشوا به^(٣) . وكانت أصفهان تخالف قَمٍّ كل المقالة ؛ ففي عام ٣٤٥ هـ -
٩٥٦ م وقعت بها فتنة كبيرة نشأت من اختلاف المذاهب ؛ وكان سبب ذلك
أنه قيل من رجل قُتِي إنه سبَّ بعض الصحابة ، فثار أهل أصفهان ، واجتمع
خلق لا يحصون كثرة ، ووقع بينهم قتل ، ونهب أهل أصفهان أموال التجار من
أهل قَمٍّ^(٤) . وفي أواخر القرن الرابع الهجري نحمد المذاني يقول إن خراب
نيسابور واضطرابها وما نزل بأهلها من بلاء ، وكذلك ما نزل بقمستان حتى
صارت مأكلَةً الفُصَص ونُجْمَةً الأَكدار ، كل ذلك لغشوة مقالة الشيعة فيهما .
ويحكى المذاني عن صاحب له رجوع من هراة ذكر أنه سمع في السوق صبيا

(١) كتاب مجمع البلدان لياقوت الرومي طبع ليترج سنة ١٨٦٩ م ج ١ ص ١٢٦ .

(٢) طبقات السبكي ج ٢ ص ١٩١ .

(٣) للقدس ص ٣٩٩ .

يُنشِد : أن محمداً وعلياً لعنا نبيا (منها أبوبكر) وعدنياً (منها عمر)^(١) ، وفي ذلك العصر لم يكن قد تم لمذهب الشيعة افتتاح البلاد التي يملكها اليوم ، وأبكنه كان سائراً في أحسن طريق يوصله إلى ذلك ؛ بل كان الاضطهاد مما يساعد هذا المذهب على الانتشار .

أما من حيث الثبوت والمذهب فإن الشيعة هم ورثة المعتزلة ؛ ولا بد أن تكون قلة اعتداد المعتزلة بالأخبار المأثورة مما لا دم اغراض الشيعة . ولم يكن للشيعة في القرن الرابع مذهب كلامي خاص بهم ؛ فنجد مثلاً أن عضد الدولة ، وهو من الأسماء المقتضيين ، يعمل على حسب مذهب المعتزلة^(٢) . ولم يكن هناك مذهب شيعي إلا للفساطيين ؛ ويصرح القديس بأنهم يوافقون المعتزلة في أكثر الأصول^(٣) . وعلى العكس من هذا نجد الشيعة الزيدية يرتقون بسند مذهب المعتزلة حتى ينتمى إلى علي بن أبي طالب (رضى الله عنه) ، ويقولون إن واصلأخذ من محمد بن علي بن أبي طالب ، وإن محمداً أخذ من أبيه^(٤) . والزيدية يوافقون المعتزلة في أصولهم كلها إلا في مسألة الإمامة^(٥) . وبذل على العلاقة الوثيقة بين المعتزلة والشيعة أن الخليفة القادر جمع بينهما حينما نهى في عام ٤٠٨ هـ — ١٠١٧ م عن الكلام والمناظرة في الاعتزال والرفض (أي مذهب الشيعة) والمقالات الخاتمة للإسلام^(٦) . ثم إن الطريقة التي سار عليها ابن بابويه القتي ،

(١) رسائل المصنفين من ٤٦٤ — ٤٢٥ ، وابن حوقل من ٢٦٨ .

(٢) مقدس ٤٣٩ .

(٣) نفس المصدر ٢٣٨ .

(٤) ذكر المعتزلة من كتاب النية والأمل لأحمد بن يحيى المرتضى طبعه آر. كلند بميدراة

١٢١٦ هـ من ٥٠ .

(٥) خطط القرطبي ج ٢ من ٣٥٢ .

(٦) الخطوط من ١٦٥ .

أكبر علماء الشيعة في القرن الرابع الهجري ، في كتابه المسمى كتاب الطلل تذكرنا بطريقة علماء المعتزلة الذين كانوا يبحثون عن علل كل شيء . وكان في مذهب الشيعة ، كما كان في مذهب المعتزلة ، مكان لكل ألوان الزندقة ؛ فنجد ابن معاوية منذ القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) ، يجمع حوله الزنادقة ؛ وقتل أحد هؤلاء لأنه أنكر البعث ، وكان يقول إن الناس نفق كالنباتات ^(١) . وفي عام ٣٤١ هـ - ٩٥٢ م ظفر الوزير المهلبى بقوم من التناسخية ، فيهم شاب يزعم أن روح علي بن أبي طالب (رضى الله عنه) انتقلت إليه ؛ وفيهم امرأة تزعم أن روح فاطمة (رضى الله عنها) انتقلت إليها ؛ وفيهم آخر يزعم أنه جبريل ؛ ففُرضوا ، قاتلجأوا لأهل البيت ، فأمر بمنزلة الدولة بإطلاقهم لتشتيع كان فيه ^(٢) . ومثل هذه المقالات ، وخصوصاً القول بالرجعة وبالتناسخ ، يوجد في مذاهب القنوسطينيين المسيحيين ^(٣) . وكثيراً ما نجد في العراق حوالى عام ٥٣٠٠ هـ - ٩١٢ م من يقول إن اللاهوتية اجتمعت في علي (رضى الله عنه) ، كما اجتمعت في عيسى عليه السلام من قبل (انظر الفصل الخامس بالدين) . وكان أحد خطباء الشيعة ببغداد في عام ٤٢٠ هـ - ١٠٢٩ م يدعو في خطبة الجمعة بعد الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، فيقول : وعلى أخيه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب مُكَلِّمُ الجمجمة ، ومحى الأموات ، البشرى الإلهى ، مُكَلِّمُ فتية أصحاب الكهف ، وغير ذلك من القلوع ^(٤) ؛ ومن هذا ما يحكى عن المسيح

(١) Wellhausen, Oppositionsparteien, S. 99.

(٢) أبو الهاس ، طبة ليدن ج ٢ ص ٢٢٢ .

(٣) ملين من البرورى أن نرد الآراء المتلفة بظاهر السبع إلى اليهود بحسب

جزيرة العرب ، وهم الذين يمترون آباء هذه المقالة (انظر مقالة (Friedländer, ZA, 23, S. 24)

(٤) المنظم ص ١٧٨ ب .

عليه السلام ؛ وقد ظلت هذه الصفات عند المسلمين بما اختص به المسيح عليه السلام مدة طويلة ، وسرى كثير مما كان يقال لإثارة العواطف في يوم حجة الآلام عند المسيحيين إلى يوم عاشوراء . يقول القمي (المتوفى عام ٨٣٥ هـ - ٩٦٦ م : « إذا نظرت السماء حمراء ، كأنها دمٌ عييطٌ ، ورأيت الشمس على الحيطان ، كأنها الملاحف المصقّرة ، فاعلم أن سيد الشهداء الحسين قد قتل »^(١) . وكذلك ذهب الشيعة في السيدة فاطمة (رضي الله عنها) إلى ما يشبه صفات السيدة مريم عليها السلام ، فهي قد سُميت البتول مثل مريم ؛ وبرّوى الشيعة عن النبي عليه السلام أنه أجاب من سأله : ما البتول ؟ فقال : البتول التي لم ترَ خُمرَةً قط ، أي لم تتحسّن ، فإن الحيض مكروهة في بنات الأنبياء^(٢) . وكذلك زعم الشيعة أن الحسين (رضي الله عنه) لم يُقتل ، وأنه شُبّه للناس ، كعيسى بن مريم عليه السلام^(٣) ؛ وربما تكون هناك علاقة بين لباس الشيعة وبين اللباس الأبيض الذي اتخذته الفرق الغنوسية . وكان الشيعة أيضاً في أول الأمر يلبسون البياض ؛ ويقول الشاعر ابن سكرة^(٤) :

إن عبيد أهل قم وقاشان والكرج

يتلاقى بياضهم بقلوب من السج

وقال بعض رؤساء الشيعة المخالفين لما عليه جمهورهم ، وقد ايسر - واداً :

(١) كتاب الملل لابن بابويه القمي مخطوط برلين رقم ٨٣٢٦ ص ١١٠ ، وكان

القمي يقول : عند موت الحسين تقطر السماء دماً .

(٢) كتاب الملل ص ٧٧ ب .

(٣) كتاب الملل ص ٩٩ ب .

(٤) بنية لدمرج ٢ ص ٢٠٦ .

بيض قلبك ، والبسن ما شئت ^(١) . وكانت أعلام القرامطة يضاء ، وكذلك كانت ملابس خلفاء الفاطميين وخطبائهم ^(٢) . أما اللون الأخضر الذي يتميز به العلويون اليوم فإن أول من أسره باتخاذ سلطان مصر شعبان بن حسين (المتوفى عام ٧٧٨ هـ - ١٣٧٦ م) ^(٣) .

وربما يكون الشيء الوحيد الجديد في مذهب الشيعة في هذا العصر أنهم يردون كل الأخبار والآثار إلى علي وأهل بيته . وقد صادف هذا الصنيع أشد استنكار من علماء أهل السنة ^(٤) ؛ وفي سنة ٣٠٠ هـ - ٩١٢ م روى رجل حديثاً وسنده بالسبط والصادق حتى انتهى إلى علي بن أبي طالب ، ونقل ذلك إلى مجلس فيه ابن راهويه الفقيه ، وكان متهماً بالنصب ، فقال : ما هذا الإسناد؟ ^(٥) . وكان وضع الأخبار من جانب الشيعة وخصوصهم في هذا الباب من الأمور التي جرروا عليها من قديم ، وكانوا لا يحدون في ذلك حرجاً . ويذكر أن ابن إسحاق صاحب السيرة النبوية كان يفتشع ويقدم عليها علي عثمان ، وكان يدخل في كتابه أشتاراً للشيعة . ويروى أيضاً أن حوارة بن الحكم (المتوفى عام

(١) كتاب الطل مخطوط برلين رقم ٨٢٢٦ من ١١٣٥ .

(٢) بقية المؤلف هنا إلى صفحات من كتاب الطل ومن كتاب الأوائل والأواخر للده (لهذا الكتاب ثلاث نسخ بمكتبة برلين) ، ولم أجد في هذه المصنفات ما يقابل كلامه [الذبح] . وقد دخل للأمن بغداد من خراسان عام ٧٠٤ هـ ، فكان لباسه هو وأصحابه وأعلامهم الخضرة (كتاب بغداد لطيفور طبعة كلر Keller من ٢) ، وكان ينصب على أعلى النوبهار يبلغ الراح عليها شقة الحرير الخضرة ، (مروج الذهب ج ٤ من ٤٨) . وربما كان هذا اللون شعار خراسان .

(٣) ابن المؤزى مخطوط برلين من ١٣٥ ، ولكن لا يقابل لذلك في هذه الصفحة في مخطوط رقم ٩١٣٦ بمكتبة برلين . [الترجم]

(٤) انظر مثلاً ناصر خسرو من ٤٨ ، وأبا الحسن طيبة يدين ج ٢ من ٤٠٨ .

(٥) كذاب الوراء من ١٧٠ - ١٧١ .

١٤٧ هـ - ٧٦٤ م) كان يضع أخباراً لبني أمية ، وعامة أخبار الدائى مأخوذة عنه^(١) ؛ وإذا كان أحد الشعراء حوالى عام ٨٣٠٠ - ٩١٢ م يمزو أساطير الشبهة إلى فئة معرفتهم بالأخبار^(٢) ، فإن المقدسى يحكى لنا أنه كان يوماً بجامع واسط ، وإذا برجل قد اجتمع عليه الناس ، فدنا منه ، فإذا هو يرى حديثاً بسنده عن النبي عليه السلام : إن الله يُدْثِي معاوية يوم القيامة ، فيُجْلِسُه إلى جنبه ، ويثقله [؟] بيده ، ثم يحلوه على الناس كالعروس ، فقال له المقدسى : بماذا ؟ قال : بمحاربة علياً ، فقال له المقدسى : كذبت يا ضال ! فقال : حدوا هذا الرافضى ؛ فأقبل الناس عليه ، فمره بعض الكتبة ودفنهم عنه^(٣) . وكذلك حكى المقدسى أنه كاد يُبطش به لأنه أنكر حرّ حل من بُنَادِ أصفيان قوله إن معاوية نبي مرسل^(٤) . على أن علياً لم يصبح مع التراجع ، ومضى الوقت القبيّ مجد فيه خليفة عباسياً مثل المتوكل (٢٢٣ - ٢٤٧ هـ = ٨٤٧ - ٨٦١ م) شديد البعص لعلى ولأهل بيته ، حتى كان من جملة ندمائه رجل يشذّ على بطله تحت ثيابه مخدة ، ويكشف رأسه وهو أصلم ، ويرقص ، ويقول : قد أقبل

(١) الإرشاد (سجيم الأدباء) ج ٦ ص ٩٤ ، ١٠٠ و Goldziher :

der Gegenwart, (٢)

(٢) هو الشاعر الملقب بالخيز أروى حيث يقول :

من طابت الأخبار عنه ، ودينه دين الإمامة ، قال بالأوهام

انظر مروج الذهب ج ٨ ص ٣٧٤ .

(٣) المقدسى ص ١٢٦ ، وكان من أمر هذا النزاع في أمر حي ومسلمه أن ...

صار له شأن ديني ؟ ومحكى السودى (المروج ج ٥ ص ١٤) أن قر معاوية باباب الصغير بدمشق ، وهو يزور إلى هذا الوقت ه وهو سنة اثنين وثلاثين وثلاثمائة ، وعليه بيت من يفتح كل يوم اثنين وخمس ه .

(٤) المقدسى ص ٣٩٩ ؛ والتنظم ص ٦٠ ب

الأصلح البطين أمير المؤمنين ، يعنى علياً رضى الله عنه ، والتوكل يشرب ويضحك^(١) . وكان أهل السنة في الجملة يذكرون علياً بالإجلال ، ولم يكونوا يطأ أعداءه^(٢) . فاللهذاني (التوفى عام ٣٩٨ هـ - ١٠٠٨ م) مثلاً قد شنع على الشيعة ، ورد على طعن الخوارزمي في عمر^(٣) ؛ وقد ألف مرثية للحسين ، وتحدث عن مقتله وصنع بنى أمية بأبناء النبي^(٤) ؛ وكان أشد ما يؤلم نفوس أهل السنة ما أولع به الشيعة من سب الصحابة الأولين ، وفي سنة ٤٠٢ هـ - ١٠١١ م توفى ببغداد أحد علماء أهل السنة الأكابر ، وكان ديناً حسن الاعتقاد ، واجتاز يوماً بالكرخ ، فسمع سب بعض الصحابة ، فجعل على نفسه الأيمشى في الكرخ ؛ وكان يسكن باب الشام ، فلم يعبر قنطرة الصراة حتى مات^(٥) ؛ وكانت الحكومة إذا أرادت أن تعاقب شيعياً لم تذكر اسم علي ، بل يحمل سبب العقوبة أنه شتم أبا بكر وعمر^(٦) ، وفي عام ٣٥١ هـ - ٩٦٢ م كتب عامة الشيعة بأمر من الدولة على المساجد ما هذه صورته : لمن الله معاوية بن أبي سفيان ، ولعن من قَصَبَ قاطمةً فداكاً ، ومن منع الحسن أن يُدفنَ عند قبر جدّه ، ومن نفى أبا ذرٍّ . . . فلما جاء الصباح محاه بعض الناس ؛ فأشار الوزير المهلبى على معز الدولة أن يكتب موضع المحو : لمن الله الظالمين لآل رسول الله ، ولا يذكر أحداً إلا معاوية ، ففعل ذلك^(٧) .

(١) أبو الفدا تحت عام ٢٣٦ (ج ٢ ص ١٨٨) .

(٢) W. Sarasin : Das Bild Alis bei den Historikern der Sunnah.

(٣) الدبوان : باريس ص ٩٠ وما يليها .

(٤) رسائل المحدثين طبعة بيروت ١٨٩٠ ص ٥٨ وما يليها .

(٥) المنظم ص ١٥٨ .

(٦) المنظم مثلاً ص ٢٩ ب .

(٧) أبو الفدا ج ٢ ص ٤٢٦ تحت عام ٣٥١ هـ .

وقد لجأ كثير من العلويين إلى مصر التي لم تكن تربطها بعرض الخلافة
ببغداد رابطة الطاعة النامة . وفي سنة ٢٣٦ هـ - ٨٥٠ م كان التوكل قد حبس
الطالبيين في سُرّ من رأى^(١) ، وورد كتابه إلى والي مصر بإخراج الأشراف
العلويين وإعطاء الرجل منهم ثلاثين ديناراً والمرأة خمسة عشر ديناراً ؛ فقدموا
العراق ، ثم أسروا بالخروج إلى المدينة^(٢) ؛ ولكن كثيراً من العلويين
استطاعوا أن يفلتوا من هذا النظام ، وسرعان ما ثاروا وبايعوا واحداً منهم ، فورد
كتاب المنتصر إلى والي مصر بالآلا يُقبل علوي ضيمّة ، ولا يركب فرساً ،
ولا يسافر من القسطنطين إلى طرف من أطرافها ، وأن يُمنعوا من اتخاذ البيد
إلا العبد الواحد ، وإن كانت بين أحد الطالبيين وبين أحد من سائر الناس
خصومة فليُقْبَل قول خصم الطالبي فيه ، ولا يطالب ذلك الخصم ببينة^(٣) .
فلا محجب إذن أن نرى مصر تشهد حوالى عام ٢٥٠ هـ ثورة للعلويين بعد أخرى ؛
وفي القرن الرابع الهجري بدأت فنن المغرب تستولى على مصر ، فوحد ذلك بين
أغراض العلويين السياسية وبين أغراض الشيعة .

وقد بلغت الفتنة في يوم عاشوراء سنة ٣٥٠ هـ - ٩٦١ م مبلغاً شديداً في
المصامعة ، فشب القتال بين الجند السنيين من السودان والترك وبين الشيعة ؛
وكان الجنود يسألون من يمدونه : من خالك ؟ فإن لم يقل : معاوية ضربه^(٤) .
وطاف أحد السودان المتهيجين بالطرقات ، وهو يصيح : معاوية خال علي ؛

(٢) كتاب الولاة والقضاة للسكندى طبعة Quest ، لندن ١٩٨ .

(٣) نفس المصدر ص ٢٠٣ - ٢٠٤ .

(٤) يظهر أن هذه العبارة أصبحت العلامة التي يعرف بها السني ، ومن النوادر أن
نظريه (المتوفى عام ٢٧٣ هـ) حكى عن بعض الشيعة أنه قيل له : معاوية خالك ؟ فقال :
لا أدري ، أي نصرانيه ، والأمر إليه (الإرشاد لياقوت ج ١ ص ٣١٣) .

تأريخ العامة ، وأصبحت هذه هي صيغة أهل السنة بمصر حين يريدون قتال الشيعة . وقد حافظت الحكومة على النظام بتدر استطاعتها ؛ وفي عام ١٣٥٣ هـ - ٩٦٤ م ضرب أحد كبار الشيعة ، وحُبس حتى مات في السجن . وقام على قبره قتال بين الجند وبين أصحابه .

ولما دخل جوهر مصر وصارت الحكومة شيعة كانت العامة عند أقل إشارة لهم يصيحون صيحة السنة على الشيعة من نحو : معاوية خال علي . ففي سنة ١٣٦١ هـ - ٩٧٢ م قبض على مجوز عمياء تنشد في الطريق ، وحُبست ؛ ففرع جماعة من الرعية ، نادوا بذكر الصحابة ، وصاحوا : « معاوية خال المؤمنين وخال علي ؛ فبغت جوهر ونادى في الجامع العتيق : « ألقوا القول ودعوا الفضول ، فإننا حبسنا المجوز صيانة لها ، فلا ينطقن أحد إلا حلت به العقوبة الموجبة » ، ثم أطلقت المجوز^(١) . بل يحكى أيضاً أنه في عام ١٣٦٢ هـ - ٩٧٣ م شغب جماعة من الصيارفة السنيين وصاحوا : معاوية خال علي بن أبي طالب^(٢) ، هذا مع أن الصيارفة أهدأ للعناصر السياسية .

على أن حكومة الناطقين كانت تتوخى جانب الحكمة في الجملة ، ولم تكن حكومة متعصبة ؛ ولكنها جمعت أحسن المناصب في القضاء والإفتاء للشيعة وحدهم . وقد بلغ من ذمها أنها لم تمنع العامة في عام ١٣٦٢ هـ - ٩٧٣ م من الاحتفال بعيد اتخذ أهل السنة ، بعد عيد الفدر عند الشيعة ، مضاهاةً للشيعة ونكابةً لهم ، وهو اليوم الذي دخل فيه رسول الله عليه السلام الفار هو

(١) كتاب انساب النمام بأخبار الخلفاء للفرزى طبعه القدس ١٩٠٨ م ص ٨٧ .

(٢) المخطط للفرزى ج ٢ ص ٣٣٩ - ٣٤٠ .

وأبو بكر الصديق ؛ وبالفوا في هذا اليوم في السرور وإظهار الزينة وذهب
القباب وإيقاد النيران^(١).

وقد شد الخليفة الحاكم في هذا أيضاً ؛ ففي عام ٣٩٣ هـ - ١٠٠٢ م أسر
نائب دمشق من قبيل الحاكم برجل مغربي ، فضرب وطيف به على حمار ،
ونودي عليه : هذا جزاء من أحب أبا بكر وعمر ؛ ثم أمر به فضربت عنقه^(٢).
وفي عام ٣٩٥ هـ - ١٠٠٤ م بلغ تعصب الحاكم المذهب أقصى حد ، فكان
من الأشياء الكثيرة التي أمر بها أن يكتب على الجوامع والمساجد والمحيطان
والدروب لن أبي بكر وعثمان ومعاوية وغيرهم من الصحابة ، وكذلك سائر
خلفاء بني العباس ؛ وعظم ذلك على أهل السنة^(٣). وفي عام ٣٩٦ هـ -
١٠٠٥ م أسر بمنع الناس في يوم عاشوراء من الخروج للنوح والبكاء على الحسين
في الشوارع ، لأن العامة كانوا يمدون أيديهم إلى أمتة الباعة ؛ فرفضوا ذلك
إلى الحاكم ، فأمر بمنعهم من المرور في الشوارع ، وأن يختص للنوح والنشيد
بالصحراء^(٤). وفي عام ٣٩٩ هـ - ١٠٠٩ م عاد الحاكم إلى الأسر بالأسب
أحد من السلف الذين كان أسر بسببهم ، وهذه هي عادته من الأسر بالشيء ثم
الأسر بتركه^(٥).

(١) نفس المصدر ج ١ ص ٣٨٩ - ٣٩٠ .

(٢) أبو الحسن طيبة كلفوريا ص ٩١ (عام ٣٩٣ هـ) ، وابن الأثير ج ٩ ص ١٢٦ .
ويقول ابن الأثير إنه أخرج من المدينة فقط ، ولم يقتل .

(٣) يحيى بن سعيد ص ١١٦ ؛ وفي هذه السنة تمسها وصلت ثلاثة الحج فأراد العامة
حلهم على سب السلف ، فأبوا ، فخل بهم مكروه شديد (خطط الفريزي ج ٢ ص ٣٤٢) .

(٤) الخطط الفريزي ج ٢ ص ٤٣٢ ، وعلق استيفاء أخبار الولاة والفضاء
السكندي ص ٦٠٠ .

(٥) يحيى بن سعيد ص ١١٩ .

على أن مذهب الشيعة لم يستطع أن يجذب إليه الناس ؛ فبعدئنا المقدسي أنه لم يجد الشيعة إلا في أعلى القصبية ، وكذلك أهل صندقا^(١) . وكانت في الغرب على الحدود بين الجزائر وتونس توجد أيضاً مدينة نفطة ، وجميع أهلها شيعة ؛ وكانت تسمى الكوفة الصغرى^(٢) . على أنه بعد التدهور السياسي لفاطميين سرعان ما رجعت موجة هذا التيار الشيعي ، حتى لم يبق له أثر .

وكانت بغداد هي العاصمة بمعنى الكلمة الحقيقي ؛ وآية ذلك أن جميع الحركات الروحية في مملكة الإسلام كانت تتلاطم أمواجهها في بغداد ؛ وكان بها لجميع المذاهب أنصار . ولكن أكبر حزين كانا بها في القرن الرابع الهجري هما الحزبان المتشددان في التمسك بمذهبهما ، وهما الحنابلة والشيعة^(٣) ؛ وكان أنصار الشيعة يسكنون بنوع خاص حول سوق الكرخ ، ولم يتمدوا الجسر الكبير وبمحتلوا باب الطاق إلا في أواخر القرن الرابع الهجري^(٤) . ولم يستطيعوا التمدد إلى القسم الغربي ، لأن الهاشميين كانوا يكوّنون عصبة قوية هناك ، ولا سيما حول باب البصرة ، وكانوا من أشد أعداء الشيعة^(٥) . على أن يافوتا وجد أن أهل محلة باب البصرة — بين كرخ بغداد والقبلة — كلهم سنية حنابلة ، وأن عن يسار الكرخ وفي جنوبها سنية . أما الكرخ فأهلها كلهم شيعة إمامية لا يوجد فيهم سني أبنة^(٦) ؛ وإلى جانب ما تقدم كان باب الشخير غربي شاطيء دجلة من

(١) المقدسي ص ٢٠٢ .

(٢) المغرب في ذكر بلاد إفريقية في المغرب للبكري طبعة الجزائر ١٨٥٧ ص ٧٥ .

(٣) المقدم ص ١٢٦ . ويقول المقدسي (ص ٣٤) إن الحنابلة ينسكرون النصب

[يعني تنصب على ، وهذا ما يجعل الشيعة يكرهونهم . المترجم]

(٤) كتاب البرزوا ص ٢٢١ .

أكبر مراكز أهل السنة^(١) . ورغم ما قام به التوكل من تشديد في اضطهاد الشيعة في القرن الثالث الهجري ، نلاحظ أن قوتهم كانت عظيمة حتى إن الخليفة المعتضد عزم في عام ٢٨٤ هـ - ٨٩٧ م على لمن معاوية على المنابر ؛ وأمر بإنشاء كتاب في ذلك وصلت إلينا صورته ، فخوفه الوزير من اضطراب العامة ، فقال المعتضد : إن اضطربت العامة وضعت فيها السيف ؛ فقال له الوزير : فاصنع بالطالبيين الذين هم في كل ناحية يخرجون ويميل إليهم كثير من الناس اقربائهم من الرسول ، وفي هذا الكتاب أطراؤهم ؛ وإذا سمع الناس كانوا إليهم أميل^(٢) ؟ وبذكر المؤرخون لأول مرة عام ٣١٣ هـ - ٩٢٥ م أن الشيعة البغداديين كانوا يجتمعون في مسجد براتنا ، فلم الخليفة بأن قوما منهم يجتمعون فيه لسب الصحابة ؛ فأمر بكسبه في يوم جمعة وقت الصلاة ، فوجد فيه ثلاثون إنسانا يصلون ؛ فقبض عليهم وقتلوا ، فوجد معهم خواتم من طين أبيض عليها اسم الإمام ، كما كان يفعل دعاة الغاطلين مع من ينسب إليهم . وقد استصدر الخليفة فتوى بهدم المسجد حتى سوي بالأرض ، وعفى رسمه ، ووُصل بالمقبرة التي تليه^(٣) . وفي سنة ٣٢١ هـ - ٩٣٣ م تم على بن يلبق ، وهو من القواد الترك ، مرة أخرى بأن يلحق معاوية وابنه يزيد على المنابر ؛ فاضطربت العامة ، وكان البريهاري رئيس الحنابلة يثير الفتن هو وأصحابه^(٤) . وفي عام ٣٢٣ هـ - ٩٣٥ م نودي في جاني

(١) كتاب الوزراء ص ٤٨٣ .

(٢) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٢١٦٤ - ٢٢٧٨ .

(٣) المنتظم ص ٢٩ ب ١٦٧ . وكان ببغداد طائفة من المسكدين يدعون أنهم شيعة ومجذلون السح والألواح من الطين ، ويؤمنون أنها من قبر الحسين بن علي رضي الله عنهما فينفون بها الشيعة . ولا تزال أطباق الطين تناع إلى اليوم ، يشتريها الشيعة ليضعوها أمامهم عند الصلاة لكي تقع عليها جباههم كلما سجدوا .

(٤) نحمد هذا مقصلا عن مسكويه ج ٥ ص ٤١٣ ، ومختصراً عند ابن الأثير ج ٨ ص ٢٠٣ - ٢٠٤ ، وعند أبي الجاسين تابعة لابن ج ٢ ص ٢٥٣ - ٢٥٤ .

بعداد بالآ يجمع من الخنابلة فسان في موضع واحد ، وكان ذلك الكثرة تشرطهم على الناس وإيقاعهم العن المتصلة ؛ وخرج توقيع الخليفة الراضى بكتاب يبين فيه أخطاء الخنابلة وتوعدهم بالعقاب ، وقد وصلت إلينا صورة هذا الكتاب ^(١) ، فهو ينهمم بالظن على خيار الأمة وبنسبة شيعة أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الكفر ، وإرصادهم بالمكاره في الطرقات والحال وإنكار زيارة قبور الأئمة صلوات الله عليهم ، والتشجيع على زوارعها بالابتداع ، وأن الخنابلة مع إنكارهم ذلك ، يتلفقون ويحتمون أقصد رجل من العوام ليس بذى شرف ولا نسب ولا سب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويأمرسون بزيارة قبره والخشوع لدى تربته ، وفي آخر الكتاب يقسم أمير المؤمنين بالله لئن لم ينصرف الخنابلة عن مذموم مذهبهم ليوسفهم ضرباً وتشريداً وليستعلق العيف في رقابهم ولتأمر في محالهم ومنازلهم ^(٢) .

ثم أن يحكم أمر بإعادة بناء مسجد براقا في عام ٣٢٨ هـ - ٩٤٠ م وتوسيعه ليكون مسجداً لأهل السنة ، وكتب في صدره اسم الراضى بالله ؛ ثم جاء اللتقي بالله فأمر بنصب منبر فيه ، كان في مدينة المنصور مطلقاً محبوا في خزانة المسجد عليه اسم هارون الرشيد ؛ وأصب هذا المنبر في قبلة المسجد ، وافتح هذا المسجد للصلاة في عام ٣٢٩ هـ - ٩٤١ م ^(٣) .

(١) مسكوب ج ٦ من ٤٩٠ - ٤٩٧

(٢) وفي أسبب هذا الكتاب بما يدعيه الخنابلة من كرامة ، وذكر أبو القداء في تاريخه أنه لما فيه توقيع الخنابلة بأهتاد التشييع : « وأنكم ترمعون أن صورة وجهي نتيجة السببة على مثال رب العالمين ومبشركم على هيئته وهكذا » - تاريخ أبي القداء ج ٥ ص ٣٢٣

(٣) المستطام لابن المؤزوي ص ١٦٨ راجع لأب ج ٤ من ٩٢٨ - ٩٣٠ مسكوب ج ٤

١٢٠٠ - ١٢٠١ راجع إلى العراق من السجود والتجديد فيه من غير مادة في البيان .

وكان الحدانيون أول أسرة شيعية تدخلت في أمور بغداد ، وكان هذا التدخل شيراً للمعجب ؛ ذلك أن ابن حمدان على شدة نشيئة وميله إلى علي وأهل بيته سعى في البيعة لابن المعتز على انحرافه عن علي وغلوه في المنصب ^(١) . واستكن الأحوال تغيرت لما استولى العبد على بغداد ، وكانوا قد دخلوا في الإسلام حديثاً على يد أحد العلويين ؛ فلم يكدهم الدولة يدخل بغداد حتى قبض على الخليفة المستنفي وأنزله عن عرشه على صورة مهينة . وكان من الأسباب الظاهرة في ذلك أن المستنفي كان قد قبض على الثاني رئيس الشيعة ^(٢) . وفي سنة ٣٤٩ هـ — ٩٦٠ م قامت فتنة بين العامة ببغداد ، وتمطلت الجمعة بمساجد أهل السنة لاتصال الفتن ، ولم تُقَمَّ الجمعة إلا في مسجد راثا الشيعي ^(٣) . وفي عام ٣٥١ هـ كتب من الدولة على المساجد لفتن الصعابة ، فحماه الناس أثناء الليل ^(٤) . وفي العام التالي أمر الناس أن يحتفلوا بيوم عاشوراء ، وهو أكبر عيد للشيعة ، وأن يُظهروا الحزن . فأغلقت الأسواق وحلّ البيع والشراء ، ولم يذبح القصابون ، ولا طبخ المراسون ، ولا ترك الناس أن يستقوا الماء ، ونصبت القباب في الأسواق ، وعُلِّقت عليها المسوح ، وخرَّجت النساء مُنَشَّرات الشموع مسودات الوجوه ، قد شققن ثيابهن يَدُرْنَ في البلد وَيَنُحْنَ وَيَلْطُنْنَ وجوههن على الحسين

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ١٢ .

(٢) مسكويه ج ٦ ص ١٢٣ .

(٣) التنظم لابن الحوزي ص ١٨٩ ؛ وأبو الحسن طيبة الأند ج ٢ ص ٣٥١ ؛

وابن الأثير ج ٨ ص ٣٩٧ .

(٤) انظر ما تقدم .

(رضى الله عنه) . وفى هذا اليوم كان يزار قبر الحسن بكر بلال^(١) ويصف البيرونى ما جرى عليه بنو أمية من إظهار الفرح فى يوم عاشوراء وما كان يظفرونه الشيعة من حزن ، ثم يقول : « ولذلك كره يه العامة تجديد الأواني والثياب »^(٢) . وفى اليوم الثامن عشر من ذى الحجة فى هذا العام جاء عيد الغدير (غدير خم) ، فاحتفل به الشيعة ببخداد ، وزعموا أنه اليوم الذى عهد فيه الرسول عليه السلام إلى على بن أبى طالب واستخافه^(٣) ، وفيه أظهروا السرور بأمر معز الدولة ، على خلاف صنيعهم فى يوم عاشوراء ، فنصبوا القباب وعلقوا الثياب ، وأظهروا الزينة . وفى ليلة أشعلت النيران بمجلس الشرطة ، وضربت الدبابد والبوقات ؛ وفى صبيحته نحرروا جملاً وبكروا إلى مقابر قریش^(٤) . أما بنو أمية فكانوا قد اتخذوا يوم عاشوراء من قبل يوم سرور ، « فلبسوا فيه ما تجدد وتزينوا واكتحلوا وعيدوا وأقاموا الولائم والضيافات وطعموا الخلاوات والعلقيات ، وجرى الرسم فى العسامة على ذلك أيام ملكهم ، وبقي فيهم بعد زواله عنهم » . وقد حاول أهل الحديث أن يظهروا فضل يوم عاشوراء فذكروا ما روى عن النبي عليه السلام من الحضرة على

(١) التنظم ص ٩٣ ب ؛ وكتاب الوزراء ص ٣٧١ ؛ وابن الأثير ج ٨ ص ٤٠٣ ، ٤٠٧ ؛ وأبو المحاسن ج ٢ ص ٣٦٤ . ولا نجد أى ذكر لروايات ألفت لتبديد الشهادة كالتى نراها اليوم عادة . على أنه من الممارات التى نقب أن يكون أصلها من قصة تمثيلية لول السيدة سكينة بنت الحسين رضى الله عنها « كنت أحسن من السماء وأعذب من الماء » (رسائل الخوارزمي طبعة المطبعة ١٢٩٧ ص ٣٧) ، [وليس فى هذا دليل مقبول . المترجم]
(٢) الآثار الباقية للبيرونى طبعة أوروبا ص ٢٢٩ .

(٣) التنظم ص ٩٢ ب ؛ وابن الأثير ج ٨ ص ٤٠٧ ؛ وكتاب الوزراء ص ٣٧١ ؛ وقد أضاف أبو المحاسن (٢ ص ٢٢٩) : « ساء ذلك عندنا » .

نمل الخير فيه^(١) . وكانوا يزعمون أن « الاكتحال فيه مانع من الرمد في تلك السنة »^(٢) . ولذلك يقول القتي (المتوفى عام ٨٣٥٥ - ٩٦٦ م) مشدداً فيمن يفرح بيوم عاشوراء : « من ترك السعي في حوائجه يوم عاشوراء قضى الله له حوائج الدنيا والآخرة . ومن كان يوم عاشوراء يوم مصيبته وحزنه وبكائه يجعل الله عز وجل يوم القيامة فرحه وسروره ... ومن سعى يوم عاشوراء يوم بركة وأدخر بمنزله شيئاً لم يبارك له فيما أدخر ، وحُسر يوم القيامة مع يزيد وعبيد الله بن زياد وعمر بن سعد لعنهم الله إلى أسفل درك من النار »^(٣) . ولما زالت الدولة القاطية وجاء ملوك بني أيوب اتخذوا يوم عاشوراء ، بعد أن كان يوم حزن ، يوم سرور ، جريئاً على عادة أهل الشام^(٤) . ثم إن أهل السنة أرادوا أن يعملوا لأنفسهم ما يكون يلزاه يوم عاشوراء ، فجعلوا بعده ثمانية أيام يوماً نسبوه إلى مقتل مصعب بن الزبير ، وزاروا قبره في مسكن ، كما يُزار قبر الحسين بكر بلاه^(٥) . وكذلك عملوا يلزاه يوم القدير بعده ثمانية أيام يوماً ادعوا أنه اليوم الذي دخل فيه النبي عليه السلام وأبو بكر (رضى الله عنه) في الفار ، وعللوا في هذا اليوم ما يعمله الشيعة في يوم القدير . وكان أول ما عمل أهل السنة ذلك في يوم الجمعة لأربع بقين من ذى الحجة عام ٨٣٨٩ - ٩٩٩ م^(٦) . وفي هذه الأعياد لم يكن الأمر يخلو من شغب وفتن بين الفريقين ، حتى كان الحكام الأقوياء يعمدون من

(١) الآثار الباقية للبيروني ص ٣٢٩ .

(٢) مجانب المخلوقات القروية ، طبعة أوروبا عام ١٨٤٩ ص ٦٨ .

(٣) كتاب الملل للقي مخطوط برلين رقم ٨٣٢٦ ص ٩٩ ب .

(٤) المخطط المغربي ج ١ ص ٤٩٠ .

(٥) كتاب الوزراء ص ٣٢١ ؟ وكذلك سرت ياقوت عنه أولاً .

(٦) التنظم ص ١٤٣ - ١٤٤ ب ؟ وكتاب الوزراء ص ٣٧١ .

عماها أحياناً^(١) . وقد حدث مرة في فتنه بين أهل السنة والشيعة أن الشيعة صاحوا : حاكم يا منصور ، إشارة إلى العدو القيم بالقاهرة ؛ وقد بلغ الخليفة ذلك ، فأحفظه ، وأنفذ الحراس الذين على بابه لمحاولة أهل السنة ؛ فهزموا الشيعة ؛ ثم اجتمع الأشراف إلى دار الخليفة ، فسألوه العفو عما فعله السفهاء ، فعفا عنهم^(٢) . وفي عام ٨٤٢٠ هـ - ١٠٢٩ م كان خطيب مسجد براتنا ، وكان شيعياً ، يذكر مذاهب فاحشة من مذاهب الشيعة ويقول في علي ؛ فأمر الخليفة بالقبض عليه ، وعين محله خطيباً آخر ؛ فلما صعد المنبر دفعه بقب سيفه على ما جرت به العادة ، والشيعة ينكرون هذا ، وقصر في الخطبة عما كان يفعله من تقدمه في ذكر علي أن أبي طالب ، وقال : اللهم اغفر للمسلمين ، ومن زعم أن علياً مولاه ، فرماه العامة حينئذ بالآجر ، فوافاه كالطير ، وخلع كتفه ، وكسرا نقه ، وأذنتي رجفه ؛ وعرف الخليفة ذلك ، فضاظه وأحفظه ؛ وكتب في الشيعة كتاباً شديداً للوزير ؛ وفي آخر الأمر اجتمع قوم من مشايخ أهل الكرخ ، وتوجهوا مع الشريف المرتضى إلى دار الخلافة ، فأخالوا ما جرى على سفهاء الأحداث ، وسألوا الصنع عن هذه الجناية ، وطلبوا إقامة خطيب عمات له نسخة يعتمدونها فيما يخطب ، ونجذب ما يحفظ الشيعة^(٣) . وبما كان له شأن في توارث الشيعة المفاجئة في القرن الرابع الهجري أن مشهدينهم الكبارين المقدسين عندهم كانا بالعراق . على أن موضع قبر علي كان موضع شك ؛ وقد بين السمودي ذلك في عام ٨٣٢ هـ - ٩٤٤ م ، حيث يقول إنه قد تنوزع في موضع القبر ؛ فذهب قوم إلى أنه دفن

(١) فعل ذلك أبو الحسن الملم عام ٣٨٢ هـ (النتظم ص ١٣٤) وعبد الميوش ص ٣٩٢ هـ ٤٠٦ هـ (كتاب الوزراء ص ٤٨٢ - ٤٨٣ ، والنتظم ص ١٤٧ ب ؛ وابن الأثير ج ٩ ص ١٨١) .

(٢) النتظم ص ١٤٧ ب .

(٣) نفس المصدر ص ١٧٨ - ١٧٩ .

في مسجد الكوفة^(١)؛ وقال آخرون إنه دفن في القصر بالكوفة؛ وذهب جماعة إلى أنه نُحِل إلى المدينة فدفن عند قبر ناطلة؛ وقال قوم إنه نُحِل في تابوت على جبل وإن الجبل تاه ووقع في بلاد طبرستان^(٢)؛ ثم يقال إن أبا الهيثم عبد الله بن حمدان (المتوفى عام ٣١٧ هـ - ٩٢٩ م) شَهِرَ مكاناً بمشهد على، كان يقال إنه قبر على بن أبي طالب؛ وذلك بأن جعل عليه حصناً منيعاً، وابتنى على القبر قبلة عظيمة مربعة الأركان لها باب من كل جانب، وسترها بفاخر الستور، وفرشها بشمين الحصر السامانية^(٣). ولما مرض الوزير أبو محمد بن سهلان واشتد عليه المرض نذر، إن عوفي، بناء سور على مشهد أمير المؤمنين على؛ فعوفي، فأمر ببناء سور عليه عام ٤٠٠ هـ - ١٠١٠ م^(٤). وأول من دُفن في هذا المشهد من العظام، فيها أعلم، رجل من أهل البصرة عام ٣٤٢ هـ - ٩٥٣ م^(٥). وأول من دفن فيه من الأسماء عضد الدولة (المتوفى عام ٣٧٢ هـ - ٩٨٢ م)، فحُيِل إليه بعد أن كان قد دُفن بدار الملك ببغداد^(٦). وعضد الدولة هذا هو الذي أمر بإعادة بناء مشهد الحسين بن علي^(٧)، بعد أن كان الخليفة المتوكل قد أمر في عام ٢٣٦ هـ - ٨٥٠ م بهدم قبره وهدم ما حوله من المنازل وبأن يُحَرَّث وَيُبْذَر وَيُسْقَى^(٨). وكلف بزعم البعض أن رأس الحسين، سيد

(١) انظر أيضاً ابن حوقل ص ١٦٣.

(٢) مروج الذهب ج ٤ ص ٢٨٨ - ٢٨٩، ج ٥ ص ٦٨.

(٣) ابن حوقل ص ١٦٣.

(٤) ابن الأثير ج ٩ ص ١٥٤.

(٥) نفس المصدر ج ٨ ص ٣٨٠.

(٦) نفس المصدر ج ٩ ص ١٣.

(٧) وكشف مكنى لمرطبة بقسم (رسائل المماليك ص ٩١٠).

(٨) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٤٠٣، ولابن سني عن المتوكل أمره قال: لما أمر

الشماء ، ، يوجد في رباط صغير قريبا من مدينة سرو ، وذلك في القرن الرابع
المجري^(١) . ويقول المقرئى إن رأس الحسين حمل من عسقلان إلى القاهرة
ووصل إليها في عام ٥٤٨ هـ - ١١٥٣ م^(٢) . ويرى ابن تيمية أن هذا ما ظل
باتفاق أهل العلم ، وإن أحدا من أهل العلم لم يقل إن رأس الحسين كان
بعسقلان^(٣) ؛ وفي عام ٣٩٩ هـ - ١٠٠٩ م توفي أبو العباس الكافي الوزير
بارئ ، وكان قد وصى قبل موته أن يُدفن في مشهد الحسين ؛ فكتب ابنه إلى
العلويين أن يبيموه تربة بمخمة ديار ، فقال الشريف إذ ذاك : هذا رجل
التجأ إلى جوار جدى ، ولا آخذ لتربيته تمنا ؛ وأعطيت لرجل تربة من خير أن
يدفع شيئا^(٤) . ولم يصل إلينا وصف لداخل مشهد الحسين بكر بلاه قبل وصف
ابن بطوطة له في القرن الثامن المجري ؛ أما قبل ذلك فيذكر أن القبر كان
يُنطى بقماش تاريخ ، وحوله شموع مضاءة^(٥) . ثم إن نعيم الدولة بن بويه بنى
على قبر على الرضا طوس حصنا ومسجدا لم يكن يخراسان أحسن منه^(٦) .

== تافة إن كانت أمية قد أتت
فقد أتاه بنو أبيه بمثله
أسروا على أن لم يكونوا شاركوا
في قتله ، فقبضوه رميا

(تاريخ أبي الفداء تحت عام ٣٠٣ هـ)

(١) المقدسى ص ٤٦ ، ٣٢٣ .

(٢) المخطط للمقرئى ج ١ ص ٤٢٧ .

(٣) نكرة شريتر . (Schreiner. ZDMG., 53, S. 81)

(٤) الإرشاد لباقوت ج ١ ص ٦٨ .

(٥) ابن الأثير ج ٩ ص ٢٠٩ ؛ وابن تيمية بردى طبعة كليفورنيا ص ١٢٣ .

(٦) المقدسى ص ٣٣٣ .

تعليقات^(١)

من أراد كلاماً موجزاً عن الشيعة فليرجع إلى كتاب : Johannes Hauri : Islam, p. 89 ff. ومن أراد التفصيل فليرجع إلى كتاب جولدزير : Goldziher, Vorlesungen über den Islam ؛ وهذا الكتاب مترجم إلى الإنجليزية بعنوان : Muhammed and Islam وإلى الفرنسية بعنوان : le Dogme et la loi de l'Islam. وإلى العربية بمصر حديثاً .

يقول جولدزير في صفحة ٢٢٢ من الترجمة الإنجليزية : إن من الحقائق الأولية أن مسألة الخلافة قسّمت المسلمين إلى فرقتين . أهل السنة ، والشيعة ؛ وكان لأهل البيت فريقٌ يعترف سرّاً بحقوقهم ، سقى في عهد الخلفاء الثلاثة الأولين ؛ ولكن هذا الفريق لم يكن يجاهر بالخصام . وبعد عصر هؤلاء الخلفاء صار يمارض كل من حكم من غير أبناء علي ؛ وكانت هذه المعارضة موجهة أول الأمر إلى الأمويين ، ثم إلى من بعدهم ممن لم تتوافر فيهم الشروط التي يوحىها الشيعة في الإمام ؛ وهم حينئذ يبينون وجوه النقص في هؤلاء الحكماء بتردود الحقوق الشرعية لأبناء النبي عليه السلام ممثلة في ذرية علي وقاطبة ؛ وكما أنهم اتهموا الخلفاء الثلاثة الأولين سرّاً بأنهم مختصمون ظالمون ، فكذلك عارضوا النظام السياسي في الدولة الإسلامية سرّاً وجهرّاً في كل العصور .

وقد أدّت طبيعة هذه المعارضة إلى ظهورها في صورة تطلب عليها الصبغة الدينية . وعلى حين أن الشيعة يرفضون تنصيب الخليفة بالطرق المادية الإنسانية ،

(١) هذه التعليقات المأخوذة من تلخيص التعليقات المرحوم العلامة خدامي القندلي على نهج المجتهد لهذا الشأن .

فإنهم يقولون إن الرئيس الشرعي الوحيد من الناحية الروحية والزمنية هو الإمام المصوم الذي يمين تعييناً ، ويكون من أبناء النبي عليه السلام .

وفي صفحة ٢٣٠ تكلم جولدزير عن الفرق الأساسية بين الخليفة عند أهل السنة والإمام عند الشيعة .

أوجب أهل السنة تنصيب خليفة مهمته تنفيذ أحكام الشريعة وفروضها ، وحماية حدود بلاد الإسلام والدفاع عنها ، والإشراف على تعبئة الجيوش ، وأخذ ما فرض على المسلمين في أموالهم ، وتقسيم غنائم الحرب بينهم بالعدل ، وغير ذلك من المهام ؛ وبالاختصار فالخليفة هو يمثل السلطة القضائية والإدارية والحربية ، وهو مجرد خليفة لمن تقدمه ، ويختاره المسلمون بالطرق العادية (بالانتخاب أو بتعيين سلفه له) لسياستهم ؛ ولا يشترط فيه أن يكون أعلم المسلمين .

أما الإمام عند الشيعة فهو رئيس المسلمين ومعلمهم ، بفضل ما وهبه الله من الصفات ، وبحكم وراثته للنبي عليه السلام ؛ وهو يحكم ويعلم متلقياً ذلك من الله على نحو ما كان موسى يسمع كلام الله من الشجرة ؛ فكأنه يتلقى عن الله رسالة مستمرة ؛ وهو يجمع إلى هذه الزينة صفات خاصة من طور فوق طور الإنسان . ويذهب الشيعة أن وراثة الإمامة تنقلت من آدم ، حتى انتهت إلى عبد المطلب جد النبي عليه السلام وجد علي رضي الله عنه ، ومن عبد المطلب انتسم النور قسامين ، أحدهما انتقل إلى عبد الله والد النبي ، والآخر إلى أخيه عبد المطلب والد علي ؛ ثم سار النور من علي إلى ذريته . وهذا النور الذي في روح الإمام يحمله إمام عصره ، ويعمل له قوى روحانية تتجاوز حدود القدرة الإنسانية ؛ وروح الإمام أبقى من أرواح سائر الناس ، لأنه مبرأ من بواعث الشر متمثل بالفضائل

الإلمية وهذه هي صفات الإمام عند المعتدلين من الشيعة ؛ أما الغلاة منهم فهم يرضون بالإمام إلى الأفق الإلمى .

وفى ص ٢٥٤ وما بعدها ينفذ جولدزير على أنطواء شائسة فيما يتعلق بالشيعة .

١ — يذهب البعض إلى أن الفرق بين مذهب أهل السنة ومذهب الشيعة أن الأولين يستقرون بأن السنة أصل من أصول العقائد والأحكام الدينية بمد القرآن ، وأن الشيعة يرفضون السنة . يقول جولدزير : إن هذا خطأ جوهرى فى فهم مذهب الشيعة ؛ ومنشؤه اختلاف التسمية بين الفريقين ؛ فليس بين الشيعة من ينكر السنة ؛ بل هم يقرون بالسنة التى تحمها أهل البيت ، ويذهبون إلى أن خصوم الشيعة يعتمدون فى أخذ السنة على الصحابة القاصيين . ونتم أحداث مشتركة بين الشيعة وأهل السنة لا تختلف إلا فى السند ؛ والشيعة يقبلون الأحاديث التى رواها أهل السنة ، والتى تؤيد الشيعة أو على الأقل لا تناقض مذهبهم ؛ ومن أمثلة ذلك أن من الشيعة المتشددين من يعتمدون على أحداث البخارى ومسلم ، ويفرؤونها أيام الجمع ؛ واستطيع معرفة شأن السنة عندهم من أن كثيراً من قول على فى القرآن والسنة يؤخذ بما رواه الشيعة عن على ؛ فاحترام السنة من مستلزمات مذهب أهل السنة والشيعة على السواء ؛ وبما يدل أيضاً على اعتداد الشيعة بالسنة النبوية أنهم كتبوا الكثير فى السنة وما يتعلق بها ، وأنهم وضعوا أحداث كثيرة وأذاعوها ؛ فالشيعة لا يعارضون أهل السنة بصفاتهم مسكرين لسنة ، بل بصفة أنهم أولياء أهل البيت أو الخاصة الذين يمتازون على العامة الفارقين فى بحار العمى والضلال .

٢ — ومن الآراء الغفلة القول بأن عمداً التشيع يرجع إلى مذاهب الفرس وتأثيرها فى الإسلام ؛ وهذا باطل عن غلط كذا نفس ، والله اعلم ، والله اعلم .

Wellhausen, Die Religios-politischen Oppositionsparteien) له

im Alten Islam وذلك أن حركة التشيع نشأت على تربة عربية خالصة ، ولم تنتشر من غير الساميين ، إلا بعد ظهور المختار . هذا إلى أن أصول النظرية الإمامية بما تتضمنه من النظر إلى الدولة نظرة دينية لا دنيوية ، ومن القول بالمهدى وبحو يمكن أن يردّه إلى الأثر اليهودي والمسيحي ، بل إن ما ذهب إليه الشيعة العالية من تأليه عليّ كان أول من أتى به عبد الله بن سبأ قبل تأثير المذاهب الآرية ؛ وكذلك التجسيم عند الشيعة ، يرجع بعضه إلى أصل عربي .

وقد ذهب إلى قول الشيعة أهل النظر العقلي بين العرب ، وكذلك الفرس ، وقد رحّب الفرسُ بممارسة الشيعة لأهل السنة وأخذوا بمذهب الشيعة ؛ ثم تأثر هذا المذهب فيما بعد بما هو موروث عند الفرس من تأليه الملوك . واسكن الأصول الأولى للتشيع لا ترجع إلى أثر أجنبي ، بل هي عربية في صميمها .

٣ - أن الشيعة هم أصحاب الفكر الحرّ ، خلافاً لأهل السنة الجامدين ، وهو ما ذهب إليه أخيراً البارون كراوفو . وهذا الرأي لا يقبله من له علم بمذهب الشيعة ، فمن المؤكد أن تقديس عليّ هو محور الاعتقادات الدينية عند الشيعة ؛ وكل ما عدا هذا فهو ثانوي المرتبة ، وأن الشيعة بتفضيلهم الإمام المعصوم من غير اعتماد على قوة الرأي العام قد نبذوا ما نراه في مذهب أهل السنة من عناصر التفكيك الحر . وعلى هذا فإن خضوع الشيعة لمذهبه يتلقونه عن سلطة معصومة لا تقبل ممارسة هو ما تتميز به الحياة الدينية عندهم .

أما علاقة الشيعة بالمتزلة فيقول جولدزير إن الصلة بينهم أمر لا سبيل إلى الشك فيه ، لما ذهب إليه أحد علماء الشيعة من أن القول بالإمام الغائب جزء من قول أصحاب التوحيد والتوحد ، وهم المتزلة . ومن الشيعة فرع الزيدية ، وهم أكثر من غيرهم ميلاً إلى مذهب المتزلة .

وقد أثر مذهب المعتزلة في التشيع إلى عصرنا ؛ ومن الخطأ قول من قال : إن مذهب المعتزلة لم يلعب دوراً كبيراً في الدين والأدب بعد انتصار الأشاعرة . ومما يثبت بطلان هذا الرأي ما انتهى إلينا من كتب كثيرة للشيعة يتجلى فيها تأثير المعتزلة ؛ فمن ذلك أن الشيعة يقسمون كتبهم إلى باب العدل والتوحيد ؛ بل نجد من كبار المعتزلة كالنظام من قرّر من قبل أن الحجة في قول الإمام المعصوم ؛ وقول الشيعة بضرورة وجود إمام معصوم له اتصال بما اختص به المعتزلة من القول بوجود هداية أسامها الحكمة والعدل الإلهيان ؛ فلا بد عند بعض المعتزلة من أن يحمل الله لكل عصر إماماً معصوماً .

وقد نقل جولدتزهر في آخر الفصل الخاص بالزهد والتصوف من كتابه المتقدم ما ذكره الفزالي في فيصل التفرقة من أن أساس الإيمان الاعتقاد بالأصول ؛ أما الخلاف في فروع العقائد والعبادات ، ولو كان فيه إنكار الخلافة التي يقول بها أهل السنة ، كما فعل الشيعة ، فلا يكفي لاعتبار صاحبه زنديقاً . وقد أوصى الفزالي بإمساك اللسان عن تمزيق أعراض أهل القبلة .

الفصل السادس

الإدارة

كانت دولة الخلفاء أشبهً باتحاد يتألف من ولايات كثيرة ، ويختلف وثاقه وتماسكها ؛ ولم تكن علاقة السلطة المركزية بهذه الولايات تشرف عليها دواوين إقليمية ؛ وإنما كان لكل ولاية ديوان ينفذ بإشرافها . وكان كل من هذه الدواوين يتألف من قسمين : أولهما الأصل ، وهو يختص بوضع الضرائب وحملها إلى بيت المال^(١) ، وبمراقبة الضرائب وتقوية مواردها ، أى أن هذا القسم يختص بالإدارة ؛ وثانيهما الزمام^(٢) أو ديوان المال . ولما جاء الخليفة المتعزّد (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ = ٨٩٢ - ٩٠٢ م) ، وهو أقدر حكام القرن الثالث^(٣) ، ضم دواوين الولايات كلها ، وألف منها ديواناً سماه ديوان الدار^(٤) ، له ثلاثة

(١) كتاب الخراج للدمامي بن جعفر (المتوفى عام ٣٢٧ هـ - ٩٤٨ م) ، مخطوط رقم ٥٩٠٧ بمكتبة باريس س ٩ ب - ١١٠ . وكلمة أصل التي وردت في كتاب الوزراء (س ١١) لها هذا المعنى .

(٢) انظر في هذا Amedroz, JRAS. 1913, S. 829 ff. ، وأيضاً مسكويه ج ٦ ص ٣٣٨ ، وكان يُعيّن على الزمام عادة رجلٌ من أصحاب المال . وكذلك كانت الدواوين الصغيرة التي تتولى إدارة ضياع نساء الخلفاء تنقسم إلى اثنين من المتقدمين ، وكان يتقلد كل واحد منهما رئيساً .

(٣) جاء في كتاب الوزراء للصابي (س ١٨٩) أنه لم يجتمع في زمن من الأزمنة خليفةٌ ووزيرٌ وصاحبُ ديوان وأميرُ جيش مثل المتعزّد وأبي القاسم عبيد الله بن سليمان وأبي الصباس بن القرات وغيره .

(٤) كتاب الوزراء س ١٣١ ، ويسمى أيضاً ديوان الدار الكبير ، نفس المصدر س ٢٦٢ .

فروع : ديوان المشرق ؛ وديوان المغرب ؛ وديوان السواد (أى العراق) .
وكذلك وضع هذا الخليفة أزقة هذه الدواوين كلها في يد رئيس واحد^(١) ،
ثم جعل الأصول كلها في يد رئيس واحد في سنة ٥٣٠٠ هـ - ٩١٢ م^(٢) ،
بحيث جاء القرن الرابع الهجرى ، وإدارة الدولة تنقسم إلى ما يشبه وزارتين
إحداهما للداخلية ، وهى ديوان الأصول ، والأخرى للخالية وهى ديوان الأزقة .
وكان كل ديوان كبير ينقسم أقساماً كثيرة تسمى دواوين أيضاً ؛ لأنه كان لكل
ناحية ديوانها . ولكن لما كان الوزير ، وهو رئيس السلطة المركزية ، هو الذى
يتولى إدارة ديوان السواد بنفسه ، فإن كثيراً من دواوين الولايات ببغداد كانت
تقوم مقام دواوين للدولة . ولم تصل الإدارة فى الدولة الإسلامية إلى تعيين الحدود
الفاصلة بين الدواوين بدقة ، واستطيع أن أذكر منها :

(١) ديوان الجيش ، وله مجلسان : أحدهما مجلس التقرير ، والثانى مجلس
المقابلة . ويجرى فى الأول أمرُ استحقاقات الرجال ، ومعرفة أوقات أعطياتهم ،
وتقدير أرزاقهم ؛ فأما الثانى فيختص بالنظر فى السجلات ، وتصحيح الأسماء ،
ومحو ذلك . وينقسم كل من المجلسين إلى أقسام خاصة بالماكر ، مثل
المكر المنسوب إلى الخاسة ، والمكر المنسوب إلى الخدمة ، وما فى النواحي
من البحوث^(٣) .

(٢) ديوان النفقات فى بغداد ؛ وأكبر مهامه حاجات دار الخلافة . وكان
أكثر أرض العراق مضتاً ، فكان على التضمين أن يقوموا بالوفاء بالنفقات .
وهذا الديوان ينقسم إلى المجالس الآتية :

(١) كتاب الوزراء ص ٧٧ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٧١ ، ١٢٤ .

(٣) كتاب المراج للخدمة بن جفر مخطوط باريس رقم ٥٩٠٧ ص ١٢ - ب .

- (أ) مجلس الجارى ، ويختص بأمر استحقاقات الخشم .
- (ب) مجلس الأنزال ، وهو الذى يقوم بحاسبة التجار الذين يقيمون الوظائف من الخبز واللحم والحيوان ، والحلوى والفاكهة ، وغير ذلك من سائر صنوف الإقامة والأنزال .
- (ج) مجلس الكراع ، ويجرى فيه أمرُ علوفة الكراع وغيره ، مثل الخيل والشهاري والبراذين والبغال والخيول وغيره مما يعتلف من الطير والوحش ؛ ويجرى فيه أمرُ سياسة الكراع وعلاجه ، وأرزاق القوام والزواصة ومحو ذلك .
- (د) مجلس البناء والمرمة ، وهو مجلس يكبر ويصغر على حسب الخلقاء فى الإغراق فى البناء أو الاكتفاء بيسيره ؛ ويجرى فيه محاسبة الزراع والمهندسين وباعة الجص والآجر والنورة والأسفداج وأصحاب الساج والتجارين والمزوقين والمذهبين وسائر الصنائع .
- (هـ) مجلس الحوادث ؛ ويجرى فيه أمر النفقات الحادثة (أى غير العادية) فى كل وجه من وجوهها .
- (و) مجلس الإنشاء والتحرير .
- (ز) مجلس النسخ^(١) .
- (ح) ديوان بيت المال ، وهو فى بغداد يشرف على ما يرد على بيت المال من الأموال وما يخرج من ذلك من رجوه النفقات والإطلاقات . ويجب أن تمر به الكتب التى فيها حمل مال ، قبل انتهائها إلى دواوينها ، لتثبت فيه ،

(١) مقدمة : نفس المصدر ص ١٨ - ٩ .

وكذلك سائر الكتب النافذة إلى صاحب بيت المال من جميع الدواوين بالمطالبة بالأموال . ويكون لصاحب هذا الديوان علامة على الكتب والصكوك والإطلاقات ، يتفقدونها الوزير وخلفاؤه وبراهونها ويطالبون بها^(١) . وفي عام ٨٣١٤ - ٩٢٦ م صدر أمر بمطالبة صاحب بيت المال ببغداد بتقديم الروزنامجات في كل أسبوع للوزير ، ليستطيع معرفة ما حل وما قبض وما بقي ؛ وكان الرسم إذا عملت الختم لم ترفع إلى الديوان من الشهر الأول إلا في النصف من الثاني^(٢) .

(٤) ديوان المصادرين^(٣) ، وكانت الوثائق التي يُدفع بمقتضاها في هذا الديوان تُكتب على نسختين ، إحداها للديوان والأخرى للوزير^(٤) .

(٥) ديوان الرسائل ، وكان يسى في مصر على عهد القاطمين ديوان الإنشاء^(٥) ، وكان صاحب هذا الديوان بمصر في أوائل القرن الخامس الهجري يتقاضى في كل شهر ثلاثة آلاف دينار ، عدا ما كان يكتبه من السجلات والعهودات وكتب التقليديات ، فقد كان له على ذلك رسوم يستوفيها^(٦) .

(٦) ديوان البريد ؛ وتأتى لصاحبه للكتب من جميع النواحي ، وهو المنفذ لها إلى مواضعها ؛ وهو يتولى عرض كتب أصحاب البريد والأخبار في

(١) نفس المصدر ص ٩ ب - ١١٠ .

(٢) مسكويه ج ٥ ص ٢٥٦ - ٢٥٧ .

(٣) كتاب الوزراء ص ٣٠٣ ، ٣٠٦ .

(٤) مسكويه ج ٥ ص ٢٦١ مثلاً .

(٥) كانت لفظة الإنشاء في المشرق من الألفاظ المشتملة في ديوان الرسائل ، وهو عمل نسخة يحملها الكاتب ، فتعرض على صاحب الديوان ليزيد فيها أو ينقص منها أو ينفذها على حالها (انظر مفاتيح العلوم للخوارزمي طبعة فان كلوتس ص ٧٨ ، وكتاب الوزراء ص ١٥١) .

(٦) الإرشاد لبازوت ج ١ ص ٢٤٢ .

جميع النواحي على الخليفة ، أو يعمل جوامع لها ؛ وله النظر في أمر المرتبين في السلك ، وتفجير أرزاقهم ، وتقليد أصحاب الخرائط في سائر الأمصار ، ولا غنى له ، بعد أن يكون ثقة عند الخليفة ، عن معرفة الطرق والمسالك إلى جميع النواحي ، بحيث يجد عنده الخليفة من المعرفة ما يحتاج إليه عند إنفاذ جيش أو غيره ^(١) . وكانت معرفة الأخبار وإبلاغها قد بلغت درجة عظيمة من الرقي في الدولة الإسلامية ؛ فقد حكى أن الخليفة الموفق أراد أن يشغل قلب أحمد بن طولون ، فدمس من سرق نعله من بيت حفيظة له لا يدخله إلا ثقائه ، ثم بعثها إليه ؛ فقال له الرسول . من قدر على أخذ هذه النعل من الموضع الذي تعرفه أليس هو بقادر على ، أخذ روحك ؟ ^(٢) ؛ وكان صاحب البريد هو صاحب الأخبار الرسمي ، وكان له « عيون » يوافونه بكل جديد ؛ وهذا ميراث أخذه العرب من البيزنطيين ، ففي عهد قسطنطين الأكبر كان لصاحب البريد أخوان يسمون باسم Veredarii (وهم نقلة الأخبار الذين يركبون الخيل) ، وكانوا يمدونه بالأخبار ^(٣) . وكان بعض التلمذيين في ذلك الوقت يعيشون من نقل الأخبار ، كما هو الحال اليوم بالنسبة لمراسلي الصحف ومندوبيها ^(٤) . وجاء في عهد بولاية بربد ما يوجب على

(١) كتاب المراجع لفدانة طبعة دي غوى من ١٨٤ — ١٨٥ ، وقد كتب فدانة -والى عام ١٨١٥ م — ١٨٢٧ م .

(٢) المخطوط للقريري ج ٢ من ١٨٠

(٣) Burckhardt : Die Zeit Constantins des Grossen, 3 Auf. s. 70.

وكان أحد أصحاب البريد بمصر في القرن الأول من الحكم الإسلامي يقوم رسمياً بتبليغ أحوال رجال الشرطة (أنظر . ZA. XX, S. 198) .

(٤) في القرن الثالث الهجري قطع لسان ابن ساد الشاعر بأن وُلِّي البريد بمحند لسرين (مروج الذهب ج ٨ من ٢٧١ والإرشاد لباقوت ج ٥ من ٣٢٢ وما يليها ؛ وكذلك كروم أحد الشعراء الهجيين بأن خيبر في أعمال البريد ببلاد خراسان) بنية الدهر ج ٤ =

صاحب البريد « أن يعرف حال عمال الخراج والضيايع فيما يجرى عليه أمرهم ، ويتنبع ذلك تنظيماً شافياً ، ويستشفه استشفافاً بليغاً ، وينتهي على حقه وصدقه ... وأن يعرف حال عمارة البلاد وما هي عليه من الكمال والاخلال ، وما يجرى في أمور الرعية ، فيما يُعاملون به ، من الإنصاف والجور والرفق ، والعدل ؛ فيكتب به مشروحاً ... وأن يعرف ما عليه المحكام في حكمهم وسيرهم وسائر مذاهبهم وطرائقهم ... وأن يعرف حال دار الضرب وما يُضرب فيها من الصين والورق ، وما يلزمه الموردون من الكلف والمؤن ؛ ويكتب بذلك على حقه وصدقه ... وأن يوكل بمجلس عرض الأولياء وأعطيانهم من براعيه ويطلع ما يجرى فيه ، ويكتب بما تقف عليه الحال من وقته ، وأن يكون ما ينفيه من الأخبار شيئاً يثق بصحته ... وأن يمرض المرتبين لحل الخرائط في عمله ، ويكتب بمددهم وأسمائهم ومبالغ أرزاقهم ، وعدد السكك في جميع عملة وأميالها ومواضعها ، ويوعز إلى هؤلاء المرتبين بتعجيل الخرائط المنفذة على أيديهم ، وإلى الموقمين بإثبات لمواقيت وضبطها حتى لا يتأخر أحد منهم عن الأوقات التي سيبله أن يرد السكة فيها ، وأن يُفرد لسكل ما يكتب فيه من أصناف الأخبار كتباً بأعيانها ، فيُفرد لأخبار القضاة وعمال المعاين (١) والأحداث ... والخراج والضيايع وأرزاق الأولياء. ونحو ذلك كتباً ، ليجرى كل كتاب في موضعه » (٢) . ولم يكن صاحب البريد يُعنى فقط بالأخبار التي تتعلق بمهام سياسة الدولة ، بل كان عليه أن يبلغ

(١) (س ٦٢) ؛ وكان أبو محمد الوائلي يخافى برجو أن يبلد أحد أعمال البريد (يفيضة ج ٤ س ١١٢) ؛ وكان صاحب بريد نيسابور يملك من السكك ما لا يملكه أحد في هذه المدينة مع كثرة علمائها . ويعتبر ابن خلدون الغربي أن صاحب البريد من بين أرباب صناعة السيف (المقدمة ج ١ س ٢١٩٨) .

(٢) كتاب الخراج لعماد الدين جعفر بن خطوط باريس س ١٨ ب ١٩ . ويرجع تاريخ هذا المهد إلى عام ٨٣١٥ .

كل ما عدا ذلك من طرائف الأخبار . فقد حدث في عام ٨٣٠٠ — ٩١٢ م أن ورد كتاب من صاحب البريد من بلدة الدينور يذكر فيه أن الموكل بمخير التطواف رفع إليه يذكر أن بغلة لرجل وضمت قلوّة ويصف اجتماع الناس لذلك وتعجبهم لما عاينوا منه ، ويقول : « فوجئت من أحضر لى البغلة والقلوة ، فوجدت البغلة كحيتاء خلقية ، والقلوة سوية الخلق ، نائمة الأعضاء ، مُنسدلة الذنب ، سبحان الملك القدوس ، لا معقب لحكمه ، وهو سريع الحساب » (١).

(٧) ديوان التوقيع ، وإليه تنتمى رفاع من يسأل شيئاً عند الخليفة ، بعد أن يراها صاحب ديوان الدار ، ويقتضى المسألة والرقعة ، ويشرح حالها ، وما لعله يكون جرى فيها ؛ وبعد أن يستطلع صاحب ديوان التوقيع رأى الخليفة فيها ، ويوقع عليها بخطه في ديوان التوقيع يرسل إلى صاحب ديوان الدار بنسختها أو اقتصاص ما تضمنت ؛ ومن ديوان الدار تُرسل إلى صاحب الديوان القدى تجرى فيه المسألة (كالخراج أو الضياع أو المال أو النفقات ... الخ) (٢) . وكان الفصل في أمر الرقعة يُكتب على الرقعة نفسها توقيعاً من الخليفة أو كاتبه . وقد بلغت هذه التوقيعات أقصى ما يمكن أن يبلغه من الاختصار ، والبلاغة ، وإظهار ذكاء موقعها وقدرته على حسن الفصل وإصابة النرض . وكان البلغاء يتنافسون في تحصيل توقيعات جعفر بن يحيى البرسكى ، القدى كان يلى ديوان التوقيع الرشيد ، ليقفوا منها على أساليب البلاغة وفنونها ، حتى قيل إنها كانت تباع كل توقيع بدينار (٣) .

(١) عريب ص ٣٩ — ٤٠ .

(٢) كتاب الخراج للقدامة ص ١٩ ب — ١٢٠ .

(٣) كتاب المبرج ج ١ ص ٢٠٦ من طبعة بولاق .

(٨) ديوان الخاتم ، وبه تمرر وتثبت فيه الكتب التي يحتاج إلى ختمها بخاتم أمير المؤمنين ؛ وذلك بعد أن يمر الكتاب على دواوين عدة وبعد المقابلة^(١).

(٩) ديوان القضاة ، ومنزلة هذا الديوان من الخليفة منزلة مجلس الاسكدار في ديوان الخراج من التولى له ، لأن سبيل الكتب التي ترد من الأعمال في النواحي إلى أمير المؤمنين أن يكون ابتداءها به وخروجها إلى الدواوين منه ، بعد قضاها وأخذ جوابها ليقراها الخليفة ويوقع فيها بما يراه . وكان هذا العمل جارياً في أول الأمر ، لما كان الخلفاء هم الذين يتولون النظر في الكتب بأنفسهم ؛ ثم آل ذلك إلى الوزير ، فصار هو المتولى لقضاة الكتب وإخراجها إلى الدواوين ، وانتقل عمل ديوان القضاة إلى حضرة الوزير ، وصار التولى له كاتباً برسمه في دار الوزير^(٢) .

وفي حوالى عام ٣٠٠ هـ - ٩١٢ م قلّد ديوان القضاة وديوان الخاتم لرجل واحد ، وكان جاريهما أربعمائة دينار ودينار^(٣) .

(١٠) ديوان الجهابذة ، ويمجرى فيه من الأموال مائة الف دينار والكفاية والوقاية ، وما يجرى مجرى ذلك من توابع أصول الأموال ، ثم ما يزيد شرار الجهابذة من الفضول على هذه التوابع بسبب إعانات من عليه مال من أهل الخراج ومن يجرى مجرى في النقود والصروف ، وما يرتفقون به من التضديع والتأخير من يتعذر عليه الأداء في وقت المطالبة ... فإن بعضهم لما وجد ذلك

(١) لقاعة من ٢٠ ب .

(٢) نفس المصدر من ٢١ ب - ١٢٢ .

(٣) كتاب الوزراء من ١٧٨ .

في بعض النواحي زاد في ضمان الجبهة بتلك الناحية على من هو ضامن لها ، ووقع التزايد في هذه الوجوه بالظلم والمداون على الرعية وسائر من يُقام لهم الجازي ، ونُظِّلَق لم النفقة ، حتى نواف مال الجبهة إلى جلة وافرة أصل أكثرها عدوان^(١)

(١١) ديوان البر والصدقات^(٢) .

وكان أصحاب الدواوين في أوائل القرن الرابع الهجري على ثلاث طبقات^(٣) . وكان صاحب ديوان السواد يقبض أعلى مرتب بين أصحاب الدواوين ، وهو خمسمائة دينار في كل شهر . وكان صاحب ديوان المشرق أو ديوان الخاصة مثلاً يقبض مائة دينار في كل شهر^(٤) . وفي عهد الخليفة المعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ = ٨٩٢ - ٩٠٢ م) بلغت أرزاق أصحاب الدواوين كلها من أكبر الكتاب إلى الخزائن والبوابين والأعوان ، ومن الصحف والقراطيس والكاغد أربعة آلاف وسبعمائة دينار في الشهر ، وذلك عدا ما كان يقبضه الوزراء ، وعدا أرزاق كتاب دواوين الإعطاء وخلفائهم على مجلس التفرقة وأصحابهم وأعوانهم وخزائن بيت المال ؛ فإن هؤلاء يأخذون أرزاقهم مما يوفره من أموال الساقطين وغرم المحتلين بدوابهم^(٥) . فكانت المرتبات التي يتقاضاها هؤلاء تتوقف على مقدار يفظتهم وعنايتهم . على أن الأرزاق كانت تطلق في الأسبوع الأول من الشهر^(٦) . وفي أوائل القرن الرابع ظهر رسم جديد ، ثم صار رسماً

(١) قائمة ص ١٢٣ - ب .

(٢) مكيه ج ٥ ص ٢٥٧ .

(٣) كتاب الوزراء ص ١٥٦ .

(٤) نفس المصدر ص ٣١٤ .

(٥) كتاب الوزراء ص ٢٠ - ٢١ .

(٦) نفس المصدر ص ٨١ .

كثيراً ما لجأ إليه الحكام ، وهو ألا يُعطى أصحاب الأرزاق أعطياتهم عن السنة كاملة ؛ ففي عام ٨٣١٤ هـ - ٩٢٦ م اقتُصر في أرزاق معظم العمال على عشرة أشهر في كل سنة ؛ وكان صغار أصحاب الأرزاق أكثرهم عرضة للفن ، فمثلاً اقتُصر في أرزاق أصحاب البُرد والمنفيعين على جاري ثمانية أشهر^(١) . وكان يُستعاض عما يفقده بعض أصحاب الدواوين بتقليده دواوين أخرى ؛ فمثلاً في حوالى عام ٨٣٠٠ هـ - ٩١٢ م كان يتولى ديوان الأزمّة والتوقيع وبيت المال رجل واحد^(٢) .

وكان على رأس كل ولاية رجلان : الأمير (وهو قائد الجيش) ، والعامل ؛ ويسمى هذا الأخير صاحب الخراج ، لأن أكبر واجباته حملُ خراج الولاية إلى خزانة الدولة ؛ وهو الذى يتولى الإتفاق على الولاية مما يحصل لديه من الأموال ، لأن خزانة الدولة العامة كانت لا تتولى إلا أمر نفقات دار الخلافة والدواوين وما يتعلق ببنداد^(٣) . وكان الأمير يخاطب في المراسلة بما يخاطب به العامل ؛ وكانت منشورات الوزير ترسل لكل منهما في وقت واحد^(٤) . ولكن الأمير كان يمتاز على صاحبه لأن له الصلاة بالناس ، وهذا يجعله رئيس المسلمين جميعاً في ولايته^(٥) ؛ وإذا تضافر الأمير والعامل استطاعا أن يفعلوا بالولاية ما شاءا ، كما حدث في عام ٨٣١٩ هـ - ٩٣١ م من أن العامل والأمير تضافرا بفارس وكرمان على قطع حمل الأموال إلى الخليفة المقتدر ببنداد مدة طويلة^(٦) . ولو أن

(١) نفس المصدر ص ٣١٤ ، وسكويه ج ٥ ص ٢٥٧ .

(٢) كتاب الوزراء ص ٧٧ .

(٣) نفس المصدر ص ١١ والمصفحات التالية .

(٤) نفس المصدر ص ١٥٦ .

(٥) الغرب لابن سعيد ص ١٥ .

(٦) ابن الأثير ج ٨ ص ١٦٥ - ١٦٦ .

رجلاً واحداً قُلْدُ المنصبين معاً لأصبح كالحاكم المستقل بولايته . ونظراً لما في احتناع هذين لمنصبين من المزية امتنع بحكم ، القائد التركي الطموح ، من السير إلى الأهواز لتولى أمورها عام ٣٢٥ هـ - ٩٣٧ م إلا أن يكون له الحرب والخراج ، فأجيب إلى ذلك ^(١) . وقد كانت ولاية مصر على قسمين : والى الحرب والصلاة ، وآخر للخراج وتبدير الأموال ، حتى جاء ابن طولون لجمع بين الولايتين ، وكذلك فعل الأخشيد ، وكان كل منهما في الواقع حاكماً مستقلاً في مصر ^(٢) .

ويشكو ديونيسيوس Dionysius von Tellmachre المتوفى عام ٢٢٩ هـ - ٨٤٣ م في آخر كتابه في التاريخ ، من كثرة عدد العمال ؛ لأنهم بهذه السكثرة يقتصبون جيش الفقير بكل الوسائل ^(٣) ؛ ففي مدينة الرقة مثلاً ، وفي مدينة صغيرة على نهر الفرات كان يوجد : (١) قاض ، (٢) كاتب سلعة يعرف بالبندار ، يطالب بالخراج ووجوه المال ، (٣) وصاحب جند ، (٤) وصاحب برية ينهى أخبار الولاية للخليفة ، (٥) ومتولى الضياع السلطانية (الصوافي) ، (٦) وصاحب معونة ^(٤) . وكان يوجد مثل هؤلاء الولاة في كل « عمل » من أعمال الدولة السامانية ^(٥) . وكان أكثر هذا العدد الكبير من العمال يخرجون

(١) نفس المصدر ص ٢٥٢ .

(٢) المغرب ص ١٥ .

(٣) Michael Syrus, S. 538

(٤) نفس المصدر ص ٥٤١ ، وكلام ميخائيل غير واضح لأن منصب صاحب المعونة كان يضم مادة إلى صاحب الجند والحرب ، ونجد عند فقامة (مخطوط باريس من ١٤ ب - ١١٦) نسخة عهد بولاية المعونة والحرب .

(٥) ابن حوقل ص ٢٤ ، ٣٠٩ ، وكذلك كانت العراق مقسمة إلى أربعة ومعينين طسوجا . فكل طسوج اثنا عشر دستاقاً ، والرسناق اثنتا عشرة قرية . (كتاب الوزراء ص ٢٥٨) .

مخرج الوزير الذي عيّنهم ، وعند ذلك يظنون متمطّلين في شوارع بغداد ،
 يثيرون المتن حتى يعود حزبهم إلى ولاية الحكم — كما كان الحال في أسبانيا
 وفي الولايات المتحدة منذ عهد غير بعيد — وإلاّ شغبوا فمكروا هدوء البلاد .
 ويحكى أنه قدم مرة على صاحب أصفهان شيخ من الكتّاب يطلب التصرف ،
 ويحمل كتباً من إخوان لصاحب أصفهان ببغداد يوصونه به ؛ فقرأ الحاكم أول
 كتاب ، ولم يقرأ باقي الكتب ، وضجر ، وتثيظ ، وقال : « قد وافق بليتنا بكم
 معاشرة المتمطّلين اكل يوم يصير إلينا منكم واحد يريد تصرفاً أو برّاً ، ولو كانت
 خزائن الأرض لي لكانت قد نفذت » (١) .

وكان من دهاء عضد الدولة أنه كان يوصل إلى العمال المتمطّلين ما يقوم بهم ،
 ويحاسبهم به إذا عملوا (٢) .

وكان الإخشيد أول من رتب الرواتب (٣) ؛ وقد أنزّ القاطميون نظامه في
 جلته ؛ وكانوا ينوون ، فيما يلوح ، أن يقسموا حكم البلاد بين أوليائهم ؛ والدليل
 على ذلك أن جوهرًا وإن كان قد ترك العمال في مناصبهم ، فإنه لم يدعّ عملاً
 إلا جعل فيه مغريباً شريكاً لمن فيه (٤) . ولكن لما ظهر أن هؤلاء المغاربة
 أكثر إتباعاً للدولة من غيرهم لم يتمّ ما كان مُزمعاً من إخراج العمال القدماء ؛
 وهم نصارى في الغالب . أما الأرزاق فلدينا من أخبار الإدارة الفاطمية أن الوزير
 كان يتقاضى خمسة آلاف دينار في كل شهر ، وهو مثل مرتب صاحبه ببغداد ؛
 أما رواتب أصحاب الدواوين فكانت أقل بكثير مما في بغداد ؛ فكان صاحب

(١) الترج بعد الددة لتتوخى طبعة مصر ١٩٠٤ ج ٢ ص ٩ — ١٠ .

(٢) ابن الأثير ج ٩ ص ١٦ .

(٣) المغرب لابن حميد ص ٣٩ ، والمخاطب للمري ج ١ ص ٩٩ .

(٤) المخاطب للمري ج ١ ص ٧٨ .

ديوان الإنشاء يأخذ مائة وعشرين ديناراً ، وصاحب بيت المال مائة دينار ، وأصحاب الدواوين الأخرى ما بين سبعين وثلاثين ديناراً في كل شهر . وفي القرن الثالث الهجري عين أحد أصحاب ديوان الرسائل رجلاً أتاه يطلب الكتابة ، وكان يعطيه في كل شهر أربعين ديناراً يقوم بالإجابة على الرسائل التي ترد إلى الديوان^(١) .

وعلى حين أننا لا نجد بين قواد الجيش إلا أسماء قوم من الموالي فإن وظائف الدواوين كانت وقفاً على الأحرار ، وكان القوس هم شحنة دواوين الخلافة ... فمنهم البرامكة ، وآل ذي الرياستين ، وإلى يومنا هذا منهم المادرائيون والفرباييون^(٢) . ولما كانت الصبغة الثابتة على عمال الدواوين هي الصبغة الاقتصادية المالية ، فقد كان لابد لواحد منهم من أن تتوفر لديه بعض خصال التاجر ، وكان الفارسي أشهر تاجر في المملكة الإسلامية . ولا تزال الكفاية الإدارية موروثاً في القوس إلى يومنا هذا ؛ فيحدثنا الخبير النساوي الذي قام بتنظيم البريد في فارس « أن كل فارسي يحسن من نفسه الصلاحية لـكل عمل ، وهو لا يتردد في أن يدخل اليوم عملاً إدارياً مدنياً ، ويقوم به ؛ ثم يكون غداً في منصب حربي »^(٣) . وهذه من خصال القوس القديمة ؛ ويحكى أنه كان لـبختيار بن معز الدولة كاتب فارسي ، وكان مستولياً عليه ؛ ثم تحقق بالجندية ، وادعى الشجاعة ، وأغار على الناس من ذلك ما لم يكن عنده ، تقرئاً إليه ؛ ثم غزم

(١) الإرشاد لباقوت ج ٢ ص ٢٣٨ .

(٢) الإصطخرى ص ١٤٦ ، وذكر بعض المؤلفين أن الكتاب خصة : كاتب رسائل ، وكاتب خراج ، وكاتب قضاء ، وكاتب جند ، وكاتب شرطة ؛ ولكل منهم أشياء ينبغي أن يعرفها . انظر الحاشي والنساوي البيهقي ص ٤١٨ ، ونجد التفصيل في جبهة الإسلام لـشيرانزي مخطوط رقم ٢٨٧ بمكتبة لندن ص ١٩٩ وما يليها .

(٣) Aus Persien, 1882, S. 184 ، [ولم يذكر اسم مؤلف هذا الكتاب ، المترجم] .

أخيراً على تقلد الجيش والتسمية بالأسفهلار ؛ ولكنه اضطر إلى الفرار من بغداد عام ٣٥٨ - ٩٦٩ م^(١). وكان الاشتغال في الدواوين يختلف عن عمل الفقهاء والعلماء كل الاختلاف ؛ فكان المشتغل بإدارة الدواوين هو ممثل الثقافة الأدبية ، وكان لا يبالغ العلوم الشرعية إلا بمقدار ما يتطلبه عمله وثقافته . أما التمايز الظاهري بينهم فكان يتجلى في أن الكاتب يلبس درّاعة ، على حين أن العالم يلبس الطيلسان^(٢) . ويحكى أن الوزير العتيبي أراد أن يلزم أبا عبد الله بن أبي ذهل (المتوفى عام ٣٧٨ هـ - ٩٨٨ م) تقلد ديوان الرسائل ، فقال له : هذا قضاء القضاء بكور خراسان ، ولا يخرج عن حد العلم ؛ ولكن ابن أبي ذهل بكى وهدّد بترك البلد ، حتى أعفاه الوزير من ذلك^(٣) . على أن الخلفاء كانوا يأبون أن يستوزروا العلماء وأصحاب الطيالس ؛ وقد أشير على الخليفة المقتدر أن يستوزر محمد بن يوسف القاضي فقال : لعمرى إنه عالم ثقة ، إلا أنني لو فعلت ذلك ، لافتضحت عند ملوك الإسلام والكفر ؛ لأنني أكون بين أمرين : إما أن تتصوّر عداكتي بأنها خالية من كاتب يصلح للوزارة ، فيصغر الأمر في نفوسهم ، أو أنني عدلت عن الوزراء إلى أصحاب الطيالس ، فأنسب إلى سوء الاختيار^(٤) . وهذه الطائفة من الكتاب أكبر ما يميز الدولة الإسلامية عن أوروبا في أوائل العصور الوسطى ، حيث كان لا يتولى العمل بالدواوين إلا أهل الثقافة الدينية ؛ ولم يكن ذلك من الخليفة الإسلام ، لأن العمل في الدواوين بما ينقصه من تعمق وما يؤدي إليه من ركود عقلي كان يندر أن ينشأ عقولاً تأخذ بحظ في الحركة

(١) مسكويه ج ٦ ص ٣٢٦ - ٣٢٩ .

(٢) الإرشاد لياقوت ج ١ ص ٢٣٤ ، والقدس ص ٤٤٠ .

(٣) طبقات البكي ج ٢ ص ١٦٦ .

(٤) كتب الوزراء ص ٣٢٢ .

العقلية ؛ وكان العمل في الدواوين مباحاً ملائماً للأدباء الذين لم ينشأوا في الأوساط الدينية ، وهم المتعلمون الذين صاروا بمهامهم في الدواوين مجردين من البواعث الداخلية والخارجية التي تدفع العقل إلى العمل ؛ ولا يزال « الأفندي » الراضى عن نفسه ، بثقافته السطحية وقلة دوافعه إلى التفكير ، مقبلاً في طريق التقدم حتى يومنا هذا ، وهو أخطر على التقدم من رجل الدين الضيق الأفق والمحدود النظر^(١) .

وقد جاء في خبر يروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ما يضع القواعد الأساسية لما ينبغي أن يكون عليه العامل . فيحكى عن امرأته كان إذا استعمل رجلاً استقرط عليه أربعاً : ألا يركب برذونا ، ولا يلبس ثوباً رقيقاً ، ولا يأكل قتيلاً (٢) ، ولا يخلق بابه دون حوائج الناس ولا يتخذ حاجباً^(٣) . ولكن المال امب في القرن الثالث الهجرى دوراً سيئاً في حياة عمال الدواوين ، وكان لكل تىء ممن يُبذل وخصوصاً لمنصب الدواوين^(٤) . وكان العامل متى تقلد المنصب حاول أن يسترد ما خسرته مستعيناً على ذلك بالغيانة ؛ فكان المال مثلاً يمينون أرزاقاً لقوم لا يحضرون إلى العمل ، وأرزاقاً بأسماء قوم لم يُخلقوا ، وكانوا يقيّدون برسم الفقهاء والكتاب مرتبات بأسماء الفنان والوكلاء في الحاشية ؛ وكانوا يصرفون الورق والقراطيس ، ثم ييمينونه فيحصل لهم منه مال^(٥) .

(١) ربما يقصد المؤلف أن أهل الدين يحكم ما كانوا عليه من بحث وتمييز وجدال ، أقدر على التفكير وبالتالي على الثورة والإصلاح الإدارى ، وكان هذا الإصلاح ألزم ما يكون للإدارة الإسلامية . (المزمع)

(٢) كتاب المراج لأبى يوسف ص ٦٦ .

(٣) كتاب الوزراء ص ٢٦٣ .

(٤) مسكويه ج ٥ ص ٣١١ .

وكان عامل مصر يقبض ثلاثة آلاف دينار في كل شهر ، وهو مبلغ كبير ؛
ولكن كان على العامل أن يسدد نفقات ديوانه ، وكان يعلم أن رزقه لا يكفي
نظراً لكثرة الهدايا التي يبعث بها إلى الأمير والوزير والخليفة . وقد شكبت
إحدى حظايا الخليفة مرة من معاملة بعض أصحاب الدواوين في تسليم إقطاع وحيه
لها الخليفة ، فقال لها : كان الصواب أن تبغى إليه بتياب والطف ، فتشتقي
عن خطابي ، فعملت ما نصحها به ، وتم لها ما أرادت ^(١) . ويصف ابن المنذر
الولاية في بعض شعره ، حيث يقول :

أفأ ترى بلداً أقت به أهل مساكن أهله خُص
وولائه تَبَطُّ زنادقة ملأى البطون ، وأهله خُص ^(٢)

وكان أهل الثقي في ذلك الوقت يشتهرون عمال السلطان والفتاق قريباً واحداً ؛
كما جمع المهد الجديد بين اللذين وأخذى الضرائب الجزكية . ويحكى أنه
بلغ من دين بعض أهل الورع أنه امتنع من نقش فص للأمير ، فزاد في الأجرة
حتى بلغت مائة دينار ، فأبى الرجل ؛ ثم جاء إليه بعد ذلك تاجر فأعطاه على
نقش بعض الفصوص عشرة دراهم ، فأخذها ، وذلك اجتهداً منه في ألا يأخذ
الحرام ^(٣) . وقد كان يضرب للثل بزهد جعفر بن مبشر ، وقد أضرت به
الحاجة ، حتى كان يقبل القليل من زكاة إخوانه . وقد أوجب أحد التجار

(١) كتاب الوزراء ص ١٨٢ - ١٨٤ .

(٢) ديوان ابن المعتز ج ٢ ص ١٤ . لم تكن حوانج ابن المعتز تفضي ، ولا ماملاته
تفضي عند الوزراء ، لأنه لم يكن محبوباً في عصر الخلافة ؛ وقد ظل ثلاثين سنة يكتب الوزراء
في حاجاته ظناً وثراً ، فلا يجيبونه ، وكان يحاول الرسول إليهم فلا يأذنون له (انظر كتاب
الوزراء ص ١١٥) .

(٣) ابن المرتضى : ذكر المعتز ص ٦١ .

بحسن الكلام مرة ، وعرف مسكنته ، فأرسل إليه خديانة دينار ، فردّها فقيل له :
 قد عذرناك في ردّ مال السلطان للشبهة ، وهذا تاجر ماله من كسبه ، فلا وجه
 لردّك له^(١) . وحكى أن بعض التصرفين احتبس أبا علي الجبائي للطعام ، فأجابته ؛
 فأنكر رجل ذلك عليه ، فقال له : أنت تعلم أن طعامه الذي يقده إينا بما
 يشترينه ، وأن الغالب أنهم يشترونه لا يبيعن المال ، أفأ تعلم أن ذلك ملكه ، وأنه
 بما يحمل له تناوله^(٢) . « وكان أحمد بن حرب يوماً على طعام مع قوم وفدوا عليه
 من كبار نيسابور ووجوهها ، إذ دخل ابنه في الغرفة سكران يفتي ويأبى ، ولم
 يسلم على القوم ؛ ولما رأى أحمد دهشتهم سألهم : ما بكم ؟ فقالوا خجلنا من أن
 يدخل عليك ولك على هذه الصورة ، فقال لهم أحمد : إنه معذور ، فقد أكلت
 أما وزوجتي ليلة من طعام بعته إينا جارنا ، وفي هذه الليلة نُحِل بهذا الغلام ،
 فتمننا ، ولم نصل ، فلما كان من اليوم التالي سألنا جارنا : من أين هذا الطعام
 الذي بعث به إينا ، فلمنا أنه من طعام زليمة عرس في دار أحد عمال
 السلطان^(٣) . وكان بعض الناس لا يعلم على عامل السلطان بما تجرى به المادة
 من قول : السلام عليكم ، بل كان البعض يقول جاداً أو مستهزئاً : كُتب من
 عمل السلطان . وقد تاب رجل مرة من عمل السلطان ؛ ثم طُلب لتقايده عملاً
 جليلاً ، فكسر التوبة ، فسماه الناس المرتد^(٤) . ونادراً ما كان الرأي العام
 يعتبر أمانة في إدارة الدواوين شيئاً يحمل مآثف . ويعجب المؤرخون حين
 يجدون أحد كبار العمال من أهل الأمانة . ومما يحكى أنه توفي في عام ٨٣١ هـ - ٩٢٦ م

(١) نفس المصدر ص ٤٣ - ٤٤ .

(٢) نفس المصدر ص ٥٦ ، ٦٠ .

(٣) كشف المحجوب للعموي (بالمقارنة) ص ٣٦٦ .

(٤) مكيه ج ٥ ص ٢٤٤ .

صاحب بيت مال العامة ؟ فأراد الوزير أن يقبض أمواله ، واشتد في المطالبة ؛ ولكنه لم يجد شيئاً ، لأن ذلك الرجل كان « صحيح الأمانة »^(١) . وكثيراً ما كان يُترك العمال في مناصبهم أو يُعادون إليها بعد تركها مع الشبهة في أمانتهم ؛ وذلك بعد أن يدفعوا ما يقرر عليهم . على أن هذا لم يكن يقع دائماً .

أما مصادرة المال فإننا نعرف من مصدر جدير بالثقة أن الأخشيد ، صاحب مصر ، وكانت رجلاً مالياً ماهراً ، هو أول من نكب عماله وكتبه سراراً^(٢) . فهو مؤسس نظام مصادرة المال وفرض الأموال عليهم . وكان العامل إذا ضودر وقتل عليه عبء المصادرة تبرع له أصحابه ، وجمعوا مالا لتخفيف عنه^(٣) ؛ وقد صادر الحاكم بأمر الله أحد أصحاب الدواوين ، وقطع يديه عام ٤٠٤ هـ - ١٠١٣ م ، ثم أكل بقية تصرفاته القريبية ، فقلده ديوان النفقات عام ٤٠٩ هـ - ١٠١٨ م ، بل قلده الوزارة عام ٤١٨ هـ - ١٠٢٧ م^(٤) .

على أن السنة الفاسدة التي جرى عليها حال الدواوين في دولة الخلفاء تجلّى أثرها السيئ في ظهور مرض لحق بحرفة الاشتغال في الدواوين ، كما أن لكل حرفة مرضاً ؛ وذلك هو التهاون الشديد على الألقاب ، والتكاف في أساليب المكاتبات . وقد بدأ هذا في القرن الرابع ، وبقي إلى اليوم . وفي المكاتبات الرسمية كانت تُوجّه عناية كبيرة إلى العنوانات وتُعظم شأن الخطاب وإلى الإسهاب في

(١) صرب من ١٢٨ هـ .

(٢) المقرب لابن سعد من ٣٩ هـ .

(٣) كتاب الوزراء من ٣٠٨ هـ - ٢٠١ هـ .

(٤) Beckel, Beiträge zur Geschichte Aegyptens, I, 24 . فلا مع الشئ

ذلك ؛ على حين كانت يُحتم الخطاب ويوقع عليه في إيجاز على خلاف عادة الأوربيين . وقد بدأ هذا منذ القرن الثالث الهجري ، وذلك أن العادة كانت جارية في المكاتبة بين الناس بأن يُقال : من فلان إلى فلان أو من أبي فلان إلى أبي فلان ؛ ولم يكن على شيء من العنوانات دعاء ، حتى جاء الفضل بن سهل في خلافة المأمون ، فكتب كتاباً عنوانه : لأبي فلان أبقاه الله من أبي فلان^(١) ؛ ثم استعمل الناس بعد ذلك الدعاء على عنوانات الكتب . وقد انتهت إلينا الخطابات المختلفة التي كان الوزير يُخاطب بها العمال على اختلاف درجاتهم في القرن الرابع الهجري . فكان يكتب إلى أمير الشام وأجنادها : أعزك الله ومدك في عمرك وأتم نعمته عليك وإحسانه إليك ؛ وإلى الزراع والمهندسين : حفظك الله وعافاك ؛ وإلى أصحاب البرد ممن يتقلد الأعمال الجليلية : أكرمك الله ومدك في عمرك ؛ وأتم نعمته عليك ؛ وإلى التجار والمبتاعين للفلات إذا بُجعت الواحد منهم أعمالاً : عافانا الله وإياك من السوء^(٢) . وكان الوزراء والكبراء في أول القرن الرابع يخاطبون بسيدنا أو مولانا ، ويتمثل في ذلك صميم الخطاب المفرد . وفي عام ٣٧٤ هـ — ٩٨٤ م كان ابن سعدان الوزير يُخاطب الوزير ابن عباد بالصاحب الجليل . والصاحب ابن عباد يخاطب ابن سعدان بالأستاذ مولاي ورثيسى^(٣) .

(١) تاريخ سعيد بن البطريق (المتوفى عام ٤١٨ هـ — ٩٢٠ م) ص ٧٣ من مخطوط باريس رقم ٢٩١ .

(٢) كتاب الوزراء ص ١٥٣ والصفحات التالية .

(٣) التهجيم المهرية لابن نوري بردي ، عدة كلفوربا ص ٢٤ ، وكان يسمى ابن سعادوس وزير العزيز بالله في مصر يخاطب بسيدنا الأجل (يعني من سديد ص ١١٢) .

ويقول أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي^(١) (المتوفى عام ٣٨٣ هـ -
٩٩٣ م) في هذه الألقاب :

مالى رأيت بنى العباس قد فتحوا من الكنى ومن الألقاب أبوا
ولقبوا رجلاً لو عاش أولهم ما كان يرضى به لحش بوا
قل الدرام في كفى خليفتنا هذا فانق في الأقوام ألقابا

وفي عام ٤٢٩ هـ - ١٠٣٧ م لقب قاضى القضاة الماوردى بلقب أفضى
القضاة ؛ وجرى من بعض الفقهاء إنكار لهذه التسمية ، وقالوا : لا يجوز أن يسمى
به أحد ، هذا بعد أن كتبوا خطوطهم بحوار تلقب جلال الدولة بذلك الملوك
الأعظم ، فلم يلتفت إليهم الماوردى ، واستمر له هذا القب إلى أن مات ، ثم
تلقب به القضاة بعده^(٢).

وقد حاول الخليفة الحاكم بأمر الله أن يابى الألقاب ؛ فبعد أن سخط في منح
الألقاب على اختلاف أنواعها ، أسقطها عام ٤٠٨ هـ - ١٠١٧ م ماعدا ألقاب
تسعة نفر ، هم أكبر حملة الألقاب ، ولكنه أعاد الألقاب بعد قليل^(٣) ، على
عاداته الجارية من نقض وإبرام . ويقال إن أبا الحسن كاتب الخليفة التتادرباقه
(٣٨١ - ٤٢٢ هـ = ٩٩١ - ١٠٣١ م) هو مخترع لفظ « الحضرة » في
الخطاطبة ؛ وفي هذه المسألة الصغيرة أيضاً نجدنا حتى الآن نسير على رسم القرن
الرابع . وهذا الكاتب هو مخترع عبارة : الحضرة العالية الوزارية ؛ وهو أول من
أخرج عبارة : الحضرة القدسة النبوية في الكلام من الخليفة ، وأشرك بذلك

(١) بتيمة الدهرج ٤ ص ١٤٥ .

(٢) الإرشاد لياقوت ج ٥ ص ٤٠٧ .

(٣) يحيى بن سعيد ص ١١٢٩ - ب .

عبارة : السُّدَّة النبوية ، ثم كتب عن الخليفة بلفظة غريبة غير مستقيمة الدلالة وهي : « الخدمة » وتصرف في ذلك حتى قال : قالت الخدمة ، وفعلت الخدمة ، وسئلت الخدمة ، حتى رأيت بخط أبي الحسن بن أبي الشوارب في ترجمة رقعة : « خادم الخدمة الشريفة فلان بن فلان »^(١) . وقد لُقِّب الخليفة القائم وزيره (قتل عام ٤٥٠ هـ - ١٠٥٨ م) بألقاب هي : رئيس الرؤساء ، وشرف الوزراء ، وجمال الوري^(٢) . أما بين القضاة فقد بقي الرسم القديم جارياً ، فكان قاضي القضاة يوقع للقضاة بما يقول فيه : « أبو فلان » ، فلان بن فلان القاضي أيده الله يفعل كذا ، وإلى قضاة النواحي : « فلان بن فلان الحاكم » ، بغير كنية ولا دعاء ولا ذكر قضاء^(٣) .

وفي عهد المقتدر كانت تطلق الدواوين في دار الخلافة يومى الجمعة والثلاثاء ، وقد أمر المقتدر (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ = ٨٩٢ - ٩٠٢ م) بذلك « لأن يوم الجمعة يوم صلاة ، وكان يحبه ، لأن مؤذنه كان يصرفه فيه عن مكتبه ؛ ولأن الناس يحتاجون في وسط الأسبوع إلى الراحة والنظر في أمورهم ، والتشاغل بما يخصهم »^(٤) .

(١) كتاب الوزراء ص ١٤٨ والمفصلات النالبة .

(٢) تاريخ بغداد ٦٧. S. 1912, JRAS.

(٣) كتاب الوزراء ص ١٥١ .

(٤) من المصدر ص ٢٢ .

الفصل السابع

الوزارة والوزراء

لما انتهى عهد الإدارة الإقطاعية ، وجاء عهد التنظيم البيروقراطي ظهر منصب الوزير في عهد الخلفاء الأولين من بني العباس . أما في عهد بني أمية فلم تكن الوزارة «مقننة القواعد ، ولا مقررة القوانين» ؛ وكان ذوو الآراء من مستشاري الملك يقومون مقام الوزراء ، وكان الواحد منهم يسمى كاتباً أو مُشيراً^(١) .

وفي أول القرن الرابع الهجري انتقص اختصاص الوزير ؛ فأخذ الخليفة منه الضياع العباسية التي كانت إقطاعاً يديره الوزراء ، ويحصل منه مائة وسبعون ألف دينار ؛ وأجرى للوزير رزقاً ثابت قدره خمسة آلاف دينار ، ثم صارت سبعة آلاف في كل شهر^(٢) . على أنه كان للوزير مكانٌ ممتازٌ بين سائر رجال الدواوين ؛ فكان يُعطى لكل ولد من أولاده خمسة مائة دينار في كل شهر ، وهو مبلغ يساوي مرتب وزير^(٣) .

وأكبر تغير استرعى النظر في إدارة الدولة أننا نجد الوزير قد صار مُقدِّماً على جميع القواد ، مع أنه ليس إلا رئيس الكتاب ، ومع أن الدولة قامت في الأصل

(١) كتاب الفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية لمحمد بن علي بن طباطبا المروفي باب الضعاق ، الطبعة الأوربية من ١٨٠ .

(٢) كتاب الوزراء من ٢٨٢ ، ٣٥١ ؛ ومكويج ج ٥ من ٢٦٧ — ٢٦٨ .

(٣) كتاب الوزراء من ٢٢ . أما في مصر على عهد النابليين ، فكان يعطى لأخوة الوزير أيضاً من مائتي دينار إلى ثلاثمائة — المخطط للفريريزي ج ١ من ٤٠١ .

على أساس حربي ؛ وكان هذا الوضع الجديد إحياء لنظام التدرُّج في المناصب إلى أن انتهى رئيس أعلى ، وهو النظام القوي الذي كان موجوداً في تاريخ الشرن القديم . على أنه لما عاد القائد مؤنس المظفر إلى بغداد في عام ٥٣١٢ هـ - ٩٤٢ م ، ركب الوزير طيَّارَه للسلام عليه ، ولتهنئته بمقدمه ؛ وهذا ما لم نجْز به عادة الوزير ، وما لم يفعل مثله وزيرٌ من قبل ؛ حتى إن الوزير لما خرج لينصرف خرج معه مؤنس إلى أن نزل في طيَّاره ، وقبِلَ يَدَه ^(١) .

وفي أول القرن الرابع كانت رسم الوزير في لباسه هو رسم سائر المال ؛ فكان يلبس دَرَّاعَةً وقيصاً ومُبَطَّنة وخَفّاً ^(٢) ؛ وكان السواد هو اللباس الرسمي ^(٣) . أما في أيام الاحتفالات الرسمية فكان يرتدى ثياب الموكب ، وهي قَبَاء وسيف بمنطقة ، ومع هذا عمامة سوداء ، وهي الجزء الذي لا ينزعها الوزير من لباسه الذي يلبسه عادة ^(٤) .

(١) كتاب الوزراء ص ٥٠ ؛ ومكويه ج ٥ ص ٢١٤ .

(٢) كتاب الوزراء ص ٣٢٥ .

(٣) انظر ما قاله الأصمهاني شراً يذم به أبا عبد الله الريدي ، في تاريخ الفخرى ، ص ٣٢٣ - ٣٢٤ .

(٤) كتاب الدبارات الشاشق ص ١٦٦ . ومكويه ج ٦ ص ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ؛ والإرشاد لياقوت ج ٥ ص ٣٥٦ .

وفي عام ٥٣١٩ هـ - ٩٣١ م خرج الوزير لاصلاة ومعية شاشية وسيف بمائل ؛ معجب الناس من ذلك (عريب ص ١٦٥) . وقد انتهى إلينا البرنامج اليومي للوزير صاعد بن مخلد حوالي عام ٥٢٧٥ هـ - ٨٨٨ م : كان يقوم في آخر الليل ، فلا يزال يصلّي إلى طلوع الفجر ، ثم يأذن للناس فيسلون عليه ، ثم يركب إلى دار الخليفة الموفق ، فيقيم بحضرته أربع ساعات ، ثم ينصرف إلى منزله فينظر في حوائج الناس وأمور الحاضر والغائب إلى الظهر ، ثم تنادي وبناء ، ثم يحلس بالشقي ، ينظر في لأعمال السلطانية إلى المساء الأخيرة ، لا يخرج أو يحصل جميع الأول ما فعل منها ، وما ألقى ، وما بقي . ثم ينظر في أمور سياحه وأسياسه . ويتقدم إلى وكلاته وحاشته بما يحتاج إليه ، ثم يتشاعل بعد ذلك مع خدم يتشاعل بحديثه ويأنس به ، ثم ينام الشاشق من ١١ إلى ١٢ .

وكان الخليفة يخضع على الوزير هذه الثياب ، التي هي رسم الوزارة ، عند تقليده ؛ فيركب الوزير من داره إلى دار الخلافة ، وبين يديه الحجاب والقواد والفلان ، ثم يعود إلى داره ، وهم معه . ويصف المؤرخون ذلك ، ولا يهتمون أن يذكر ما كان يقع من الأمور النادرة ، فيذكر مثلاً أن بعض الوزراء أخذ البول ، وهو في طريقه إلى منزله ، فنزل وهو في خلع الخليفة إلى دار أحد عمال البواوين ، فبال عنده وأسرله بزيادة في رزقه ^(١) . وإذا وصل الوزير إلى داره حضر الناس على طبقاتهم للسلام والتهنئة . وكان الخليفة يرسل له مالا وثيابا وطيباً وطعاماً وأشربة وتلجأ ^(٢) .

وكذلك انتهى إلينا العمل اليومي لأحد الوزراء حوالي عام ٨٣٠٠ — ٩١٢ م ، مع الإشارة إلى أن أخلاقه ، وهو وزير ، كانت مثلاً وهو صاحب ديوان ؛ « فكان من رسم الوزير (ابن القرات) أن يثدو إليه الكتاب ، فيوافقهم على الأعمال ، ويسلم إلى كل منهم ما يتعلق بديوانه ، ويوصيه بما يريد وصاته به ، ثم يروحون إليه بما يسئلونه من أعمالهم ، فيوافقهم عليها ، وعلى ما أخرجوه من الخروج وفضوه من الأمور ، ويقسمون إلى بعض من الليل ؛ وإذا خف العمل ، وقد عرّضت عليه في أثناء الكتب بالنفقات والتسبيبات والحسابات ، يهض من مجلسه ، وانصرف الجماعة بعد قيامه ^(٣) » ؛ وفي مثل

حوالي منتصف القرن الرابع يكثر إلى دار الإمارة ، وكان الرسم أن يحضرها بالشارع والشموع قبل الصباح (الإرشاد ليالوت ج ٥ ص ٣٥٧) . وكان الوزير نظام الملك في أواخر القرن الخامس يباكر دار السلطان ، ويعود من الديوان إذا أضحى النهار ، فيخلو بنفسه إلى وقت الظهر ، ثم يصل مجلس قناس ويحضر عنده الفقهاء والمحدثون (طبقات السبكي ج ٣ ص ١٤١) .

(١) مرئب ص ١٦٤ .

(٢) كتاب الوزراء من ٣١ .

(٣) كتاب الوزراء من ٢٣٨ .

هذا المجلس كان الكتاب يجلسون أمام الوزير ، كل في مكانه ، ومعه دواته ، وكان رئيس هؤلاء الكتاب يجلس متقدماً عليهم^(١) .

وكان الوزير يحتفظ بصورة من الوثائق المهمة ، ويضعها في جلة سجلاته ، وكانت هذه ، متى عُزل ، تنقل إلى دار من يخلفه في الوزارة . ولما تقلد ابن النفث الوزارة بعد علي بن عيسى عام ٣٠٤ هـ - ٩١٦ م كادت هذه السجلات أن تبلغ سقف الخزانة التي كانت فيها^(٢) . ويُذكر أن بعض الرقاع المسماة السرية كانت تُحفظ في سبط خيزران يكتب عليه بخط الوزير : ما يحتفظ به من المهمات : وكان السبط يُتم بحتم الوزير^(٣) .

وكانت دار الوزير حتى عام ٣٢٠ هـ - ٩٣٢ م هي الدار التي كانت قديماً لسليمان بن وهب على الشاطئ الشرقي لنهر دجلة ، والتي كانت نسي دار الحرم ؛ وكان ذراعها يربو على ثلثمائة ألف ذراع . وقد أُريد تحصيل مال من هذه الدار لترأسه التي كانت تقع في حي من أعلى أحياء بغداد آنما . تَسْتُطْب - رت من جماعة من الناس بمال عظيم ... وصرف منها في مال الصلة لبيعة القاهرة بالله^(٤) ؛ وأعدت للوزير دار أحد أبناء الخلفاء^(٥) .

وكان يقف على باب دار الوزير كثير من الرجال لحراستها ؛ وقد بلغ من كثرتهم أنه كان ربما أخذ منهم ثلاثون رجلاً في وقت واحد ، وأنفذوا في أمرهم^(٦) .

(١) الإرشاد لياقوت ج ١ ص ٣٤٢ .

(٢) كتاب الوزراء ص ٢٠٨ .

(٣) كتاب الوزراء ص ٥٩ ، ومكويه ج ٥ ص ٢٣٣ .

(٤) مكويه ج ٥ ص ٤١٠ ؛ وفي كتاب الوزراء أن صاحبها ٣٤٦ و ١٧٣ ذراعاً .

(٥) مكويه ج ٥ ص ٣٩١ .

(٦) كتاب الوزراء ص ١٢١ .

وكان في مجلس الوزير غلمان مسلحون بسـيـرون بين يدي الوجوه من الناس ،
ويخرجون بين يدي الوزير دائماً ، يجرؤون سيوفهم ، والناس يشاهدونهم^(١) .
وكان رسم الوزير ألا يذهب إلى دار الخلافة إلا في أيام الموكب ، وكان ذلك
في يوم الاثنين والخميس في أوائل القرن الرابع^(٢) ؛ وقد جرى الرسم أن يسير
الوزير إذا ركب إلى دار الخلافة واحداً من كتّابه الأربعة الذين يقولون
الديوان^(٣) . وكانت للوزير في دار الخلافة دار مفردة يجلس فيها ، والخواص
والخواص بين يديه ، حتى يستدعيه الخليفة . ومنذ عام ٨٣١٢ - ٩٢٤ م صار
يجلس في دار الحاجب متقرباً إليه ومدازياً له ، فكان هذا دليلاً على تناقص
مركزه^(٤) .

وكان الوزير يجلس في مجلس الخليفة موالياً له برجسه ، وهي عادة المروس
بالنسبة إلى رئيسه . وإذا أراد الوزير أن يكتب شيئاً في حضرة الخليفة ، فقد كان
الرسم أن تُحضّر له دواة لطيفة بـسـالة فيمسكها بيده اليسرى ، ويكتب بيده
اليمنى ؛ وقد رأى الخليفة المقنبر مرة مشقة ذلك على وزيره علي بن عيسى ، وهو
يكتب كتاباً هاماً بحضرته ، فأمر بأن يقف بعض الخدم فيمسك الدواة إلى أن
يفرغ من الكتابة ، وكان علي بن عيسى أول وزير أكرم بهذا ، ثم صار رسماً
للوزراء بعده^(٥) . وكان للوزير في الأوقات التي يكون فيها بدار الخلافة نائب

(١) نفس المصدر ص ١١٤ .

(٢) نفس المصدر ص ١٢١ ، ٣٥٢ .

(٣) انظر الأبرج ٨ ص ٦ - ٧ ؛ وكتاب الديوان ص ٥٩ ب .

(٤) كتاب الوزراء ص ٢٦٨ .

(٥) كتاب الوزراء ص ٣٤٢ .

يقوم في الدار أهمّ عشاء يعرض^(١) ؛ وكان للوزير من بين خدم الخليفة قوم يقول عليهم في مراعاة أخباره^(٢) .

وكان الخليفة هو الذي يمين وزيره ، وكان في العادة يقرّ وزير الخليفة السابق في منصب الوزارة ؛ وفي عام ٨٣٠٠ هـ - ٩١٢ م أراد الخليفة أن يختار لنفسه وزيراً ، وطلب من أحد ثقاته قبول الوزارة ، فامتنع الكبر سنّه ، فأرسل إليه الخليفة أسماء رجال كثيرين ليرشح منهم من يراه أهلاً للوزارة ، فكتب تحت اسم كل واحد منهم بما رآه ، وأشار بتعيين رجل كان قاضياً ، فظن الخليفة أن وزيره غشه ولم يخلص في النصح ؛ ولما سُئِلَ الخليفة في ذلك قال لعمري إنه (القاضي) عالم ثقة ، إلا أنني لو فعلت ذلك لانتضحت عند ملوك الإسلام والكفر ، لأنني أكون بين أمرين : إما أن تتصوّررّ ملكتي بأنها خالية من كاتب يصلح للوزارة ، فيعصر الأمر في نفوسهم ، أو أنني عدلت من الوزراء إلى أصحاب الطيالس ، فأنتسب إلى سوء الاختيار^(٣) . على أنه حوالى هذا الوقت تقلد القاضي مروزي (المتوفى عام ٨٣٣٤ - ٩٤٦ م) ببخارى وزارة الأمير الساماني صاحب خراسان^(٤) .

وكان الزمان زمان أرسوقراطية ، حتى أدى الحال إلى نشوء جيل لكل طائفة من أصحاب الناصب ؛ فكان هناك وجوه الحضرة من أولاد الوزراء والكتّاب والأمراء والأشراف ، وكان أولاد الوزراء هم الطبقة العليا بين أبناء

(١) المغري لابن الطقطقي ص ٢٩٢ ، والمخطوط للمقريزي ج ١ ص ١٥٦ .

(٢) كتاب الوزراء ص ٢٦٧ ، وفيما يتعلق بمصر انظر ابن الأثير ج ٩ ص ٨٢ - ٨٣ .

(٣) كتاب الوزراء ص ٣٢٢ .

(٤) Flügel : Die Klassen der hanefitischen Rechtsgelehrten, S. 296 .

العمال^(١) . وكانت المناصب أحياناً وراثية ؛ فقد ذكر أن الوزير ابن مقله خلفه ابنه ، وهو في الثامنة عشرة^(٢) ؛ وكذلك تولى أبو الفتح بن العميد الوزارة بعد أبيه ، وله من العمر إحدى وعشرون سنة^(٣) ؛ وقد ولي الوزارة من آل خاقان أربعة وزراء في سبعين عاماً ، وكذلك تقلد أربعة من بني الفرات الوزارة في خمسين سنة ؛ وكان ابن العميد وزيراً لمعاد الدولة رأس أسرة بني بويه ومؤسس مملكتهم ، وكان ابنه وحفيده وزيرين لركن الدولة . أما بنو وهب ، وأصنامهم من نصارى العراق ، فقد توارث عشرة منهم أرقى مناصب الدولة ؛ وكان أربعة منهم وزراء^(٤) . وقد ولي الوزارة واحد من بني وهب عام ٣١٩ هـ - ٩٣١ م ، وكان في شبابه مبذراً مسرفاً ، وقد ضيق عليه أصحاب المطالبات حتى أمر القاضي بالحجر عليه ، ووضع تحت الوكالة ؛ ولذلك كان من صدق فراسة مؤنس القائد أنه خشي أن هذا الوزير سيكون سيئ التصرف في أمور الدولة ، كما كان سيئ التصرف في أمواله^(٥) . وما يزيد الأمر خطورة أن أم عمل للوزير هو إدارة مالية البلاد ، فهو الذي يعمل الدخل والخرج ، ويفرض الضرائب أو يستقطها^(٦) ، ويحتل الأموال من النواحي^(٧) .

وفي عام ٣٠٣ هـ - ٩١٥ م شغب الفلماني والرجالة على الوزير يطلبون الزيادة ، فمضوا إلى داره وأحرقوا بابه ، وذبحوا في اصطبله درابته^(٨) . وجميع

(١) المنظم ص ١٦٦ .

(٢) حسن المحاضرة للسيوطي ج ٢ ص ١٢٧ .

(٣) الإرشاد لبالوا ج ٥ ص ٣٥٦ .

(٤) Amedroz, JRAS, 1908 S. 418. ؛ والبيضة ج ٣ ص ٢٣ .

(٥) Amedroz, JRAS, S. 431. .

(٦) ابن الأثير ج ٨ ص ٥١ .

(٧) من المصدر ص ٧٣ ؛ وكتاب الوزراء ص ٢٣٩ .

(٨) حرب ص ٥٨ .

الوزراء الذين استشفوا أو عزلوا في القرن الرابع إما فشلوا أمام الصعوبات المالية .
وفي عام ٨٣٤ - ٩٤٦ م سمع الوزير أبو الفضل السلي وهو في داره ليلة جملة الخيل ،
وعلم أن غوغاه المسكر قد اجتمعوا بؤابون ويلقون عليه الذنب في تأخير
أرزاقهم ، فدعا بالحلاق ، فخلق له رأسه ، واغتسل بماء ساخن ، ولبس الكفن ،
ولم يزل ليالته يصلح ؛ ثم دخل الجند عليه وقتلوه ، وهو ساجد ؛ وكان هذا الوزير
فقيهاً مناظراً ومحدثاً حافظاً ، وكان يصوم الاثنين والخميس ، ولا يدع صلاة الليل ،
وولى الوزارة للسلطان وهو على ذلك ، وكان يسأل الله الشهادة ، حتى وقع
له ما وقع ^(١) .

وكانت سنة ٨٣٤ - ٩٤٦ م أم سنة في تاريخ الوزراء ؛ ففي هذا الوقت
دخل بنو بويه بغداد ، وقام كاتب الأمير الذي غلب على تدبير الأمور مقام
الوزير ، وبطل رسم الوزارة ^(٢) . وقد تكلم حلال الصابي في كتابه تاريخ الوزراء
عن أم وزراء القرن الرابع الهجري ، وهو يقسمهم إلى وزراء الدولة العباسية
« وكتاب » الأيام الديلية ^(٣) .

ولذلك يمكن أن جوهر أيام فضحه لمصر توقف في مخاطبة أبي الفضل جعفر
ابن القرات في كتابه بالوزير ، ولم يخاطبه بذلك إلا بعد مراجعة ، وقال : ما كان
وزير خليفة ^(٤) . أما عند الفاطميين فكان اسم الوزير غير مقبول في أول الأمر ،
وكان قاضي القضاة أجل أرباب الوظائف عندهم ، ولم يتخذ خلفاؤهم وزراء إلا

(١) المتظم ص ١٧٠ .

(٢) مسكويه ج ٦ ص ١٢٥ ؛ والتب للحدودي ص ٣٩٩ ، ٤٠٠ .

(٣) كتاب الوزراء ص ٣ .

(٤) الانطا للقريري ص ٧٠ .

في عهد الخليفة الفاطمي الثاني ، العزيز بالله^(١) ، وهو الوزير ابن كلّس الذي كان يهودياً فأسلم (وتوفي عام ٣٨٠ هـ - ٩٩٠ م) . وقد حدثنا التلقشندى في المصوّر المتأخّرة من منصب قاضى القضاة فقال : « وإذا كانت ثمّ وزير لا يحاطب بقاضى القضاة لأن ذلك من نعمت الوزير^(٢) » . ويقول المقرئى إنه بعد موت ابن كلّس لم يستوزر العزيز بالله أحداً ، وإنما كان ثمّ رجلٌ بلى الوساطة والسفارة ، واستقر ذلك في جماعة كثيرة بقيّة أيام العزيز وسائر أيام الحاكم ؛ ثم ولى الوزارة أحمد بن على الجرجاني في أيام الظاهر ، وما زال الوزراء من بعده واحداً بعد واحد^(٣) . ولم يكن جمهور الناس يفتن لهذا التمييز بين الوزير والوسيط أو السفير ؛ وكذلك نجسد يحيى بن سعيد مثلاً حوالى عام ٤٠٠ هـ - ١٠١٠ م يستعمل في كلامه لفظ الوزراء من غير تفرقة بين الوزير والسفير أو الوسيط .

ولم تكن مهنة الوزير إذا كان وزيراً لأحد أمراء الأطراف هى بعينها مهنة وزير الخلافة ؛ وقد لُقّب الوزير الفضل بن سهل ، وزير المأمون ، من بين وزراء الدولة الأولين بلقب ذى الرياستين ؛ وربما كان ذلك لأنه كان خبيراً بشؤون السيف والقلم^(٤) . ولكن الصفة الحربية للوزير لم تكن بارزة في ذلك العهد ، ولم يلبّ الوزارة قائدٌ خبير إلا الحسن بن محمد الذى تقلّد وزارة المعتضد ، وخُلِع

(١) حسن المحاضرة للسيوطى ، ج ٢ ، ص ١٢٩ ، نقلاً من ابن زولاق المتوفى

سنة ٣٨٧ هـ - ٩٩٨ م .

(٢) ترجمة فستقذلت المختصر صبح الأمتى : A.O.W. 1879 S. 165 ، وصبح الأمتى

طبعة دار الكتب ج ٣ ص ٤٨٧ .

(٣) الخطط لعقربرى ج ١ ص ٤٣٩ .

(٤) مزيّن ص ١٦٥ (٢) .

وكان غير كنفه الملك ، فاستوزر صاحب مطبخه^(١) في سنة ٣٦٢ هـ - ٩٧٣ م ، وهو الوزير ابن بَقِيَّة الذي كان « يقدم الطعام إليه » ، ويحمل الفضاير بيده ، ويتشع بمناديل الفمر ، ويدوق الألوان عند تقديمه إياها^(٢) ؛ واسكن ابن عمه ، وهو السلطان عضد الدولة ، قبض على أبي الفتح بن العميد وزير أبيه ، وكان ابن العميد قد أسرف في الاتصال بالعدو ، فسل عمليه وقطع أنفه^(٣) . وطلب من ابن عمه ، عز الدولة بن معز الدولة ، أن يسلم له ابن بَقِيَّة لأموار ساءته منه ، فسلم إليه مسمولا ؛ فأسر عضد الدولة بأن يُشهر في السكر على جمل ، ثم طُرِح إلى القَيْلة ، وأُضريت عليه ، فقتلته شر قتلة ؛ وصُلب على شاطئ دجلة^(٤) . وقد اجتاز أحد أصدقاء هذا الوزير النكود ، الذي ارتكب كثيراً من ضروب القسوة^(٥) ، فرأه بقصيدة طويلة جيدة منها :

ولما ضاق بطن الأرض عن أن يضمَّ عَلاك من بعد الوفاة
أصاروا الجوَّ قيرك واستعاضوا عن الأكفان ثوب السافيات^(٦)

(١) جاء في كتاب معاهد النعميس مخطوط رقم ٤٤١٦ بمكتبة باريس من ١٣٣٧ : « وكان الرئيس أبو الفضل والوزير أبو الفرج دخلا الديوان لعقوبة أصحاب الوزير المهلب عاب موته ، وأمر أن تلوث ثياب الناس بالنفط إن قربوا الباب ، وكان المهلب قد فعل مثل هذا » .

(٢) مكويه ج ٦ ص ٣٦١ - ٣٦٢ ، ٣٩٦ ؛ وابن الأثير ج ٨ ص ٢٦٢ ، وكان الناس يهزءون من ابن بَقِيَّة ويقولون : من الغضارة إلى الوزارة - التنظيم ص ١٠٤ ب .

(٣) ابن الأثير ج ٨ ص ٤٩٦ - ٤٩٧ .

(٤) مكويه ج ٦ ص ٤٧٧ ، ٤٨١ ، ويحيى بن حميد ص ١١٠٥ ، وابن الأثير ج ٨ ص ٥٠٧ .

(٥) انظر مثلاً مكويه ج ٦ ص ٤٥٢ .

(٦) ابن الأثير ج ٨ ص ٥٠٧ ، وأرى أنها السافيات لا السافيات وهو ما جاء أيضاً في نديم الأديب لأحمد حميد البغدادي ص ١٤٣ ؛ وعند ابن تترى بردى (طبعة كافورنا ص ٢٠) الدانحات .

وقد أحدث عضد الدولة في منصب الوزارة شبتين لم يكونا قبله ؛ أولهما أنه اتخذ وزيرين معاً ؛ والثاني أن أحد هذين الوزيرين ، وهو ابن منصور نصر بن هارون ، كان نصرانيا ؛ وقد أتى عضد الدولة نصرأ على بلاد فارس وطنه ، وأخذ الوزير الثاني ، وهو المطهر بن عبد الله معه إلى بغداد . وكان المطهر هذا معروفاً بشراسة وخبث في أخلاقه ؛ وكان سيئ الفكر ، فلما وجهه عضد الدولة إلى البطيحة لاستئصال القصوص منها ، والثالث عليه الأمر ، خشي انخفاض منزلته عند عضد الدولة وتغييره له ، وأشفق من تذرّع أعدائه بذلك لاطعن عليه وإظهار معايبه ، فاختر الموت على ذلك ؛ وأخذ سكيناً فقطع بها شرايين ذراعيه جيماً ، وسال دمه حتى مات^(١) . وكان الوزير الذي جاء بعده خليفة لنصر بن هارون الذي كان مقبلاً بفارس يدبّر أعمالها ، ولم يكن الوزيران على وفاق ، بل كان كل واحد يدبّر المكاييد لصاحبه^(٢) .

ولما جاء بهاء الدولة جرى على رسم أبيه فتمين ، وهو بشيراز ، وزيرين عام ٨٣٨٢ - ٩٩٢ م ، وجعل أحدهما مدبراً لأموال العراق^(٣) . ولما مات صاحب ابن عباد سنة ٨٣٨٤ - ٩٩٤ م ، بعد أن دبر أمور الوزارة بفارس أحسن تدبير ، وقعت مسامرة شائنة حول هذا المنصب ، وذلك أن أحد الولاة أرسل يخطب الوزارة ويضمن ثمانية آلاف ألف درهم ، فبذل الوزير الذي كان في الوزارة ، إذ ذاك ستة آلاف ألف درهم على إقراره في الوزارة ، فأشرك السلطان فخر الدولة بينهما في الوزارة ، وسامح كلا منهما بألف ألف درهم من جملة ما بذل ، وجمع بينهما

(١) مسكويه ج ٦ ص ٥١١ - ٥١٤ ؛ وبهي بن سعيد ص ١١٠٧ ؛ وابن الأثير

ج ٨ ص ٥١٠ .

(٢) مسكويه ج ٦ ص ٥١٠ ، وابن الأثير ج ٩ ص ٦٦ .

(٣) ابن الأثير ج ٩ ص ٦٧ .

في النظر ، ورتب أمرهما على أن يجلسا في دسنة واحدة ، ويكون التوقيع لهذا يوماً
والعلامة الآخر ؛ وكأنا يتقارعان على من يخرج لقيادة الجيوش ، ثم سمعت بينهما
الساعة ، ودير أحدهما للآخر فقتله ^(١) .

وأخيراً صار لوزير النصراني بالمشرق نظير في مصر ، ففي سنة ٣٨٠ هـ -
٩٩٠ م. قلد الخليفة الفاطمي الوزير بالله وزارته لعيسى بن نسطورس ^(٢) .

على أن الوزراء لم يبرءوا من الرغبة في الألقاب التي عظم أمرها حوالي عام
٤٠٠ هـ ، والتي تدل دلالة واضحة على تدهور المجتمع في ذلك العصر . وفي عام
٤١١ هـ - ١٠٢٠ م أكرم أمير بغداد وزيره ، فأمر بأن تضرب العبادب
أمام داره في أوقات الصلاة ، وهو ما كان يفرد به السلطان وحده ، وكذلك
لقبه بلقب وزير الوزراء ^(٣) ، وسرعان ما استعمل الخليفة الحاكم (التوفي عام
٤١١ هـ - ١٠٢٠ م) هذا اللقب الجديد الذي كان له أثر عظيم ، فلقب قطب
الدولة على بن جعفر بن فلاح وزير الوزراء ذا الرياسة - تين الأمير المظفر قطب
الدولة ^(٤) . أما الهلال الصابي المورخ (التوفي عام ٤٤٧ هـ - ١٠٥٥ م) ، فيعتبر
أن مخاطبة الملوك المدبرين لوزرائهم بأمثال هذا اللقب هي من انقلاب الرسوم
وتغير حقائق الأشياء ^(٥) . وفي سنة ٤١٦ هـ - ١٠٢٥ م خلع جلال الدولة
ببغداد على وزيره ولقبه علم الدين سعد الدولة ، أمين الله ، شرف الملك ؛ فكان
هذا الوزير أول من لقب بالألقاب الكثيرة ^(٦) . وهذه الحالة تشبه ما عليه الشرق

(١) الإرشاد ليالوت ج ١ ص ٧١ وما يليها .

(٢) يحيى بن سعيد ص ١١٢ ، وكان عيسى بن نسطورس مخاطب ببغداد الأجل .

(٣) المتظم ص ١٦٨ - ب (١) .

(٤) يحيى بن سعيد ص ١٢٨ .

(٥) كتاب الوزراء ص ١٥٠ .

اليوم ، وإذا قارنا بين الوزير في ذلك العصر بما صار يحمله من ألقاب وبين سلفه من لم تكن لهم ألقاب لوجدنا أنه بالنسبة لهم لم يكن له شيء من القوة والسلطان .

الوزراء في القرن الرابع الهجري

نسبداً بالكلام عن علي بن الفرات ، وهو الذي خلف أخاه العباس في منصب الوزارة عام ٢٩٦ هـ — ٩٠٩ م . وكان علي حين تقلد الوزارة في الخامسة والخمسين من العمر . وكان وزيراً واسع الثروة حتى يقول المصولي : « وما سمعنا بوزير جلس في الوزارة ، وهو يملك من العنّ والورق والضياع والأثاث ما يحيط بعشرة آلاف ألف غير ابن الفرات » ^(١) . وقد ظهر في منصبه بظاهر الفخامة التامة ، فكان يُجرى على خمسة آلاف إنسان ما بين مائة دينار في الشهر إلى خمسة دراهم ، وكان يطلق الأشـمراء في كل سنة من سني وزارته عشرين ألف درهم رستمًا لهم ، سوى ما يصلهم به متفرقاً ، وعند مدبجهم إياه ، وكانت فيمن يُدعى إلى طعامه كل يوم تسعة كتب ، ثم خاصة كتابه ، وكان منهم أربعة نصاري . وكانت ألوان الطعام توضع وترفع على مائدة أكثر من ساعتين ، وكان له في داره مطبخان : مطبخ الخاصة ، ولا يمكن أن يُحصى ما كان يدخله من الحيوان لكثرته ؛ ومطبخ العامة الذي يختص بما يُقدّم إلى الحجاب المقيمين بالدار ويُفرّق منه للرجالة والبوابين وأصاغر الكتاب وغلمان أصحاب الدواوين ، وكان يُقدّم إلى هذا المطبخ كل يوم تسعون رأساً من الغنم ، وثلاثون جدياً ، ومائتا قطعة دجاجاً سمناً ، وفراريج مصدرة ، ومائة قطعة درّاجاً ، ومائتا قطعة فراخاً ؛ وهناك خبازون يخبزون الخبز إيلاً ونهاراً ،

(١) مريب ص ٢٧ .

وقوم يعملون الخلاء عملاً متصلاً ، ودار كبيرة للشراب ، وفيها ماذيان يحمل فيها الماء المبرد ، ويسقى منه جميع من يريد الشرب من الرحالة والفرسان والأعوان والخزائن ، ومن يجرى مجرام من الأنباع والعلماء ؛ وكان بالدار منقولات فيها الماء الشديد البرد . ويرسم خزانة الشراب خدماً نظاف عليهم النياب الديقية السرية ، وفي يد كل واحد منهم قدح فيه سكينجيين أو جلاب ونحوض وكوز ماء ، ومنديل من مناديل الشراب نظيف ، فلا يتركون أحداً ممن يحضر الدار من القواد والخدم السلطانيين والكتاب والعمال إلا جهرضوا ذلك عليه^(١) . وكانت داره مدينة بذاتها ، حتى كان بها فوجان من الخياطين^(٢) . وكان في جانب الدار أدراج كثيرة لأصحاب الحوائج والمتظلمين ، حتى لا يلتزم أحد منهم مؤونة لما يبتاعه من ذلك^(٣) ؛ ولما خلع على هذا الوزير خِاع الوزارة زاد في ذلك اليوم ثمن الشمع قيراطاً في كل من ، وزاد سعر القراطيس لكثرة استماله لها ، ولأنه كان من رسمه ألا يخرج أحد من داره وقت العشاء إلا ومعه شمة منوية ودرج منصوري . وقد سُقي في داره في ذلك اليوم واليلة أربعون ألف رطل ثلجاً^(٤) ، وجرى رسمه مدة وزارته أن يُعطى كل من يخرج من داره عند اصفرار الشمس شمة^(٥) . وفي عام ٣١١ هـ - ٩٢٣ م اتخذ ابن القرات مارسقانا ببغداد ، وكان ينفق عليه مائتي دينار من ماله في كل شهر^(٦) وكان هذا الوزير يحمل بين جنبيه

(١) كتاب الوزراء من ١٤٢ ، ٢٠١ ، ٢٤٠ ، ١٩١ - ١٩٥ .

(٢) كتاب الوزراء من ١٧٦ .

(٣) نفس المصدر من ١٩٥ .

(٤) نفس المصدر من ٦٣ .

(٥) نفس المصدر من ١٤٢ ؛ وقد أساء مترجم كتاب عهد المنصور لثعاللي فهم بعض هذه النصوص ، انظر ZDMG VI. 50 ، وانظر أيضاً كتاب آثار القلوب في المضاف والمنسوب لثعاللي طبعة القاهرة ١٣٢٦ هـ - ١٩٠٨ م ص ١٦٩ [المترجم] .

(٦) المعظم من ٢٣ ب

نفساً كبيرة ، فخلد قُدِّمَتْ إليه جراند بأسماء من يصاديه ، ويدبر في زوال أمره ،
 فلم يفتح الصناديق التي كانت فيها ، وأحرقها وقال لمن كان حاضراً : والله لو فتحتها
 وقرأت ما فيها أقسدت نيتُ الناس كلَّهم علينا ، واستشعروا الخوف منا ومع
 فعلنا ما فعلناه طويلاً الأمور بهذا ، فهدأت القلوب وأطمأنت النفوس ^(١) . ولما سد
 أمره عند المقتدر وتألب عليه الجميع أشار عليه بعض المشيرين أن يقسط على نفسه
 وكتابه وعمله ما يحمله للخليفة ، فيرضى عنه ، فقال : « فأى شيء أقبح بي ، مع
 علو همي ، وكثرة نعمتي ، من أن أنشيء أصحاباً وعملاً ، يكون بولايتي ،
 ويُشكِّبون بشكبي ، ويتصرفون بتصرفي ، ويتمطلون بطلاتي ، ثم أزيل عنهم
 وأحوالهم بيدى وفي آيى : القتل والله أهون من ذلك » ^(٢) .

وحكى أن رجلاً اتصلت عُطْلَتُهُ ، وانقطعت مادته ؛ فحمل نفسه على أن
 زور كتاباً من أبي الحسن بن الفرات إلى عامل مصر للوصاية به والإحسان إليه ،
 فارتاب العامل بالخطاب وارتبط الرجل عنده على وعد ، وأنفذ الكتاب إلى ابن
 الفرات ؛ ورأى ابن الفرات أن يستشير كتابه ، فأشار بعضهم بالتأديب أو بقطع
 إسهامه أو بكشف قصته للعامل حتى يطرده ويحرقه ، فقال ابن الفرات : « ما أهدمكم
 من الخيرية ارجل توشل بنا ، وتحمل المشقة إلى مصر في تأميل الصلاح بمجاهتنا ،
 وتعداد صنع الله ورزقه بالانتساب إلينا ، تكون أحسن أحواله عند أجلكم
 محضراً تكديبُ ظنه وتخيبُ سعيه ؛ والله لا كان هذا أبداً » ؛ ثم أخذ القلم ووقع
 بخطه على ظهر الكتاب المزور بوصى به ، ويقول إن الكتاب كتابه ^(٣) .

(١) كتاب الوزراء من ١١٩ ، ومعنى مثل هذا عن المأمون (انتهى ج ٢

س ١٠٧١) .

(٢) كتاب الوزراء من ٩٧ — ٩٨ .

(٣) نفس المصدر من ١١٣ ؛ والنظم من ١٢٨ — ١٢٩ .

ولما نُكِبَ الوزير على بن عيسى وتذلل لاسن الفرات حتى قبّل يده وقام
لابنه المحسن ، وكان ابن عشر سنين ، قال ابن الفرات بعد انصراف علي : رأيتم
تطامن علي بن عيسى للنكبة واستعانتها عليها بالاستعطف والتدلل ، وهذه طريقة
لا أحسنها ، لأن كبدى في الحن كأ كباد الإبل ، لا جرم أنها تزداد
وتتضاعف^(١) . وقد أ كسبته الخدمة الطويلة خبرة بشؤون الوزارة وإدارة
الدولة ؛ وقد استطاع أن يسيطر على حياة الدولة الاقتصادية المنشعبة سيطرة
كاملة ، حتى استحق من وجوه كثيرة أن يقول علي بن عيسى لما كُذِبَ عليه
بموت ابن الفرات : اليوم ماتت الكتابة^(٢) . ومن حكمه السياسية القاسية
قوله : أصل أمور السلطان مخوفة ، فإذا تمت واستحكمت صارت سياسة ، وقوله :
تمشية أمور السلطان على الخطأ خير من وقوفها عند الصواب ؛ وكان يقول :
إذا كانت لك حاجة إلى الوزير . فاستطعت أن تقضيها بخازن الديوان أو كاتب
سره فافعل ولا تبلغ إليه فيها^(٣) .

على أنه لم يتحرج ولم يتهيب من مد يده إلى خزانة الدولة ؛ بل أضاف هو
وأخوه كثيراً من ضياع السلطان إلى أملاكهما ، وعظم دخلهما ؛ وقد وجد أعداؤه
من الطعن فيه أنه لما صودر وُجد في ودائمه ما هو مختم بمحتم أبي خراسان
حازن المعتضد على بيت مال القلعة ، ووُجد عنده مال أكثره محمول من بيت مال
الخاصة^(٤) . قال أبو علي بن مقلة كاتب ابن الفرات ، وقد جرى ذكر هذا الوزير :
يا قوم ! هل سمعتم عن سرق في عشر خطوات سبعمائة ألف دينار ؟ قلنا : كيف

(١) الوزراء من ٣٠٦ / ٣٠٧ .

(٢) نفس المصدر من ٢٨٣ .

(٣) كتاب الوزراء من ٦٤ / ١١٩ .

(٤) نفس المصدر من ١٣٣ - ١٣٤ ، ١٣٩ .

ذلك ؟ قال كنت بين يدي ابن القرات في وزارته الأولى ، ونحن في دار الخلافة
 نقرر أوزاق الجيش ، ونقيم وجوه مال البيعة ونرتب إطلاقه ، وذلك عقيب فتنة
 ابن المنذر ؛ فلما فرغ مما أراد خرج وركب عليّاره ، وبلغ نهر المدلى ، فقال :
 إنا لله إنا لله اتقوا فوقف الملاحون ؛ فقال لي : وقع إلى أبي خرا ان صاحب
 بيت المال يحمل سبعة ألف دينار تُضاف إلى مال البيعة ، وتُفرق على الرجال ،
 فقلت في نفسي : أليس قد وجهنا وجوه المال كله ؟ ما هذه الزيادة ووقعت
 بمارسه ، وعلم فيه بخطه ، ودفعه إلى غلام ، وقال : لا تنزع من بيت المال حتى
 تحمل هذا المال الساعة إلى دارى ، ثم سار ؛ (قال) فحمل المال بأسره ، وسلم
 إلى خازنه ، فعلمت أنه أنسى أن يأخذ شيئاً لنفسه في الوسط ، ثم ذكر أنه باب
 لا ينفق مثله سريعاً ، ويحتفل ما احتمله من هذا الاقتطاع الكثير ، فاستدرك
 من رأيه ما استدرك^(١) .

وكان الوزير على بن عيسى زميل ابن القرات من قبل ومنافسه من بعد بخالفه
 مخالفة تامة . وينتسب على بن عيسى إلى أسرة قديمة من الكتاب^(٢) ؛ قال
 معاصره الصولى : ولا أعلم أنه وزير لبنى العباس وزير يشبهه في زهده وتمثّده ؛
 فقد كان يصوم نهاره ويقوم ليله^(٣) . وكان يخرج نصف ما يرتفع له في السنة في
 أبواب البر وسبل الخير^(٤) ؛ وكان متهاوناً قليل المبالاة حتى إنه لم يستطع أن
 يغير طبعه في كلامه عند مخاطبة الخليفة ، وذلك على عكس ابن القرات ،

(١) نفس المصدر ص ١١٧ .

(٢) الطائفة ص ٧٦ ب .

(٣) حسن المحاضرة للسيوطي ج ٢ ص ١٢٦ .

(٤) كتاب الوزراء ص ٣٢٢ — ٣٢٣ .

بما أحفظ الخليفة عليه^(١) . وقد طلب الأخفش «عموى» (المتوفى عام ٣١٥ هـ) من علي بن عيسى أن يجرى عليه زرقاً ، ووسط في ذلك أبا عني بن مقلة ، فاستهره علي بن عيسى استهارة شديداً في مجلس حافل ، فشق ذلك على ابن مقلة ، وقام من مجلسه « وقد اسودت الدنيا في عينيه » ؛ ووقف الأخفش على الصورة فاقتم ، وقيل إنه قبض على قلبه فمات^(٢) . وكان علي بن عيسى متمسكاً بالوقار ، ولا يروى قط متبذلاً ، ولا كان يفارق الخف في أكثر أوقاته إلا إذا أوى إلى فراشه أو قعد مع حُرِّمه^(٣) . وكان يشتغل بالنظر في أمور الدولة ليله ونهاره^(٤) . وكان يجعل وراءه كل باب مسورة ، ويُتَبَّل عليها سراً طويلاً ينطَّيها ، فإذا جلس بعد عمله الكثير في أخريات النهار مجلساً حافلاً ألصق بها ظهرة لثلاث يشاهد مستنداً تمسكاً بالوقار^(٥) . وقد رأينا فيما تقدم ما أصابه من القلة والاستكانة بعد عزله من الوزارة ، وكان لتدنيته ووزعه يلوم ابن القرات على تقليده ديوان جيش المسلمين لرجل نصراني^(٦) : وقد تخرج من تقليد أبقائه الأعمال مدة وزارته^(٧) ، وحاول أن يتدارك العجز في بيت المال بالاعتصاف في الأمور الصغيرة ، فأنقص أرزاق العمال والجند ، وأسقط ما كان يُفرَّق على القواد والفرسان في كل عيد ؛ وكان ذلك من شاة إلى عدة بهران ؛ وحاول أن يمنع من امتداد الأيدي إلى الأموال العامة . ولكن ابن القرات شنع عليه بقوله :

(١) نفس المصدر ص ٣٣٢ — ٣٣٤ .

(٢) الإرشاد لياقوت ج ٥ ص ٢٢٤ — ٢٢٥ .

(٣) كتاب الوزراء ص ٣٢٥ .

(٤) مرئب ص ١٣٠ .

(٥) الوزراء ص ٩٥ ، واسكن يقال إنه كان له شبرون من الصاري Barhebr.

Chron. Eccles. III 241 .

(٦) كتاب الوزراء ص ٢٦٦ (١) .

بأبى الحسن علي بن عيسى اشعلت نفسك بأخلاق المملكة والنظر في علوفة البط والحطيطة من أرزاق الناس ، وما يجرى هذا الجرى من الصغار المستهجنات ؛ أومارة يندري واحد أصلح للسلطان وأغود عليه من توفيرك ما تقرت به إليه . وكان يوفر من الأشياء الصغيرة ويحكى أنه قضى مرة ساعة ينظر في علوفة البط حتى إن المتولى السكيل العلوفة سأل كاتبه عن رزقه في الشهر ، ووجد أنه يتقاضى عن الساعة عشرين ديناراً ، فقال : « قد نظر الوزير في أكثر من ساعة لتوفير ما لا يبلغ ما استحقه من الرزق » .

ولكن علي بن عيسى مع تقواه هذه وتدقيقه في الأمور الصغيرة لم يصدق الخليفة حينما رآه ليقر بما عنده من أموال ؛ فكتب يذكر أنه لا يقدر على أكثر من ثلاثة آلاف دينار ، هذا وقد وجد له بعد ذلك عند رجل سبعة عشر ألف دينار . ولما ضيقوا عليه استجاب أخيراً إلى دفع ثلاثمائة ألف دينار ، يُعجل منها الثلث في ثلاثين يوماً ، ويؤدى الباقي على رسم المصادرات ^(١) . وكان علي بن عيسى يبيع أبا عبد الله البريدى لأنه حلف للسلطان أن استقلال ضيعته عشرة آلاف دينار ، وهو في الحقيقة ثلاثون ألفاً ، فقال البريدى إنه اقتدى بعلی ابن عيسى حيث حلف لابن القرات أن ارتفاع ضيعته عشرون ألفاً ، فوجد بعد ذلك خمسين ألفاً ، فسكأنه أقم علي بن عيسى حجراً ^(٢) . فلم يكن هذا الوزير نقي اليد تماماً ، وقد فرط في تضمين الشام ومصر ، وترك مالا معجلاً إلى مال مؤجل لا يدري ما يجرى فيه ، وقد واجهه خصومه بذلك ، فلم يستطع أن يبرر هذا التصرف ^(٣) .

(١) كتاب الورود من ٢٦٠ ، ٢٨٨ ، ٢٩١ ، ٢٩٥ ، ٣٠١ .

(٢) مسكوك ج ٥ من ١١٧ — ١١٨ .

(٣) كتاب الورود من ٢٩٠ .

وقد ولي أبو علي محمد بن عبيد الله الخاقاني الوزارة مدة سنتين ، وذلك بين
وزارة ابن الفرات وعلي بن عيسى . وكان الخاقاني هذا ابن وزير ، وهو ينسب إلى
أسرة من الأشراف المتصلين بالخلافة . ويذكرنا ما سجله التاريخ من أسره بكثير
من الديمقراطيّين الذين يفتحون صدورهم لقامة : كان الخاقاني متعلّقا عاميا ، إلا أنه
كان خبيثا داهيا^(١) ؛ فقد كان يوقع بكل سؤال ، ويمدُّ بإفناذ كل محال ، وكان
من عادته إذا سُئل حاجة أن يذق صدره بيده ، ويقول : نعم وكرامة ، حتى أُفِّبَ
« دق صدره » ؛ وبلغ من لين المربكة وقلة البصيرة وعدم تصور عواقب الأمور ،
وهدم المنع من شيء بمخاطب فيه أن انبسطت العامة عليه فضلا عن الخاصة^(٢) .
وقد صوّرت شخصيته وأحيطت بحكايات مضحكة قيلت عن غيره ، وهي تدل
على قلة الأذى أحيانا وعلى سوء السريرة أحيانا أخرى ؛ وكانت طريقته كثرة
التولية والتمزق ، فكان يعين في المنصب الواحد رجالا كثيرين واحدا بعد واحد ،
ولم يكن ذلك عن قلة تقدير للمسئولية ، بل لباأحذ من كل منهم رشوة^(٣) . ويمكن
أنه اجتمع في خان واحد بمدينة حلوان (بالمراق) سبعة أنفس ، وقد قدّ الخاقاني
كل واحد منهم مائة الكوفة في عشرين يوما ؛ واجتمع بالموصل خبة آخرون
قد قدّم منصباً آخر ، وهناك نشاكوا ما بذلوه عن تقليد^(٤) . ويذكر أن
الخاباني قدّ عمالة بادوريا في أحد عشر شهرا أحد عشر عاملا^(٥) .

وإذن فقد تقلّد منصب الوزارة في أوائل القرن الرابع وزراء ثلاثة يختلف

(١) نفس المصدر ص ٢٨٠ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٦٣ ، ٢٧٦ .

(٣) ذكر صاحب الفخرى (ص ٣١٣) ما فعله الشراء المأمرون عصابة الخاقاني

(٤) الفخرى ص ٣١٣ - ٣١٤ ، وكتاب الوزراء ص ٢٦٣ . ويذكر صاحب

الفخرى أن لتولية كانت الكوفة ، وهي الناحية التي كانت تدعى عند الفرس ماء الكوفة .

(٥) مرث ص ٣٩ .

أحدم عن صاحبه كل الاختلاف ، ولا يجمع بينهم إلا حصلة واحدة هي الخيانة
التي بها انتهوا خزنة الدولة .

أما حامد بن العباس^(١) الذي ولى الوزارة عام ٨٣٠٦ - ٩١٨م فقد كان
على خلاف غيره من الوزراء ؛ لأنه لم يتخرج في الدواوين ، بل بدأ حياته
بالاشتغال في أمور التجارة والمال وضمان الخراج ، حتى عظم شأنه ؛ ولما ولى الوزارة
وكان في الثمانين من عمره ، واحتفظ بما كان بيده من ضمانات ؛ ولم يكن يعرف
شيئاً من أمور الكتابة ، ولم يكن نصيبه من الوزارة إلا الأقب والخامعة ، وكان
المدير للأموال على بن عيسى الذي كان وزيراً من قبل ، وقد قال ابن بسام الشاعر
مستهزئاً بحامد بن العباس^(٢) :

يا ابن القرات تمـيزه قد صار أسرك آبه

لما عزت حصاناً على وزير بدايه

وقد قيل فيهما : « هذا وزير بلاد سواد ؛ وذا سواد بلا وزير » . ولما سأل
حامد بن العباس الخليفة المقتدر إطلاقاً على بن عيسى والإذن له في استخلافه في
الدواوين لقلة خبرة حامد بالوزارة ، قال المقتدر : ما أحسب أن على بن عيسى
يحبب إلى ذلك ، ويرضى بأن يكون تابعاً بعد أن كان رئيساً ، فقال حامد بحضرة
الناس : إنما مثل السكاك كمثل الخياط ، يخبط ثوباً بمشر دراحم ، ويخبط ثوباً
فيمنه ألف دينار ؛ فضحك الناس منه واستنقصوه^(٣) . ولما ناظر حامد بن العباس

(١) محمد الفارسي ترجمه مختصرة له في المقدمة الإنجليزية لسكتات الورراء ص ١٨

ص ١٨ رقم ١ .

(٢) الإرشاد لياقوت ج ٥ ص ٣٢٥ .

(٣) كتاب الميوس ص ١٩٤ ، ت .

ابن القرات بعد عزله ألخس له في القول فقال له ابن القرات : ليس ما أنت فيه
يُؤدّرنا نفسه ، وأستغرا تشتمه وتخلق لحيته وتضربه ، وعاملا تذبح دابته وتعلق
رأسها في عنقه ، فإنما هذه الدار دار خايقة^(١) . وقد أظهر من الأنبهة ما يظهره
ذرو المجد الحديث لا المؤثر ! فساكن له ألف وسبعمائة حاجب وأربعمائة مملوك
يحملون السلاح ، لكل واحد منهم مائيك ؛ وكان الملاحون في حراقة من
الخصيان البيض ، وهم أغلى الخصيان ثمناً^(٢) . وقد جرى بينه وبين مفلح الأسود
كلامٌ مرّة ، فقال له حامد : « لقد عممت . أن اشترى مائة خادم أسود واسمهم
مفلحاً وأهمهم افلماني »^(٣) . وكان ظاهر المروءة كثير العطاء ؛ فيضحكى أن أحد
خدمه المقندر شكاً إليه فناء شميره ، فكسب له بمائة كرز من الشمير ؛ وكان ينفق
على الطعام كل يوم مائتي دينار ، ولا يسمع بأن يخرج من الدار أحد من الجلالة
والحاشية والعامّة وغيرهم ، إذا حضر الطعام ، إلا أن يأكل ، حتى غلمان الناس ،
وز بما نُصب في داره في اليوم الواحد أربعون مائدة . وقد أهدى إلى المقندر بستاناً
أنفق على بنائه مائة ألف دينار ؛ ويحكى أنه ركب يوماً إلى بستان له ، فرأى
في طريقه داراً محترقة وشيخاً يبكي ، وحوله صبيان ونساء على مثل حاله ؛ فلما
عرف أن داره قد احترقت وأنه افتقر تألم قلبه ، وتنصّعت عليه الزهدة بسبب
ذلك ، ولم تسمح له نفسه بالتوجه إلى بستانه إلا بعد أن أمر أن تُبنى الدار
كما كانت ، وتوضع فيها الفراش وكل ما كان فيها ، حتى إذا عاد العشيّة من
الزهدة وجد الشيخ وعياله كما كانوا ، وقد بُنيت الدارُ على أحسن مما كانت ،

(١) كتاب الوزراء ص ٩٢ ، كتاب العيون ص ١٩٥ .

(٢) المتظم ص ١٢٥ ، ب .

(٣) ابن الأثير ج ٨ ص ١٠٢ .

وأبقى في ذلك مال كثير^(١) واسكن حامد بن العباس لم يتورع من خزن الخبواب في العراق وخوزستان وأصفهان ، بعد أن كان قد ضمن هذه البلاد بمال يدفعه للخليفة ، حتى ارتفعت الأسعار ، وأدّى ذلك إلى اضطراب العامة ونورتهم عليه حتى فسّخ الضمان^(٢) .

أما الوزير ابن مقلة (ولد في بغداد عام ٢٧٢ هـ - ٨٨٥ م) فقد نشأ من بيت متواضع^(٣) ؛ وتقلّد الوزارة ، وهو في الستين من العمر ، وكان ممن اشتغل بين يدي ابن القرات وارتفع بسببه^(٤) . وقد تعلم منه الشيء الكثير ، ومن ذلك أنه استطاع أن يجمع كثيراً من المال في سنين قليلة ؛ ووزر ثلاثة خلفاء في أوائل القرن الرابع ، وبني لنفسه داراً عظيمة في بقعة من أحسن بقاع مدينة السلام . وكان يعتقد بالنجوم ، فجمع المنجمين ، حتى اختاروا له وقت البناء ، فوضع أساس الدار بين المغرب والمساء ، وكان له بستان كبير أنشأه بلا نخل ، وعمل له شبكه ابريسم ، وكانت تفرخ فيه الطيور التي لا تفرخ إلا في الشجر كالتقاري والدبابي والمزار والبيج والبلابل والعاواويس ؛ وكان فيه من الفزال والبقر البدرية والنعام والإبل وحمر الوحش . وكان يحاول أن يجرب التزاوج بين الحيوان ، ويُبشّر

(١) للتنظيم من ١١٩٩ ، ١٢٥٤ ، ب ؛ ١٢٦٩ .

(٢) من المصدر من ١١٨ .

(٣) كان بين جعظة الشاعر وبين ابن مقلة صداقة قبل الوزارة ، فلما استوزر استأذن

عليه جعظة ، فلم يؤذن له ، فقال :

فلل وزير أدّام الله دولته أذكر صادق والخبر خشكار

إد ليس بالباب سردون أبو ذكرو ولا تار ولا في الشط صركار

(٤) من ٦٤١ ب .

(٥) كتاب الحيوان من ١٢٣٠ ، ١٢٣١ ، ١٢٣٢ .

مرة بأن طائراً بحرياً وقع على طائر برقي ، فأزوجا وباضا وأفقسا ، فأعطى سن بشر بذلك مائة دينار^(١) .

وكان ابن مقله صاحب مؤامرات ، جريئاً في ذلك ؛ ويثمه المؤرخون بالإيقاع بين القاهرة (٣٢٢ هـ - ٩٣٤ م) وجنده ، وبأنه شحذ نياتهم ، وجمع كلمتهم على قصد القاهرة والفتك به^(٢) . وقد سعى عند يحكم وعند الخليفة الراضى على ابن رائق الذى كان في ذلك الحين قابضاً على زمام الأمور ببغداد ؛ ذلك لأن ابن رائق لما صار إليه تدبير الملكة قبضهم على ضياع ابن مقله^(٣) . ولكن الخليفة احتال حتى قبض عليه وسلمه لابن رائق ، وذلك على الرغم من أنه استشار المنجمين في اختيار وقت لقاء الخليفة^(٤) . واستقر الأمر على معاقبته بقطع يده اليمنى^(٥) ؛ ومن نكد الدنيا ، كما يقول الثعالبي ، أن مثل هذه اليد النفيسة تُقطع ؛ لأن خطأ ابن مقله كان من أحسن خطوط الدنيا ، وهو أكبر مؤسس للكتابة الحديثة التي ظلت مستعملة طول القرن الرابع الهجري^(٦) . على أن ابن مقله بدلاً من أن يكتب بيده اليسرى كان يشد القلم على ساعده الأيمن ويكتب^(٧) ؛ غير أنه ، رغم ما حل به ، واصل سعياته ودسائسه غير راجع عن ذلك ، فقطع لسانه بعد ثلاث سنين ، وبقي في الحبس مدة طويلة ، حتى مات .

(١) المنتظم ص ٢٦٤ - ب .

(٢) مسكويه ج ٥ ص ٤٤٧ - ٤٤٨ .

(٣) كتاب الميون ص ١٥٧ ب .

(٤) نفس المصدر ص ١٥٩ ب .

(٥) نفس المصدر ص ١٦١ ب ، ١٦٢ ب ، وقد وصف الطائيب ثابت بن سنان

حال الذراع بعد قطعها ، انظر مسكويه ج ٥ ص ٥٨١ - ٥٨٢ .

(٦) كان في خزنة كتب عضد الدولة بشار مصحح بخط أبي علي بن مقله في ثلاثين

جزءاً مجلداً - الإرشاد ليالوت ج ٥ ص ٤٤٦ ، وانظر تمار القلوب للثعالبي ص ١٦٧ .

(٧) كتاب الميون ص ١٦٢ ب - ١٦٣ .

وقد وصف المؤرخون حال هذا الرجل في آخر أيامه ، بمد القوة وحياة الأبهة ؛
فَقَالَ، إنه كان لا يحد من يخدمه ، حتى كان يستقي الماء بنفسه من البئر ، فيجذب
حبل الدلو بيده اليسرى ثم يمسكه بفيه ^(١) .

ومن وزراء القرن الرابع أبو العباس الخصبى ؛ وكان يواصل شرب النبيذ
بالليل والنوم بالنهار في أيام وزارته كلها ؛ وكان ينتبه مخموراً لا فضل فيه للعمل ،
فيترك فض السكتب الواردة من عمال الخراج وقراءتها والتوقيع عليها وإخراجها ،
إلى الدواوين . وكانت تعمل له جوامع مختصرة لما يرد من السكتب المهمة ،
فتعرض عليه إذا اتبه ، فربما قرأها ، وربما لم يقرأها ، فيقرأها أبو الفرج لإسرائيل
النصارى ، ويوقع فيها بحسب ما يرى ^(٢) . وكان الخصبى مشغولاً بالشراب
والعب ، ولا يحسن شيئاً غير المضادرات ^(٣) .

وقد تولى الوزارة حوالى منتصف القرن الرابع أبو محمد الحسن للهلبى ، فكان
وزيراً إذا كفاية عظيمة ؛ وأصله من آل المهلب بن أبي صفرة ^(٤) ، فهو إذن من سادة
الإسلام الأولين ، وكان وطن المهالبة بالبصرة ، حيث اتخذوا في القرن الثالث
المجرى دوراً عظيمة عُرفت بحسبها ^(٥) . وكان أبو محمد الهلبى ، قبل الوزارة ،
في شدة عظيمة ؛ وسافر مرة ، وهو على تلك الحالة ، فلقى في سفره عنتاً شديداً ،
واشتهى اللحم فلم يقدر عليه ، وأنشد في ذلك الوقت شعراً تبرم فيه بالحياة وتمنى

(١) نفس المصدر ص ١٦٣ .

(٢) مسكويه ج ٥ ص ٢٤٤ — ٢٤٥ . وكان اسم إسرائيل من أسماء النصارى
التي اختصوا بها .

(٣) نفس المصدر ص ٢٤٧ .

(٤) بقية الدهرج ٢ ص ٨ .

أن يجد أحداً يبيع له الموت فيشتريه ؛ وسمعه رفيق له ، فاشترى له لحماً بدرهم ، وأطعمه ، ونفارقا . ثم تنقلت الأحوال بالمهاجي وتولى الوزارة ، وضاق الحال برفيقه الذي اشترى له اللحم ، وبلغه أنه تقلد الوزارة ، فقصده ، وأنشده شعراً ذكره فيه بعهده به ؛ فهزت المهاجي أريجحة الكرم ، وأمر له بسبعمائة درهم ، وألده عملاً يرتفق منه ^(١) . وفي عام ٢٣٤ هـ - ٩٤٦ م ، وهو العام التاريخي المشهور ، استولى المهاجي على بغداد إلى أن ورد لها معز الدولة ^(٢) . وبعد المهاجي قبل ذلك أي في عام ٢٢٦ هـ - ٩٣٨ م وكيلاً لأبي زكريا السوسي ، وكان السوسي هذا من كبار رجال المال ^(٣) ؛ ثم استخلفه الوزير أبو جعفر الصيمري على الأمور بمدينة السلام ، وأتابه بعد ذلك بحضرة معز الدولة ، فحسن موقعه عند معز الدولة ومال إليه وقرّبه ؛ فاشتد ذلك على الصيمري ، فتطلب للمهاجي الذنوب ، وأطلق فيه لسانه بالوقيعة ^(٤) . ولما مات الوزير في سنة ٢٣٩ هـ = ٩٥٠ م استكتبه معز الدولة وآثره على جميع الكتّاب ^(٥) ؛ ولم يخاطب بالوزارة إلا في سنة ٢٤٥ هـ ^(٦) . وكان الأصفهاني صاحب الأغاني منقطعاً إلى الوزير المهاجي ، كثير المدح له ؛ وهو يصفه بأن له نظماً كالمرز وثراً رقيقاً وقدرة على التعبير عن المعنى الكثير باللفظ القليل ^(٧) ؛ ولكن المهاجي كان إلى جانب هذا قائداً محسناً ، فمن ذلك أنه هزم صاحب عمان حينما غزا البصرة وغنم منه وأسر ^(٨) . ولقد مات

(١) ثمرة الأوراق العنوي ، على هامش محاضرات الأدباء ج ١ ص ٨٢ .

(٢) مسكويه ج ٦ ص ١٢١ .

(٣) قس المصدر ج ٥ ص ٥٧٥ .

(٤) الإرشاد لبافوت ج ٣ ص ١٨٠ .

(٥) مسكويه ج ٦ ص ١٦٥ .

(٦) قس المصدر ص ٢١٤ .

(٧) النبذة ج ٢ ص ٢٧٨ - ٢٧٩ .

(٨) مسكويه ج ٦ ص ١٩٠ .

عام ١٣٥٢ هـ - ٩٦٣ م وهو خارج لفتح عمان ، وذلك بعد أن لبث في الوزارة أكثر من ثلاث عشرة سنة كان فيها يدير أموراً كبير ديوان في الدولة^(١) ؛ وكان مخلصاً في المحافظة على العظم ، فرداً رسوم الضرائب إلى ما كانت عليه قبل ظلم البريديين^(٢) ؛ وكانت يؤدب العائنين ، فن ذلك أنه قبض على حاجب قاضي القضاة وضربه ضرباً القتل ، وكان يبلغه أن هذا الرجل عاهر يتعرض لحرم الناس ممن لمن خصومة أو حاجة عند قاضي القضاة^(٣) ؛ ولكن المهلب كان يفعل في بعض الأحيان ما يثير سخطنا ، ومن أمثلة ذلك أنه تمقّب أحد العمال ، وأخذ في التفتيش من أمواله وفي إرهاب غلمانه حتى ظفر بالمال الكثير ، واستعمل الدهاء والسكر والبطش في بلوغ ذلك ، وإن كان ليس في هذا ما يشين عند خلفاء ذلك العهد وأسرانه ، حتى إن مكوييه يذكر صنيع المهلب ممجّباً بذكائه وصدق تخمينه ورضاء معز الدولة عنه^(٤) ؛ بل يجد أن المهلب نفسه لم يسل من مثل هذا التصير ؛ فلما مات قبض معز الدولة على عياله وولده ومن دخل إليه يوماً واحداً ، حتى الملاحين والسكران الذين كانوا يخدمون حاشيته ، وصادهم جميعاً ، وفعل بهم ما لا يُفعل إلا بصدور مكاشف ، حتى استقطع الناس ذلك واستبقوه^(٥) ؛ وكان المهلب يمد من سيده أميراً تاسياً ، فكان يلحقه منه أذى كثير ، حتى لقد ضربه بالمقارع مرة مائة وخمسين مفرقة^(٦) . ولم يكن على وفاق

(١) نفس المصدر ج ٦ ص ٢٥٧ - ٢٥٨ .

(٢) نفس المصدر ص ١٦٩ .

(٣) مكوييه ج ٦ ص ٢٤٣ - ٢٤٤ .

(٤) نفس المصدر ص ٢٤٧ - ٢٤٨ .

(٥) نفس المصدر ص ٢٥٨ .

(٦) انظر ما تقدم عند الكلام عن معز الدولة في الفصل الخامس بالأسماء .

مع سبكتكين القائد التركي الذي كان أكبر ثقات معز الدولة^(١)؛ ولكن المهلبى كان له على معز الدولة سلطانٌ في الأمور الهامة ، فلما أراد الأمير أن يترك بغداد لم يزل المهلبى به حتى صرفه عن رأيه ، فابتنى قصره العظيم ببغداد وبقى بها^(٢) . وكان ندماء المهلبى أعيان الفضل وسادة ذوى العقل^(٣) ، من أهل الأدب والمعلم ؛ وكانوا يجتمعون على كثير من الشراب والطرب . وقد تكلم مكويه في حديث له يقصر عن صفات المهلبى وسخائه وآثاره ، وإن لم يكن مكويه من التحسين للمهلبى^(٤) ؛ وقد حدث مرة أنه صاغ دواة وسرفقها ، وحلأها حلقة نقيقة ، وكان بعض الكتّاب في ديوانه يتذاكرون سرّ حسن الدواة ، وذلك على مسمع منه وغفلة منهم ، فقال أحدهم : ما كان أحوجنى إليها لأبيها وأنتفع بشئها ، فقلل له آخر : وأى شئ يوصل الوزير ؟ فأجابته : يدخل في حرامته ؛ فلم يكن من المهلبى إلا أن أهدى الدواة ، وصحبا عطايا أخرى للرجل الذى تمنّاها^(٥) . ويحدثنا القاضى أبو على التنوخى ، معترفاً بفضل الوزير المهلبى ؛ فيقول إنه استدعاه لصداقة كانت بينه وبين أبيه وقلده حملا ، وكان أبو على يلزم الوزير ، فدخل عليه يوما قاضى القضاة أبو السائب ؛ وكان أبو السائب ينفذ أبا على بزيادة عداوة كانت لأبيه ؛ وأراد الوزير أن يلقى فى نفس القاضى رهبة أبى على ، حتى يرهبه ويكرمه ؛ وعلم من خلق القاضى أنه لا يجىء إلا بالرهبة ، فأخذ الوزير يكلم القضى ، ويوم قاضى القضاة أنه يساره فى أسر من أمور الدولة ، وأفهم أبا على غرضه من هذه

(١) مكويه ج ٦ ص ٢٤١ - ٢٤٢ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٤١ - ٢٤٢ .

(٣) رسالة فى الصداقة لتنجيدى ، طبعة القامطى ص ٣٣ .

(٤) مكويه ج ٦ ص ١٦٦ .

(٥) المنظم ص ٩١ .

المسألة ، وأنها شديدة على نفس القاضي ، وقال له أن يعضى إليه في الند ليرى ما يعمله به ، فلما جاء إلى القاضي كاد يحمته على رأسه^(١) .

كان أشهر الوزراء أواخر القرن الرابع ابن عباد النقيب بالصاحب^(٢) الذي ولد عام ٣٢٦ هـ وتوفي عام ٤٣٨ = ٩٣٨ - ٩٩٥ م ، وزير بني بويه بالرمي . وكان في بدء أمره معلماً في قرية ، ثم ترقى به الحال ، بعد أن كان من صغار الكتاب ، إلى أن بلغ منصب الوزير المدير لأموار الملك ؛ وكان الأمير الشاب الذي استوزره والذي أنشأ له ابن عباد مملكته لا يخالفه في أمر من الأمور ، بل يحكمه في كل شيء ، وكان يحمله بكل ضروب الإجلال^(٣) ؛ ولما مات الصاحب عُمل له ما يصل الملوك ، فحضر جنازته مخدموه فخر الدولة وجميع أعيان المملكة ، وقد غيروا لباسهم ؛ فلما خرج نعشه صاح الناس صيحة واحدة ، وقبلوا الأرض لنعشه ، ومشى فخر الدولة أمامه ، وقعد للزماء أياماً^(٤) .

وكان ابن عباد من الأدباء ومن المعنيين بأهل الأدب ؛ وقد شبهه مادحوه بهارون الرشيد ، وذلك لأنه أشبه الرشيد بأن جمع حوله أحسن أهل الأسن ، وكانت له مراسلات مع رؤساء الأدباء بالشام وبغداد أسأل الرضى والصابي وابن الحجاج وابن سكرة وابن نباتة^(٥) ، وكان فهرس كتبه عشرة مجلدات ، وملك

(١) الإرشاد لباقوت ج ٦ ص ٢٥٣ - ٢٥٤ .

(٢) كان ابن عباد أول من لقب بالصاحب من الوزراء ، ثم سمي بهذا الاسم عميد الجيوش حوالي عام ٤٠٠ هـ (ديوان الشريف الرضى طبعة بيروت ١٣٠٧ - ص ٣٢١) ، وبعد ذلك لقب به كل من ولي الوزارة حتى خرافيش زماننا ، حملة الأعم وأحفدة الكوس ، (ابن تيمى ردى طبعة كليفورنيا ص ٥٦) .

(٣) الإرشاد لباقوت ج ٢ ص ٢٧٣ والصفحات التالية .

(٤) ابن تيمى ردى طبعة كليفورنيا ص ٥٧ .

(٥) بنية الدهرج ج ٢ ص ٣٢ .

من كتب العلم خاصة ما يحمل على أريمانية جهل وذلك رغم أنه لم يكن حبيراً بالعلوم الإلهية ، وأنه كان شديد التعصب على أهل الحكمة والناظرين في أجزائها كالهندسة والطب والتنجيم والموسيقى والدقائق والعدد^(١) . ونذكر له رسالة حسنة في الطب^(٢) ؛ ولم يكن الصاحب يقدر على مطالبة الأدباء عن سعة ، كما يحكى عن تقدمه من إجزال العطاء لم ، فقد « كان لا يزيد على مائة درهم وثوب إلى خمسمائة ، وما يبلغ إلى الألف نادر ، وما يوفى على الألف بدين »^(٣) .

وكان الصاحب بمجبه الخنز خاصة وكان يكثر من إهدائه ؛ فنظر أبو القاسم الزعفراني الشاعر يوماً إلى من في دار الصاحب من الخدم والحاشية ، فوجد عليهم الخنزوز الفاخرة اللون ، فكتب قصيدة يطلب فيها كسوة من الخنز قال فيها :

وحاشية الدار يمشون في ضروب من الخنز إلا أنا

« فقال الصاحب . قرأت في أخبار معين بن زائدة أن رجلاً قال له : احملني أيها الأمير فأمر له بناق وفرس وبغلة وحمار وجارية ، ثم قال : لو علمت أن الله تعالى خلق مراكباً غير هذا لحملتك عليه ؛ وقد أمرنا لك من الخنز بجبة رقيقة ودرّاعة وسراويل ومهامة ومنديل ومطرف ورداء وجورب ، ولو علمنا لباساً آخر يتخذ من الخنز لأعطيناكه »^(٤) . غير أنه كان من عدم توفيق الصاحب أنه أغضب التوحيدى ، فأثار على نفسه القدم من أذع الألسنة في عصره ؛ حتى أنه قد وصلت إلينا رسالة من أبي حيان كتبها للصاحب ومدحه بها في أول اتصاله

(١) الإرشاد لباقوت ج ٢ ص ٢٧٦ ، ٢١٥ .

(٢) البنية ج ٣ ص ٤٢ وما يليها .

(٣) الإرشاد ج ٢ ص ٣٠٤ ، ج ٦ ص ٢٧٦ . طلب الشاعر القرني منه خمسمائة دينار فقال له : أعطنا واجعلها دراهم .

(٤) بنية الدهر ج ٢ ص ٣٣ — ٣٤ ، والإرشاد لباقوت ج ٢ ص ٢٢٠ .

به^(١) ، ثم انتهت العلاقات بينهما بأن كتب أبو حيان رسالته في ذمّ الصاحب ، وكان بهما من الإقذاع في الثلب ما جعلها تعتبر جالبة للنحس والشؤم على من يقتبها ؛ ومع هذا فإنها من أروع آيات الفن العربي ، ومن أحسن ما كتب في تصوير شخصيات الناس في القرن الرابع الهجري .

فإن ذلك أن أما حيان يقول : وكان أبو الفضل بن العميد إذا قال : أحسب أن عينيه رُكبتا من زئبق ، وعنقه عمل بلؤلؤ ؛ وعَدَقَ ، فإنه كان ظريف الدُّنَى والتَّلَوَّى ، شديد النفكك والنفث ، كثير التَّوَجُّج والتَّوَجُّج ، في شكل المرأة المومسة والفاجرة الماجنة^(٢) . وعن أبي حيان أنه وصف الصاحب بأنه لا يرجع إلى الثَّأَلِ والرحمة والرقّة والرّافة والرحمة ؛ والناس يكاهم بمجمون عنه لجرأته وسلطانه واقتداره وبعثه ، شديد العقاب ، ضعيف الثواب ... مغلوب بحرارة الرأس ، سريع الغضب ، قريب الطيرة ، حَسودٌ حقود ، وحده وَقَفٌ على أهل الفضل ، وحده سار إلى أهل الكفاية ... وقد قتل خلفاً ، وأهلك ناساً ، ونفى أمة ، منحوةً وبنياءً ، ونجّراً وزهواً ؛ ومع هذا يمدحه الصبي ويحلبه النسي ، لأن المدخل عليه واسع ، والمآل إليه سهل ، وذلك بأن يقال له : « مولاي يتقدم بأن أعارَ شيئاً من كلامه ورسائله منظومةً ومنشورةً ، فاجئْتُ الأرض إليه من فرغانة ومصر وتغليس إلا لأستفيد من كلامه ، وأصبح به وأتلم به البلاغة ؛ لكأنما رسائل مولانا سُورَ قرآن ، وفَقَّهَ آيات فرقان ، واحتجاجة من أثنائها برهان ، وسبحان من جمع العالم واحد ، وأرر جميع قدرته في شخص ! » ؛ فيبين عند ذلك ويذرب ، ويلهي عن كل مهم . ويسى كل فریضة عليه ، ويتقدم إلى

١ - أحمد سرمد في الإرشاد ج ١ ص ٢٩٨ والمصنفات الثلاثة ، والمؤلف قد عده أن هذه الرسالة من أبي العميد لأبي عماد (المخرم) .

٢ - الإرشاد لأبوت ج ٢ ص ٢٨٨ - ٢٨٩

الخازن بأن يخرج إليه رسائله مع الورق والورق ، ويسهل الإذن عليه ، والناس
إليه والناس من مجلسه . . . ثم يعمل في أوقات كالعيد والفصل شراً ، ويدهمه
إلى أبي عيسى بن المنعم ، ويقول له : قد حملتك هذه القصيدة . امدحني بها في
جملة الشعراء ، وكن الثالث من المنشدين ؛ فيفعل ذلك أبو عيسى ، وهو بغدادى
محكمك ، قد شاخ على الخدائع وتحنك ؛ وينشد يقول صاحب مند سماه شعراً
في نفسه ووصفه بلسانه ، ومدحه من تحبيره :

أعذ يا أبا عيسى : فإنك والله مجيد ، زم يا أبا عيسى ا قد صفا ذهنك ،
وزادت قريحتك وتنقعت قوافيك ، ليس هذا من الطراز الأول ، حين أنشدتنا
في العيد الماضي ، بحال يخرج الناس ، وتهب لهم الذكاء ، وتزيدهم الفطنة ،
وتحول الكون عتيقاً . والمحرم جواداً ؛ ثم لا يصرفه عن مجلسه إلا بمنازة
سنية وعطية هنيئة ، ويغايظ به الجماعة من الشعراء وغيرهم ، لأنهم يعلمون أن
أبا عيسى لا يقرض مصراعاً ولا وزن بيتاً ، ولا يذوق عروضاً . . . والذي غلظه في
نفسه ، رحمه على الإعجاب بفضل الاستبداد برأيه أنه لم يجبة قط بتخطئة ،
ولا قول بتسوية ، لأنه نشأ على أن يقال : أصاب سيدنا ، وصدق مولانا ،
وفقه دزه ما رأينا مثله ! من ابن عبد كان مضاعفاً إليه ؟ ومن ابن نواة نقيه عليه ؟
ومن إبراهيم بن العباس الصولى ؟ ومن صريع الغواني ؟ . من أشجع السلى ،
إذا سلك طريقهم ؟ قد استدرك مولانا على الخليل في العروض ، وعلى أبي عمرو
ابن الملا في اللغة ، وعلى أبي يوسف في القضاء ، وعلى الإسكافي في الموازنة ،
وعلى ابن تومنت في الآراء والديانات ، وعلى ابن مجاهد في القراءات ؛ وعلى ابن
جرير في التفسير ، وعلى أرسططاليس في المنطق ، وعلى الكندي في الخلق ، وعلى
ابن سيرين في العبارة ، وعلى أبي العيلاء في البديهة ، وعلى ابن كعب في

الفردوس [٩] ، وعلى عيسى بن كعب في الرواية ، وعلى الواقدي في الحفظ ، وعلى
 الجار في البدل ، وعلى ابن ثوبة في التقية . . . : فزاد عند هذا المذر وأشباهه
 تلوى ويبتسم ، ويطيّر مراحبه وينقسم ، ويقول : ولا كذى ، نمرة السبق لهم ،
 وبصرنا أن نلحقهم أو ننفوا نرهم ؛ وهو في ذلك يتشاجى ويتحاكى ، ويلوى
 شدقه ويتتلع ريقه ، ويردّ كالآخذ ، ويأخذ كالمتنع ، وينضب في عرض
 الرضى ، ويرضى في لبوس الغضب ، ويتهاك ويتهاك ، ويتفانك ويتفانل ،
 ويحاكى المومسات ، ويخرج في أحباب الساجات ؛ وهو ، مع هذا ، يظن أنه
 خاف على نقاد الأخلاق ، وجهابذة الأحوال ؛ وقد أسدّه أيضاً ثقة صاحبه به ،
 وتحويله عليه ، وقلة سماعه من الناصح فيه ، دلالة وزقا وهجبا ، واندراء على
 الناس ، وازدراء للفقار والكبار ، وجبها للصادر والوارد ، وفي الجملة آفاته كثيرة
 وذوبه جمة ، ولكن النفى رب غفور :

ذري نفى أسى فإنى رأيت الناس شرهم الفقير
 وأبعدم وأهونهم عليهم وإن أسى له حسب وخبر
 ويقصيه الندى وتزدرية خليلته وينهره الصغير
 وتلقى ذا النفى ، وله جلال يكاد فؤاد صاحبه يطير
 فأيل ذنبه ، والذنب جثم ولكن النفى رب غفور

قال : فكيف تتم له الأمور مع هذه الصفات ؟ قلت : وافق لو أن مجوزاً
 بلهاء أو أمة ورهاء أقيمت مقامه لكائنات الأمور ، على هذا السياق ؛ لأنه قد
 أئمن أن يقال : لِمَ فعلت ؟ ولِمَ لم تفعل ؟ وهذا باب لا يتفق لأحد من خدم
 الملوك إلا بالحدّ سعيد . ولقد نصح صاحبه المروى في أموال تاروية وأمور من
 النظر عارية : فنفذ بالرقعة إليه حتى عرف ما فيها ، ثم قتل الرافع حتفاً ، هذا

وهو يدين بالوعيد ؛ وقال لى الثقة من أصحابه : ربما شرع فى أمر يحكم فيه بالخطأ ، فيقلبه جده صواباً ، حق كانه من وحى ؛ وأسرارُ الله فى خلقه عند الارتفاع والانهطاط خفيّة ؛ ولو جرت الأمور على موضع الرأى وقضية العقل لكان مملاً فى مصطبة على شارع أو فى دارٍ لثانٍ ؛ فإنه يخرج الإنسان بتفقهه وتشادقه ، واستحقاره واستكباره ، وإعادته وإبدائه ؛ وهذه أشكال تعجب الصبيان ولا تنفرم عن الملمين ؛ ويكون مرحهم به سبباً للملازمة والحرص على التعلم والحفظ والرواية والدراسة ... قال (أبو حيان) : وكان ابن عباد يقول للإنسان إذا قدم عليه من أهل العلم : يا أخى تكلم واستأنس وانبط ولا ترع ... ولا يروعك هذا الحشم والخدم ... فإن سلطان العلم فوق سلطات الولاية ... قل ما شئت ... فلست نجد عندنا إلا الإنصاف ؛ حق إذا استوفى ما عند ذلك الإنسان بهذه الزخارف والحيل ، وسار الرجل معه فى حدوده على مذهب الثقة ، لحاجته وضايقه ، ووضع يده على النكتة الفاصلة والأمر القاطع ، تنسّله ، وتتيّر عليه ، ثم قال يا قلام : خذ بيد هذا الكلب إلى المجلس ، وضعه فيه بسد أن تصب على كاهله وظهره وجنبه خمسة سوط ومعا ، فإنه معاند ضد ... ؛ وليس الخبير كالميان ؛ من لم يحضر ذلك المجلس لم ير منظرأ رفيماً ورجلاً رقيقاً ... وهل عند ابن عباد إلا أصحاب الجدل يشغبون ويمحقون ويتصايحون ، وهو فيما بينهم يصيح ^(١) ... كان ابن عباد لا يسكت عما لا يعرف ؛ قال لكانه فى بعض الأيام جد أن وبخه وأطال : « باهر إلى عمل حساب بتفصيل باب يبين فيه أمر دارى وما دخل عليه أمر دخل وخزجى ؛ ففرّد الكاتب أياً ما وحرر الحساب على قاعدته وأصله والرسم الذى هو معروف بين أهله ، وحمله إليه ؛ فأخذه من

(١) رسالة فى الصداقة لأبى حيان ص ٣٣ طبعة القسطنطينية عام ١٣٠٦ هـ .

يده و«سر» عينه فيه من غير تثبيت أو غص أو مسألة ، لحذف به إليه ، وقال :
 أهذا حساب ؟ أهذا كتاب ؟ أهذا تحرير ؟ أهذا تقرير ؟ أهذا تفصيل ؟ أهذا
 تمصيل ؟ والله لولا أرى ربيك في داري ، وشغلت بتخريجك ليلى ونهارى ،
 ولك حرمة الصبي ورعاية الآباء لأطمئنك هذا الطومار ، وأحرقك بالنفط والقار ،
 وأدبت بك كل كاتب وحاسب ، وجعلتك مثلة لكل شاهد ومثب ، أمثل
 يموء عليه ويطلع فيما لديه ، وأنا خلقت للحساب والكتابة ؟ والله ما أنام ليلة
 إلا وأحصل في نفسى ارتفاع العراق ، ودخل الآفاق ؛ أغرك منى أنى أجرت
 رسلك ، وأخفيت قبيحك ، وأبدت حسنك ؟ غير هذا الذى رفعت ، وأعرف
 قبل وبعد ما صنعت ، واعلم أنك من الآخرة قد رجعت ، فزد فى صلاتك
 وصدقك ، ولا تعول على قبحك وصلابة حدحك ؛ يقول الكاتب : « فوالله
 ما هالنى كلامه ولا أحاك فى هذيانه ؛ لأنى كنت أعلم جهله فى الحساب ونقصه فى
 هذا الباب ؛ فذهبت وأفسدت ، وأخرت وقدمت ، وكأبرت وتصدت ؛ ثم رددته
 إليه ، فنظر فيه ، ونحك فى وجهى ؛ وقال : أحسنت ، بارك الله عليك اهكذا
 أردت .. وهذا بعينه طلبت ، لو تفاقلتُ منك فى أول الأمر لما تيقظت فى الثانى ؛
 فهذا كما ترى ، أعجب منه كيف شئت » ^(١) .

أما ابن العميد (المتوفى عام ٥٣٦٠ هـ - ٩٧١ م) فقد صور له لنا ابن
 مسكويه فى تاريخه ، وكان خازناً لدار كتبه مدة طويلة ، وبقي فى نفسه لابن
 العميد صورة وأثر قويان ، حتى إن التوحيدى يهزأ بابن مسكويه ويصيه بأنه
 يفسد قريحه بكثرة ذكره : قال المهلبى ، قال ابن العميد ، فعل ابن العميد ^(٢) . وقد

(١) الإرعاد لياقوت ج ٢ ص ٢٧٦ - ٢٨١ ، ٢٨٨ - ٢٨٩ - ٢٩٠ .

(٢) رسالة فى الصداقة للتوحيدى طبعه القسطنطينية ص ٣٢ .

ابتدا مسكوبه بمدح بطله بالقدرة على الحفظ ؛ وكان لهذه المزية في ذلك العصر
قيمة أكبر مما لها اليوم ؛ يقول المؤرخ : « وحدتى غير سرية أنه كان في حدائقه
يحاطر رفقاءه والأدباء الذين يعاشرهم على حفظ ألف بيت في يوم واحد ؛ وكان
رحمه الله أثقل وزنا وأكبر قدراً من أن يتردد ... وكذلك شعره الذي حد فيه
وهزل ، فإنه في أعلى درجات الشعر ... فأما المنطق وعلوم الفلسفة والإلهيات منها
خاصة فما جسر أحد في زمانه أن يدعيها بمحضته ، إلا أن يكون مستقيداً أو قاصداً
قصداً تتلمذ دون المذاكرة . ثم كان يختص بتراتب من العلوم الغامضة التي لا يدعيها
أحد كعلوم الحيل التي يحتاج فيها إلى أواخر علوم الهندسة والطبيعة ، والحركات
النارية وجزء التقييل ومعرفة مراكز الأثقال وإخراج كثير مما امتنع على القدماء
من القوة إلى الفعل ، وعمل آلات غريبة لفتح القلاع والحيل على الحصون ،
وحيل في الحروب مثل ذلك ، واتخاذ أسلحة عجبية يساهم تنفيذ أمداء بعباد وتؤثر
آثاراً عظيمة ، وسرايا محرقة على مسافة بعيدة جداً ، وأطف كفت لم يسمع بمثله
ومعرفة بدقائق علم التصاوير . وقد رأيت يتناول الضخامة أو ما يجرى مجراها ؛
فيبحث بها ساعة ، ثم يدحرجها ، وعليها صورة وجه قد خطها بظفره ، لو تميد لها
غيره بالآلات المبددة وفي الأيام الكثيرة ما تأتي له مثلها ؛ فأما اضطلاعه بأمور
الملك فقد ذات عليه رسائله . ولا سيما رسائله التي يخبر فيها باضطراب أمر فارس
وسوء سياسة من تقدمه لها ، وما يجب أن تتلافى به ، حتى تعود إلى أحسن
أحوالها ؛ فإن هذه رسالة تتلمذ منها صناعة الوزارة وأما حصل بفارس
علم عضد الدولة وجوه التدابير السديدة وصناعة الملك التي هي « صناعة
الصناعات » ، وثقته ذلك تلقيناً ، فصادف منهما آمناً ؛ حتى قال عضد الدولة

سراً : إن أما الفضل بن العميد كان أستاذنا ؛ وكان لا يذكره في حياته إلا الأستاذ الرئيس .

وكان ابن العميد يقود الجيوش ويحضر المارك ، وكان أسداً في الشجاعة لا يُعطى بناره ، ولا يُدخل في غباره ؛ وكان يركب المقاريات ، ولا يستقل ظهور الدواب لإفراط علة الفرس وغيرها عليه . وكان قليل الكلام نزر الحديث إلا إذا سُئل ووجد من يفهم عنه ؛ وكان لحسن عشرته وطهارة أخلاقه إذا دخل إليه أديب أو عالم متفردٌ بفنٍ سكت له ، وأصغى إليه ، واستحسن كل ما يسمعه منه امتحاناً من لا يعرف منه إلا قدر ما يفهم به ما يورده عليه ؛ حتى إذا طاوله ، وأنت الشهور والسنون على محاضرتيه ، واتفق له أن يسأله عن شيء تدقق حينئذ بحرقه ، وجاس خاطره ، وبُهِت من كان عند نفسه بارع في ذلك الفن ، « وما أكثر من خجل عنده من المعجبين بأنفسهم ! » ؛ وكان مركزه في غاية الصعوبة ، وهو بين أمير لم تكن له بين جنده هيئة إلا بالمدارة والمساحة في أشياء كثيرة وإطلاق الأيدي بالبيت ، ولم يكن يستجيب إلى عمارة البلاد « خوفاً من إخراج درهم واحد من الخزانة ، ويقنع بارتفاع ما يحصل للوقت » ، وبين جند الديلم الذين كانوا يطالبون بالمحالات ، ويتقلون مؤونتهم على الرعية ، ويتواعدون بالليل إلى مواضع غامضة يجتمعون فيها ؛ وربما خرجوا إلى الصحراء بقدر ما يذرون الرأي في وجه الحيلة وترتيب ما يريدون ؛ وأمكن ابن العميد استطاع على الرغم من هذا أن يعيد النظام حتى استقام الأمر ، وقامت الهيئة في صدور الجند والرعية . وبحكى ابن مسكويه أنه كان يكنى ابن العميد أن يرفع الطرف إلى أحدكم على طريق الإنكار ، فترعد الأضواء وتضطرب ، واسترخى الفاصل ؛ وأنه شاهد ذلك في مواقف كثيرة . وقد استطاع أن يعرف طبائع الديلم وما فيهم من حسد وجمع ، وأنه

لا يملكهم أحد إلا بترك الزينة ، وبذل مالا يبطرهم ولا يخرجهم إلى التحاسد ،
 وبترك التكبر عليهم ، وبالظهور في مرتبة أوسطهم حالا . ولما رأى ابن العميد
 أن ابنه يحب أن يسير في خواص السيل ، ويستميل قلوبهم بالخلع والمذايا ،
 ويدعوم إلى اللب والعيد ، ويستضيفهم في الصحراء ، نهأ عن ذلك ورعظه
 ألا يسير معهم هذه السيرة ، ولكن النصح لم ينفع ؛ فتجرع ابن العميد غيظه ،
 وزاد ذلك في مرضه ، حتى مات في همدان ، وهو يقول في مجلس خلواته :
 ما يهلك آل العميد ، ولا يحو آثارهم من الأرض إلا هذا الصبي ، يعني ابنه ؛
 وكان يقول في مرضه : ما قتلتني إلا جرّع الفيظ التي تجرّعتها منه ^(١) .

(١) مسطور ج ٦ ص ٢١٥ - ٢١٧ ، ٢١١ - ٢٠٨

الفصل الثامن

المسائل المالية

مهما بدا التشريع الإسلامى فى أمر الضرائب، وانحأ بسيطاً فى كتب الفقه، منذ عهد أبى يوسف القاضى إلى أيام الماوردى، وفيما يُجمع من كتب الحديث، فإنه فى الواقع منشعب مع غزارة وصعوبة. ولو أراد الباحث أن يعرف الفرق بين النظم المالية عند المسلمين وعند غيرهم لما استطاع أن يكفى بدراسة هذه النظم فى البلاد التى كانت تابعة للدولة الرومانية البوزنطية وللدولة الفارسية؛ وذلك لأنه كانت هناك نظم أخرى فى الضرائب يختلف بعضها عن بعض فى الشام ومصر وشمال أفريقية قبل ظهور الإسلام، كما كانت ثم فروق بين النظم المالية فى العراق وخراسان وجنوب فارس.

ولم تكن فى الدولة الإسلامية كلها ضرائب ثابتة وناقذة على نحو واحد إلا الضرائب الإسلامية الخالصة وهى : ضريبة رموس أهل القمة من اليهود والنصارى، والزكاة المفروضة على المسلمين. وكانت هذه تحسب على أساس الشهور، شأنها شأن أجور الأرحاء والمستغلات والأرض المقتطعة وسائر ما يجرى على المشاعرات. وكانت هذه الضرائب الشهرية تجرى بحسب السنة الهلالية، وكان التقويم الهلالي يعمل به فى الواقع فى المدن الكبيرة التى يقل اعتمادها على الزراعة؟ أما فى الأرض الزراعية فلم يكن بدّ من أن يتمشى نظام الضرائب مع حال الزرع وأوقات الغرس والحصاد، أى أنه لم يكن بدّ من السير طبقاً لسنة الشمسية^(١).

(١) الخطط للفرزى ج ١ ص ٧٧٣ حيث ينقل الفريرى عن كتاب أخبار أمير المؤمنين المعتضد باقة لأبى الحسين عبدة بن أبى طاهر.

وكانت هذه السنة للشسية هي القبطية والشامية في البلاد التي كانت تحت حكم الروم ؛ أما في المشرق فكانت هي السنة الفارسية ؛ وفي فارس كان يُفتتح الخراج في إمان النيروز^(١) ؛ وإنما آثر الفرس ذلك من قديم الزمان ، لأنه وقت الانقلاب الصيفي الذي هو وقت إدراك القلات ، فكان أصوب لافتتاح الخراج فيه من غيره^(٢) . ثم جاء ملوك العرب فاقصدوا بملوك الفرس في المطالبة بالخراج إمان النيروز . ولكن الفرس كانوا يكسبون السنين في كل أربع سنين بيوم ؛ فأبطل الإسلام ذلك ، ونشأ عن عدم الكبس أن الخراج كان يُفتتح قبل نضج الزرع . وبينما كان المتوكل يطوف يوماً في مُتَصَيِّدٍ له إذ رأى زرعاً أخضر لم يدرك بعد ، ولم يستحصد ؛ وكان المتوكل قد استوفى في فتح الخراج ، فقال : من أين يعطى للناس الخراج ؟ ف قيل له إن الأمر جارٍ على ما أسسه ملوك الفرس من المطالبة بالخراج في أثناء النيروز ؛ فوقع هزم المتوكل على تأخير النيروز سبعة عشر يوماً من حزيران ، تداركاً لما فات من عدم الكبس ، ونقذت الكتب بذلك إلى الاتفاق ؛ ثم قُتل المتوكل ، ولم يتم له ما دبر ؛ فلما قام المعتضد احتذى ما فعله المتوكل في تأخير النيروز ، غير أنه نظر من جهة غير التي نظر إليها المتوكل ، فأخر النيروز إلى الحادي عشر من حزيران ، ثم وضع النيروز على شهور الروم لتكسب شهوره إذا كبست الروم شهورها ، لا على سنين الفرس من الكبس بشهر في كل مائة وعشرين سنة . ولما كان لا يمكن ترك السنة الهلالية لأسباب دينية فقد سارت السنتان الهلالية والخراسانية مع اختلافهما في الطول جنباً لجنب ، وحدث اضطراب كبير بسبب تفاضل السنين ؛ حتى صارت الجباية الخراسانية في

(١) وفي أقصى المشرق أمى في الأفتان وما وراء النهر كان الخراج يدفع على دفعتين (انظر ابن حوقل ص ٣٠٨ ، ٣٤١) .
(٢) الآثار الباقية لبيروني ص ٢١٦ - ٢١٧ من الطبعة الأوروبية .

السنة التي تنتهى إليها تنسب في التسمية إلى ما قبلها ؛ ولما لم يكن من الجائز
كبس سنة الهلال شهر ثلث عشر ، لأنهم لو فعلوا ذلك لتزعزعت الأشهر
الحرم من موقعها ، وانحرفت الناسك عن حقائقها ، ونقصت الجباية عن منى
الأهلة بقسط ما استرقه الكيس منها ، فانتظروا بذلك الفضل أن تتم سنة أو جب
الحساب القرب أن تكون كل اثنتين وثلاثين سنة شمسية ثلاثاً وثلاثين سنة
هلالية ، ففعلوا المقدمة إلى التأخرة نقلاً لا يتجاوز الشمسية وقد رأى
أمير المؤمنين نقل سنة خمسين وثلاثمائة الخراجية إلى إحدى وخمسين وثلاثمائة
الهلالية ، جماً بينهما ، ولزوماً لتلك السنة فيها . وهذا جزء من الكتاب الذي
أنشأه أبو إسحاق الصابي في هذا الصدد^(١) .

وما اختص به نظام المسلمين الإدارى فيما يتعلق بالمال أن دواوين الخراج في
الولايات كانت تقوم مقام خزائن الدولة ، فكانت تستوفى من مال الخراج
التفقات الراتبية وأعطيات الجند ، ثم يحمل ما يبقى إلى بيت المال العام بمدينة
السلام^(٢) ؛ ولذلك فإن خزانة بغداد كانت لا تغنى إلا بدار الخلافة وحاجاتها

(١) المخطوط المغربي ج ١ ص ٢٧٥ — ٢٧٧ ، والأثر الباقى لبيروني ص ٣١ — ٣٣ ، وتاريخ الطبري ج ٣ ص ٢١٤٤ ، ورسائل الصابي طبعة لبنان ص ٢١٣ — ٢١٥ .

(٢) مسكويه ج ٥ ص ١٩٣ — ١٩٤ ، وكتاب الفرج بعد الشدة لقتوبغا ج ١ ص ٥١ . إن حواصلي ما ذكره من تاريخ الخراج في الدولة العباسية . وكذلك كان ولاية المواسم في الدولة العباسية . يقطعون التفقات من جملة دخل ولايتهم . وكانت السادة في أيام الأمويين أن الخلفاء إذا جاءتهم جبايات الأمصار والآفاق يأتيهم مع كل جباية عشرة رجال من وجوه الناس وأعيانها ، فلا يدخل بيت المال من الجباية دينار ولا درهم حتى يحلف الوفد مائة الذي لا إله إلا هو ما فيها دينار ولا درهم إلا أخذ بحقه ، بأنه فضل من أعطيات أهل البلد من العائلة والديرة ، بعد أن أخذ كل دى حتى حقه ، أطر كتاب أخبار مجموعة في نسخ الأصل ، وذكر أمهاتها طبعة بحريط ١٨٦٧ ص ٢٢ — ٢٣ . وانظر أيضاً . . . حتى من

من أنى القياس في كتاب سيمونيت *Simonet, Historia de Los mosarabes de Espana* Madrid, 1897—1903, S. 154

وبشؤون الدواوين والجزء الشرقى من بغداد ، لأنه كان بحسب رسم خاص تابعا لدار الخلافة ؛ أما الجانب الغربى ، وهو بغداد الحقيقية ، فكان جزءا من عمالة بادوريا^(١) .

وقد بين لنا الخوارزمى أسماء الدقائر والمواضع المستعملة فى الدواوين بخراسان فى القرن الرابع الهجرى^(٢) ، فنها :

قانون الخراج ، وهو أصله الذى يرجع إليه ، وتُدنى الجباية عليه^(٣) .
الأوراج ، ويُنقل إليه ما على إنسان إنسان ، ويُثبت فيه ما يؤديه دفعة بعد أخرى ، إلى أن يستوفى ما عليه .

الروزنامج ، وسماه كتاب اليوم ؛ لأنه يُكتب فيه ما يجرى كل يوم من استخراج أو نفقة أو غير ذلك .

الختعة ، وهى كتاب يرفعه الجيهذ فى كل شهر بالاستخراج والجل والنفقات والحاصل ، كأنه يختم الشهر به .
الختعة الجسامعة ، تُعمل كل سنة كذلك .

التأريج ، لفظة فارسية ، معناها النظام ، لأنه كسواد يعمل للمقد لعدة أبواب يُحتاج لهم جلها .

العريضة ، وهى شبيهة بالتأريج ، إلا أنها تُعمل لأبواب يُحتاج إلى أن يُعلم فضل ما بينها ، فينقص الأقل من الأكثر من باين ، ويوضع ما يفضل فى باب

(١) كتاب الوزراء ص ١١ والصفحات التالية .

(٢) مفاتيح العلوم ص ٥٤ — ٥٦ .

(٣) كانت لفظة Kanon فى العصر النالى لعصر الإمبراطور ديوقليان هو الاصطلاح

العام لضرائب العادية . انظر Wilken, Griech. Ostraka, S. 878

ثالث ، هو الذى تعمل المريضة لأجله ، « مثل أن تعمل عريضة للأصل والاستخراج ، فى أكثر الأحوال ينقص الاستخراج عن الأصل ، فيوضع فى السطر الأول من سطور المريضة ثلاثة أبواب ، أحدها للأصل ، والثانى للاستخراج ، والثالث أفضل ما بينهما » .

البراءة ، حجة يبذلها الجبهذ أو الخازن للوئدى بما يؤديه إليه .

الموافقة والجماعة ، حساب جامع يرفعه العامل عند فراغه من العمل ، ولا يسمى موافقة ما لم يُرفع باتفاق بين الرافع والرفوع إليه ؛ فإن انفرد به أحدهما دون أن يوافق الآخر على تفصيلاته سُمى محاسبة .

وعندنا كذلك أبواب ميزانية الدولة لسنة ٨٣٠٦ هـ - ٩١٨ م ، وهى تقوم على ميزانية عام ٨٣٠٣ هـ ؛ فكانت تقسم للميزانية العامة ، على نحو ما كانت تقسم الدفائر فى دواوين الخراج ، إلى باب الاستخراج أو الدخل وباب النفقات ؛ وكذلك يقسم باب النفقات إلى النفقات الراتبية والحادثية ؛ وكانت الميزانية تنهى بمجرد كما هو الحال عندنا . وكانت مقادير خراج العراق وخوزستان وقارس وإيران تذكر عينا ؛ على حين أنه حتى عام ٨٢٦٠ هـ - ٨٧٣ م كان يُذكر النوع إلى جانب القيمة بالذهب ؛ وهذا يدل على تقدم فى النظام المالى فى شرق المملوكة الإسلامية . أما فيما يتعلق بالشام والعراق فكان الخراج يحسب بالمعنى وبالتنويع^(١) (السكر من الشمير أو المنطة) . وكانت سيطرة الدولة ، وهى السيطرة التى من شأنها القضاء على سائر القيم الأخرى المتدرجة ، وجعل قيمة الأشياء متروكة على قيمتها القديمة ، سبباً فى زوال كثير من الضرائب الرمزية الشككية التى تفرض

(١) Kremer, Einnahmebudget der Abbasiden, S 309 - 373 ؛ وكتاب

الخراج لعدانة ط دى غوى ص ٢٢٩ ، وكتاب الوزراء ص ١٨٨ - ١٨٩ .

لمجرد تقرير الحق في الضريبة ؛ وهذه الضرائب هي التي جعلت دفاتر الضرائب في المصور الوسطى الأوربية كثيرة الأبواب ؛ ولا نجد من أمثلة هذه الضرائب إلا ما ذكر عن مدينة اسبجلب على أقصى حدود المملكة الإسلامية شرقاً من أن خراجها أربعة دوانيق ومكنسة تُبعث إلى السلطان كل عام مع الهدايا^(١).

وقد جرت العادة حوالي عام ٣٠٠ هـ - ٩١٢ م أن تُرسل مع الخراج أو الهدية أشياء طريفة غريبة عن المألوف ؛ ففي عام ٢٩٩ هـ - ٩١١ م أرسل مع مال مصر تيسر له ضرع يجلب اللبن ، وفي سنة ٣٠١ هـ - ٩١٣ م وصلت هدايا صاحب عُمان إلى السلطان ، وفيها بتيغة بيضاء وعزال أسود ، وفي سنة ٣٠٥ هـ وردت من عُمان أيضاً هدايا جليلة ، فيها طائر أسود يتكلم بالفارسية والهندية أفصح من البيضاء وفيها ظباء سود^(٢).

وكان الإقطاع في المملكة الإسلامية كلها ضرباً هاماً من ضروب تملك الأرض ؛ والإقطاع في الشرق والغرب على السواء ميثاق قديم . ويقول أبو يوسف : فأما لقطاع من أرض الرق ، فكل ما كان لكسرى ومرازبته وأهل بيته مما لم يكن في يد أحد^(٣) ؛ أما في المغرب فكان الإقطاع نظاماً رومانياً ، وكانت أرض الحكومة والأرض التي لا يملكها أحد تنتقل بحسب

(١) اللدسي ص ٣٤٠ ، ويؤيد ياقوت (معجم البلدان ج ١ ص ٢٤٩ من الطبعة الأوربية) هذا الكلام حيث يقول إنه لم يكن بخراسان ولا بما وراء النهر بلدة لا خراج عليها إلا اسبجلب ، لأنها كانت ثيراً عظيماً ، فكانت تنق من الخراج ليصرف أهلها خراجها في عن السلاح والصورة على المقام بملك الأرض .

(٢) للمنظم لابن الجوزي ص ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ .

(٣) كتاب الخراج ص ٣٢ ، وكان ثم إلى جانب القطيعة ما يسمى الطائفة ، وهي الأرض التي تدفع إلى رجل ليعمرها ويؤدى عمرها ؛ وتكون له مدة حياته ، فإذا مات رثمت من ورثته ؛ والطائفة تسمى أمية من بعده — انظر نتائج العلوم الخوارزمية ص ١٠٠ .

نظام الإقطاع إلى أفراد الشعب^(١). أما الخراج الذي يجب أن يدفعه صاحب الأرض المقطعة فكان يُحدد باتفاق خاص بينه وبين الحكومة ، وهو عند الفقهاء المُفسر^(٢). ولم يكن أصحاب الإقطاعات أحسن حالا من غيرهم من أصحاب الضياع العاديين ؛ وقد حكى التنوخي في القرن الرابع الهجري أن الرشيد اعتل ، فذاواه طبيبه ، فأمر بإقطاعه ما قيمته ألف ألف درهم ، فقال له : مالي حاجة إلى الإقطاع ؛ ولكن تهب لي ما اشتري الضياع به ، فأجاب الخليفة طلبه وأمر بمماointه حتى ابتاع ضياعاً غلتها ألف ألف درهم ، مؤزراً أن يكون جميع ما يمتلكه ضياعاً لا إقطاع فيها^(٣). وكان يقع في كثير من الأحيان خلاف بين الملاك والعمال في بعض الأراضي ؛ فيذكر صاحب الأرض أنها قطعة ، على حين أن عامل الخراج يذهب إلى أنها أرض خراج عادية^(٤). وكانت الأرض المقطعة

(١) Becker, ZA, 1905, S. 301 ff.

(٢) كتاب الخراج لقنادة مخطوط باريس رقم ٥٩٠٧ س ٩٠ ب ١ - ١٩١ : وأرضو المعرسة أصرب :

١ - الأرضون التي أسلم عليها أهلها ، وهي في أيديهم مثل البين والدينه والطائف .
٢ - ما يستعيه المسلمون من الأرض الموات التي لا ملك لأحد فيها .
٣ - ما يُعطيه الأئمة بعض المسلمين .
٤ - ما يحصل ملكا للمسلمين مما يحسه الإمام من أرض الفئوة بين من أوقف عليها من المسلمين .

٥ - ما صار في يد المسلمين من الصفايا التي أصفاها عمر بن الخطاب من أرض السواد ، وهي ما كان لكسري وآله وخامته .

٦ - ما جلأه المدون من أراضيهم غُمل في يد من قطعه وأقام به من المسلمين مثل انتور . وكان إلى جانب ديوان الخراج ديوان آخر قائم بفاته يسمى ديوان الضياع .
نظر Kremer S. 293 ، ولا نجد ذلك بين أسماء الدواوين في خراسان .

(٣) الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ١٠٢ - ١٠٣ .

(٤) كتاب الوزراء ص ٢٢٠ .

تعود دائماً إلى الحكومة ، وذلك بسبب مصادرة أصحابها أو نظراً لخربائها ، وكثيراً ما يكون هذا الخراب بسبب الضرائب الباهظة . وفي القرن الثالث الهجري غلب بنو الصنادار على فارس ، فجلا قوم من أرباب الخراج عنها لسوء المعاملة ؛ فقررت الحكومة خراجها على من بقى ، وسمى ذلك بالتسكة ، لأنه كُـل بها قانون فارس القديم ، ولم تزل هذه التسكة تستوفى حتى أعيد افتتاح فارس عام ٢٩٨ هـ ، فتظلم أهل فارس ، وورد قوم من أجلا دهم إلى بغداد لرفع ظلامتهم ، فجمع المنتدب مجلساً من القضاة والعقهاء والكُـتاب والمال والقواد ، فأنتهى القهقهة ببطلان التسكة ، وصدر كتاب الخليفة بذلك عام ٣٠٣ هـ - ٩١٥ م ^(١) . والظاهر أن أسر التسكة كان شاذاً في ذلك العهد في الشرق ؛ أما في مصر فقد كانت القاعدة أن تضمن المدينة الأفراد الذين يحملون عن الأرض ؛ وفي العراق كان لا بد من هذا الضمان فيما يتعلق بالجزية الواجبة على أهل الذمة ^(٢) ، ولم يُـنغ نظام ضمان المدينة هذا في فرنسا إلا قبل الثورة الفرنسية بقليل ، وفي روسيا إلا منذ عام ١٩٠٦ م .

وكانت الحكومة تملك أراضي أخرى تسميها الضياع السلطانية ، وكانت هذه الضياع تزداد في أيام الرخاء بائتياع أراضي جديدة ^(٣) . أما في أوقات الشدة فكان يُـباع بعضها . وقد حدث في سنة ٣٢٣ هـ - ٩٣٥ م أن باع الوزير على البجار ضياعاً سلطانية ليبنى ببغداد ما كان قد استلطفه من مالم ^(٤) . وكانت هذه

(١) كتاب الوزراء من ٣٤٠ - ٣٤٢ هـ وكتاب البيون من ٢٨٢ .

(٢) انظر الكلام من الجزية في الفصل الخامس باليهود والنصارى .

(٣) مقدمة طبعة دى غوى من ٢٤١ .

(٤) مسكون ج ٥ من ٥٠٥ .

الضياع تتعرض دائماً للخطر إذا خضعت الحكومة ؛ فعند ذلك يفتطمع كبار الملاك الأثرياء والوزراء بعضها ، ويضيفون ذلك إلى أملاكهم ^(١) .

وكان يحدث أن يرغب صغار أرباب الضياع في الإفلات من عبء الخراج العادى ، فاعنادوا أن يُباعشوا ضياعهم إلى الكبراء الأثرياء ، فسكانت تجرى بأنسئهم ، ويُخَذَف عن أهلها الخراج ، فيدفون العشر فقط ، كما هو الحال في الإنطاغات ؛ ولكنها تبقى في أبدى أهلها يتبايعونها ويتوارثونها ، وإن كانت بأسماء من الجأروها إليهم . وهذه التلجئة نظام قديم ، وقد أوجدها في مصر على عهد الرومان البوزنطيين كبار أصحاب الضياع ، وبمكى أنها كانت موجودة في عهد الأمويين ^(٢) ، ثم صارت اصطلاحاً قائماً بذاته بين مواضع الكتاب في دواوين الخراج بخراسان ^(٣) ، وأصبح لها قسم خاص بها في القرن الرابع الهجرى ، وكانت شائعة في فارس بنوع خاص لتقل الخراج فيها ^(٤) . وفي عام ٤١٥ م اعتُبر المُجِشُونَ في مصر بحكم القانون موالى تابعين للأثرياء الذين اجتموا بهم ^(٥) ، ولكنهم لم يصيروا إلى هذه الحالة قط في فارس .

ومن وجوه الأموال التى ترد إلى بيت المال أخماس المادن والركاز ، والمال المدفون من دقان الجاهلية ، ونُخس سَبَب البحر مما يقذف به ويستخرج منه ، مثل العنبر والحلابة ، ومنها أثمان الأبقار من العيد ، وما يؤخذ من اللصوص من

(١) كتاب الوزراء ص ١٣٤ ، وكتاب القراج بعد الشدة للنفوس ج ١ ص ٥٠ .

(٢) كتاب المراج لقدامة طبة دى غوى ص ٧٤١ .

(٣) مفاتيح العلوم لخوارزمى ص ٦٧ .

(٤) الاسطخرى ص ١٥٨ .

(٥) Matthias Gelzer, Studien zur byzantinischen Verwaltung Argy-

ptens, S. 72 ff.

الأموال والأمتعة ، إذا لم يأت لذلك طالب يستحقه ، ومنها ما يؤخذ من موارث من يموت ولا يخلف وارثاً له^(١) . وكان لا يؤخذ لبيت المال إلا من ميراث المسلمين ، فمثلاً كتب الخطيب البغدادي (٣٩٢ - ٤٦٣) إلى الخليفة : إلى إذا مت كان مالي لبيت المال (وكان مقدار ذلك مائتي دينار)^(٢) ؛ وفي عام ٥٣١١ - ٩٢٣ م أصدر الخليفة المقتدر كتاباً في أمر الموارث نص فيه على أن تُردّ تركّة من يموت من أهل القمة ، ولا يخلف وارثاً ، على أهل ملته لا على بيت المال ، وذلك عملاً بما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم من أن المسلم لا يرث الكافر ، وأن الكافر لا يرث المسلم ، وأنه لا يتوارث أهل ملتين^(٣) . وقد تجادل كثير من الفقهاء في مسألة كبرى من المسائل التي تُبحث حديثاً ، وهي مسألة رد التركة إلى بيت المال بدلاً من ردها إلى الأباغذ من ذوى الأرحام ؛ وقد زاد شأن هذه المسألة عند المسلمين ، لأن كثيراً من الفقهاء ذهبوا إلى أن بعض الأقارب الأدنى لا يجوز أن يحوزوا أكثر من الأسهم المقررة لهم في القرآن ؛ أما ما يفضل عن ذلك فهو نصيب بيت المال^(٤) . وفي القرن الثالث الهجري

(١) كتاب المراج لأدانة مخطوط باريس من ١٩١ - ب .

واظر أيضاً Schmidt, Die Occupatio im islamischen Recht, Der

Islam, I, 300 ff.

(٢) الإرشاد لباقوت ج ١ ص ٢٥٢ .

(٣) كتابه الزوايا ص ٢٤٨ .

(٤) يذهب الشافعية إلى جعل ما يفضل من سهام الفروضة إلى بيت المال لا إلى ذوى الأرحام الأباغذ ، إن لم يوجد للفرد عصة تحوز باقي ميراثه (انظر Sachau Muhammed, danisches Recht, S. 211, 247) ؛ وفي عام ٢٨٣ هـ - ٨٩٦ م أمر الخليفة المنتصد برّد الفاضل من سهام الموارث على ذوى الأرحام وإبطال ديوان الموارث ، وصرف عماله (تاريخ الطبري ج ٣ ص ٢١٥١) ؛ ويقول أبو الفدا (ج ٢ ص ٢٧٨ تحت عام ٢٨٣ هـ) ما يؤيد ذلك فلا عن القاضي شهاب الدين في تاريخه (توفي الدامس عام ٦٤٢ هـ - ١٢٤٤ م) ؛ ثم هذا المسكن حذو المنتصد وحدث هذا الأمر في عام ٣٠٠ هـ - ٩١٢ م . وفي عام -

أشئ ديوان خاص يسمى ديوان المواريث ، وذلك في عهد الخليفة المستد
(٢٥٦ - ٢٧٩ = ٨٦٩ - ٨٩٢ م) . وكان هذا الديوان مجالا واسعا لظلم
الناس والإعنات في مواريتهم وأخذ ما لم تجر به السنة ^(١) . يقول ابن المعتز قرب
أواخر القرن الثالث يشكو ما يجري على أصحاب المواريث ^(٢) :

وويل من مات أبوه موسرا أليس هذا محكما مشهرا
وطال في دار البلاء سجنه وقيل من يدرى بأنك ابنه
فقال : جيرانى ومن يعرفنى فتفتوا سبالة حقى فنى
وأسرفوا فى لكه ودفعه وانطلقت أكتهم فى صفه
ولم يزل فى أضيق الحبوس حتى رى لم بالكيس

وقد استطاع الخليفة الراضى أن يكبح شهوة الأسراء للاستيلاء على مواريث
الناس ؛ فقد حدث أن رجلا مات وخلف مالا عظيما ، فوجّه ابن رائق من أجل
من داره وحوانيته مالا ومناجا ؛ فلما عرف الراضى ذلك أنكره ، وأغذ إلى ابن
رائق بما أفلقه ؛ فأمر برد جميع ما أخذ من المال إلى موضعه ^(٣) . على أن سيف
الدولة المعروف بشجاعته والمشهور بشعرائه وسوء حكمه كان يأخذ المواريث أخذا
رسميا ؛ ففى عام ٣٣٣ هـ - ٩٤٤ م عين أبا حنين على بن عبد الملك الرقى قاضيا

٣١١ هـ - ٩٢٣ م أصدر الخليفة المستد أمره بأن يرده ما يفضل من السهام المقترنة
لدى ذوى الرحم الذين لا فرض لهم فى القرآن ، إذا لم يكن للنفق من يجوز ميراثه من ذوى
السهام ، وفى عام ٣٤٥ هـ - ٩٦٦ م أمر بمنز الدولة برفع المواريث المحصورة ، وفى عام
٣٥٦ هـ - ٩٦٦ م رده المواريث المحصورة إلى ذوى الأرحام - انظر التنظيم لابن الجوزى
ص ٩٨ ب ، ٩٩ .

(١) كتاب الوزراء ص ٢٤٦ - ٢٤٩ ، صريب ص ١١٧ - ١١٨ .

(٢) تاريخ الخلفاء ص ١٣١ .

(٣) التبريد فى أسرار مخطوط باريس ص ١٤٧ - ١٤٨ .

على حلب ، فكان هذا القاضي يصادر التركات ويقول : التركة لـسيد الدولة ، وليس لأبي الحسين إلا أخذ الجمالة^(١) . وقد تكلم المقدمي عن ركن الدولة وأهل بيته من الأسراء ، فعدد بعض مساوئهم ، ولكنه أكد من فضائلهم بنوع خاص أنهم « لم سياسة مجيبة ورسوم ردية ؛ غير أنهم لا يتعرضون لـتركات^(٢) » .

وكان كثير من الحكام يحاولون أن يعتبروا التركة من غير وارث ، ليستولوا عليها ؛ ولكن لم يوجد في الإسلام قانون طابق على المسلمين يشبه مثلا القانون الذي كان في إنجلترا في القرن الثالث عشر الميلادي^(٣) . وكان من محاسن أعمال حميد الجيوش حاكم بغداد المتوفى عام ٤٠١ هـ - ١٠١٠ م أنه نُحِّلَ إليه مرة مالٌ كثير قد خلفه بعض التجار المضربين ، وقيل له : ليس لكيت وارث ، فقال : لا يدخل خزانة السلطان ما ليس لها ؛ يُترك إلى أن يصبح خبره ؛ فلما كان بعد مدة جاء أخ الديت بكتاب من مصر بأنه مستحق لـتركة ، فقصد باب حميد الجيوش وأوصل إليه الكتاب ، ففُضِّى حاجته . ولما وصل التاجر إلى مصر أظهر الدعاء له ، فضج الناس بالدعاء له والثناء عليه ، وبلغ حميد الجيوش الخبير فُسْرَ به^(٤) . ولكن الأسر لم يكن يجرى هذا الجرى بالنسبة لغير المسلمين ؛ ففي القرن الثاني عشر الميلادي اعتل ربي بتاحيا ، وهو بالموصل ، وقال الأطباء إنها حلة الموت ؛ « ولما كان الرسم هناك في ذلك الوقت أن تستولى الحكومة على نصف ما يخلفه كل يهودي غريب يموت هناك ، وكان الربي بتاحيا حسن اللباس ، فقد قيل إنه غني ؛ وجاء عمال الحكومة لقبض تركته ، كآله قد مات » . وكثيراً

(١) Wüstenfeld, Die Statthalter von Aegypten, IV, S. 85.

(٢) المقدمي ص ٤٠٠ .

(٣) Caro, Soziale und Wirtschaftsgeschichte der Juden, I, 117.

(٤) ابن الأثير ج ٩ ص ١٠٨ .

ما كان يؤخذ جزء من مال الأغنياء في حياتهم ، وقد نشأ هذا الرسم من أن بعض المال كانوا يستولون على الأموال بغير حق ، ثم يضطرون إلى إرجاعها ؛ وهذا شبيه بما فعله نابليون الأول حين ألزم قواده من ذوى اليسار العظيم أن يدفعوا للخزانة مبالغ كبيرة . على أن جميع التجار الذين كانت تُبتزأ أموالهم كانت لهم معاملات مع الدولة أصابوا منها مالا وفيرا ، أو على الأقل ظن بهم ذلك . يقول ابن المعتز في وصفه لجور الحكومة في عهد المعتد^(١) :

وتاجر ذى جوهر ومال	كان من الله بحسن حال
قيل له : عندك لاسطان	ودائع غالية الأثمان
فقال : لا والله ما عندي له	صغيرة من ذا ولا جليله
وإنما أربحت في التجارة	ولم أكن في المال ذا خسارة
فدخنوه بدخان الدين	وأرقدوه بثقال الدين
حتى إذا مل الحياة وضجر	وقال : ليت المال جمعا في سقر
أعطهم ما طلبوا ، فأطلقا	يستعمل الشئ ويمشى العنقا

ونرى من الثبت الذى يحوى أسماء المصادر بن أنهم كانوا عمالا من حال الدولة أو جهالة كانوا يعاملونها^(٢) . وليس فيما انتهى إلينا من حكايات تتماق بالمصادرات مثل واحد لأخذ الحكومة أموال المال الخاصة ظاماً وجوراً من غير طريقة قانونية ؛ فيحكى لنا ابن مسكويه « أن الوزير أبا على بن مقله كان يمدى أبا الخطاب بن أبى العباس بن القرات ، ولم يكن يمد إلى القبض عليه طريقاً

(١) ديوان ابن المعتز ج ١ ص ١٣١ - ١٣٢ .

(٢) كتاب الوزراء ص ٢٢٣ - ٢٢٧ .

ديوانيا، لأنه كان ترك التصرف عشرين سنة، ولزم منزله، وقنع بدخل ضيقته^(١)، على أن نظام المصادرة قد تقاب في أطوار، فكان في أوائل القرن الرابع ضرباً من ضروب العقاب، وبعد ذلك صار كل من كانت له صلة بالحكومة مشتبهاً في نقاوة يده، فكان يصادر بين حين وآخر.

وكان الأخشيد صاحب مصر وأدرى الأحكام بأمور المال بين عامي ٨٣٠ و (٩١٢ م) و ٨٣٥ و (٩٦١ م)، يقوم بالمصادرات الكثيرة في هدوء من جانبه وبرود، فكان يقبض على عماله وخاصته وثقاته، ويصادرهم على المبالغ الكبيرة م وأهلهم ومن يكون في دورهم يوم المصادرة. وكان أحب إليه أن يأخذ غلاتهم بسلاحهم ودوابهم وتبائهم فيجعلهم بين يديه^(٢)؛ وكان إذا أفلت أحد من المصادرة حياً لم يسلم من أخذ أمواله بعد وفاته. وكانت طريقة الأخشيد أنه إذا توفي قائد من قياده أو كاتب تعرض ورثته، وأخذ منهم وصارهم، وكذلك كان يفعل مع التجار الميسرين^(٣). ففي عام ٨٣٢٣ - ٩٣٤ م توفي عفان بن سليمان البراز أجل تاجر كان بمصر؛ فأخذ الأخشيد من ميراثه نحو مائة ألف دينار^(٤)؛ ولما مات الوزير أبو محمد المهلبى (عام ٨٣٥٢ - ٩٦٣ م)،

(١) مسكويه ج ٥ ص ٣٩٨، والمصادرة اصطلاح، والصدّر هو الرجوع بعد الاستلاء بالمال، ويقال له الورد وهو عند القديين مثل الرجوع؛ انظر فهرس الطبرى مثلاً؛ وكلمة صدر من المال الذى يؤخذ من المصادرة. (هذا ما يقوله المؤلف) وهو يذكر أشكاً منها ما صرح في كلام مسكويه وهو: قد أمر بضرب عنقه إن لم يؤدّ صدراً من المال؛ وصح منها إلى يوم هربه صدر كثير (مسكويه ج ٥ ص ٤٠١، ٥٧٢)؛ وفي كتاب الوزراء (ص ٢١٠) ولم يزل البكاؤدان يدبر الأمور حتى مضى كثيراً واستخرج صدراً كبيراً. وفي رسائل الحمزانى (ص ٢٣٣) : وقد كان الشيخ كتب خطأ عن فلان بضد من المنطة إلى بعض وكلائه (وهذا غير موجود في كتب اللغة)، ومن هذا سادده على قدر من المال.

(٢) العرب لابن سعيد ج ١٦ ص ١٧.

(٣) نفس المصدر ص ٣٦.

(٤) نفس المصدر ص ١٧.

بعد أن أبث في الوزارة ثلاث عشرة سنة ، قبض معز الدولة تركته وصادر عياله
ومن دخل إليه يوماً حتى للملاحين والسكران الذين كانوا يخدمون حاشيته ؛
وفد استقبّح الداس ذلك من معز الدولة واستنظموه^(١) . وكذلك لما مات
الصاحب بن عباد بعد أن كان وزير فخر الدولة ، المتحكم في تدبير الملك له ، حتى
كان لا يعصى له أمراً ، أرسل هذا الأمير من أحاط على دار الصاحب وخزائنه ،
ووجد له كبس فيه رقاع أقوام بمائة ألف وخمسين ألف دينار مودعة عندهم ؛
فطولبوا بذلك ، ونقل ما كان في الدار والخزائن إلى دار فخر الدولة^(٢) . وكان
أهل المال يتصلون بجميع الوسائل لإفساد خطة المصادرين وخداهم ، فن
ذلك أنهم كانوا يودعون أموالهم عند فاس كثيرين^(٣) ، ويلحنون أسماءهم
ويكذبون عن ألقابهم^(٤) .

ولما اعتقل ابن السميد عام ٣٦٦ هـ - ٩٧٦ م وأيقن أن القوم قاتلوه وأنه
لا ينجو منهم ، وإن بذل ماله ، أخرج من جيبه رقعة فيها ثبت ما لا يحصى من
ودائمه وكنوز أبيه وذخائره ، فالتقاها في كانون نار بين يديه ، وقال للموكل به :
اصنع ما أنت صانع ، فوالله لا يصل من أموالى المستورة إلى صاحبك دينار
واحد ؛ فما زال يمرضه على المذاب إلى أن تلف من غير أن يخبرهم بشيء^(٥) .
ولما صح عند الخليفة التقي قتل محكم ركب التقي إلى داره ، وحفر أماً كن فيها ،
فحصل له من مال محكم ما يزيد على ألف ألف وورقاً ، ثم أمر بفصل التراب ،

(١) مسكويه ج ٦ ص ٢٠٨ .

(٢) الإرشاد لأقوت ج ١ ص ٧٠ .

(٣) كتاب الوزراء ص ١٢٤ .

(٤) النظم ص ١٩٣ ب .

(٥) الإرشاد ج ٥ ص ٣٠٠ .

فأخرج منه ستة وثلاثون ألف درهم^(١) . ولكن بحكم كان قد دفن أمواله في الصحراء ، ولم يقتصر على ما دفنه في البيوت ؛ فكان الناس يتعدون بأهله ينزل من يدونه في ذلك ، لئلا يدل عليه في وقت آخر ؛ وباع بحكم ما يقوله الناس ، فأنكر ذلك ، وحكى اسنان بن ثابت ما كان يفعله إذا أراد دفن مال في الصحراء : كان يحضر إلى داره بغالا عليها صناديق فارغة ، فيحمل المال في بعضها ، ويدخل من يريد أن يكون معه من الماعدين في البعس لآخره ، ويطلق عليهم ؛ ثم يأخذ مقود قطار البغال بنفسه ، ويسير إلى حيث يريد ، ثم ينتح عن الرجال ، فيحفرون ، ويدفن المال ؛ وبعد ذلك يرد الرجال إلى الصناديق ويطلقها عليهم ، ويعود ؛ فلا يدري الرجال إلى أين ذهبوا من أرض الله ولا من أين أتوا ، وكان هو يحمل لنفسه علامات يهتدى بها ؛ وبهذه الطريقة استغنى عن القتل ، وأقسم لثابت أنه لم يقتل أحداً من أجل دفن المال ، وأن ذلك من تشجيع الناس^(٢) .

وفي عام ٨٣٥٠ - ٩٦١ م ، توفي أبو علي خازن معز الدولة ، وكان رجلاً كثير التمويه متفاقراً ، يظهر الفقر والاقتضاء ، حتى كان معز الدولة يستعد أنه بأئس لابتلاك شيئاً ؛ فاستأذن الوزير المملوكي معز الدولة في البحث عن أمواله ، واستعمل طريقة رجال الشرطة ؛ فقبض على غلامه . وكان يخلو ببعضهم ويرعبه ويرعبه ، حتى استطاع أن يعرف أن أبا علي الخازن طرد غلاماً له سرياً حبشياً من حجرة موسومة به ، وجلس في هذه الحجرة للخلوة أياماً ؛ فبهر الوزير المملوكي دار أبي علي والنمس حجرة المزين ، فحفر فيها ، فظفر بمال ؛ وكان في جملة المدفون آلة شبيهة

(٢) المتظام ص ٦٨ ب .

(٣) مكوه ج ٦ ص ٣٩ - ٤١ .

الميزان من خشب الساج ، لا شيء فيها ، فعجب منها ؛ ثم قلبها فوجد عليها كتابة بخط ردي ، فإذا هي أسماء قوم ورموز لا يفهم منها شيء ؛ فلم يشك الوزير أنها أسماء قوم مودعين وأن الرموز مبالغ ما عندهم من المال ؛ ولم يزل يستعمل الدماء والتخمين في فك الرموز ومعرفة المبالغين حتى صبح له ذلك ، وبطش بمن اعتدى إليه حتى حصل منهم على المال^(١) . وكان أحد الأغنياء إذا مات جراً موته الذكبة لأهله ولكل من يتصل به من الكتاب والجهابذة والأصدقاء ؛ فكاوا يهربون ويستترون ويمتنعون من تسليم الوصية للحكومة ، حتى لا تهتدى إلى مكاتب التركة ووجرها ؛ وقد حدث مثل هذا عند وفاة أحد الملوك إلى أن تقرر أمر التركة أخيراً على خمسين ألف دينار تحمل إلى الخزانه صلحاً على التركة^(٢) .

والرسوم الجركية غير جائزة في الشريعة الإسلامية ، إذا دققنا النظر في أحكامها . ورغم هذا فإن مراد الكوس كانت منتشرة في كل مكان . وقد حاول الفقهاء أن يحلوا هذه المسألة بأن اعتبروا الضرائب الجركية داخلية ضمن الزكاة ، وهذا بالنسبة للمسلمين على الأقل ؛ ومن هذا نشأت فكرة أن التاجر يستطيع أن يمارف ما لا يكاد لا أينما شاء من حدود البلاد متى من الكوس متى دفع للكس مرة واحدة ، وهو العشر ، وأنه لا بد له أيضاً أن يدفع ضريبة مائة من عين المال على معدل رُبع العشر^(٣) . وكانت التعريف الجركية في

(١) مسكويه ج ١ ص ٢٤٤ — ٢٤٩ .

(٢) كتاب الرام ص ٣٧٧ — ٣٧٨ .

(٣) ترجمة الخضر صبح الأعشى ص ١٦٢ ، وصبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦١ ، ٤٦٣ . يجب على المسلمين من التاجر من حيث الحكم النظري أن يدفعوا من بضائعهم عند الحدود من الضرائب ما يدفعه المسلمون في تلك البلاد ، وهو العشر عادة ، وبطلان الناحية بذلك برادة تذهب من الزور دون أن يدفع شيئاً لحد عام ؛ انظر شرح السرخسي (النفوس =

الواقع مختلفة ، فكان يؤخذ في جُدة عن كل حل من الحنطة نصف دينار وكل من فرد الزائلة ، وعلى سبط ثياب الشطوى ثلاثة دنانير ، وعلى سبط الذهب ديناران ، وعن حل الصوف ديناران . وكان يؤخذ بالفلزم (السويس) عن كل حل درهم ؛ وكانت تفرض رسوم في الموانئ العربية الأخرى . واسكن المكوس كانت أقل مما تقدم ، وكانت الضرائب تؤخذ بالإسكندرية على المراكب الآتية من الغرب وبالقرما على سراكب الشام ^(١) . وكان لضغار ملوك العرب على اختلافهم سراسد برية تدفع إليها الضرائب على تفاوت في القيمة ؛ فكان بعضهم

== عام ١٩٥٥ هـ - ١١٠٢ م) على الشيباني ، مخطوط ليدن ، كما ذكر ذلك دى غوى :
(De Oorje Internationale Handelsverkeer in de Middeleeuwen, Verlagen Mededeelingen der K. Akad. v. Wetenschappen, 1909, S. 265.) على أن العلماء ليسوا متفقين في أصل المكوس ، فبعضهم يقضي بدفع نصف العشر إلا الحرف فيؤخذ عنه العشر (كتاب الحراج لحي بن آدم من ٥١) ، وبذهب البعض الآخر إلى وجوب دفع العشر مرموماً (كتاب الحراج لأبي يوسف من ٧٦ - ٨٠) ؛ والحق به عند الشافعية أن للإمام أن يزيد من العشر أو ينقص عنه لل حاجة إلى زيادة الاستيراد وأن يرفع المكس رأساً إذا رأى في ذلك مصلحة ؛ وعلى أي حال فإن الضريبة كانت شخصية . وإذا عاد التاجر أدى دفعها في أثناء السنة ومنه بضائع لا يلزم بدفع شيء إلا إذا كان قد وقع التراضي منه على ذلك (مختصر صبح الأعشى للفنقندي ترجمة فستفد من ١٦٤ ، وصبح الأعشى فتهج ٣ من ٤٦٣ من طبعة القاهرة (دار الكتب) ؛ وليس عندنا معرفة دقيقة نستطيع استخلاصها مما ذكر من أن التاجر أياً دلف أدى سافر إلى الصين عام ٨٣٣ هـ - ٩٤٤ م دفع العشر من بضائنه في الصين (بالوت في معجم البلدان تحت كلمة صين) ، ومن أن سراكب الروم والأسبان والفاوية كانت تلزم بأن تدفع العشر للسلطان في طرابلس (ناصر خسرو من ١١٢) ؛ لأن كلمة عسر يمكن أن تؤخذ بمعنى الضريبة وبمعنى أخذ الضريبة . على أن المعامدات التجارية التي أبرمت مع اليربيين سنة ١١٥٤ هـ ، ١١٧٣ م تنص على أن تكون الضريبة من العشر . انظر : Schaubé, Handelsgechichte der roman. Völker S. 149 ff.

(١) القدسي من ٢١٣ والمصفحات التالية ، وكانت الضرائب في مدن تيفل ؛ وقد يُدّر أنه يصل إلى خزنة السلطان ثلث أموال التجار . ويظهر أن هذا كان يتحقق بهما أيضاً كما في بعض النسخ (انظر من ١٠٥ في الخامس) .

يأخذ نصف دينار عن كل حمل ، وأكثرم كان لا يأخذ عن الحمل إلا درهما^(١) .
أما العراق فكانت كثيرة المراصد في البر والبحر والنهر ؛ وكانت البصرة مشهورة
بتفتيش صعب وشركات منكرة . وفي عهد المقدسي كان على باب البصرة عند
حدود مملكة الخليفة من حدود بلاد القرامطة ديوان للقرامطة وديوان آخر للديلم ،
حتى لقد كان يؤخذ على الغنمة الواحدة أربعة دراهم (أى ضعف ثمنها) . وكان
الديوان لا يفتح إلا ساعة من النهار^(٢) . وكان يؤخذ من كل حمل دخل اليهودية ،
وهي القسم التجاري في أصفهان ، ثلاثون درهما^(٣) . وكان الخراج في طوران
يؤخذ عن الحمل ستة دراهم إذا دخل وكذلك إذا خرج ، ومن الرقيق اثنا عشر
إذا دخل حسب ، وإن كان من نحو الهند فمشترون من الحمل ، وإن كان من
قبل السند فعلى حسب القيم^(٤) .

وكانت تؤخذ في المملكة الإسلامية ضرائب على المصادرات ، كما كان الحال
في كل المصور القديمة . وقد نص الفقهاء على أنه ينبغي أن يكون للإمام مصالح
على المواضع التي تنفذ إلى بلاد أهل الشرك ، فيفتشون من يمر بهم من التجار ؛
فمن كان معه سلاح أخذ منه ورء ، ومن كان معه رقيق رء ، ومن كان معه كتب
قرئت كتبه ؛ فإن كان فيها خبر من أخبار المسلمين قد كتب به أخذ الذي أصيب
معه الكتاب وبعث به إلى الإمام ليرى فيه رأيه^(٥) . وفيما وراء النهر كان لا يعبر
الرقيق نهر حبيجون إلا بحواز من السلطان ، ويأخذ مع الجواز من سيمين إلى مائة

(١) مقدسي ص ١٠٥ .

(٢) نفس المصدر ص ١٣٣ - ١٣٤ .

(٣) نفس المصدر ص ٤٠٠ .

(٤) نفس المصدر ص ٤٨٥ .

(٥) كتاب الخراج لأبي يوسف ص ١١٧ .

درم ، وكذلك على الجوارى بلا جواز إذا كانوا أنراكا ، ويؤخذ على المرأة
عشرون إلى ثلاثين درهما ، وعلى الرجل درهما ، وعلى قنص الراكب درم^(١) .
أما في بلاد طوران فكان يؤخذ الخراج من كل ما خرج إلا الرقيق ، فكان
لا يؤخذ عنه إلا إذا دخل^(٢) . وفي جنوب جزيرة العرب كان لا يؤخذ بمدينة
هجر إلا عما يخرج^(٣) . وكان يعطى المصدرين جوائز بكرمان ، وذلك لكثرة
النمر ، حتى إن الجمالين كانوا يحملون النمر مناصفة إلى خراسان ؛ ويقصدها كل
سنة نحو مائة ألف جبل ، ويعطى السلطان كل جبل ديناراً^(٤) . وقد وصف
الرحالون صعوبة التفتيش في عدن بنوع خاص^(٥) . وشكا ابن جبير الرحالة
الأندلسي في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) مما عوّل به
في الإسكندرية ، قال : « فن أول ما شاهدنا فيها يوم زولنا أن طلع أمعاء إلى
الركب من قبيل السلطان بها لتقييد جميع ما جلب فيه ، فاستحضر جميع من كان
فيه من السليين واحداً واحداً ، وكتبت أسمؤهم وصفاتهم وأسماء بلادهم ، وسئل
كل واحد منهم عما لديه من سباع أو ناض ليؤدى زكاة ذلك كله ، دون أن
يبحث مما حال عليه الحول من ذلك أو ما لم يحل ؛ وكان أكثرهم مشغصين
لأداء الفريضة ، لم يتصحبوا سوى زاد الطريقهم^(٦) ، فألزموا أداء زكاة ذلك
دون أن يسأل هل حال عليه الحول أم لا ؛ واستأمرل أحد بن حسان من ألبال

(١) المقدسي ص ٣٤٠ .

(٢) نفس المصدر ص ٤٨٥ .

(٣) نفس المصدر ص ١٠٤ .

(٤) نفس المصدر ص ٤٦٩ .

(٥) نفس المصدر ص ١٠٥ ، في الهامش .

(٦) يفيض الفقهاء بإعفاء الراد من الضرائب — ترجمة غينغند فخر صبح

الأندلسي ص ٦٦ .

من أبناء المغرب وطلع المركب ، فطيف به سرقياً على السلطان أولاً ، ثم على
القاضي ، ثم على أهل الديوان ، ثم على جماعة من حاشية السلطان ؛ وفي كل
يُسْتَفْهِمُ ثم يقيد قوله فخلى سبيله ، وأمر المسلمون بتنزيل أسلابهم ، وما فضل من
أزودتهم . وعلى ساحل البحر أعوان يتوكلون بهم ، وحمل جميع ما أنزلوه إلى
الديوان فاستدعوا واحداً بعد واحد ، وأحضر ما لكل واحد من الأسباب ،
والديوان قد غص بالزحام ، فوقع التفديش لجميع الأسباب ، ماذق منها وما جلت ،
واختلط بعضهم ببعض ، وأدخلت الأيدي إلى أوساطهم بحثاً عما عسى أن يكون
فيها ؛ ثم استملقوه بعد ذلك هل عندهم غير ما وجدوا لم أم لا ؛ وفي أثناء ذلك
ذهب كثير من أسباب الناس لاختلاط الأيدي وتكاثر الزحام ، ثم أطلقوا بعد
موقف من القتل والخرزى عظيم ، نسأل الله أن يعظم الأجر بذلك ^(١) .

ولما كان من الأمور المقررة أن الدولة الإسلامية ملك للمسلمين ، فقد قضى
منذ أول عهد الإسلام بالفصل بين بيت المال العام وبين خزانة الخليفة ، وهي
المسماة بيت مال الخاصة ؛ ولكن لما كان الذي يتولى الإنفاق من هاتين الخزانتين
رجلاً واحداً لا يقدم حساباً لأحد ، فقد كان مدى انفصالها مسألة تتعلق بضيمه ^(٢) .
ولذلك ترددت حكايات مؤثرة فيما بعد تبين مقدار عناية كل من أبي بكر وعمر
بالفصل بين مال المسلمين ومالهم الخاص . وكان هناك توازن بين بيت المال ،
فكان إذا نفذ ما في بيت المال العام يجب على بيت مال الخاصة أن يعيد المعونة

(١) رحلة أبي الحسن محمد بن أحمد بن جبير الأندلسي ، طبعة لندن سنة ١٨٥٢

ص ٣٥ - ٣٦ .

(٢) كان الوزير ، وهو رئيس بيت المال العام ، شيء من الإشراف على بيت مال
الخاصة أيضاً ، لأنه كان يوقع في آخر رفاق الصرف بعد توقيع كبار رؤساء الخاشية
(كتاب الوزراء ص ١٢٠) .

حتى لا تنفلس الدولة^(١) ؛ وعندنا دليل من رقعة بمؤشير على بن عيسى ، على أن الخليفة المتضد (٢٧٩ - ٢٨٩ = ٨٢٨٩ - ٨٩٢ - ٩٠١ م) ، وكذلك الخليفة المكثف (٢٨٩ - ٢٩٥ = ٩٠١ - ٩٠٧ م) ، على ما عرف به من النظر في القليل اليسير ، كأننا ينفقان من بيت مال الخاصة الجلة بعد الجلة^(٢) . ولم يكن الجود إلى بيت مال الخاصة في عهد المتضد قد صار رسماً جارياً ، وما يمكن أن أحد الوزراء استخلف ابنه على الوزارة لما خرج من بغداد ، فضاعت الأموال على الولد ، واشتدت المطالبة بالاستحقاقات ؛ فدعته الضرورة إلى طلب قرض من الخليفة ، فكتب الوزير لابنه موثقاً معتقاً ، وأعلمه أنه قد أخطأ وأساء ، وجنى على نفسه ، وعلى آية جنابة لا يمكن تلافيها ، وأنه كان يجب أن يستلف المال من التجار ، ويلتزم من ماله ومال آية قدر الربح فيه ، ولا يفعل ما فعله^(٣) . وفي عهد الخليفة المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠ = ٩٠٧ - ٩٣٢ م) استنزف بيت مال الخاصة ، وذلك لأن الميل أخذ منه بزعم إعادة متى تحسن الحال ، وفي عام ٣١٩ هـ - ٩٣١ م عرض الوزير على المقتدر ما كان من العجز وهو سبعمائة ألف دينار ، وقال له : ليس لي معول إلا على ما يطلقه أمير المؤمنين لأخيه ، فعظم ذلك على المقتدر ، وكتب أحد التطلعين للوزارة إليه رقعة بضمن فيها القيام بجميع النفقات من غير أن يطلب منه شيئاً ، وأن يستخرج سوى ذلك ألف ألف دينار . هب إلى بيت مال الخاصة ، فقلده الخليفة الوزارة ، ولكنه عزل في المم

سرى ، ووُجد أنه احتال بأن أضاف إلى ما يقدر حصوله من النواحي أموال

(١) وفي عصرنا هذا كثيراً ما رأينا السلطان عبد الحميد يمد بيت المال من ثروته .

(٢) كتاب الوزراء ص ٢٨١ .

(٣) كتاب الوزراء ص ١٨٧ - ١٨٨ .

نواح قد خرجت عن السلطان بتقلب من تملك عليها ، وأسقط من النفقات زيادات الجند والحاشية ، ولم يسقط من الأموال التي يُقدَّرُ حصولها من النواح ارتفاع ما يباع من الضياع . وإنما أراد بهذا كله أن يحمل تقدير النفقات مقرباً لارتفاع الأموال من النواح ليسكن بذلك قلب المقدر ، فكانت الخسبة التي قدمها ممومة^(١) . وفي عام ٣٢٩ هـ — ٩٤٠ م طلب الوزير من الخليفة خمسمائة ألف دينار ليرفعها في الجند ، فامتنع عليه ، ثم أنفذها إليه بعد التهديد^(٢) .

وكان يجب على الخليفة بحكم أنه الرئيس الروحي للمسلمين أن يقوم بنفقات موسم الحج ، ونفقات الخزرات الصائفة ، وفداء أسرى المسلمين ، والقيام بنفقات الرسل الواردين ، وذلك من بيت مال الخاصة^(٣) . أما العطايا وكل ما يتعلق بنفقات دار الخلافة ، فكان يؤخذ من بيت المال العام^(٤) . وعندنا بيان يرجع إلى أول القرن الرابع مشتمل على وجوه الأموال التي تُحمل إلى بيت مال الخاصة^(٥) .

(١) الأموال الخفية التي يتركها الآباء لأبنائهم في بيت المال . ويقال إن الرشيد خلف أكبر مقدار من المال ، وهو ثمانية وأربعون ألف ألف دينار ؛ وكان المعتضد (٢٧٩ — ٢٨٩ هـ) يستفضل في كل سنة من سني خلافته ، بعد النفقات ، بما كان يحصله بيت مال الخاصة ألف ألف دينار ، حتى اجتمع في بيت

(١) سكويه ج ٥ ص ٣٥١ — ٣٥٢ ، وابن الأثير ج ٨ ص ١٧٦ .

(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٧٩ .

(٣) كتاب الررداء ص ٢٢ ، ولذلك نجد الوزير ابن الفرات يطلب من المقدر أن يعطيه من بيت مال الخاصة ما يصرفه في نفقات عبد الحر ، فيمنعه الخليفة ويلزمه القيام به من جهته ؛ كتاب الوزراء ص ٢٨ .

(٤) كتاب الوزراء ، ص ١٠ والمصنفات التالية .

(٥) سكويه ج ٥ ص ٢٨١ — ٣٨٥ وهو بيان الأموال التي أنفقها المعتضد .

المال تسعة آلاف ألف دينار ، وكان يريد أن يتمها عشرة آلاف ألف دينار ، ثم يسحبها ويجمعها بقية واحدة ؛ ونذر عند بلوغ ذلك أن يترك عن أهل البلاد ثلث الخراج في تلك السنة . وأراد أن يطرح السبيكة على باب العامة ليبلغ أصحاب الأطراف أن له عشرة آلاف ألف دينار ، وهو مستغن عنها ؛ فاختاروه النية قبل بلوغ الأمية^(١) . ثم جاء المكثف بعد المتضد (٢٨٩ هـ - ٢٩٥ هـ) ، فأبلغ المذخر إلى أربعة عشر ألف ألف دينار^(٢) .

(٢) مال الخراج والضيايع العامة الذي يرتفع من أحوال فارس وكرمان (بعد إسقاط النفقات) ؛ وبلغ مقدار ذلك في كل سنة منذ عام ٢٢٩٩ هـ إلى ٢٣٢٠ هـ (٩١١ - ٩٣٢ م) ثلاثة وعشرين ألف ألف درهم ، منها أربعة آلاف ألف درهم كانت تحمل إلى بيت مال العامة ، والباقي ، وهو تسعة عشر ألف ألف درهم ، إلى بيت مال الخاصة . ويجب أن نسقط من ذلك النفقات الحادثة التي تتطلبها هذه البلاد ؛ ففي عام ٢٣٠٣ هـ = ٩١٥ م أتفق الخليفة لفتحها ما يزيد على سبعة آلاف ألف درهم^(٣) .

(١) كتاب الوزراء من ١٨٩ هـ ، وكان بيت مال الخاصة الذي بناه المتضد قلعة قد سبب أن أنشأها الرساس ؛ وكانت الأكياس التي يوضع فيها المال تحتم بخام خازن بيت المال ، وكان جنس اللوك في القرن الرابع يحملون المال في الصناديق إلا الأخشيد صاحب مصر فإنه بعد نظره كان يقول : لا يحملوا المال في الصناديق لأن الصناديق مطلوبة ، بل اجعلوها في خزائن السلطان ، فسكانت توضع في أعدل الجواهر التي لا ينفذ إليها أحد (المغرب لابن سعيد من ٤٤) .

(٢) انظر هذا مذكوره كتاب الوزراء من ٢٩٠ هـ وما بعدها ؛ (وعكس الصافي في كتاب الوزراء من ١٣٩ غير هذا) . انظر Elias Nisibenus (الذي ولد عام ٢٦٤ هـ - ٩٢٠ م) من ٢٠٠ قلا من محمد بن يحيى .

(٣) هذا المبلغ يعرف من مقارنة النصوص ومن أن مال البيعة والفتح بلغ بضعة عشر ألف ألف دينار (مسكويه) ؛ على من أن مال البيعة وحده بلغ في لدنة الواحدة ثلاثة آلاف ألف دينار (كتاب الوزراء من ٢٩٣ هـ) .

(٣) أموال مصر والشام ، وكانت جزية أهل القنّة مثلاً تحمل إلى بيت مال الخليفة باعتباره أمير المؤمنين ، لا إلى بيت مال العامة^(١) ؛ وهذا ما يجب للخليفة نظرياً .

(٤) المال الذي يؤخذ من المصادرة لأموال الوزراء المعزولين والسكران والمال وما يحصل من ارتفاع ضيقاتهم ، والمال الذي يؤخذ من التركات^(٢) .

(٥) ما كان يحمل إلى بيت مال الخاصة من أموال الضياع والخراج بالسواد والأهواز والشرق والغرب .

(٦) ما كان يستفصله الخلفاء ، فكان كل من الخليفين الأخيرين في القرن الثالث الهجري (وهما المعتز والمعتز) يستفصل في السنة ألف دينار ؛ وكان سبيل المعتز أن يستفصل مثلاً فيكون مبلغه في خمس وعشرين سنة خمسة وعشرين ألف دينار أعني نحواً من نصف ما خلفه الرشيد^(٣) . ولكن المعتز أنفق كل هذه الأموال الطائلة حتى لم يبق في بيت مال الخاصة بعد

(١) المنتظم لابن الجوزي ص ١٩٦ ب

(٢) كان الخليفة يرث مال الخدم ومال من لا وله من موال أسرة الخلافة . ولا كان هؤلاء في الغالب سادة ذوي مناصب تدور الرزق الكثير فإن مالا كثيراً كان يجري إلى خزنة الخليفة ، وفي عام ٣١١ هـ — ٩٢٣ م توفي القائد السن يانس الوقفي ، وكان ذا خلعان وسلاح ، فكان ينزل عند سورداره من خيار الفرسان والخدم ألف مقاتل ، ولد خلف ، فبا خلف ، ضياعاً ثقل ثلاثين ألف دينار (مريب ص ١١٥ — ١١٦) ؛ وفي عام ٣٠٢ هـ — ٩١٤ م ماتت بدعة الغنية جارية عريب ، (هكذا تنس في الأغاني ج ١٨ ص ١٧٥ — ١٧٩ ، وفي كتاب بغداد لطيفور طبعة Keller ص ٣٠٨ ، ليست عريب كما يريد دي غوي في كتاب مريب بن سعيد ص ٥٤) التي لم يكن بين جواري المأمون امرأة دأب ضرب منها ، ولا أحد من سمة ، ولا أحسن وجهاً ، ولا أخف روحاً ، ولا أحسن خطاباً ، ولا أسرع جراً ، وقد خلفت مالا كثيراً وجوهرات وضياعاً ومعارات ؛ وأمر المعتز ببيع ذلك كله (مريب ص ٥٤) .

(٣) خطأ في كلام المؤلف أسلحته بالرجوع إلى الأصول العربية (الترجم) .

ما أنفق في محاربة القرمل على عام ٨٣١٥ = ٩٢٧ م إلا خمسمائة ألف دينار^(١). ولم يكن في سائر دواوين الإسلام ديوان أصعب عملاً وأكثر أنواعاً من ديوان فارس، لاختلاف ربوعها وتقارب الأخرجة على أصناف زروعها واختلاف أبواب أموالها وتشعب الأعمال على المتقاعدين لها^(٢). وقد نبغ في دواوينها الكثير من العمال. أما ضرائبها فيقول المقدسي: ولا نسال عن ثقل الضرائب وكثرتها، ويقول: قرأت في كتاب بمخزاة عضد الدولة. أهل فارس أنجع الناس بطاعة السلطان، وأصبرهم على الظلم، وأثقلهم بخراجاً، وأذلهم نفوساً، وهم لم يعرفوا عدلاً قط^(٣). وكانت فارس في عام ٨٣٠٣ = ٩١٥ م تدفع ضرائب تفوق غيرها بكثير^(٤)؛ فليس غريباً أن نجد الباحث يخصص لفارس أطول مقالة من مقالاته السياسية^(٥). وربما كان تنظيماً هذه البلاد الجبلية، متنوعاً منذ عهد الساسانيين، فكانت فيها قلاع صخرية بعيدة النال، وغابات؛ وأشرف على مسكون أرضاً واسعة، فكان هذا من دواعي تكوين نظام إقطاعي كامل منذ ذلك الحين، حتى أن المقدسي يقول إن أكثر الضياع بها مقطعة^(٦). ومع هذا كان النظام المالي من النمو بحيث أن الأكرّة الذين كانوا يزرعون الضياع السلطانية بالمقاسمة أو المقاطعة كان عليهم ضرائب يؤدونها دراهم^(٧). وكان يفرض

(١) انظر مسكويه ج ٥ ص ٢٠١، ٢٨١ - ٢٨٥.

(٢) الاسطخرى ص ١٤٦.

(٣) المقدسي ص ٤٥١، ٤٤٨.

(٤) Kremer. Einnahmebudget, S. 308.

(٥) الاسطخرى ص ١٥٦ وما بعدها، وابن حوقل ص ٢١٦ وما بعدها.

(٦) المقدسي ص ٤٣٩.

(٧) الاسطخرى ص ٥٨.

الخراج على أساس ما إذا كانت الأرض تسقى أو لا تسقى ؛ وإذا كانت تسقى فهو على أساس ما إذا كانت تسقى بآلة أم بغير آلة ؛ فإن كانت لا تسقى بالآلات دُفع عنها مقدار هو المقياس ، ويؤخذ ثلثا ذلك مما يسقى بآلة ونصفه مما لا يسقى قط^(١) . وأما خراج الشجر والفروس المثمرة ، ومنها الكرم ، فقد كان الخليفة قد أسقط عنه الخراج ؛ ولكن أصحاب خراج الزرع شكوا إلى الخليفة المقنن فقل الخراج عليهم بسبب ما ألزموه من التكلفة ، فعُرم أهل الشجر مما كانوا يتمتعون به من الإعفاء وفُرضت عليهم الضرائب ؛ فكان يدفع عن الجريب الكبير من الكرم ألف وأربعمائة وخمسة وعشرون درهماً^(٢) ، وعلى كل نخلة ربع درم^(٣) . وكانت الطواحين احتكاً لسلطان ، وكذلك أجرة الدور التي يعمل فيها ماء الورد^(٤) . وفي مدن فارس كانت أراضي الأسواق وشوارعها ملكاً للحكومة تأخذ عنها أجراً ؛ أما الدور فكانت ملكاً لأصحابها .

وكان فقهاء المسلمين يعتبرون كل ما زاد عن الضرائب الشرعية (وهي عشر الأرض والزكاة وجزية أهل الذمة) ضرائب غير قانونية . ولذلك أبطل الوزير التقي على بن عيسى المكس بمكة وجباية الخمر بديار ريعة^(٥) . ولهذا السبب أيضاً نجد الخليفة الحاكم بأمر الله في مصر حينما أراد أن يرجع إلى أصول الإسلام الأولى ، يسقط جميع الرسوم والمكوس التي جرت العادة بها ، وسرعان ما أعيدت في عهد خلفه إلى ما كانت عليه^(٦) . وكما أن فارس كانت هي البلاد المعروفة

(١) الأسطخري ص ١٥٧ - ١٥٨ .

(٢) نفس المصدر ص ١٥٧ ، وكتاب الوزراء ص ٣٤١ - ٣٤٢ .

(٣) مقدسي ص ١٥٧ - ١٥٨ .

(٤) الأسطخري ص ١٥٨ .

(٥) كتاب البيون ص ١٨٧ ، وهذه ما نسبها ابن حوقل (ص ١١٢) لضرائب الخمر .

(٦) يحيى بن سعيد ص ١٢٣ ، ١٢٤ ب .

بخراجها ، فقد كانت مصر أرض المكوس ؛ وبذل بيان وجوه المال في عهد القاطنين على أن كل شيء كانت تفرض عليه المكوس ، ولم يعلم من ذلك إلا الهواء^(١) ؛ وكان لا بد أن يدفع في جملة مبالغ الضرائب جزء من اثني عشر منها « ضريبة » وعشر « للمصرف » وجزء من مائة للبراءة^(٢) . والزراعيون الإسلاميون الذين يعتبرون أن الإدارة الإسلامية الأولى هي التي تنمى مع الشريعة يصفون ابن المدبر الذي ولي خراج مصر بعد سنة خمسين وماثني بأنه من « شياطين الكتاب » ؛ لأنه أول من أحدث مالا سوى مال الخراج بمصر^(٣) . ولكن هذه المكوس لم تكن حادثة بل كانت موجودة على عهد البطالة والرومان والبيزنطيين ، « وكان الإنسان لا يتأكل أن يسأل نفسه : هل بقي بمصر اليوم شيء مما يمكن أن تفرض عليه المكوس بدون مكوس^(٤) ؟ » . ويظهر أن الإسلام في العهد الأول من لم يقض على الكثير من الوسائل الاقتصادية القديمة التي جرت العادة بالاجوء إليها لامتصاص ثروة الناس^(٥) . وقد

(١) انظر المخطوط القرظي مثلاً ج ١ ص ١٠٣ وما يليها .

(٢) Hofmeier, Islam, IV, S. 100 ff.

(٣) المخطوط القرظي ج ١ ص ١٠٢ . قال أبو الحسن بن اللذبرية كان تلك الديوانيين بالعراق يريد ديوان للعراق وديوان المغرب ؛ فلا يبيت ليلة من الليال وعليه حمل أو بقية منه ، ثم تلك حمل مصر فكان ربما بات وقد بقي عليه شيء من العمل فيتمه إذا أصبح (ابن حوقل ص ٨٨) . وكذلك يخبئنا يحيى بن سعيد أن عيسى بن بطورس القتي تلك الوزارة بمصر قرب أواخر القرن الرابع الهجري أحدث رسوماً ومكوساً بائرة . ويحيى بن سعيد مواطن معاصر لعيسى ، وهو خزان مثله (يحيى بن سعيد ص ١١٣ ب) .

(٤) انظر Wilken, Griech. Ostraka, 410 .

(٥) انظر أوراق البردي (التي لعمرها بكر Becker) ، وكان العهد ١٥٨ —

١٦٠ م أول من فرض حيازة على الأسواق وفصل عليها أجرة وذلك في بغداد (تاريخ لبنان ج ٢ ص ٤٨١ ، طبعة ليدن ١٩٨٢) وفي مصر (الدولة فلكندى ص ١٢٤) .

ذكر المقدسي أن الضرائب بمصر ثقيلة وبخاصة في تنيس وهي مدينة بمصر تحيط بها المياه مشهورة بمسوحاتها^(١) . وقد بلغ من شدة وطأة الضرائب بها وكثرة الرسوم أن أهلها شكوا إلى البطريق وهو مارثا بمصر - حوالى عام ٨٢٠ - ٨١٥ م أن الواحد منهم يلزم بدفع خمسة دنانير في كل عام ، وهو مبلغ لا يقدر على دفعه ؛ وتستعمل القوة في تحصيله منهم^(٢) ، وقد بقى النظام القديم قائما بتفاصيله . وظلت الإسكندرية محافظة على مكانتها الخاصة التي كانت لها في عهد البطالسة^(٣) حتى أوائل القرن الرابع الهجرى ، حيث نجد في إحصاء أموال الدولة أفرادا باب خاص عنوانه : مصر والإسكندرية^(٤) ، فقد حافظت الإسكندرية على مكانتها باعتبارها قسما مستقلا بمجاثته ، كما كانت الحال على عهد البطالسة ؛ بل نجد القلقشندي ، بعد القرن الرابع بكثير ، يقول إن الإسكندرية تؤدى خراجها إلى خزانة السلطان رأسا^(٥) . هذا إلى أن حق الملكية المطلقة عند الفراعنة ، وهو الذى ورثه البطالسة والرومان والبيزنطيون ، كان له شأن كبير فى تشريع العرب المتعلق بالضرائب^(٦) .

وكذلك بقى بمصر نظام الاحتكار فى الاقتصاد على قوته . ويمكننا المقدسي الذى زار مصر فى أوائل عهد الفاطميين : « أما الضرائب فتقيلة بمخاصة تنيس ودمياط وعلى ساحل النيل ، وأما ثياب الشطوية فلا يمكن القبط أن

(١) المقدسي ص ٢١٣ .

(٢) انظر الفصل الخامس باليهود والنصارى .

(٣) Wilken, Griech. Ostraka, S. 433 .

(٤) Kremer, Einnahmebudget, S. 309 .

(٥) ترجمة مختصر صبح الأعشى ص ١٥٨ .

(٦) المقدسي ص ٢١١ - ٢١٣ .

ينسج شيئاً منها إلا بعد ما يحتم عليها يحتم السلطان ، ولا تباع إلا على يد سماسرة عُقدت عليهم ؛ وصاحب السلطان يثبت ما يباع في جريدته ، ثم تحمل إلى من يطوبها ، ثم إلى من يشدها بالقشر ، ثم إلى من يشدها في السفط وإلى من يحزمها ؛ وكل واحد منهم له رسم يأخذه ، ثم على باب الفرض يؤخذ أيضاً شيء ، وكل واحد يكتب على السفط علامته ، ثم تنفش المراكب عند إقلاعها . و يوجد بتنبس على زق الزيت دينار ، ومثل هذا وأشباهه ، ثم على شط النيل بالقسطا ضربا ثقال . رأيت ساحل تنيس ضراباً جالسا ، قيل : قبالة هذا الموضع في كل يوم ألف دينار ، ومثله عدة على ساحل البحر بالصعيد وساحل الإسكندرية ... ^(١) . أما في المشرق فلم تفرض للضرائب على البضائع إلا في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري ، وقد فرض عضد الدولة (المتوفى عام ٥٣٧٢ هـ) في آخر أيام دولته رسوماً على بيع الدواب وغيرها من الأمتعة وزاد على ما تقدم ومنع من عمل التلج والقرز وجعلها متجراً للخاص ^(٢) . ولذلك قال الشاعر :

أفي كل أسواق العراق إتادةً وفي كل ما باع امرؤ مكس درهم ^(٣)

ولما عزم ضمصاص الدولة بن عضد الدولة ببغداد في عام ٥٣٧٥ هـ - ٩٨٥ م أن يضع على الثياب الإبريسم والقطن المبيعة ضريبة مقدارها عشرين « اجتمع الناس في جامع المنصور ، وعزموا على قطع الصلاة ، وكاد البلد يفتن ، فأعفوا

(١) المقدسي ص ٢١٣ .

(٢) ابن الأثير ج ٩ ص ١٢٥ .

(٣) انظر مادة مكس في الصحاح للجوهري .

من ذلك^(١) . وفي عام ٨٣٨٩ هـ - ٩٩٨ م أريد مرة أخرى وضع العُشر على ما يُعمل من الثياب الأريسيات والقطايات بمدينة السلام ، فثار الناس وقصدوا المسجد الجامع بالمدينة ومنعوا الخطة والصلاة ، وأحرقوا دار الحولى ، فلم يبق فيها جدار قائم ، واحترق ما كان فيها من حسابات الدواوين ؛ وقبض طح جماعة من العامة اتهموا بما جرى وعوقبوا ؛ واستقر الأمر على أخذ الثياب الأريسيات خاصة ، ووضعت الختوم على كل ما يُقصد من بيع وبيع ويحمل^(٢) .

ولم يقتصر أمر الضرائب على أدوات الترف ، بل تعداها إلى الضروريات ، ففرضت ضريبة على الملح . وفي سنة ٨٤٢٥ هـ - ١٠٣٣ م خالف الدينورى الزاهد الملك فى إزالة ضرائب الملح ، وأعلمه ما يصيب الناس من الأذى بذلك ، فأجاب الملك طلبه ، وكتب برفع هذه الضرائب منشوراً قرئ فى الجوامع ، وكتب على أبوابها بلمن من يتعرض لإعادة هذه الجباية ، وكان ارتفاعها ألفى دينار فى كل سنة^(٣) . على أن المصريين لم يثوروا أبداً بسبب شيء من هذه الضرائب .

أما فى الشام فكانت ضرائب البضائع مهيئة ؛ ولكن كان فى بيت المقدس ضرائب تقال على الرخبة ، فلم يكن يجوز لأحد أن يبيع شيئاً مما يرتفع به الناس إلا سها ، ثم رجال على أبوابها وأخروفت على ما يُباع فيها^(٤) . وكان من

(١) المنتظم ص ١٢٣ ب ، وابن الأثير ج ٩ ص ١٦ ، ٢٣ فلا عنه الناجي لسان الماسر ذلك العهد .

(٢) كتاب الوزراء ص ٣٦٧ - ٣٦٨ .

(٣) المنتظم لابن الجوزى ص ١١٨٨ .

(٤) القدس ص ١٠٧ .

للضرائب التي اختص بها هذا الإقليم ضرائب الحماية على من يكون عنده مركب مثلاً ، وكار الذي يأتي من ذلك يعادل ما يأتي من خراج الأرض^(١) . وكانت الضرائب في البلاد التي تبطل بها تختلف باختلاف الحكام ؛ يقول ابن حوقل في كلامه عن الشام : « فأما خراجاتها وأعشارها ومرافق سلاطينها ، فكان ذلك على أوقات مختلفة بقوانين متباينة وجبايات ناقصة وزائدة ، وذلك أنها منذ سنة ثلاثين (٣٣٠ هـ) بين قوم يتناول أحدهم على الآخر ، وأكثرم غرضه ما اجتلبه في يومه وحصله لوقته ، لا يرغب في حمارة ولا بلتض إليها برؤية ولا إشارة^(٢) . وقد رأى هذا المؤلف نفسه ارتفاع الشام وما في ضمنها من الأعمال والأجناد ، ووقف على ذلك من جماعة على بن عيسى ومحمد بن سليمان سنة ٣٩٦ هـ ، سنة ٣٠٦ هـ فكان ، بعد أرزاق العيال ، تسعة وثلاثين ألف ألف درهم^(٣) .

وكان بيت المال في كل من هذين القطرين وما الشام ومصر يقوم بالمسجد الجامع ، وهو شبه قبة مرتفعة محمولة على أسنطين ؛ وبيت المال باب حديد وأقال ، والصعود إليه على قنطرة من الخشب ، وإذا صُلِّيَت المشاء الآخرة أخرج الناس كلهم من المسجد ، حتى لا يبقى فيه أحد ، ثم أغلقت أبوابه ، وذلك

(١) نفس المصدر ص ١٨٩ ، وليس عندنا تفسير لشي الحماية بيد مؤلف ذلك العهد ، وانظر إل جانب ما ذكره دوزي في ملحق القاموس (ج ١ ص ٣٣٠) ، فهرس المكتبة الحفرافية ، وكتاب الحائط للفريرى (ج ١ ص ٨٩) حيث يتكلم الفريرى من حاية المراكب ويقول إنها كانت تؤخذ بمصر من كل من ركب البحر حتى السوال والمكدين .

(٢) ابن حوقل ص ١٢٨ .

(٣) نفس المصدر ، وكلمة جامعة هنا مر اصطلاح ديوانى معناه المداخلة الجامع (انظر

مفاتيح العلوم للحوارزى ص ٥٤) .

لوجود بيت المال فيه^(١). ونستطيع أن نسأل: هل هذا من الرسوم المصرية أو الشامية قديماً؟ وهل كانت خزانة الكنيسة تُحفظ على هذه الصورة؟ ثم هل كانت الكنيسة في العصر القديم والعصر البيوريطي حرامه للدولة لا معبداً فقط؟^(٢) ملاحظ أنه حتى القرن الرابع الهجري كان نصيب الأراضى لمسلميها بمصر يجرى في المسجد الجامع كل أربع سنين، فكان ينادى على البلاد صفقات صفقات في جامع عمرو أمام متولى خراج مصر وكتابه، وهذه عادة من عادات المصريين قديماً^(٣).

وقد ظلت العراق معظم القرن الرابع (حتى عام ٥٣٧ - ٩٨٠ م) تحت حكم بني حمدان، وكانوا أسراء شبه مستقلين؛ وهؤلاء الأسراء الذين لم يظهر من بينهم بالأعمال المظنية والقروية إلا سيف الدولة صاحب حلب، جاوروا على الرعية جوراً عظيماً، وهو ما يفعله أهل البادية الذين لا يملكون ولا يحسنون شيء تعهداً. وكانوا أسوأ جميع حكام القرن الرابع. والترك والفرس الذين حكموا في هذا القرن هم جميعاً كالأبلاء لرعيته، إذا توروا بالحمدانيين. وما نشأ عن طبيعتهم البدوية أنهم كانوا لا يبالون بالشجر، ففي سنة ٥٣٣ - ٩٤٤ م أغلقت مدينة حلب أبوابها في وجه عسكر سيف الدولة، فاقبلوا كل الأشجار الجيلة المحيطة بالمدينة، وكانت هذه الأشجار، كما يقول الشاعر الصنوبري المعاصر لذلك العهد، أكبر

(١) كتاب الأعلان النفيسة لابن رسته طبعه لندن ١٨٩١ ص ٩٩٦، والقدس

ص ١٨٩، وعلمى الأسطخري (ص ١٨٤) أن بيت مال أهل برقة ببلاد القوقاز كان المسجد الجامع، ويلاحظ أنه على رسم الشام، ويصفه بأنه مرصع السطح، وعليه باب حديد، وهو على نسق أسلحين.

(٢) Wilken, Griech. Ostraka, S. 149 قرن

ما ازدان به الإقليم^(١) . وقد اغتصب المحدثون أكثر أرض العراق ، واشتروا منها القليل بسهم من أعشار نعمها^(٢) ، حتى صارت الموصل وأكثر أعمالها ملكاً لناصر الدولة ، وكان يضايق أصحاب الأرض حتى يلجئهم إلى البيع بأوكس الأمان ، وطالت حياته وامدت أيامه حتى استولى على الناحية ملكاً وملكاً^(٣) ؛ وقد اكتسح المحدثون أشجار الفاكهة والبساتين ، وجعلوا مكانها الفلات والحبوب مثل القطن والأرز والسمسم ، وجلا كثير من أهل هذه البلاد ، وكان من جلا بنو حبيب ، وم بنوعم بنى حمدان ، فقد خرجوا بذراريهم ومواسيهم في اثني عشر ألف فارس إلى بلد الروم ، حيث أنزلوا على كرائم الضياع ، ثم عادوا إلى بلاد الإسلام على بصيرة بفسادها وعلم بطرقها ، وقلوبهم تضطرم حقدًا وتغور كيداً ، فشنوا عليها الغارة سلبًا ونهبًا ، وصارت لهم بذلك عادة . وصادت الحكومة أرض من جلا عن البلاد وسلم بعضها إلى من بقي ، ولم يمكن لمؤلا ترك البلاد ، وآثروا فطرة الإسلام ، ومحبة للنشأ حيث قضوا أيام الشباب على مقاسمة النصف من غلاتها على أي نوع كانت ، وعلى أن يقدر الأمير الدخل ويقومه عيناً إن شاء أو ورقاً . وفي سنة ٣٥٨ هـ - ٩٦٨ م بلغ حاصل نصيبين من الحبوب خمسة آلاف درهم ، عدا ضريبة الجماع ، فإنها بلغت خمسة آلاف دينار ، وبلغت ضرائب المحر خمسة آلاف دينار ، وبلغ ارتفاع ما يؤخذ من الغنم والبقر والدواب والبقول خمسة آلاف دينار ، ورفع من الطواحين والضيايع المقبوضة والمثناة وفلات المقار المسقف من الحمامات والدكاكين

(١) Wiistenfeld, Die Statthalter von Aegypten IV, S. 38

(٢) ابن حوقل ص ١١٣ وما يليها .

(٣) مذكورة ج ٦ ص ٤٨٥ - ٤٨٦ .

بسة مئزر ألف دينار ، هذا على أن جُلِّدَ البار تدَّخرب ، وناسه قد هلكوا ،
وبادت الأشجار والبساتين ؛ فلما زال حُكْمُ الحمدانيين غُرست الأشجار وكثرت
الكروم والفاكهة^(١) . فلا عجب بعد هذا أن نجد ابن حوقل حوالي عام ٨٣٧٠ —
٩٨٠ م يقول إن بنى حمدان م أغنى ملوك الإسلام في عهده إلى جانب عبد الرحمن
الثالث خليفة الأندلس^(٢) . وفي عام ٨٣٦٨ — ٩٧٨ م فتح هذه الدولة بعض
قلاع بنى حمدان ، فكان قيمة ما في القلعة عشرين ألف ألف درهم^(٣) . ومع
هذا كانت تقوم بسبب دفع الجزية مزارعات مستمرة بين الحمدانيين من جهة ،
وبين بغداد وبوزنطة من جهة أخرى^(٤) .

أما إقليم خراسان الذي خضع في أثناء القرن الرابع لأسراء كثيرين في مقدمتهم
السامانيون والبوهيون ، فقد كانت الضرائب فيه على ما كانت عليه في القرنين
الثالث والرابع ، وقد لاحظ ابن حوقل مثل هذا في هراة^(٥) ، وهو يُحسن الثناء
على السامانيين ، وعلى حسن إدارتهم المالية وضبطهم للأعمال في شمال المملكة
الإسلامية وفي شرقها ؛ يقول ابن حوقل : وليس بأرض المشرق ملك أمتع جانباً ،
ولا أوفر عِدة ، ولا أكل عِدة ، ولا أنظم أسباباً ، ولا أكثر أعطية ، ولا أدر
طعاماً ، ولا أدرم حُسن نَيْساتٍ منهم ، مع قلة جباياتهم ، وتزور أخرجتهم ،
وقلة الأموال في خزائهم ، وذلك أن جباية خراسان وما وراء النهر لأنى صالح

(١) ابن حوقل ص ١١٢ — ١١٢ .

(٢) Dozy, II S. 57.

(٣) مكويبرج ٦ ص ٤٩٠ — ٤٩٦ ، ولد كانت مكويبرج مكافئاً بإحصاء

على هذه النسخة .

(٤) يحيى بن سعيد ص ٦٤ ب — ١٦٥ ، وانظر مثلاً Elias Nisibenus, S, 515

قلا من ثمان بن سنان .

(٥) ابن حوقل ص ٢٠٨ .

منصور بن روح في وقتنا هذا ، لكل خراج يُقبض وضمان يحمل في كل سنة أشهر ،
 عشرون ألف ألف درهم . وعليه أربعة أطعام في كل ستة ذبيرة فيبر مقطوعة
 ولا ممنوعة ، وكل طعم منها في رأس تسعين يوماً ، يخرج منه إلى طعمه وفوائد
 ولناشر التصرفين خمسة آلاف ألف درهم ، فتستوفي الأربعة أطعام الخراج الواحد
 لناشر خدمته من الرجال عند آخر السنة ، وتستوجب أعطيتهم نصف جباياته
 المذكورة ، وهي عشرون ألف ألف درهم عن نفس طيبة ومسرة ظاهرة ، وغبطة
 بقيام المعدلة فيهم تامة ... ولهذا الحال أعمالهم مشحونة بالقضاة والجباة والكفاة
 والولاة ، منزلهن على أرزاق تتساوى ، وأحوال في المراتب تتداني ، وذلك أن
 رزق القاضي وصاحب البريد والعامل على جباية الأموال من الهاضرة ووالي الصلاة
 والمونة راتبهم بقدر كفاية وحسب كل كورة ، وليس ينقص بعضهم
 عن بعض ^(١) .

وقد ارتفعت الجباية في فارس في عهد عضد الدولة ، أعظم حكام القرن
 الرابع ، من ١٨٨٧٥٠٠ إلى ٢١٥٠٠٠٠ ، وذلك في عام ٥٣٠٦ - ٩١٨ م .
 أي أن زيادة الدخل كانت تقرب من السدس ^(٢) . وقد كان في استطاعة
 عضد الدولة أن ينفق عن سعة لأن دخله في السنة كان ثلثمائة وخمسة وعشرين
 ألف ألف درهم ، ولكنه « كان ينظر في الدينار ويناقش في القميط » ، كما
 يقول ابن الجوزي ^(٣) .

(١) نفس المصدر ص ٣٤١ - ٣٤٢ .

(٢) ابن البلخي JRAS, 1912, S. 889 .

(٣) المنتظم ص ١٢٠ ب ، ويقال إن عضد الدولة كان يريد أن يبيع دخله لثلاثة
 وسين ألف ألف درهم ليكفي دخله كل يوم ألف ألف درهم ، وفي رواية أنه كان يرمع
 له كل عام اثنان وثلاثون ألف ألف دينار ومائتي ألف دينار ، وهذا يدل على أن الدينار في
 ذلك العهد كان يساوي عشرة دراهم .

أما مصر فقد حافظت في الجملة على المستوى العالى الذى كانت فيه ، فقد استطاع أحمد بن طولون بما كان له من قوة عظيمة أن يستخرج خسة آلاف ألف دينار في القرن الثالث . أما في خلال القرن الرابع بما كان فيه من اضطراب فقد اشتمل ارتفاعها على ثلاثة آلاف ألف ومائتين ونيف وسبعين ألفاً من الدنانير ، وفي أواخر القرن بلغ الخراج على يد الوزير ابن كلثوم أربعة آلاف ألف^(١) . ولم يحدث في القرن الرابع تدهور مالى عام ، وكان الدخل يتوقف ، كما هو الحال دائماً ، على الرجل القابض على ناصية الحكم . ففي عام ٨٣٥٥ — ٩٦٥ م أشار ابن العسيد على ركن الدولة أن يدبر ناحية أذربيجان لنفسه ويرفع له منها خمسين ألف ألف درهم ، وكانت بلاد أذربيجان غنية ، ولكن كان عليها إبراهيم السلار ، وكان حاكماً ضعيفاً سعى التدبير مهلاً لأموارها مشتغلاً بالعب ، فلم يكن يرتفع منها أكثر من ألف ألف درهم ، وذلك بسبب إقطاعات الدلم والأكراد ، وبعد ما يستولى عليه قوم متنززون لا يُتسكن من استيفاء الحقوق عليهم ، وبعد ما يضيع بالإهمال وترك الهامة^(٢) . ولا نجد مثلاً للانعطاط الحقيقي الكبير في دفع الضرائب إلا في العراق ؛ وكان ذلك منذ النصف الثانى للقرن الثالث الهجرى . وقد قدر ابن خرداذبة ارتفاع العراق لسنة ٨٢٤٠ — ٨٥٤ م بنائية وسبعين ألف ألف درهم ، وفي عام ٨٢٨٠ — ٨٩٣ م ضُمن جزء كبير من العراق بألف وخمسمائة ألف وعشرين ألف دينار ، وهو نصف ما كان أو أقل^(٣) . وقد بلغ خراج العراق في ميزانية عام ٨٣٠٦ — ٩١٨ م

(١) تاريخ أبي صالح الأرمي ص ١٢٣ .

(٢) سكوتيه ج ٦ ص ٣٩٢ — ٣٩٣ ، و Amedroz, Islam, III, 336.

(٣) كتاب الوزراء ص ١٠ ولا يتفق مع هنا ما جاء في ص ١٨٨ من هذا الكتاب من أن ارتفاع العراق للمعتضد بلغ الارتفاع في عهد عمر بن الخطاب ، والأرقام هنا غير صحيحة .

١٥٤٧٧٣٤ ديناراً ، وهو أقل من الثلث^(١) . وزاد الدخل بعض الزيادة في أثناء القرن الرابع ، ففي سنة ٣٥٨ هـ - ٩٦٨ م عُقد ضمان العراق باثنين وأربعين ألف ألف درهم^(٢) . وعرض عضد الدولة بعد ذلك مثل هذا المبلغ^(٣) . وكان الفرق بين حال العراق قديماً وبين ما آلت إليه فيما بعد عظيماً جداً ، فقد كان خراجها قديماً مضرب الثلث في الكثرة ، حتى كان البعض يقول والله لو أعطيتني خراج العراق ما قُلت كيت وكيت^(٤) . ثم آل الحال في آخر القرن الرابع إلى أن يقول عضد الدولة : غرضي من العراق الاسم ومن أرباجان (القسم الساحلي من فارس) الدخل^(٥) . وكان أكبر أسباب هذا التدهور أن البلاد استعالت إلى مستنقعات ، ونظراً لأنها كانت تُروى بالطرق الفنية فقد كانت تحتاج إلى عناية ونظام أكثر مما وجّه لها . وقد اضطر الزّراع إلى الجلاء ، وكان أهل الموصل مثلاً عرباً جاءوا في القرن الرابع إلى شمال العراق ليزرعوا تلك الأراضي الفيضانية التي كانت حتى ذلك الحين جرداء لا نبات فيها^(٦) . وبعد هذا الفساد كان اعتماد الخزنة ينفذ على خراج العراق يعرضها للإفلاس ، ثم أصيبت حكومة العراق بأول ضائقة مالية حينما منع الصفار حمل أموال فارس إليها ، وقد أدت هذه الضائقة حوالي عام ٢٧٠ هـ إلى فكرة الاقتراض ، وأول ما ظهر ذلك في صورة قرض غير مضمون الرد ؛ وذلك أن الخليفة الونقي احتاج إلى مال يُخرج به الجند لمحاربة الصفار ، والتمس من وزيره صاعد بن محمد أن يمتثل في

(١) Kremer Einnahmebudget, S. 312.

(٢) ابن حوقل ص ١٦٩ ، ١٧٨ .

(٣) مسكويه ج ٦ ص ٤٤٠ .

(٤) الأغاني ج ٤ ص ٧٩ .

(٥) القندس ص ٤٢١ .

(٦) ابن حوقل ص ١٤٣ - ١٤٤ .

ذلك ، فقال الوزير : والله مالى حيلة إلا من حظر النفقات ومنع المرتزقين ، فقال الموفق : أين يقع ذلك عما أحتاج ؛ والذي أريد هـ أن نأخذ من التجار قرضاً ، ونوظف عليهم وعليك وعلى الكتّاب والعمال ماله لتعين به على إخراج راشد (قائد الحملة) ، فإذا استاردناه عليهم هـ ، فاستوحش صاعد من ذلك ، وأزاد أعمال الحيلة في التباعد عنه^(١) . وفي سنة ٣٠٠ هـ احتاج الوزير إلى شيء من مال الأهواز ، ولم يكن أصحابه متأهبين لذلك ، فأرسل في إحضار يوسف بن فيجاس الجهبذ اليهودي ، وكان جهبذ الأهواز ، وطلب منه تقديم^(٢) مال . وفي سنة ٣١٩ هـ — ٩٣١ م توطأ متضمناً أعمال الخراج والضريبة بفارس وكرمان وتعاقداً على قطع حمل المال إلى السلطان ، واشتدت الضائقة بالوزير فباع من الضياع السلطانية بنحو خمسمائة ألف دينار — وكان ذلك لأول مرة^(٣) ، واستسلم من مال سنة عشرين وثلاثمائة شطره قبل افتتاحها بشهور ، فلم يبق من مال هذه السنة إلا أقله ، واضطر فوق هذا إلى أن يقترض مائتي ألف دينار بربح درهم في كل دينار^(٤) . وفي سنة ٣٢٣ هـ — ٩٣٤ م لم تدفع للتجار أموالهم ، فطالبوا الوزير بها ، فدفعته الضرورة إلى أن سبّب لهم على عمال السواد ببعض ما لهم ، ثم باع عليهم بالباقي ضياعاً سلطانية^(٥) . وفي سنة ٣٢٤ هـ — ٩٣٥ م احتاج الوزير إلى مال لدفع استحقاقات الجند ، فطالب ميسير التجار بأموالهم فجعلونها ، ويكتب

(١) كتاب الديارات للشافعي ص ١١٨ ب — ١١٩ ا .

(٢) كتاب أبي براء ص ١٧٨ .

(٣) وفي سنة الأحوال كان أصحاب الأرامى المحاورة يتفقون ويشفرون الضياع بأقل

من ثمنه لكثير . (ابن خلدون في J.R.A.S. 1903, S. 434) .

(٤) مسكويه ج ٥ ص ٣١٢ ، ٣٤٥ ، ٣٦٤ ، وابن الأثير ج ٨ ص ١٧٦ .

(٥) مسكويه ج ٢ ص ٥٠٥ .

لم بها سفايح ، وأمر من كان ينزل بسور المدينة أن ينتقل عنه لتباع المنازل التي كانت هناك ملكاً للحكومة^(١) .

وفي هذه الأحوال عاد الأمر في تحصيل الخراج إلى ما كان جارياً قبل الإسلام من وسائل رديئة ، وكانت القروض التي احتاجت إليها الدولة مبدأ تضمين الخراج في الشرق ، وأول ما أخذ بطريقة القروض في عهد الخليفة المنصور (٢٧٩ - ٢٨٩ = ٨٩٢ - ٩٠١ م) : حدث أبو القاسم عبيد الله بن سلمان وزير المنصور أحد أصحابه فقال له : قد وردنا على دنيا خراب مُستَغْلِقَة ، وبيوت مالٍ فارغة ، وابتداء عَقْد خليفة جديد الأمر ، وبيننا وبين افتتاح الخراج مدة ولا بد لي في كل يوم من سبعة آلاف دينار لنفقات الحضرة على غابة الاقتصار والتجزئة ، فإن كنت تعرف وجهاً تمينني به فأرشدني إليه ، فأشار صاحب الوزير بإطلاق ابني القرات ، وكانا عاملين لما دهما وخبرة بالأعمال والأموال ، فأطلقهما من سجنهما ، فخطبا أحد الأفنياء في أن يضمن جزءاً من أرض العراق على أن يحمل من ماله في كل يوم سبعة آلاف دينار ، فأعطى خطه بذلك ، وعرف الوزير الأمر فاستطير هو والخليفة سروراً لهذا الحل الجديد بما انطوى عليه من مهارة^(٢) . ونجد في ثبت خراج سنة ٨٣٠٣ - ٩١٥ م أن خراسان والأهواز وواسط كانت ضمناً إلا للضياع^(٣) ، وفي سنة ٨٣٠٦ - ٩١٨ م

(١) الأوراق المصولة بخطوط باريس م ١٠٣ - ١٠٤ .

(٢) كتاب الوزراء م ١٠ - ١١ .

(٣) Kremer, Einnahmebudget . وكذلك ضمنت فارس بعد استردادها من بني الصفار ، ولكن الضامن آخر المال ، فحل ضامه وعقد على آخر (كتاب الوزراء م ٣١٠) .

ضمن الخليفة خراج مصر بثلاثة آلاف ألف دينار^(١) . وفي سنة ٨٣٠ هـ ضمن الوزير حامد بن العباس خراج العراق وخوزستان وأصفهان للفقير ، فارتفعت الأسعار ببغداد ؛ لأن الوزير جمع الحبوب في تلك البلاد ومنع من حملها إلى بغداد ، فثار العامة على الوزير ، وسبوه ، وفتحوا السجون ، وكبسوا دار صاحب الشرطة وانهبوا بعض دوابه ، ومنعوا صلاة الجمعة ، وهدموا المنابر ، وأحرقوا الجسور ، فأمر السلطان بمحاربة العوام ، فأخذوا ، ففُضرب بعضهم ؛ وفر الباقيون ، وطلب حامد بن العباس من الخليفة فسخ ضمانه ، واستأذنه في الشخصوس إلى واسط لينفذ عمله بما فيها من الأطعمة إلى بغداد ، وفسخ ضمان حامد ، وسأل الخليفة أن يفيه من الوزارة فلم يُجِبْه^(٢) . ولم يكن الذي يتولى ضمان الخراج ، في العراق على الأقل ، رجلا من عامة الناس ، بل كان عاملا على خراج البلاد التي يضمنها^(٣) وكان له أن يولي في هذا الإقليم عمال الخراج ويعزلهم^(٤) . وكان للحكومة إلى جانب الضامن رجل يشرف عليه ليري إن كان يتحصل له زيادة على ضمانه^(٥) ، وأن يراعى بنوع خاص أن الضامن يؤدي ما يُنفق على كرى الأشجار وحراسة البزندات والبذور ، وعلى الماوين الذين

(١) كان الأخشيدي في القرن الثالث الهجري يحصل إلى الخليفة ألف دينار (خطط للفرزي ج ١ ص ٩٩) ، وإلى جانب مبلغ الضمان كان لابد للضامن أن يبيت الهدايا الكثيرة للخليفة ، والسيدة الوالة والحالة والقهرة والحاجب والقائد وكتائبهم في كل سنة (كتاب الوزراء ص ٣٢١) .

(٢) مريب ص ٨٥ ، ٨٦ ، وللتنظيم لابن الجوزي ص ١١٨ . والمنافى مخطوط باريس ١٨٦ ب (٢) .

(٣) مريب ص ٥٥ .

(٤) المنافى مخطوط باريس ص ١٨٦ (٢) .

(٥) ابن الأثير ج ٨ ص ٨١ - ٨٢ .

يحفظون الأمن^(١) . أما الضمانات الصغيرة مثل ضمان الصدقات . فيمكن من الوزير أبي الحسن بن القرات أنه قال لكتاب سأل أن يضمنه الصدقات بفارس : « إنما يُرغب في عقد الضمان على تاجر مليّ أو عامل وفّ أو تان (٢) غنى ، فأما أصحاب الحروب فعقد الضمان عليهم ومطالبتهم بالخروج من أموالها يستدعى منهم العصيان وخلع طاعة السلطان »^(٣) .

وكان أسراء الأطراف في معظم الأحوال يظهر أسرم بأن يكونوا ضامنين للبلاد التي يحكمونها ، ولم يظهروا في صورة أصحاب الإنطاغات كما كان الحال في الإمبراطورية الجرمانية المقدسة ، وكانوا يتوجهون إلى الملك بأن يبتدئوا باحتلال المدن والأقاليم خصبا ؛ ثم يقاتلون عليها عسكر الخليفة ، حتى يُمتدح لهم بالإمارة في مقابل مال يضمنون أدائه ، وكانت أمثال هذه الضمانات التي تؤخذ كرهاً تؤتي الحكومة صفقة سيئة بالنسبة للضمانات الأخرى . في سنة ٢٩٦ هـ - ٩٠٩ م ضمن ابن أبي الساج أرمينية وأذربيجان قبل أن تؤولا إلى السامانيين بمائة وعشرين ألف دينار ، وهو ما يقرب من عُشر الدخل الذي كانت تدفعه هذه البلاد منذ مائة سنة^(٤) . وفي سنة ٣٢٢ هـ - ٩٣٤ م فتح عماد الدولة بن بويه إقليم فارس ، وطلبها ضماناً من الخليفة ، على أن يدفع إليه ألف ألف درهم ، على حين أنها كانت تؤتي من مال الطراج والضبياع وحده منذ عام ٢٩٩ هـ - ٩١١ م إلى ما بعد ذلك بعشرين عاماً ثمانية عشر ألف ألف درهم^(٥) . وكذلك

(١) كتاب الوزراء ص ٣٤ .

(٢) نفس المصدر ص ٧١ .

(٣) ابن الأثير ج ٨ ص ٧٦ - ٧٧ ، Kremer, Elannahbudget, S. 299 .

(٤) مسكويه ج ٥ ص ٣٨١ ، وخارجها في ميزانية عام ٣٠٦ هـ - ٩١٨ م قدر

ألف ألف ومائة ألف دينار ، وهو ما يقارب الثمانية عشر ألف ألف درهم .

كان ضمان عمان في أوائل القرن الرابع ثمانين ألف دينار ، وكان خراجها تحت الإدارة المباشرة قبل ذلك بمائة عام ثلاثمائة ألف دينار^(١) .

وكان استعمال الوسائل القاسية في تحصيل الخراج من الوسائل المعروفة قديماً ، وربما كان ضرورياً ، فثلاً كان أهل بادوريا حول بغداد معروفين بالجلد ، وكان عليهم بقايا أموال ، فتولى عليهم ابن أبي السلاسل ، وفي قلبه أحقاد ورغبة في التشفى منهم ، وإخراج ما عليهم من البقايا ؛ فطالبهم ، فامتنعوا وصبروا على الحبس والقيد ، فأملى رقعة إلى الوزير على بن عيسى بنغريه فيها بهم كل إغراء ، ويقول : هؤلاء قوم يُدَثَّنون بالجلد ، وعليهم أموال قد أُلْطُوا بها ، وصبروا على الحبس والقيد ، ومتى لم تُطْلَق اليَدُ في تقويمهم واستخراج المال منهم تأسي بهم أهل السواد وبطل الارتفاع ؛ فردَّ عليه الوزير بقوله : الخراج ، عافاك الله ، دين لا يجب فيه غير اللازمة . فلا تمتدَّ ذلك إلى غيره^(٢) . وهذا القرار الذي قرره الوزير يطابق المبدأ الذي عُمل به في زمن الرشيد ، وهو النع من ضرب النار في الخراج أو إقامتهم في الشمس أو تقييدهم^(٣) . وكان أصحاب الخراج في عهد هذا الخليفة نفسه يطالبون بصنوف من المذاب حتى عام ١٨٤ هـ حين أمر الرشيد برفع المذاب عنهم ، فارتفع من تلك السنة^(٤) . وفي عام ١٨٧ هـ — ٨٠٣ م وثى على خراج مصر عاملٌ بعد أن ضمن جباية الخراج من آخره ؛ بلا سوط ولا عصا^(٥) . على أن ديونيسيوس يصف جباة الخراج في العراق حوالي

(١) كزيمر نفس المصدر ص ٣٠٨ وللندى ص ١٠٥ .

(٢) كتاب الوزراء ص ٣٤٦ .

(٣) كتاب المراج لأبي يوسف ص ٦٧ .

(٤) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٥٠١ من الطبعة الأوربية .

(٥) الولاة السكندى ص ١٤٠ — ١٤١ .

عام ٢٠٠ هـ - ٨١٥ م بأنهم « قوم من العراق والبصرة والعاقولا ، وهم عتاة ليس في قلوبهم رحمة ولا إيمان ، شر من الأفاعي ، يضربون الناس ويحبسونهم ، ويلقون الرجل البدين من ذراع واحد حتى يكاد يموت »^(١) . وفي أواخر القرن الثالث وصف الأمير عبد الله بن المعتز^(٢) الإدارة في عهد الوزير ابن بليل ، وكان ابن المعتز يحمل له كراهية شديدة ، ووصف كيف كانت نجبي أموال الخراج من غير رحمة :

فكم وك من رجل نبيل	ذى هيبة ومركب جليل
رأيت يمتل بالأهوان	إلى الحبوس وإلى الديوان
حتى أقيم في جسيم الماجره	ورأسه كمثل قدر فائره
وجعلوا في يده حبلا	من قتب يقطع الأوصالا
وعلقوه في عرى الجدار	كأنه برادة في الدار
وصفقوا قهقهة صفق الطبل	نصباً بعين شامت وخل
إذا استفاث من سحر الشمس	أجابه مستخرج برفس
وصب سجان عليه الزيتا	وصار بعد بزة كيمتا
حتى إذا طال عليه الجهد	ولم يكن مما أراد بد
قال ائذنوا لي أسأل التجارا	قرضاً وإلا بمنهم عقارا
وأجلوني خمسة ألاما	وطوتوني مكمو إنساما
فضايقوا وجللوا أربسه	ولم يؤمل في الكلام منفعه

(١) Diebstahl von Tellmachre. ed. Chabot. S. 152

(٢) الديوان ج ١ ص ١٣٦ - ١٣٧ .

وجاءه الميئون الفجره وأقرضوه واحداً بشره
 وكتبوا سكا ببيع الضيه وحلفوه بيمين اليمينه
 ثم نادى ما عليه وخرج ولم يكن يطعم في قرب الفرج
 وجاءه الأعوان يسألونه كأنهم كانوا يدلّونه
 وإن تلكاً أخذوا عمامته وجشوا أخذه وهامته
 فالآن زال كل ذلك أجمع وأصبح الجور بطل يقم

وكان التذيب أشد مما تقدم إذا كان استرداداً لأموال الدولة ، وأخص ما كان يستعمل في ذلك القيود الحديدية الثقيلة في الأرجل ، والضرب المتتلف ، والتعليق من اليد الواحدة ^(١) ، وقد عذب الخليفة القاهر أم المقتدر أخيه وسلفه على عرش الخلافة ، فضربها ، وعلقها برجلها لتخرج مالها ، وتحمل أوقافها ، وتوكل في بيعها ، فامتعت ، ووكلت في بيع أملاكها دون أوقافها ، ولكن القاهر أرغمها على ما أراد ، وكتب إقراراً منها بذلك ، وأحضر القضاة للشهادة على توكلها ، واستلزمت الشهادة أن يروها رأى العين . وقد تحدث القاضيان اللذان رأياها بهذه القصة قتالا : « ولما رأيناها رأينا مجبوراً رقيقة الحال سمراء اللون إلى البياض والصفرة ، عليها أثر ضرب شديد ، فما انتفعنا بأنفسنا

(١) وكان الحاكم يأمر بأن « يجر » الطالب أو « يحب » على وجهه ، ومن هنا اشتقت الكلمة الإسبانية جروشا Garrucha وسماها جبل الجر ، وهو الذي كان أكبر أداة لتذيب في أسبانيا أيام محاكم التفتيش كما دل العلامة ل (Len) وكذلك الكلمة الإسبانية Garrota .

وكان الذين يوكل إليهم بالمصالة قوماً يسمون المستعنين ، وكانوا يختارون من القلاط القضاة ، لا يفارقون الرجل حتى يدفع ما عليه ، ولم عليه نفقة يأخذونها ، وربما كانوا ثلاثة لكل منهم ديناران في اليوم (كتاب الوزراء ص ٢٣٣) .

ذلك اليوم ، فكراً في تقلب الزمان ، وتصرف الحدثنان ^(١) . ثم سُدَّ
آخرون بأن غُرِزَت في أطافيرهم أطراف القصب ^(٢) ، أو بالضرب على رؤوسهم
بالدبابيس ^(٣) ، وقد وصف شاهد عيان كيف جرى بأحد المصادرين من محبة
« برسف في قيوده ، وعليه جبة دنسة وشعره طويل ... وجمل يشكو ما أصابه
من المكاره ، وفرائضه تُرْعَد » ^(٤) . وربما أُمِن المطالبون في التعذيب فألبسوا
فريستهم جبة صوف مدهونة بالنفط أو بماء الأكارع ^(٥) . وفي سنة ٨٣٢٥ —
٩٣٦ م دخل بحكم التركي وأصحابه العراق ، قاعقل الناس ، واشتد في مطالبتهم
بالمال وعذبهم ، فكان يضع على بطونهم أطبات الحجر ، حتى قال له رجل أراد
أن يسبر ما في نفسه من طلب العراق : أيها الأمير ! أنت مُطالب بملك ، ومرشع
نفسك لخدمة الخلافة ، ألا تعلم أن هذا إذا أُسْمِع به أوحش منك ؟ وقد تحملت
نفسك في أسرها على مثل ما كان يعمله مرداويج بأهل الجبل ، وهذه بغداد ودار
الخلافة لا أرى وأصحبان ، ولا تحتل هذه الأخلاق ؟ فلما سمع بحكم ذلك انحلت
وفك القيود وأزال المطالبة ^(٦) . وكانت هذه المطالبات القاسية تعتبر عند الجيـم
أعمالاً تدل على قلة الإيمان ، كما يؤخذ من حكاية ترجع إلى القرن الرابع :
« حدث أبو الحسن علي بن الحسين بن عبد الأهل قال : كنت بحضرة أبي الحسن
ابن القرات في وزارته الأولى (٢٩٦ — ٢٩٩ = ٩٠٨ — ٩١١ م) ، وهو

(١) مرئب م ١٨٣ — ١٨٤ ، وإن الأنيرج م ٨١ — ١٨٢ ، التنظيم

لابن الجوزي م ٤٦ ب ، والمقدمة الإنجليزية لكتاب الوزراء م ٤٥ .

(٢) ذكر المعتزلة لأحمد بن يحيى الرضى م ٥٢ .

(٣) مسكويه ج ٥ م ٢٣٠ .

(٤) كتاب الوزراء م ٨ — ٩ .

(٥) نفس المصدر م ٢٩٨ — ٢٩٩ .

(٦) مسكويه ج ٥ م ٥٧٠ .

جالس يعمل ، إذ رفع رأسه ، وترك العمل من يده ، وقال : أريد رجلاً لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر يطيعني حق الطاعة ، وأنفذه في مهم لي ، فإذا بلغ فيه ما أرسمه له أحضرت إليه إحساناً يظهر عايبه وأغنيته ؟ فأمسك من حضر ، ووثب رجل يكنى بأبي منصور ، أخ لابن أبي شبيب حاجب ابن القرات ، فقال : أنا أيها الوزير ، قال : وتفعل ؟ قال : أفعل وأزيد ، قال : كم تر تزق ؟ قال أرزق مائة وعشرين ديناراً . قال : وقموا له بالصف ، وقال : سَلْ حوائجك ، فسأله أشياء أجابه إليها ، فلما فرغ من ذلك قال : خذ توقيعي وامض إلى ديوان الخراج وأوصله إلى كاتب الجماعة ، وطالبهما بإخراج ما على محمد بن جعفر بن الحجاج ، وطالبه بأداء المال ، وأتلفه إلى أن تستخرج بجيئه ، ولا تسع له حجة ولا تنهله البتة . فخرج وأخذ من رجالة الباب ثلاثين رجلاً ، فقلت (الحاكي) لأخرجن وأمضين إلى الديوان حتى أنظر ما يؤول إليه الحال ؛ فخرجت وصرت إلى الديوان ... فدخل أبو منصور هذا إلى الصقر بن محمد وعبيد الله بن محمد الكاوداني ، وهما صاحبا المجلس شركة ، فلم يجد الكاوداني ووجد الصقر بن محمد ، فأوصل إليه التوقييع ، وقال له أخرج ما على ابن الحجاج ، فقال : عليه من باب واحد ألف ألف درهم ، فطالبه بذلك إلى أن نفرغ من السمل بسائر ما يلزمه . وكان محمد بن جعفر من همال أبي الحسن على بن عيسى ، قال : أنا ضراب الحجاج ، وشتمه ، وافتري عليه ، وابن الحجاج يستعطفه ، ويخضع له ؛ ثم أسر بتجريده وإيقاع المكرره به ، فأوقع ، وهو في ذلك كله يقول : يكفي ، الله ؛ ثم أسر أبو منصور بنصب دقل ، فنصب ، وجعل في رأسه بكرة فيها حبل وشدت فيه يد ابن الحجاج ، ورفع إلى أعلى الدقل ، وهو يستغيث ويقول : يكفي ، الله . فما زال مستغاثاً ، وأبو منصور يقول له : المال المال ، وهو يأنه حطه وإنظاره إلى أن

بواقف الكتاب على ما أخرج عليه ، وهو لا يسمع منه ، وقد فقد تحت الدقل واختلط ، وغضب من غير غضب ، اعتياداً لأن يبلغ ابن الفرات فعله ، فلما خبر قال لمن بمسك الحبال : أرسلوا ابن القاعة (وعنده أنهم يتوقفون ولا يفعلون) ، فأرسلوه لما رأوه عليه من الحدة والغضب ، ووافى ابن الحجاج إلى الأرض ، وكان بديناً سمياً ، فوقع على عنق أبي منصور فدقها ، وخر على وجهه ، وسقط ابن الحجاج مغشياً عليه ، فحُمل أبو منصور إلى منزله في محل فأت في الطريق ، ورُدَّ ابن الحجاج إلى محبسه ، وقد تخاص من التلف ، ومحب من حضر مامراً . وكتب صاحب الخبر بالصورة إلى ابن الفرات ، فورد عليه منها أعظم مورد ، وبكرت عرقان زوجة ابن الحجاج إلى موسى بن خلف حتى أوصاها إلى ابن الفرات ، فقررت أسره على مائة ألف دينار سلّمت بيمضها جمدة وقرأها من طسوج كوئي ، ونجّم الباقي ، وأطلق ابن الحجاج ؛ وكان الناس يعجبون من قول ابن الفرات : أريد رجلاً لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر يطيعني ^(١) ، ولم تُبسط على الناس أصناف المذاب والمكاره حتى كانوا يموتون تمناً أقبح موت إلا في عهد الأمير بختيار ببغداد ، وكان حكم هذا الأمير أسوأ حكم في القرن الرابع ^(٢) .

ولعلّ مما تمجّه النفس أن ترى كبار العمال يشترّون من السلطان رجلاً منكودين ، وأن كلا منهم ينافس الآخر في تقديم أكبر ضمان ، إذا سُلم إليه وزير نهب الأموال ، أملّاً أن يقدر بعد ذلك على استخراج مبلغ يزيد على ضمانه بوسائل التعذيب ^(٣) . ولكن هذه الوسيلة لاغتصاب الأموال قويت أيضاً في عهد بختيار خاصة ، ولم تكن شائعة في عهد جميع الحكام .

(١) كتاب الوزراء ص ١٢١ - ١٢٢ .

(٢) مسكويه ج ٦ ص ٤٥٤ .

(٣) كتاب الوزراء ص ٩٤ ، ٩٥ . ضمن أبو الفرج الوزير أبا الفضل بسبعة آلاف

ألف درهم ، ثم ضمه أبو الفضل فيها بعد بئس هذا المبلغ . انظر مسكويه ج ٦ ص ٢٢٤ ،

٢٤٢ ، ٤٠٩ ، ٤٠٣ .

الفصل التاسع

رسوم دار الخلافة

كان اللون الذي اتخذته الخلفاء في القرن الرابع الهجري شعاراً لهم السواد والبياض ؛ فلما ركب الخليفة المقتدر في عام ٤٢٠ هـ - ٩٣٢ م لقتال مؤنس ، وهي الركبة التي قُتل فيها وأُشفق من عاقبتها إشفاقاً كبيراً ، خرج من داره في اكل لباس وموكب ، فكان عليه خفتان ديباج فضى وعمامة سوداء ، وعلى كتفيه وصدره وظهره البردة النبوية ، وهو متقلد بذى الفقار سيف الرسول ، وحامله آدم أحمر ، وفي يده اليمنى الخاتم والقضيب ؛ وسار بين يديه ولي عهدده ابنه أبو أحمد عبد الواحد ، وعليه خفتان ديباج وعمامة بيضاء^(١) . وكانت عادة خلفاء العباسيين في القرن الثالث والرابع أن يلبسوا قلنسوة محدّدة وقباء ، وكلاهما أسود^(٢) ، وكان هذا هو لباس وجوه رعيّتهم أيضاً ، وكان السواد هو كذلك

(١) مرّيب من ١٧٦ - ١٧٧ هـ ، والمتنظم لابن الجوزي من ٤٣ هـ ؛ وقد جاء في شعر الشريف الرضى ما يدل على أن القضيب والبردة شعار الخلفاء ، وأن البردة من بردة النبي عليه السلام . انظر الديوان من ٣١٣ ، ٥٤٣ من طبعة بيروت ١٣٠٧ هـ . وقد اتخذ الأخشيدي صاحب مصر الخفتان الفضى لباساً له ، كما فعل الخلفاء ، وأمر ألا يليه أحد سواء (المنّرب لابن سعيد من ٣٠) .

(٢) صروج الذهب للمسعودي ج ٨ من ١٦٩ ، ٣٧٧ . وقد أراد سلاطين للمالك أن يبدلوا الخلفاء في لباسهم القديم تقليداً كاملاً ، وكان لباسهم يتألف من :

١ - عمامة حريرية مذهب مدلاة بين الكنّين .

٢ - جبة حريرية سوداء واسعة الكنّين ، لا نقش عليها .

٣ - سيف عربي كان يحمل على طريقة البدو له حاشى يملق بها على الكتف الأيمن ، وهو مدلى على الجانب الأيسر ؛ وبماله إله سيف عمر بن الخطاب . (انظر Quatremère ,

Mameionti, I, 138

لون الخرقه التي كانت تحضر فيها الصدقة كل يوم عند صلاة الصبح لفرقها على المحتاجين^(١). وكذلك كان علم الخلافة أسود ، عليه بالكثافة البيضاء : محمد رسول الله^(٢). أما خلفاء الفاطميين بمصر فكان لباسهم البياض ، وهو شعار العلويين ؛ وكانت ألويتهم بيضاء ، وعليها أحياناً أكلة من ذهب ، في كل منة منها صورة سح من الديباج الأحمر ؛ وقد شبهها أحد الشعراء بشقائق النعمان^(٣). وكانت طريقة تتويج الخليفة أن يقعد لواء نفسه على الرسم المعروف في ذلك ، وأن يتسلم خاتم الخلافة ممن يكون ذلك معه^(٤). وهذا تتويج على الطريقة العربية البسيطة أما أسراء الأطراف فقد كان التتويج بالنسبة لهم تتويجاً حقيقياً تجري رسومه على الطريقة الوثنية ؛ فكان يوضع على رأس الأمير تاج مرمع بالجواهر ، ويلبس طوقاً وسوارين من الذهب المنظوم بالجواهر عادة^(٥). وكان

(١) كانت هذه الخرقه تحوى مائتي درهم كل يوم ، وكان ما فيها يفرق على من في قصر الرساة من الحرم المحتاجات (كتاب الوزراء من ١٩) ؛ وبخبرنا أبو الحسن أن زكاة ابن طولون كانت ألف دينار في كل يوم ؛ وكثير من الأرقام التي يذكرها أبو الحسن عن الطولونيين مجرد أرقام خيالية . على أن المقرئ (المخطوط ج ١ من ٣١٦) يقول إن صدقات ابن طولون كانت ألف دينار في كل شهر سوى ما يطراً من قدر أو صدقة شكر . (الترجم)

(٢) مسكويه ج ٥ من ٢٩٤ ، وكان ولي العهد العباسي في أواخر القرن الرابع ، وكذلك أسراء الأماة ، يبرين بينهم عدان : لواء أبيض وراية سوداء ؛ انظر تاريخ أبي الحسن طبعه ليدن ج ٢ من ٣٥ ، وعريب من ١٧٧ ، وابن الجوزي في المنتظم من ٤٣ ب ، ١١٢ ب ، ١٢٥ ب .

(٣) أبو الحسن ج ٢ من ٤٦٠ — ٤٦١ ، وكتاب الديارات لابن شاذلي ، من ١٢٩ ب .

(٤) مسكويه ج ٥ من ٤٥٤ .

(٥) ليس سيف لدولة أمير حلب تاجاً مرمعاً بالجواهر إلا السيف رسول ملك الروم في سنة ٣٥٣ هـ — ٩٦٤ م (بني بن سعيد من ٩٤ ب) . وكان طوق الذهب من علامة الحارثيين عند المصريين القدماء (ZDMG. 41, S. 211) ؛ وصار حوالي عام ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م يخلع عند المسلمين على المواد المتصرين (عريب من ٣٥) ؛ وقد سبّر القائد الذي

لباس الحاشية الرسمي في القرن الثالث الهجري أحمر اللون في العادة ؛ فيحكي أن المتوكل شرب يوماً في أحد قصوره ، وأمر بضرب دراهم ؛ وصُبغ منها الأحمر والأصفر ، ثم أمر الحاشية أن يُمدَّ كل واحد منهم قباءً جديداً وقلنسوة على خلاف لون الآخر وقلنسوته ؛ ثم أمر بنثر الدراهم كما ينثر الورد ، وحوله الندماء والخدم وقوف^(١) . أما في القرن الرابع فكان النملان عند ساعات الاستقبال بعضهم بسواد وبعضهم ببياض^(٢) .

وكان يُحمل على رأس خلفاء العباسيين والفاطميين شمشة الخلافة (وتسمى في مصر مظلة) ؛ وقل ما نسمع عن نشئة بينداد ، ففي عام ٣٣٢ هـ — ٩٤٣ م أمر الخليفة أن تُحمل بين يدي أحد الكبراء شمشة الخلافة ، فكان هذا تكريماً لم يسمح به من كان قبله من الخلفاء^(٣) . وكانت المظلة في القاهرة علامة أبهة الخلافة ، وكان لونها يشابه لون ثياب الخليفة^(٤) . وكان من علامات سيادة

== عزم القرامطة سواربن من الذهب (عرب س ٣) . ويظهر أن أول أمير خلق عليه الطوق والسواربن هو الأخشيدي أمير مصر ، وقد أتخذ الرازي هذه الخلع مع وزيره الفضل بن جعفر في عام ٣٢٤ هـ — ٩٣٥ م ؛ وقد زينت لذلك الأسواق والشوارع بأبواب القرش والسور والبسط وأبواب الجامع ، وركب الأخشيدي إلى الجامع التيق ، وعليه خلع الرازي ، وسمه الوزير (المقرب لابن سعيد س ١٧ — ١٨) ؛ أما خارويه ، سلف الأخشيدي ، فلم يرسل له الخلفة إلا السيف والتاج والوشاح من غير طوق (كتاب الولاة للسكندى س ٢٤٠) ؛ وقد ظل الطوق والسواربن مما يتحل به الدواد في عصر الفاطميين . وذلك كله رغم ما قضى به فقهاء الإسلام من تحريم لبس الذهب والتحل به .

(١) كتاب الديارات س ٦٨ ب .

(٢) كتاب العيون س ٢٣٥ ب .

(٣) كتاب العيون س ٢٢٦ ب .

(٤) الخياط للمعري ج ٢ س ٢٨٠ قلا عن اللبكي (التوفى عام ٤٢٠ هـ — ١٠٢٩ م) ؛ وأبو المحاسن طيبة ليدن ج ٢ س ٤٧٣ — ٤٧٤ ، وترعة فستفلك لمصهر صبح الأعمى ثالثة شدى س ١٧٣ . ومن بابا الماداة البريرة التي استلباها القامايون أنهم كانوا من تخريجهم يسيرون بالخيوش ودهم توابيت آبائهم (أبو المحاسن طيبة كامورنيا س ١٠) .

الخليفة ببغداد أن يضرب على باب داره بالطبول والحدادب والأبواق في أوقات الصلوات الخمس ، وكان لا يوقف ذلك إلا أمام العزاء بدار الخلافة^(١) . وقد حاول الخليفة أن يحافظ على هذه المزية ويحول دون اتخاذ الأسراء لها ولكن ذلك لم يدم ؛ ففي عام ٣٦٨ هـ - ٩٧٨ م أمر الخليفة بأن تُضرب الحدادب على باب عضد الدولة في أوقات الصلوات الثلاث : الضداة والمغرب والعشاء ؛ وفي عام ٤١٨ هـ - ١٠٢٧ م أذن الخليفة بعد إباء لجلال الدولة بأن يضرب الطبل أمام داره في الصلوات الخمس ؛ وفي سنة ٤٣٦ هـ - ١٠٤٤ م ضرب الطبل أمام دار الأمير خسا ، كما هو الحال بالنسبة للخليفة تماماً^(٢) .

وظل لقب الخليفة بسيطاً كبساطة لباسه ، وهو اللقب المشهور : « أمير المؤمنين »^(٣) ؛ على أنه منذ أيام الخليفة العباسي الثاني صار الخليفة يُسمى باسم فيه نسبة إلى الله ؛ وكان اتخاذ هذا اللقب أول عمل يقوم به بعد البيعة له^(٤) . ولا نعرف المثال الأول الذي كان أساساً لذلك . وفي سنة ٣٢٢ هـ - ٩٣٣ م طلب الخليفة الراضي من صديقه الصولي - الأديب ولاعب الشطرنج المشهور - أن يوجه إليه بالأسماء التي تُنعت بها الخلفاء وتكون أوصافاً لهم . وبمضى لنا الصولي نفسه^(٥) أنه بعث إليه رقعة فيها ثلاثون اسماً ليختار منها ما يريد ، وأشار

(١) المنتظم لابن الجوزي ص ١٧٦ ب ، ٢٠١ ب .

(٢) المنتظم ص ١١٤ ، ١٧٥ ب ، ١٩٧ ب ، وابن الأثير ج ٩ ص ٢١٥ .

(٣) على أنه إذا كان الخليفة المستكن قد لقب نفسه في عام ٣٣٤ هـ - ٩٤٥ م بلقب إمام الحق وضرب ذلك على السكة فلانما كان ذلك ردّاً على مزاعم جميع أئمة الفاطميين وأئمة الشيعة (انظر المنتظم ص ٧٣ ب ، وأبو المحاسن ج ٢ ص ٣٠٨ حمة ليدن) .

(٤) وكان ملوك السامانيين يسون حمد موتهم بأسماء غير التي يسون بها في حياتهم

(القدس ٣٢٧) -

(٥) الأوراق مخطوط باريس ص ٢ - ١٠ - ٢١ .

عليه أن يختار منها المرتضى بالله . وقد وثق من اختياره له حتى إنه ابتداء من وقته يعمل أحياناً ضادية قافيتها المرتضى ، على أن ينشده إياها ؛ فلما فرغ منها جاءه رسول الخليفة برقعة فيها : إن إبراهيم بن المهدي لما بويج أيام المقتدر بالخلافة أراد أن يكون له ولي عهد ، فأحضروا المنصور بن المهدي وسموه المرتضى ، وما أحب أن أنسى باسم قد وقع لعيري ، ولم يتم له أمره ؛ وقد اخترت الراضى بالله . وقد حفظ لنا الصولي في تاريخه القصيدة الأولى التي ألفها ، ولم يُقدّر لها أن تُنشد . وقد أمره الخليفة أن يعلما قصيدة أخرى على قافية الراضى ، فعملها^(١) .

وكان كاتب الخليفة القادر (٣٨١ — ٤٢٢ هـ = ٩٩١ — ١٠٣١ م) أول من أخرج في ذكر الخليفة وصفه بالحضرة المقدسة النبوية ، اختراعاً جماله قرينة ، فصار سنة ؛ ومضى في ذلك حق خرق العرف والمادة . فكتب عن الخليفة بالخدمة ، « وتصرف في ذلك حق قال : قالت الخدمة ، وفعلت الخدمة ، وسئلت الخدمة ، حق رأيت بخط أبي الحسن بن أبي الشوارب القاضي في ترجمة رقعة : خادم الخدمة الشريفة فلان بن فلان^(٢) » . وكان الأسراء وكبار أصحاب المناصب والعمال ينهالكون جميعاً على الألقاب نهالكا شديداً ، وكانوا جميعاً يُلقَّبون بألقاب منسوبة إلى الدولة مثل ولي الدولة ، وعماد الدولة ، ومعين الدولة ، وعز الدولة ، ونحو ذلك^(٣) . يقول البيروني (المتوفى عام ٤٤٧ هـ

(١) هذه القصيدة موجودة في كتاب الأوراق ص ١٥ — ٢١ .

(٢) كتاب الوزراء لجلال السابكي (المتوفى عام ٤٤٧ هـ — ١٠٠٥ م) ص ١٥٢ .

(٣) إن أقدم هذه الألقاب — التي لا تزال تستعمل إلى اليوم مثلاً لقب الوزير بغارس —

هو لقب ولي الدولة الذي لُقِّب به الوزير أبو القاسم (المتوفى سنة ٢٩١ هـ — ٩٠٣ م) ؛

وفي عهد الحاكم بأمر الله في مصر لقب أحد العمال بأمين الدولة ؛ انظر الآثار الباقية للبيروني

ص ١٣٢ والصفحات التالية ، ويحيى بن سعيد ص ١١٣ — ب .

(— ١٠٥٥ م) : « وبنو العباس لما اتبعوا أعوانهم بالألقاب الكاذبة ، وسوّوا فيها بين الموالى والمعادى ، ونسبوا إلى الدولة بأسرهم ضاعت دوائهم ^(١) » . وفي النصف الثاني من القرن الرابع احتيج إلى التفرقة بين أصحاب الألقاب فُنُقِيَ لبعضهم التلقب ، فكان عضد الدولة (المتوفى عام ٣٧٢ هـ — ٩٨٢ م) يُلقَّب بتاج الملة ؛ وأخيراً ثلّت التلقب ، فلقَّب بهاء الدولة ضياء الملة وغيّات الأمة . ثم ذاعت ألقاب الدولة في كل مكان عند الفاطميين ، وعند السامانيين في تلقب قواد الجيوش دون تلقب أنفسهم ، لأنهم لم يرغبوا فيها ، واكتفوا بالتسكية ، وعند بفرخان التركي ؛ فإنه لما خرج في سنة ٣٨٢ هـ — ٩٩٢ م لقب نفسه بشهاب الدولة ؛ ثم ظهرت ألقاب كاذبة فيها معارضة لروح الإسلام وتجروء على مقام الألوهية . وكان البويهيون أول من سمو وزراءهم بأسماء مما ينبغي أن يطلق على الله مثل : الأوحد ، وكافى الكفاة ، وأوحد الكفاة ؛ وجاوز نحر هذا الحد ، فسوا أنفسهم بأمير العالم وسيد الأسراء ؛ ولذلك يقول البيهقي بعد ذكره ما تقدم : « فأذاقم الله العزى في الحياة الدنيا ، وأظهر لهم وانهم مجرم ^(٢) » . وأخيراً يُقال إن الخليفة القادر بالله (٣٨١ — ٤٢٢ هـ = ٩٩١ — ١٠٣٠ م) لقب محمود بن سبكتكين صاحب غزنة بأكبر لقب ظل له شأن عند الأجيال التالية وهو لقب السلطان ، وكان محمود أول من لقب به ^(٣) . ولكن أمير بغداد طلب في سنة ٤٢٣ هـ — ١٠٣١ م أن يُلقَّب بالسلطان المعظم مالك الأمم ، فقال القاضي الماوردي ، رسول الخليفة إلى الأمير ، إن هذا لا يمكن ، لأن السلطان

(١) الآثار الباقية لبيروني ص ١٣١ .

(٢) الآثار الباقية لبيروني ص ١٢٤ .

(٣) ابن الأثير ج ٩ ص ٩٢ ، وكتاب الأوائل لعل دده مخطوط رقم ٩٣٧٢ بمكتبة

تراث ص ١٥٥ نقلًا من تاريخ الخلفاء لبيروني .

العظم هو الخليفة ، وكذلك مالك الأم ؛ فسدل الأمير إلى لقب مالك الدولة ، فأجازه الماوردي ^(١) . وفي سنة ٤٢٩ هـ — ١٠٣٧ م زيد في ألقاب جلال الدولة شاهنشاه الأعظم ملك الملوك ، وهو اللقب الوثني القديم ؛ فنفر العامة من ذلك ، ورموا الخطباء الذين ذكروه في المساجد بالآجر ، ووقعت فتنة ؛ ومع أن الفقهاء أفتوا بأن هذه الأسماء إنما يُستَبَرَّ فيها القصد والنية ، وأن ملك الملوك معناه ملك ملوك الأرض ، وليس فيه ما يوجب التكبر ولا للمثالة بين المخلوق والمخالق ، وأن هذا اللقب جائز ، كما جاز أن يُقال : كافي الكفاة ، وقاضي القضاة ، فإن كثيرين من أهل الجدل والتدقيق لم يرضوا به ، وذكروا أن القاضي الماوردي منع من جوازه ، حتى أدى ذلك إلى أن انقطع عن خدمة جلالة الدولة بعد أن كان مختصاً به ^(٢) . ولم يرض هلال الصابي عن تلقيب القادر بالله ابنه وولي عهده بالغالب بالله في عام ٨٣٩١ — ١٠٠١ م ؛ وهو يذكر بعد حكايته لهذا تلك العبارة المعروفة التي كانت مكتوبة على قصر الحمراء : لا غالب إلا الله وحده لا شريك له ^(٣) .

ولم تكن ثمة قيمة حقيقية إلا للألقاب التي بمنحها الخليفة ، وكان يدفع له من أجلها الشيء الكثير ؛ وكان ذلك أكبر أبواب دخله في أواخر القرن الرابع الهجري ؛ فبعد أن لُقِّب أمير بغداد بمالك الدولة في سنة ٤٢٣ هـ — ١٠٣١ م

(١) المنتظم لابن الجوزي ص ١٨٤ ب .

(٢) المنتظم ص ١٩٢ ب — ١٩٣ ، وطبقات السبكي ج ٣ ص ٣٠٥ ؛ وكان الماوردي من خواص جلال الدولة ، فلما أفتى بالتمنع انقطع عنه ؛ فطلبه جلال الدولة يوماً ، فضى إليه على وجل وخوف ، فقال له الأمير : أنا أتحقق أنك لو حاييت أحداً لحاييتي لما بيني وبينك ؛ وما حلك على ذلك إلا الدين ، ففرّبك ذلك مني ، وزاد حلك عندي .

(٣) كتاب الزوراء ص ١٢٠ ، ويذهب الصولي (الأوراق ص ٣) إلى أن الألقاب مكروهة معني عنها في كتاب الله وعلى لسان رسوله عليه السلام ، قال الله عز وجل : ولا تتابروا بالألقاب .

بعث للخليفة أطفاً كثيرة ؛ وقد أرسلها قبل التلقيب ، وإن كان قد أحب أن
يلقب أولاً ثم يرسلها . وكانت هذه الهدايا ألفي دينار ؛ وثلاثين ألف درهم ،
وعشرة أبواب خز ، ومائة نوب ديباج مرصعة ، ومائة أخرى دونها ، وعشرين
مئاة عوداً ، وعشرة أمناه كافوراً ، وألف مثقال ذهباً ، وألف مثقال مسكاً ،
وثلاثمائة مبخر صيني ، وأرسل أيضاً هدايا أخرى لبعض رجال الحاشية^(١) .

وفي هذا العصر أيضاً ارتقت صور الأدب في حضرة الخلفاء حتى صارت
على رسم بقي في جوهره مستمراً طول المصور . كانت الخليفة المأمون حوالي
سنة ٢٠٠ هـ مخاطب كما يخاطب أي رجل آخر بلفظ أنت^(٢) . وكذلك كان
يخاطب الخليفة المقتدر عادة حوالي عام ٣٠٠ هـ^(٣) ، وإن كانت تستعمل إذ ذاك
طريقة الخطاب بصير الغائب إلى جانب ذلك ، فكان يقال أمير المؤمنين أمر
بكيت وكيت . وفي أواخر القرن الثالث لم يكن من السائع أن يخاطب أي رجل
بمثل هذه البساطة ، وفي أوائل القرن الرابع اتى الخليفة المتي الأخشيد صاحب
مصر بالرتة ، وقد حمل الأخشيد الهدايا ، وأظهر الخدمة والأدب ؛ وخاطب وزير
المتي الأخشيد بأنت ، فأسره الخليفة بأن يكفنيه بأ كيداً بعدده واحتراماً له^(٤) .
وفي القرن الخامس المجري (الحادي عشر الميلادي) كان الخليفة المعتضد لشدة
هيئته إذا خاطب صديقه الطيب ثابت بن سنان في الملأ سماء ، وإذا كان في
الخلوات كناه^(٥) . وكان المأمون يمد يده مسلماً على البطريق ديونيسيوس ،

(١) المنتظم من ١٨٤ ب من مخطوط برلين .

(٢) كتاب بغداد لطيفور من ٩٤ ومواضع كثيرة .

(٣) انظر ثلاث مرث من ١٧٦ ، وكتاب الوزراء من ٢٢٩ .

(٤) الغرب لابن سعيد من ٤٠ .

(٥) ميون الأندلس من مبعث الأطباء لابن أبي أصيبعة ج ١ من ٢١٦ .

وهكذا كان يفعل بكل من يريد إكرامه^(١). ولما فارق مؤنس القائد الخليفة في أوائل القرن الرابع الهجري قتل يده^(٢)؛ وكان من خاص التكريم في ذلك العهد أن يقبل الإنسان رجل من هو فوقه^(٣) وكنت من يساويه^(٤). وكذلك سلم الجوارى من قبل على تليماكوس (Telemachos) بأن قبلان كنفه وأهل رأسه^(٥). وقد دعا الخليفة الراضى الأمير بمحكم مرة، فقبل هذا القائد فخذ الراضى ويده^(٦).

وكان الأولون من مسلمى العرب يرون في تقبيل الأرض أمام المخلوقين اجترأ على حقوق الله؛ ولما قدم على المعتذر بالله رسل ملك الروم أعفاهم من تقبيل البساط لئلا يطالب المسلمون بمثل هذا في بوزنطة^(٧). وفي حكاية ترجع إلى أوائل القرن الرابع أن رجلاً صالحاً كتب كتاباً لغلام من غلمان نازوك يستعطف فيه سيده، بعد أن طرده؛ فاستدعى نازوك ذلك الرجل، فحضر مرتاعاً، وأمرى ليقبل الأرض؛ فقال له نازوك، وكان صاحب الشرطة: «مَنْ، عاقاك الله، لا تقبل، هذه من سنن الجبارين، ما تريد من هذا»^(٨). على أنه حوالى عام ٣٣٠ هـ لاقى الأخشيذ الخليفة المتقى في الرقة رجلاً عن بعد ومضى كالغلام بسيفه ومنطقته وجمعبته بين يدي الخليفة على سبيل الخدمة، وقبل

(١) Michael Syrus, S. 517.

(٢) المصنفان مخطوط باريس من ١٢٠٩ (٢).

(٣) كتاب الوزراء من ٣٠٨.

(٤) من المصدر من ٣٥٧، ١٢٣.

(٥) Odyssee, XVII, 35، وكذلك نعل لأوديسيوس رعاة الخنازير والهر (XXI, 224).

(٦) الأوراق لمسؤول من ٤٤.

(٧) تاريخ بغداد الحبيب البغدادي مائة مليون من ٥٦، وبمكي مكبويه (ج ٥ من

١٢٤) ذلك ما نصبت فيقول: فلما دخل (الرسولان) لبس الأرض.

(٨) الفرج بعد الشدة ج ١ من ٤٤.

الأرض سراراً ، وتقدم تقبل يده ، ثم صاح به محمد بن خاقان : اركب يا محمد ، ثم صاح : اركب يا أبا بكر ، فقبل إن المتقى قال لابن خاقان : كُتِّه ، فكناه للوقت ؛ ثم كان الأخشيد يقف بين يديه على سيفه ، وإذا ركب حجه ، وجعل مفرقه على كتفه لأنه لم يخدم خليفة قط غيره ، واقتخر بذلك ؛ وقد أعجب الخليفة من فعله ، وقال له : « قد وايتك أعمالك ثلاثين سنة ، فاستخلف لك أونوجور ، وقيل إنه كناه أبا القاسم ، فقبل الأرض سراراً ، وأهدى إليه الأخشيد هدية أخرى على ما فعله بابنه أونوجور وتكنيته له ^(١) » ؛ وفي عام ٣٦٩ هـ - ٩٧٩ م تم في دار الخلافة تنويع عضد الدولة على ألفم صورة : « جلس الخليفة الطائع على سرير الخلافة في صدر محن السلام ، وحوله من خدمه الخواص نحو مائة بالمناطق والسيوف ، وبين يديه مصحف جبان ، وعلى كتفيه البردة ، وبيده القضيب ، وهو متقلد بسيف ، ووقف الأشراف من الجانبين ؛ ودخل الأتراك والديلم ، ولم يكن مع أحد منهم حديد ؛ فلما وصل عضد الدولة أذن له الخليفة ، فدخل ؛ فلما وقع عليه طرف الخليفة قبل الأرض بين يديه ، فارتاع أحد القواد لما شاهد ، وقال بالفارسية : ما هذا أيها الملك ، أهو الله عز وجل ؟ قالت عضد الدولة إلى من يقفه أن هذا خليفة الله في الأرض ؛ ثم استمر عضد الدولة يمشي ، ويقبل الأرض تسع مرات ، والتهفت الطائع إلى خادمه ، وقال له : استدنه ، فصعد عضد الدولة وقبل الأرض دفتين ، فقال له الطائع : أذن إلى أذن إلى ، فدنا ، وأكب يقبل رجله وثني الطائع يمينه عليه . وكان بين يديه سرير ، ومما يلي الجانب الأيمن الكرسي ، فقال له : اجلس ، مرتين ، فلم يفعل ، فقال له : أقست لتجلسن ، فقبل الكرسي وجلس ، وبعد ملاطفة قال له الخليفة : قد

(١) القرب لابن سيد من ٤٠ .

رأيتُ أن أفوض إليك ما وكل الله تعالى إلى من أمور الرعية في شرق الأرض وغربها وتديروها في جميع جهاتها سوى خاصتي وأسبابي وما وراء بابي ، فتول ذلك مستجيراً بالله تعالى ، فقال له عضد الدولة : يعينني الله عز وجل على طاعة مولانا وخدمته ؛ ثم أمر الخليفة بأن تُفاض عليه الخِلاعة ، ويُتَوَجَّع ، فنهض عضد الدولة إلى الرواق ، فألبس الخلع وخرج ، وأمره الخليفة بالجلوس ، ثم عُقدت له الألوبة ، وقُرئ كتابه ؛ ثم نصحه الخليفة بما أراد ، وقَّله سيقاً ، ونزَّج ؛ وبعد ثلاثة أيام بعث الخليفة إليه هدية فيها غلالة قصب وصينية ذهب وحردادي بلور : « فيه شراب نافص كأنه قد شُرب بعضه ، وعلى قم الحردادي خرقه حرير مشدودة مختومة ^(١) » .

وكان إجلال الخليفة في مصر الفاطمية أعظم مما تقدم ، ففي سنة ٣٦٦ هـ - ٩٧٦ م قرئ سجل أحد القضاة في الجامع الأزهر ، « وهو قائم على قدميه ، فكلما مر ذكر المرء أو أحد من أهله أو ما بالسجود ^(٢) » . ولما أسند القضاء أيضاً في عام ٣٩٨ هـ - ١٠٠٨ م إلى مالك بن سعيد الفارقي قرئ سجله بالقصر ، وهو قائم على رجله ، وكان القاضي كلما مر ذكر الحاكم في السجل قَبَّل الأرض ^(٣) ، وقد أمر الناس في الحرمين في إحدى السنتين أن يقوموا عند ذكر هذا الخليفة ، وكان إذا ذُكر في الأسواق ومواضع الاجتماع بمصر قام الناس وسجدوا ^(٤) . ولكن هذا الخليفة في آخر أمره أظهر الزهد فنع الناس من تقبيل القراب بين يديه ومن بوس اليد والارتغاء بالسجود له ، ومنع من مخاطبته مولانا ؛

(١) المتظم لابن الجوزي ص ١١٥ ب - ١١٦ .

(٢) ملحق أخبار الولاة والقضاة لكندى ص ٥٨٩ .

(٣) نفس المصدر ص ٦٠٤ تلامن السجى .

(٤) المتظم ص ١٥٠ ب .

ولكن هذه الرسوم عادت في زمن خلفه إلى ما كانت عليه من قبل^(١). ولما احتضر الحاكم وصى أبا محمد الحسن بن عمار أحد شيوخ كتامة ، ثم جعل له الوساطة ، وخلع عليه ، وكان الناس يذهبون إلى قصره ، فمنهم من يوصي بتقيل الأرض ، ولا يقبل يده سوى أناس بأعيانهم ، وشرف بعض الناس بتقيل ركا به ، وكان أجل الناس من يقبل ركبته^(٢).

وقد ضرب أحد رجال الحاشية في بخاري حوالى هذا العصر أحسن مثل للأدب وحسن الإصغاء للملك والإقبال عليه ؛ فبينما كان عنده بمحادثته في بعض مهماته لَسَقَتْهُ قُرْبُ في إحدى رجله عدة لسمات ، فلم يتحرك ، ولم يظهر عليه أثر ذلك ؛ فلما عاد إلى منزله نزع خُفَّهُ ، وأخرج القرب منها^(٣). ونظر الأخشيد إلى كافور يوما ، وقد جيء بفيل وزرافة ، قال جميع السبيد والخدم بأبصارهم للفرجة ، فلم تبرح عينه من عين الأخشيد خوف أن يحتاج إليه ويدعوه ، فيكون مشغولا عنه^(٤).

وقد تكلم السمودي في عام ٣٣٢ هـ — ٩٤٤ م عن هذا الأدب في حضرة اللوك ، فقص علينا أن أبا بكر المذلي حضر مجلس السفاح ، وكان السفاح مقبلا عليه بمحادثته بمحدث لأوشروان في بعض حروبه ؛ فصفت الرمح فأذوت ترابا وقطعا من الآجر من أعلى السطح إلى المجلس ، فارتاع من حضر لوقعها ، والمذلي شاخص نحو السفاح ، لم يتغير من شدة ميل ذهنه وانشغال فكره بمحادثة الأمير ،

(١) يحيى بن سعيد ص ١٢٢ ب — ١٢٣ ، ١٢٢ ب — ١٢٣ .

(٢) المخطط للقريري ج ٢ ص ٣٦ .

(٣) ابن الأثير ج ٨ ص ١٩٦ ، وممكن مثل هذا من الحاج وعبد الملك بن مروان ؛

انظر محاضرات الأدباء طعة بولاق ج ١ ص ١١٧ .

(٤) المغرب لابن سعيد ص ٤٧ .

حتى لم يصبح فيه لحادث مجال^(١) . ومحدثنا أيضاً عن أحد سُمرَاء شبرويه بن
أبرويز أنه كان يسير الملك ، ويستمع حديثه مُصنِياً إليه بمجواحه كلها ، حتى ترك
النظر إلى موطن جافر دابته ، فزلت إحدى قوائمها فالت بالرجل إلى النهر ،
ودقع في الماء ، فسُرَّ الملك بذلك ، لأنه لم يكن يظنه بهذا القدر من الإقبال
عليه ، « فحشاه جوهراً ودُرّاً ، واستبطنه ، حتى غلب على أكثر أسره^(٢) » .

وكان الأسراء في مخاطبتهم الرسمية وفيما بينهم يتكلمون عن الخليفة ،
أمير المؤمنين ، بكل احترام ، ويعيرون في كلامهم عنه بمولانا ، ويضع الواحد
منهم نفسه من الخليفة موضع « المولى^(٣) » ؛ وكان أحدهم إذا كتب لآخر افتتح
كتابه بالكلام عن الخليفة من نحو : « كتابي ومولانا أمير المؤمنين سالم موفور
وافقه على ذلك محمود مشكور^(٤) » ، وكان كل شيء يُنسب إلى أسره^(٥) .

وفي سنة ٣٧٨ هـ أهدى صاحب بن عباد إلى غر الدوة في أول المحرم ديتاراً
وزنه ألف متقال ، وكان على أحد جانبيه آيات من الشعر ، وعلى الجانب الآخر
سورة الإخلاص ولقب الخليفة الطائع لله ولقب غر الدوة واسم جرجان ، لأنه

(١) يمكن تسمية جبه حقا من أبو القاسم الكبير في حضرة أمير خراسان ، محاضرات
الأدباء ج ١ ص ١١٧ .

(٢) مروج الذهب ج ٦ ص ١٢٢ - ١٢٥ .

(٣) ولم يكن الواحد منهم يسمى نفسه عبداً . كما قل تكلم صاحب مصر ، حتى
عام ٣٠٠ هـ - كتاب البيون ص ١٢٥ ب (١) .

(٤) انظر مثلاً رسائل الصابي مخطوط رقم ٢٦٦ بكتبة لندن ص ٧٢ ب ، ٩٠ ب ،
١١٢٩ .

(٥) انظر مثلاً قصص المصدر ص ١١٢٥ : « وأنشينا ذلك إلى مولانا أمير المؤمنين ،
وخرج إلينا أمير المؤمنين مالياً وساخته سامياً ... » ، ص ١٢٠٣ : « ولم يزل أكرمكم
الله مولانا أمير المؤمنين يتظام أخباركم ... ويرى فيكم ما يراه في كافة المسلمين من حياء حريمكم
ومباة جميعكم ... ويجعلنا أمراء الله ذلك من نيتته ... ويهب لنا إلى القرب من دياركم ... »

ضرب فيها ؛ هذا مع أن الإهداء كان بالرئى ، فى مكان طهران الحالية ، مع بعدها عن دار الخلافة^(١) .

ولكن أمير المؤمنين كان عند التفاته بالأمر يرى ضعفه التزايد وقصان منزلته ؛ ومن ذلك أن يحكم القائد التركى كان من عادته فى داره وحشمه ألا يشرب الماء إذا جاءوه به إلا بعد أن يذوقه بين يديه من جاء به ؛ وعلم الخليفة الراضى بذلك ، فاستعمل معه ما يُعمل له فى منزله ؛ فكان إذا أُحْمِلَ شيء وُضِعَ بين يدي الراضى أولاً ، فأكل منه ؛ ثم يوضع بين يدي يحكم ، وجرى ذلك فى كل ما يوضع بين يديه ، وكان يحكم يستغنى الراضى من هذا فلا يفتيه^(٢)

(وقد تعرض بلاط الخلافة لأكبر ما أنقص هيئته فى عهد المستكفى (٣٣٣ - ٣٣٤ = ٩٤٤ - ٩٤٦ م) لأنه وقع فى سلطان امرأة فارسية مستبدة تسمى حُسن ، « والتفت إلى حسن فقررت أن كانوا معها على الأصول القبيحة ... وكانت تتولى عرض الفلجان والحجاب فى قصر الخليفة فى مجلس يقال له الحدودان ، لم يكن يصل إليه أحد إلا وزير أو صاحب ، فأنحرفت أمنيته بهذه المرأة ، وذهبت الرسوم التى كانت للخلافة ، وصارت الدار طريقاً لكل من لم يترها ، وكان كل من وصل إلى المستكفى أجلسه بين يديه ... » ؛ وأرادت هذه المرأة أن تأمن توزون وتصلح قلبه ، فجلست الخليفة يدعوه ويكرمه بما لم يسمح به أحد من الخلفاء قبله ؛ فكان يأكل معه على مائدة واحدة ، ويقدم له دابة فى الرواق التسعينى ، وهو موضع لم يركب منه خليفة قط ؛ وأمر أن تحمل

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٤١ .

(٢) الأوراق للصول ص ٥٤ .

بين يديه شمس الخلافة وأن يسير الخدم معه إلى داره^(١) ؛ وكان من سوء حظ الخلفاء أن الديلم ملكوا بغداد كانوا شيعة ، فازداد أمر الخلافة إداراً ، وذهبت حرمة الخلفاء ، ولم يبق لهم من الأسر شيء ؛ لأن الديلم كانوا يتشيحون ويغالون في التشييع ويعتقدون أن العباسيين قد غصبوا الخلافة ، وأخذوها من مستحقها ، فلم يكن عندهم باعث ديني على الطاعة^(٢) . وقد كان نوار دار الخلافة حتى ذلك الوقت هم الذين يغلغلون الخلفاء ويقتلونهم ؛ أما الآن ، بعد قدوم الديلم ، فقد صار الخليفة يعامل أمام الناس جميعاً معاملة سيئة ، لا تراعى له فيها حرمة ولا يعرف له فيها قدر ففي سنة ٣٣٤ هـ - ٩٤٥ م ذهب الأمير معز الدولة إلى دار الخليفة ، وذهب إليها سائر الناس على رسمهم ؛ فلما جلس المستكفي على سريره ، ووقف الناس على مراتبهم ، دخل الأمير معز الدولة ، فقبل الأرض على رسمه ، ثم قبل يد المستكفي ووقف بين يديه يحدته ؛ ثم جلس على كرسی ، فتقدم ثمان من الديلم ومدوا أيديهما إلى المستكفي ، وعلا صوتهما بالفارسية ؛ فظن أنهما يريدان تقبيل يده فدها إليهما ، فجذبا بها وطرحاه إلى الأرض ، ووضعاه عمامته في عنقه ، وجراه ؛ فنهض حينئذ معز الدولة ، واضطرب الناس وارتفعت الزعقات ، وانفتحت دار السلطان ، وضربت الأبواق ، وساق الديلميان المستكفي باقة ماشياً إلى دار معز الدولة حيث شملت ميناء^(٣) .

وفي ٣٦٤ هـ دخل عضد الدولة بغداد ، فكان من حسن سياسته أنه سمى حتى رد الخليفة بعد أن أخذه الأتراك معهم كارهياً ؛ وخرج لقائه في الماء ،

(١) كتاب البيون ص ١٢٢٤ - ٢٢٦ ب .

(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٢٩ .

(٣) يحيى بن سيد ص ٨٦ ب ، وسكويه ج ٦ ص ١٢٢ - ١٢٤ .

ومعه حشد عظيم من أهل بغداد ، وسار معه حتى أنزله بدار الخلافة^(١) ؛ ولكن
عُضد الدولة طلب من الخليفة فيما بعد ، لما رجع إلى بغداد عام ٨٣٧٠ —
٩٨٠ م ، أن يخرج لقائه إلى جسر النهرين ، ولم تكن العادة جارية بخروج
الخلفاء لتلقى أحد من الأسراء^(٢) .

وكانت حاشية دار الخلافة وثقاتهم في عهد الخليفة المتنشد ٢٧٩ —
٢٨٩ = ٨٩٢ — ٩٠١ م كإلى :

- ١ — أسراء بيت الخلافة .
- ٢ — أصحاب النبوة من الرجال ، وأرزاقهم في كل يوم ألف دينار ، منها
سبعائة دينار للبيضان ، ومم البوابون ، وثلاثمائة للسودان ، وأكثرهم ممالك
الخلفاء^(٣) . ومن رسمهم أن ينوبوا في تصاف باب الخاصة وحوالي القصر . ولم
وظيفة خبز يميزون بها لقة أرزاقهم^(٤) .
- ٣ — الفلّان المتّقون ، وهم في الغالب ممالك الخلفاء ؛ ومنهم يُختار
الحجاب ، وعدّتهم خمسة وعشرون ، وخلفاء الحجاب ، وكانوا نحو خمسمائة^(٥) .
ولما قتل المتندر كانت معه رجل من خلفاء الحجاب طرح نفسه عليه فدُبح
أيضاً^(٦) . وفي سنة ٣٢٩ هـ — ٩٤٠ م أنشئ لأول مرة منصب حجاب
الحجاب^(٧) .

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ٤٧٧ .

(٢) المنتظم ص ١١٧ — ب .

(٣) وفي مصدر آخر لا ينطبق ما فيه على حقيقة الواقع تماماً أن عدد هؤلاء الفلّان

السود غير الخدم أربعة آلاف (تاريخ بغداد طبعة Salmon ص ٤١) .

(٤) انظر في هذه الأسماء كتاب الوزراء ص ١١ إلى ص ٢١ .

(٥) مكوي ج ٥ ص ٥٤١ ، وتاريخ بغداد طبعة سلاون ص ٤٩ ، ٥١ .

(٦) مكوي ج ٥ ص ٣٧٩ .

(٧) أبو الحسن طبعة لين ج ٢ ص ٢٩٥ .

٤ — المختارون ، وهم حرس مستخلصون الموكب وملازمة الدار والدخول
أوقات جلوس الخليفة ، والمقام من أول النهار إلى آخره . وكان جند كل قائد
يبتدأ بما فيهم مما يليه الملاحون يؤثفون وحدة قائمة بذاتها ؛ فاختر الخليفة من
كل قيادة من عُرف بالشجاعة والشجاعة ، وسُئوا بأسماء قوادم ، فقليل اليأسية
(وذلك نسبة ليانس) ، والملاحية والمسروية وهكذا . على أنه كان للمعتد
مما يليك بقيموت في القصر والحجر تحت مراعاة الخدم والأستاذين وسمام
الحجرية ؛ وهم يختارون من بين الفرسان الذين يحسنون الركوب والرمي ويسمون
أيضاً عسكر الخاصة . وكان لمحارويهم بمصر قوم معروفون بالشجاعة وشدة البأس
اتخذهم حرساً له ، وسمام المختارة ؛ فكانوا يقاتلون أمام جنده ، وإذا ركب
مشوا خلفه ^(١) .

٥ — أصناف أخرى من المرسومين بخدمة الدار والرسائل الخاصة والقراء
وأصحاب الأخبار والمؤذنين والمنجمين والفرانجين والأنصار والحرس
وأصحاب الأعلام والبوقيين والمحرقين والمضحكين والطبايعين والسقايعين والطبايعين
والغبايعين وخزنة السروج ومعال الاصطبلات الخصة — خامسها للإبل —
وأصحاب الصيد والملاحين في الطيارات ، وخدمة الشاعل والأطباء .

٦ — الحرّم ، وأرزاقهم في اليوم مائة دينار ؛ وإيس عندنا معرفة دقيقة
بمدهن . وقد ذكر الخوارزمي مازعه البعض من أن المتوكل كان له اثنا عشر
ألف سرية ^(٢) ، ويقول السعدي إنه كان له أربعة آلاف سرية ، وفي أحد
المخطوطات أربعمائة ^(٣) ؛ وكان على رأس نساء للقصر حوالي عام ٣٠٠ .

(١) نفس المصدر ص ٦٥

(٢) رسائل الخوارزمي ص ١٣٧ .

(٣) المروج للسمعدي ج ٧ ص ٢٧٦ .

قهرمانتان ، إحداهما للخليفة والأخرى للسيدة والدته ؛ وكان يسلم للأولى كبار المعتقلين ليحبسوا عندها مكرمين حباً هنيئاً ؛ فضلاً عن كل بابن القرات حوالى ٥٣٠٠ - ٩١٢ م عند زيدان القهرمان^(١) ، كما سلم إليها الأمير الحسين بن حمدان ، والوزير على بن عيسى سنة ٥٣٠٣ - ٩١٥ م^(٢) .

وكان اتخاذ الخليفة نساء من غير مبالاة بأصلهن ، وإن كان معظمهن من جوارى الترك والروم ، سبياً في إجماد كثير من الاضطراب في البلاط وفي المناصب الإدارية العليا ؛ فكانت كل سيدة تحب من يفصل بها من الأقارب والأولياء ، ورومهم ما استطاعت ؛ ومن أمثلة ذلك أن الخليفة المهدي كتب إلى عامل جرش في إشخاص النطريف بن عطاء أخى الخيزران أم موسى وهارون ابنيه ؛ وكان النطريف غلاماً لرجل من أهل جرش ، فأعتقه ، وكان يؤاجر نفسه بنظر كروم ؛ فحباه العامل وكساه ، وحمله إلى المهدي ، فرفع منزلته ، ثم ولّاه على اليمن^(٣) . وكان للفتندر خال روى يسمى غريب ، وكان له نفوذ كبير وكان يُخاطَب بالأميرة^(٤) . وفي سنة ٥٣٠١ استطاعت أم موسى الهاشمية قهرمان السيدة أم الخليفة أن تسمى في إسناد نقابة بنى هاشم الطالبين والمباسبين لأخيها ؛ فضعج الهاشميون حتى ردوا النقابة إلى ابن النقيب السابق^(٥) . وقد أثبتت التجربة أن كثيراً من المنازعات مصدرها أم الخليفة ؛ وقد ذاق المتصلون بالخليفة

(١) غريب ص ١٠٩ ، كتاب الوزراء ص ١٠٥ .

(٢) كتاب الميون ص ١٨٥ ، ١٨٦ .

(٣) تاريخ البقوى ج ٢ ص ٤٨١ من الطبعة الأوربية .

(٤) غريب ص ٤٩ .

(٥) نفس المصدر ص ٤٧ .

وبالذات ، حتى إن الخليفة كان يُنتخب أحياناً لأنه لا أم له رجاء أن تستقيم الأمور معه^(١) .

وكان في دار القنطرة حوالي عام ٨٣٠٠ م — ٩١٢ م أحد عشر ألفاً من الخدم المخصيان^(٢) ، وفي رواية أخرى أنه كان بها سبعة آلاف خادم وسبعمائة حاجب^(٣) ، وفي مصدر قديم موثوق به أن خدم المتوكل وحاشيته كانوا سبعمائة^(٤) .

وقد جرى أباطرة الدولة الرومانية في العصر المتأخر على عادة القصر القديم ، فجمعوا حولهم جماعة يدعونهم إلى الطعام والشراب ، وسموهم « أصدقاء الإمبراطور » ؛ وكذلك فعل الخليفة المأمون لما ورد إلى بغداد ، فإنه أمر بأن تُثبت له أسماء من يصلح لمناذته من أهل الأدب^(٥) . وقد آثر أن يكونوا من العلماء والقواد وعمن جالس الخلفاء . وكذلك حاول القائد بحكم أن ينفع بندماء الخليفة الراضى ، فلم يجد من ينفعه إلا الطبيب سنان بن ثابت^(٦) . وكان للخليفة المعتد (٢٥٦ — ٢٧٩ = ٨٦٩ — ٨٩٢ م) مع ندمائه مجالسات ومذكرات قد دُوت في أنواع من الأدب ، فيها مدح النديم وذم فضائله وذم التفرد بشرب النبيذ وما قيل في ذلك^(٧) ، وكان لندماء أرزاق^(٨) .

(١) نفس المصدر ص ١٨١ ، وكتاب الميون ص ١٣١ ب بالترقيم العربي (٢) ، وقد توفيت والدته الفاضلة (كتاب الميون ص ١٦٦) .

(٢) تاريخ بغداد طبعة سلون ص ٤٩ ، نقل عن القاضي التنوخي (التوفيق عام ١١٧٢ م — ١٠٥٥ م) ؛ وأبو الحسن ج ٢ ص ١١٨ .

(٣) تاريخ بغداد ص ٥١ .

(٤) كتاب الديارات الفاضلة ص ٦٨ ب .

(٥) نفس المصدر ص ٢٩ ب .

(٦) مسكويه ج ٢ ص ٢١ .

(٧) مروج الذهب ج ٨ ص ١٠٢ ، ويمكن لنا الشافعي (ص ١٨٠) أن المأمون أراد يوماً أن يلقى به ندمائه ، وأمر بإحضار الخمر وآلة الطبخ وطلب من الندماء أن يطبخ كل واحد منهم قدره ، وطبخ هو أيضاً قدره .

(٨) نفس المصدر ص ٦٩ .

وقد وصف لنا الصولى أول جلسة للخليفة الراضى (٢٢٢ - ٢٢٦ هـ = ٩٣٦ - ٩٤٠ م) مع أصحابه : كانوا يجلسون على رسم وترتيب مخصوص ، وكانوا فى أول جلسة أربعة عن يمينه وخمسة عن يساره ؛ فكان على يمينه قريبا إليه إسحاق بن المعتد أحد الأشراف ، ويليهِ الصولى ، الأديب ولاعب الشطرنج المشهور ، ثم أحمد بن محمد المروضى الذى كان مرسوما بتأديب أبى إسحاق النقي أمير المؤمنين ، ثم يليه محمد بن عبد الله بن حمدون ، أحد أبناء الأشراف المتصلين بالبلاط ؛ وكان على يساره ثلاثة من آل النجم وهم من أدباء الحاشية ، واثان من بنى البريدى العمال المشهورين ، وكان يملآن الخليفة الخط . وقد افتتح المجلس بإنشاد قصائد بمناسبة تقايد الخلافة ، ثم تكلم الخليفة ، فشكا ثقل العبء الذى ألقاه عليه هذا المنصب بسبب قلة الأموال وتغير الأحوال وكآب الجند وخراب الدنيا ؛ وذكر أنه يستصعبه من النعم والأسف والاهتمام أكثر مما يؤمل من السرور ، ورجا الله أن يعيله بحمىل نقيه . وكان مما قاله : والله لقد جاءنى هذا الأسر ، ولا شرعت فيه ، ولا جنته ، ولا علم إايه ذلك منى فى سر ولا علانية ، ثم تحدث عن إعانت القاهر له وخوفه من قتله إياه فى ليله ونهاره ، إلى أن قال : أليس بابن المعتد وأخ القتدر وعمى لنا ؟ هذا والله عار وعيب لا يزال ، فقال له الصولى : قد أزال الله عن سيدنا كل عيب ؛ وله فى رسول الله أسوة حسنة ؛ هذا عمه أبو لهب أزل الله فيه سورة من القرآن يعرفها كل إنسان ، فما لحقه عاره . يقول الصولى : « فكنا بين يديه فى ذلك اليوم ثلاث ساعات من الليل نشرب ، وكان هو لا يشرب ، قد ترك الذبيذ جملة » ؛ وكان لكل من الفريقين الذين على يمينه وعلى يساره فى أول جلسة نوبة خاصة به ؛ ويظهر أن بعض النوبة كانوا يحضرون النوبة الأخرى أحيانا^(١) . ويقول الصولى : إن مما امتاز به

(١) الأوراق الصولى س ١١ - ٢٦ ، ١٤٣ .

الراضى في مجالس منادمانه أنه كان يأمر بأن توضع بين أيدي الندماء الصواني عليهم الخاسيات المطبوخ ، والفاسل ، وكيزان الماء ، ليشرّب كل واحد منهم ما يريد . « ولم يكن يفعل ذلك الخلفاء إلا خصوصاً بالواحد بعد الواحد ^(١) ، وبالجماعة في وقت من الدهر » . وكان يأمر أن توضع بين أيديهم الفواكه الرطبة واليابسة ، فيأكلوا منها كما يأكلون في ميوتهم ؛ بل يحكى الصولى أن الندماء كانوا يتبارون في الشرب بين يديه ، فيُسَرُّ بذلك ، ويثيب عليه ، ويقول : من زاد في شربه فإنما فعل ذلك سروراً بنا ونشاطاً لجلسنا ، وكان إذا شرب أحد المتبارين كأساً قبل صاحبه رفعها ليرأها الراضى ؛ وقد فعل اثنان منها ذلك مراراً إلى أن ضجر الراضى فقال : كأنها قوارير بول تدفع بين يدي طيب ^(٢) .

وكان لكل سلطان من السلاطين أمانة لندمانه ، إذا أراد أن يرضهم ، فكان أردشير إذا غمطى قام سُمَّارُهُ ؛ وكان يزْدَجَرْد يقول : شَبْ شُدْ (ومعناها تقدّم الليل) ؛ وكان سابور يقول : حسبك يا إنسان ! وكان عمر يقول : قامت الصلاة ؛ وعبد الملك : إذا شتمت ؛ والرشيد : سبحان الله ؛ وكان الواثق يمسّ عارضته ^(٣) .

وكانت نفقات دار الخلافة عظيمة جداً ؛ فكانت نفقات المطابخ والمحارز عشرة آلاف دينار في الشهر . وكان يطاق في كل شهر في جملة نفقات المطابخ لثمن الملك وحده ثلثمائة دينار ، مع أن الخليفة لم يكن يأكل طعاماً فيه مأك ، ولا يطرحه إلا البسير في الخشكناج ؛ وكان يُصرف للفقارين مائة وعشرون

(١) ولا كان لكل نديم من ندماء الواثق (٢٢٧ هـ - ٢٢٣ هـ = ٨٤١ هـ)

(٢) نوبة لا يحضر إلا بها - الأمانى ج ٣ ص ١٨٤ .

(٣) الأوراق الصولى ص ٧١ ، ٧٢ .

(٤) معاصرات الأدباء ج ١ ص ١٢١ .

ديناراً في الشهر ، ومائتا دينار لثمن الشمع والزيت ، وثلاثون ديناراً للأدوية ،
ثلاثة آلاف دينار لنفقات خزائن السكينة ، الخيل ، الطيب وحوامج الخضر
والحمام ونفقات خزائن السلاح وما يُرمى من الجواشن والدروع ويتخذ من
النشاب والأعلام ونفقات خزانة السروج والفرش^(١) .

وكانت نفقات دار الحرم التي بينها خازويه عظيمة جداً ، وكان يفضل من
حاجات من فيها الشيء الكثير للخدم والطباخين . واشتهر بيعهم لذلك ، وكان
شيئاً موجوداً في كل وقت لكثرة واتساعه ، بحيث أن الرجل إذا طارقه ضيف
خرج من فوره إلى باب دار الحرم ، فيجد ما يشتره ليتجمل به لضيفه مما لا يقدر
على عمله مثله^(٢) .

ولما قصد القاهرة في الخلافة أظهر من الجدد والاختصار والقناعة ما عابه به
الناس ، فلما عرضت عليه صنوف الألوان والحلواء والتقاكة التي كانت توضع بين
أيدي الخلفاء في كل يوم استكثرها ؛ وكانت تباع بثلاثين ديناراً ، فأمر بأن
يقتصر من ذلك على دينار واحد ومن الطعام على اثني عشر لونا . وكان يقدم
لذلك كل يوم ثلاثون لونا من حلواء فاقصر على ما يكفي^(٣) .

وفي ذلك العصر كانت أيام المسرقة أقبلت ؛ ففي عام ٨٣٢٥ - ٩٣٧ م
أنقص عدد الحجاب من خمسمائة إلى ستين^(٤) ؛ وفي سنة ٨٣٣٤ - ٩٤٥ م
استولى معز الدولة على كل الأمور المالية من يد الخليفة ، وأقام له لنفقاته كل يوم

(١) كتاب الوزراء ص ١٦ ، ١٨ ، ١٩ ، ٣٥٢ .

(٢) المخطط للقرنيزي ج ١ ص ٣١٧ - ٣١٨ .

(٣) عرب ص ١٨٣ .

ألى درهم^(١)، وهو أقل من نصف ما كان يحتاج إليه^(٢). وبعد ذلك بسنتين قطع عن الخليفة الأتقي درهم وعوضه عنها ضياعاً من ضياع البصرة وغيرها زيادة على قدر ضياع الخليفة بنحو مائتي ألف دينار في السنة؛ ثم نقص ارتفاعها على عمر السنين إلى أن صار خمسين ألف دينار في السنة^(٣).

ثم جرت العادة منذ عام ٣٣٤ هـ - ٩٤٥ م أن تُنهب دار الخليفة بعد موته أو خلعها حتى لا يبقى فيها شيء^(٤). وفي سنة ٣٨١ هـ - ٩٩١ م لما خلع الطائع خُوِّل ما كان في دار الخلافة من المال والثياب والأواني والمصنوعات والفروش والآلات، والرخام والخشب والساج والتمنائيل والأبواب والشبابيك والرماض حتى خلت دار الخلافة^(٥). وكان العامة من الرومان يطلقون لأنفسهم العنان لمثل هذا الصنيع عند موت البابا.

ونلاحظ هنا تشابهاً يستلفت النظر بين الخليفة والبابا، وذلك أن الخليفة في هذا العصر صار رئيساً روحياً فقط ليس له سلطة سياسية، وصار الرئيس الروحي لجميع المسلمين، وكان تقلص سلطانه عن العراق، حتى لم يبق له إلا بغداد ينازعه عليها المنازعون، مما أسرع في جعل منصب الخليفة روحياً دينياً. وفي سنة ٤٢٣ هـ

(١) مسكويه ج ٦ ص ١٢٥.

(٢) كانت نفقات الحضرة في أيام المتضد سبعة آلاف دينار في كل يوم (كتاب الوزراء ص ١٠)، وفي سنة ٣٣٠ هـ - ٩٤١ م قدر لسائر نفقات دار الخلافة مائة وخمسون ألف درهم في السنة (كتاب البيون ص ١٢٠٣).

(٣) المنظم ص ٧٨ ب.

(٤) يحيى بن محمد ص ٨٦ ب - ١٨٧، ومسكويه ج ٦ ص ١٢٤. ولما مات الراض أرسل بهم القائد إلى دار الخلافة، وأخذ فرشاً وآلات كان يستعملها (ابن الأثير ج ٨ ص ٢٧٦)، ولما خلع المويزر في عام ٢٩٩ هـ - ٩١١ م نهبت داره وأخربت (كتاب الوزراء ص ٢٩ والمنظم ص ١٤٠).

(٥) المنظم ص ١٣٠ ب وابن الأثير ج ٩ ص ٥٤، ٥٦.

— ١٠٣٢ م نزل السلطان جلال الدولة من داره على سكر؛ وانحدر في سميرية،
ومعه ثلاثة نفر من حاشيته؛ ووصل إلى بستان دار الخلافة، وجلس مع بعض
مغنياته تحت شجرة، واستدعى نبيذا فشربه، وأمر الزامر أن يزمر؛ وعرف
ال خليفة ذلك فشق عليه وأزجه، فأرسل للسلطان قاضيا وحاجيا فقالا له: إن
النبيذ والزمر مما لا يجوز في هذا الوضع على مقربة من الخليفة؛ فلم يقبل كلامهما،
ولم يمتنع؛ فتغيظ الخليفة، وأرسل له كلاما غليظا، وأخذه أن هذه السيدة تشين
الخلافة، وهدد بمفارقة البلد؛ فغضر الوزير واعتذر^(١)؛ على أن الدور الذي كان
للخليفة في هذه المصور الأخيرة كان بسيطا، لا يشبه منصب رئيس الكنيهة؛
إذا قورن بإمبراطور بوزنطة الذي كان يُحتفى في ميدان الألعاب بوصف أنه داود
الثاني أو الرسول بولس الثاني؛ وكان يُحتفى به كما يُحتفى بكبار القس؛ وكان
يمضي يومه بين الكنائس والمذابح وصور القديسين، كما يدل على ذلك كتاب

De Caerimoniis

(١) التنظم ص ١٨٥ — ب.

الفصل العاشر

الأشراف

كان العرب يقولون : الشرف نَسَبٌ ، يقصدون أنه في الدم ؛ وأول ما يجب أن يتوفر للسيد أن يكون جواداً شجاعاً ، ومن خصاله أن يكون عاقلاً متفانلاً . كما قال الفرزدق :

كَانَ فِيهِ إِذَا حَاولَتْهُ بَلَهًا عَنْ مَالِهِ ، وَهُوَ وَاقٍ الْعَقْلَ وَالْوَرَعَ
وَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

ليس النبيُّ بسيد في قومه لكن سيد قومه المتناهي^(١)
ولا بد أن يكون عظيم الرأس ، ومن لم يكن عظيم الهامة فليس بسيد^(٢)
— كالكتاب فن صفته أن يكون صغير الهامة^(٣) — ومن صفاته أن يكون
كث شعر الناصية ، أنتم عرنيين الأنف ، واسع الأشداق^(٤) ، غير مستدير الوجه ،
عريض الصدر والنكبين ، مقيد الساعد ، طويل الأنامل^(٥) . ويكره في السيد

(١) ميون الأخبار لابن قتيبة طبعة بروكلمان ص ٢٧١ .

(٢) نفس المصدر ٢٧٠ .

(٣) صحيح دققي معتمد ص ١١٤٠ دار السند المصرية سنة ١١٤٠ هـ .

ج ١ ص ٦٧ .

(٤) وهذه أيضاً صفة كرام الخيل .

(٥) ومن صفات رأس الجالوت (رئيس اليهود) أن يكون طويل الباع تبلغ أنامله ركليه (علة الأبحاث اليهودية مجلد ٥٩ (١٩١٠) ص ١٢١) وما يليها ؛ ومفاتيح العلوم للخوازمي ص ٣٥ ؛ ومن صفات الهدى عند النوسيين بإفريقية أن تبلغ أنامله الأرض ، (انظر M. Hartmann, Af. R. I, S. 266).

التصنع في لباس والشيء ؛ ولذلك يقال : « عمامة السيد ملونة [أو ملوبة]
أي يدبرها على رأسه كيما اتفق^(١) » . ويحكى من التفضل بن يحيى أحد رجال
الحاشية في العصر العباسي أنه قال : « الناس أربع طبقات : ١ - ملوك فذلهم
الاستحقاق ، ٢ - ووزراء فضلتهم القطة والرأى ، ٣ - وعجزة أنهمهم
اليسار ، ٤ - وأوساط الحفهم بهم التأذب ؛ والناس بدم زبد جفاء ، وسيل
نقاء ، لكع ولكاع ، وريطة انتفاع ، ثم أحدم طعمه ونومه^(٢) .

وكان الشرف والسيادة نتيجة للمال والسيطرة السياسية ، وهما شيان في غاية
الدناءة . وقد أهل الملون مسألة الدم وخصوصاً دم الأم إهلاً شديداً ؛ وذمبت
قلة الاكتراث بذلك إلى حد أن جميع الخلفاء في القرنين الثالث والرابع للهجرة
كانوا أبناء جوار من الترك أو الروم ؛ وكاد رجل أسود في أوائل القرن الثالث
المجبرى أن يرتقى إلى عرش الخلافة^(٣) .

على أن الإسلام أوجد نوعاً من شرف الدم لا يزال باقياً إلى عصرنا هذا ،
وذلك في قرابة النبي أو بنى هاشم أو أهل بيت رسول الله أو « أهل البيت »
باختصار ؛ وكانوا يأخذون ، باعتبارهم قرابة النبي ، راتباً من الحكومة ، وكذلك
حرمت عليهم الصدقة ثم ومواليهم^(٤) . وكان لهم قضاء مستقل بهم يتولاه قضائهم

(١) أبناء نجيلاء الأبناء ، مخطوط برلين رقم ٩٥٠٧ ص ١٤ ب ومخطوط رقم ٦٠٣٢
ص ١٥ ب ، وهذا الكتاب لابن خنجر للسك للقرن عام ٥٦٥ هـ - ١١٧٠ م .

(٢) مختصر كتاب البيان لأبي بكر أحمد بن محمد المصنف للقرن بابن الفقيه ، طبعة
لندن عام ١٣٠٢ هـ ص ١ .

(٣) هو إبراهيم بن المهدي ، وأمه أم ولد سوناه ، وكان عديد السواد برآق اللون
طويلاً يديناً ، حتى كان يبرز بذلك (مطالع البدور للزول ج ١ ص ١٣) .

(٤) رسائل الملاحظ طبعة دار فلولن ص ٧ .

الذي يتيته الخليفة^(١). وكان لم نقيب لافي بشداد فقط ، بل في جميع المدن الكبرى مثل واسط والكوفة والبصرة والأهواز^(٢). وفي سنة ٣٥١ هـ - ٩٦١ م كانت نقابة الطالبين بمصر للشاعر أبي القاسم أحمد بن محمد بن إسماعيل طباطبا^(٣). وكان نقيب العلويين في عهد الفاطميين أيضاً من كبار رجال دار الخلافة^(٤). وقد انتهى إلينا كتاب بتقليد أبي أحمد الحسين بن موسى نقابة الطالبين سنة ٣٥٤ هـ - ٩٦٥ م ، ونرى من هذا الكتاب أن "نقيب هو الذي يحكم أيضاً في النزاع بين الطالبين وبين سائر رعية الخليفة"^(٥).

وكان الفرعان للتعدادان من أهل البيت ، وهم العباسيون الذين وصلوا إلى الرياسة ، والطالبيون الذين لم يبلغوها ، يخضعون جميعاً لنقيب واحد حتى القرن الرابع^(٦). وفي آخر هذا القرن صار لكل فريق منهم نقيب خاص ؛ والسبب الأقوى في ذلك أن العباسيين بدأ أسرم في الضعف وبدأ الآخرون في القوة ، فلم يستطيعوا أن يحمّلوا إشراف أحد على أسرم ؛ وقد مهدت ظروف ذلك العصر الطريق لما عليه الإشراف اليوم .

وكان كل من العلويين والعباسيين يخاطب بالـ "سريف"^(٧) ؛ ولم يكن للعلويين شارة يتميزون بها كما تنال حتى ذلك الحسبة التي أوردها سريب بن سين

(١) الأحكام السلطانية للماوردي ، طبعة لاهور ١٦٥ .

(٢) التنظيم لابن الجوزي ص ١١٥ ب .

(٣) المغرب لابن سعيد ص ٤٩ .

(٤) Becker, Beiträge, 1, S. 38 فلا من اللب .

(٥) رسائل الصافي طبعة جبدا (لبنان) ١٨٩٨ ص ١٥٣ .

(٦) سريب ص ٤٧ .

(٧) فيما يتعلق بالعلويين انظر كتاب الفرج جد الشدة للتونسي ج ٢ ص ٤٣ ، والإرشاد

بالوث ج ١ ص ٢٥٦ وفيها يتعلق بالهاشميين انظر للتنظيم لابن الجوزي ص ٩٢ ب .

القرطبي في كتابه صلة تاريخ الطبري^(١) ؛ أما القون الأخضر فلم يجعل شارة لم إلا أخيراً في القرن الثامن الهجري^(٢) .

وكان يعطى لكل واحد من بنى هاشم ببغداد ديناراً في كل شهر في عهد المعتمد (٢٥٦ - ٢٧٩ هـ = ٨٧٠ - ٨٩٢ م) ؛ أما الذين خرجوا من بغداد فقد تركوها خواة الوفاض . ثم اقتصر الخليفة المتضد على رُبع دينار . وكان عدد بنى هاشم بالحضرة أربعة آلاف نفس ، وجملة الجارى لهم ألف دينار في الشهر^(٣) ؛ وفي سنة ٢٠٩ هـ - ٨٢٤ م أحصى عدد العباسيين ، فكانوا ثلاثة وثلاثين ألفاً^(٤) ؛ على حين أن الملاحظ حوالي ذلك الوقت يقول : « إن آل أبي طالب أحصوا منذ أعوام وحصلوا ، فكانوا قريباً من ألفين وثلاثمائة »^(٥) .

وكان يجري لمشايخ الهاشميين راتب خاص يذكر في الميزانية مع أرزاق الخطباء في المساجد الجامعة ؛ وجملة ذلك ستائة دينار في الشهر^(٦) . وكان لأولاد الخلفاء جاري خاص ، وإن كان قليلاً ؛ فكان المتضد (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ = ٨٩٢ - ٩٠٢ م) يجري على أولاد المتوكل وأولادهم رجالاً ونساء ألف دينار في الشهر ، وكان يعطى أولاد الواثق والمهتدي والستمين ومن في قصر أم حبيب خمسمائة دينار في الشهر ، وأجرى على ولد الناصر عبد الواحد وإخوته خمسمائة

(١) حريب ص ٤٩ .

(٢) انظر الفصل الخامس بالقيمة .

(٣) كتاب الوزراء ص ٢٠ .

(٤) الطبري ج ٣ ص ٩٦١ (٢) وكتاب الميون ص ٣٥١ (١) ، ولعله يقرب إلى

الجزء المطبوع .

(٥) كتاب القصور للملاحظ مخطوط رقم ٣١٣٨ بالمتحف البريطاني ص ١٢٠٧ .

(٦) كتاب الوزراء ص ٢٠ .

دينار أيضاً^(١). ولذلك لم يَحُلْ العلويون من بعض المخاطرين الساخطين ، وكانت بخارى مركز هذه الجماعة الذي إليه يأتون ، لأنه كانت ببخارى أكبر حكومة غير شيعية بمد بغداد . وفي حوالي سنة ٨٣٨٠ التي ببخارى بعض أولاد الخلفاء مثل أبي طالب المأموني وأبي محمد الواثق ، وابن المهدي وابن المستكفي^(٢) . وكان أبو محمد الواثق يشهد بتعيين عند الحكام والقضاة ، وإليه مع الشهادة الخطابة في المسجد الجامع ؛ ثم أقصد على القاضي أسره ، فأخرج من بغداد ، فقصده خراسان راجياً أن يَقلد قضاء أو ديوان بريد ؛ فلم يزل ما أراد ، فذهب مخاضياً يتوغل في بلاد الترك ، حتى أتى عصام بمحضرة بنغراخان ، واعتل مع رجال آخر كتاباً عن الخليفة بتقليده العهد بعده ، حتى اضطر الخليفة أن يكتب بتكذيبه إلى خراسان وسائر الأطراف ؛ ولم يزل الواثق يزبن لبغراخان إزالة الدولة السامانية والاستيلاء على المملكة ؛ وبني التدبير على أن تكون له الخلافة ، ويقتل التركي أعمال خراسان وما وراء النهر من يده ؛ فألم التركي في جيوشه ببخارى واستولى عليها ، ولكنه مات قبل تحقيق نهاية التدبير ، وعاد الواثق إلى بغداد سراً بعد فشل تدبيره ، ولكن الخليفة فطن إليه واضطره إلى الخروج ، فعاود بلاد الترك ، وتقلب به الأحوال ، حتى قبض عليه بمين الدولة محمود بن سبكتكين ، وحسبه في إحدى القلاع موسماً عليه ، حتى مات^(٣) . أما المأموني فكان أيضاً يسمو بهمة إلى الخلافة ويُنَيّ نفسه قصد بغداد في جيوش تنضم إليه من خراسان لفتحها ، فانتطعت النية دون بلوغ الأمنية ، ولم يكن بلغ

(١) قس المصدر ص ٢٠.

(٢) ينبة الدرر ج ٤ ص ٨٤ — ٨٧ ، ١١٢ .

(٣) كتاب الوزراء ص ٤٢١ وما يليها ، ونبذة الدرر ج ٤ ص ١١٢ — ١١٣ .

وإبن الأثير ج ٩ ص ١١٧ — ١١٨ .

الأربعين ، وكانت وفاته سنة ٣٨٣ هـ - ٩٩٣ م ^(١) . ثم حاول محمد بن الخليفة
 المستنفي الذي خلع سنة ٣٣٤ هـ - ٩٤٥ م أن يستولى على الدولة ، مستفيداً بما
 جاء في الأخبار من ظهور المهدي . فظهرت دعوته بين الخاص والعام ، وادّعى
 أنصاره أنه « ياسر بالمعروف وينص من المنكر ، وبجاهد أعداء المسلمين ،
 ويمجد ما عفا من رسوم الدين » ، فتطاعت إليه نفوس العامة ، وجعل دعاته
 يأخذون له البيعة على الرجل بعد الرجل . فمن كان من أهل السنة قالوا له إنه
 عباسي ، ومن كان من أهل التشيع قالوا له إنه علوي ، ودخل جماعة من وجوه
 الكتاب وأماثل الناس في هذا الأمر ، ودخل فيه خلق كثير من الفيلم والترك
 والعرب . وكان فيهم سيكتكين القائد العجمي ، وكان يشيع ، فقال له الدعاة :
 إن الرجل علوي ؛ ووهده بان يقلد إمرة الأمراء ، فاستجاب للدعوة ؛ ثم ظهر
 لسيكتكين أن الرجل عباسي لا علوي ، فتغيرت نيته وتصوره بصورة المحتال ؛
 ثم انتهى أمره بأن قبض عليه بختيار وهلى أخيه وأسلمهما للخليفة المطيع لله ؛
 فأمر بجدع أنف صاحب الدعوة ، وقطع أذن أخيه وحبسهما ؛ ثم هربا وخفي
 أمرهما ^(٢) .

وكان الهاشميون ، إلى جانب ما يجرى لهم من راتب خاص ، يقدّمون في
 تولى مناصب مشرفة يصيرون منها المال بلا مبالاة ولا مراجعة ضمير : فكانت
 تسد إليهم إمامة كثير من الدج ^(٣) ؛ فتلا كان أحد الهاشميين (توفي عام
 ٣٥٠ هـ - ٩٦١ م) إماماً لجامع المنصور ببغداد ، وسوا كبر جامع في الدولة

(١) البيه ج ٤ ص ٩٤ ، وابن الأثير ج ٩ ص ١٠١

(٢) مكويه ج ٦ ص ٣١٥ - ٣١٧ .

(٣) كتاب المراج للدعاة بن جعفر مخطوط باريس ص ١٤ .

الإسلامية^(١) ؛ وكان إمام جامع عمرو بمصر في مثل هذا الوقت هاشمياً أيضاً^(٢) ؛ وكذلك تولى منصب قاضي القضاة في عامي ٣٦٣ هـ - ٩٧٤ م و ٣٩٤ هـ - ١٠٠٤ م رجلاً من بني هاشم^(٣) . وفي أواخر القرن الرابع كان أبو محمد الوائلي من ولد الوائلي بالله أمير المؤمنين يتولى الخطبة في المسجد الجامع بنصيبين^(٤) ؛ كما كان الذي يجمع بالناس في كل عام رجلاً من بني هاشم ، وهذه مهمة يصيب من يقوم بها شيئاً كثيراً ؛ وكانت لا تخرج من يد الهاشميين . ولما احتاج المؤمنون أن يستعين بالعلويين على أخيه الأمين تولى الحج بالناس رجال من الطالبين منذ عام ٢٠٣ هـ ، وكانت هذه أول مرة يجمع فيه الطالبيون بالناس ؛ ولكن إمارة الحج عادت إلى الهاشميين بعد ذلك بثلاث سنين ، وبقيت لهم حتى آخر أيام السعدي عام ٢٣٦ هـ - ٩٤٧ م^(٥) ؛ ثم آلت إلى العلويين ، وكان ينيهون من بينهم من يقوم بالحج^(٦) .

وكانت أول ما نطى الميراث إلى أقرب النبي ، فكان أحمد بن أبي يعقوب ابن يوسف بن إبراهيم العروف بابن الداية (توفي عام ٣٤٠ هـ) يُجْرى بمصر في عهد ابن طولون الجرايات على الأشراف الطالبين ، ومنهم من كان ينال مائتي دينار في كل سنة^(٧) . وكان الوزير علي بن عيسى في أوائل القرن الرابع ينفق كل سنة أربعين ألف درهم في صلات الطالبين والعباسيين وأولاد الأنصار

-
- (١) المتظم ص ٩٠ ب .
 - (٢) ملحق الكندي ص ٥٧٥ .
 - (٣) المتظم ص ١١٠٥ - ب ، ١٤٩ ب .
 - (٤) كتاب الوزراء ص ٤٢١ .
 - (٥) صروج الذهب ج ٩ ص ٦٩ وما يليها .
 - (٦) المتظم ص ١٢٩ ب ، وابن الأثير ج ٩ ص ٥٤ ، على أن إمارة الحج بمصر ظلت في أيدي الهاشميين . انظر ملحق الكندي ص ٥٧٥ .
 - (٧) الإرشاد لبالنوٲ ج ٢ ص ١٥٩ .

والمهاجرين وفي مصالح الحرمين^(١) . وفي سنة ٣٣٤ هـ وصل الخليفة المطيع لله
العباسيين والعلويين في يوم بنيف وثلاثين ألف درهم^(٢) ؛ وكان أبو العلاء المرمي
يصل بمض العلويين ، وبعث إليه مربة بشيء من النفقة ، وأرسل له يستنذر لقلته
ويرجوه قبله^(٣) . ومن الأمثال المعروفة أن العلوي يأخذ ولا يعطي^(٤) ؛

وإذا نظرنا إلى قلة جاري بني هاشم ، وهو ربع دينار في الشهر ، علما أنهم
لا بد أن يكونوا جميعاً علويين وعباسيين في قاعة شديدة ؛ ونجد أحد الهاشميين
يشتمل علينا يجمع الأخبار ؛ وفي عام ٣٣٤ هـ - ٩٤٥ م وقع غلاء ومجاعة ؛ فقتل
كثير من النساء الهاشميات لأنهن كن يقطنن الأطفال ويأكلن اللحم^(٥) .
وكان عند صاحب بن عباد ، وزير خزانة الدولة بشمال فارس ، علوي شامي يحدنه
عما شاهد من الأعاجيب^(٦) . وقد تحدث ابن الججاج (توفي عام ٣٩١ هـ -
١٠٠١ م) في بعض شعره عن مفضية هاشمية سيئة السيرة^(٧) . وبما يحكي عن كافور
الأخشيدي صاحب مصر أنه وقت له امرأة في طريقه وصاحت به : ارحمني
برحمت الله ، فدفعها أحد رجاله دفعا عنيفا ، فسقطت ؛ فاغتاض كافور وأمر بقطع
يد ؛ ثم استشفع له ؛ فنجس من مكرمتها ؛ وقال : سأزعم من أحباها ؛
فما تكون إلا من بيت عظيم ؛ فسئلت ، فإذا بها علوية ؛ فغظم الأمر على كافور
وقال : قد أغفلنا الشيطان عن نساء الأشراف ؛ وأحسن إليها وتنفق سائر نساء

(١) كتاب الوزراء ص ٣٢٢ - ٣٢٣ .

(٢) المنتظم ص ١٧٤ .

(٣) رسائل أبي العلاء طبعة مرجليوث ص ٣٥ .

(٤) كتاب الفرج بعد القدة لقتوش .

(٥) يحيى بن سعيد ص ١٨٧ والمنتظم ص ٧٤ ب .

(٦) محاضرات الأدباء ج ٢ ص ٢٩٥ .

(٧) ديوان ابن الججاج ص ١٤١ .

الأشراف وأدرك عليهم الإحسان والجرايات^(١) . وفي سنة ٨٣٥٠ هـ - ٩٦١ م وقعت في بغداد قتل عظيمة أصابها أن رجلاً عباسياً هرب على رجل ملوى ، وهاجم على نبيذ ، فقتل الملوى ونفرا أهله واستغاثوا لأجله ، ودخلت العامة ، وعظم الأمر ؛ وكان « أعمام النبي » من أكبر مشعلى نيران القتل بين عامة بغداد^(٢) .

وفي عام ٣٠٦ هـ - ٩١٨ م وثب جماعة من الماشيين على الوزير على بن عيسى بسبب تأخر أرزاقهم فشتموه وخرقوا دراعته ، وأرجلوه ؛ فخلصه القواد منهم ؛ واتصل ذلك بالمفتدر فأمر فيهم بأمر عظام وبأن يتفوا إلى البصرة مقيدين ؛ فحملوا في سفينة مطبقة بعد أن ضرب بعضهم ، وأمر الخليفة أن يحبسوا في محبس البصرة ، فحملهم سبك الطولوني أمير البصرة مقيدين على حديد إلى دار في جانب الحبس ، وكلهم بحميل ووعدهم خيراً ، وفرق فيهم أموالاً إلا أنه أسر بذلك . ثم نفذ كتاب بإطلاقهم ، فأحسن إليهم الأمير وصنع لهم طعاماً ووصلهم ، وأكرمت لهم سميريات ، فكان مقامهم في البصرة عشرة أيام^(٣) . وكان كلا قوى أمر الشيعة ببغداد وأظهروا الاحتفال بأعيادهم ، قابل الباسيون السنيون ذلك بنهوض من جانبهم وفضلوا مثل ما يفعله الشيعة ؛ وأكبر من كان يفعل ذلك السنيون في باب البصرة^(٤) .

وحوالى عام ٨٣٥٠ هـ - ٩٦١ م وردت فتنة عظيمة ببغداد - كما تقدم - بسبب نزاع بين ملوى وعباسي ؛ فقبض الوزير المهمل الحازم على كثير من منيرى القتل من الباسيين وحملهم في زوارق مطبقة مسترة وأغذم الحبس في بعض

(١) المغرب لابن سعيد ص ٤٨ .

(٢) كتاب الوزراء ص ٣٣٩ .

(٣) هريب ص ٧٥ - ٧٦ .

(٤) ابن الأثير ج ٩ ص ١١٠ .

مدن العراق ، فسكنوا هناك حيث مات كثير منهم ، ثم طفق الباقون بسد موت المهلب^(١)

• وقد أراد القائد حميد الجبوش في سنة ٣٩٢ هـ - ١٠٠٢ م أن يضع حداً لهذه المداوة القديمة بين أهل السنة والشيعة ببغداد ، وهي المداوة التي كان المهيجون المتطرفون من العلويين والعباسيين يدعون الناس فيها لقتال والشغب ، وكان حميد الجبوش قد أرسل لإخضاع البتنة القائمة ؛ فطالب الثوار من العلويين والعباسيين ، فسكنوا إذا وقعدوا أمر أن يُقرن المهلب بالعباسي ويفرقانهاراً بمشهد من الناس ، حتى هدأت تلك الفتن المستمرة ، وتجددت الاستقامة للنسبة ، وخاف الغائب والحاضر^(٢)

ثم جاء الوقت الذي يتزقه العلويون بعد طول انتظار ونفاد وصبر ؛ فأخذ محمد بن في الصمود في كل مكان ، على حين بدأ أمر العباسيين في الضعف ؛ فيقول المقدسي في كلامه عن إقليم خراسان مثلاً : وأولاد علي رضي الله عنه فيه على غاية الرفعة ، ولا ترى به هاشمياً إلا غريباً^(٣) ؛ وهنا نجد القرن الرابع الهجري قد أوجد الظروف والموقف الذي نراه الآن ، فالعلويون هم الذين يمثلون أهل بيت الرسول . وقد عمل الجميع من قرامطة وفاطميين على خدمة قضية العلويين ، فأشأوا دولة علوية في جبال فارس ، وفتحوا مكة بعد منتصف القرن الرابع ، وجعلوها عاصمة البلاد المقدسة ، واستطاعوا بدهاء أن يستغلوا المنافسة الشديدة القائمة بين القاهرة وبغداد لمصلحة هذا المركز الجديد^(٤)

(١) كتاب الوزراء ص ٣٣١ - ٣٣٢ .

(٢) نفس المصدر ص ٤٦٤ ، والتنظم ص ١٤٧ ب .

(٣) المقدسي ص ٣٢٣ .

(٤) العرب لابن سعيد ص ٦ (٢) .

وكان الملوك الجدد في الغرب والشرق وهم الحدانيون والابويهيون على مذهب الشيعة ؛ وكان ازدياد التكريم للنبي مما أسبغ على أبنائه تكريماً كبيراً ؛ ويحكى ان مأمور الأخشيدى كان يوماً في موكب ، فسقط منه سوطه ؛ فهاوله إياه أحد الشرفاء ، فقبل يده شكراً وقال له « نبيت إلى الله ونفسى ، فما بعد أن ناولنى ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم سوطى غايةً يُتَشَرَّفُ لها » ؛ فأتت عن قريب ^(١) . وكان الأخشيد يحنف أبناء طائفا على طرية ، وكان أهلها شيعة ؛ وكان بها أبو الطيب الملوى وَجَّهَ البلد شرقاً ومساكناً وقرة ؛ فكتب الأخشيد لأبيه يذكر أنه ليس له أمر ولا نهى مع أبى الطيب ^(٢) .

وكان الأخشيد بريئاً من كل تحيز فأحضر عبد الله بن طباطبا والحسين بن طاهر بن يحيى إلى مجلسه ، « وكانا لا يفارقانه ، هذا حتى وهذا حتى » ، وبينهما عداوة الرياسة والاختصاص ^(٣) . والحسين بن طاهر هو الذى أرسله الأخشيد إلى سيف الدولة ليفاوضه من أجل السلام وتحديد الحدود بينهما ^(٤) ؛ وهو الذى سافر أيضاً بين الأخشيد وبين ابن رائق فى الصلح ، حينما جاء ابن رائق مهاجماً لمصر فى عام ٣٢٧ هـ - ٩٣٩ م ^(٥) . وكان الحبح قد تعطل منذ عام ٣١٧ هـ حتى عام ٣٢٧ هـ لاعتراض القرامطة ؛ فكانت منهم أحد الملوين ، وكاوا يمشونه لشجاعته وكرمه ، حتى انتهى الأمر بتسهيل سبيل الحبح ^(٦) . وكذلك كان الملوين هم الذين يتوسطون عادة فيما يقوم من خصومات فى بيوت

(١) نفس المصدر ص ١٧ .

(٢) نفس المصدر ص ٦ .

(٣) نفس المصدر ص ١٨ .

(٤) نفس المصدر ص ٤٢ .

(٥) نفس المصدر ص ٢٥ .

(٦) المنتظم ص ١٦٠ .

الشيعة من بنى حمدان و بنى بُوتيه ؛ وإذا عرفنا ما كان يعود على العلويين من هذا التوسط ، استطعنا أن نستنبط مقدار ما لحقهم من الخسارة حينما اضطرتهم حكومة بغداد أن يحدّوا موقفهم بإزاء الفاطميين ، وأن يندوهم ولا يندروهم من أبناء عليّ الحقيقين . وفي سنة ٤٠٣ هـ - ١٠١٢ م صدر كتاب من الأمير بهاء الدولة بأن يضاف إلى الرضى الموسوى النظر في أمور جميع الطالبين بجميع البلاد ، وجملة نقيب النقباء ، ولم يبلغ ذلك أحد من أهل البيت^(١) ؛ وخاض عليّ الرضى السواد ، فكان أول طالبى لبس السواد على زىّ العباسيين^(٢) ؛ وكان في هذا إقرار من جانب ابن عم العباسيين الذى كان أقوى منهم من قبل بأنه قد هُزم .

أما أبناء الخلفاء الثلاثة الراشدين فلم يلعبوا دوراً هاماً ؛ ولما اشتدّ البلاء على أهل مصر من ولاية المَمرى القضاء عليهم خرج جماعته إلى هرون الرشيد ، وشكوا إليه ما يفعله المَمرى فيهم ، فقال : انظروا في الديوان كم لى من دالٍ من ولدٍ يهر ابن الخطاب رضى الله عنه ، فكُشف الديوان ، فلم يوجد غيره فقال : انصرفوا ! فوافقه لا عزله أبداً^(٣) ؛ ثم خلفه على القضاء هانم بن أبى بكر البكرى من قبيل الأمين عام ١٩٤ هـ ؛ وقد دخل مصر مُقلاً ، فزرع زرعا ، فاكسره عليه خراجهُ ، وطولب به وتشدّد عليه في ذلك ؛ وكان أحد الكتاب حاضراً ، فعرفه وعرف الحال ، فقال : « سبحان الله ! ابن صاحب نبيكم والذى قام في مقامه بعده يطأ آب

(١) ديوان الرضى من ٢١٠ ، والمنظّم من ١٥٨ ب .

(٢) ابن الأثير ج ٩ ص ١٧٠ ، والمنظّم من ١٥٨ ب .

(٣) الفصاة والولاية لـ كندى من ٤١٠ ، وفي سنة ٣٨٨ هـ - ٩٩٨ م مات

الخطاب من ولد زيد بن الخطاب أخى عمر بن الخطاب ، وكان من الدلاء . (انظر الإرشاد

بالهوت ج ٢ ص ٨١) .

بمثل هذه المطالبة إما كان عليه فهو على ، وهو له على في كل سنة ^(١) .
 أما اليوم فنجد أبناء أبي بكر وعمر إلى جانب أبناء النبي عليه السلام هم الذين
 يتألف منهم الأشراف بمصر ؛ ونجد البكرين منهم بنوع خاص ، ويسمون
 الصديقيين ، يتولون منذ أوائل القرن التاسع عشر مناصب روحية تعود عليهم
 بالخير الوفير ^(٢) . ونجد حوالي عام ٤٠٠ هـ ، أبا الفطاريف عملاق بن غيداق
 العناني يقيم بتيسابور ، وينسب إلى عثمان بن عفان ؛ وكان كثير الشعر قليل
 الملح ، ومن ثقل حتى خف وقبح حتى ملح ؛ يتعاطى الفواحش ، ويقول
 الشعر ، « فإذا قيل له : كيف أصبحت أيها الشريف ؟ قال : أصبحت جواً إلا
 في السكك حللاً لتكلك ، على رأسه : طائركم معكم سرمداً ، وعلى جبينه -
 ولن تفلحوا إذن أبداً ^(٣) » .

هذه هي أم السلالات الشريفة التي نشأت عن الدين ^(٤) . أما سلائل
 الأشراف الذين كانوا قبل الإسلام فقد احتفظوا بأنفسهم متمسكين أشد التمسك
 بما كان لهم ، وذلك في الأجزاء الإقطاعية من جبال فارس وغلاتها وقلاها ؛
 يقول ابن حوقل . « وبفارس سنة جميلة وعادة فيها بينهم كالفصيلة ، من تفضيل
 أهل البيوتات القديمة وإكرام أهل النعم الأولية ؛ وفيها بيوت يتوارثون فيها بينهم

(١) الفضاة السكندى ص ٤١٦ .

(٢) M. Hartmann, MSOS. 1909, II, S. 81. (٧)

(٣) ينيمة الدهرج ٤ ص ٢٩٣ — ٢٩٤ . على أنه يظهر صراحة من شعر هذا الرجل
 الذي كان يلقب بالشريف أنه كان مولد لرجل من موال عثمان بن عفان . (الترجم)

(٤) ومن الأشراف الذين أوجدتهم السلالات الأنصار الذين تأسروا النبي عليه السلام ،
 وكما ، لهم يجب بغداد وكانت تفرق عليهم المبرات . انظر المتاعم ص ١١٢ ؛ وكتاب "الفرج

أعمال الدواوين على قديم أيامهم إلى أيامنا»^(١) ؛ والغالب على ملوكهم وخدامهم والمحاطين للسلطان من محال الدواوين وغيرهم « استعمال المروءة في أحوالهم ... وتحسين الموائد بالطعام وكثرة الطعام وإحضار الخمر والفواكه قبل الموائد ، والنزاهة مما يقبح به الحديث من الأخلاق الدثيثة ، وترك المجاهرة بالفواحش ، والمبالغة في تحسين دورهم ولباسهم وموائدهم ، والمناسفة فيما بينهم في ذلك ، والآداب الظاهرة فيهم والعلم الشائع في جميعهم »^(٢)

أما سادة العهد الأموي فلم يستطع الاحتفاظ بمركزهم منهم إلا المهالبة ، بنو الهلب بن أبي صفرة ؛ وكان مقرهم بالبصرة حيث كانت لهم دور حسنة^(٣) . وقد كان لأحدم شأن في ثورة الزوج الكبيرة في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري^(٤) ؛ ولعله كان يتوقع في ذلك العهد نهاية دولة بني العباس . ونولى آخر^(٥) من المهالبة وزارة عضد الدولة حوالي منتصف القرن الرابع . وقد أراد آل بني الشوارب القضاء أن يقيموا بينهم وبين الأمويين وبالتنلى ملوك قرطبة والماتان^(٦) نسباً^(٧) . وكان للبنويين أو أبناء الدولة الذين حاربوا لأجل الدولة العباسية وجاءوا معها من خراسان إلى بغداد — وكانوا من الأشراف المحاربين الأحرار — شأن قوي في القرن الثالث الهجري ؛ وكانوا يفتخرون بالصبر تحت ظلال السيوف وبأنهم فرسان شجعان ؛ ومن قولهم : « ولدنا في أفتية ملوكنا وتحت

(١) ابن حوقل ص ٢٠٧ .

(٢) قس المصدر ص ٢٠٥ —

(٣) كتاب الرواة لشمالي مخطوط برلين ص ١٢٩ ب .

(٤) كتاب البيون ص ٦ ب — ١٧ .

(٥) السودي ج ١ ص ٣٧٧ .

(٦) نجد في كتاب البيون (ص ٧١) شمرأ في ذلك .

أجنحة خلقاتنا ، فأخذنا بأدابهم واحتذينا على مثالهم ^(١) ؛ ولكن حلّ محلهم في القرن الرابع فرسان من الممالك المتنّية أو غير المتنّية أصلهم من الترك والفرس ؛ بل نجد أيضاً أن آخر سلاسل الطاهريين ، الذين كان بينهم في القرن الثالث ثمان بيت في المملكة الإسلامية بعد بيت الخلافة ، يماجلون في بلاط بخارى خدمة السامانيين ؛ وقد فقدوا ما كان لهم من مجد قديم ، ولكنهم لم يجرموا من الملكة الشعرية ، فكان منهم شاعر كان يخدم آل سامان جبراً ويهجوم سرّاً زيطوى على بنض شديد لم ^(٢) . وكان هؤلاء السادة جميعاً يسمون في جميع بلاد الشمال حتى بلاد الترك بالكلمة الرومانية البوزنطية : البطارقة ^(٣)

ويحدثنا ابن رسته في أواخر القرن الرابع أحاديث طريفة عن البيوت الكبرى في عصره : فأما الأشاعة فقد كان جد الأشعث بن ممدى كرب عابجاً من أهل فارس إسكاناً ؛ وكانت ورثة بنت ممدى كرب عمّة الأشعث عند رجل من اليهود ؛ ولم تختلف ولها ، فأتى الأشعث عمر بن الخطاب يطلب مهراتها ، فقال له عمر : لا ميراث لأهل ملتين ؛ وأما آل الهلب بن أبي صفرة فقد كان أبو صفرة فارسياً مجوسياً حائكاً ؛ وأما آل خالد بن صفوان الأحمسي فإن الأهم ابن علبة كانت امرأة أكار أخذاً قيس بن عاصم بن سنان وجماعة من بني منقر أغاروا على الحميرة ؛ وآل الجهم بن بلرب جهم بن مسعود كان جدم مسعود

(١) رسائل ابن خلدون ج ١ ص ١١٠ .

(٢) بنية اوهج ج ٤ ص ٢ وما بعدها ص ١١ - ١٢ .

(٣) عبد شامر تركستاني في البنية ج ٤ ص ٨١ . وهو الشاعر أبو الحسن النيسابوري .

مبدأ لحبيب بن شهاب ، هرب منه ولحق بخراسان وادعى أنه من بني سامة بن
 لؤى القرشي ؛ وكان آل أبي دلف قوما من المعتادين من أهل الحيرة ؛ وكانوا
 جهابذة بها ، فخرج جدّ لم يقال له إدريس فأتى ، وابتاع داراً بالبصرة ؛ ثم
 خرج إلى الجبل ، فأبودلف من ولده ؛ والريبع الحاجب ، وهو رأس
 أسرة من كبار العمال ، كان ابن زنى من جارية سوء كانت عند مولى لثمان
 ابن عفان^(١) .

(١) الأعلام النبيلة طبعة لندن ١٨٩١ م ٢٠٥ - ٢٠٧ .

الفصل الحادى عشر

الرقيق

كان اتخاذ الرقيق منتشراً عند اليهود والنصارى والمسلمين . على أن ضمير الكنيسة كان يسخط على الرق بين حين وآخر ؛ وكان رجالها يقولون إن المسيح لا فرق عنده بين حرّ ومبد^(١) . وقد حاولت الكنيسة ، على الأقل ، أن تحارب تجارة الرقيق ، ففرضت على من يشتغل بها عقوبة الحرمان^(٢) . وقد استأنفت نظراً للمسلمين أن اليهود والنصارى لا يجوز لهم أن يمتنعوا بإيمانهم^(٣) ، وذلك لأن القانون المسيحى فى الشرق كان يعتبر اقتراب الرجل من أمته زنى عقابُهُ المنع من البيعة ؛ ويحق للزوجة فى هذه الحالة أن تبيع الجارية وتقصيها عن البيت ، وإذا حلت الجارية من سيدها المسيحى طفلاً فإنه ينشأ رقيقاً « يحمل عار والده الزانى »^(٤) . ويمكن أن الخليفة المنصور ، بعد أن استدعى الطبيب جورجيس بن جبريل

(١) انظر مثلاً Sachau, Syr. Rechtsb. 2, S. 161 ، وكذلك نجد الفكر الإنبوى زرة يعقوب (حوالى سنة ١٦٠٠ م) فى تقديمه للإسلام والنصرانية بعبء الإسلام ، لأنه بإقراره تجارة الرقيق ألقى المساواة والأخوة بين بنى الإنسان ، وهم جميعاً يسعون الله أبائهم (انظر : Philosophi abessini, ed. Littmann S. II. من الترجمة) .

(٢) Syr. Rechtsb. 2, S. 109, 147, 165 ، على أنه يوجد بين فقهاء المسلمين حديث يروى عن النبي وهو : « شر الناس من باع الناس » (كتاب المثل مخطوط برلين رقم ٨٣٢٧ ص ٢٠٦ ب) .

(٣) كتاب البدء والتاريخ للظهر بن طاهر المقدسى وهو ينسب لأبى زيد البلخى ج ٤ ص ٣٩ من طبعة كلايان هوار باريس .

(٤) Syr. Rechtsb. 2, S. 161 f. (١)

الرجاء من مرضه وشفى على يديه ، أرسل إليه ثلاثاً من الجوارى الروميات الحسن
مع ثلثة آلاف دينار ، فأخذ لئال ورد الجوارى ؛ فإنه المنصور عن ذلك فقال :
« هؤلاء لا يكونون معى فى بيت واحد ، لأننا نحن معشر النصارى لا نتزوج بأكثر
من امرأة واحدة ، وما دامت المرأة فى الحياة لا نأخذ غيرها » ، فحسن موقعه من
الخليفة^(١)

أما فى الإسلام فإن الطفل الذى يولد للفلس من أمه يكون حراً^(٢) ،
ولا يجوز للرجل أن يبيع الأمة أم الولد ؛ ثم هى تصبح حرة بعد موت زوجها ؛
ولا يجوز فى الشرع الإسلامى أن يشترك رجلان فى أمة فى وقت واحد ؛ وقد
حدث مرة أن رجلين اشتريا أمة فوطئاهما ، فأمر الخليفة بقبليهما^(٣) .

وعلى حين أن القوانين فى الدولة الرومانية البيزنطية كانت تحرم على غير
النصرانى أن يتخذ رقيقاً من النصارى^(٤) ، وأن الكنيسة المسيحية كانت فى
بلاد الإسلام — كما تقدم — تعاقب بالحرمان من بيع الرقيق النصرانى لغير
النصارى ، فإن الشريعة الإسلامية لم تحرم على اليهود والنصارى اتخاذ رقيق
من المسلمين^(٥) .

وفى القرن الرابع الهجرى كانت مصر وجنوب جزيرة العرب وشمال

(١) Elias Nisibenus S. 179. (حوالى عام ١٤٠٠) فى مجموعة ، Corp. Scrip.or.

Chr. طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ج ١ ص ١٢٥ .

(٢) الولد الأول على الأقل ، واختلف الفقهاء فيما بعده ، انظر رأى الخفية عند

Sachau, Muham. Recht S. 174 ورأى الشافعية عند d, Ohsson, VI, S. 11—12

(٣) الكندى ص ٣٣٨ .

(٤) Cod. Just., C. 1, tit. 9, 10. (٤)

(٥) Sachau, Muham. Recht, S. 173. (٥)

الزنجية أكبر أسواق الرقيق الأسوي؛ وكانت قوافل هذه البلاد تجلب الزنجيين
والعميد من الجنوب، وكان الثمن الجارى لمعد حوالى منتصف القرن الثانى
المهجرى اثني درهم^(١). وقد اشترى كاثور صاحب مصر، وكان عبداً حبشياً،
فى سنة ٨٣١٢ هـ - ٩٢٤ م بناية عشر ديناراً كما يقال^(٢)؛ وهذا الثمن قليل
بالنسبة لكاثور لأنه كان خصياً، وكان يدفع فى ثمن الزنجى الجيد بمان ما بين
خمس وعشرين وثلاثين ديناراً^(٣). ولما اشترى الوزير الصاحب بن عباد عبداً
نوياً بأربمانه دينار استكثر الناس هذا الثمن^(٤). وقد سيمت جارية « جميلة
حلوة » حوالى عام ٣٠٠ هـ بمائة وخمسين ديناراً^(٥). ويقول الشريف
الإدريسى^(٦) إن فى نساء النوبة جمالا قاتلاً، وإنه لا أحسن للجماع منهن لطيب
متعتهن ونفاة حسنهن، وإن الجارية منهن ليبلغ ثمنها ثلثمائة دينار. وقد جلب
كثيرات من الزنج إلى بلاد العراق، وهن معروفات بكثرة النسل. وقد علل
الملاحظ عدم غلبة أولاد الزنج فى العراق بكون الزنجى والزنجية قليلا ما يلدان
من التراب، وأن الزنجية لا تكاد تنشط لغير الزنجى، وهى من الزنجى أسرع
لقاحاً منها من الأبيض؛ فكان الملاحظ يرى أن الزنجيات يصيبن العقم فى
البلاد الشمالية^(٧) وكان يستعمل عبيد البيوت لسود بوايين كما هو الحال اليوم^(٨).

(١) الأمان ج ٣ ص ٥٥.

(٢) F. Wüstenfeld, Statthalter von Aegypten IV, S. 47.

(٣) بحاث الهند ص ٤٢، وكان يدفع مثل هذا المبلغ فى بوزنطة فى ذلك العهد لمعد

السادى اظر Vogt, Baal, S. 393

(٤) ابن الوردي ص ٤٦.

(٥) سلاله البدور لغزولى ج ١ ص ١٩٦.

(٦) طبعة دوزى، لندن ١٨٦٤ ص ١٣.

(٧) رسائل الملاحظ طبعة فائق ملى ص ٢٧ - ٣٠.

(٨) اظر ما حكاه رحالة صينى فى القرن الثالث عشر الميلادى عند Fr. Hirth, Die

Länder des Islam nach Chinesischen Quellen S. 55

وإذ كان المجتمع يعنى بالشعر الجيد وبالموسيقى الجميلة لا تفرق بين
من ألوان الفن، عظمت فيه قيمة الفنان والجواري الموهوبين المتعلمين . وكان في
عهد الرشيد ببغداد مَفَنٌ مشهور قد يتفق عنده وجود ثمانين جارية لإخوانه
يودعون عنده لتعليمهن فن الغناء^(١) . وكانت تُشترى الجارية من هؤلاء بألف
دينار إلى ألفين^(٢) . وقد يحدث أن يكون بيت النحاس مكاناً يكثر غشيانه
الشعراء^(٣) . وكان معظم القيان اللاتي يحترفن الغناء ببغداد في سنة ١٣٠٦ هـ
جواري ، وقليل منهن أحرار^(٤) . وكان للمشهورات من حذاق المغنيات أثمان
كبيرة ، كما نقدرهن نحن اليوم ؛ فحوالي عام ١٣٢٥ هـ اشترى ابن رائق أمير العراق
جارية مولدة كانت لابنة ابن حمدون النديم ؛ وكانت سمراء موصوفة بحسن
الغناء ، فاشتراها ابن رائق من موالها بثلاثة عشر ألف دينار ، وأعطى من دله
عليها ألف دينار^(٥) ؛ ويحكى الصولي^(٦) أن ابن رائق اشتراها بأربعة عشر ألف
دينار ، فاستعظم الناس ذلك .

وكان ممن العبيد البيض يزيد على ما تقدم لأنهم أرسقراطيو العبيد ؛ فكانت
تؤخذ الجارية الحسنة من غير صناعة على جمالها بألف دينار وأكثر^(٧) . وكانت
لأبي بكر الخوارزمي جارية ، فطلبت بعشرة آلاف درهم فلم يجدوها^(٨) . وقد

(١) الأغاني ج ٥ من ٦ .

(٢) انظر Michael Syrus S. 514 ، وهو بخط إبراهيم الهدي إبراهيم الرسل

(٣) الأغاني ج ٢٠ من ٤٣ .

(٤) أبو القاسم طبعة مئزر ٧٨ وما بعدها .

(٥) المتظم من ١٨٨ .

(٦) الأوراق للمولى من ١٤٢ من مخطوط باريس .

(٧) الاسطخرى من ٤٥ .

(٨) البليدة ج ٤ من ١٥١ .

ارتفعت أثمان الذهب الأبيض ارتفاعاً خائفاً سيما خربت النغور القريبة ، وانقطع
 صيد الأندلس في القرن الرابع ، وكاد ينضب المصدر الوحيد الباقي للرقيق ، وهو
 بوزنطة وأرمينية^(١) . وما زاد في ذلك أن أهل الملكية الإسلامية من المسلمين
 وأهل التمة لم يكن يجوز أن يُسترقوا بوجه من الوجوه القانونية ؛ ولم يكن الإجرام
 سبباً يكفي لحرمانهم من حريتهم كما هو الحال عند غير المسلمين . وكذلك كان
 يحرم على الآباء المسلمين أن يبيعوا أولادهم ، كما كان الحال عند اليهود مثلاً ؛
 فإنهم كانوا ، إذا احتاجوا ، باعوا أولادهم الصغار غير البالغين^(٢) . وقد حدثت
 فتنة في مصر في القرن الثالث الهجري ، فقبض على بعض النصارى المصريين ،
 وبيعوا في دمشق كما يباع الرقيق ؛ فأثار هذا العمل أكبر السخط ، لأنه فعل
 يخالف الشريعة^(٣)

على أنه كان يوجد بين المسلمين بعض من شرار الفرق يعتبرون أنفسهم
 المسلمين ، ويعتبرون جميع من خالفهم أهلاً للحرمان من الحقوق الشرعية ؛ ومن
 هذه الفرقة الضالة فرقة القرامطة الذين عظم شأنهم في القرن الرابع ، فقد أحلوا
 استرقاق من يقع في أيديهم من الأسرى ؛ وكان ذلك أسراً شنيعاً في أيامهم ؛
 فصرعان ما صار الكثيرون من الأمنيين السالين من أهل الشام وجزيرة العرب
 والشرقاء أرقاء في أيديهم ؛ وقد اعترض القرامطة قافلة الحاج عام ٩٢٤ هـ / ١٥١٢ م ،
 فأسروا من الرجال ألفين ، ومن النساء نحو خمسمائة وساروا بهم إلى هجر ؛ وكان
 الأزهرى المذنب الأديب المتوفى عام ٩٧٠ هـ / ١٥٦٠ م من جملة الأسرى ، ووقع

(١) المقدسي ص ٢٤٢ .

(٢) Kraus, Talmudische Archäologie, وكتاب البدء والتاريخ ج ٤

ص ٣٩ ، على أن يبع العرائس المذنب بناتهم — وهو العمل الذي لا يزال جارياً إلى
 اليوم — بخلاف العريضة الإسلامية وهو محظور بحكم الشرع .

(٣) انظر الفصل الخامس باليهود والنصارى .

في سهم ثوم من العرب الذين نشأوا بالبادية يتجهون مساقط النيث ، ويشكلون بطباعهم البدوية ، ولا يكاد يكون في منطقهم لمن ؛ وقد بقى في أسرهم دسراً طويلاً واستفاد من مخاطبتهم ومعاورة بعضهم بعضاً ألقاً جيدة ، ونوادير كثيرة أورد أكثرها في كتابه^(١) .

أما في سائر المملكة الإسلامية فقد اقتصر المسلمون في العبيد البيض على الترك وعلى الصقالبة ، وم الجنس الذي لا ينفذ معيته ، والذي استقى منه الاسم الذي أطلق على الرقيق في أوروبا . وكان الصقالبة يقدّمون على الترك ، حتى قال الطوارزمي : « يستخدم التركي عند غيبة الصقالبي »^(٢) . وأكبر ما كان يجلب من بلخار ، وهي قسبة البلخار الذين يقطنون حول نهر الفلجا ، رقيق كانوا يؤخذون من هناك إلى إقليم جيحون^(٣) ، وكانت سمرقند أكبر سوق لهم ، وهي مشهورة بأن خير رقيق ما وراء النهر ما كان من تربيتها . وكان في أهل سمرقند جمال ، وكان لهم حسن تهمة لأنفسهم بما زادوا به على أكثر أهل خراسان^(٤) ؛ وكانت بلدم لذلك مشهورة بأنها مركز للتربية والتهديب ، وكان أهلها يتخذون ذلك صناعة لم يعبثون منها كما هو الحال اليوم في جنيف ولوزان .

أما الطريق الثاني الذي كان يأتي منه رقيق الصقالبة ، فقد كان يخرق ألمانيا إلى الأندلس وإلى الموانئ البحرية بإيطاليا وفرنسا^(٥) . وكان أغلب تجار

(١) المتظم من ٢٧ ب — ١٢٨ ؛ والأزهرى هو الذي حكى ذلك من قبله ، انظر الإرشاد ج ٦ ص ٢٩٩ .

(٢) الينبة ج ١ ص ١١٦ .

(٣) القدس ص ٢٢٥ .

(٤) ابن حوقل ص ٣٦٤ .

(٥) إن تهرم الدوج في مدينة البندرية عام ٩٦٠ م نقل العبيد على المراكب كان غاصاً =

الرقيق في أوروبا من اليهود ، وكانت الرقيق يُجلب كله تقريباً من الشرق الأوروبي ، كما هو الحال اليوم في تجارة النساء^(١) . ومن الجلي أن استقرار جاليات يهودية في مدن مقاطعة سكسونيا الشرقية مثل مدينة مجديبورج وسمزيبورج كان راجعاً إلى تجارة الرقيق^(٢) . وكان اليهود في أثناء نقلهم للرقيق يدفعون ضرائب ثقيلة ، وذلك في ألمانيا على الأقل ، فكان قانون الجمارك في مدينة كولنتر مثلاً يقضى بأن يدفع من كل رأس من الرقيق أربعة دنائير^(٣) . وكان أسقف مدينة خور Chur يفرض على الرأس دينارين يُدفان في جمر مدينة فالنشتات^(٤) Wallenstadt .

والطريق الثالث لتجارة الرقيق يسر من بلاد الرقيق في الغرب — وكانت هذه البلاد بسبب حروبها مع الألمان كثيرة الإنتاج لهذه البضاعة الإنسانية — ويتجه نحو الشرق رأساً ماراً بمدينة براغ وبولوتيا وروسيا . وهذا هو الطريق الذي اتبعه الربى بتاحيا في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) ؛

== بالصياد المسيحيين وحدم (انظر Schulte, Handelsgeschichte der rom. Völker, S. 93) وكانت الماعدة التي عدت بين البندقية وبين الإمبراطور أوتو الأكبر عام ٩٦٧ م تحظر على المسيحيين الدخول في أرض الإمبراطور وحدم أن يبيعوا أو يشتروا الصيد (نفس المصدر ص ٥) . وكانت تجارة الرقيق في مدينة جنوة ، بعد ذلك بزمان طويل ، تجارة طاهرة (نفس المصدر ص ١٠٤) .

(١) ذكر الأسقف أجوبارد ، أسقف مدينة ليون (Agobard of Lyon) في كتابه Insolentia Judaeorum أمثلة على أن بعض اليهود كانوا يسهلون أبناء النصارى الغربيين أو يعملون عليهم شراء من النصارى أنفسهم ويبيعونهم للسلب في أسبانيا (Opera, ed Baluzi, Bd. I, S. 65 f.) وقد التفت هذا من كتاب Graf Baudissin, . Eulogius und Alvar, Leipzig, 1872, S. 77.

(٢) Caro, Wirtschaftsgeschichte der Juden, I, S. 191.

(٣) نفس المصدر ص ١٩٢ .

(٤) Schulte, Handelsgesch. der rom. Völker, S. 93

وكانت مدينة براغ هي أول هذا الطريق لأنها كانت مركزاً لتجارة الرقيق في القرن العاشر الميلادي . وقد اضطر القديس أدالبرت Adalbert بمدينة براغ سنة ٩٨٩ م لاعتزال منصبه الأسقفى ، لأنه لم يستطع أن يعتق جميع المسيحيين الذين اشترى تاجر رقيق يهودي^(١) .

وكان ثم في المدن سوق للرقيق يُوكل الإشراف عليه لعامل خاص به . وقد انتهى إلينا وصف لسوق الرقيق التي بنيت في مدينة سمرقند في القرن الثالث الهجري ؛ فهي سوق في مربعة ، فيها طرق متشعبة ، وفيها الحجر والعرف والخوانيت للرقيق ؛ وكان بيع الرقيق الجيد في السوق العام بمثابة عقوبة تحط من قدره^(٢) ؛ والأولى أن يُباع في منزل خاص أو بواسطة تاجر كبير ؛ وكان تاجر الرقيق موضع تشنيع ، مثله مثل تاجر الخيل في أيامنا ؛ وكان محمد بن الأشمث صاحب شرطة مصر يصعد المنبر ويشتُم أحد القواد فيقول : « النخاس السداب^(٣) » . يقول ابن عبدون في رسالة له في الرقيق : « فكُم من سمراء كرامة سمع بصفراء مذهبة ، وعمسوح المبخز بثقل الروادف ، وبطين بمجدول الحشا ، وأبخمر القم بطيب الفكهة ؛ وكم من مرة جعلوا العين الزرقاء كحلأ ، وحمرؤا الخلدود المصفرة ، وسمنوا الوجوه المقعقة ، وكبروا الفقاح المزيلة ، وأعدموا الخلدود شعر الحما ، وأكسبوا الشمور الشقر حالك السواد ، وجمدوا الشمور السبطة ، وبيضوا الوجوه المسررة ، ودملجوا السيقان المرققة ، ورطلوا الشمور المسرطة ، وأذهبوا آثار الوشم والجدرى والنمش والحسكة » . ولذلك يجب على

(١) . Caro, I, 191, f.

(٢) جنراية البطونى ص ٢٥٩ .

(٣) الولاة للسكندى ص ١٠٩ - ١١٠ .

الإنسان أن يكون على حذر من شراء الرقيق في المواسم ، ففي مثل هذه الأوقات
تم للنخاسين الخيل ، حتى يبيعوا المريض بالصحيح والفلان بالجارية ؛ سمعنا
بعض النخاسين يقول : ربع درهم حيناً يزيد ثمن الجارية مائة درهم فضة .

ومن عادة النخاسين أن يطولوا الشمور بأن يصلوا في طرفها من جنسها ،
وأن يزيلوا روائح الأنف بالسوط بدهن البنفسج والبنوفور ونحوهما ، وأن يملوا
الأسنان بالسواك بالأشنان والسكر وحبيق الصبغ أو القمح أو الملح المدقوق ؛
وكانوا يزيلون الثمت في أصول الأظفار بغسلها بالخل والصل والمرك أو دهن
الورد والوز المر . ومن وصايا النخاسين الجوارى أن يتبرجن للشرى تارة
ويعتجن منه أخرى ، فإن هذا مأك لقلوب ، وأن يدارين المشايخ والتفري
الطباع ويستلمنهم ، ويتجنبن الشهاب ، ويمتنعن عليهم لينسكن من قلوبهم .
وكان الجولرى يخضبن حواجبهن بالرامك ، وأطرافهن إن كانت الجارية
بيضاء بالخطاب الأحمر ، وإن كانت صفراء بالأسود ، ويجرون الصناعة بحرى
الطبيعة في كشف الضد بال ضد .

هذه النصوص من رسالة لابن بطلان الطيب النصرانى المشهور الذى عاش
في النصف الأول من القرن الخامس الهجرى^(١) . ونجد في هذه الرسالة إلى جانب
الداعية النظرية كثيراً من التجارب القديمة النافعة في شراء الرقيق : « فالحمدات
لن حسن القوام ، وسمرة الألوان ، وحظ وافر من الجمال ، مع صفرة وصفاء
بشرة وطيب نكهة ولين نعمة ؛ اسكن الشيخوخة تسرع إليهن ... وهن يصلحن
للولد ، ورجالهم لحفظ النفوس والأسوال ، وعمل الصنائع الدقيقة . غير أن النزلات

(١) رسالة خدمة الفنون نافعة في شرى الرقيق وتخليب السيد تأليف الشيخ أبى الحز
المنار بن الحسن بن عبدون البغد دى الطبيب ضمن مخطوط رقم ١٩٧٩ بمكتبة برلين .

نسرع إليهم ... والقندهاريات في سنى الهنديات ، ولهن فضلة على كل النساء .
فإن النِّيبَ منهن تعود كالإبكر . والسنديات ينفردن بدقة التصوير وطول
الشعور ، والدييات سمر الألوان معتدلات القوام ، قد اجتمع فيهن خلوة
القول ، ونسمة الجسم ، وملاحة ذلك وحسن شكل وبشر ؛ لا غير
فيهن على الرجال ؛ فتوعات بالقليل ، لا يفضن ولا يصغفن ، ويصلحن
للقيان ... والمكيات خنثات مؤنثات أئينات الأرساغ الوانهن البياض المشرب
بسمرة ؛ قدودهن حسنة ، وأجسامهن ملتفة ، وشودهن نفية باردة وشهورهن
جسنة ، وغبونهن مراض فائرة ؛ والطائفيات سمر مذهبات مجدولات ، أخف
خلق الله أرواحا ، وأحسنهم فكاهة ومزاحا ؛ لسن بأسيات أولاد ، يكسأن في
الحبل ، ويهلكن عند الولادة ... والبربريات مطبوعات على الطاعة نشيطات
للخدمة ويصلحن للتوليد ؛ لأنهن أحذب شيء على ولد ؛ ويقول أبو عثمان وهو
من سمارة هذا الشأن : إذا اجتمع للبربرية مع جودة الجنس أن تجلب ، وهي
بنت نع حجج ، ثم كانت بالمدينة ثلاث حجج ، وبمكة ثلاث حجج ؛ ثم
جاءت إلى العراق ابنة خمس عشرة ، فتأديت بالعراق ، جمعت إلى جودة الجنس
شكل الدنيات وخنث المكيات وآداب العراقيات ، واستحقت أن تُخفي
في الجفون وتوضع على الميون . والزنجيات مساويهن كثيرة ، وكلما زاد سوادهن
قبحت صورتهم وتحددت أستانهن ، وتل الانفعال بهن ، وخيفت المرأة منهن ؛
والسالب عليهن سوء الأخلاق وكثرة الحرب ، وإيس في خنقهن قم ، والرقص
والإيقاع فطرة لهن ^(١) وطبع فيهن ، ولصجومة ألقاظهن عُدل بهن إلى الزمر

(١) « الزنجي دائم الرقص ، وكما أن الألمان يشعرون برغبة حديدة لغناء لا يستطيع
التفاد عليها من قطع شوطاً من عمله اليومي ، فكذلك الزنجي يرقص من استطاع » -
(K. Weule, Negerleben in Ostafrika, S. 84)

والرأس ؛ ويقال : لا وقع الزنجي من السماء إلى الأرض ما وقع إلا بالإيذاء . وم
أنتى الناس ثموراً لكثرة الريق ، وكثرة الريق لفساد المضموم ؛ وفيهين جلد على
الكبد ؛ نالزنجى إذا شبع فصبَّ المذاب عليه صبا فإنه لا يتألم ، وليس فيه من متعة
لصنانهن وخشونة أجسامهن ؛ أما الحبشيات فالتغالب عليهن نعمة الأجسام ولينها
وضمها ، يتعاهدن السل والدق ؛ لا يصلحن للفناء ولا للرقص ؛ دقاق لا يوافقهن
غير البلاد التى نشأن فيها ؛ وفيهن غيرية وسلاسة انقياد ، يصلحن للاتمان على
النفوس ؛ يخلصن قوة النفوس وضغف الأجسام ، كما يخلص النوبة قوة الأجسام
وضغف النفوس ؛ تصار الأعمار لسوء المضم . والبجاويات مذهبات الألوان ،
حسنات الوجوه ، ملس الأجسام ، ناعمات البشرة ، جولرى متعة ؛ إن جلبت
الواحدة صفية وسلت من أن يُتَكلَّ بها — لأنهن يُقَوَّرْنَ ويُتَمَسَّحُ بالموسى أعلى
فروجهن حتى يبدو العظم فصرن شهرة من الشهر . والشجاعة والسرقة فى رجال
البجة (بلادهم بين الحبشة والنوبة) طبع وغريزة ؛ ولهذا لا يؤمنون على مال ،
ولا يصلحون أن يكونوا خزائنا . والنوبيات من جملة أجناس السودان ، ذوات
ترف ونظف ، وأبدانهن يابسة مع نين بشره ، وهواء مصر يوافقن ؛ لأن ماء النيل
شرهن فى بلادهن ، وإذا انتقلن عن غير مصر تسلطت عليهن الحال الدموية
والأسراض الحادة . والتركيات قد جعن الحسن والبياض والنعمة ؛ وهيونهن مع
صغرها ذات حلاوة ^(١) ؛ وقدودهن ما بين الربع والقصير ، والطول فيهن قليل ،
وهن كنفوز الأولاد ومعادن النسل ، قل ما يفتق فى أولادهن وحش ولا ردى

(١) قال أحد شعراء القرن الرابع فى غلام ترك :

قد أكره الناس فى الصفات وقد قالوا جيداً فى الأمن النجل

وهين ، ولاى مثل موعده ضيقة من مراود الكحل

(بليدة البحر ج ١ ص ٨٧) .

التركيب . والروميات بيض شُقر ، سباط الشعور ، زرق الميون عبيد طاعة وموانقة
 وخدمة ومناحة ووفاء وأمانة ، يصلحون للخزن لضبطهم وقلة سماحتهم ، ولا يخلو
 أن يكنّ يألّفن صنائع دقيقة . أما الأرمنيات فالملاحه للأرمن لولا ما خصوا به
 من وحشة الأرجل مع حمة بنية وشدة أنثر ، والمنة فيهن قليلة أو مفقودة ،
 والسرقة فيهن ناشية وقل ما يوجد فيهن بخل ، وفيهن غنظ طبع وانظ ، وايت
 النظافة في لفتن ، وهن عبيد كد وخدمة ، متى تركت العبد سامة بنير شغل
 لم يدعُ خاطره إلى خير ، لا يصلحون إلا على العصا والخفافة ؛ والواحد منهم إذا
 رأيته كسلان قلبس ذلك عن مجز قوة ، بل دونك والعصا ؛ وكن مع ضربه
 واثقياده لما تريده على حذر ؛ فإن هذا الجنس غير مأمون عند الرضا فضلا عن
 الغضب : ونسأزم لا يصلحون لثمة ، وجملة الأمر أن الأرمن أنثر البيضان
 كما أن الزنج أنثر السودان . وما أشبه بعضهم ببعض في قوة الأجساد وكثرة
 القصاد وغلظ الأكباد^(١) .

وقد جرت العادة منذ العصر الأول للإسلام بالأى يسمى العبيد عبيداً ، بل
 يسمى العبد فتى والأمة فتاة ؛ وقد نسب هذا — كما نسب كثير غيره — إلى أمر
 أنبى عليه السلام . وكان من التقوى وشرف النفس ألا يضرب الرجل عبده ؛
 ويروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « شر الناس من أكل وحده ومنع
 رفته وضرب عبده » . وهذا الشعور نبيل عبر عنه الليث السرقندى (المتوفى
 سنة ٣٨٧ هـ — ٩٩٧ م) بروايته هذا الحديث^(٢) . وفي القرن الرابع الهجرى اتخذ

(١) الرسالة المقدمة من ١٣٦ ب — ١٣٧ ، ١١٢٥ ، ١١٢٦ ب .

(٢) بستان السائقين على ما نشره تميمه الطالين في إحدى طبعة طباطبائي من ٢١٢ .

البعض من قوله تعالى : « إنما المؤمنون إخوة » نقداً يوجهونه لمن يضرب عبده ،
وكذلك قال الشاعر :

إن كنت تطالب فضلاً إذا ذكرت ومجداً
فكن أبداً خلاً وكن خلاً عبداً^(١)

ولذلك جاء في وصف رجل من أشراف اليمن وذو كبر جميل خصاله (حوالى
عام ٥٥٠ - ١١٠٦ م) أنه لم يكن يضرب مملوكاً أبداً^(٢) . وقد حدث في أول
عهد الأمويين أن امرأة من حمير كانت بمصر جذعت أنف أمة لها ، فقضى
عبد الرحمن بن حنبل قاضى مصر بعتقها ، وقضى بولائها للمسلمين يعقلون عنها
وبرؤسها^(٣) .

وكان قانون الكنيسة المسيحية في الشرق يهدد بقبولة الحرمان من يكره
جاريته على البغاء ؛ وذلك بأن يدفعها إليه مباشرة ، أو بأن يمتنع عن إعالتها^(٤) .
وكانت دور البغاء في ملاد الإسلام قوامها الجوارى المملوكات ؛ وتدل على هذا
حكايات كثيرة ؛ ولكن كتب الفقه لم تتعرض لهذه المسألة ؛ لأن الفقهاء يعتبرون
تربوا حراماً بجملة ، أما رجال الكنيسة فقد احتفظوا في هذه المسألة بشيء من
الصراحة القديمة . على أنه قد جاء في القرآن الحزم على تزويج الأيامى والإماء ؛
قال تعالى : « وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم^(٥) » .

(١) كتب عذبن البجين رجل لصديق له حضره بضرب عبداً له فنته فلم يمتنع ؛
وهو يذكره بحق الصديق في عبودية الطاعة وأخوة العبد في حق الإيمان . رسالة في الصداقة
لنوحيدى ص ١٦٨ - ١٦٩ .

(٢) المكتبة المصرية لمارة البنى طلبة درنبرغ ١٨٩٧ ص ٩ .

(٣) اللغات الكندي ص ٣١٧ ، ٣١٨ .

(٤) Sachau. MSOS. X, 2, S. 93 .

(٥) سورة النور آية ٢٢ .

وكان في الإسلام مبدأ في مصلحة الرقيق ؛ وذلك أن الواحد منهم كان يستطيع أن يشتري حريته بدفع قدر من المال ؛ وقد كان قاعداً أو تجارية الحق في أن يشتغل مستقلاً بالعمل الذي يريده ؛ فيحدثنا السعدي مثلاً عن عبد خياط كان عليه لمولاه ضريبة قدرها درهمان يدفعها له كل يوم ، ويتصرف بعدها في حوائجه بما يبق^(١) . وكذلك كان من البر والهبات المحذورة أن يوصى الإنسان قبل مماته بعتق بعض العبيد الذين يملكهم . وفي القرن الثالث الهجري أوصى الخليفة المنتصر عند موته بعتق ثمانية آلاف من مماليكه^(٢) . وقد أخذ هذا الخليفة أحد حصون أرمينية عنوة بعد معركة دموية فأمر ألا يُفترق بين أعضاء العائلات^(٣) التي وقعت في الأسر .

وقد تمتع بعض الجوارى وظهور بمظهر البصة ؛ فبحكى عن جارية لأحد كبار المال الأتقياء بمصر أنها كانت تجلس في الشباك ، وحوها الجوارى فأعات ما ذبأت^(٤) . وبحكى أن ابن سمعون الواقظ ذكر الحلواء وهو على كرسية في ليلة نصف من رمضان ، وكان بين الحاضرين جارية لتاجر مشهور بكثرة المال ؛ فلما أمسى أتاه غلام ومعه خمسمائة خشكفانكة في داخل كل منها دينار ، فحمل الدنانير بنفسه إلى التاجر ؛ فقال له التاجر : إن الدنانير وضعت محصرته وبرضاه^(٥) .

وكان بعض الفلماني يملكون قلوب ساداتهم ، وذلك لميل الشرق إلى من

(١) . روج الذهب ج ٦ ص ٣١٤ .

(٢) . Michael Syrus, S. 543 .

(٣) . Michael Syrus, S. 547 .

(٤) . المغرب لابن سعيد ص ١٥ .

(٥) . النظام ص ١١٢ ب .

يجمع بين الجمال والخطبة ؛ وهذا قصيدة للشاعر سعيد بن هاشم الخالدي في وصف
غلام له (١) :

ما هو عبيد لكنه ولد خولنيه الميمن الصد
شد أزرى بحسن خدمته فهو يدي والذراع والمضد
صغير سن كبير منفعة تمازج الضعف فيه والجلد
في سن بدر الهجي وطلعتيه فثله يصطفي ويعتد
مشتق الطرف كله كحل منزل الجيد حليته الجيد
ورود خديه والشقائق والنفاس والجلنار منتصب
رياضه حين زواهر أبداً فهو ماء النسيم مطرد
وعصن يابن إذا بدا وإذا شدا فقري بانه غرد
مبارك الوجه قد حظيت به بالي رخي وعيشتي رغد
أنسى ولموى وكل ما ربي مجتمع لي فيه ومنفر
سامري إن دجى الظلام لي منه حديث كأنه الشهد
ظريف مزج مريح نادرة جوهر حسن شراره يقد
فلان ما في داري وحافظه فليس شيء لي بفتقد
ومنفق مشفق إذا أنا أسرفت وبذرت فهو مقتصد
ويعرف الشر مثل معرفتي وهو على أن يزيد مجتمع
وصيرني أقربض وزان دنانير المعاني الرقاق منتقد

(١) معاهد التنصيص لعبد الرحيم العباسي مخطوط برلين رقم ٧٢٢٤ ص ١٥ ب .

يصون كتي فكلها حسن يطوى ثيابي فكلها جدد
 وأبهر الناس بالطيخ والكاءك القلايا العنبر الردد
 وهو يدبر اللدام إن خلوت به هروس يم تقاسمها الزبد
 فنفع كأس يد أناملها تنحل من لينها وتنمقد
 وواجد بي من المحبة والراقة أضفاف ما به أجد
 إذا ابتسمت فهو مبتهيج وإن تنهرت فهو مرتعد
 ذا بعض أوصافه وقد بقيت له صفات لم يحورها أحد
 وقد صار هذا العبد لتومر جميع الخصال الحسنة فيه مثالا مذكورا بين
 الأدباء^(١). وقد ذكر الشاعر كشاجم المتوفى عام ٨٣٠ - ٩٤١ م غلامه
 بشراً بما يؤثر في القاري^(٢).

أي حراك غال منك الكون ونار كئس أطفائها للنوب
 يا بشر إن نود فكل امرئ بمثل حاصرت إليه رهين
 من لدواة كنت تعنى بها عناية تعجز عنها القيون
 أم من لكتب كنت في طيها أمرع مما تمنى في الجفون
 يطوى الطوامير بلا كلفة والاصق في الإصاق لا يستبين
 طامى قدور طيت كفه مذاقها فالمت فيهم سامين
 يا ناصي إذ ليس لي ناصح ويا آميني إذ يخون الأمين

(١) محمد المنسوب: ١٠٤، ZDMG, VI S. 54، وهو يرى أنه كان يدعى رشاها.

(٢) جون كشاجم: ١٤١ وما بعدها.

وقد أرسل أبو العلاء رسالة اصدق له فأهدى السلام فيه انلامه مقبل وقال :
« فهو وإن اسودت رده أن ترُ عفتنا من أبيض لا تصدق مودته ^(١) » .

وكان أرق العبيد مكانة هم حملة السلاح منهم ؛ وذلك لأن منهم من كانوا
قواداً كباراً مثل مؤنس وجوهر ؛ بل منهم من كان حاكماً مثل كافور بمصر
وسبكتكين في بلاد الأفغان . ومنذ عهد العباسيين الأولين نجد عبداً تركياً يتولى
إمارة مصر ، وهو يحيى بن داود الخرسى الذى ولى الإمارة من سنة ١٦٢ - ١٦٤ هـ
وكان أبو جعفر المنصور إذا ذكره قال : « هو رجل يخافنى ولا يخاف الله ^(٢) » ؛
هذا إذا صرفنا النظر عن بعض الفلمن الذين كان لهم سلطان عظيم على ساداتهم ؛
لأن هؤلاء كانوا يقتنونهم للاستتار بهم .

وكانت أفكار ذلك العهد شبيهة بما كان في فرنسا حيث نجد الأرقاء
المعتقين قد بلغوا أكبر مكان من الرتبة ، وأطاعهم الأحرار ؛ وكان الكثيرون
من تولوا القيادة في الجيوش وحكّم الولايات وحراسة السلك عبيداً من قبل ^(٣) ،
ولسكن لم ينجح المعتقون في أن يتفوقوا على الأحرار في الشرق مدة طويلة
إلا نادراً ؛ وذلك بخلاف ما نجده في أوروبا بالنسبة لمن كانوا في مركز الموالى ؛
ويرجع ذلك إلى أن بقاء نظام الرق في الشرق حال دون زوال التمايز بين
الأحرار والعبيد .

ولسكن رأى العام كان مجحفاً بحقوق الأرقاء في الجملة ؛ ومن الأمثال السائرة
أن العبد إذا جاع نام وإذا شبع زنى ، ويقول المتنبي ^(٤) :

(١) رسائل أبي العلاء طبعة مرجليوث ص ٤١ .

(٢) الكندى ص ١٢٣ .

(٣) Chr. Meyer, Kulturgeschichtliche Studien, S. 91.°

(٤) الديوان طبعة مصر ١٣٤٢ هـ - ١٩٢٣ م ص ٣٧٩

فلا ترجُ الخير عند اسرىِ سرَّت يدُ النخاس في رأسه
وكذلك يقول هوميروس : « انظر ، إن زيوس ، مدبّر هذا العالم ، يطلب
الرجل الذى طامت عليه شمسُ العبودية نصفَ رجواته ^(١) » .

وعلى الرغم من كل الظروف الملائمة والضمانات القانونية والسكينة الحسنة التى
يتمتع بها رقيق البيوت فى الشرق اليوم ، فلا ينبغي أن نصور مركز الرقيق عند
المسلمين فى العصور الوسطى تصويراً يزيد بهاء ؛ وكانت سائر ولايات الإسلام
فى القرن الرابع خاصةً بالمبيد الأتاق ؛ وكان من أول ما يؤمر به ولّاء النواحي
فى كتب توليتهم أن يقبضوا على العبيد الآقين ويحبسوم ويسلوموا لهم إن
استطاعوا ^(٢) . وكان نازوك صاحب الشرطة ببغداد غلاماً ، فطرده ، فلم يجد جهة
يلجأ إليها ، فذهب لرجل صالح يكتب كُتُبَ العطف ليكتب له ما يستعيد به
عطف سيده . وكان نازوك قد أرسل فى طلب الغلام ، واستخبره فقصّ الغلام
عليه الأمر ، فلم يصدقه ، حتى استدعى الرجل الصالح وسأله ، فكان كلامه
مطابقاً لكلام الغلام ، « قال : فلما قلت له (لنازوك) إن الغلام قال :
أنا عبد مملوك ، وما أعددت لنفسى من أقصده لهذا الحال ، ولا أعرف
جهة الجأ إليها : وقد طردنى مولاي ، بكيت أنا لما تداخلنى من رحمتى
لافقى ومحبتى للدينار الذى أعطانيه ، قال : فدمعت عين نازوك ، ثم تجلّد واستوفى
الحديث ^(٣) » .

(١) Odys., XVII, 322.

(٢) رسائل المائى من ١٦٠ والصفحات التالية مثلاً .

(٣) كتاب الفرج بعد الشدة ج ١ ص ٥٣ — ٥٤ .

وكان معظم المبيد الأبقار ممن يشتغلون بالزراعة وكذلك كان جيش الثورة
الوحيدة الخطرة التي قام بها المبيد في القرن الثالث الهجري مؤلفاً من الزوج
الذين يكسحون السباح ، حتى يصلوا إلى التربة ويعمروها ؛ وكانت « كسوح
الزوج معروفة بالبصرة كالجلال ، وكان في أنهار البصرة منهم عشرات ألوف
يعذبون بهذه الخدمة^(١) » .

(١) كتاب البيون ص ١٧ .

تعليقات^(١)

١ - أخذ الرقيق

« إن أكبر الفوارق ، وهو الفرق بين الحر والعبد ، يظهر إذا أبقى المحاربُ الرحشى على حياة عدوه بعد أن يهزمه ، ثم يأخذه إلى بلاده ليقوم بأشقى الأعمال وبحرث الأرض » ولرق سبيان جوهر يان : الفقر والحرب ، والحرب أقرها ؛ وكذلك كان الرق عند المسلمين نتيجة للحروب في القاب . جاء في القرآن الكريم .
« فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ ، حَتَّى إِذَا أَتَخْتَرَقْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَانَ ، فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً ، حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا » . (سورة محمد آية ٤) .

والتصبير المألوف في القرآن لدلالة على النساء المملوكات هو ما مملكت أيمانكم ، وسرى أنه ليس في الإسلام شيء يتعلق بشراء العبيد ،
والعبد عند فقهاء الإسلام : ١ - شخص أخذ أسيراً في الحرب ، أو حُلَّ عنوة من بلاد الأعداء ، بشرط أن يكون عند أخذه كافراً . ٢ - الولد الذي يولد من أمة مملوكة ويكون أبوه عبداً أو غير مالك الأمة ، أو يكون ماله كالمال لها ولكنه لا يعترف بأنه أب للولد . ٣ - الشخص الذي يؤخذ شراء .

والحرب والرق متصلان اتصالاً وثيقاً في العهد القديم ، فنجده في التوراة (عدد إصحاح ٣١ آية ٢) أن الرب يكلم موسى قائلاً : انقم نعمة ابني إسرائيل

(١) هذا تلخيص لتطبيق العلامة الهدى المرحوم خدامش على النعمة الإلهامية

من المذمومين ؛ وفي الآية السابعة وما بعدها : فتجندوا على مزيان ، كما أمر الرب وقتلوا كل ذكر وسبي بنو إسرائيل نساء مديان وأطفالهم .

أما فيما يختص بالأجانب ، فقد أبيع لبني إسرائيل أن يستعبدوا . (لاويين
إصحاح ٢٥ آية ٤٤ وما بعدها) : « وأما عبيدك وإماءك الذين يكونون لك من
الشعوب الذين حولكم ، منهم تقتنون عبيداً وإماء ؛ وأيضاً من أبناء المستوطنين
النازلين عندكم ، منهم تقتنون ، ومن عشائركم الذين عندكم الذين يلدونهم
في أرضكم فيكونون ملكاً لكم ، وتستملكونهم لأبنائكم من بعدكم ميراث
ملك ، تستعبدونهم إلى الدهر ؛ وأما إخوانكم بنو إسرائيل فلا يتسلط إنسان على
أخيه بعنف » .

وكان أن أبناء الإماء المملوكة عند المسلمين يؤلقون طائفة من الرقيق مثلهم مثل
من يشتري بالمال ، فكذلك نجد في العهد القديم هذين الاصطلاحين : « الذي
يولد في البيت » ، و « الذي يشتري بالمال » ؛ وهذا يدل على أن العبيد عند
اليهود ، كما هو الحال عند المسلمين ، يتكاثرون بالنسل ؛ وينطبق هذا بالطبع على
جميع من يتجر بالرقيق ؛ ولما كان العبيد ملكاً لأصحابهم ، فأبناؤهم ملك
هم أيضاً .

ومن وجوه التماثل الأخرى بين الإسلام والعهد القديم ، جعل الرف
مقصوراً على الأجانب من الدين ، ففي التوراة (لاويين إصحاح ٢٥ آية ٣٩
وما بعدها) : « وإذا افتقر أخوك ، وبيع لك ، فلا تستعبده استعباد عبد ، كأجير
زبيل يكون عندك إلى سنة البويعيل يخدم عندك ، ثم يخرج من عندك هو وبنوه
معه ويود إلى عشيرته وإلى ملك آبائه ، لأنهم عبيدي الذي أخرجتهم من أرض
مصر ، لا يباعون ببيع العبيد ، لا تتسلط عليه بعنف بل اغش الحك » .

وكذلك الحال عند المسلمين ، فلا يجوز لهم أن يسترثوا المؤمنين ، لأن المسلم واليهودي يعتبر أخاه في الدين أخاه .

ولكن الأمر عند البابليين كان على خلاف ذلك ، فلم يكونوا يبالون أن يكون الرقيق منهم أومن غيهم ، فكان الرجل يبيع ابنه الحقيقي أو المُتَّبَقُّ إذا أجرم في حق أبيه . وكذلك كان الزوج في حل من أن يتخاص من زوجته الشاكة بأن يبيعهما . وكان العبد للأبور عندما يعامل معاملة العبد .

٢ — معاملة الرقيق

أوصى القرآن بالعدل والرحمة في معاملة الأراذل واليتامى ؛ وهو يوصى بمثل هذا في معاملة الرقيق ، وذلك لأن الحر والعبد كليهما عباد الله ، فما متساويان ؛ في القرآن :

« وَاللَّهُ فَتَنَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ، فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ، أَفَبِعِزَّةِ اللَّهِ يَجْهَدُونَ » (سورة النحل آية ٧١) وجاء أيضاً : « وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً » . (سورة النساء آية ٣٦) .

وقد قال النبي عليه السلام في الحديث : العبيد إخوانكم ، فأطعموهم مما تأكلون . وقال : إخوانكم خولكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان

أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفهم ما يطلبهم ، وإن كلفتموهم فأعينوهم^(١) .

وإذا كان النبي عليه السلام لم يبلغ الرق ، فإنه قد أمر بما يضمن للأرقاء حسن المعاملة ؛ وإذا كان المسلمون يخالفون عن أمره ، فالنبي يرى من ذلك ؛ ولو أن المسلمين أطاعوا ما أمرهم به نبيهم في معاملتهم لما ملكت أيمانهم ، لكان حال الرقيق عند المسلمين أحسن منه عند غيرهم .

على أننا لو نظرنا إلى معاملة الرقيق في جملتها بحسب الشرع الإسلامي لوجدناها عادة ؛ فقد كانت عقوبة الأمة الزانية أقل من عقوبة الحرة ، لأنها تعتبر أقل ذنباً بسبب ما ينقصها من حرية . وقد أوصى الشرع بالصيانة بالعبيد ، وعدم تكليفهم ما لا يطيقون .

وكان الرقيق تنتقل ملكيته مثل سائر الممتلكات ، فكان يستطيع المسلم أن يبيع ما ملكه بيمينه ، إلا إذا كانت جارية قد ولدت منه ، وكان يندر أن يفكر أبوه ولده ، حتى يجوز له بيعها .

٣ - تحرير العبيد

إن الشرع الإسلامي لم يكف بتشديد الوصية في حسن معاملة الرقيق ، بل مكن العبيد من استعادة حريتهم ، إذا كانوا بحسن سيرتهم أهلاً لذلك ؛ وقد حُبب الإسلام ، في عتق الرقيق ؛ جاء في القرآن : « والذين يبتغون الكتاب مما ملكتم أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً ، وآتوهم من مال الله الذي آتاكم » . (سورة النور آية ٣٣) .

(١) وذكر صاحب التعليل ما قاله النبي في حمة الرذاع بشأن العبيد .

وتختلف طريقة هذا التحرير في بلاد الإسلام ؛ فكان من الناس من يعتق ، كرمًا منه ، اعتقًا كاملاً ؛ ومنهم من كان يعطيه على أن يدفع له بمقداراً من المال فيما بعد ، ويكون هذا بمقد مكتوب ، أو بكلام شفاهي يشهد عليه رجلان ، أو بأن يعطى الرجلُ لمالوكه وثيقة شرائه من مالكة قبله ، وقد تُمنح للعبد حريته إذا أدى شروطاً متفقاً عليها أو بموت مالكة غالباً . ويجوز أن يوصى الرجل بثلاث ماله لمن ملكت يمينه ، ولا يزيد عن الثالث ، وإلا أخذ الورثة الزيادة ؛ وقد جعل القرآن عتق رقاب الرقيق كفارة لذنوب كثيرة ، وقرينة من أحسن القرب .

وإذا كان العهد القديم قد تعرض لتحرير العبيد اليهود الذين صاروا أرقاء بسبب الدين . فإن الإسلام قد تعرض لتحرير الرقيق جملة . انظر :

Robert : Social Laws of the Kur'an p. 53, 60.

Doughty : Arabia Deserta, I, 554.

Lane : Modern Egyptians, 168.

Snouck Hurgronje : Mekka II. 18 ff

الفصل الثاني عشر

العلماء

في القرن الثالث الهجري صار الأدباء الذين نشأوا حول الخلفاء وفي قصورهم وتعلموا الأدب على تقاليد الفروسية ، أدباء من طراز جديد ، يلقون بكل شيء ويشبهون في عصرنا الصحفيين غير المتخصصين الذين يتكلمون في جميع الأمور . ولهذا نجد العلماء يفرقون بين أنفسهم وبين الأدباء ، حتى قال ابن قتيبة : « من أراد أن يكون عالماً فليطلب فناً واحداً ؛ ومن أراد أن يكون أدبياً فليتسع في العلوم ^(١) » .

وقد خرجت من بين فنون الآداب القديمة مجموعة من العلوم الدنيوية ؛ ولم يكن من العلوم حتى ذلك الحين ماله منهج علمي وأسلوب علمي سوى الفلسفة وعلم الكلام ؛ ثم صار لكل من التاريخ والجغرافية والفقه منهجه الخاص . وترك العلماء ما كانوا قد ألفوا قبل من اتخاذ المعارف وسيلةً ذاتية ؛ كما أنهم أصبحوا لا يغالون في حشد المعارف على تنوعها ، بل أقبلوا على الدراسة العملية وعلى تنظيم المعارف ، وشعروا بما يجب عليهم من عناية ومحاسبة في تدوينها . وقد أوجزوا مقدمات كتبهم إيجازاً كبيراً ، ومن أمثلة ذلك ما كتبه صاحب الفهرست في خطبة كتابه عام ٣٢٧ هـ - ٩٨٧ م : « رب يسر رحمتك النفوس تشرب إلى النتائج دون المقدمات ، وترتاح إلى الفرض المقصود دون التطويل

(١) المحلة الكاملة المجلد ١٠٠٠ هـ - ١٢٢٨ م .

في المبارات ؛ فلذلك اقتصرنا على هذه الكلمات في صدر كتابنا هذا ، إذ كانت دالة على ما قصدناه في تأليفه إن شاء الله ؛ فنقول ، وبالله المستعين وإياه نسال الصلاة على جميع أنبيائه وعباده المحلدين في طاعته ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ... »

ومن التغيرات الأخرى أن علم الفقه تميز عن غيره من علوم الدين ، وأصبح العلماء فريقين : الفقهاء ، والعلماء على الحقيقة . وكانت غالبية طلبة العلم المتكسبين يقصدون الفقهاء ، لأن الفقهاء هم حملة علوم الشريعة والعبادات ، فيمكن لا بد لمن يريد تولي القضاء والخطابة في المآجد من التلذذ عليهم . يقول الجاحظ في نص مشهور : « وقد تجدد الرجل يطلب الآثار وتأويل القرآن ، ويجالس الفقهاء خمسين عاما ، وهو لا يمدق فقيها ، ولا يجعل قاصيا ؛ فاهوا إلا أن ينظر في كتب أبي حنيفة وأشباه أبي حنيفة ، ويحفظ كتب الشروط في مقدار خمسة سنين ، حتى تمر بهباه فتظن أنه من بعض العمال ؛ وبالحرى ألا يمر بعلومه من الأيام إلا اليسير ، حتى يصير حاكما على مصر من الأمصار أو بلد من البلدان (١) » .

وكان نهوض علم الكلام يبد أن يختص من قيود علم الفقه ، وكذلك ظهور الأفكار الجديدة في ذلك العصر مما رفع شأن العلماء إلى درجة عالية من الاحترام والتقدير ؛ يقول المطهر المقدسي حوالي عام ١٣٥٥ هـ - ١٩٦٦ م : « وبأبى العلم أن يضع كنفه أو يخفض جناحه أو يسفر عن وجهه إلا لتجرد له بكليته

(١) كتاب الحيوان ج ١ ص ٤٣ - ٤٤ ، وانظر مثلا Goldziher, Muhamm.

Studien II, 239. ويحك أن الجويني قال يوم القزالي : يا فقيه ، قرأى في وجهه التفسير ،

كأنه استقل هذه اللفظة على نفسه (طبقات البكي ٣ ص ٢٥٩)

ومتوفر عليه بأدبته ، ممان له بالقريحة الثاقبة والروية الصافية ، مقفنا به التأيد والتدبير ، قد شمر ذيله ، وأسهر ليله ، حليف النصب ضجيع الثعب ، يأخذ مأخذه متدرجا ويتلقاه منطرفا ؛ لا يظلم الدم بالنصف والافتحام ، ولا يخبط فيه خبط المشواء في الظلام ، ومع هجران عادة الشر ، والنزوع عن نزاع الطبع ، ومجانبة الإلف ونبذ الحماكة والابحاجة ، وإجالة الرأي عند غموض الحق ، والثأني بالطفيف للأثني ، وتوفية النظر حقه من التمييز بين المشتبه والمتضح ، والتفريق بين التهميه والتحقيق ، والوقوف عند مبلغ القول ، فعند ذلك إصابة المراد ومصادفة المنة (١) .

وكان صاحب العلوم الدينية يسمى كاتباً ، وكان يتميز عن العلماء في لباسه ، فكان العلماء يلبسون الطيلسان ، وكانوا في خراسان يظهرون متطلسين متحفكين ؛ وكانت فارس مركز الكتائب ، وكانوا في مدينة شيراز يرفعون على العلماء (٢) . ولسكن خراسان كانت جنة العلماء ، ولا يزال العلماء بها إلى اليوم يتمتعون بحياه واحترام لا نظير لها في سائر البلاد . ومن أمثلة ذلك أن أحد العلماء الزهاد دخل خراسان ، فخرج أهلها بنسائهم وأولادهم يمسحون أردانته ، يأخذون تراب نعليه ويستشفون به . وكان يُخرج من كل بلد أصحاب البضائع بضائهم ، وينثرونها ، ما بين حلوى وفاكهة وثياب وفراء وغير ذلك ، وهو بينهم ، حتى وصلوا إلى الأساكفة ، لجملوا ينثرون اللتاعات وهي تقع على رؤوس الناس ؛ وخرج إليه صوفيات البلد يمسحون وألقينها إليه ، وكان قصدهن أن

(١) كتاب البدء والتاريخ ج ١ ص ٤

(٢) اللطيف ص ١١٠

يلبسها فتحصل لمن البركة ، فكان يتبرك بهن ويقصد في حقن ما قصدن
في حقن^(١) .

وكان في كل جامع كبير مكتبة ، لأنه كان من عادة العلماء أن يوقعوا
كتبهم على الجوامع^(٢) . ويقال : إن خزانة الكتب بمصر كانت تحوى كتب
يزدجرد ، لأنه حماها إليها وتركها^(٣) . وكان الملوك يفاخرون بجمع الكتب حتى
كان لكل ملك من ملوك الإسلام الثلاثة الكبار بمصر وقرطبة وبغداد
في أواخر القرن الرابع ولع شديد بالكتب ؛ فكان الحكم صاحب الأندلس
يبيع رجالا إلى جميع بلاد المشرق ليشتروا له الكتب عند أول ظهورها ؛ وكان
فهرس مكتبته يتألف من أربعة وأربعين كراسة ، كل منها عشرون ورقة ، ولم يكن
بها سوى أسماء الكتب . أما في مصر فكانت للخليفة العزيز (المتوفى عام ٣٨٩ هـ
٩٩٦ م) خزانة كتب كبيرة ؛ وقد ذكر عنه كتاب العين للخليل بن أحمد ،
فأمر خزان دقاره ، فأخرجوا من خزائنه نهقا وثلاثين نسخة ، منها نسخة بخط
الخليل بن أحمد ؛ وحمل إليه رجل نسخة من تاريخ الطبري اشتراها بمائة دينار ؛
فأمر العزيز الخزان ، فأخرجوا ما ينيف عن عشرين نسخة من تاريخ الطبري
منها نسخة بخطه . وذكر عنه كتاب الجهرة لابن دريد ، فأخرج من الخزانة

(١) طبقات السبك ج ٣ ص ٩١ .

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٥٥ في ترجمة أبي نصر المنازي .

(٣) كتاب بغداد اطيغور ص ١٥٧ ؛ وقد ترجم بالفوت بذكرى مكاتب مصر مع تأخير
الزمن به . وكان قد مضى بمصر ثلاث سنين ، فتش بايامه فيها ذمرا جلا . وكان بها على هذه
اثنا عشرة خزانة ، بإحداها نحو من اثني عشر ألف مجلد ؛ يقول بالفوت : وكانت (الخزان)
سهلة التناول لا يفارق منزل منها مائتا مجلد وأكثر بغير رهن ، تكون ليستأ مائتي دينار ؛
فكنت أرتع فيها وأقتبس من نواتها ، وأناسي فيها كل بلد وأهاليها من الأهل والولد .
(معجم البلدان ج ١ ص ٥٠٩ — ٥١٠ من الطبعة الأوربية) .

مائة نسخة منها^(١) . وقد أراد المتأخرون أن يقدروا عدد ما كانت تشتمل عليه هذه الخزانة ، فيقول الفريزي إنها كانت تشتمل على ألف وستمائة ألف كتاب ويذكر عن ابن أبي واصل أنه كان بها ما يزيد على مائة وعشرين ألف مجلد . وقال ابن الطوير إن خزانة الكتب كانت تحتوي على عدة رفوف ، والرفوف مقطعة بمواجز ، وعلى كل حاجز باب مقفل بفصلات وقفل ، وفيها من أصناف الكتب ما يزيد على مائتي ألف كتاب^(٢) .

ولذلك ما كانت في بعض خزائن الكتب في الغرب على سبيل المقارنة : كان في مكتبة الكاتدرائية بمدينة كُنستاز في القرن التاسع الميلادي ثلاثمائة وستة وخمسون كتابا ، وفي مكتبة دير البندكتيين عام ١٠٣٢ م ما يزيد على المائة بقليل ، وفي خزانة كتب الكاتدرائية في مدينة بامبرج سنة ١١٣٠ م ستة وتسعون كتابا فقط^(٣) . وقد أطلع رئيسُ الفراشين القديسُ على خزانة الكتب التي كانت في دار عضد الدولة ؛ والقديس يصفها بأنها « حجرة على حدة ، عليها وكيل وخازن ومشرف من عدول البلد ؛ ولم يبق كتاب صُنف إلى وقت عضد الدولة من أنواع العلوم إلا وحصله فيها . وهي أزج طويلة في صفة كبيرة ، فيه خزائن من كل وجه . وقد ألصق إلى جميع حيطان الأزج والخزائن بيوتا طويلة قائمة في عرض ثلاثة أذرع من الخشب المزوق ، عليها أبواب تنحدر من فوق ،

(١) الفريزي (المخطوط ج ١ ص ٤٠٨) : فلاحا عن السبعين المؤرخ الثقة (توفي عام ٤٢٠ هـ - ١٠٢٩ م) الذي كان معاصراً لمؤرخ باقة... على أن الأرقام تختلف بين مخطوط وآخر ، فيقول ابن الطوير إن من محتويات خزانة العزيز بالله أنه كان بها ألف ومائتا نسخة من تاريخ الطبري ، على أن ابن الطوير متأخر (الفريزي ج ١ ص ٤٠٩) .

(٢) الفريزي (المخطوط ج ١ ص ٤٠٩) .

(٣) Th. Gottlieb Ueber Mittelalterliche Bibliotheken, S. 22, 23, 82. (٣)

والدقار منضدة على شرفوف ، لكل نوع بيوت وفهرستات فيها أسماء الكتب ، ولا يدخلها إلا كل وجيه ^(١) .

وكان أكبر عشاق الكتب المولعين بها ولعاً شديداً في القرن الثالث الهجري الجاحظ ، وكثيراً ما يذكر بذلك ؛ والفتح بن خاقان ؛ وإسماعيل بن إسحاق القاضي .

فأما الجاحظ فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كأنه ما كان ، حتى إنه كان يكثرى دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر ؛ وقد حكى بعض المؤرخين الآخرين أنه مات في حب الكتب ، فقد روى أنه مات بوقوع مجلدات عليه ؛ وكان من عادته أن يضعها كالحائط محيطة به ، وهو جالس عليها ، وكان عليها فسقط عليه فقتله ^(٢) .

وأما الفتح بن خاقان ، وكان من كبار رجال دار الخلافة ، فإنه كان يحضر لمجالسة التوكل ، فإذا أراد القيام لحاجة أخرج كتاباً من كتبه أو خقه وقرأه في مجلس التوكل إلى عوده إليه .

وأما إسماعيل بن إسحاق فإنه ما دخلت عليه إلا رأيت به ينظر في كتاب أو قلب كتاباً أو ينفضها ^(٣) .

وفي سنة ٢٧٥ هـ - ٨٨٨ م توفي الجعتماني المحدث ، وكان له كم واسع وكم ضيق ، فقيل له في ذلك ، فقال : الرايع للكتب والآخرة لا أحتاج إليه ^(٤) .

(١) القدسي ص ٤٤٩ .

(٢) تاريخ أبي الفدا تحت سنة ٢٥٥ هـ .

(٣) الفهرست لابن الدم ص ١١٦ - ١١٧ ؛ والإرشاد لبابوت ج ٦ ص ٥٧ .

تميز الفوائد المرفوعة طاعة طهران ١٢٧٢ هـ .

(٤) أبو الحسن خبيرة الجدل ج ٢ ص ٧٩ .

وقد عمل على بن يحيى النجوم ، وكان ممن جالس الخلفاء ، حوالى منتصف القرن الثالث الهجرى خزانة كتب عظيمة فى ضيعته ، وسماها خزانة الحكمة ؛ وكان يقصدها الناس من كل بلد ، فيقيمون فيها ويتعلمون منها صنوف العلم ؛ والكتب مبدولة لهم والصيانة مشتملة عليهم ، والنفقة فى ذلك من مال على بن يحيى . فقدم أبو مشر المنجم من خراسان يريد الحج ، وهو إذ ذاك لا يحسن كبير شئ من النجوم ؛ فوصفت له الخزانة ، فضى ورآها ، وهاله أمرها ؛ « فأقام بها واضرب عن الحج ، وتعلم فيها علم النجوم ، وأغرق فيه حتى ألحد ، وكان ذلك آخر عهد بالحج وبالدين والإسلام أيضاً ^(١) » .

وفى سنة ٢٨٢ هـ - ٨٨٥ م توفى أحد علماء أصقهان وكبار أصحاب الضياع فيها ، ويقال إنه أنفق فى شراء كتبه ثمانمائة ألف درهم ^(٢) .

وفى سنة ٣١٢ هـ - ٩٢٤ م توفى محمد بن نصر الحاجب وخائف كتباً بأكثر من ألف دينار ^(٣) .

وفى سنة ٣٥٧ هـ - ٩٦٧ م صودر حبشى بن ممر الدولة لأنه أراد عصيان أخيه أمير بغداد ، فسكان من جملة ما أخذ منه خمسة عشر ألف مجلد سوى الأجزاء وما ليس بمجلد ^(٤) .

وفى سنة ٣٥٥ هـ - ٩٦٥ م نهب قوم من الفزاة دار الوزير أبى الفضل ابن العميد بالرى ؛ فلما انتصرف إلى داره ليلال لم يجد فيها ما يجلس عليه ،

(١) الإرشاد ج ٥ ص ٤٦٧ .

(٢) تاريخ أسفهان لأبى نعيم عطاوط ليد ص ٥١ ب .

(٣) مرئى ص ١٢١ ، فلا من اصول ؛ وكان ليعزى هذا مكتبة كبيرة ؛ نظير المنظم لآبى الجوزى ص ٧٩ ب .

(٤) مسكويه ج ٦ ص ٣١٤ ، وإن لا يرجح ٨ ص ٤١١ .

ولا كوزاً واحداً يشرب فيه ؛ وكان ابن مسكويه المؤرخ في ذلك الحين خازناً
 لكتب ابن العميد ؛ وهو يقص علينا القصة ، فيقول : « فأنفذ إليه أبو حمزة
 الطوسي فرساً وآلة ، واشتغل قلب الوزير ابن العميد بدقائه ، ولم يكن شيء أغنى
 عليه منها ، وكانت كثيرة ، فيها كل علم وكل نوع من أنواع الحكم والآداب ،
 يعمل على مائة وقر ، فلما رأى سألني عنها فقلت : هي بحالها لم تمسها يد ،
 فسُرّي عنه ، وقال : أشهد أنك ميمون النقيبة ؛ أما سائر الخزانة فيوجد منها
 عوض ، وهذه الخزانة هي التي لا عوض منها ؛ ورأيت قد أسفر وجهه ، وقال :
 باكرز بها غداً إلى الموضع الفلاني ففعلت ، وسلمت بأجمعها من بين جميع ماله ^(١) .

وقد استعدى السلطان نوح بن منصور الساماني صاحب بن عبّاد (التوفي
 ٥٣٨٤ - ٩٩٤ م) ليوليه وزارته ، فكان مما اعتد به أنه لا يستطيع حمل
 أمواله ، وأن عنده من كتب العلم خاصة ما يحمل على أربعائة جمل أو أكثر ،
 وكان يهرس كتبه يقع في عشرة مجلدات ، ولما ورد السلطان محمود الرمي استخرج
 من بيت كتب صاحب كل ما كان في علم الكلام وأسر بخرقه ^(٢) ، وكذلك
 لم يجد البيروني من قبل ولا الفردوسي من محمود هذا مشجعاً ولا حامياً .

وكان القاضي أبوالمطرف (التوفي عام ٤٠٢ هـ - ١٠١١ م) قاضي الجماعة
 بقرطبة ؛ وقد جمع من الكتب في أنواع العلم ما لم يجمعه أحد من أهل عصره
 بالأندلس ، وكان له ستة وراثة ينسخون له دائماً ؛ وكان متى علم بكتاب حسن
 عند أحد من الناس طلبة ليشتريه منه وبائع في ثمنه ؛ وكان لا يعير كتاباً من
 أصوله البتة ، وإذا سأله أحد ذلك وألف عليه أعطاه للناسخ فنسخه وقابله

(١) مسكويه ج ٦ ص ٢٨٦ وما بعدها .

(٢) الإرشاد لبارث ج ٢ ص ٣١٥ .

ودفعه إلى المستير . ويحكى أن أهل قرطبة اجتمعوا ليبيع كتيبه عاماً كاملاً في مسجده ، واجتمع من ثمنها أربعون ألف دينار^(١) .

ولما أراد البرقاني العالم البغدادي المتوفى عام ٤٢٥ هـ — ١٠٣٣ م أن ينتقل احتاج إلى سقين من الأعدال ، وإلى صندوقين ليحمل فيهما كتيبه عند انتقاله^(٢) . وقد دخل أبو يوسف القزويني المعزلى (المتوفى عام ٤٨٨ هـ — ١٠٩٥ م) بغداد ومعه عشرة جمال عليها كتب^(٣) .

وقد أظهر المانوية من قبل عناية كبيرة بزخرفة كتبهم ، ففي سنة ٣١١ هـ — ٩٢٣ م أحرقت على باب العامة ببغداد صورة ماني ، وأربعة أعدال من كتب الزنادقة ، فحط منها ذهب ونضة مما كان على هذه الكتب ، وكان له قدر^(٤) . وقد قلد أصحاب الحلاج القدي قتل عام ٣٠٩ هـ — ٩٢١ م المانوية في زخرفة الكتب ، فكانت كتبهم تُكتب على ورق صيني ، وبعضها يكتب بماء الذهب ويبطن بالديباج والحرير ، ويجلد بالأدم الجيد^(٥) .

وكانت الكتب التي يرسلها ملك الروم مزخرفة ؛ وقد وصل لنا من وصف بعضها ما يجعلها تحفة فنية ؛ ففي سنة ٣٢٩ هـ — ٩٣٧ م وصل كتاب ملك الروم إلى الخليفة الراضي ببغداد ، وكانت الكتابة بالرومية بالذهب والترجمة بالمرية بالنضة^(٦) . وبعد ذلك ورد على الخليفة عبد الرحمن الناصر بقرطبة كتاب من

(١) كتاب الصلة في تاريخ صفاء الأندلس لابن بشكوال طبعة بحريط ١٨٨٢ ج ١

س ٣٠٤ — ٣٠٥ .

(٢) أنظر . Wüstenfeld, AGOW, 37, Nr. 335 .

(٣) طبقات ألسبكي ج ٤ س ٢٣٠ .

(٤) المنتظم س ١٢٣ .

(٥) عرب س ٩٠ نقلاً عن ابن مسكويه .

(٦) المنتظم س ١٥٩ .

صاحب القسطنطينية ، وكان في ورق مصبوغ لوناً سماوياً مكتوباً بالذهب بالخط الإغريقي ، وداخل الكتاب مدرجة مصبوغة أيضاً مكتوبة بفضة بخط إغريقي أيضاً ، وعلى الكتاب طابع ذهب وزنه أربعة مثاقيل على الوجه الواحد منه صورة المسيح [عليه السلام] وعلى الآخر صورة قسطنطين الملك وصورة ولده . وكان الكتاب بداخل درج فضة منقوش ، عليه غطاء ذهب فيه صورة قسطنطين الملك موصولة من الزجاج الملون البديع ، وكان الدرج داخل جمجمة مائسة بالذهب^(١) .

وكانت أشعار الخليفة المعتمد مكتوبة بالذهب^(٢) .

ولما تولى قاضي القضاة عبد الجبار منصبه ، كان الوزير ابن هبادة التوفي عام ٣٨٦ هـ - ٩٩٦ م هو الذي أنشأ له العهد وكتبه له بخطه واعتنى بزخرفته ، ويقال إنه كان سبعمائة سط كل سطر في ورقة سمرقندي ، وله غلاف آبنوس يطبق كالأسطوانة الفليضة ؛ وقد أهدى هذا العهد في القرن الخامس الهجري للوزير نظام الملك مع هدايا أخرى كان منها مصحف بخط أحد الكتاب الجوادين بالخط الواضح ، وقد كتب كاتبه اختلاف القراء بين سطوره بالحررة ، وتفسير عربيه بالخصرة ، وإعرابه بالزرقه ، وكتب بالذهب علامات على الآيات التي تصلح للانتزاعات في اليهود والنسكابات وآيات الوعد والوعيد ، وما يكتب في التمازي وللتهماني^(٣) . وكان أكبر ما يعنى به عشاق الكتب ، الكتب التي كتبها كبار الخطاطين والتي لأصحابها في النسخ أصل منسوب .

(١) فتح الطيب للمفرد طبعه دوزي ج ١ ص ٢٣٦ - ٢٣٧

(٢) وقد أطلع السكندر الصولي على هذه الأشعار ؛ انظر كتاب السجلات للشاذلي

ص ٣٩ ب .

(٣) طقات السبكي ج ٣ ص ٢٣٠ .

على أنه قد ظهرت إلى جانب دور الكتب مؤسسات علمية أخرى تزيد على دور الكتب بالتعليم ، أو على الأقل بإجراء الأرزاق على من يلزمها ؛ فيحكى عن أبي القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الموصلى الفقيه الشافعى المتوفى عام ٨٢٢٣ - ٩٣٥ م أنه أسس داراً للعلم في بلده ، وجعل فيها خزانة كتب من جميع العلوم وقفاً على كل طالب لعل ، لا يمنع أحدهم دخولها ، وإذا جاءها غريب يطلب الأدب ، وكان معسراً ، أعطاه ورقاً وورقاً ؛ وكان ابن حمدان يجالس فيها ويجتمع إليه الناس فيعلم عليهم من شعره وشعر غيره ، ثم يملى كتابات مستطابة وطرفاً من الفقه وما يتعلق به ^(١) .

وقد عمل القاضي ابن حبان (المتوفى عام ٨٣٥٤ - ٩٦٥ م) في مدينة نيسابور داراً للعلم وخزانة كتب ومساكن للغرباء الذين يطلبون العلم وأجرى لهم الأرزاق ؛ ولم تكن الكتب تُعار خارج الخزانة ^(٢) .

وقد أنشأ أبو على بن سوار الكاتب أحد رجال حاشية عضد الدولة (المتوفى عام ٨٣٧٢ - ٩٨٢ م) دار كتب في مدينة رام هرمز على شاطئ بحر فارس ، كما بنى داراً أخرى بالبصرة ، وجعل فيها إجراء على من قصدها ولزم القراءة والنسخ فيها ، وكان في الأولى منها أبدأ شيخ يدرس عليه علم الكلام على مذهب المعتزلة ^(٣) .

وفي سنة ٨٣٨٣ أسس أبو نصر سابور بن أردشيد وزير بنى بويه داراً للعلم في الكرخ غربى بغداد ، ونقل إليها كتباً كثيرة اشتراها وجعلها ؛ وكان بها

(١) الإرشاد لياقوت ج ٢ ص ٤٢٠ .

(٢) Wüstenfel d AOGW. 37. .

(٣) المقدسى ص ٤١٣ وكتاب الفهرست ص ١٣٩ .

مائة نسخة من القرآن بأيدي أحسن النسخ ، هذا إلى عشرة آلاف وأربعمائة مجلد أخرى مملؤها بخط أصحابها أو من الكتب التي كانت يملكها رجال مشهورون ؛ وردّ النظر في أمرها وضراعتها والاحتياط عليها إلى رجائين من العلويين يعاونهما أحد القضاة^(١) .

وكذلك اتخذ الشريف الرضى (المتوفى عام ٤٠٦ هـ - ١٠١٥ م) نقيب العلويين والشاعر المشهور داراً سماها دار العلم ، وفتحها لطلبة العلم ، وعيّن لهم جميع ما يحتاجون إليه^(٢) .

ويدل مجرد اسم هذه المؤسسات على الفرق بينها وبين دور الكتب القديمة ؛ فكانت دار الكتب قديماً تسمى خزانة الحكمة ، وهي خزانة كتب ليس غير ؛ أما المؤسسات الجديدة فتسمى دور العلم ، وخزانة الكتب جزء منها .

وقد أنشئت في مصر أيضاً مثل هذه الدور ؛ فقد اشترى الميزباف الخليفة الفاطمي في سنة ٣٧٨ هـ - ٩٨٨ م داراً إلى جانب الجامع الأزهر ، وجعلها مجلساً وثلاثين من العلماء . وكان هؤلاء بمقدور مجالسهم العلمية بالمسجد في كل يوم جمعة بعد الصلاة حتى صلاة العصر . فالجامعة الأزهرية التي هي أكبر معهد على إسلامي اليوم نشأت في القرن الرابع الهجري . وكان الوزير ابن كلّس يحب أهل العلم والأدب ويقرّبهم ؛ وكان يُجرى بأمر الميزباف ألف دينار في

(١) للتنظيم من ١١٣٥ ، ورسائل أبي الملاء من ٥٢ ، ومقدمة مرجليوث لهذه الرسائل من ٢٤ ؛ وقد أحرقت هذه الدار عام ٤٥٠ هـ - ١٠٥٨ م (ابن الأثير ج ١ من ٢٤٦ - ٢٤٧) . وعلى أن الكتب التي كانت من قبل في حوزة رجال مشهورين لها شأن هام لأنها تحفظ نوعاً من السند الصحيح لما تحويه والقرار به ؛ ولقد بينى الفارسي بكتابة اسمه على غطاء الكتاب . ومحدثنا ياقوت (الإرشاد ج ٦ من ٣٥٩) عن خازن هذه الدار ، المتوفى عام ٥١٠ هـ ، كيف كانت الكتب تهلك بأكل البراغيث لها وعينهم فيها .

(٢) ديوان الشريف طبعة بيروت من ٣ من طبعة سنة ١٣٠٧ هـ .

كل شهر على جماعة من أهل العلم والوراثين والمجتهدين^(١) . ثم جاء الخليفة الحاكم بأمر الله ففتح في سنة ٣٩٥ هـ الدار المنقبة بدار العلم^(٢) بالقاهرة ، وحمل الكتب إليها من خزائن القصور المصورة ، ودخل سائر الناس إليها يقرءون وينسخون ، وأقيم لها خزان وبوابون ، ورُتب فيها قوم يدرسون للناس العلوم ؛ ولكن الحاكم أبطل ذلك بعد قليل من الزمان^(٣) . وكان في هذه الدار ما يحتاج الناس إليه من الخبر والأقلام والحبار والورق ؛ وقد وصلت إلينا ميزانية هذه الدار ، فكان ينفق عليها في كل سنة ٢٥٧ ديناراً من العين المغربي . فـ ٦٠ ك :

لورق	٩٠ ديناراً
للخازن	» ٤٨
لقراشين	» ١٥
لناظرين في الورق والخبر والأقلام	» ١٢
لمرمة الكتب	» ١٢
نمن الماء	» ١٢
نمن الحصر العبداني	» ١٠ دنانير
نمن لبود لافرش في الشتاء	» ٥
نمن طنافس في الشتاء	» ٤
لمرمة الستارة	» ١ دينار

وقد بقيت هذه الدار إلى أن أبطلها الأفضل بن أمير الجيوش ؛ لأنه اجتمع

(١) ذكرى ذلك معاصره وشريكه في الوطن يحيى بن سعيد ص ١١٠٨ .

(٢) تسمى أيضاً دار الحكمة ، المغربي ج ١ ص ٤٥٨ .

(٣) يحيى بن سعيد ص ١١٦ .

بها فريق من العلماء ، فاستفد بعضهم عقول جماعة ، وأخرجهم عن الصواب ^(١) .

وكانت معظم دروس الفقه والكلام تُعطى في المسجد ، والسمعون على هيئة حلقة بين بدى المدرس . وكان هذا يتخذ مكانه إلى جانب أسطوانة في المسجد مستنداً إليها بظهره إن أمكن ؛ وإذا اقترب أحد من هذه الحلقة سمع النداء : دُوروا وجوهكم إلى المجلس ^(٢) .

وقد أحصى القدسي في المسجد الجامع بالقاهرة وقت العشاء مائة وعشرة مجلساً من مجالس العلم ^(٣) .

وكان جامع النصور ببغداد ، وهو أقدم مسجد جامع بها ، أشهر مركز لتعليم في المملكة الإسلامية . ويُحكى أن الخطيب البغدادي ^(٤) لما حج شرب من ماء زمزم ثلاث شربات ، وسأل الله عز وجل ثلاث حاجات أخذاً بقول النبي صلى الله عليه وسلم : ماء زمزم لما شرب له ؛ فالحاجة الأولى أن يحدث بتاريخ بغداد ، والثانية أن يعلى الحديث بجامع النصور ، والثالثة أن يُدفن إذا مات عند قبر بشر الحافي .

وقد جلس إبراهيم بن محمد نبطويه (المتوفى عام ٨٣٢٣ - ٩٦٥ م) ، وكان

(١) الخطط للقرنيزي ج ١ ص ٤٥٨ - ٤٥٩ .

(٢) القدسي ص ٢٠٥ - . وفي سنة ٨٣١٤ - ٩٢٦ م برد الهواء برداً شديداً وسقط ينفاد تلج كثير ، وجدت دجلة بأسرها بالوصل حتى عبر الناس عليها وجلس المحدث العروف بأبي زكرة في وسط دجلة على الجمد ، وأمل الحديث (المنتظم لابن الجوزي ص ١٣١) .

(٣) للقدسي ص ٢٠٥ .

(٤) الإرشاد لياقوت ج ١ ص ٢٤٦ .

من أكبر العلماء بمذهب داود الأصمهاى ، إلى أسطوانة بجامع المنصور خمسين سنة لم يُغير محله منها^(١) .

وكان الفقهاء أكثر العلماء تلاميذ ، وكان ذلك طبيعياً ؛ لأن الفقهاء يطرون العلم الذى يؤهل أصحابه لتولى مناصب يعيشون منها ، كما تقدم القول ؛ ولكن لو قارنا عدد التلاميذ فى ذلك العصر لوجدناه صغيراً بالنسبة لما رآه اليوم ، وهذا يدل على كثرة العلماء بالنسبة إلى التلاميذ ؛ فقد كان أبو حامد بن محمد الاسفرايينى المتوفى عام ٤٠٦ هـ - ١٠١٥ م ؛ إمام أصحاب الشافعى ، حتى قيل إنه أفقه وأنظر منه ؛ وكان يدرس بمسجد عيد الله بن المبارك ببغداد ، وكان يحضر مجامع ما بين ثلاثمائة وسبعمائة فقيه^(٢) . وكان أبو الطيب الصعلوكى الفقيه الأديب مفتى نيسابور وحى مركز علماء خراسان ؛ ويقال إنه حضر مجامع أكثر من خمسمائة طالب علم فى عشية الجمعة الثالث والعشرين من المحرم سنة ٣٨٧ هـ - ٩٩٧ م^(٣) . وكان يسد بين يدي أحد أصحاب الجويرى « الإمام الفرد » (المتوفى عام ٤٧٨ هـ - ١٠٨٥ م) فى كل يوم ثلثمائة من الأئمة والطلبة^(٤) ؛ هذا على حين أننا نجد اليوم فى كاشغر مثلاً ؛ مع أنها ليست مركزاً دينياً كبيراً ، أن أكثر من خمسمائة طالب يحضرون درس أكبر العلماء فيها^(٥) .

وكان عدد الطلاب يُعرف بإحصاء محارمهم التى يصفونها أمامهم والتى كانت

(١) الإرشاد ج ١ ص ٣٠٨ .

(٢) Wüstenfeld, AGOW 37. Nr. 287. ، وطبقات السبكي ج ٣ ص ٢٥ .

وابن الأثير ج ٦ ص ٩٨٣ يذكر أربعمائة طالب .

(٣) التذيب لتروى طبعة فستفلس ص ٣٠٧ وطبقات السبكي ج ٣ ص ١٦٩ - ١٧٠ .

(٤) السبكي ج ٣ ص ٢٠٢ .

(٥) Hartmann, Chinesisch-Turkestan, S. 45. (٥)

أم عتاد الطالب^(١) . ولقد قدم محمد بن جرير الطبري إمام هذه المدرسة ،
فسأله عن أحمد بن حنبل ، وعن حديث الجلولس على العرش فقال : أما أحمد
فلا يُمدّ خلافه ؛ فوثبوا ورموه بحجارهم غاضبين^(٢) . وكان إذا مات إمام كسر
تلاميذه الحجار والأفلام ، وطافوا في البلد نائحين مبالغين في الصياح ؛ فلما مات
الجويقي المتقدم الذكر ، وكان خطيباً مشهوراً أيضاً ؛ كسر منبره ، واشتركت
نيسابور كلها في حزن العلماء عليه ، فلم تفتح الأبواب في البلد ، ووضعت المقاديل
على الروس عاماً بحيث ما اجتراً أحد على ستر رأسه^(٣) .

وكان الطلبة يحضرون كتبهم في شيء يسمى فارورة ، ولعلها سميت بهذا
الاسم من قبيل التسكاهة العلمية^(٤) .

وكان الإملاء فيما مضى من الزمان يعتبر أعلى مراتب التعليم^(٥) ، وكثيراً
ما كان المتكلمون والقويون في القرن الثالث الهجري يتبعون طريقة الإملاء
خاصة ؛ فيحكي أن الجبائي الممتزى ألقى مائة ألف وخمسين ألف ورقة ، وما روى
ينظر في كتاب الإيوا في زيج الخوارزمي^(٦) . وقد ألقى أبو علي القالي خمس

(١) السبكي ج ٣ ص ١٧٠ ؛ والنووي غرر الإحارة .

(٢) الإرعاد لباقوت ج ٦ ص ١٣٦ .

(٣) Wüstenfeld, AGOW, 87. Nr. 365 ، وانظر طبقات السبكي ج ٣

ص ٢٥٧ — ٢٥٨ .

(٤) الإرشاد ج ٢ ص ١٠ ؛ وأغلب الظن أن الفارورة من الخبرة كما يمكن أن يؤخذ
من النص : « دخلت طالباً ، أدبت فحضرت مجلس بعض أصحاب الحديث ، وأدبت من فارورة ،
فأريت شاباً عليه سمة الجمال استأذنته في كتب الحديث من فارورته » (الترجم) ، على أن
المؤلف يقول إن كلمة فارورة تدل على ما يشبه الصندوق .

(٥) الزهر للسيوطي ج ٢ ص ١٩٩ طبعة مصر ١٩٣٥ ، Goldziher, SWA, 69 S. 20

(٦) المعزلة لابن الرضوى ص ١٧ .

مجلدات^(١)، وكان المستمل يكتب أول القائمة : « مجلس أملاء شيخنا فلان بجامع كذا في يوم كذا » .

وفي القرن الرابع الهجري ترك اللغويون طريقة المتكلمين والمحدثين في الإملاء ، واتصروا على تدريس كتاب يقرأ منه أحد الطلبة ، والمدرس يشرح « كما يدرّس الإنسان المختصرات^(٢) » . ويقال إن آخر من أملى من اللغويين هو أبو القاسم الزجاجي المتوفى عام ٨٣٩ هـ - ٩٥٠ م^(٣) . أما إملاء الحديث فقد بقي كما صرح بذلك السيوطي . ولما عزم الوزير الصاحب ابن عباد (المتوفى عام ٨٣٨ هـ - ٩٩٥ م) على إملاء الحديث خرج متطعاً متحنكاً على زى أهل العلم ، واتخذ لنفسه بيتاً سماه بيت التوبة ، وقد للإملاء فحضر الخلق الكثير ، « وكان المستمل الواحد ينضاف إليه ستة كل لا يبلغ صاحبه^(٤) » ؛ ولكن أصحاب الإملاء اختصروا فيه حتى إن أغلب العلماء كانوا يختصرون في أماليهم ويطلقون في تدريسهم^(٥) .

وعندنا من خير كتاب الياقوت في القنة لأبي عمرو المطرز (المتوفى عام ٨٤٥ هـ - ٩٥٦ م) ما يرينا كيف كان ينشأ الكتاب من الإملاء : ابتداء المؤلف بإملاء هذا الكتاب يوم الخميس ليلة بقيت من المحرم سنة ٨٣٦ هـ - ٩٣٧ م في جامع المنصور ببغداد ارتجالاً من غير كتاب ولا دستور ، ومضى في الإملاء مجلداً مجلداً إلى أن انتهى إلى آخره ؛ ثم رأى الزيادة فيه فزاد

(١) السيوطي في الزمر .

(٢) البك ج ٣ ص ٢٥٢ .

(٣) للزمر السيوطي .

(٤) الإرشاد لياقوت ج ٢ ص ٣١٢ .

(٥) المنرة لابن الرضى ص ٦٣ ، ويظهر أنه في مصر حاجي خليفة كان المحدثون

قد تركوا الإملاء نهائياً . انظر : , Marçais, Le Taqrib de en-Nawawî, JA 1901,

18, S. 87 [وكتاب التدريب ، مطبوع بالحرية ومبروف — المترجم] .

في أضاف ما ألقى ، وكتب هذه الزيادة أحد تلاميذه ؛ ثم قرأ عليه أبو إسحاق الطبري وسمعه الناس ، ثم زاد فيه بعد ذلك ، وقرأ عليه بالزيادة يوم الثلاثاء ثلاث بقين من ذي القعدة سنة ٣٢٩ هـ - ٩٤١ م ؛ وقرأ منه في ربيع الثاني سنة ٣٣١ هـ - ٩٤٢ م ، وحضرت نسخ جميع من كتب فقورنت ؛ ثم زاد المؤلف بعد ذلك أشياء أخرى كتبها محمد بن وهب ، ثم جمع الناس وودعهم بمرض أبي إسحاق عليه هذا الكتاب وتكون آخر عرصة بتقرر عليها الكتاب ولا يكون بعدها زيادة^(١) .

وكان تأثير طريقة التعليم سبباً في إيجاد نوع جديد من المؤسسات العلمية ؛ ذلك أنه لما انتشرت طريقة التدريس نشأت المدارس ، وأهل من أكبر الأسباب في ذلك أن الساجد لم يكن يحسن تخصيصها للتدريس بما يتبعه من حاضرة وجدل قد يخرج بأصحابه أحياناً عن الأدب الذي تحب مراعاته للمسجد ؛ فاقترن تراجع هو الذي أظهر هذه المعاهد الجديدة التي بقيت إلى أيامنا . وبدل مجموع الأخبار التي انتهت إلينا على أن نيسابور كانت مهد هذه المعاهد ، وكانت أكبر مراكز العلم في خراسان . ويقول الحاكم النيسابوري المؤرخ الثقة (المتوفى عام ٤٠٦ هـ - ١٠١٥ م) صاحب تاريخ نيسابور إن أول مدرسة هي التي بُنيت لمعاصره أبي إسحاق الإفرايحي (المتوفى عام ٤١٨ هـ - ١٠٢٧ م) بنيسابور^(٢) .

(١) الفهرست لابن النديم ص ٧٦ .

(٢) طبقات السكي ج ٣ ص ١١١ ، ١٢٧ ؛ ويقول القريري (المخط ج ٢ ص ٣٦٣) إن أول من حفظ عنه أنه بنى مدرسة في الإسلام أهل نيسابور ، فبُنيت بها المدرسة البيهية التي بُنيت لبيهي (المتوفى عام ٤٥١ هـ - ١٠٦٢ م) . ويقول الذهبي إن أول المدارس المدرسة النظامية (السكي ج ٣ ص ١٢٧) ، ولا توجد كلمة مدرسة عند الجوهري ولكنها وردت في رسائل الحمذاني (ص ٢٤٧) .

أما المدرسة التي بنيت لابن فورك (المتوفى عام ٥٤٠٦ هـ) فهي أحدث عهداً من تلك المدرسة بقليل . وكان كل من الإسفراييني وابن فورك أئمة متحكما ، فلا بد أن يكونا قد آثرا البحث في المسائل الكلامية ، بل آثرا طريقة التدريس على مجرد رواية الأحاديث^(١)

على أنه كان بنبسبور رجل من كبار الأئمة وأولى الرئاسة ، وهو أبو بكر البستي المتوفى عام ٥٤٢٩ هـ - ١٠٣٧ ، وقد بنى لأهل العلم مدرسة على باب داره ، ووقف عليها جملة من ماله الكثير . وكان هذا الرجل من كبار المدرسين والناظرين بنبسبور^(٢)

وكان المستنقلى في الحالين الكثرة مجلس على مقعد مرتفع لستغصت الحاضرين وليميد كلام المدرس حتى يسمعه من كان بعيداً عنه . وكان العالم بيتدى درسه بحمد الله والصلاة على نبيه مد قراءة قارئ حسن الصوت شتاً من القرآن ثم يدعو للبلد والسلامين^(٣) . وبعد أن يستغصت المستنقلى الناس يبدأ كلامه باسم الله وبالصلاة على النبي ؛ ثم يقول للحديث : من أو ما ذكرت رحلك الله ؟ وكما ورد ذكر النبي أو أحد الصحابة أو نعوذ^(٤) صلى على النبي ورضى من

(١) ويريد الأستاذ ريبيرا (Ribera) في مقالة : Origen del Colegio Nidami de Bagdad ، وهو بحث شيق ضمن Homenaje a Don Fr. Codera Zaragoza 1904, S. 3. II. أن يثبت أن المدارس في أصلها من مؤسسات الكرامية ؛ ولكن لا يبرهان له على ذلك .

(٢) طبقات البكره ج ٣ ص ٢٢ .

(٣) انظر الفصل الخامس علوم الدين .

(٤) . (1) . Nawawi, Taqrib, trad. Marçais, JA, 1901, 18, S. 88. والجامعة العربية ،

النوع السابع والمعروف ؛ وهذه كانت هي المادة الخارية في القرن الرابع كما يدل على ذلك ما روى من أن الخطيب البغدادي كان يأمر المستنقلى أن يرفع صوته بذلك

الصحابة . وفي حوالي عام ٣٠٠ هـ كان ابن كيسان النحوى يبدأ بحلله بأخذ القرآن والقراءات ، ثم ما حدث الرسول عليه السلام : هـ فإذا فرغ من غير غريب أو لفظة شاذة أبان على كل علم عليها وسأل أصحابه عن معناها ^(١) . وكان يحوز السامع في المجلس أن يقف ويسأل المدرس ، ويدل على ذلك ما حكى عن أبى عبيدة النخوى من أن رجلاً حضر مجلسه فقال له سؤالاً سخيفاً يدل على الجهل وسوء الفهم ؛ ثم قام ثان وثالث فقالا مثل ذلك ، فأخذ أبو عبيدة عليه ، واشتد ساعياً في مسجد البصرة يصيح بأعلى صوته : من أين خُشرت البهائم على اليوم ^(٢) .

على أنه قد بقى في القرن الرابع ذلك التهييب الشديد للحديث ، وقد كان معروفاً من قبل ، فكان يبلغ من وزع البعض أنه يتهيب رواية الحديث ^(٣) ؛ وقد حكى البرقاني (المتوفى عام ٤٢٥ هـ - ١٠٣٤ م) أن أستاذه كان يروى الأحاديث منهيباً متحزراً ، وأن تلاميذه كانوا إذا تكلم مع أحد ، يذهبون جانباً وبكتيبون الأحاديث التي ترد في كلامه دون أن يفتن هو لذلك ^(٤) . وكان أبو سهل الصملوكي يُطالب منه التحديث فيمتنع أشد الامتناع ؛ ولم يقعد لذلك إلا في آخر عمره عند ما بلغ السبعين ^(٥) . على أن التحديث كان يعتبر نوعاً من العبادة يحتاج إلى آداب خاصة : فيستحب المحدث قبل أن يجلس للحديث أن

(١) الإرجاع ج ٦ من ٢٨٢ .

(٢) نفس المصدر ج ٥ من ٢٧٢ .

(٣) انظر Goldziher, DMG, 1907, S. 861 ، وقد حكى السمرقندي (بنان المارفين ص ١٠) عن عبد الرحمن بن أبي ليلى أنه قال : أدركت ثمان وعشرين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان منهم عدّة إلا وقد أن أضاف كفاء الحديث ولا تُفتش إلا وقد أن أضاف كفاء القنوى .

(٤) انظر ما ذكره سارسيه في هامش ترجمته لكتاب التفرغ للنخوى : JA, 1901, 17 .

S. 196 Ann. 2 .

(٥) الطبقات السبكي ج ١ ص ١٦١ .

ينطهر ويقطّب وبسرح لحيته ، وأن يحلس متمكناً بوقار ، فإن رفع أحد
الحاضرين سوته زجرة ، وعليه أن يقلل على الحاضرين كلامه^(١) .

وبروى لنا من القرائن الثاني والثالث لاهجرة أنه كانت ترمى رفاع في حلقة
بعض العلماء الصالحين أمام العالم ، وتتضمن هذه الرقعة طلب دعاء للمريض
أو صاحب حاجة ، فيقبض العالم عليها ويقرؤها ، ويدعو أصحابها ، ويؤمن على
دعائه من حضر ، ثم يمضي في درسه^(٢) .

وقد رويت لنا من القرن الرابع هذه الحكاية التالية : لما هزم صاحب
ابن عباد على إملاء الحديث ؛ وهو وزير ، « خرج يوماً متطلّساً متحنّكاً بزي
أهل العلم فقال : قد علمت قدي في العلم ، فأقروا له بذلك ، وأنا متلبّس بهذا
الأمر ، وجميع ما أنفقت من صغرى إلى وقى هذا من مال أبى وجدى ، ومع هذا
لا أخلو من تيمات أشهد الله وأشهدكم أنى تائب إلى الله من ذنب أذنبته ؛ واتخذ
لنفسه بيتاً أسماء بيت التوبة ، ولبت أسبوعاً على ذلك ، ثم أخذ خطوط النقاء
بصحة توبته ، ثم خرج وقعد للإملاء وحضر الخلق الكثير ، وكان المستبلى
أواحد ينضاف إليه ستة ، كل ينفع صاحبه ، فكتب الناس حتى القاضى
عبد الجبار^(٣) »

وكان أبو الحسن الهارظى (المتوفى عام ٩٩٥ م) يقرأ عليه

(١) التعريب للنوى ترجمة مارسيه Marçais JA, 1901, 18, S. 85 f. (النوع
الساج والعصرون من الضجة العربية) ، وذكر مارسيه عن الغزالي أن سفيان الثوري كان
يجلس القراء في الصف الأول .

(٢) الإرشاد لياقوت ، ج ٦ ص ٢٨٤ ، ومروج الذهب للمسعودى ج ٨
ص ١٨٥ وما يليها .

(٣) الإرشاد ج ٢ ص ٢١٢ .

تلاميذه ، فإذا أخطأ أحدهم سبّح أو قرأ شيئاً من القرآن بقصد التصحيح ، من الآيات التي تكون ملائمة لذلك^(١) . وتوفي أحد العلماء في سنة ٤٠٦ هـ — ١٠١٥ م . وكان يبتدئ كل يوم بتدريس القرآن ، ثم يدرس الحديث ، وكان يجلس على حال واحد لا يتحرك ولا يعبث في شيء من أعضائه ، ولا يغير شيئاً من هيئته ؛ وكان يقرأ بنفسه حتى يستنفد قوته ويبلغ النهاية في جهده في القراءة^(٢) .

وكان أبو الحسن الباهلي يدرس في كل جمعة مرة واحدة ، وكان يرعى السريين ويغن تلاميذه كي لا يروه ، وسئل عن سبب إرساله الحجاب بينه وبين الناس فأجاب : إنهم يرون السوق ، وهم أهل الفلّة ، فيروني بالعين التي يرون بها أولئك ؛ « وكان من شدة اشتغال قلبه بالله مثل والله أو مجنون ، لم يكن يعرف مبلغ درسنا حتى نذكره^(٣) . وكان بعض العلماء إذا انتهى مجلسه يقول : قوموا ؛ فيقوم تلاميذه ، يأخذ هو يدعو الله^(٤) .

وقد اختلف العلماء متى يبدأ الإنسان في سماع الحديث ؛ فذهب جماعة إلى أنه يستحب أن يبتدئ الإنسان بسماع الحديث بعد ثلاثين سنة ؛ وقال آخرون بعد العشرين ؛ ونقل القاضى عياض ، قاضى قرطبة (المتوفى عام ٥٤٤ هـ — ١١٤٩ م) أن مذهب المحدثين أنفسهم أن أول زمن يصح فيه السماع خمس سنين ؛ ويذكر حديث البخارى (كتاب العلم ، الباب الثامن عشر) لإثبات هذا الرأي . ويقول النووي (المتوفى عام ٤٧٦ هـ — ١٠٨٣ م) إن العمل استقر

(١) طبقات البكري ج ٢ ص ٣١٢ .

(٢) المنتظم لابن الجوزى ص ١٦٣ .

(٣) طبقات البكري ج ٢ ص ٢٥٧ .

(٤) نفس المدر ص ١٩٢ .

على ذلك في زمانه . ويؤكد أن الحميدى الحدث المشهور كان أبوه يحمله على كنفه^(١) إلى مجلس الحديث ؛ ولهذا يذكر مؤرخو الحديث السن الذى بدأ عنده كل محدث في سماع الحديث . وكان ينذر أن يذهب الولد لسماع الحديث وهو في السادسة من العمر . ويقال إن القاضى التنوخى التوفى عام ٥٣٨٤ هـ - ٩٩٤ م ، عن سمع الحديث وهو في سن ست^(٢) . ويقال إن أبا نعيم الأصفهاني أكبر محدثي عصره سمع الحديث وهو ابن ثمان^(٣) . والغالب أن يبدأ في سماع الحديث في الحادية عشرة ، وفي هذا السن سمع الحديث الخطيب البغدادي الحدث المشهور وثلاثة من شيوخه^(٤) ؛ وكذلك ابن الجوزى ، فقد كتب الحديث وله إحدى عشرة سنة^(٥) . وكان بعض المحدثين لا يقبل في مجلسه من لم يكن ملتحماً ، خوفاً من قصص الغرام فيما يظهر . ويذكر أن صبيا كان شديد الرغبة في سماع الحديث ، ومنع من ذلك فآخذ لنفسه حلية مصطنعة^(٦) .

وقد اختلف أيضا في السن التي يجوز لرجل فيها أن يتصدى لتدريس الحديث ؛ فذهب النورى إلى أنه يجوز للإنسان أن يجلس لذلك في أى سن متى احتيج إلى ما عنده ؛ ويجب على الشيخ السن أن يملك عن التحديث ، إذا خشي التخليط بهم أو خرف أو عمى^(٧) .

(١) التريب للنوى ترجمة مارب . انظر : Marçala, JA. 1901, 17, 193 ؛ والنسخة العربية : النوع الرابع والمفردون .

(٢) المنظم ص ١٣٦ ب .

(٣) البكى ج ٣ ص ٨ .

(٤) تاريخ بغداد . JRAS, 1912, S. 60 .

(٥) المنظم ص ١٣٧ ب .

(٦) Wüstenfeld Schalliten, AQOW 37, Nr. 88 . انظر أيضا الفصل الخامس

بالأخلاق والعادات في الجزء الثانى من الكتاب .

(٧) التريب للنوى ترجمة مارب . JA, 1901, 18, S. 84 . والنسخة العربية : =

وكان الأسفرايفي أكبر أئمة الشافعية في القرن الرابع الهجري ، طالباً فقيراً ، وكان يشتغل حمالاً^(١) . وكان آخرون في وقت طلبهم للحديث يسكنون في مثذنة المسجد الذي يستعملون فيه الحديث^(٢) . ويحكى عن الوزير أبي الحسن بن الفرات (المتوفى عام ٣١٢ هـ - ٩٢٤ م) أنه كان يطلق للشعراء في كل سنة من سني وزارته عشرين ألف درهم رسماً لهم ، سوى ما يصالحهم به متفرقاً ، وعند مديهم إياه ؛ فلما كان في وزارته الأخيرة تذكر طلاب الحديث ، وقال : امل الواحد منهم ببخل على نفسه بدائني ودونه ويصرف ذلك في ثمن ورق وجبر ، وأنا أحق بمراعاتهم ومعاونتهم على أسرهم ، وأطلق لهم من مخزائنه عشرين ألف درهم^(٣) .

يدلنا هذا على أن المعاهد العلمية التي كان يستطيع الطلاب أن يلجأوا إليها لم تكن قد ظهرت ، وكان جزء كبير من مثل هذه المطايا لا يُصرف إلى الطلاب ، بل لغريم بواسطة ذوي الجاه ، كما يصرح بها صاحب كتاب الوزراء . وكان العالم إذا لم يكن فقيهاً صاحب منصب ، ولم يجد ما يعيش منه ، اشتغل بنسخ الكتب كما حكى عن أبي زكريا يحيى بن عدي المتوفى عام ٣٦٤ هـ - ٩٧٤ م ، وكان من أكبر فلاسفة القرن الرابع ، ومذهبه مذهب النصارى اليعقوبيين ؛ وذكر عنه أنه نسخ بخطه نسختين من تفسير الطبري ، وأنه كان يكتب في اليوم واليلة

= آداب الحديث ، في النوع السابع والمعين] . وقد كان المحدثون المتأخرون قساة في حكمهم على المفسر من المحدثين ؛ فقد أراد البعض أن يسحبوا منهم كل ثقة في أمر الحديث ، وهذا يدل على ما أصبح للكتابة من الشأن وعلى نقصان قيمة الذاكرة وما كان لها من التقدير فيما مضى . وقد قال الخطيب البغدادي إن الأهمى في منزلة البصير الأمل - نفس المصدر ص ٦٣ ، [والنوع السادس والمثرون] .

(١) AGOW, 37, Nr. 287 ، وفي طبقات السبكي ج ٣ ص ٢٦ أنه كان في أول

أمره يحرص في بعض الدور .

(٢) الإرجاء لياقوت ج ١ ص ٢٥٥ .

(٣) كتاب الوزراء ص ٢٠٩ - ٢٠٢ .

مائة ورقة^(١) . وكانت ببسا بور وراق يسمى أبا حاتم وراق بها خمسين سنة ، وهو القائل :

إن الورقة حرفة مذمومة محسرومة عيشى بها زمن
 إن عشت عشت وليس لى أكل أو مت مت وليس لى كفن^(٢)
 وكان أبو بكر الهذلي المعروف بابن الخطا بة المتوفى عام ٥٤٣٩ - ١٠٨٦ م
 يعول والده وزوجة وبتاً من الورقة ؛ وفي سنة واحدة كتب صحيح مسلم سبع
 مرات ، وهو يقول : « فلما كان ليلة من الليالي رأيت في المنام كأن القيامة قد
 قامت ، ومناد ينادى ابن الخطا بة ، فأحضرت ، فقيل لى : أدخل الجنة : فلما
 دخلت الباب وضرت من داخل استلقيت على قفاى ووضعت إحدى رجلي على
 الأخرى وقلت : آه استرحت والله من النسخ »^(٣) .

وقد قيل إن من آفات العلم خيانة الزائعين . وكان العلماء الذين يحرصون
 على سلامة العلم ينسخون كتبهم بأنفسهم إن استطاعوا^(٤) .

ولم تكن حرفة التعليم تدر شيئاً كثيراً ؛ فقد ذهب طاقة كبيرة من الصنفاء
 كالحنفية جميعهم وأحمد بن حنبل وسفيان الثوري وغيرهما إلى أنه لا يجوز أن ينسخ
 العلم أجراً عن تعليمه القرآن والحديث^(٥) ، وأجاز ذلك آخرون ؛ ولكنهم سجلوا
 معلم الحديث في درجة أعلى لأنه يعلم ابتغاء الثواب الأخرى . وفي القرن الثامن

(١) القزط لابن النديم ص ٢٦٤ ؛ وأخبار الحكماء للنعلى ص ٣٦١ . سن
 الطبعة الأوروبية .

(٢) بنية المصموج ٤ ص ٣١٩ .

(٣) الإرشاد لباقوت ج ٦ ص ٣٣٧ .

(٤) يذكر هذا كثيراً ولا سيما في تراجم المالكية .

(٥) انظر مقدمة بستان المارفين للمرقندي ، والقريب هووى ، Maroncal, JA, 1901 .

143. 17. S. ، وانظر أيضاً بستان المارفين ص ٤١ - ٤٥ .

المجربى امتنع النورى أن يأخذ رزقاً لتدريسه في المدرسة الاشرفية ؛ وكان الرجل إذا انتهى من مجلس علم قدم له من غير أجر ، قال له الطالب : آجرك الله ، وهو يقول : نعمك الله ^(١) . وفي سنة ٣٤٦ هـ - ٩٥٧ م توفي أبو العباس الأصم ، وكان من أكبر علماء خراسان ومحدثيهم ؛ وقد ظهر به الصمم وهو ابن ثلاثين سنة ، ثم استحكم حتى كان لا يسمع نقيق الحمار ، وكان إذا ذهب إلى المسجد للتحدث وجد السكة قد امتلأت بالناس ، وكانوا يقومون له ويحملونه على عواتقهم إلى مسجده . وكان لا يأخذ شيئاً على التحديث ، وإنما كان يوزق ويأكل من كسب يده ^(٢) . وحكى عن أبي بكر الجوزقي محدث تيسابور المتوفى عام ٣٨٨ هـ - ٩٩٨ م أنه قال : « أنفت في الحديث مائة ألف درهم ما كتبت به درهما ^(٣) . وكان أبو بكر الخطيب البغدادي يوماً في جامع صور ، فدخل عليه بعض العلوية وأعطاه ثلثمائة دينار وضعا على سجادة الخطيب ، فقام الخطيب محمراً الوجه ، وأخذ السجادة وخرج من المسجد ، وترك العلوى يلتقط الدنانير من شقوق الحصير ^(٤) .

أما إذا كان أحد معلم صبيان أو معلم كتاب ، كما كان أبو زيد البلخي العالم المشهور المتوفى عام ٣٢٢ هـ - ٩٣٣ م ^(٥) ، فعنى هذا عيش من حرقة محتقرة . وقد ألف الجاحظ كتاباً في المعلمين ملاء بالحكايات التي تدل على حماقتهم وقلة عقلهم ورأيهم . ومن أمثال العامة : أحق من معلم ^(٦) . ولعل كثيراً مما لحق

(١) طبقات السبكي ج ٣ ص ٢٩٧ .

(٢) التنظم لابن الجوزي ص ١٨٧ .

(٣) السبكي ج ٢ ص ١٦٩ .

(٤) نفس المصدر ج ٣ ص ١٤ .

(٥) الإبرعاد لياقوت ج ١ ص ١٤١ .

(٦) البيان والبيان للجاحظ ج ١ ص ٢٠٠ طبعة مصر ١٣١١ هـ .

المعلمين من ضرور الاستهزاء إنما يقع إنهم على الروايات اليونانية المزلية ؛ لأن المعلم فيها كان من الشخصيات المضحكة . وقد ذكر ابن قتيبة عن السدي أنه كان لا يستحلف المكارى ولا الحائك ولا الملاح ، ويجعل القول قول اللدعي مع يمينه ، ويقول : اللهم إني استخبرك في الحقال ومعلم الصبيان ^(١) . وكان ابن حبيب أحد علماء اللغة والأخبار والشعر (توفي عام ٢٤٥ هـ - ٨٥٩ م) يقول إذا قلت للرجل : ما صناعتك ؟ قال : معلم ، فاصنع ^(٢) . . يحكى ابن حوقل عن أهل صقلية أنهم كانوا يكثرون التخذى بالبصل النقي ، « وما فهم من لا يأكله في كل يوم ، ويؤكل في طوره صياحاً ومساء من سائر طبقاتهم ، وهو الذي أمد نخبائهم ، وضر أدمغتهم ، وحقير حواسهم ، وغير عقولهم ، ونقص أفهامهم ، وأفسد سحنة وجوههم ، فأحال مزاجهم ، حتى رأوا الأشياء أو أكثرها على غير ما هي عليه . والذي دخل تحت المدة أن فيها أزيد من ثمانية معلم يؤدبون الصبيان ؛ وهم يرون أنهم أفضلهم ، وأنهم أهل الله ، وهم تهودم وأمنأوم ؛ هذا على ما اشتهر عن المعلمين من نقص عقولهم وخفة أدمغتهم ؛ وإنما لجأوا إلى هذه الصناعة هرباً عن الجهاد ونكولاً عن الحزب ^(٣) . » وكان يدفع المعلم أجره أحياناً هذا المال أشياء مما يأكله الناس وينتفعون به ، « ولك كانت « رضان المعلم » مثلاً يضرب في الاختلاف وشدة التفاوت ، لأن حقان المعلم تختلف بحسب اختلاف آباء الصبيان في النقي والفقر ، والجود والجمل . وقد أشد الجاحظ لرقاشي في معلم :

مختلف الخبز خفيف الرغيف منتثر الزاد لشيم الوصيف

(١) عيون الأخبار طبعة بروكلمان ص ٩٣ .

(٢) الإرشاد ج ٦ ص ٤٧٣ .

(٣) ابن حوقل ص ٨٦ - ٨٧ .

وأنشد لأبي الشمق :

خبز المسلم والبقال متفق واللون مختلف والطعم والصود
 أما المعلمون الذين يؤدبون الأولاد في البيوت الغنية فكانوا أحسن حالا ؛
 يقول الجاحظ^(١) : « يكون الرجل نحوياً عروضياً ... وهو يرضى أن يعلم أولادنا
 بستين درهماً ؛ ولو أن رجلاً كان حسن البيان حسن التخريج المعاني ، ليس
 عنده غير ذلك لم يرض بألف درهم^(٢) » ، وكان عند قائد لعيد الله بن طاهر
 مؤدب رزقه في الشهر سبعون ديناراً ، وذلك في القرن الثالث الهجري . وكان
 مثل هذا المعلم يظل تحت إشراف من اختاره ، وهو الذي يقدر رزقه ، ويطوف
 عليه ويتعهد من بين يديه من الصبيان ؛ وهو بصرفه ويبدل به غيره إذا
 لم يحبه^(٣) . وكان مؤدبو الأمراء أحسن المؤدبين حالا ، وكان الذين يُختارون
 لتأديب أبناء الأمراء هم علماء الفقه المشهورون ؛ فمن ذلك أن محمد بن عبد الله بن
 طاهر ، وكان من أجود أمراء زمانه ، اختار لتأديب ابنه طاهر أحمد بن يحيى
 ثعلب النحوى القنوى إمام الكوفيين ، فأفرد له داراً في داره كان يقيم فيها هو
 وتلميذه ، وكان يتفدى معه ؛ وقد أقام له الأمير مع ذلك في اليوم سبع وظائف
 من الخبز الخشكار ووظيفة من الخبز السميد وسبعة أرطال من اللحم وعلوفة

(١) حمد للنسب لثعالي ، ZDMG, VI ، وثمار القلوب في اللغات والنسب

ص ١٩٤ — ١٩٥ ؛ وكان يوم الثلاثاء ويوم الجمعة يوم عطلة مدرسية (انظر ديوان
 ابن المعتز ج ٢ ص ٣ ، ومقدمة منزلة لكتاب حكاية أبي القاسم الأزدي ص ٥٧ ، وفيما يختص
 بالصورة التأخرة (انظر كتاب ألف باء ج ١ ص ٢٠٨ ، والدخل ج ٢ ص ١٦٨) ؛ وكان
 الصبيان يكتبون على ألواحهم بالطباشير (مقدس ص ٢٤٠) ، وكان المعلم يؤدبهم بأن
 يضربهم بالجر (بقية الدرر ج ٢ ص ٦٣) .

(٢) البيان للجاحظ ج ١ ص ١٥١ .

(٣) الإرشاد لياقوت ج ١ ص ١٢٢ .

رأس ، وأجرى له في الشهر ألف درهم^(١) .

وفي سنة ٨٣٠٠ - ٩١٢ م احتفل أبو القاسم بن الوزير الخاقاني بدخول ابنه الكتّاب ، فدعا من القواد والرؤساء جماعة بلغوا ثلاثين نفساً ، وأمر الداعي بإعطاء العلم ألف دينار ؛ وأكرم الناس ، وأكلوا^(٢) ؛ وكان يلزم المأمون في الكتاب غلاماً لملحه ، فكان إذا احتاج المأمون إلى محو لوحه بادر إليه ، فأخذ اللوح من يده وغلب على غلظت المأمون فمسحه وجاء به فوضعه على المنديل في حجرة^(٣) .

وكان العلماء الكبار يأخذون أرزاقاً من السلطان ، وكانوا فريقين : فقهاء وعلماء ؛ وثم فريق ثالث أكثر رزقاً ، وهم الندماء الذين يجالسون الحضرة ؛ وكان البعض يأخذ رزقاً في هذه الطوائف كلها كالزجاج المتوفى عام ٨٣١٠ هـ فقد كان له رزق في الندماء ، ورزق في الفقهاء ، ورزق في العلماء ، وسبلغ ذلك ثلثمائة دينار ، وكانت له منزلة عظيمة^(٤) . وقد أجرى الخليفة المقتدر على ابن دريد المتوفى عام ٨٣٢١ هـ خمسين ديناراً في كل شهر حينما قدم بغداد فقيراً^(٥) . وكذلك أجرى سيف الدولة بن حمدان صاحب حلب على أبي نصر الفارابي الفيلسوف التركي المتوفى عام ٨٣٣٩ هـ - ٩٥٠ م أربعة دراهم كل يوم ، فاقصر عليها^(٦) .

وبندر أن نجد في هذا العصر من العلماء من يتخذ صناعة أو تجارة يعيش منها

(١) نفس المصدر ج ٢ ص ١٤٤ .

(٢) كتاب العمون والحدائق مخطوط برلين ص ٧٩ ب .

(٣) المحاسن والساوئ للبيهقي الطبعة الأوروبية ص ٦٢٠ .

(٤) التهرست ص ٦١ .

(٥) Wüstenfeld, AGGW. 37, Nr. 92 .

(٦) تاريخ أبي الفدا تحت عام ٨٣٣٩ هـ (ج ٢ ص ٤٥٨) .

إلى جانب العلم فيحكي أن أبا بكر الصبغى المتوفى عام ٣٤٤ هـ - ٩٥٥ م كان يبيع الصبغ بنفسه أو به له بنفسه في الحانات على عادة العلماء المتقدمين الذين يتسبون في العاش، وكان حاتم، مجمع الحفاظ والمحدثين^(١). وقد أوصى الصبغى لأحد العلماء في أمور مدرسته «دارالسنّة»، وفوض إليه تولية أوقافه في ذلك^(٢). كان دعلج بن أحمد بن دعلج، محمد السجزي (المتوفى عام ٣٥١ هـ - ٩٦٢ م) فينج أهل الحديث، وكان فقيهاً، ويقال إنه لم يكن في الدنيا من التجار أبسر منه؛ وقد خلف ثمانية ألف دينار؛ ويحكي أنه بعث بالسند إلى رجل لينظر فيه، وجعل في الأجزاء بين كل ورقتين ديناراً؛ «وكان يقول: ليس في الدنيا مثل داري، لأنه ليس في الدنيا مثل بغداد، ولا ببغداد مثل القطيعة، ولا بالقطيعة مثل درب أبي خلف، ولا في الدرب مثل داري»^(٣). وكذلك كان بمصر أبو العباس أحمد بن محمد الديلمي الخياط المتوفى عام ٣٧٣ هـ، وكان فقيهاً جيد المعرفة على مذهب الشافعي، وكان قوته وكسبه من خياطته، كان يخط قيصاً في حمة بدرم ودانقين، طعامة وكسوته منها غلاء ورخصاً، «وما ارتفع من أحد بمصر بشربة ماء»^(٤). وكان بمصر عالم آخر توفي عام ٤٩٢ هـ - ١١٠٩ م، وكان يبيع الخلع لأولاد الملوك^(٥). على أننا نجد أن أبا عمر الطرزي المتوفى عام ٣٤٥ هـ - ٩٥٦ م، وكان أحد أئمة الأئمة المشاهير الكثيرين، قد منحه

(١) السبك ج ٢ ص ١٦٨.

(٢) غنى المصدر ج ٣ ص ٦٦.

(٣) السبك ج ٢ ص ٢٢٢.

(٤) غنى المصدر ج ٢ ص ١٠٦.

(٥) غنى المصدر ج ٣ ص ٢٩٧.

اشتهفاه بالعلوم من اكتساب الرزق ، فلم يزل مضيقاً عليه ^(١) . ويقول أحد بن فارس القنوى المتوفى عام ٣٦٩ هـ - ٩٧٩ م :

إذا كنت في حاجة مرسلًا وأنت بها كيف مفرم

فأرسل حكماً ولا توصه وذلك الحكيم هو الدرهم

وكان يقول :

يا ليت لي ألف دينار موجهة وأن حظي منها فلس فلأني

قالوا : فالك منها ؟ قلت : نخدمني لها ومن أجابها الحق من الناس ^(٢)

وأخيراً دخل علماء الإسلام في نهاية هذا العصر في جملة العلماء وأصحاب الألقاب ، وكان الأسفراييني الأصغر المتوفى عام ٤١٨ هـ - ١٠٢٧ م بنبينا بور أول من لقب بين العلماء بركن الدين ^(٣) . وفي ذلك العصر ظهر لقب على سبيل التكريم وهو لقب شيخ الإسلام الذي صار له شأن كبير فيما بعد ، وكان ظهوره عند فريقين مختلفين ، وذلك أن أهل السنة في خراسان لقبوا به أحد علمائهم ، فثارت نفوس الجسوسة بمدينة هرات وعمدوا إلى شيخ لم ألف كتاباً في ذم الكلام فلقبوا به ^(٤) .

(١) تاريخ أبي الفدا تحت عام ٣٤٥ هـ (ج ٢ ص ١٦٤) .

(٢) الإرهاد لياقوت ج ٢ ص ٩ .

(٣) Wüstenfeld, AOOw, 37, Nr. 316 ، وكان أحد بن عبد الله أبو محمد الزني الملقب الهروي للثبوت عام ٣٦٥ هـ - ٩٦٦ م إمام أهل العلم والوجوه وأولياء السلطان بخراسان في عصره مع رتبة الوزارة وعلو القدر عند السلطان ، وكان يقال له الشيخ الجليل بخاري . وكان فوق الوزراء لقطعه ، وكانوا يصدرون من رأيه ، (طبقات السبكي ج ٢ ص ٨٥ - ٨٦) .

(٤) طبقات السبكي ج ٣ ص ١١٧ ، ١١٨ .

ولم يكن يخلو الحال من شخصيات مضحكة بين الملوك كالتى نجدها في
الجلات المزلية فقد كان بين المبرد وطلب مناقرات كثيرة ، والناسي يختلفون
في تفضيل كل واحد منهما على صاحبه ، وكان يسمى بينهما السعاة ، ويقولون
لأحدهما هجاء الآخر ؛ وكانا يتناظران^(١) . ويحكى أن قتادة الدوسي قال مرة :
ما نيت شيئا قط ؛ ثم قال : يا غلام ! تاولني نعلي ، قال : نعلك في رجلك^(٢) .
وكان ابن خالويه القنوي عالما غليظا ، فيحكى أنه وقع بينه وبين المتنبي
كلام في مجلس سيف الدولة ، فوثب ابن خالويه على المتنبي وضرب وجهه بمفتاح
كان معه ؛ فخرج المتنبي ودمه يسيل على ثيابه^(٣) . وكان نفعويه مشهورا بطله
كما كان مشهورا بالقذارة والصنان وثمن الرائحة ؛ وقد أثرت في عقل الجوهري
صاحب المعجم المشهور (المتوفى عام ٣٩٠ هـ - ١٠٠٠ م) كثرة عمله ، فقد
صنف كتاب الصباح في اللغة حتى وصل إلى باب الضاد ؛ ثم اعترته وسوسة
فاتقل إلى الجامع القديم ببغداد ، فصعد إلى سطحه ، وقال : أيها الناس ! إنني
عملت في الدنيا شيئا لم أسبق إليه ؛ فأعمل للأخرة شيئا لم أسبق إليه ، وضممت إلى
جنتيه مصراعتي باب وتأبطهما بحبل ، وصعد مكانا عاليا من الجامع وزعم أنه
يطير ، فوقع فات .

(١) الإرشاد ج ٢ ص ١٤٩ .

(٢) نفس المصدر ج ٦ ص ٢٠٢ .

(٣) ابن خلكان (الوفيات) طبعة مستشفى ج ١ ص ٦٥ .

الفصل الثالث عشر

علوم الدين

في القرن الرابع الهجري مرّ علم الكلام الإسلامي أو علم العقائد في أم أدوار حياته ، وهو دور تحرره من الفقه ، بعد أن ظل حتى ذلك الحين خادماً له ^(١) ؛ وكانت جميع كتب الكلام المعتمدة عند جمهور الأمة الإسلامية تتناول بعض الموضوعات الفقهية . ومرجع الفضل في حدوث هذا التغير إلى المعتزلة الذين كانوا طول القرن الثالث الهجري يعالجون مسائل كلامية محدّصة ، وهم في القرن الرابع يضطرون خصوصهم إلى الإجابة عن هذه المسائل . وكانوا أول فرقة إسلامية تحررت من نزعات الفقهاء كلها ، فكانوا هم الفرقة « الكلامية » الوحيدة ^(٢) التي تعالج الكلام وحده بين الفرق الخمس الكبرى التي كان المسلمون منقسمين إليها في ذلك العهد ، وهي أهل السنة والمعتزلة والمرجئة والشيعة والخواارج ^(٣) . وقالوا إن كل مجتهد مصيب في الفروع ^(٤) . وكان منهم رجال في جميع المذاهب الفقهية حتى بين أصحاب الحديث الذين يُعتبرون عادة أعداء المتكلمين ^(٥) . ومن جهة أخرى كان الصوفية خصوصاً أئمة السنيّة الفقهاء ، ولم يقتضوا قط

(١) هذا الحكم يحتاج إلى تنقيح ؛ فإن علم الكلام استقل علماً بذاته في القرن الثالث . وفي هذا القرن أيضاً تكونت مبادئ علم الكلام السني (المرجع) .

(٢) للقدس ص ٣٧ .

(٣) ابن حزم شلاخ ٢ ص ١١١ .

(٤) للقدس ص ٣٨ ؛ والمعتزلة لابن المرتضى ص ٦٣ .

(٥) للقدس ص ٤٢٩ .

من التشنيع عليهم ؛ وقد عبروا عن احتقارهم لم العقه القدي يسونه علم الدنيا
تعبيراً قاسياً ؛ ومن أمثلة ذلك ما يقوله المبكى المتوفى عام ٣٨٦ هـ - ٩٩٦ م أخذاً
عن السيد المسيح عليه السلام ؛ فهو يقول : « وروينا عن عيسى عليه السلام :
مَثَلُ عِلْمِ السُّوءِ مَثَلُ صَخْرَةٍ وَقَعَتْ عَلَى فَمِ النَّهْرِ ، لَا مَيَّ تَشْرَبُ الْمَاءَ ، وَلَا تَتْرَكُ
الْمَاءَ يَتَخَلَّصُ إِلَى الزَّرْعِ ؛ وَكَذَلِكَ عِلْمُ الدُّنْيَا قَعَدُوا عَلَى طَرِيقِ الْآخِرَةِ ، فَلَا مَيَّ
نَفَذُوا ، وَلَا تَرَكَوا الْعِبَادَ يَسْلُكُونَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ؛ قَالَ : وَمَثَلُ عِلْمِ السُّوءِ
كَثَلُ قَنَاةِ الْحَشِّ ، ظَاهِرُهَا حَسَنٌ وَبَاطِنُهَا نَتَنٌ ، وَمَثَلُ الْقُبُورِ الْمَشِيدَةِ ظَاهِرُهَا
عَاسِرٌ وَبَاطِنُهَا عِظَامُ الْمَوْتِ »^(١) .

وقد انتصر الصوفية في هذا الباب ؛ ففي القرن التالي جاء النزالي إمام جمهور
المسلمين المتأخرين ، فها هو بأن علم التفقه علم دنيوي لا ديني^(٢) . ونجد بين الصوفية
طوائف كثيرة ترفض العلوم جملة ، حتى إنه يُحكى عن أبي عبد الله بن خفيف
المتوفى عام ٣٧١ هـ - ٩٨١ م أنه كان يوصي الناس بأن يشتغلوا بالعلم ولا يفتروا
بكللام الصوفية ، ويقول إنه كان يخشى الخبيرة والورق في ثيابه ويذهب إلى أهل
العلم خفية ؛ فإذا علم به الصوفية خاسمونه وقالوا : لا تفاج^(٣) . وقد فرّق الصوفية
مرة أخرى بين المعرفة (أي علم الحقائق) وبين العلم (بمعنى العلوم المألوفة
للناس) . يقول الحلاج المتوفى عام ٣٠٩ هـ - ٩٢٢ م مستهزئاً بالعلم : « يا مجباً
عن لا يعرف شجرة من بذنه كيف تنبت سوداء أم بيضاء ، كيف يعرف مكوّن
الأشياء ! من لا يعرف الجميل والمفصل ، ولا يعرف الآخر والأول والتصاريف

(١) قوت القلوب لأبي طالب المكي ج ١ ص ١٤١ طبعة مصر ١٣١٠ هـ .

(٢) Goldziher, Zehlriten, S. 182.

(٣) Amedroz, notes on some sufi lives, JRAS., 1912, S. 556

والطلل والحقائق والحيل لا تصح له معرفة من لم يزل . وبمكى الخلاج في موضع آخر : « رأيت طيراً من طيور الصوفية عليه جناحان ، وانسكر شأني حين بقي على الطيران ، فسألتني عن المساء ، فقلت له : انقطع جناحك بمقارض الفناء ، وإلا فلا تتبعني ، فقال : بجناح أطير ، فقلت له : وبمكى ليس كئسه شيء . وهو السبع البصير ، فوقع يومئذ في بحر الفهم وغرق »^(١) . ولكن نجد قوماً آخرين ، كالجنيد المتوفى عام ٢٩٨ هـ - ٩١٠ م ، يصترحون بأن العلم أرفع من المعرفة وأتم وأكمل^(٢) . ونجد بين العلماء كاشانغية مثلاً كثيراً من الصوفية ، وهذه حقيقة واقعة ؛ وكانت علوم الصوفية الدينية أم العلوم وأكثرها نجاحاً ؛ فقد كانت هي الحركة المليئة التي ضمت أعظم القوى الدينية في ذلك العهد ؛ والحركة الصوفية في القرنين الثالث والرابع أوجدت في الإسلام ثلاثة مبادئ أثرت فيه تأثيراً كبيراً وهي : ثقة وطيدة كاملة بالله تعالى ، والاعتقاد بالأولياء ، وإجلال النبي محمد عليه السلام ؛ ولا تزال هذه المبادئ الثلاثة أم الدوامل وأقواها تأثيراً في الحياة الإسلامية^(٣) .

وقد زاد الإقبال على دراسة القرآن والحديث ، لأن ذلك واجب من أول الواجبات المفروضة على كل مسلم ومسلمة^(٤) . ولكن نشأ في القرن الرابع رسم جديد ، وهو الذي يميز للإنسان رواية الحديث من غير لقاء رجاله ، ومن غير

(١) كتاب الطواصين للحلاج طبعة باريس ١٩١٣ ص ٢٣ ، ٣٠ .

(٢) نفس المصدر ص ١٩٥ . على أن النصين الأولين لا يحويان بمراحة تقابلاً وتعارضاً بين المعرفة والعلم ، بل فيهما معنى غير هذا ، ولا أرى تعارضاً بينهما وبين ما يحكى عن الجنيد . (الفرج) .

(٣) انظر الفصل الخامس بالدين .

(٤) بنان العارفين للمرقدي على هامش تنبيه الناقلين ص ٣ .

إجازة مكتوبة تخوّمه حق الرواية^(١)؛ وبهذا حلت دراسة الكتب محل الأسفار التي كان يقوم بها طلاب الحديث من قبل لقاء رجاله . وقد استطاع ابن يونس الصفدي التوفى عام ٣٤٧ هـ - ٩٥٨ م أن يكون إماماً متيقظاً حافظاً في الحديث ، وإن كان لم يرحل ، ولا سمع بغير مصر^(٢) . وكان مثّل العالم الذي يطلب الحديث مثل التاجر أو عامل السلطان في كثرة غشيانه للخانات التي يأوي إليها المسافرون أو في طوافه في السكك ؛ وهكذا بقي شأنه في الحركة والتجوال زماناً طويلاً . وفي سنة ٣٩٥ هـ - ١٠٠٥ م توفى ابن مندة « خاتمة الرحالين » الذين رحلوا لسماع الحديث ؛ وقد جمع ألفاً وسبعمائة حديث ، ورجع إلى وطنه ومعه أربعون وثراً من الكتب^(٣) . ويقع ، أبو حاتم السمرقندي (المتوفى عام ٤٣٥ هـ - ٩٦٥ م) : لعلنا كتبنا عن ألف شيخ مابين الشاش والإسكندرية^(٤) ويروي عن أبي يعقوب القزويني السرخسي (المتوفى عام ٤٢٩ هـ - ١٠٣٧ م) أنه طلب الحديث فأكثر ، حتى زاد عدد شيوخه على ألف ومائتي شيخ^(٥) . على أن النزالي على شهرته ومع أنه صار أكبر حجة للعلم عند أهل القرون التي جاءت بعده ، لم يسافر في طلب العلم إلا قليلاً : فقد خرج من بلده طوس ، وسمع بمرجان في الشمال ، ودرس في نيسابور ، وكانت أكبر مدينة علمية في بلاده ؛ وهذا كل ما عرف من أسفاره لطلب العلم . وقد بين صاحب كتاب بستان

(١) Goldziher, Muh. Studien, II, 190 ff. وقد ذكر النووي أن من العلماء

من أجاز حجة رواية الحديث كتابة ، وذلك منذ القرن الثاني الهجري ؛ ونجد أمثلة كثيرة لثل هذه الرواية في المجموعات الفقهية العربية .

(٢) حسن المحاضرة للسيوطي ج ٢ ص ١٦٤ .

(٣) الزرقاني ج ١ ص ٢٣٠ ؛ Goldziher, Muh. Studien, II, 180 .

(٤) البكري ج ٢ ص ١٤١ .

(٥) نفس المصدر ج ٣ ص ١١٤ .

العارفين^(١) في القرن الرابع، اختلاف الآراء في هذا الباب أوضح بيان. ومن أمثلة النقد الذي وجّهه المحدثين أن التوثيق يصف أبا الفرج الأصفهاني صاحب كتاب الأغاني (المتوفى عام ٨٣٥٦ - ٩٦٧ م)، وهو الذي سمع منه الهارظي المحدث المشهور، بأنه أكذب الناس؛ لأنه «كان يدخل سوق الوراقين، وهي عاصرة، والدكاكين مملوءة بالسكتب، فيشتري شيئاً كثيراً من الصحف، ويحملها إلى بيته، ثم تكون رواياته كلها منها»^(٢).

على أن المحدثين كانوا يُعتبرون أكبر العلماء شأنًا؛ وكان يُمدون من أعظم رجال الإسلام، ولا يفتون المؤرخين ذكراً وقائهم إلى جانب القليلين الذين يحارون ذكراً؛ وهم يقصون الحكايات السجبية التي تدل على مقدرتهم في الحفظ. فيُحكى أن عبد الله بن سليمان بن الأشعث (المتوفى عام ٣١٦ هـ - ٩٢٨ م) كان يحدث العراق، وكان يحدث في دار الوزير علي بن عيسى، وقد نصب له السلطان منبراً حدث عليه؛ وقد خرج إلى سجستان فسأه أهلها أن يحدثهم فقال: ما ممي أصل، فقالوا: ابن أبي داود وأصوله فأملى عليهم من حفظه ثلاثين ألف حديث، فلما قدم بغداد، قال البغداديون: مضى ابن أبي داود إلى سجستان ولعب بالناس؛ ثم فيجئوا فيجئاً بستة دنانير إلى سجستان ليكتب لهم النسخة فسكرت، وحي بها وعرضت على الحفاظ فخطأوه في ستة أحاديث، لم يكن خطأ إلا في ثلاثة منها^(٣). ويحكى أن ابن عقدة (المتوفى عام ٨٣٢ هـ - ٩٤٣ م) كان يحفظ بالأسانيد والمتون خمسين ومائتي ألف حديث^(٤).

(١) إستان العارفين لسميرندي ص ١٨ وما يليها (٢).

(٢) تاريخ بغداد طبعة كرنسكو: IRAS, 1912, S. 71.

(٣) المنظم ص ١٣٦، البكري ج ٢ ص ٢٢٩ - ٢٣٠.

(٤) المنظم ص ٧٢ ب.

وكان قاضي الموصل المتوفى عام ٣٥٥ هـ - ٩٦٦ م يحفظ مائتي ألف حديث من ظهر قلب^(١) وفي سنة ٤٠١ هـ - ١٠١٠ م مات بمصر الحافظ ميسر؛ وكان عنده درج طويل طوله سبعة وثمانون ذراعاً مملوء الوجهين فيه أوائل ما يحفظه من الأحاديث^(٢). ويحكى العلماء مع الفخر ما جرى لأبي الفضل الهمداني بنيسابور مع الحاكم النيسابوري؛ ذلك أن أبا الفضل لما ورد نيسابور، وتمصّب الناس له، ولقّب بديع الزمان أوجب بنفسه، إذ كان يحفظ المائة بيت إذا أُنشدت بين يديه مرة وبنشدتها من آخرها إلى أولها مقلوبة، فأنكر على الناس قولهم: فلان الحافظ في الحديث، ثم قال: وهل حفظ الحديث مما يُذكر؟ فسمع به الحاكم النيسابوري فوجّه إليه بجزء وأجلّه جمعة في حفظه. فردّ الهمداني إليه الجزء بعد جمعة، وقال: من يحفظ هذا؟ محمد بن فلان وجعفر بن فلان عن فلان، أسام مختلفة، وألقاظ متباينة؛ فقال له الحاكم: فأعرف نفسك، وأعلم أن حفظ هذا أصيق مما أنت فيه^(٣).

أما من حيث السرعة في تعلّم الحديث فتستطيع معرفة ذلك مما حكى عن الخطيب البغدادي أنه قرأ صحيح البخاري على كريمة بنت أحمد المروزي في خمسة أيام^(٤).

وأكبر محدثي القرن الرابع هـ أبو الحسن علي الدارقطني المتوفى عام ٣٨٥ هـ - ٩٩٥ م والحاكم النيسابوري المتوفى عام ٤٠٥ هـ - ١٠١٤ م. وقد خاتموما

(١) Goldziher, Muh. Studien, II, 200.

(٢) سكران الطالط على عايش الخلاصة ١٨٨.

(٣) طبقات البكّي ج ٣ ص ٦٦ - ٦٧.

(٤) الإرشاد لياقوت ج ١ ص ٢٤٧، ونسب عند ابن بشكوال (ج ١ ص ١٢٣).

كريمة المروزي.

في القرن الخامس أبو بكر الخطيب البغدادي المتوفى عام ٤٦٣ هـ - ١٠٧١ م . وقد وجدوا من كتب الحديث التي جمعت في للقرن الثالث الهجري موضوعاً لبحثهم بما كان في هذه الكتب من تبويب وما كان فيها من تناقض . ولذلك قاموا بتأليف كتب جديدة في الحديث ، فمثلاً ألف الدارقطني كتاباً في السنة ؛ وقد استدعاها الوزير جعفر بن الفضل بن الفرات من بغداد وبرزه بمال كثير ، وأفق عليه نفقة واسعة ، وخرج له السند ، وكان لهذا الوزير مجالس إلقاء كتبها الدارقطني وآخر معه وخرجاها^(١) ؛ أو هم قاموا بتأليف الاستدراكات أو المستدركات ، كما فعل الدارقطني والحاكم ، لاعتقادهما أن كثيراً من الحديث الصحيح قد ضلت جامعيه الأولين ؛ أو بسبب الخرجات أو المستخرجات ، وقد فعل ذلك كلُّ محدث كبير في القرن الرابع^(٢) .

وكذلك ظهرت في القرن الرابع كتبٌ جديدة تامل تصحيقات الحديث ، ومنها كتب الخطيب ولدارقطني^(٣) . وقد اعتنى نقاد الحديث منذ أول الأمر بمعرفة رجال الحديث وضبط أسمائهم والحكم عليهم بأنهم ثقات أو ضعفاء ؛ ثم نظروا في الأساس الذي يبنى عليه هذا الحكم ، أعني الصفات التي يجب توفرها في المحدث الثقة ، وهو ما يعرف بالجرح والتعديل . ويقال إن أول من ألف في هذا الباب يحيى بن كنان المتوفى عام ١٩٨ هـ - ٩١٤ م^(٤) . وبعد أن اشتغل

(١) الإرشاد لياقوت ج ٢ ص ٤٠٨ ؛ وقد كتب تلاميذ مسلم خاصة كتباً في الصحيح ، ومنهم أبو حامد (المتوفى عام ٥٢٥ هـ) وأبو سعيد (المتوفى عام ٥٢٥ هـ) - طبقات الكبرى ج ٢ ص ٩٧ وما بعدها .

(٢) Goldzher, Muh. Studien, II. 267, 273. ، وقد ذكر النووي في شرحه

على مسلم (ج ١ ص ١٧) تلاميذ الدارقطني .

(٣) ترجمة مارسية للتريب للنووي ، انظر Marçais, JA, 1901, 18, S. 115 f.

و Goldzher, Muh. Studien, II 241.

(٤) ترجمة مارسية للنووي JA. 1900. 16, 321 .

العلماء بتأليف كتب الحديث الكبرى المعتمد عليها بدأوا في الفحص من الرجال المذكورين فيها وألقوا الكتب في رواة الصحيحين وهكذا . وقد أدت بهم حاجتهم إلى السند المتصل^(١) أن يتجاوزوا البحث في حياة الرواة والحكم عليهم إلى عمل تاريخ كامل لم ؛ وهكذا وجدت « تاريخ » القرن الثالث الهجري مثل تاريخ البخاري المتوفى عام ٢٥٦ هـ - ٨٧٠ م ، ومثل الطبقات الكبرى لابن سعد المتوفى عام ٢٣٠ هـ - ٨٤٥ م التي دوعى في تأليفها الزمان والمكان ؛ وكذلك ظهرت تاريخ المدن ، وهي المؤلفات التي ظهرت في القرنين الثالث والرابع هـ ، وتمثل كلها في تاريخ نيسابور الذي ألفه الليسابوري المتوفى عام ٤٠٦ هـ - ١٠١٥ م والذي يرى السبكي أنه يشتمل على تراجم أوفى وأكمل من تراجم الخطيب البغدادي^(٢) ، وفي تاريخ أصمهان لأبي نعيم المتوفى عام ٤٣٠ هـ - ١٠٣٨ م ، وفي تاريخ بغداد للخطيب البغدادي المتوفى عام ٤٦٣ هـ - ١٠٧١ م .

ويدلنا على مقدار الدقة التي أظهرها العلماء في طريقة النقد ما ذكر عن الخطيب من أنه ألف كتاباً في « رواية الآباء عن الأبناء » وآخر في « رواية الصحابة عن التابعين »^(٣) . وكانت هذه المعارف المتعاقبة رجال الحديث تنال أعظم التقدير في ذلك الوقت ؛ ويحكي عن القاضي أبي حامد أحمد بن نصر المروزي المتوفى عام ٣٦٢ هـ - ٩٧٢ م ، والمشهور بأنه أستاذ أبي حيان التوحيدي الكاتب الكبير أنه كان مجراً يتدفق حفظاً لا سير وقياماً بالأخبار ،

(١) ويقال إن الشافعي (المتوفى عام ٢٠٤ هـ) أول من أثار هذه المسألة (انظر

١ ذكره مارسية في المصدر المتقدم سكتة عند ابن عبد البر (المتوفى عام ٤٦٣ هـ) .

(٢) طبقات السبكي ج ١ ص ١٧٣ .

(٣) الإرشاد لياقوت ج ١ ص ٢١٨ .

« وكان يزعم أن السيّد بحر الفتيا وخزانة القضاء ، وعلى قدر اطلاع الفقيه عليها يكون استنباطه ^(١) » . وأكبر ما كان يثير إعجاب الناس في الخطيب البغدادي دقته وقدرته على نقد الوثائق المكتوبة وإثبات تزويرها اعتماداً على معرفته بتواريخ حياة الرجال الذين يُذكرون فيها ^(٢) . وفي القرن الرابع الهجري ألف الكرايسي المتوفى عام ٣٨٧ هـ - ٩٨٨ م كتاباً في أسماء الرواة وألقابهم ؛ وقد اعتبر هذا الكتاب أحسن الكتب قديماً وحديثاً ^(٣)

على أن الدراسات التاريخية لم تكن محوذة عند العلماء ؛ وبمحكى من ابن إسحاق المتوفى عام ١٥١ هـ - ٧٧٦ م أنه سأل أحد التلاميذ الذين يدرسون التاريخ مستهزئاً به : من الذي كان يحمل لواء الجالوت ^(٤) ؛ أما الآن فيحكى لنا أبو القاسم الزنجي من المحدثين الذين سمع منهم في أول القرن الرابع الهجري قصصاً تاريخية محضة مثل أخبار البيضة ، ومقتل حجر بن عدى زعيم الشيعة ، وكتاب صفين ، وكتاب الجبل ونحوها ^(٥) . ولكن الاتجاه تغير فيما بعد حتى نجد النووي يعيب ابن عبد البر المتوفى عام ٤٦٣ هـ - ١٠٧١ م بأنه أفسد كتابه بما ضمه من أخبار المؤرخين ^(٦) .

وكذلك وضعت الأصول التي ينبغي عليها نقد الحديث وتكامل بناؤها في القرن الرابع ، وأخذت مصطلحاتها من هذا العصر أيضاً . وقد رتب ابن أبي حاتم

(١) البكي ج ٢ ص ٨٢ - ٨٣ .

(٢) الإرشاد ج ١ ص ٢٤٧ - ٢٤٨ .

(٣) مarse في ترجمته للعرب لنووي : Marçais, JA, 1901, 18, S. 183

(٤) Goldziher, Muh. Studien II 207.

(٥) كتاب الوزراء ص ٢٠٢ .

(٦) العرب لنووي . 1901, 18, S. 183

التوفى عام ٣٢٧ هـ - ٩٣٩ م ألفاظ الجرح والتعديل مراتب فأعلاها : « ثقة »
 أو « مُتَقَن » أو « ثَبِت » أو « حجة » أو « عدل » أو « حافظ »
 أو « ضابط » ، والثانية « صدوق » أو « محله الصدق » أو « لا بأس به »^(١) ؛
 ويقال إن الخطابي التوفى عام ٣٨٨ هـ - ٩٩٨ م هو أول من عيّن أقسام الحديث
 الثلاثة الكبرى وهي : الصحيح ، والحسن ، والضعيف ؛ ثم حدد الدارقطني
 التوفى عام ٣٨٥ هـ - ٩٩٥ م معنى التعليق ؛ وجاء الحاكم المتوفى عام ٤٠٥ هـ -
 ١٠١٥ م فجعل أصول الحديث علماً مستقلاً ووضع هيكله الذي بقي في جلته إلى
 أيامنا ، بحيث إن القرون التالية لم تُضِف في هذا اللب لباً ثم في القرن الرابع
 الهجري إلا أشياء ثانوية ؛ بل إن تقسيم الرواة إلى أنواع صار هو المستعمل منذ
 عصر الحاكم^(٢) ؛ ويرجع إلى الخطيب ما جرى عليه كتاب الحديث من وضع
 نقطة في وسط الدائرة التي تكتب في نهاية الحديث بعد التصحيح بالمقارنة
 والمقابلة^(٣) .

أما الدور الثاني في الناحية العلمية الدينية فقد قام به مُقرئو القرآن . ونجد أن
 المقدسي مثلاً لا يَفْغَل في كلامه من البلاد التي وصفها عن ذكر أصحاب القراءات
 فيها ، وإن كان قد أبان عن عدم محبته المقرئين بأن وصفهم بأنهم لا ينفكون
 من الطمع وسوء السمعة^(٤) . وقد وضع ابن مجاهد حوالي عام ٣٠٠ هـ - ٩١٢ م

(١) نفس المصدر JA, 1901, 17, S. 146 ، وانظر Goldziher, Muh. Studien, II, S. 142.

(٢) JA, 1900, 16, S. 330 II. وكذلك فعل ابن حبان المتوفى عام ٣٥٤ هـ .

(٣) انظر نفس المصدر ص ٤٨٧ هامش رقم ٩ .

(٤) التريب لقنوي في JA, 1901, 17, S. 528 .

(٥) المقدسي ص ٤١ .

أصول هذه الناحية^(١) . وقد قامت حوالى هذا الوقت خلاقات شديدة حول قراءة القرآن ، وتدخلت الحكومة ، فاضطهدت بعض أصحاب القراءات ؛ فمثلا ضرب الوزير أبو علي بن مقلبة ابن شنبوذ المتوفى عام ٨٣٢٨ هـ - ٩٣٩ م بالسوط واضطره أن يقرأ من قراءات قرا بها ، وأخذ خطه بالتوبة عنها فكتب : « يقول محمد بن أحمد بن أيوب : قد كنت أقرأ حروفا تخالف مصحف عثمان الجمع عليه والذي اتفق أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم على قراءته ، ثم بان لي أن ذلك خطأ ، وأنا منه نائب عنه مُقْلِع وإلى الله جل اسمه منه برى » ؛ إذ كان مصحف عثمان هو الحق الذى لا يجوز خلافه ولا يُقرأ غيره^(٢) . ولكن ابن شنبوذ خلف تلاميذ منهم محمد بن أحمد بن إبراهيم أبو الفرج الشنبوذ المتوفى عام ٨٣٨٨ هـ - ٩٩٨ م^(٣) . على أن قراءات ابن شنبوذ وغيره التى انتهت إلينا لا خطر فيها مطلقا^(٤) . ولكن كانت مسألة القراءات مسألة خطيرة ؛ لأن الاعتقاد بأن القرآن كلام الله من شأنه أن يحتم هذا . وفى سنة ٨٣٥٤ هـ - ٩٦٥ م توفى أبو بكر المطار القرئى ؛ وكان قد قرأ بحروف تخالف الإجماع ؛ واستخرج لها وجوها من اللغة ذكرها فى كتابه الاستجاج للقراء ؛ وقراءاته تقوم على تصحيح الكلمات واستخراج وجوه بعيدة لها ؛ وزعم المطار أن كل ما سمع فى

(١) توفى ابن مجاهد سنة ٨٣٢٤ هـ - ٩٤٥ م ، وكان وافر الأدب عظيم الهامة ، وكان يدعو إلى دبر كل صلاة أن يجمل من يقرأ فى قبره ؛ وقد رآه بعض الناس فى المنام يقرأ (المنتظم لابن الجوزى ص ١٥٦) .

(٢) الأوراق لصولى ص ٨٢ ، والفهرست لابن النديم ص ٣١ - ٣٢ ، والإرشاد

لبالوت ج ٦ ص ٣٠٠ وما يليها ؛ Nöldeke, Gesch. d. Korans S. 274

(٣) طبقات الفسرين البيهقى ص ٣٨ من طبعة Meursinge ، ومكويه ج ٥

ص ٤٤٧ والمنتظم ص ١٥٤ .

(٤) ولكنها تحرف القرآن عن معانيه الظاهرة للمقولة . (للترجم)

العربية من كل تلك توافق خط المصحف فقرأتها جائزة ؛ وشاعت منه هذه القراءات العربية ، فأناكرها أهل العلم ووصل الأمر إلى السلطان ، فأحضره واستنابه بحضرة القراء والفقهاء ، فأذعن بالقوبة وكتب محضر بتوبته ، وأثبت جماعة من الحاضرين خطوطهم في المحضر بالشهادة ؛ وقيل إنه لم ينزع عن تلك الحروف ، وكان يقرأ بها إلى حين وفاته ، واستنوى بعض أصاغر المسلمين من أهل الغفلة والغباء^(١) .

وفي سنة ٣٩٨ هـ - ١٠٠٨ م أظهر بعض الشيعة مصحفا ذكروا أنه مصحف ابن مسعود ؛ وكان مخالفا للمصاحف ، فأشار الفقهاء والقضاة بإحراقه ، فأحرق بمحضرم ، ثم ورد إلى الخليفة كتاب بأن رجلا من أهل جسر النهر وان حضر المشد ليلة النصف من شعبان ، ودعا على من أحرق المصحف وسبّه ، فُقِل^(٢) .

وكانت المذاهب الفقهية الأربعة حلت محل غيرها ، فكذلك حلت الحروف السبعة الشرعية المتفق عليها محل القراءات الشاذة في القرن الرابع الهجري^(٣) ؛ وفي هذا القرن أيضا ظهرت كتب فيما سمي بالقراءات الثمان^(٤)

(١) المنتظم ص ١٩٨ ، والإرشاد ج ٦ ص ٤٩٩ .

(٢) المنتظم ص ١٥٧ ب ، وطبقات السبكي ج ٣ ص ٢٦ .

(٣) Nöldeke, Gesch. d. Korans, S. 276. ، والفهرست لابن النديم ص ٣١

وما بعدها ؛ وبتان المارفين للسريدي ص ٧٣ .

(٤) Nöldeke, Gesch. d. korans, S. 299. ؛ وقد كتب أبو فاتم للأصمى المتوفى

عام ٣٣٣ هـ في الاختلاف بين القراءات السبع ، وكذلك ألف مصري آخر ، وهو فارس ابن أحمد الحمصي المتوفى عام ٤٠١ هـ كتاب للنشأ في القراءات الثمان . انظر حسن المحاضرة لسيوطي ج ١ ص ٧٣٢ ، ٧٣٤ .

على أن جواز تفسير القرآن لم يكن أسراً مسلماً به في القرن الرابع دون استيفاء شروطه ؛ فيحكى لنا الطبري [من أمثلة التخرُّج في ذلك] أن الشعبي مرَّ على السُّدِّي ، وهو يفسر القرآن فقال : « لأن يُضرب على إسمك بالطبل خير لك من مجلسك هذا »^(١) .

وبخبرنا السمرقندي أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه رأى في يد رجل مصحفاً ، وقد كتب عند كل آية تفسيرها ، فدعى بمقراض فقرضه^(٢) . ونقل السيوطي عن الأصمعي مثلاً أنه كان شديد التأله ، فكان لا يفسر شيئاً من القرآن ولا شيئاً من اللغة له نظير واشتقاق في القرآن ، وكذلك الحديث تخرُّجاً^(٣) .

على أن الطبري قد ذكر أمثلة تدل على أن الصحابة ، وخصوصاً ابن عباس ، كانوا يفسرون القرآن تفسيراً عموماً^(٤) . ولكن نقده^(٥) يدل على أن الفريق الذي كان يحجم عن تفسير القرآن كان قوياً جداً . وقد روى عن النبي عليه السلام حديث من شأنه أن يوفق بين الفريقين ، وهو قوله « من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار » ؛ فكل تفسير يجب أن يستند إلى أثر وارد عن النبي ، ولا يجوز أن يُستند فيه على الرأي ؛ ولا يكون القول بالرأي إلا في التفسير الغوي للألفاظ^(٦) . على أننا نجد في تفسير الطبري نفسه دليلاً على أن المفتر يستطيع رغم

(١) تفسير الطبري ج ١ ص ٣٠ طبعة المطبعة الميمنية .

(٢) بيان المارفين ص ٧٤ — ٧٥ .

(٣) المزمع للسيوطي ج ٢ ص ٢٠٤ انظر أيضاً : Goldziher, SWA, Bd. :

72, S. 630

(٤) التفسير للطبري ج ١ ص ٢٦ .

(٥) ص ٢٦ — ٣٠ .

(٦) تفسير الطبري ج ١ ص ٢٧ .

هذه القيود أن يقول في تفسيره بمحقق ومهارة أشياء كثيرة ينبغي ألا تقال في التفسير^(١) ؛ هذا مع العلم بأن العلماء يقولون عن تفسير الطبري إنه لم يؤلف مثله ، لأن صاحبه جمع فيه بين الرواية والحداية ، ولم يشاركه في ذلك أحد لا قبله ولا بعده^(٢).

على أن السمرقندي مع حريته الكبيرة في الرأي ، ومع كونه حنفياً ، قد تكلم في هذه المسألة بلا لبس ، ومنع كل تفسير بالرأي ؛ وكل ما أجازوه هو أن يحكى المفسر ما سمعه من بعض الأئمة على سبيل الحكاية ؛ وإذا أراد أن يستخرج حكماً من الآية فلا بأس أن يقول المراد من الآية كذا وكذا ؛ أعني أن التفسير عند السمرقندي يكون على صورة الفصول المتعلقة بتفسير القرآن عند البخاري ومسلم ، وهو ما يفعله الفريق الثاني من المفسرين عند السيوطي ؛ وهم المفسرون المحدثون الذين صنفوا التفاسير مستندة مورداً فيها أقوال الصحابة والتابعين بالإسناد^(٣) . ثم إن السمرقندي يسمح بأن تستنبط التفاسير الفلسفية والآراء الفقهية في الأحكام والأوامر من ذلك^(٤).

والجديد الذي نلاحظه في تفسير القرآن في هذا القرن وفي القرن الذي تقدمه هو تعاون المعتزلة واجتهادهم في تفسير القرآن . وعن ألف في التفسير منهم أبو علي الجبائي ؛ ويقول الأشعري تلميذه وخصمه وابن زوجته إنه في هذا التفسير ما روى

(١) مثلاً ج ١ ص ٥٨ عند الكلام عن القدر .

(٢) طبقات المفسرين للسيوطي طبعة Meursinge ص ٣٠ .

(٣) نفس المصدر ص ٢ .

(٤) بيان المارفين ص ٧٥ وما بعدها ؛ ولم أستطع أن أحقق إلى أي حد عمل

السمرقندي بهذه الأحكام في تفسيره الذي لا يزال مخطوطاً .

حرفاً واحداً عن المفسرين ، وإنما اهتمد على ما وسوس به في صدره وشيطانه ^(١) .
على أن أهل المغرب السنيين ترددوا في اتباع الأشعرى في تفسيره للقرآن ؛
وكانوا يتكلمون بالتأويل ويمرثون للتشابهات كما جاءت ادعاء بالسلف ، حتى جاء
ابن نورموت وحملهم على القول بالتأويل والأخذ بمذهب الأشعرية ^(٢) .

وقد ألف أبو الحسن علي بن عيسى الرماني المتوفى عام ٣٨٥ هـ - ٩٩٥ م ،
وهو عالم بالكلام والفقه والنحو والفقه ، تفسيراً للقرآن ؛ وقد بلغ من قيمة هذا
التفسير أنه قيل للمصاحب ابن عباد : هلا صنفت تفسيراً ! فقال : وهل ترك لنا
على ابن عيسى شيئاً ^(٣) ؟ وكذلك ألف أبو بكر النقاش المعتزلي المتوفى ببغداد عام
٣٥١ هـ - ٩٦٢ م ، تفسيراً كبيراً يقع في اثني عشر ألف ورقة ^(٤) ؛ وقد كان
يكذب في الحديث ^(٥) . وكذلك صنف أبو بكر الإدريسي المصري المتوفى عام
٣٨٨ هـ - ٩٩٨ م تفسيراً يقع في مائة وعشرين مجلد ^(٦) . ولم يزد عليه في عظم
التأليف إلا عبد السلام القزويني شيخ للمعتزلة ببغداد المتوفى عام ٤٨٣ هـ -
١٠٩٠ م فإنه ألف تفسيراً في ثلثمائة مجلد منها سبعة مجلدات في الفاتحة ^(٧) .

ونستطيع أن نكون لأنفسنا فكرة عن طريقة هؤلاء المفسرين إذا عرفنا

W. Spitta, Zur Gesch. Abu'l Hassan al Asch'ari's, Leipzig, (١)

1876, S. 127. 128.

Goldziher, ZDMG, 41, S 69. (٢) من تاريخ البربر لابن خلدون

ج ١ ص ٢٩٩ .

(٣) للمعتزلة لابن المروزي ص ٦٣ ؛ والمفسرين للسيوطي ص ٢٤ .

(٤) الفهرست لأبي التميمي ص ٣٣ ؛ والإرشاد لياقوت ج ٦ ص ٤٩٧ .

(٥) السيوطي ص ٣٠ .

(٦) حسن المفاخرة للسيوطي ج ١ ص ٢٣٣ .

(٧) السيوطي ص ١٩ ؛ ويقول السبكي (الطبقات ج ٣ ص ٢٣٠) إن هذا التفسير

سبعائة مجلد .

أن عبيد الله الأسدي المنزلي المتوفى عام ٣٨٧ هـ - ٩٩٧ م صنف تفسيراً للقرآن ذكر فيه في بسم الله الرحمن الرحيم مائة وعشرين وجهاً^(١).

ولما كانت كل فرقة من الفرق في هذا العصر تمتد بالقرآن وترجع إليه بحيث كان مصدرها الأكبر للاقتشاد ومستودعها الذي تنساج به في أدلتها فقد كان لابد للقرآن، ككل كتاب مقدس، أن يتعرض لكثير من التكلف في التفسير. وقد اشتهر الصوفية والشيعة بأنهم أصحاب تأويلات؛ وقد جروا على عادة المؤلفين من قبل وهي الخروج من ظاهر القرآن بالتأويل البعيد لإثبات دعاويهم^(٢). وحاول بعض الشيعة أن يؤثروا كثيراً من الأسماء الواردة في القرآن بأنها أسماء أشخاص؛ فقالوا إن البقرة التي أسرق قوم موسى بذبحها^(٣) هي عائشة، وإن الجبت والطاغوت^(٤) هما معاوية ومروان المص^(٥).

أما المنسرون العلماء فكانوا على خلاف ذلك؛ ومنهم أبو زيد البلخي (المتوفى عام ٣٢٢ هـ - ٩٣٤ م) الذي تلمذ للكندي ببغداد، وأخذ عنه الفلسفة والتنجيم والطب وعلوم الطبيعة. كان البلخي ينتزه عما يقال في القرآن من تأويل بعيد ولا يقول إلا بالظاهر المستفيض من التفسير والتأويل؛ وقد بين ذلك في كتابه المسمى نظم القرآن^(٦). ثم صنف كتاباً في البحث عن التأويلات

(١) السيوطي ص ٢٢؛ ويرى ابن تيمية خص المعتزلة أنهم في تفسيرهم للقرآن ردوه إلى مذاهم وحلوه على محلهم وجاءوا في إثبات صحة تأويلهم بشواهد لا تعرف (تأويل مختلف الحديث ص ٨٠ وما بعدها).

(٢) Gold iher, Zahiriten, S. 132. علا عن ابن حزم ج ٢ ص ١٤٠.

(٣) سورة البقرة آية ٦٧.

(٤) سورة النساء آية ٥١، ٦٠.

(٥) وهذا هو تفسير الروافض للقرآن عند ابن تيمية في مختلف الحديث ص ٨٤.

وما بعدها.

(٦) الإرشاد ليالوت ج ١ ص ١٤٨؛ ولم يذكر صاحب الفهرست هذا الكتاب.

أغضب فيه رجلاً قرمطياً ، فقطع هذا القرمطى عن الباغى صلاته كان
يُجرىها عليه^(١) .

وكذلك كان لابداً للقويين من التدقيق في الألفاظ حتى أمكن وضع
مصطلحات دينية خاصة تتميز عن اللغة المألوفة^(٢) . على أنه وإن كان أصحاب
المذهب الظاهري بأجمعهم قد جعلوا أساس مذهبهم الأخذ بالظاهر في تفسير كتب
الشريعة ، وأولها القرآن ، فإن أحداً منهم لم يصنف تفسيراً للقرآن
لأسباب بيّنة ، وهي أن التفسير الحرفي للقرآن لم يكن يروق المسلمين في ذلك العهد
كما أنه لا يروقنا اليوم .

وقد كانت القصص القديمة العربية واليهودية والمسيحية المذكورة في القرآن
ميداناً خاصاً لاختلاف وتزاع شديد ؛ وكانت هي النقطة التي يواجه العلم فيها
مشكلة الخوارق ، لأن هذه القصص لا تعرف من تقدم محمداً عليه السلام من
الأنبياء عليهم السلام إلا بأنهم أصحاب معجزات ؛ ولذلك نجد أن أشهر الكتب
التي ألّفها أحمد بن محمد بن إبراهيم النعماني النيسابوري المتوفى عام ٤٢٧ هـ —
١٠٣٦ م ، والذي كان أوحد زمائه في علم القرآن ، بعد تفسيره المشهور للقرآن ،
هو كتابه المسمى العرائس في قصص الأنبياء^(٣) .

وقد أوقع البعض بالفرائب ايقصوها على الناس ؛ ونكلم المطهر المقدسي عن
هذا الطريق : « ومنهم من أن « الحديث لم يزل يجرى على أشخى إليهم من الحديث

(١) القهرست من ١٣٨ والإرشاد لياقوت ج ١ ص ١٤١ — ١٤٢ .

(Goldziher, Zahlriten, S. 186. 1)

(٢) كتاب التفسير في أصول من هـ . وقد ألت أبو زمام الاسوانى في (الأنوار)
و سنة ٤٣٢ هـ — ٩٤٦ م) فمقدمة ذكر فيها أخبار العالم وقصص الأنبياء ثلث مائة ألف
والذين أسندوا (الكتاب السبك ج ٢ ص ١٠٨ ، وأبو الحسن علي بن ع ج ٢ ص ٢٠٠)

عن جل سار ، ورؤيا مُسَيَّية آثر عندهم من رواية مسروية ^(١) . وإنكر قوم
المعجائب رأساً ، وصرفها آخرون إلى تأويل منحول ^(٢) . وقد ألف الرازي
الطبيب المشهور حوالي عام ٣٠٠ هـ كتاباً سماه مخاريق الأنبياء لم يستجز المطهر
ذكر ما فيه « فإنه المذهب للقلب ، المذهب للدين ، المدام للفروقة ، المورث البنض
للأنبياء صلوات الله عليهم » ^(٣) .

وقد حاول البعض أن يوفقوا بين ما في القرآن وبين العقل ، فكان ما وصلوا
إليه توفيقاً مضحكاً غير مُحْكَم كالذي تأدى إليه البروتستانتيون الذين فسروا
الإنجيل تفسيراً عقلياً . فثلاثاً لم بعض العقليين من أن يكون الأطفال قد غرقوا
مع آبائهم في الطوفان بغیر ذنب ؛ فقالوا إن الله أعمم أرحام النساء قبل الطوفان ،
فلم تحمل منهن واحدة خمس عشرة سنة ، حتى لم يأت الفرق إلا على مستحق
لعذاب ^(٤) ؛ وذهب آخرون إلى أن سفينة نوح إنما هي مثل للدين الذي جاء به ؛
فأما لبته في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً فهو مثل لبقاء شريعته ^(٥) . وزعم قوم
أنه يجوز أن يكون خروج الناقة المنسوبة لصالح عليه السلام من الصخرة معناه
حجة دائمة وسلطان ظاهر أذعن له القوم ، وأن يكون شرها ماء المين معناه
إبطال تلك الحجة جميعاً ما خالفها . وقال البعض يشبه أن يكون خبأها تحت
الصخرة ، ثم أخرجها ؛ وزعم آخرون أن اسم الناقة كناية عن رجل واسمها ^(٦) .

(١) كتاب البدء والتاريخ للطاهر بن طاهر للقدسي طبعة دار ج ١ ص ٤ .

(٢) نفس المصدر ج ٣ ص ١٧ .

(٣) نفس المصدر ج ٣ ص ١١٠ .

(٤) نفس المصدر ج ٣ ص ١٧ .

(٥) نفس المصدر ج ٣ ص ٢٢ ، وانظر أيضاً التفصيل في مجلة RHR, Bd 50, 1904 .

في مجلة لموار عنونها : Le Rationalisme Musulman au IV siècle .

(٦) البدء والتاريخ للطاهر للقدسي ج ٣ ص ١٢ .

وزعم غير هؤلاء أن إبراهيم عليه السلام سحر القوم الذين أوقدوا له النار وطرخوه فيها ، وأطلى ببعض الأدوية التي يبطل معها عمل النار ؛ وساق هؤلاء قصة بعض الهند وشبهوا إبراهيم بها^(١) . أما أصحاب القيل الذين أهلكهم الله بحجارة ألقتها عليهم طير أبابيل ، فقد أول البعض هذا بأن القوم أحرقتهم نمار اليمن ، وأوبأهم ماؤها وهوؤها ، لخصبها ، وجدرروا فهلكوا^(٢) .

أما عين القطر التي وردت في قوله تعالى : « وَأَسْلَفْنَا لَهُ عَيْنَ الْقَظِيرِ »^(٣) ، فهي إشارة إلى ما اعتدى سليمان إلى استخراجها من معدنه كاسر الجواهر . والمدهد الذي لم يَرَهُ حين تنقذ الطير^(٤) كناية عن رجل ، وكذلك أول النمل في قوله تعالى : حتى إذا أتوا على وادي النمل ... الآية^(٥) ، بأنهم قوم ضعاف خافوا خبط عسكر سليمان ؛ والجن والشیاطين الذين سُخِّرُوا لسليمان هم عتاة الناس وأشدّ أوزم وحذّاتهم ومعاوهم بالأمور النامضة^(٦) .

أما المعجزات الوحيدة التي وجّه العلماء إليها اتهامهم ، فيما عدا القرآن ، فهي معجزات محمد عليه السلام ؛ وهي ، وإن لم ترد في القرآن ، فقد ذكر في الأحاديث التي جمعت في القرن الثالث الهجري نحو المائتين منها

وقد حاول بعض العقليين أن يؤثروا هذه المعجزات ؛ فنلا قالوا إن أبصار من اجتمع من قريش ليلة الدار لافتك بالنبي لم تنم حقيقة ، بل هم أعمام الحقّد

(١) قس المصدر ج ٣ ص ٥٥ .

(٢) قس المصدر ج ٣ ص ١٨٧ .

(٣) سورة مباءة ١٤ .

(٤) سورة النمل آية ٢٠ .

(٥) سورة النمل آية ١٨ .

(٦) البدء والتاريخ ج ٣ ص ١٠٩ .

والنفيظ والغضب . ولم يكن إبليس هو الذي كلم النّاسرين ليعينهم بالرأى ، بل هو رجل ممن يعمل بعمل إبليس ، فسُمي بذلك ^(١) .

على أنه كان بين المسلمين المتقين طائفة ممن حسن إسلامهم قالوا بهذه المعجزات من غير أن تطمئن قلوبهم لذلك . وقد ألف الطاهر بن طاهر المقدسي حوالى عام ٨٣٥٥ - ٩٦٦ م كتابه المسمى البدء والتاريخ ليحمي الإسلام ممن يشعنون صدور العامة بقرّاهات الأباطيل ، ويقصون عليهم غرائب المعجائب ، معتقدين كل غريب وحاكين كل أسطورة ، وليحميه أيضا من الشكّاء الذين لا يؤمنون بشيء . وهو لا يمل من الإعراب عن رأيه بالتصديق بما نزل به الوحي وبما جاءت به السّنة الصحيحة ، وهو كذلك لا يستطيع إخفاء سروره حينما يوفق إلى تأييد إحدى المعجزات بأدلة العقل الذي يعتبره « أمّ العلوم كلها » . وهو يحيب على من ينكر ما ورد في الحديث من رفع إدريس إلى السماء بأن « أعظم منه هذا اللفم الراكد في الجو ، وهذه الأرض في ثقلها واقفة في السماء كما ترى » ^(٢) . وأما من أنكر قصة يونس وأحال إمكان بقاء روح حي في بطن حيوان ، فإن الطاهر يرد عليهم بقوله : « أوليس الجنين في بطن أمه يمتنفس ^(٣) حي ؟ فهل يعجز من أبقي الأجنّة في ظلم الأرحام أن يبقى الأرواح في أجسام المحبوسين حتى لا يصل إليهم الهواء ؟ » ^(٤) . وهذا نوع من الدفاع عن الدين قد ألقناه نحن من قبل ؛ ونستطيع أن نستشف ما تنطوى عليه نفس الطاهر من سرور خفي ، حينما يعالج المعجزات النبوية بطريقة عقلية ، ويبين جريانها على سنن

(١) نفس المصدر ج ٤ ص ١٧٣ واصفحات التالية .

(٢) البدء والتاريخ ج ٢ ص ١٢ .

(٣) في الأصل متنفس ؛ وأظنها خطأ . (الترجم)

(٤) نفس المصدر ج ٣ ص ١١٢ - ١١٣ .

الطبيعة ؛ وقد نحس لوضع مبدأ يقوم على أن الشيء قد يكون معجزة في وقت ، ويكون بعينه غير معجزة في وقت آخر ، ويكون معجزة لقوم وغير معجزة لقوم آخرين^(١)

ويروى عن النبي عليه السلام أنه وعد أخته بقوله : « يبعث الله على رأس كل مائة سنة رجلاً من أهل بيتي يبين لهم أمر دينهم » . وقد أحصى العلماء المتأخرون هؤلاء « المحدثين » الذين يموت كل واحد منهم في أوائل قرنه ؛ وقد اختار العلماء في حوالى عام ٤٠٠ هـ ثلاثة رشحوم لهذا المهمة ، وكلهم لم يكونوا ذوي شأن عظيم^(٢) ؛ وفي حوالى عام ٣٠٠ هـ لم يقع اختيارهم إلا على الأشعري المتوفى عام ٣٤٣ هـ - ٩٣٦ م^(٣) . ويدل هذا على قوة العلماء بين جمهور أهل السنة ، لأن أعظم مفكرى الإسلام في ذلك العهد كانوا جميعاً بين صفوف المعتزلة الذين كانت تنبعث من عندهم جميع المسائل التي يعالجها المتكلمون .

ولم يكن المعتزلة من حيث هم فرقة لها مذهبها الخاص أشد مخالفة لأهل السنة من الشيعة في ذلك العهد ، ذلك أن من الفريقين ، كما قال ابن حزم ، من يخالف أهل السنة الخلاف البعيد ، ومنهم من يخالفهم الخلاف القريب^(٤) . وفي القرن الرابع الهجرى كانت مخالفة للمعتزلة لجمهور المسلمين مخالفة كلامية محضة لا تخرج

(١) نفس المصروح ٤ من ١٧٥ - ١٧٦ .

(٢) لما ألف متر كتابه لم يكن القاضي أبو بكر البلال . أعظم متكلمى القرن الرابع ، معروفاً بالاشتباه ، كما ينبغي له ؛ وقد ادعى المحدث الومردى على رأس المائة الرابعة ؛ راجع مقدمة كتاب التمهيد ط . القاهرة ١٩٤٧ من ٩ ، والملحق من ٢٤٤ . (المترجم)

(٣) Goldziher, Zur Charakteristik es-Suyûti SWA, Bd. 69, S. 8 ff. وقد اختلف العلماء على السجل لقرن مديد واحد أم له مديد في كل علم من علوم الدين ؟ كان القمى يذهب إلى هذا الرأي الأخير ، ويقول كان على رأس المائة الثالثة ابن مريج في الفقه والأشعري على أصول الدين والنسائي في الحديث . (انظر طائفات السبكي ج ٢ من ٨٩) .

(٤) الفصل لابن حزم ج ٢ من ١١١ .

من حدود مسائل علم الكلام ، وهي شبيهة بخلاف الصوفية ؛ لأن هؤلاء اعتبروا
فرقة إلى جانب الفرق الأخرى الكبيرة^(١) . أما في المبادئ فقد كان المعتزلة في
الغالب متفقين مع أهل السنة ؛ هذا إلى أنه كان بين المعتزلة شيعة كالزيدية ،
وكان من هؤلاء بعض أهل البيت مثل أبي عبد الله الداعي ، وهو أحد تلاميذ
أبي عبد الله البصري^(٢) . وكان من الشيعة المعتزلة المشهورين إلى جانب من
تقدم أبو الحسين الراوندي^(٣) والرماني اللغوي^(٤) المتوفى عام ٣٨٤ هـ - ٩٩٤ م ،
وكان أساتذتهم كلهم تقريباً فرساً عاجروا إلى العراق أو استوطنوا أصفهان ؛ بل
يقال إن الجبائي المتوفى عام ٣٠٣ هـ - ٩١٥ م ألف تفسيراً للقرآن بالفارسية^(٥) .
وكان موضوع بحث المعتزلة علم العقائد بمعناه المحدود ، وأول ما عالجوا من ذلك
مسألة القدر وما يتصل بها من وصف أفعال الله بالخير والشر . وكانت هذه
المسألة أكبر ما أثار اهتمام أدمغتهم التي تأثرت بمذهب زرادشت . وكان إمام
المعتزلة في عصر المأمون أبو الهذيل العلاف وأكبر ما ظهرت فيه قدرته وانتصاراته
ردوده على الثنوية^(٦) . وفي أواخر القرن الثالث الهجري أخرج المعتزلة أكبر
مدافع من مذاهب الثنوية ، وهو ابن الراوندي الذي كان من المعتزلة ، ثم انسخ
عنهم ، وشنع عليهم حتى استأثروا بالسلطان على قتلهم^(٧) . وفي القرن الرابع

(١) البدء والتاريخ للطهر المقدسي ج ١ ص ١٦ .

(٢) المعتزلة لابن المرتضى ص ٦٣ .

(٣) انظر فيما يتعلق به مقدمة فيج الكتاب الانتصار للخطاط ط . القاهرة : ١٩٢٥
وما كتبه عنه ويتر في مجلة Der Islam جلد ١٩ (١٩٣١) من ص ١ - ١٧ ، وكراوس
في مجلة الدراسات الشرقية (RSO) التي تصدر في روما ، جلد ١٤ (١٩٣١) ص ٩٣ -
١٢٩ ، ٣٣٥ - ٣٧٩ . (المترجم)

(٤) طبقات الفسرين : بوطي ص ٢٤ .

(٥) Spitta, el-Asch'ari, 87 .

(٦) المعتزلة المرتضى ص ٢٥ - ٢٧ .

(٧) نفس المصدر ص ٥٣ - ٥٤ .

المجربى كان نصيب المعتزلة في أذهانهم على الأقل^(١) نصيب الصوفية من أنهم دخل فيهم بعض الشيعة فانتدبوا بسبب ذلك على وردوا سند مذهبهم إليه^(٢). ويذكر الخوارزمي أن المعتزلة يعتدون بالحسن البصري - الذي يعتد الصوفية به ويدعونه لأنفسهم - اعتداد الشيعة بالوصي، واعتداد الزيدية بزيد بن علي، والإمامية بالمهدي^(٣). ونجد آثاراً متفرقة تدل على أن مذاهب الغنوسطين في المعتزلة مثل ما يحكى عن أحمد بن حنبل من قوله إن العالم خالقين : أحدهما قديم وهو الله تعالى ؛ والآخر حادث ، وهو كلمة الله عز وجل ، عيسى بن مريم ، التي بها خلق العالم^(٤) . وكان بعض المعتزلة في القرن الرابع يتكلمون في القدر وفي تحديد معنى الفسق والإيمان . ولكن كانت عمدتهم التي يتمسكون بها هي الكلام في التوحيد وما يوصف به الله تعالى ؛ ثم يزيد بعضهم غير ذلك^(٥) . ولا

(١) نفس المصدر ص ٦١ — ٦٢ .

(٢) نفس المصدر ص ٥ — ٦ .

(٣) البقية للمجلد ٤ ص ١٢٠ .

(٤) الفصل لابن حزم ج ٤ ص ١٩٧ .

(٥) كان هؤلاء القائلون الذين لم يزالوا يبالغون البحث في مسألة الاختيار والقدرة الإنسانية يسدون « القدرة » ؛ وليس من السهل بيان معنى هذه الكلمة ؛ فالقدرة عند ابن قتيبة هم الذين أضافوا الدر إلى أنفسهم (تأويل مختلف الحديث ص ٩٨) . يبقى أنهم أحباب الاختيار ، وهم الذين يخالفون الجبرية ؛ ولكن هذا التفسير متناقض ؛ لأن لفظ القدرة كان يطلق قديماً على القائلين بالقدر من الله خيره وشره . ويحكى عن زيد بن علي أنه قال : « أبرأ من القدرة الذين حملوا ذنوبهم على الله » ومن المرحلة « من أطمعوا الفساق في حق الله » (كتاب المعتزلة لابن الخطيب ص ١٢) . أما في القرن الثالث فكانوا يقولون على وجه التدقيق إن الله تعالى يخلق الخير وإن الشيطان يخلق الشر (ابن قتيبة مختلف الحديث طبعة القاهرة ١٣٢٦ هـ ص ٥ ، والأشعرى ، في الإمامة كما ذكر ذلك Sniffle ٥. 1911) . وسبب هذه الأنيفية ، هي المعتزلة وجموس الأمة الإسلامية ؛ (ابن قتيبة ص ٩٦) ؛ ويحكى عن أحد أنه قال لرجل من أهل القصة : ألا نسلم يا فلان ؟ فقال : حق يبرأ الله ؛ فقال له : قد أراد الله . ولكن إبليس لا يدعك ؛ فقال له الذي : فأنا مع القوام (ابن قتيبة ص ٩٨ — ٩٩) . وسبب هذه الأنيفية أيضاً ، هي القائلون بالاختيار فدرية في حين أن المعتزلة بالاختيار =

يخلو ذلك من تأثير الفلسفة اليونانية التي كان لها أثر فعال في تحريك الخواطر في أثناء القرن الثالث ، وإن كان تأثيرها مقصوراً على الطبقة العليا من المتكلمين كالنظام والملاحظ^(١) ، ومن تأثير علم العقائد المسيحي الذي كان طول تلك المدة مهتماً ببيان وحدة الذات وتنزهها عن الكثرة^(٢) . ولما كان المعتزلة قد جعلوا عبدة بحسبهم الكلام في ذات الله وصفاته ، فلم يقتصر الأمر على أن صارت هذه المسألة أهم مسائل العقائد الإسلامية حتى اليوم ، بل أدى كلامهم في هذه المسألة إلى طبع الفلسفة العربية بطابع خاص ، كما أن مباحثهم في هذا الموضوع كان لها أثر في مذهب سبنوزا ، ونفذ التأثير من مذهب سبنوزا إلى الفكر الأوربي . ويقول ابن حزم إن المعتزلة هم الذين اخترعوا لفظ الصفات ، وكان المستعمل قبل ذلك هو كلمة « النعوت » أو « الأسامي »^(٣) .

أما ما يمتاز به المعتزلة من الخصال فيقول المقدسي^(٤) : « إنهم لا ينفكون من

== يقولون : إن إطلاق اسم القدرية على من يقول بالقدر خيره وشره من الله أول (الصهرستاني على هامش ابن حزم ج ١ ص ٥٤ ، وابن قتيبة ص ٩٧) . وفي القرن الرابع ، يقول المقدسي : إن المعتزلة غلبوا على القدرية (ص ٢٧) ، ويقول الأشعري (Spitta, 131) ما يدل على أن القدرية هم المعتزلة ، ويقول المقدسي — إلى جانب ما تقدم من غلبة المعتزلة على القدرية — إنه لا يميز أحدهما من الأخرى إلا كل محرر (ص ٢٨) . وقد حاول القاضي عبد الجبار بالري ، حوالي أول القرن الخامس ، وكان القاضي أكبر شيوخ المعتزلة في عصره ، أن يثبت من الأحاديث أن اسم القدرية لا ينبغي أن يطلق على المعتزلة ، بل على القائلين بالقدر خيره وشره من الله (انظر رسالة الأستاذ شريتر : Schreiner, ZDMO 52, S. 209 f.)

(١) S. Horowitz : über den Einfluss der griechisch-islamischen Philosophie auf die Entwicklung des Kalām, Breslau 1909. [ولكن الاشتغال بالمباحث الفلسفية والتأثير بها ، شمل كثيرين غير الملاحظ وأستاذ النظام . المرجع] .

(٢) Becker, ZA, Bd 26, 175 ff.

(٣) البخاري : كتاب التوحيد خلاص من جوهريه , S. 145. (٤) Goie Zahiriten, S. 145.

Ann. 1.

(٤) المقدسي ص ٩١

أربع خصال : الطائفة والهرابة والفق والسخرية . وما يدل على أن المعتزلة كانوا مولعين بالمناظرة والجدل^(١) أن مذهبهم كله يقوم على الجدل^(٢) ، ولذلك قال المعتزلة إن المختلفين كلاماً على صواب^(٣) . ومع ذلك كانوا متكاتفين حتى إن تكاتفهم في القرن الرابع كان مضرب المثل ، وحتى تمثل الخوارزمي باعتداد المعتزلي بالمعتزلي^(٤) . وكان المتكلمون ينظرون في كل شيء ، « وأرادوا معرفة كل شيء »^(٥) . وكان من يسعون بالفلاسفة ينظرون إليهم بعين التصنير ، كما ينظر الباحث في علم النفس التجريبي إلى صاحب ما بعد الطبيعة^(٦) . وكان الفلاسفة يرمون المتكلمين بالتعصب واستحسان التقليد والجحاح ، وأنهم « انفتح باب الخيرة عليهم وسد باب اليقين عنهم ، ولهذا قل تألهم وتنزههم ، وصاروا يقولون بتكافؤ الأدلة »^(٧) . ولما كان المتكلمون ينكرون السحر بجميع صورته والتنجيم ، بل أنكروا كرامات الأولياء^(٨) فإننا نستطيع أن نعتبرهم من دعاة

(١) بقيمة الدهر ج ٣ ص ١٠٦ .

(٢) وقد كان فقال أبو بكر الشافعي ، للتوفيق عام ٣٣٦ هـ (أو ٣٣٥) ، أحد أئمة الشافعية ، أول من سنف في الجدل (أبو الحسن ج ٢ ص ٣٢١ طبعة لندن ٢) .

(٣) بستان العارفين للسمرقندي ، ص ١٥ .

(٤) رسائل الخوارزمي ص ٦٣ (١) .

(٥) الحيوان للجاحظ ج ١ ص ١٠٩ (٢) .

(٦) كتاب معاني النفس . Geldziher, AGOW, N. F., 10, S. 13 ff.

(٧) انظر Geldziher, ZDMG, Bd, 62, S. 2 ff. ، قلا من التوءميد في المقالات

(طبعة بمباي ص ٥٢) . على أن المتكلمين من جانبهم يطعنون في الفلاسفة ، فيعكس أن رجلاً سوفسطائياً أنكر الضروريات وجرس أبي القاسم البخس . وألقها بالحالات ؟ فقام البخس إلى بل جاء السوفسطائي راكباً عليه وخبياً ، ثم قام السوفسطائي من غير أن يفتتح ، فلما لم يجد البخل ، رجع إلى أبي القاسم ، فقال له أبو القاسم : لذلك تركته في غير هذا الوضع ، أو لذلك لم تأت راكباً ، وخبيل إليك ذك تخيلاً ؟ وجاءه بأنواع من هذا الكلام ، حتى رجع من مدعية (المعتزلة لأن المرتضى ص ٥١) .

(٨) لم يكن هذا مذهب المتكلمين جميعاً . (المترجم)

حربة الفسك والاستنارة ، رغم مذهبهم الكلامي ، وما كانت لهم فيه من تدقيقات . جاء في كتاب الإرشاد لياقوت : « اتفق أهل صناعة الكلام على أن متكلمي العالم ثلاثة : الجاحظ ، وعلي بن عبد الله اللطفي ، وأبو زيد البالخي » ، والأول والثالث من هؤلاء الثلاثة — ولا أعرف من أمر الثاني شيئاً — رجلان يمثلان الفكر الحر على نحو جدير بالتقدير ؛ أما الجاحظ « فيزيد لفظه على معناه » ؛ وأما أبو زيد « فيتوافق لفظه ومعناه »^(١) ، والجاحظ يشبه فواتير Volta re ؛ أما أبو زيد (وقد توفي عام ٣٢٢ هـ — ٩٣٣ م ، وقد جاوز الثمانين) فقد كان أثبت وأكثر انزاعاً ، وهو يشبه الإسكندر همبولت Alexander Humboldt بين دعاة الفكر الحر في القرن التاسع عشر . وقد جمع إلى دراسة الفلسفة دراسة التنجيم والطب والجغرافيا وعلوم الطبيعة ؛ وألف كتاباً سماه نظم القرآن ، تكلم فيه بكلام لطيف ، وكان يتنزه عن التأويل البعيد للقرآن . وكان الحسين بن علي المروزي يجرى عليه صلات دائمة ، فلما أملى كتابه في البحث عن التأويلات قطعها عنه ؛ وكان الجيهاني يجرى عليه صلات أيضاً ، فلما أملى كتاب القرايين والذبايح حرمه إياها ، وكان الحسين قرمطياً والجيهاني ثنويًا . وهالك مثالا من نظر خصوم الجاحظ إليه فيما كتبه ابن قتيبة : « هو آخر المتكلمين ، والمابر على المتقدمين ، وأحسهم للحجة استشارة ، وأشدهم ناعقاً لتنظيم الصغير حتى يعظم وتصغير العظيم حتى يصغر ؛ ويبال به الأفتدار إلى أن يعمل الشيء ونقيضه ، ويحتج بفضل بالسودان على البيضان ، ويحجده يحتج شره للعثمانية على الرافضة وشره للزيدية على العثمانية وأهل السنة ، وشره يُفضل علياً رضي الله عنه وشره يؤخره ؛ ويقول : قال رسول الله صلى عليه وسلم ،

(١) الإرشاد ج ١ ص ١٤١ — ١٤٨ .

ويُتبعه : قال الجازي ، وقال إسماعيل بن غزوان كذا وكذا من العواش . ويجعل
رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أن يذكر في كتاب ذكر فيه ، فكيف في
ورقة أو بعد سطر وسطرين ؟ ويعمل كتاباً يذكر فيه حجج الفصاري على
المسلمين ؛ فإذا صار إلى الرد عليهم تموز في الحجة ، كأنه إنما أراد تنبيههم على
مالا يعرفون وتشكيك الضمّة من المسلمين . وتجدد بقصد في كتبه للمضاحيك
والعبث ؛ يريد بذلك استمالة الأحداث وشرباب النبذ ؛ ويستهزئ من الحديث
استهزاء لا يخفى على أهل العلم ، كذكره كبد الحوت ، وقرن الشيطان ، وذكر
الحجر الأسود ، وأنه كان أبيض فسوده المشركون ، وقد كان يجب أن يبيّنه
المسلمون حين أسلموا ؛ ويذكر الصحيفة التي كان فيها المنزل في الرضاع تحت
سرير عائشة ، فأكلتها الشاة ، وأشياء من أحاديث أهل الكتاب في تنادّم الهيك
والغراب ، ودفن المدهد أُمّه في رأسه ، وتسبيح الضفدع ، وطوق الحمامة ،
وأشباه هذا وهو مع هذا من أكذب الأمة وأضعف لحديث وأنصرم
لباطل^(١) . وقد رُويت عن الممتزلة أقوال أخرى يقشعر لها جلد المسلم الحق
ويجها قلبه ، فيذكر ابن قتيبة أن ثمامة بن أثرس كان ينتقص الإسلام ويرسل
لسانه بما لا يكون من رجل يعرف الله ويؤمن به ، ومن المخطوط منه المشهور
أنه رأى قوماً يتعمّدون يوم الجمعة إلى المسجد تلحفهم قوت الصلاة فقال : انظروا
إلى البقر ! انظروا إلى الحمير ! ثم قال لرجل من سوانه : ما صنع هذا اتسرى
بالناس !^(٢) .

وفي القرن الثالث الهجري كان أهل السنة ينظرون إلى الممتزلة بعين الكراهية
والاحتقار ؛ ثم خرج الأشعري حوالى آخر القرن الثالث على الممتزلة ، بعد أن

(١) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٧١ - ٧٢ طبعة مصر ١٣٢٦ هـ .

(٢) ابن قتيبة ص ٦٠ .

كان منهم ، وبدأ يحاربهم بسلاحهم ؛ وعلى هذا نشأ في القرن الرابع الهجري المذهب الكلاسي الرسمى القائم على العلم والنظر العقل ، وكان مذهب الأشعرى مذهب توفيق ، وذلك شأن كل مذهب رسمى ، ولذلك سمي مذهباً أوسطاً^(١) ؛ وقد حسب الأشعرى أن في قدرته أن يوفق بين مذهب أهل السنة وبين العقل ، وأعلن فيها كتبه تمسكه بمذهب الحنابلة ؛ يقول الأشعرى : « قولنا القى نقول به ، ودعنا القى ندين بها ، التمسك بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وما روى عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث ؛ ونحن بذلك متصمون ؛ وبما كان عليه أحد بن حنبل ، نصر الله وجهه ورفع درجته وأجزل ثوبته ، قالون ، ولن خالف قوله قوله مجاهنون ؛ لأنه الإمام الفاضل والرئيس الكامل القى أبان الله به الحق عند ظهور الضلال »^(٢)

ولكن الحنابلة كانوا يخاصمون الأشعرى^(٣) ، فيقول ابن الجوزى إن الأشعرى ظل معتزلياً دائماً^(٤) ؛ وقد قُدِّرَ لمذهب الأشعرى ما يقدر عادة لغيره من المذاهب التى تميل إلى التوسط والتوفيق بين ما اختلف ؛ فاعترف عنه أم تلاميذ الأشعرى ماثلين إلى رأى المنصوص العقليين ، وأكبر ما نجد ذلك عند الباقلانى المتوفى عام ٥٠٣ هـ - ١٠١٢ م ؛ فإنه أدخل في علم العقائد مسألة الجزء الذى لا يتجزأ ، والخلل ، وغير ذلك من الأشياء الغريبة عنه^(٥) . وكان القاضى

(١) Splitta, Asch'ari, 46 ، وكان أسلاف الأشعرية الأفرىون بين المتكلمين م :
الكلاسي الذين اندمجوا في الأعاصير في القرن الرابع ؛ وكانوا يتكبرون الجبر (مقدس ص ٣٧) .
(٢) Splitta, 183 .

(٣) نفس المصدر ص ١١١ .

(٤) المنظم ص ٧١ ب ، على أن ابن الجوزى إنما قال : إن الأشعرى ظل على مذهب المعتزلة زماناً طويلاً (أربعين سنة) ثم تركه وآثر بمقالة خطبها معائذ الناس . (للترجم)

(٥) Schreier, Or. Konger. Stockholm, I, 1, S. 82 ، خلا من ابن خلدون

(المقدمة ، الفصل الخامس بجم الكلام) ؛ [راجع مقدمة كتبه التمهيد للباقلانى ،
لجنة القاهرة : ١٩٤٧ ص ١٣ وما بعدها - المترجم] .

عبد الجبار بالري (توفي سنة ٤١٥ هـ - ١٠٢٤ م) في ابتداء حاله يذهب في الأصول مذهب الأشعرية ، ثم انتقل إلى خصوصهم - المعتزلة - وإليه انتهت الرئاسة فيهم حتى صار شيخهم وطالم غير مدافع^(١) . وكان صاحب بن عباد قد أحسن إليه وقدمه وولاه القضاء ؛ فلما توفي صاحب قال عبد الجبار : لا أرى القرم عليه ، لأنه مات من غير توبة ظهرت منه ؛ فنسب عبد الجبار إلى قلة الوفاء^(٢) . وزى من هذا أن المعتزلة لا يستحقون كل ما ينسب إليهم من أنهم أصحاب التمسك الحر .

وفي غضون القرن الرابع المجري كان أصحاب مذهب السنة القدماء يحاربون الشيعة الذين صرّوا حدودهم ببغداد ، ويضيقون على متكلمي المعتزلة في سائر البلاد ، حتى تقصوا عليهم العيش ؛ ولكنهم على الرغم من استهوائهم للعامة وإثارتهم لم لم ينجحوا في ذلك إلا قليلا ، ولا نسمع من أئمة هذا الاضطهاد إلا قليلا^(٣) ؛ ولم يكن مذهب الأشعري قد قوى في ذلك العهد بحيث يُعتبر خصما ويُهائم ، فإنه لم ينشر في العراق إلا منذ نحو سنة ٣٨٠ هـ^(٤) ، وعند ذلك بدأت تظهر آثار الاضطهاد له ؛ وقد حاول الحنابلة أن يمنعوا الخطيب البغدادي المتوفى عام ٤٦٣ هـ - ١٠٧١ م من دخول المسجد الجامع ببغداد ، لأنه كان يذهب مذهب الأشعري^(٥) ؛ وكان أكابر الأشاعرة في ذلك العهد يُضطهدون وينفون في أيام طغرل بك . وقرب أواخر القرن الرابع تحاملت الحنابلة على رجل

(١) المعتزلة لابن الرضى ص ٦٦ .

(٢) ابن الأثير ج ٢ ص ٧٧ .

(٣) Zwei besonders charakteristische.... bei Goldziher, ZDMG. 62 S. 8 .

(٤) الخطط للقرن ج ٢ ص ٣٠٨ .

(٥) كان الخطيب البغدادي يذهب على الحنابلة (المنتظم ص ١١٨ ب)

من كبار الأشاعرة ذوى النفوذ ، وهو القشيري المتوفى عام ٥١٤ هـ - ١١٢٠ م ؛
 ووقع بسبب تهيج الحنابلة قتالٌ في الشوارع ، واضطر القشيري إلى ترك
 بغداد^(١) . ومن هذه الحادثة أزعج ابن عساكر مبدأ وقوع الانحراف بين الحنابلة
 والأشاعرة^(٢) . ولم ينتشر مذهب الأشاعرة ، وهو المذهب الكلامي الجديد الذي
 قدّر له أن يصير مذهب جمهور المسلمين إلا انتشاراً بطيئاً في المملكة الإسلامية ؛
 ففي أقصى المشرق كان الماتريدية يناهسون الأشاعرة ، وذلك على الرغم مما بين
 الفريقين من تشابه في أصل المذهب ، وكان لابد للأشاعرة أيضاً أن يذروا
 هجمات الحنابلة الذين كان شيخهم حوالي عام ٤٠٠ هـ - ١٠١٠ م يلعن أبا الحسن
 الأشعري أمام الملاء وينال من الأشاعرة^(٣) ، وأن يقاوموا أيضاً هجمات الكرامية
 الذين تحزّبوا على الأشاعرة ، ورفضوا أمرهم إلى السلطان محمود بن سبكتكين
 مدّعين أن الأشاعرة يعتقدون أن النبي صلى الله عليه وسلم ليس نبياً اليوم وأن
 رسالته انقطعت بموته ، ولم يكن هذا معتقداً للأشاعرة^(٤) .

أما في الغرب فقد انتشر مذهب الأشاعرة من بلد إلى آخر ، فثابت لهم
 سوق في صقلية والقيروان والأندلس ، ثم رق أمرهم والحدّقه رب المالين^(٥) .
 ولم يكن مذهب الأشاعرة معروفاً قط في شمال إفريقيا حتى حمله إليها محمد بن
 تومرت حوالي عام ٥٠٠ هـ - ١١٠٧ م^(٦) .

(١) Goldziher, ZDMG, 62, S. 8.

(٢) Splita. Asch'ari, S. 145.

(٣) طبقات البكي ج ٣ ص ١١٧

(٤) نفس المصدر ج ٣ ص ٥٤ .

(٥) الفصل لابن حزم ج ١ ص ٢٠٤ .

(٦) Goldziher, ZDMG, 41, S. 30 ff

وكانت الحكومة في أوائل القرن الخامس الهجري تتدخل نوعاً من التدخل الرسمي لفض المنازعات المذهبية ، ففي عام ٤٠٨ هـ - ١٠١٧ م أصدر الخليفة القادر كتاباً حذراً للمعتزلة ، فأمرهم بترك الكلام والتدريس والمناظرة في الاعتزال والمقالات المخالفة للإسلام ، وأنذروهم - إن خالفوا أمره - بحلول الفسكال والمعقوبة . وامتنل السلطان محمود في غزوة أسره أمير المؤمنين واستن بسنته في قتل المخالفين ونفيهم وحبسهم ، وأمر بلعنهم على المقابر ، وصار ذلك سنة في الإسلام ^(١) . وصدر في بغداد كتاب آخر سُمي الاعتقاد القادري ، وذلك في سنة ٤٣٣ هـ - ١٠٤١ م وقرئ في الدواوين ، وكتب الفقهاء خطوطهم فيه أن هذا اعتقاد المسلمين ومن خالفه فقد فسق وكفر ، وكان هذا أول اعتقاد رسمي يعلنه الخليفة ^(٢) ، وكان معنى ذلك نهاية تطوره لم الكلام ؛ ويستطيع الرجل الثاقب النظر أن يتبين في كل كلمة من هذا الاعتقاد جرائم المنازعات التي مضت عليها قرون ، وهاك نصه : « على الإنسان أن يعلم أن الله عز وجل وحدة لا شريك له ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد » ، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، ولم يكن له شريك في الملك ، وهو أول لم يرزل ، وآخر لا يزال ، قادر على كل شيء ، غير عاجز عن شيء ، إذا أراد شيئاً قال له : كن ، فيكون ، غني غير محتاج إلى شيء ، لا إله إلا هو الحى القيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم » « يُطِمْ ولا يُطَم » ، لا يستوحش من وحدة ولا يأنس بشيء ، وهو الغنى

(١) النظام ص ١٦٥ ب .

(٢) على أن ما حدث في أيام المأمون من أمر الحق ، وإصدار الكتب بعضها تلوا الجس في النفقة التي يجب أن يحمل لاس عليها ، هو أيضاً اعتقاد رسمي أصدره الخليفة ، وهو أول اعتقاد . (المرجع)

عن كل شيء ، لا تُخلقه الدهورُ والأزمانُ ، وكيف تنبؤه الدهورُ وهو خالقُ
الدهورِ والأزمانِ ، والليل والنهار ، والضوء والظلمة ، والسموات والأرض ،
وما فيها من أنواع الخلق ، والبر والبحر وما فيهما ، وكل شيء حتى أو
سموات أو جناد ؟ كان ربنا وحده لا شيء معه ، ولا مكان يحويه ، فخلق كل
شيء بقدرته ، وخلق العرش لا حاجته إليه ، فاستوى عليه كيف شاء وأراد ،
لا استقرار راحة ، كما يستريح الخلق ؛ وهو مدبر السموات والأرضين ومدبر ما
فيها ومن في البر والبحر ، لا مدبر غيره ، ولا حافظ سواه ، يرزقهم ويؤخرهم
ويماضيهم ويميتهم ويحييهم ؛ والخلق كلهم عاجزون ، اللاتكة والنبيون والمرسلون
والخلق كلهم أجمعون ، وهو القادر بقدرته ، والعالم بلم أزل غير مُستفاد ، وهو
السميع بسمع ، والبصير ببصر ، يعرف صفتيها من نفسه ، لا يبالغ كنهها أحد
من خلقه ، متكلم بكلام ، لا بآلة مخلوقة كالآلة المخلوقين ، لا بوصف إلا بما وصف
به نفسه أو وصفه به نبيه عليه السلام ؛ وكل صفة وصف بها نفسه أو وصفه بها رسوله
فهي صفة حقيقية لا مجازية ؛ ويعلم أن كلام الله تعالى غير مخلوق ، تكلم به تكليماً ،
وأنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم على لسان جبريل بعدما سمعه جبريل منه ، فتلوه
جبريل على محمد ، وتلاه محمد على أصحابه ، وتلاه أصحابه على الأمة ، ولم يصر بتلاوة
الذين مخلوقاً ، لأنه ذلك الكلام بينه الذي تكلم الله به ، فهو غير مخلوق فكل
حال متلو وم محفوظاً ومكتوباً ومسموعاً ؛ ومن قال إنه مخلوق على حال من الأحوال
فهو كافر ، حلال الدم بعد الاستتابة منه ؛ ويعلم أن الإيمان قول وعمل ونية ؛
قول بالأسان ، وعمل بالأركان والجوارح ، وتصديق به ، يزيد وينقص ، يزيد
بالطاعة وينقص بالمعصية ، وهو ذو أجزاء ، أرفع أجزائه لا إله إلا الله ، وأدناها

زناطة الأذى عن الطريق ؛ والحياة شعبة من الإيمان ، والصبر من الإيمان بمنزلة
الرأس من الجسد ؛ والإنسان لا بدري كيف هو مكتوب عند الله ، ولا بماذا يُختم
له ، لذلك نقول إنه مؤمن إن شاء الله ، وأرجو أن يكون مؤمناً ، ولا يضربه
الاستثناء والرجاء ، ولا يكون بهما شاكاً ولا مُستتاباً ، لأنه يريد بذلك ما هو مقصود
عنه من أسر آخرته وخاتمته ؛ وكل شيء يُتَقَرَّبُ به إلى الله تعالى ويُعمل لمخالص
وجهه من أنواع الطاعات فرائضها وسُنَنِها وغَائِلِها فهو كله من الإيمان منسوب إليه ،
ولا يكون الإيمان نهاية أبداً ، لأنه لا نهاية لفضائل ولا للفتن من القرائن أبداً .
ويجب أن نُحِبَّ أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كلهم ، ونعلم أنهم خيرُ الخلق
بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن خَيْرَهم كلهم وأفضَلُهم بعد رسول الله
صلى الله عليه وسلم أبو بكر الصديق ، ثم عمر بن الخطاب ، ثم عثمان بن عفان ، ثم
علي بن أبي طالب ، رضى الله عنهم ، ونشهد لقمشة بالجنة ، ونترحم على أزواج
رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ومن سب عائشة فلاحظ له في الإسلام ، ولا نقول
في معاوية إلا خيراً ، ولا ندخل في شيء شجر بينهم ، ونترحم على جماعتهم ، قال
الله تعالى : « والذين جاءوا من بعدهم يقولون : ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا
بالإيمان ، ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ، ربنا إنا نك رءوف رحيم ^(١) » ، وقال
فيهم « ونزعنا ما في صدورهم من غلٍ ، إخواناً على سُرُرٍ متقابلين ^(٢) » ، ولا يكفر
بترك شيء من القرائن غير الصلاة المكتوبة وحدها ، فإنه من تركها من غير عذر
وهو صحيح فارغ ، حتى يخرج وقت الأخرى فهو كافر ، وإن لم يحدها ، لقول

(١) سورة المشر ، آية ١٠ .

(٢) سورة المجر ، آية ١٧ .

النبى صلى الله عليه وسلم : بين العبد والكفر ترك الصلاة : فن تركها فقد كفر ، ولا يزال كافرا حتى يتندم ويعيدها ، فإن مات قبل أن يعيد لم يصل عليه وحشر مع فرعون وهامان وقارون وأبنت بن خلف . وسائر الأفعال لا يكفر بتركها ، وإن كان يفتق حتى يمجدها ؛ ثم قال : هذا قول أهل السنة والجماعة الذى من تمسك به كان على الحق المبين ، وعلى منهاج الدين والطريق الواضح ورجى به النجاة من النار ودخول الجنة إن شاء الله ، وقال للنبى صلى الله عليه وسلم : الدين النصيحة ، قيل : لمن يا رسول الله ؟ قال : لله ولكتابه ولسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ؛ وقال عليه السلام : أئمة عبد جاءت موعظة من الله تعالى فى دينه فإنها نعمة من الله سقت إليه ، فإن قبلها بشكر ، وإلا كانت حجة عليه من الله تعالى ليزداد بها إنما ويزاد بها من الله سخطا ، جَعَلْنَا الله لآلئهِ شاكرين ولنعماهُ ذاكرين وبالسنة متعصمين ، وغَفَرْنَا لَنَا ولجميع المسلمين^(١) .

وكان تسامح المسلمين فى حياتهم مع اليهود والنصارى ؛ وهو التسامح الذى لم يسمع بمثله فى المصور الوسطى سبباً فى أن لحق بمباحث علم الكلام شئ لم يكن قط من مظاهر المصور الوسطى ، وهو علم مقارنة الملل ؛ ولم تكن نشأة هذا العلم من جانب المتكلمين ؛ ذلك أن النوبختى ، وهو مؤلف أول كتاب له شأن فى الآراء والديانات ، كان من نقلة كتب اليونان إلى لسان العرب^(٢) . وكذلك ألف المسعودى كتابين فى الديانات^(٣) . ولم يكن المسعودى متكلماً ؛ ثم جاء المسيحي

(١) المتنظم ص ١٩٥ ب — ١٩٦ .

(٢) الدهرست ص ١٧٧ ، مروج الذهب ج ١ ص ١٥٦ .

(٣) مروج الذهب ج ١ ص ٢٠٠ — ٢٠١ .

المتوفى عام ٤٢٠ هـ -- ١٠٢٩ م ، وكان من اشتغل في الدواوين ، ومن مؤلفاته كتاب دَرْكُ البَغِيَةِ في وصف الأديان والعبادات ، وهو كتاب مطول على طريقة السبّحي ، ويقع في ثلاثة آلاف وخمسمائة ورقة ؛ وإذن فقد عني هذا المؤلف الأديب العالم بالبحث في الأديان إلى جانب اشتغاله بأمور الدولة ؛ وهذا الكتاب هو الكتاب الوحيد الذي يتصل بعلوم الدين من بين كتب السبّحي ؛ ومرجع عنايته بذلك إلى أن أسرته من حرّان ، ولذلك عني بما كان يعني به الصابئة^(١) .

ثم أقبل على البحث في الملل بعض المتكلمين الميالين إلى معرفة ما غاب عنهم ، فن ذلك كتاب الملل والنحل ، (وقد صار هذا الاسم شائماً بين المؤلفين في هذا الباب) لأبي منصور البغدادي المتوفى عام ٤٢٩ هـ -- ١٠٣٨^(٢) ؛ ثم جاء ابن حزم الأندلسي المتوفى عام ٤٥٦ هـ -- ١٠٦٤ م فألف كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ورد فيه على مختلف المذاهب متحمساً في ذلك للدفاع عن الإسلام ، وفي أوائل القرن الخامس الهجري ألف أبو الريحان البيروني المتوفى عام ٤٤٠ هـ -- ١٠٤٨ م كتابه المسمى « تحقيق ما لا يند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة » ، وجعله كتاب حكاية للمذاهب الهند على وجهها لا كتاب حجاج وجدل ، وذلك لم يناقض الخصوم ، ولم يتحرج من حكاية كلامهم ، وإن باين الحق^(٣) ، فكان هذا الكتاب كتاب بحث على نزيه : وما ينبغي أن لاحظته أن عقيدة مؤرخي النحل كانت في الغالب موضعاً لشكوك الشاكين وطعنهم ؛

(١) القرب لابن سديد ص ٩٦ وما بعدها .

(٢) طبقات السبّحي ج ٣ ص ٢٢٩ .

(٣) كتاب الهند للبيروني طبعة سقاو ص ١ .

وقد نقل ياقوت^(١) عن صاحب تاريخ خوارزم ما اتهم به الشهرستاني^(٢) من
التخبط في الاعتقاد ، والميل إلى الإلحاد لأنه — في زعم مؤرخ خوارزم — مع
وقور فضله وكال عقله أعرض عن نور الشريعة واشتغل بظلمات الفلسفة ، ولم يكن
في مجالس وعظه « قال الله » ولا « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم »
ولا جواب من المسائل الشرعية^(٣) .

(١) معجم البلدان ج ٣ ص ٣٤٣ من الطبعة الأوروبية ، وانظر Goldziher, SWA. 73, S. 559.

(٢) المتوفى عام ٥٤٨ هـ وهو صاحب الكتاب المشهور المسمى الملل والنحل .
(٣) وكتاب الشهرستاني المشهور ، أسمى كتاب الملل والنحل ، خير ما يذكر في باب
علم مقارنة الملل وتاريخها وأصولها عند المسلمين . (الترجمة)

الفصل الرابع عشر

المذاهب الفقهية .

كان القرن الرابع أم نقطة فاصلة في تاريخ التشريع الإسلامى ؛ فيُنَال إنه في هذا القرن وقت التكوين المستقل للتشريع الإسلامى الذى على الاجتهاد المطلق وعلى الحكم بالرأى فى فهم القرآن والحديث^(١) .

ومضى عصر الابتكار فى التشريع ، واعتُبر العلماء الأولون كالمصومين ، وأصبح الفقيه لا يستطيع إصدار حكمه الخاص إلا فى المسائل الصغيرة ؛ وهذا يشبه ما حدث عند اليهود من مجيء الربانيين الذين كان قصاراهم التناقض فى آراء القدماء ، وذلك بعد مضى عهد علماء الكتاب الذين يملكون الكتاب وبحق لهم الاجتهاد .

ولسكن هذا إما هو اعتبار المسألة من وجهة النظر الإسلامية^(٢) . والواقع أنه ظهر فى هذا الميدان الفقهى ما ظهر فى غيره من المادين ، وأهم ما حدث هو تسرب آراء فى التشريع مما كان قبل عهد الإسلام إلى الفقه الإسلامى ، كما حيت من جديد بعض النظريات اليونانية والرومانية القديمة . وكان يمثلها القدماء ، وبخالفهم أصحاب الحديث المتمسكون بالسنة القديمة والذين يقيسون الحياة بمقياس نصوص الوحى والسنة النبوية . ولم يشأ هؤلاء المتمسكون بالقديم

(١) Snouck Hurgronje, RHR, 37, S. 176.

(٢) راجع مثلاً ما كتبه ابن خلدون فى مقدمة من لفظه (الفرج)

أن ينزلوا عن مكانهم بسهولة . فقد كانت لهم الغلبة في إقايين من أم أقاليم
السلطنة الإسلامية وما فارس والشام ؛ وكذلك كانت لأهل الحديث غلبة في
السند ، كما كانت ههذان وأجنادها أصحاب حديث^(١) .

وكان أم المذاهب بين أصحاب الحديث : الحنابلة ، والأوزاعية والثورية^(٢) .
ولم يكن الحنابلة في ذلك — خلافا لما صار إليه الحال فيما بعد — يعتبرون من
جملة الفقهاء ، وفي سنة ٣٠٦ هـ — ٩١٨ م ذكر أصحاب المذاهب فكانوا :
الشافعية والمالكية والثورية أصحاب سفيان الثوري ، والحنفية والداودية^(٣) .
وفي أواخر القرن الرابع كانوا : الحنفية والمالكية والشافعية والداودية^(٤) . ولم
يذكر الحنابلة بين الفقهاء في هاتين المدينتين ؛ ولما توفي محمد بن جرير الطبري
عام ٣١٠ هـ — ٩٢٣ م دُفن بداره ليلاً ، لأن العامة اجتمعت ومنعت من دفنه
نهاراً ؛ وكان ذلك بتأثير الحنابلة ؛ وقد تعصب عليه هؤلاء ، لأنه جمع كتاباً ذكر
فيه اختلاف الفقهاء ، ولم يذكر فيه أحمد بن حنبل ، فسُئل في ذلك فقال : لم
يكن فقيهاً وإنما كان محدثاً^(٥) . ولم ينل الحنابلة الاعتراف بأنهم فقهاء إلا
أخيراً^(٦) . أما مذاهب غيرهم من أصحاب الحديث فلم تستطع البقاء ، في القرن

(١) القدسي ص ١٧٩ ، ٣٩٥ ، ٤٣٩ ، ٤٨١ .

(٢) القهرست لابن النديم ص ٧٧٥ وما بعدها ، والقدسي ص ٣٧ .

(٣) كتاب التاريخ ص ٢٠٧ .

(٤) القدسي ص ٣٧ .

(٥) التنظم لابن الجوزي تحت عام ٣١٠ هـ قلا من ثابت بن سنان ، وابن الأثير ج ٨

ص ٩٨ قلا من سكويه ؛ Wüstenfeld, AGOW, 37, Nr. 80 .

(٦) رجال عام ٥٠٠ هـ كما يقول القزالي (انظر كتاب اختلاف الفقه للحماد بن جرير

الطبري ، طبه ، كرن (Kern) ، ص ١٣٢٠ هـ — ١٩٠٢ م ، ص ١١)

الثالث المبعري غلب المالكية على أصحاب الأوزاعي في الأندلس^(١) . وكان قاضي دمشق المتوفى عام ٣٤٧ هـ — ٩٥٨ م أوزاعي المذهب^(٢) ؛ وكانت للأوزاعية على عهد المقدسي مجلس بجامع دمشق^(٣) . ويرى المقدسي أيضاً أن مذهب الأوزاعي لم ينتشر أكثر من ذلك لأنه كان مُتَطَرِّفاً ، نقل الواردون عليه والناقلون عنه ؛ ولو كان على سبيله الحج لنقل مذهب أهل الشرق والغرب^(٤) ؛ وكذلك يُعَدُّ المقدسي مذهب سفيان الثوري بين المذاهب الفدرسة ، بعد أن كان لهذا المذهب جَلْبَةٌ في أصفهان والدينور^(٥) . وفي سنة ٤٠٥ هـ — ١٠١٤ م توفي أبو بكر عبد الغفار بن عبد الرحمن الدينوري ، ولم يكن بعيداً مُقْتَرِ على مذهب سفيان الثوري فيه ، وهو آخر من أفتى بجامع النصور على مذهب الثوري^(٦) . ولم تكن المذاهب قد استقرت على رأس المائة الثالثة ، رغم ما قيل من أنه في هذا التاريخ كان قد بطل نحو من خمسمائة مذهب^(٧) . وقد أسس داوود الأصفهاني (المتوفى عام ٢٧٠ هـ — ٨٨٣ م) مذهباً كان له شأن ، وهو مذهب الظاهرية ؛ وقد عَظُم شأن هذا المذهب في الشرق في القرن

(١) انظر فيما يتعلق بهذا كتاب Fagnan, Homenaje a Don Fr. Codera, Zaragoza, 1904. S. 108.

(٢) أبو الحسن ج ٢ ص ٣١٧ مائة ليدن

(٣) المقدسي ص ١٧٩ .

(٤) المقدسي ص ١٤٤ .

(٥) المقدسي ص ٣٢ ، ٣٩٥ .

(٦) أبو الحسن طائفة كتابه في ص ١١٠ ، وبقوله أبو الحسن : لعل هذا بالقرن ، وأما بالغرب ، فقام مذهب الثوري بعد هذا التاريخ بضع مئة . (الترجمة)

(٧) كتاب اختلاف الفقهاء للمبصر ص ١٤ ، فلاح كتاب عمدة المارفين ؛ وكانت مذاهب أصحاب الحديث كثيرة جداً ، وربما كان ذلك لسكون ما في الأحاديث من غموض .

الرابع المجري ، وكان بين أتباعه كثير من أصحاب الجاه بربران^(١) . وكان الداودية بفارس يتقلدون الأعمال والنصاء ، وكانت لهم الغلبة ، لأن السلطان عضد الدولة كان يتقلد هذا المذهب^(٢) . وقد أنكر الظاهرية أشد الإنكار ما فعله الثاني من محاولة التوفيق بين المنهج الفقهي القديم الذي انتهى إليه وبين المنهج الجديد^(٣) ؛ وكان مذهب الظاهرية سبباً في وضوح المناهج ، شأن غيره من مذاهب المتطرفين ، وكانت القاعدة الكبرى التي استندوا إليها هي التمسك بحرفية النصوص تمسكاً دقيقاً . ولكن هذه قاعدة عليية ، وسرمان ما أدركوا أن الله ليس علماً نظرياً ، بل هو عمل ؛ ولم يكن الأثر الأكبر لمهجهم القائم على محور البس ، في الفقه ، بل كان في المباحث التاريخية والقانونية . ويرى المقدسي أن أكبر خصال أصحاب داود هي : الكبر ، والحدة ، والكلام ، واليسار^(٤) .

وقد أسس أبو جعفر محمد بن جرير الطبري صاحب التاريخ المتوفى عام ٨٢١٠ - ٩٢٣ م مذهباً خاصاً به ، وقد ظل الناس بعد موته عدة شهور يجمعون للصلاة على قبره ليلاً ونهاراً^(٥) . وكان الطبري صاحب يسنى

(١) Goldziher, Zabrifen S. 110.

(٢) المقدسي ص ١٣٩ .

(٣) مفاتيح العلوم لأخوارزمي ص ٨ ، ولا توجد هنا مطابقة تامة ، وإنما يلعب الظاهرية لإنكار الفياس . (المترجم)

(٤) المقدسي ص ٤١ .

(٥) Wüstenfeld, AGGW, 37, Nr. 80. ؛ ويذكر أبو المحاسن (طبعة كليفلورنيا ص ١٢٦ تحت سنة ٤١٠ هـ - ١٠١٩ م ، وفاة عالم ، كانت يتفقه على مذهب الطبري . ومما صنفه القاضي عبد الله بن محمد بن الحبيب المعروف بالماضي الحنفي ، المثل عام ٣١٧ هـ - ٩٠٨ م ، كتاب في الرد على الطبري (ملحق القضاء لكندی ص ٥٧٧) ؛ انظر أيضاً طبقات السبكي ج ٢ ص ١٣٩ وما يليها .

ابن شجرة وتوفي سنة ٨٣٥٠ - ٩٦١ م ، وقد ناهى التسمين ؛ وكان جريري المذهب ، ثم خالف أستاذه وأصبح يختار لنفسه ، ولا يضع لأحد من الأئمة أصلاً ؛ ومع هذا تقلد قضاء الكوفة^(١) ، وهذا دليل على مرونة الظروف وعدم التعصب بسبب الاختلاف في الرأي ؛ وكذلك كان ابن حربويه الشافى المذهب ، قاضى مصر المتوفى عام ٨٣١٩ - ٩٣١ م بعد أن جاوز المائة ، يختار فى أحكامه ، « وحكم بما لو حكم به غيره ما سكتوا عنه ؛ فلم ينكر عليه أحدٌ ، لأن أبا عبيد (كنية ابن حربويه) كان لا يُطعنُ عليه فى علم ، ولا تلحقه تهمة فى رُشدِهِ ، ولا يحيف فى حكم^(٢) » .

وبالإجمال استقرت المذاهب الفقهية للكبرى فى ذلك العصر وتوطدت أركانها على النحو الذى نجلده اليوم ، إذا استثنينا البلاد التى آل أمرها إلى الشيعة ؛ ولم يبرز مذهب الإمام أحمد خارج العراق إلا فى القرن الرابع الهجرى^(٣) .

وفى هذا القرن فتح مذهب الشافى - وهو أهم المذاهب اليوم - البلاد التى يحتلها اليوم ، وكان أكبر مراكزه مكة والمدينة^(٤) . ويقول السبكي : « وأما بلاد الحجاز فلم تَبْرَحْ أيضاً منذ ظهور مذهب الشافى ، وإلى يومنا هذا ، فى أيدي الشافعية القضاء والخطابة والإمامة بمكة والمدينة ، والناس من خمسمائة وثلاث وستين سنة يخطبون فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

(١) الإرشاد لبأوت ج ٢ ص ١٨ .

(٢) ملحق الكندى ص ٥٢٨ ؛ ولبقات السبكي ج ٢ ص ٣٠١ - ٣٠٢ .

(٣) حسن المحاضرة للسيوطى ج ١ ص ٢٢٨ .

(٤) رسائل الحواري ص ٦٣ ، ولم يقل المقدسى شيئاً فى هذه المسألة .

ويعلمون على مذهب ابن عمه محمد بن إدريس ، يَفْتَنُون في الفجر ، ويمهرون بالتسبية ، ويفردون الإقامة إلى غير ذلك ، وهو صلى الله عليه وسلم حاضرٌ بيسرٍ ويسم ، وفي ذلك أوضح دلائل على أن هذا المذهب صواب عند الله تعالى^(١) . ؛ ولم يكن للشافعي أتباع كثيرون في العراق ، وكان الغالب على قضاء هذا الإقليم وقضائه أصحاب أبي حنيفة^(٢) ، وإن كان قد ولى قضاء القضاة ببغداد أحد الشافعية سنة ٢٣٨ هـ - ٩٤٩ م^(٣) ؛ وقد أفلح الشافعية في التغلب على الحنفية بالمشرق^(٤) ، وكان أكبر حصن لهم في الشام ومصر . وكان أبو زرعة محمد بن عثمان الدمشقي (المتوفى عام ٣٠٢ هـ - ٩١٤ م) أول من ولى قضاء مصر من الشافعية ، وهو أول من أدخل في دمشق مذهب الشافعي وحكم به ، ولم يلبث بعده قضاء مصر ولا قضاء الشام إلا شافعيٌ للمذهب ، بعد أن كان الغالب على أهل دمشق مذهب الأوزاعي^(٥) .

وكان ينافسهم في مصر المالكية الذين استولوا على مصر منذ منتصف القرن الثاني الهجري . وفي سنة ٣٢٦ هـ - ٩٣٨ م كان المالكيين في المسجد الجامع

(١) طبقات السبكي ج ١ ص ١٧٤ .

(٢) المقدسي ص ٢٧ .

(٣) طبقات السبكي ج ٢ ص ٢٤٤ .

(٤) يقول السيوطي في طبقات القضاة : (ص ٣٦ من الطبعة الأوزية) إن الإمام أبا بكر الشافعي الفقيه الشافعي ، المعروف بالتحفال ، المتوفى عام ٢٦٥ هـ - ٩٧٨ م هو الذي نشر دقه الشافعي بها وراء النهر ، ويقول المقدسي (ص ٤٦٨ - ٤٦٩) إن التلبه بكرمان لأصحاب الشافعي .

(٥) ملحق القضاء الكندي ص ٥١٨ ؛ وطبقات السبكي ج ١ ص ١٧٨ ، ص ١٧٩ .
الحاضرة السيوطي ج ١ ص ١٨٦ ؛ ولكن شافعي دمشق ، المتوفى عام ٣٤٧ هـ كان أوزاعي المذهب (أبو الحسن ، طبعة ليدن ج ٢ ص ٣٤٧ ، وطبقات السبكي ج ٢ ص ١٧٤)

خمس عشرة حلقة والشافعيين مثلاً ، ولأصحاب أبي حنيفة ثلاث حلقات فقط^(١) .
وفي عهد المقدسي تولى إمامة مسجد ابن طولون أحد الشافعية لأول مرة ، ولم يقدم
في محراب هذا المسجد إمام قط قبله إلا وهو بتفقه لمالك^(٢) ، وكان معظم
الفقهاء بمصر من أصحاب مالك . ويقول السيوطي إن أبا بكر النعماني المتوفى
عام ٥٣٨٠ - ٩٩٠ م كان إمام المالكية بمصر ، وكانت حلقة في الجامع تدرّس
على سبعة عشر عموداً لكثرة من يحضرها^(٣) . ولماذا اشتدت الدولة الفاطمية في
محاربة المالكية ؟ ففي سنة ٥٣٨١ - ٩٨٩ م مثلاً ضرب رجل بمصر وطيف
به في المدينة ، لأنه وجد عنده كتاب الموطأ لمالك بن أنس^(٤) ؛ ولما زالت
دولة الفاطميين وحلت محلها دولة الأيوبيين ، وممن من الأكراد الشافعية ، أكلوا
انتصار هذا المذهب بإيثارهم للفقهاء الشافعية ؛ ولكن الصيد بقي في الجلة
مالكي المذهب إلى أيامنا ، ولم ينتشر مذهب السني عربياً ، بل من
ذلك ؛ وقد انقسم المالكية والحنفية بلاد المغرب ؛ وكان مذهب الحنفية بفضل
صرونته أكثر ملازمة للحكومة الفاطمية من مذهب مالك ، ولكن لما خرجت
بلاد المغرب من يد الفاطميين سنة ٥٤٤٠ - ١٠٤٨ م لم يقتصر البلاء على
مذهبهم الشيعي فقط بل شمل مذهب الأحناف السنيين الذين كانوا يظنونهم
برعايتهم ، وانتقل المغرب إلى مذهب مالك ، ولا يزال عليه إلى اليوم^(٥) ؛

(١) المغرب لابن سعيد ص ٢٤ .

(٢) المقدسي ص ٢٠٢ - ٢٠٣ .

(٣) - من المحاضرة للسيوطي ج ١ ص ٢١٢ .

(٤) المخطوط للقرطبي ج ٢ ص ٢٤١ .

(٥) مقدمة جولدزهر لكتاب محمد بن تومرت ص ٢٢ .

أما في الأندلس فكانت السيادة المطلقة لمذهب مالك^(١) .

أما في بغداد نفسها فقد كان الحنابلة ، دون سائر أهل السنة ، أكبر من أفاق بال الحكومة ؛ ثم إنهم اشتدوا في تحاربة الشيعة ببغداد ؛ وقد بدوا ببغداد مسجداً ، وجعلوه طريقاً إلى المشاغبة والفتنة^(٢) . ثم عظم أمرهم حتى أخرجوا ببغداد ، واستظهروا بالعميان الذين كانوا يأوون إلى المساجد ، وكانوا مثلاً في عام ٣٢٣ هـ - ٩٣٥ م إذا سر بهم شافعي المذهب أغروا به العميان فيضربونه بعصيهم حتى يكاد يموت^(٣) . ولكنهم أدخروا أشد غضبهم للشيعة ، ولبن خاصهم من المتكلمين ؛ وكان الشافعية أشد الفقهاء قدرة على النظر والشغب ، وهاتان الخصلتان من ضمن الخصال التي وصفهم بها المقدسي^(٤) . والمؤرخ هريرة لاخطأ في هذه المسائل لأن معظم معارفنا عن هذه الحركات مستقاة من مصادر شافعية ؛ ولكن الشافعية كان لا يخلو منهم نزاع فقهي ، وكانوا خصوماً لمن عداهم لا يبدلون عن الخصومة ، على حين كان خصومهم يتصلحون ويبعثون عن طريق الوفاق ؛ على أن المذاهب كانت في الجلة على وفاق ومسألة تامة في القرن الرابع . ومجد العلماء - كالمقدسي - يوصون بترك الخلاف ، ولزوم أحد المذاهب ، وترك الفلوق في الدين ، وكف اللسان عن تمزيق المسلمين^(٥) . ولم يكن الانتقال من مذهب إلى آخر بالأمر السير ؛ فيحكى أن

(١) المقدسي ص ٢٣٦ ، ويقول المقدسي : « أما في الأندلس فذهب مالك وقرأه تافه ، ولم يقولوا : لا نعرف إلا كتاب الله ، ووعظاً مالك ؛ فإن ظهروا على حنن أو شافعي فهو ، فإن عتروا على معتزلي أو شيبي أو نحوهما ربما تلوه » . (المترجم)

(٢) كتاب الوزراء ص ٣٣٥ .

(٣) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٢٩ - ٢٣٠ .

(٤) المقدسي ص ٤١ .

(٥) نفس المصدر ص ٣٦٦ .

أحمد بن فارس ، أكبر القنويين التوفي عام ٣٦٩ هـ - ٩٨٠ م كان شاعياً ،
 فصار مالِكياً وقال : دخلتني الحَمِيَّة لهذا البلد ، يعني الري ، كيف لا يكون فيه
 رجل على مذهب هذا الرجل المقبول القول على جميع الأنسة ^(١) . وقد احتير لإمامة
 مسجد ابن طولون بمصر أحد الشافعية بعد أن كان لا يندم فيه إلا مالكي ؛ وكان
 ذلك لسبب بسيط ، وهو أنه لم يوجد الحبيب منه ^(٢) . ولما سئل القديس عن
 سبب ثقفه لأبي حنيفة ، مع أنه شامي وأهل ناصيته أصحاب حديث يثقون
 لشافعي ، أجاب بأنه استحسن مذهبه لخلال ذكرها ^(٣) . ولم تظهر المنافسة بين
 المذاهب في صورة شديدة إلا في القرن التالي عند ما قويت المذاهب الصغرى ،
 وبقيت المذاهب الكبرى وحدها في ميدان الخلاف ؛ عند ذلك قويت المنافسة ،
 وصار أصحاب المذاهب يستعين بعضهم على بعض بالسلطان ، خصوصاً في
 المشرق ^(٤) .

(١) الإرشاد لياقوت ج ٢ ص ٧ .

(٢) القديس ص ٢٠٣ .

(٣) القديس ص ١٢٧ ، يقول القديس : إن هذه الملال ثلاث : أولها اعتماد أبي حنيفة
 على قول علي رضي الله عنه ، وقال النبي عليه الصلاة والسلام : أنا مدينة العلم وعلى بابها ؛
 وثانيها أن أبا حنيفة كان أقدم الأئمة ، وأقربهم إلى الصحابة ، وأورعهم وأجهدهم ، ولقد رويت
 التوسية بالمشي ؛ والثالثة أن القديس رآه أصاب عياناً في مسألة أخصاً فيها الجيع ، ومن أنه
 كان لا يجوز أخذ الأجرة على القرب . فقال السائل للقديس : دلفت النظر يا مقدس
 واحتطت لفسك . (المرجع)

(٤) انظر نسوس ابن الأثير التي ذكرها سنوك مورجروني ، في (مجلة - تاريخ

الأديان) : Snouck Hurgronje, RHR, 87, S. 178.

الفصل الخامس عشر

القضاة

لم يفكر المسلمون إلا قليلا في المبدأ الذي يقضى بالفصل الأساسى بين السلطتين : القضائية والتنفيذية ، وكان هذا أيضا هو شأن أوروبا المسيحية حتى أحدث المصور . فقد كان النبي هو القاضى الأعلى للمسلمين ، وكذلك كان خليفته عن بعده ، وكان ولاته على البلاد يباشرون هذه السلطة بالنيابة عنه ؛ ثم إن كثرة الواجبات تطلبت الاستعانة ببعض القضاة ، كما يحكى عن الخنثار ، فإنه كان يجلس للقضاء بنفسه ، وقد نشط في ذلك وأحسن ، حتى كثرت عليه الأعمال فاضطر إلى تعيين القضاة^(١) . ولهذا السبب نفسه لم يحدّد اختصاص القاضى بالنسبة لاختصاص الوالى تحديداً دقيقاً . وقد احتفظ الوالى لنفسه بما كان « يعجز عنه القاضى »^(٢) ؛ وإذا لم يقبل الوالى حكم القاضى لم يكن أمام القاضى إلا أن ينصرف عن الحكم ويعتزل أو يجلس فى منزله مضرباً على الأقل^(٣) . ولكن مثل هذا الإهمال لحكم القاضى لم يكن كثير الوقوع ؛ فلم يذكر السكندى صاحب تاريخ القضاة بمصر من أمثلة التصادم بين حكم القاضى وبين الوالى فى مسائل مما يمس الأحوال الشخصية إلا حادثتين طوال القرون الأولى ؛ وكانت إحدى

(١) Wellhausen, Die religiös-politischen Oppositionsparteien im

alten Islam, S. 78.

(٢) الخطط للقرى ج ٢ ص ٢٠٧ .

(٣) القضاة السكندى ص ٢٢٦ — ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ .

حائنين الحادثتين مسألة عامة جداً من حيث المبدأ ؛ وذلك أن امرأة تزوجها رجل ليس من أكفائها ، فقام بعض أوليائها وأنكروا الزواج ، وترافعوا إلى القاضى لينسخ النكاح ، فأبى ؛ فذهبوا إلى الأمير فأمر القاضى بفسخ النكاح ، فأمتنع أيضاً ؛ ثم فرق الأمير بينهما^(١) . ونجد هنا اصطلاحاً بين مبدأين : المبدأ العربى القائم على الأرستقراطية والدم ، ومبدأ الإسلام الديمقراطى الذى يحكم على الناس لا باعتبار الدم بل على قاعدة « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وكان من أثر القضاء على الإدارة الإقطاعية فى عهد العباسيين أن خرج القاضى من سلطان الوالى ، وصار يُعيِّن الخليفة مباشرة أو يُقرُّ تعيينه على الأقل . وكان أبو جعفر النصور أول خليفة وفى قضاء الأمصار من قبله^(٢) . ولما قدم هارون بن عبد الله قاصياً على مصر من قبل النعمان (١٦٨-٢١٨ هـ = ٨١٢-٨٤٣ م) جلس معه صاحب البريد فى مجلسه ، فأخرجه منه ، وقال : هذا مجلس أمير المؤمنين ، ليس يجلس فيه أحد إلا بأمره^(٣) . وظل تعيين القضاء من حق الخليفة حتى فى العصر السعوى ، باعتبار أن القضاء آخر ما يبق من المناصب الهامة ؛ ولما بويج للمستكنى عام ٢٣٣ هـ - ٩٤٤ م ، وجلس على عرش خلافة ، سأل من القضاء وكشف عن أمر الشهود بالحضرة ، فأمر بإسقاط بعضهم وقبول

(١) السكندى من ٣٦٧ ، والنال الكلى من ٤٢١ .

(٢) تاريخ اليعقوبى ، طبعة هوتساج ٢ من ٤٦٨ . وكان عبد الله بن حمزة الحضرمى ، الذى ولّى قضاء مصر فى منهل عام ١٥٥ هـ - ٧٧٢ م ، أول قاضى ولّى مصر من قبل الخليفة (القضاء السكندى من ٢١٨) . وكان أول قاضى قضى بالمدينة من قبل الخليفة هو عبد الله بن عمران التميمى من قبل الخليفة الهيدى (تاريخ اليعقوبى ج ٢ من ٤٨٤) . وأما فيما يتعلق بقضاء الإسلام الأولين الذين يمكن أن الخليفة هو الذى كان يعينهم ، فالظاهر أن حكاياتهم موضوعة ، كما هو الحال فى المطالبات التى يذهب لمر أنه كان يوجهها إلى القضاء والولاية .

(٣) السكندى من ٤٤٤ .

بعضهم ، فامتثل القضاء ما أسره وقال العامة سآخرين : « إلى هنا بلغ سلطاناه
وانتهى في الخلافة أسرُهُ ونهيه »^(١) ؛ وفي سنة ٤٣٤ هـ - ٩٣٥ م سلم الأقبشيد
قضاء مصر إلى أبي بكر بن الحداد ، فألف البعض فيه الأسفار منهم كين ، لأنه
تولى القضاء من قِبَل الأخشيد لا من قِبَل الخليفة^(٢) . وفي سنة ٤٣٩ هـ -
١٠٠٤ م قلد السلطانُ بهاء الدولة النقيبُ أبا أحمد الموسوي والده الشريف الرضي
نقابة العلويين بالعراق وقضاء للقضاء والحجِّ والمظالم ، فلم ينظر في قضاء القضاء
لامتناع الخليفة القادر بالله من الإذن له بذلك ، وهذا مع عظم سلطان بهاء الدولة^(٣) .
ولا يزال من الحقوق القليلة الباقية التي يمتاز بها الخليفة اليوم تعيينه قاضي
القضاء بمصر^(٤) .

وقد عظم شأن القضاء وقوى مركزهم منذ عهد الخلفاء الأولين من بني العباس ؛
فقد كانت العادة أن الولاة يُحضرون القضاء إلى مجالسهم ؛ فلما قَدِمَ محمد بن
مسروق الكندي قاضياً على مصر من قِبَل الرشيد عام ١٧٧ هـ - ٧٩٣ م أرسل
إليه الأميرُ هبْدُ الله بن السَّيِّب يأمره بحضور مجلسه ، فقال : لو كنتُ قد قدمتُ
إليك في هذا لعلت بك وفلت يا كذا وكذا ، فانقطع ذلك عن القضاء من
يومئذ^(٥) . بل نجد أن الآية قد انعكست في القرن الثالث الهجري ، فكان الولاة

(١) مروج الذهب للمصموي ج ٨ ص ٣٧٨ .

(٢) طبقات السبكي ج ٢ ص ١١٤ وما بعدها .

(٣) التنظم لابن الجوزي ص ١٤٩ ب ، وابن الأثير ج ٩ ص ١٢٩ .

(٤) Gotthell, The Cadi, SA der REES, 1908, S. 7, Anm. 3 (ولد بطل

ذلك من عهد كرب) .

(٥) الكندي ص ٣٨٨ ، وقد ذكرت المحاولة أن الوحيدتان اللتان أريد لهما الجمع بين
القضاء والإمرة لرجل واحد ، وهما تنطلقان بالقاضي الأندلسي أسد ، للتوفى عام ٣١٣ هـ ،
وبالقاضي شريك بن عبد الله في عهد المهدي (١٥٨ - ١٥٩ هـ) ؛ كتاب الديون ص ٣٧٢
[والزائد يشير إلى الجزء الذي طبعه من هذا الكتاب دى غوى بليدن سنة ١٨٧١ ، المترجم] .

يحضرون مجلس القاضى فى كل صباح^(١) إلى أيام القاضى ابن حربويه عام ٣٢٩ هـ — ٩٤١ م ، فكان آخر من ركب إليه الأسراء ، لأنه كان لا يقوم للأمير إذا أتاه^(٢) .

وكان هذا القاضى مثلاً أعلى للعدالة ، لا يظن فى حكمه ولا تلحقه نعمة ، وكان لا يؤثر أحداً من ولاية مصر ، بل كان يدعوهم بأسمائهم ؛ ويحكى من تصميته أن مؤنس الخادم ، وهو أكبر أسراء القنطرة ، وكان فى خدمته سبعون أميراً سوى أصحابه ، وكان يُخطب له على جميع المنابر مع الخليفة ، عرض له بمصر مرض ، فأرسل إلى القاضى يطلب شهوداً يشهدون أنه أومى بوقف على سبيل البر ، فقال القاضى : لا أنفل حتى يثبت عندى أن مؤنس حر ، وقال : إن لم يرد على كتاب القنطرة أنه اعتقه ، وإلا فلا أنفل . ولما وصل الكتاب ابن القاضى إلا أن يشهد عدلان أنه كتاب أمير المؤمنين ، هذا ومؤنس أكبر أمراء الإسلام . وكان ابن حربويه مهيباً وافر الحرمة ، لم يره أحد يأكل ولا يشرب ولا يلبس ولا يفل بده ، وإنما يفعل ذلك فى خلوة . ولا رآه أحد يتمخط ولا يهتق ولا يحك جسمه ، ولا يمسح وجهه ؛ وكان إذا ركب لا يلتفت ولا يتحدث مع أحد ، ولا يصلح رداؤه ، وكان عليه من الوقار والحشمة ما يتذاكره

(١) Wüstenfeld, AGOW, 37, Nr. 91. (ولطيات السبكي ج ٢ ص ٣٠٢) .

(للترجم)

(٢) حسن المحاضرة للسيوطى ج ٢ ص ١٠١ ، وملحق الكندى ص ٢٨٨ ؛ ويحكى مثل هذا عن الوزير صاحب بن عباد ، ذلك أنه قصد القاضى أبا السائب ، فتألل فى القيام له ، وتحفز تحملاً ، أراه به ضعف حركته ، فأخذ صاحب بضبه ، وأقامه ، وقال : نعمن القاضى على قضاء حقوق إخوانه ، غلب أبو السائب واعتذر للصاحب ، وتحكى الامة بينهما بين القاضى ورجل آخر ؛ ويقال : إن صاحب اتعاهما لنفسه ، لأنه كان يحب الفخر وانتحال الفضائل (الإرشاد لياقوت ج ٢ ص ٢٣٨) .

أهل بلده ؟ وكان يختار في أحكامه ، ويرى أن من قلد فهو متعصب أو نبي ؛ وحكم بما لو حكم به غير ، ما سكتوا عنه ، فلم يتكرر عليه أحد ، ولم يكن يلحق علمه ظن ، ولا رضاء غيره . وكان لا يهيف في حكم^(١) . وقد اختصم عنده ربيعان ، وكان المدعى عليه قد سبق إليه وجعل نفسه المدعى صاحب الحق ، فضحك خصمه متعجباً ؛ وعند ذلك صاح ابن حروب به صيحة ملأت الدار ، وقال : « مم تضحك ، لا أضحك الله منك ، تضحك في مجلس ، الله مطلع عليك فيه ، ويحك ! تضحك وقاضيك بين الجنة والنار ؟ » فأرهب القاضى الرجل ، ومرض ثلاثة أشهر ، وكان إذا هاده صاحبه يقول له : صيحة القاضى في قلبى إلى الساعة وأحبها تقتلى^(٢) .

وكان القاضى أبو حامد أحمد بن محمد بن أحمد الأسفرائينى قاضى بغداد المتوفى عام ٤٠٦ هـ — ١٠١٥ م رفيع الجاه في الدنيا ؛ وقد وقع من الخليفة ما أوجب أن كتب إليه الشيخ أبو حامد : اعلم أنك لست بقادر على غزلى عن ولايتى التى ولأيتها الله تعالى ، وأنا أقدر أن أكتب إلى خراسان بكلمتين أو ثلاث أعزك عن خلافتك^(٣) .

وعما يدل على رهبة منصب القضاء واحترامه في ذلك العهد أننا نجد الأمراء والوزراء كثيراً ما يساقون إلى السجن ، ولا يحكى مثل ذلك إلا عن قليل من القضاة ، ولم يمت في أثناء السجن إلا قاض واحد ، ولا يعلم أن قاضياً مات في السجن سواه ، وهو القاضى أبو أمية المتوفى عام ٣٠٠ هـ ، وكان أمر هذا القاضى

(١) طبقات السبكي ج ٢ ص ٣٠٢ وما بعدها ، وملحق الكندى ص ٥٢٨ .

(٢) طبقات السبكي ج ٢ ص ٣٠٥ — ٣٠٦ .

(٣) نفس المصدر ج ٢ ص ٢٢٦ وانظر أيضاً Wüstenfeld, AOGW, 37. Nr. 267 .

فريبا ؛ فإنه كان قليل العلم ، وكان يتجرف في البر ببغداد ، فاستقر عنده الوزير ابن القرات أيام محنته ، وقال له : إن وُلِّيت الوزارة فأى شئ تحب أن أصنع بك ؟ فقال : تغلذني شيئا من أعمال السلطان ، قال : وبمك لا يحى منك حامل ولا أمير ولا قائد ولا كاتب ولا صاحب شرطة ، فأبش أذلك ؟ قال : لا أدري ، قال : أذلك القضاء ، قال : قد رضيت . ثم خرج ابن القرات ، وولى الوزارة وأحسن إلى أبي أمية ، وولاه قضاء البصرة وواسط والأهواز ؛ وربما أراد بذلك أن يغيظ الفقهاء ؛ ولكن عنة أبي أمية وتصوّته غطيا على نقصه في العلم ، وكان يتيه على أمير البصرة ، ولا يركب إليه ، حتى ورد على الأمير كتاب مع طائر بنكبة ابن القرات والقبض عليه ، فقبض على أبي أمية وأدخله السجن ؛ فأقام فيه مدة ، ثم مات ^(١) .

على أن دوائر الفقهاء لم تكن من الناحية النظرية ترمى منصب القضاء بعين الرضا ؛ وتجدد الكلام في قبول القضاء وعدم قبوله يمتد حتى إلى القرن الرابع الهجري ، ويقول السمرقندي المتوفى عام ٣٧٥ هـ - ٩٨٥ م : اختلف الفاسر في قبول القضاء : قال بعضهم : لا ينبغي أن يقبل القضاء ، وقال بعضهم : إذا ولى رجل بغير طلب منه فلا بأس بأن يقبل إذا كان يصلح لذلك الأمر ^(٢) . وقد احتج من كره ذلك بأحاديث رويت عن النبي عليه السلام من شأنها أن ترهب القضاة من التعادل منهم ^(٣) .

(١) المنتظم لابن الجوزي ص ٧ ب .

(٢) بيتان السارفين ص ٣٨ .

(٣) من أمثلة ذلك ما ذكره السمرقندي ، عن عائمة رضى الله عنها أن النبي عليه السلام ، قال : « يجباء بالفاضل العدل يوم القيامة فبأن من شدة الحساب ما يود أن لم يكن ائضى بين اثنين » ، ومن أبي هريرة : « من جمل فاضل فمكأنما ذبح بغير سكين » .
(الترجم)

ولما كتب عمرو بن الخطاب إلى عمرو بن العاص أن يجعل كعب بن خنثة على القضاء أرسل إليه عمرو بكتاب أمير المؤمنين ، فقال كعب والله لا يتجيه أن من أمر الجاهلية وما كان فيها من الملكة ، ثم يعود فيها أبداً إذا أنجاه الله منها ، وأبى أن يقبل القضاء^(١) .

وفي سنة ٧٠ هـ - ٦٨٩ م تولى قضاء مصر عبد الرحمن بن حنيفة ، فلما بلغ أباه ذلك قال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، هلك الرجل ، ويرى أنه قال : هلك ابني وأهلك^(٢) .

ولا أعلم كيف كان موقف السحيين الأولين من مسألة القضاء ؛ أما المسلمون فإنهم تمسكوا بالوصية التي جاءت في خطبة الجبل (لأنجيل متى) من عدم التعرض للحكم على الناس .

ويمكن لنا من ورع المسلمين وخوفهم من ولاية القضاء أن أبا قلابة مثلاً دُعي للقضاء ، فهرب من العراق حتى أتى الشام ، فوافق ذلك عزل قاضيه ؛ فهرب واخفى حتى أتى بلاد البصرة ؛ وروى عن سفيان الثوري أنه دعي إلى القضاء ، فهرب إلى البصرة حتى مات وهو متوكل ؛ وروى عن أبي حنيفة أنه ابتلى بالضرب والخبس فلم يقبل حتى مات^(٣) ؛ وقد حكى الطبري أن قوماً من أهل الحديث تحاموا حديث أبي يوسف القاضي من أجل غلبة الرأي عليه مع حجة السلطان وتقلده القضاء^(٤) . وفي عهد الخليفة الهدي أزم قاضي المدينة ولاية

(١) السكندى ص ٣٠٢ .

(٢) السكندى ص ٣١٥ .

(٣) بشأن المارفين للسريدي ص ٣٩ ؛ وتجد أمثلة أخرى في كتاب كشف المحجوب ،

ترجمة فكلسون ص ٩٢ .

(٤) وفيات الأعيان لابن خلكان ترجمة رقم ٨٣٤ من طبعة فمفلد .

القضاء بعد أن أشرف عليه وإلى المدينة بضرب السياط^(١). وكان القاضي شريك قد ولى القضاء حوالى هذا العصر بعد تأبى ، وذهب إلى الصيرفى ليأخذ رزقه ، فضايقه فى النقد فقال له الصيرفى : إلك لم تبع به بزاً ، فقال له شريك : بل والله بعت أكثر من البز ، بعت به دينى^(٢) . بل يحكى عن بعض العلماء أنه أظهر الجنون هرباً من تولى منصب القضاء^(٣) .

وكان الصوفية بنوع خاص يقفون من القضاء الذين يسمونهم علماء الدنيا على طرفى نقيض ، ويقولون : « إن العلماء يحشرون فى زمرة الأنبياء ، والقضاة يحشرون فى زمرة السلاطين » ؛ ويحكى لنا أبو طالب السكى أن إسماعيل بن إسحاق القاضي كان من علماء أهل الدنيا ، ومن سادة الفضلاء وعقلائهم ؛ وكان مؤاخياً لأبى الحسن بن أبى الورد ، وكان هذا من أهل المعرفة ، فلما ولى إسماعيل القضاء هجره ابن أبى الورد ، ثم إنه اضطر إلى أن دخل عليه فى شهادة ، فغضب ابن أبى الورد على كثف إسماعيل القاضي ، وقال : يا إسماعيل ! علم أجلك هذا المجلس لقد كان الجهل خيراً منه ؛ فوضع إسماعيل رداءه على وجهه وبكى حتى بله^(٤) .

وكان الحنفية فيما يتعلق بالقضاء أول من خضع لما اقتضته ظروف الحياة ، وهذا شأنهم بالإجمال فيما عدا ذلك ؛ ويحكى من الفقيه الشافعى ابن خيران التوفى عام ٥٣١٠ هـ — ٩٢٢ م أنه كان يعيب صاحبه ابن سريج على تولى القضاء ،

(١) تاريخ بغداد، 1912، J.R.A.S.، ج ١١ ص ٢٨٦ — ٢٧٧ طبعة مصر ١٩٣١ .

(٢) ابن خلكان ترجمة رقم ٢٩٠ .

(٣) نجد أنه أخرى ذكرها أندروز فى مقاله عن منصب القضاء فى الأحكام السلطانية ،

وذلك فى ج ٤ : J.R.A.S.، 1910، S. 775 .

(٤) قوت القلوب ج ١ ص ١٥٧ طبعة مصر ١٣١٠ هـ .

ويقول له : هذا الأمر لم يكن في أصحابنا ، إنما كان في أصحاب أبي حنيفة . وكان ابن خيران قد امتنع من أولى قضاء خداد ، فوكل الوزير في داره ، وختم الباب بضعة عشر يوماً^(١) . ولكن أبا بكر الرازي المتوفى عام ٣٧٠ هـ — ٩٨٠ م ، وكان إمام أهل الرأي في عصره ، خوطب في أن يلى قضاء القضاة فامتنع وأعيد عليه الخطاب فلم يفعل^(٢) . وكانت المادة حتى أواخر القرن الرابع تقضى إلا قبل أحد منصب القضاء إلا بعد إحجام وتردد .

ولما صُرف أبو عمرو بن عبد الواحد عن قضاء البصرة ، وحل محله أبو الحسن ابن أبي الشوارب وذلك في عام ٣٩٩ هـ — ١٠٠٩ م قال المصنفى الشاعر^(٣) :

عندى حديث ظريفٌ بمثله يُتَغَنَّيُ
مِنْ قاضين يُعزَى هذا ، وذاك يُهْنَى
فذا يقول : اكرهونا وذا يقول : استرحنا .

(١) AGQW, 87, Nr. 81. ، وهكذا وقع لابن سريج ، المتوفى عام ٣٠٦ هـ — ٩١٨ م ؟ فقد أراد الوزير علي بن عيسى أن يولى القضاء ، فامتنع ، فسر عليه بابه ؟ فلما هوب في ذلك ، قال : إنه أراد أن يتساع الناس أن رجلا من أصحاب الشافعي يعامل بمثل هذا لنقد القضاء ، فيصر على الامتناع ، ويتردد في الدنيا . وكان ابن سريج قاضياً على شراز من قبل (انظر لطيفات السبكي ج ٢ ص ٩٢) ، ويؤلف السبكي (ج ٢ ص ٢١٣) أن الوزير كان يقصد من ختم دار ابن خيران أن يقال : إنه كان في زمانه من يوكل به ليلقد القضاء فلا يفعل ؟ ويحكمى السبكي (ج ٢ ص ٢١٤) من ابن زولاق المؤرخ المصري ، المتوفى عام ٣٨٧ هـ — ٩٩٨ م أن الناس كانوا يأتون بأولادهم الصغار ليشاهدوا باب ابن خيران ، وهو سمور ويلولون لهم : انظروا حتى تحدثوا بهذا .

(٢) المتظم لابن الجوزي ص ١١٧ ب .

(٣) نفس المصدر ص ١١٥ ؛ وابن الأثير ج ٩ ص ١٤٩ ؛ وأبو الحسن ، طبعة

كلفورنيا ص ١٠٢ .

وبكذبان جميعاً فن يصدق منا

وقد اختلف هل يأخذ القاضي عن القضاء رزقاً ؟ ويقال إن عمر بن الخطاب منع من ذلك ^(١) . أما الخصاص الفقيه الحنفي المتوفى ع ٢٦١ هـ - ٨٧٤ م فقد حاول أن يثبت جواز أخذ القاضي لرزق من بيت المال مستنداً في ذلك إلى أحاديث نبوية وإلى أمثلة جرت في الصدر الأول ^(٢) .

ولما ولي القضاء بمصر ابن حجية سنة ٨٧٠ - ٦٨٩ م كان رزقه في السنة من القضاء مائتي دينار ، وكان لابن حجية إلى جانب ولاية القضاء القصاص وإدارة بيت المال ؛ وكان رزقه من القصاص ومن إدارة بيت المال أربع مائة دينار ، وكان عطاؤه مائتي دينار ، وكانت جائزته مائتي دينار ، فكان مجموع رزقه في السنة ألف دينار ^(٣) ، وفي سنة ١٣١ هـ - ٧٤٨ م كان رزق قاضي مصر عبد الرحمن بن سالم عشرين ديناراً في الشهر ^(٤) ، ولكن هذا المبلغ كان فيما يظهر لا يكاد يكفي للإنفاق على كتاب القاضي وعلى غير ذلك مما يتطلبه ديوانه ؛ ومع أن القاضي ابن حجية كان يأخذ ألف دينار في كل سنة ، فكان لا يحول عليه الحول وعنده منها شيء يفضل على أهله وإخوانه ^(٥) .

وقد دخل رجل على قاضي القضاة في سنة ٩٠ هـ - ٧٠٩ م وقد تغدّى ،

(١) Gotthell, The Cadi, S. 8.

(٢) كتاب أدب القاضي مخطوط ليدن رقم ٥٥٠ م ١٢٥ .

(٣) الكندي م ٣١٧ .

(٤) الكندي م ٣٥٤ .

(٥) نفس المصدر م ٣١٧ .

فقال : أنتدئى ؟ قال : نعم ، فأنت الجارية بعدس بارد على طبق خوص وكحك وماء ، فقال أبلل ، وكل ، فلم تتركنا الحقوق نشبع من الخير^(١) . وكان القاضى خير بن نعيم مصرى الذى تولى القضاء والقصاص بمصر عام ١٢٠ هـ - ٧٣٨ م يتجبر - إلى جانب منصبه - بالزيت ، فقال له رجل حديث السن من حضرموت كان يلزمه : وأنت أيضاً تتجبر ! يحكى لنا هذا الحضرمى الصنم فيقول : « فضرب (خير بن نعيم) بيده على كفى ، ثم قال انتظر حتى تجوع ببطان غيرك ، قلت فى نفسى كيف يجوع إنسان ببطان غيره ؟ فلما ابتليت بالعيال إذا أنا أجوع ببطانهم^(٢) » .

وكان القاضى أبو خزيمة إبراهيم بن يزيد الرهينى الذى رلى قضاء مصر عام ١٤٤ هـ - ٧٦١ م متحرراً جداً فيما يتعلق برزقه ، « فكان إذا غسل ثيابه أو شهد جنازة أو احتفل بشغل لم يأخذ من رزقه بقدر ما اشتغل ، وقال : إنما أنا عامل للسليق ، فإذا اشتغلت بشئ غير عملهم فلا يحل لى أخذ ما لهم » ؛ « وكان يعمل الأرطان ، كل يوم رستين ، واحداً ينفقه على نفسه وأهله ، وآخر يبيث به إلى إخوانه من هل الإسكندرية ، لكل واحد منهم رسن ، وكان ذلك فى سبيل الله^(٣) » .

وكان أن العباسيين جملوا القاضى منصباً رفيعاً مستقلاً فإنهم رفعوا رزقه أيضاً ، فكان رزق عبد الله بن لميعة الذى رلى القضاء على مصر من قبل للنصور عام ١٥٥ هـ ثلاثين ديناراً فى كل شهر^(٤) ؛ وكان رزق القضاة بن فضالة

(١) نفس المصدر ص ٤٣١ .

(٢) نفس المصدر ص ٣٥٢ .

(٣) السكندى ص ٣٦٢ - ١٤ .

(٤) نفس المصدر ص ٣٦٩ .

قاضى مصر من قبل المهدي ثلاثين ديناراً في كل شهر أيضاً ، وكان يأخذ عسلاً بدل عشرة منها^(١) . أما في مصر المؤمن بما كان فيه من كرم فقد أجرى وإلى مصر على القاضى الفضل بن غانم الذى ولى القضاء عام ١٩٨ هـ مائة وثمانية وستين ديناراً في كل شهر ؛ وكان الفضل أول قاض أجرى عليه هذا الرزق الكبير^(٢) .

ولما تولى مصر عبد الله بن طاهر ، كان مشهوراً بالكرم ، فلقد عيسى بن المنكدر القضاء عام ٢١٢ هـ ؛ ولما عرف أنه مُقِلّ أجرى عليه سبعة دنانير كل يوم ، « فجرت في القضاء إلى اليوم »^(٣) . ويحدثنا السعوى عن إبراهيم بن جابر القاضى أنه كان ببغداد « يعالج الفقر ويتلقاه من خالقه بالرضا ناصراً للفقر على الفنى ، فما مضت أيام حتى لقيته بحجاب من جند قنشرين والمواصم من أرض الشام ، وذلك في سنة ٣٠٩ هـ — ٩٢١ م ، وإذا هو بالصد مما عهدته متولياً القضاء على ما وصفنا ، ناصراً ومشرئفاً لفنى على الفقر ... وقد أخبرت أنه قطع زواجه أربعين ثوباً تسريحاً وقصبا وأشبه ذلك من الثياب على مقراض واحد ، وخلف مالا عظيماً لغيره »^(٤) .

وقد أراد الخليفة الحاكم أن يحول بين القضاة وبين أخذ الأموال بغير حق ، فأمر بأن يُضَعَفَ للحسين بن على بن النعمان رزقه وصلاته وإقطاعاته ، وشرط

(١) نفس المصدر ص ٣٧٧ — ٣٧٨ .

(٢) نفس المصدر ص ٤٢١ ، وفي ص ٤٣٥ أن رزقه كان مائة وثلاثة وستين ديناراً ، وفي ص ٥٠٧ أن المتوكل أجرى على خلقه مثل رزقه .

(٣) نفس المصدر ص ٤٣٥ ؛ وفي نصوص أخرى : أن رزقه غير ذلك ، وعكس البكى (ج ٢ ص ٣٠٢) نقل عن ابن زولاق المتوفى عام ٣٨٢ هـ — ٩٩٨ م أن رزق القاضى ابن حريز الذى عزل عن القضاء سنة ٣١١ هـ — ٩٢٣ م كان مائة وعشرين ديناراً في الشهر .

(٤) صروج الذهب للمسعودى ج ٨ ص ١٨٨ — ١٩٠ .

عليه إلا يتعرض من أموال الرمية لدرم فما فوقه^(١) .

ويعتدنا الرحالة الفارسي ناصر خسرو في القرن الخامس الهجري أن رزق قاضي الآغا بمصر ألف دينار في الشهر^(٢) . ويُذكر في ملحق أخبار القضاة الكندي أن دخل القاضي عبد الحاكم بن سعيد الفارق في السنة كان يزيد على عشرين ألف دينار^(٣) .

وكان القاضي في المشرق يُعطى رزقه من بيت المال^(٤) ، ولكن عندنا من النصوص ما يدل على أنه كان لا يأخذ شيئاً من رزقه ، إما لأنه كان لا يكفيه أو رغبة من رزق القضاة على سبيل اتقاء الشبهة والرغبة في التحرر ؛ ويظهر أن الأمر الأخير هو الحق ، فإن الحسن بن عبد الله (المتوفى عام ٣٦٩ هـ — ٩٧٨ م) لبث على قضاء مدينة سمرقند خمسين عاماً ، ومع أن هذه المدينة كانت مدينة تجارية كبيرة ، فقد كان الحسن يعيش مما يهبه من منسوخاته المشهورة بمجودة خطها^(٥) .

وقد امتنع قاضي المدينة في عهد المهدي أن يأخذ رزقا ، لأنه لم يرد أن يصيب مالا من هذا النصب الذي يكرهه^(٦) .

(١) الكندي ص ٥٩٧ .

(٢) ناصر خسرو ص ١٦١ .

(٣) الكندي ص ٦١٣ ؛ أما ما ذكر في ص ٤٩٩ من أن دخله كان خمسين ألف دينار في السنة ، فيجب أن يؤخذ على أنه ما يحصل عليه بغير حق . ونجد في بيان القرزي (المخط ج ١ ص ٤٠١) نفقات الفاطميين أن رزق قاضي القضاة كان مائة دينار في الشهر .

(٤) كتاب المراج لأبي يوسف ص ١١٥ .

(٥) Huart, Calligr. S. 77 .

(٦) تاريخ بغداد JR. A. S., 1912, S. 54 و ج ١١ ص ٢٧٧ من طبعة القاهرة

ولما ولي قضاء القضاة ببغداد محمد بن صالح بن أم شيبة الهاشمي في سنة ٨٣٦٣ - ٩٧٢ م وكان يفتقه لذلك اشترط عند تولي منصبه شروطاً منها ألا يتناول على القضاء أجراً ، ولا يقبل شفاعاً في فعل مالا يجوز ولا في إثبات حق ، ولا يغير ملبوسه^(١) .

وكان علي بن الحسن التنوخي المتوفى عام ٨٤٤٧ - ١٠٥٥ م قد تقلد قضاء عدة نواح ، وكان دخله كل شهر من القضاء ودار الضرب التي كان يتولاها مع القضاء ستين ديناراً في الشهر^(٢) .

وفي سنة ٨٣٣٤ - ٩٤٥ م كبس الاصوص دار أحد القضاة ببغداد ، وأخذوا جميع ما كان في منزله ولم يكن شيئاً مذكوراً ، لأنه كان مشهوراً بالفقر ؛ وكانوا يقدرون أن لقاضي مالا ، فضربوه ليستخرجوه منه ، فهرب إلى السطوح ورمى بنفسه إلى ما جاوره فسقط فات^(٣) .

وفي سنة ٨٣٥٢ - ٩٦٣ م تقلد أبو بشر عمر بن أكرم القضاء ببغداد ، على ألا يأخذ رزقاً^(٤) .

وكان القاضي أبي الطيب الطبري عمارة وقيس بينه وبين أخيه ، إذا خرج ذلك قعد هذا في البيت ، وإذا خرج هذا احتاج ذلك أن يقعد^(٥) .

(١) ملحق القضاء : ككندی ص ٥٧٣ ، وابن الجوزي في التنظيم ص ١٠٥ ب ، ولذلك حكاية أخرى عند السبكي في طبقاته ج ٣ ص ٨٤ .

(٢) الإرشاد ليالكوت ج ٥ ص ٣٠٢ .

(٣) التنظيم ص ١٧٥ .

(٤) مكوه ج ٦ ص ٢٥٧ .

(٥) ابن خلكان ترجمة رقم ٣٠٦ من طبعة قسنطينة .

وكان أبو بكر محمد بن المظفر الشافعي قاضي قضاء بغداد المتوفى عام ١٠٨١ هـ :
 — ١٠٩٥ م زاهدا ورعا ؛ وقد شرط عند تولي القضاء ألا يأخذ رزقا ؛ وكان له
 كراء بيت قدره من الشهر دينار ونصف ، وكان من ذلك قوته ، وكان له حراسة
 من السكتان وقبض من القطن الخشن ؛ وكان له كيس يحمل فيه فتيق الخبز ،
 فإذا أراد الأكل جعل من الفتيق في قصعته ، ووضع عليه قليلا من الماء
 وأكل منه^(١) .

وكذلك كان أحمد بن يحيى القاضي الأندلسي يختلف إلى غلة كان يبيعها
 بالعمل ليعيش منها^(٢) . ومحدثا بتمان (Petermann) وهو في دمشق عام ١٨٥٢ م :
 « في كل سنة يرسل قاضي جديد من القسطنطينية يختاره شيخ الإسلام ويرسله ؛
 وهو يأخذ نصيبا ثابتا من تركة كل من يموت (قيل لي إنه الريح) ، وهو كثير
 بالطبع) ، ويأخذ نصف المشر من كل قضية يحكم فيها ، وهذا هو المقدار الذي
 يدفعه كل فرد من رعايا الباب العالي عن القضية التي يتقدم بها (ولو خسرها) .
 أما الرعايا الأوربيون فإنهم يدفعون خمس المشر^(٣) » .

وفي سرا كش اليوم يأخذ القضاة ، باعتبارهم عمالا دينيين ، أرزاقهم من
 الخبوس (الأوقاف الخيرية) . ولما كان هذا نادرا فإنهم يتركون لقبول الهدايا
 من المتحايكين إليهم^(٤) .

وفي سنة ١٢٥٠ هـ - ١٢٦١ م تقلد أبو المعبس بن أبي الشوارب قضاء بغداد ،

(١) طبقات البكي ج ٣ ص ٨٤ .

(٢) ابن بشكوال ج ١ ص ٦٠ .

(٣) Petermann, Reisen im Orient, S. 98.

(٤) انظر Revue du monde Musulman, Xlii S. 517.

بعد أن واثق على أن يحمل إلى خزانة الأمير معز الدولة مائتي ألف درهم في كل سنة. وكان هذا القاضى مع مبيع فعله في بيع الصورة مشوّهة^(١) ، وقد أشبهه بالملكان والشهوات والخور^(٢) ؛ ولكن الأمور لم تلبس معه على عادتها ، فقد خلع عليه من دار السلطان وامتنع الخليفة من أن يصل إليه ، ولم يأذن له الخليفة أن يصل إليه في يوم موكب ولا غيره ؛ ثم عزل من منصبه بعد عامين ، وتولى مكانه أبو بشر عمر بن أكتم المتقدم الذكر وأعفى عما كان يحمله ابن أبي الشوارب ، وأمر بالأيض شيئاً من أحكام ابن أبي الشوارب وسجلاته ، لأنه اشترى منصبه شراء^(٣) .

وقد كان القاضى توبة بن عمر الحضرمى التوفى عام ١٢٠ هـ - ٧٣٨ م أول قاض بمصر وضع يده على الأحباس ؛ وإنما كانت الأحباس في أيدي أهلها وأيدي أوصيائهم ، فأراد توبة أن يضع يده عليها حفظاً لها ، فلم يمت حتى صارت الأحباس ديواناً عظيماً^(٤) ؛ وكان القاضى إلى جانب هذا يتولى أموال التيمارى ؛ ومنذ عام ١٢٣ هـ - ٧٥١ م أورد هذا القاضى خير بن نسيم بيت المال وسجل في كل مال منها سجلاً بما يدخل منها وما يخرج^(٥) . وفي سنة ٣٨٩ هـ -

(١) مسكوك ج ٦ ص ٢٤٩ - ٢٥٠ .

(٢) تذكرة ابن خلدون عند أمدرود (في Amedroz, J RAS 1910, s. 789) ؛ وكان الواقع بالملكان من زقاتل القضاة للمروفة (طبعة الدار ج ٢ ص ٢٨٨) ؛ ومن القضاة : من كان مشهوراً ، فخرط ، ومنهم من كان مشهوراً بالأمية (محاضرات الأدباء ج ١ ص ١٢٥ ، والستطرف ج ٢ ص ١٩٩) ؛ وكان يحيى بن أكتم قاضى قضاة المأولون لوطياً مشهوراً ؛ وقد سجل الحضرمى (الديوان ج ٢ ص ١٧٥ من طبعة الفسطاطية) ابن أبي الشوارب قاضى القضاة يمثل هذه الرتبة . وقد ذهب ابن خلدون في مقدمته إلى أن ما اتهم به القاضى يحيى بن أكتم من الميل إلى الملك فليرجع القارىء إلى ذلك إذا أراد .

(٣) مسكوك ج ٦ ص ٢٤٩ ، ٢٥٧ ، وابن الأنبرج ج ٨ ص ٤٠٠ ، ٤٠٧ .

(٤) السكندى ص ٣٤٢ .

(٥) نفس المصدر ص ٣٩٤ .

٩٩٩ م توفي القاضي محمد بن النعمان ، وأُجِدَ عليه من أموال البيهقي ستة وثلاثون ألف دينار ، فأمر الخليفة الحاكم بأمر الله أن تُصادر أمواله ، وأرسل نهد النصراني ، كاتب الوزير ، فاحتاط عليه ، وشرع في البيع رضى سرير الشهود الذين كانت الدائع تحت أيديهم (ولم خيار أهل البلد) إلى أن تحصل نصف الدين ؛ وأمر الحاكم ألا يودع بعد ذلك عند أحد الشهود مال يُقيم ولا غائب ؛ وأُفِرِدَ موضع يوضع فيه المال ويحتم عليه أربعة من الشهود لا يفتح إلا بحضورهم^(١) .

ولم يدخل في اختصاص القاضي النظر في الوارث بصورة نهائية إلا في القرن الرابع الهجري^(٢) ، ثم صار إليه أخيراً الإشراف على سجون البلاد التي يلي قضاءها ، واختص القضاة من ذلك بما سمي « حبوس القضاة » ، وهي الخاصة بمن يحبس لدين عليه ، وذلك في مقابل حبوس المعونة التي يحبس فيها أصحاب الجنائيات . وفي سنة ٤٠٢ هـ - ١٠١١ م أمر آخر الدولة ليلة القطار بتأمل من في حبوس القضاة ، فمن كان محبوساً على دينار إلى عشرة أطلق ، وما كان أكثر من ذلك كُفِّلَ ، وأُخْرِجَ ليمود بعد التعييد ، وأوعز بتسيير من في حبوس المعونة ، فمن صغرت جنائته أطلق ووقت توبته^(٣) .

وكانت عادة المتحاكين أن يتقدموا للقاضي برقاع في الرقعة منها اسم المدعى واسم خصمه وأبيه ؛ وكان الكاتب يأخذ هذه الرقاع عند باب المسجد قبل مجيء القاضي ، ولا يزال يأخذها حتى يحضر القاضي ؛ وإذا كانت الرقاع

(١) ملحق الكندي ص ٣٩٥ .

(٢) انظر الفصل الخامس بالأمور المالية (الفصل الثامن) .

(٣) المنتظم لابن الجوزي ص ١٥٧ ب .

كثيرة لا يقدر القاضي أن يدعو بها كلها في يوم ، فترتها في كل يوم خمسين رقعة أو أكثر من ذلك على قدر طاقته في الجلوس والصبر^(١) .

وكانت جلسات القاضي للحكم علنية ؛ وقد خامم رجل المأمون مرة ، وأذن المأمون للقاضي يحيى بن أكنم في القضاء بينهما في دار الخلافة ؛ فقال القاضي : فإني أبدأ بالعامّة أولاً ليصح المجلس للقضاء ، ثم أمر بفتح الباب وقعد في ناحية من دار الخلافة ، وأذن للعامّة في الدخول ونادى النادى وأخذ الرقاع ودعا بالناس ؛ ثم قضى بين الخليفة وخصمه^(٢) . ومن أجل أن جلسات القضاء كانت علنية ، فقد كان القاضي في أول الأمر يجلس في مكان لا يُمنع أحد من المسلمين من الدخول إليه ، وهو للمسجد الجامع حيث كان يجلس مستنداً إلى أسطوانة من أساطين المسجد^(٣) ؛ وكذلك كان القاضي يجلس أحياناً للقضاء في داره ، ويحكى عن خير بن نعيم الذي تولى قضاء مصر عام ١٢٠ هـ - ٧٣٨ م أنه كان له مجلس يشرف على الطريق على باب داره ، فكان يجلس فيه فيسمع ما يجري بين الخصوم من الكلام^(٤) .

وقد ول قضاء مصر إبراهيم بن الجراح سنة ٢٠٥ هـ - ٩١٩ م ، وقد سخط المصريون عليه ، وكان مُصَلِّاه موضوعاً في المسجد الجامع . فجاء المصريون وألقوه في الطريق ، فجلس للحكم في منزله ، ولم يعد للمسجد الجامع حتى صُرف . ولم يكن هذا القاضي بالمدنوم في أول الأمر ، حتى قدم عليه ابنه من العراق ؛

(١) كتاب أدب القاضي بخطوط مكتبة لندن رقم ٥٥٠ ص ١٩ .

(٢) المحاسن والساوئ للبيهقي طبعة شتال ص ٥٣٢ .

(٣) الأغاني ج ١٠ ص ١٢٣ .

(٤) الكندي ص ٢٥١ .

فأفسد أموره وخدمه وأخذ الرشا من الناس ، استغنى المصريون على القاضى (١) .

ولما ولى القاضى عمرو بن عبد الله قضاء مصر سنة ٢١٧ هـ - ٨٣٢ م جعل مجلسه فى الشتاء فى مقدم المسجد ، واستدير القبة ، وأسند ظهره بمجدار المسجد ، ومنع المصلين أن يقربوا منه ، وباعد كتابه عنه ، وباعد المصوم ، وكان أول من فعل ذلك . واتخذ مجلساً للصيف فى صحن المسجد وأسند ظهره لقائط الغربى (٢) .

وفد رأى أهل السنة بعد انتصارهم حوالى منتصف القرن الثالث الهجرى أن جلوس القاضى فى المسجد ينافى ما يجب لبيوت الله من الحرمة ، فأمر المعتضد سنة ٢٧٩ هـ ألا يقعد القضاء فى المسجد (٣) . ولكن هذا الأمر لم يثمر إلا قليلاً ، فقد كان قاضى القضاء ببغداد حوالى عام ٣٢٠ هـ - ٩٣٢ م يجلس للقضاء فى داره (٤) ؛ أما فى مصر فكان القاضى يجلس للقضاء فى داره أحياناً ، وفى الجامع أحياناً أخرى (٥) .

ولما تولى أبو عمر محمد بن الحسين البساطى (المتوفى عام ٤٠٧ هـ - ١٠١٦ م) قضاء نيسابور أجلس فى مجلس القضاء فى المسجد فى الساعة التى قرئ فيها هذه .

(١) الكندى ص ٤٢٨ .

(٢) نفس المصدر ص ٤٤٣ - ٤٤٤ .

(٣) أبو المحاسن طائفة ليدن ج ٢ ص ٨٧ . [غير أن كلمة قاض فى هذا النص معرفة عن كلمة قاض ، بدليل أن القصاص هم الذين منوا من القنود فى المساجد ؛ وقى النص أيضاً أنه منع معهم أصحاب النجوم ؛ ويؤيد هذا تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٢١٣١ ، ٢١٦٥ من الطبعة الأوربية (عام ٢٧٩ ، ٢٨٤ هـ)] . (الترجم)

(٤) طبقات البكى ج ٢ ص ١٩٤ .

(٥) نفس المصدر ج ٢ ص ١١٤ .

(٦) نفس المصدر ج ٣ ص ٥٩ .

يقول المعري شاكياً حال المدول وهو: فعلام^(١) :

في البدر خُرَابٌ أذراد مَسُومَةٍ وفي الجوامع والأوراق خُرَابٌ
فهؤلاء نَسَتُوا بالمدول أو التجسار واسم أولئك القوم أعرابٌ
ويقول في المدول في موضع آخر^(٢) :

عدول لهم ظلم الضعيف سَجِيَّةٌ يستون أعراب القرى والجمامع
أما في عصر الفاطميين فكان قاضي القضاة بالقاهرة يجلس السبت والثلاثاء
بزيادة جامع عمرو بن العاص على طراحة ومسند حرير . وكان الشهود يجلسون
حواليه يمنة ويسرة بحسب تاريخ عدلتهم ؛ وبين يديه خمسة من الحجاب ، اثنان
بين يديه ، واثنان على باب المقصورة ، وواحد ينفذ الخصوم إليه ؛ وأمامه كرسي
الدواة ، وهي دواة محلاة بالقضة تُحمل إليه من خزائن القصور^(٣) .

وكان المتحاكون إلى القاضي في العصر الأول يسلطون قضيتهم وهم وقوف
بين يديه ، وقد أتى الأمير الأموي عبد الملك بن مروان النصيري إلى القاضي خير
ابن نعيم بنخاص ابن عم له ، فقمط على مفرش القاضي ، فقال له القاضي : قم مع ابن
هلك ، فغضب الأمير ، وقام ولم بنخاص^(٤) .

ثم صار الرسم أن يجلس المختصمون بين يدي القاضي صفًا متساوين .
وقد وقع بين أم المهدي وبين أبي جعفر المنصور خصومة ؛ فقالت لا أرضى
إلا بحكم غوث بن سليمان ، وكان هذا قاصياً على مصر من قبل المهدي ؛ ففعل

(١) Kremer, ZDMO. 30 S. 49 .

(٢) Kremer, ZDMO. 81 S. 478. .

(٣) الخطاط المغربي ج ١ ص ٤٠٣ .

(٤) السكك بن س ٣٤٦ .

إلى العراق لحكم بينهما ، فوكلت أم المهدي عنها وكيلها ، جلس أمام القاضي ،
فطلب القاضي من أمير المؤمنين أن يسأى خصمه في مجالسه فامحط عن فرسه ،
وجلس مع الخصم ؛ وبعد النظر في القضية حكم القاضي لأم المهدي على أمير
للمؤمنين^(١) .

وقد جاء في مصدر أن المأمون شكاه رجل إلى القاضي يحيى بن أكنم ،
فنودي الخليفة ليجلس مع خصمه ، فأقبل ، ومعه غلام يحمل مصلى ، فأمره
القاضي بالجلوس ، فطرح المصلى ليقعد عليه ، فقال له يحيى : يا أمير المؤمنين ! لا تأخذ
على خصمك شرف المجلس ، فطرح الخصم مصلى آخر فجلس عليه^(٢) .

وقد خوسم مولى السيدة زبيدة ، زوجة الرشيد ، ووكيلها إلى القاضي محمد بن
مسروق ؛ فأمر بإحضاره ، فجلس مقرباً ، فأمر به ابن مسروق فبطح وضرب
عشراً^(٣) ؛ هذا مع أنه وكيل السيدة ذات النفوذ العظيم .

وقد تعرض أهل النظر للبحث في جميع الأمور الصغيرة التي قد تؤثر على
عدالة القاضي ؛ هل يجوز للمتخاصمين أن يسلموا على القاضي ؟ إذا سلم عليه أحد
الخصمين فقال : « السلام عليكم » ينبغي للقاضي أن يقول : « وعليكم » ، ولا
يزيد على ذلك شيئاً ، لأن هذا يكفي ؛ أما إن قال : « وعليكم السلام » فإن كلمة
السلام زيادة في الجواب . ولهذا ذهب قوم إلى أنه لا ينبغي للخصوم أن يسلموا
على القاضي^(٤) .

(١) نفس المصدر ص ٣٧٤ — ٣٧٦ .

(٢) الحسن والساوي للبيهقي ص ٣٣٣ .

(٣) السكندی ص ٣٩٧ .

(٤) أدب القاضي مخطوط ليدن رقم ٥٥٠ ص ١٢٢ .

وكذلك شدد أهل العدالة على القاضى فى ألا يؤثر على المتخاصمين أقل تأثير ،
فلا يصح على أحدهما أن يخرج منه الإجابة التى يريد^(١) . وقد كانت هذه
المعاملة اللينة من القضاة لمن يختصم إليهم وهجز القضاة أحيانا عن إلزام أحد
الخصمين بإعطاء المال لصاحبه ، سببا فى أن اخترعت عند أهل الفكاكة بمصر
قصة القاضى النطاح الذى ثبت فى قلنسوته قرنى ثور لينطح بهما المعاند من
المتخاصمين . وقد سمع الخليفة الحاكم بذلك ، فلام القاضى على ما فعل ، فطلب
القاضى من الخليفة أن يجلس وراء الستار فى مجلس القضاء ليرى بنفسه مقدار
بلاد الناس ؛ فحضر الخليفة ، ومثل بين يدى القاضى خصمان يطالب أحدهما
الآخر بمائة دينار ؛ فاعترف الدعى عليه بالدين ، ولكنه طلب أن يدفعه مقتطا ؛
فاقترح القاضى فى أول الأمر أن يدفع عشرة دنانير فى كل شهر ، ولكنه اعترض
فخفف القاضى ذلك إلى خمسة دنانير ، ثم إلى دينارين ، ثم إلى دينار ، ثم نصف
دينار ، فأظهر العجز ؛ وأخيرا سأله القاضى أن يبين ما يستطيع أن يدفعه ، فقال
إنه يدفع ربع دينار فى كل عام ؛ ولكنه شرط أن يبقى خصمه فى السجن ،
لأنه إن أطلق وهجز هو عن أداء ما عليه فربما قتله . عند ذلك سأل الحاكم
القاضى : كم نطحته ؟ فقال : واحدة ، فقال الحاكم : انطحه مرتين ، أو اطحه
مرة وأنا انطحه الأخرى^(٢) .

وكان القاضى يابس الدواد على هيئة عمال من العباس ؛ وكان المفضل بن

(١) فلا يهلك فى وجه أحدهما أو يسارته ، أو يولى إليه بقى دون خصمه فلا ينكسر
قلب أحدهما ويقعد من الحجة تاركا الحق لصاحبه ؛ ويجب عليه أن يذل الضيف حتى يشهد قلبه ،
ويشهد العرب من يولى و الضالفة بحقه ، هذا ولا يجوز له أن يمازح الخصوم ، ولا أن يفعل
ما يبان هيئة القاضى . (لترجم)

قضاة قاضي مصر من قبل المهدي عام ١٦٨ هـ - ٧٨٤ م بضم بجماعة سوداء على قدسوة طويلة^(١). ولما ولي الحارث بن سكين قضاء مصر عام ٢٣٧ هـ - ٨٥١ م طُلب إليه أن يلبس السوداء ، فامتنع خوفاً من أصحابه سطوة السلطان به ، وقالوا له : يقول إليك من موالى بنى أمية ، فأجابهم إلى لباس كساء أسود من الصوف^(٢). وفي غضون القرن الثالث الهجري كانت القلنسوة ، ونسب أيضاً الدنيّة في لغة المستهزئين ، هي لباس القضاة الذي يميزهم ؛ وكانت تلبس مع العليسان^(٣).

ولما صُرف القاضي أحمد التنوخي عن القضاء ، ثم أعيد إليه قال : أحب أن يكون بين الصرف ولقبر فرجة ، ولا أنزل من القلنسوة إلى الحفرة^(٤). وقد شبه أحد الكتاب رجلاً فقد الملاحه فقال مثل قاض بلا دنيّة^(٥). وكان ببغداد في سنة ٣٦٨ هـ - ٩٧٨ م قاض يعرف بأحمد بن سيار ، وكانت له هيئة وجبة مهولة ولحية طويلة ، تقدم إليه امرأتان ادّعت إحداها على الأخرى ، فقال لهنّ : ما تقولين في دعواها ؟ قالت : أفزع ، أريد الله القاضي . قال : بماذا ، قالت : « لحية طولها ذراع ، ووجه طول ذراع ، ودنيّة طولها

(١) الكندي ص ٣٧٨ .

(٢) قص المصدر ص ٤٦٩ . وكان محمد بن بشير قاضي قرطبة في عهد الخليفة الحكم حسن الهيئة نظيف اللبس ، وكان يخرج إلى السجد ويقعد للحكم في إزار مودر وله مغرلة ، (أخبار مجموعة ص ١٢٧ ، البيان المغرب في أخبار المغرب لابن عذارى الراكعي ج ٢ ، ص ٨١ طبعة ليدن) .

(٣) الأغانى ج ١٠ ص ١٢٣ والإرشاد لباقوت ج ١ ص ٢٧٣ ، ج ٦ ص ٢٠٩ ، ورسائل المهذبان ص ١٦٨ ولعل الكندي ص ٥٨٦ .

(٤) الإرشاد لباقوت ج ١ ص ٩٢ .

(٥) كتاب المبررات للشافعي ص ١٨١ .

ذراع ، فأخذتني هيبتها ؛ فوضع القاضي دنيته ، وغطى بكف ليته ، وقال :
قد نقصت ذراعين ، أجيبني من دهنها^(١) .

وكان قضاء الفاطميين يحلون سيفاً^(٢) .

وكان موظفو ديوان قاضي القضاة ببغداد في سنة ٣٣٦ هـ م :

الكتاب ، وقد رُتب له في كل شهر ثلثمائة درهم .

الحاجب ، ورزقه مائة وخمسون درهماً في الشهر .

ومن يعرض الأحكام ، وراتبه في الشهر مائة درهم .

وخازن ديوان الحكم ومن معه من الأهلان ، ولم يتأهله درهم^(٣) .

ومنذ عهد الخليفة المنصور ظهر أكبر ما يستألف للنظر في النظام القضائي ،

وهو إجماع جماعة من الشهود الدائمين أمام القاضي ؛ ويخبرنا الكندي وهو مؤرخ

ثقة ، عن نشأة الشهود ، فيقول : كان القضاة إذا شهد عديم أحد ، وكان

معروفاً بالسلامة ، قبله القاضي ؛ وإن كان غير معروف بها أوقف ، وإن كان

الشاهد مجهولاً لا يعرف شئ عنه جبرانه ، فما ذكره به من خير أو شر حمل

به ؛ حتى كان غوث بن سليمان في خلافة المنصور ، فكان أول من سأل عن

(١) تاريخ الإسلام النعمي في مجلة الجمعية الآسيوية للسكية ، (JRAS, 1911 p. 689)

(٢) Note. ١ ، والطاهر أن قضاء مصر في النصف الأول من القرن الرابع كانوا يلبسون طيلساناً

أزرق (كتاب الديارات ص ١٣١) ؛ وكذلك كان أحد القضاة ببغداد حوالي عام ٤٠٠ هـ

يلبس طيلساناً أزرق (الإرشاد لياقوت ج ٥ ص ٢٦١) ، وكذلك كان المدول يلبسون

فلانس سوداء طويلة ، ويخبر أحد شعراء القرن الرابع من الفلانس ، فيشبه للنسوة القاضي

بأنها غراب نوح لا جناح (انظر محاضرات الأديب ج ١ ص ١٢٩) .

(٣) ملحق الكندي ص ٥٨٩ ، ٥٩٦ ، ٥٩٧ .

(٤) ناس المصراع ص ٧٤ ، وللتختم لابن المؤزى ص ١٠٥ ب .

الشهود بمصر في السر ، وكان سبب ذلك كثرة شهادة الزور في زمن غوث ، وكان من عدل عنده قبله ، ثم يعود الشاهد واحداً من الناس ، ولم يكن أحد يوسم بالشهادة ولا يشار إليه بها^(١) .

ثم إن القاضي المفضل بن فضالة عيّن رجلاً يسمى صاحب المسائل يسأل عن الشهود ويشهد عليهم ؛ وكان المفضل أول من استعمل هذا العامل ، فتحدث الناس أنه كان يرثى من أقوام ليذكروهم بالعدالة^(٢) . ثم جاء القاضي العمري على قضاء مصر من قبل الرشيد سنة ١٨٥ هـ — ٨٠١ م فأنخذ الشهود وجعل أسماء في كتاب ، وهو أول من فعل ذلك ، ودونهم وأسقط سائر الناس ؛ ثم فعلت القضاة ذلك من بعده حتى اليوم^(٣) .

وقد سخر الشعراء من هذا القاضي لأنه أنخذ من أهل المدينة من موالى قريش والأنصار وغيرهم نحواً من مائة شاهد^(٤) ، ثم أسقط نجماً منهم ، وحط عليهم نحواً من ثلاثين رجلاً من ألب عليه من القوس^(٥) .

ومن الشهود نشأت بطاية القاضي ، وقد أجاز القاضي لميعة بن عيسى الذي توفي القضاء بمصر عام ١٩٩ هـ صاحب مسائله أن يجدد السؤال عن القود والوسومين بالشهادة في كل ستة أشهر ، إيقاف من حدثت له جرحه ؛ وأنخذ من بين الشهود قوماً نجماهم بطائته ، وكانوا نحواً من ثلاثين رجلاً^(٦) .

(١) الكندي ص ٣٦١ .

(٢) نفس المصدر ص ٣٨٥ .

(٣) نفس المصدر ص ٣٩١ .

(٤) الكندي ص ٣٩٥ — ٣٩٦ .

(٥) نفس المصدر ص ٤٠٢ .

(٦) نفس المصدر ص ٤٢٢ .

وقد اهتم أحد القضاة ، وهو عيسى بن المذكدر الذى تولى القضاء عام ٨٢١٢ ، بأسر الشهود اهتماماً كبيراً ، فكان يتفكر بالليل ، وينطلى رأسه ، ويمشى فى السبك لبسال عن الشهود^(١) . ونجد فى عهد ولاية القضاء فى كتاب الخراج لقدامة بن جعفر أن التبايأت فى شهادة الشهود والمبالغة فى المسألة عنهم ، والفحص عن وجوه عدالتهم ، والبحث عن حالاتهم ، من أم وإجابات القاضى^(٢) .

وكان عضد الدولة لا يحمل للشفاعات طريقاً ، ويحكى أن مُقَدَّم جيشه شفع فى بعض أبناء المدول ليقدم إلى القاضى ليسمع تزيينته ، ويُتَدَّلَه ، فقال عضد الدولة : « ليس هذا من أشغالك ، إنما الذى يتعلق بك الخطاب فى زيادة قائد ونقل مرتبة جندى وما يتعلق بهم ، وأما الشهادة وقبولها ، فهو إلى القاضى وليس لنا ولا لك الكلام فيه »^(٣)

ويحكى أن الخليفة الحاكم جرى فى هذه المسألة ، مسألة المدول ، على ما عرف عنه من فعل الشيء ثم رفضه ؛ ففي سنة ٥٤٠٥ - ١٠١٤ م سأل جماعة من المصريين أن يؤهلهم للعدالة ، فأذن لهم فى ذلك ، ونشبه بهم غيرهم فى سؤاله ، حتى بلغ عدد المدول ألفاً ومائتين وثلاثاً ؛ فأعلمه قاضى القضاء أن كثيراً منهم لا يستحقون العدالة ، ولا يؤتق بهم فى شهادة ؛ فأذن له ، على حسب عادته ، بتصفهم وإقرار من يرى إقراره منهم^(٤) .

(١) نفس المصدر ص ٤٣٧ .

(٢) مخطوط باريس رقم ٥٩٠٧ ص ١٢ ب .

(٣) ابن الأثير ج ١ ص ١٥٠ .

(٤) يحيى بن سميد مخطوط باريس ص ١١٢ - ب ، وملحق الكندى ص ٦١٢ .

ولما كان هؤلاء المدول يختارهم القاضى ويُعَدُّ لهم بقضه ؛ فإنهم كانوا يُمرَّلون
بمزله أو مونه^(١) .

وكان القاضى إسماعيل بن عبد الواحد ، قاضى مصر سنة ٥٢٢١ هـ - ٩٢٢ م
يلزم الشهود أن يركبوا معه^(٢) .

وحوال ذلك الوقت كان الرسم أن يجلس مع القاضى عند نظره فى القضايا
أربعة شهود ، اثنان يجلسان من يمينه واثنان من يساره^(٣) .

وفى القرن الرابع الهجرى نجد الشهود قد أصبحوا نوعاً من العمال الثابتين ،
بعد أن كانوا فى أول الأمر من حاشية القضاة الأسماء الذين يوثق بشهادتهم . وهذا
مصرن أيضاً هو الذى أوجد هذا النظام الذى لا يزال باقياً إلى اليوم وأصله محل
النظام الإسلامى القديم ، بل نجد أن القاضى الخميسى فى القرن الثالث الهجرى
بالبصرة قد عين فى أثناء ولايته ستة وثلاثين ألف شاهد ، منهم عشرون ألفاً
لم يشهدوا بعد تعيينهم ، فلم يحفظوا بشرف منصبهم^(٤) . وكان ببغداد حوالى
عام ٥٣٠٠ هـ - ٩١٢ م نحو من ألف وثمانمائة شاهد .

(١) الأحكام السلطانية للوردى ص ١٢٨ .

(٢) ملحق الكندى ص ٥٤٥ .

(٣) غنى للصدور ص ٥٥٢ ، ٥٦٠ ، ٥٦٩ ، ٥٩٠ .

(٤) (١) Amedroz, JRAS, 1910, 779 ff. علا من نفوار الحضارة للتونخى مخطوط
باريس . انظر أيضاً رسائل الصابى ص ١٢٢ . ويسى كبير القهود مقصدهم ووجههم
(كندى ص ٥٨٨ ، ٥٨٩) ولد تكلم السورى (موج ج ٨ ص ٢٧٨) ، وهو بمصر
عام ٢٢٢ هـ من القهود ببغداد ، وقد سعى القهود فى خراسان والمغرب فى النصف الثانى
من القرن الرابع بالمدول (بقية الدهر ج ٣ ص ٢٢٣) وسكوه فى مواضع كثيرة ،
وفادوس دوزى ، ومقدمة ابن خلدون ترجمة دى سنان ص ٤٥٦) وقد بلغت هذه التسمية
بمراكش إلى اليوم (انظر مجلة العالم الإسلامى ، Revue du monde musulman
XIII, 517 ff) أما القهود الذين لا يقومون بالقيادة ويرشحون لها فيسبون الموصوفين بالعدالة
(الكندى ص ٤٢٢ ووسائل الصابى ص ١٢٢) .

وفي سنة ٣٢٢ هـ ٩٣٤ م أكثر الشهود التردد على القاضي محمد بن موسى مصر ، فقال لهم : مالك معاش عندنا ، فلا يجيء أحد منكم إلا لحاجة أو شهادة^(١) . فكان الشهود أرادوا أن يكونوا موظفين ، ولكن القاضي كان على الرأي القديم في أمر الشهود .

وفي سنة ٣٨٢ - ٩٩٢ م بلغ عدد الشهود ببغداد ثلاثمائة وثلاثة ، ولكن هذا العدد كان يعتبر كثيراً^(٢) ، وفي أواخر القرن الرابع أنقص قاضي القضاة بالقاهرة عدد الشهود^(٣) .

وقد أوصى الدمشقي^(٤) التاجر الماهر أن يختار في شهادة من يشهدون على العقود التي يريد إمضاها ، فيسأل عنهم إن لم يكن خبيراً بهم ، حتى يعرف المشهورين بالأمانة والزهادة في الدين واليسار فيأخذ بشهاداتهم ؛ وذلك لأنه في أكثر الأوقات يدخل في الشهود من لا يستحق منزلة العدالة لئلا يه أوجاه بعض أقاربه ويلبث مدة ، ثم ربما حدث أمر آخر فينقطع الشاهد وتصبح شهادة الكتاب أو العقد الذي شهد عليه^(٥) .

وكان ينوب عن القاضي شاهد في كل محكمة من المحاكم الخمس الصغرى ليحكم فيها باعتباره قاضياً مستقلاً يحكم في القضايا الصغيرة^(٦) .

(١) الكندي ص ٥٤٩ ، وأمدروز Amedroz, JRAS. 1910, S. 783. علا من رفع الإصر لابن حجر مخطوط باريس رقم ٢١٤٩ ص ١١٢٨ .

(٢) المنتظم لابن الجوزي ص ١٦٣ ، ١٣٤ ، ١١٣٩ Amedroz, JRAS. 1910 S. 779 II . علا من رفع الإصر ، ومن تاريخ القهي .

(٣) رفع الإصر ، ص ٢٩٨ ، الكندي ص ٥٩٦ .

(٤) الإشارة إلى عاين التجارة لأبي الفضل جعفر بن علي الدمشقي ص ٣٥ - ٣٦ من

طبعة مصر ١٣١٨ هـ .

(٥) خطط القرطبي ج ١ ص ٢٢٢ (١) .

وكان الشهود في عصر ابن Lane يجلسون في دهايز المحكمة الكبرى ،
ويقدم الشاكي قضيته لمن يجده غير مشغول منهم ، فيقيدها هذا ، ويأخذ من
تقييدها قرشاً أو أكثر ، فإن كانت القضية صغيرة ، ورضى المدعى عليه بحكم
الشاهد حكم هذا فيها ، وإلا أدخل الخصمين إلى القاضي .

وقد أوصى الخليفة الطائع في عهده لقاضي القضاة^(١) أبي محمد بن معروف ،
وهو الهدى الذي كتبه العاصي في سنة ٣٦٦ هـ - ٩٧٦ م ، وصية متكررة
بالإكثار من تلاوة القرآن وأن يتخذ إماماً يهتدى بأياته ، وبالحفاظ على
الصلوات في أوقاتها ، وبالجلوس للخصوم وفتح بابهم على الصبر ، وأن يوازي
بين الفريقين النحاكين إليه ، ولا يحابي مليئاً على ذي . وأمره بالقصد في
مشيته ، وبالفض من صوته ، وحذف الفضول من لفظه ، وأن يحقق من حركاته
ولقناته ، وبتوق من سائر جنباته وجهاته ، وأن يستصحب كاتباً درياً بالخاضرات
والسجلات ، مأمراً في القضايا والحكومة غير مقصر عن قضاة المستورين
والشهود المقبولين في طهارة ذيله ونقاء جيبه ، وحاجباً سديداً رشيداً لا ينف إلى

(١) يقال إن أول من لقب بهذا اللقب هو أبو يوسف القاضي الرشيد الذي كان يرشح
القضاة قسماً بالبلاد (خطط القرطبي ج ٢ ص ٢٢٢) ؟ وكان يحيى بن أكثم قاضي الأمون
بمن القضاة الذين يراد توليتهم (طيفور في كتاب بغداد ص ٢٥٨) ؟ فكان يألم في
سائل مشكلة من الشريعة ، وكان مما انتحن به رجلاً أنه سأله : ما تقول في رجلين زوج كل
واحد منهما الآخر أمه ، فولد لكل واحد من امرأته ولد ، ما قرابة ما بين الولدين ،
لم يعرفها ، فقال له يحيى : كل واحد من الولدين عم الآخر لأمه (عيون الأخبار طبعة بروكلمان
ص ٨٦) ؟ وكان يعين فارس من كل مذهب من المذاهب الأربعة وذلك بعد عصر الحروب
الصليبية — انظر كتاب زبدة كشف المالك لظاهر يبرس القضاة الثلاثة للثانية ، بعد أن كان القضاة لثانية
مصرأ وشاماً (طبقات السككي ج ٢ ص ١٧٤) .

دينية ، ولا يقبل رشوة ، ولا يلتبس جُملاً ، وخلفاء يرد إليهم ما بعد من العمل عن مقره ، وأمجزه أن يتولى النظر فيه بنفسه ، ويعمل السكك من هذه الطوائف رزقاً يكفيه ويكفيه ، وأن يبحث عن أديان الشهود ويفحص عن أماناتهم ؛ وأمره أن يضبط ما يجرى في عمله من الوقوف الثابتة في ديوان حكمه ، ويحتاط على أموال الأيتام ويسندها إلى أعف وأوثق القوام ؛ وأمره إن ورد عليه أمر يُغيبه الفصل فيه أن يرده إلى كتاب الله ، فإن وجد فيه الحكم والإلزام في السنة ، فإن أدركه وإلا استفتى ذوى الفقه والفهم وأهل الدراية ، وأمره ألا ينقض حكماً حكم به من كان قبله إلا إذا كان خارجاً عن الإجماع وأنكره جميع العلماء ، عند ذلك ينقضه نقضاً شبيحاً وبذيعاً^(١) . وهذا الإجماع الذي ينقده من جماعة العلماء الذين لا يخضعون لسلطة أخرى هو المحكمة الإسلامية العليا ، وهؤلاء العلماء الذين يبدون رأيهم في ميدان الأحكام القضائية الهامة هم الظهير الذي أثبتت فيه الديمقراطية الإسلامية وجودها ، لأن الحكم الأعلى هنا يصدر عن جماعة المسلمين .

وكان في الحياة الديوانية نزعة قوية إلى جعل المناصب وراثية من الأب إلى الابن ؛ وأظهر ما كان ذلك في مناصب القضاء . ففي القرنين الثالث والرابع تقلد قضاء القضاء من أسرة واحدة هي أسرة أبي الشوارب ثمانية رجال بينداد ،

(١) رسائل الصابي ص ١١٥ وما بعدها ؛ وفي أوائل القرن الرابع الهجري حكم القاضي بفسخ زواج بكر كرمت زوجها ، لأن أباهما لم يكن له استأذنها عند العقد ، فأراد الزوج جمع كلمة التفاهة على صحة النكاح ، وأخذ خطوطهم بصحة العقد ، وخشى القاضي من اجتماع كلمة التفاهة على نساد حكمه ، فأشار عليه صديق له أن يسجل حكمه بفسخ النكاح ويعهد بذلك لنفسه على الزوج وعلى التفاهة تبديراً (ملحق الدكتورى ص ٢٦٦) .

هذا عدا ستة عشر قاضياً آخرين من هذه الأسرة^(١) . وظل بنو أبي بردة منذ
حوالى عام ٨٣٢٥ - ٩٣٧ م يتقلدون قضاء القضاة بفارس أجيالاً كثيرة ، كما
ظفروا قروناً كثيرة منذ ٨٤٠٠ هـ قضاء فى غزنة^(٢) . وكذلك توارث آل الديان
قضاء القضاة ثمانين سنة فى عهد الفاطميين بمصر^(٣) .

وقد زادت شوكة هذه الأسر التى توارثت القضاء زيادة هائلة ، وذلك لأن
نظام الاستخلاف فى المناصب ظهر فى القضاء ، كما كان فى مناصب الولاية وحكم
الأقاليم ، ونجد فى صور المحاطبات التى ترجع إلى أوائل القرن الرابع الهجرى أنه كان
بمصر قاض واحد ، وأن فارس والأهواز كانا يُجمعان لقاض واحد^(٤) . وكان
القاضى عبد الجبار قاضى قضاة بنى بويه يجمع بين قضاء الرى وهمدان والجبال^(٥) .
وكان قاضى مكة فى سنة ٨٣٦ - ٩٤٧ م له قضاء مصر وغيرها^(٦) . وفى عهد
الفاطميين كان راجع قضاة الديار المصرية وأجناد الشام وبلاد المغرب لقاض
واحد^(٧) . ونجد فى العهد الذى كتب لقاضى القضاة محمد بن صالح الهاشمى
سنة ٨٣٦٣ - ٩٧٤ م ما يجعله قاضياً على الملكة الإسلامية كلها تقريباً من

(١) انظر ما حكاه Amedroz, 1910, S. 780. فلا من تذكره ابن عدون ، مخطوط

لندن ؛ وانظر أيضاً المنتظم لابن الجوزى ص ١٧٤ ب .

(٢) ابن البلخى JRAS, 1912, S. 141

(٣) Gottheil, a distinguished family of fatimide Cadis in the tenth

century, JAOS, 1906. S. 217 ff.

(٤) كتاب الوزراء ص ١٥٧ .

(٥) الإرشاد ج ٢ ص ٣١٤ .

(٦) مسود الذهب للمصمودي ج ٩ ص ٧٧ .

(٧) صبيح الأمل ج ٣ ص ١٨٦ من طبعة دار الكتب المصرية .

البلاد الواقعة غرب جبال فارس إلى مصر ، وكان تحت حكام في البلاد عهد إليه في تصفح أحوالهم واستشراف ما يجري من الأحكام في سائر النواحي ^(١) .

وكان هناك إلى جانب القضاء النظر في المظالم ، وكان الناظر في المظالم ينظر في كل « حكم يجر منه القاضى ، فينظر فيه من هو أقوى منه يدا » ^(٢) . وكان القضاء والنظر في المظالم بقوانين جنبا لجنب في جميع البلاد الإسلامية ^(٣) . ولكن اختصاص كل من هذين القضائين لم يتحدد تحديدا دقيقا ؛ وكانت المسألة الهامة دائما هي هذه : أيهما أقوى : سلطان الإسلام الذى يمثل القاضى أم السلطة الدنيوية ؟ وكانت الأمور المتعلقة بالحدود تُقدم إلى صاحب المظالم ^(٤) . وكان القاضى أحيانا ينظر في المظالم ، وكان قاضى القضاة بنوع خاص ينظر في المظالم بدار السلطان ^(٥) . وكان الوزير هو الذى يعين أصحاب المظالم في البلاد ^(٦) .

(١) للتنظم ص ١٠٥ ب .

(٢) المخطط القرينى ج ٢ ص ٢٠٧ ، وفى لأنتغ فى هذا المقام مع الشكر يعث

امدروز ، JRAS, 1911, S. 635 ff.

(٣) فيها يتعلق بالتركستان انظر Schwarz, Turistan, 210 . أما فى مصر فى عهد

محمد على فانظر Lane, Manners and Customs... فى أول الفصل التاسع وفيها يتعلق بمكة

انظر Snouck Hurgronje, Mekka, 1, 182

(٤) Amedroz, JRAS, 1911 S. 664

(٥) كان ينظر فى المظالم بمصر لاضى الأغشيد الذى ول القضاء سنة ٨٣٢٤ هـ -

٩٣٦ م ، انظر طبقات البكى ج ٢ ص ١١٣ - ١١٤ . وفى سنة ٨٣٣١ هـ أمر بالانظر

فى المظالم قاض مسئل (الكندى ص ٥٧٧) . وفيها يتعلق ببغداد فى سنة ٨٣٩٤ هـ -

١٠٠٤ م انظر المنتظم ص ١٤٩ ب . وفى الأهواز تولى القاضى التوخى عام ٨٣١٧ هـ -

٩٢٩ م القضاء والمظالم (الإرشاد لباقوت ج ٥ ص ٢٢٢) . وعندما لا ينظر القاضى فى

المظالم كانت ترسل إليه بعض المظالم بعد التوقيع فيها (انظر كتاب الوزراء ص ١٥١) .

(٦) عريب ص ٥٠ ، والإرشاد لباقوت ج ٥ ص ٢٢٢ .

وقد حاول رجال الشرع سترين في القرن الرابع الهجري أن يشرفوا على أعمال الشرطة ؛ ففي سنة ٣٠٦ هـ - ٦٧٨ م أمر الخليفة القادر بالله الطولوني صاحب الشرطة بيفداد بأن يجلس في كل ربيع من الأرباع فقيماً يسمع من الناس ظلاماتهم ، ويفق في مسائلهم حتى لا يجري على أحد ظلم^(١) ؛ فكان هؤلاء الفقهاء بمثابة أصحاب شرطة من الفقهاء يشرفون على أعمال أصحاب الشرطة لتكون مطابقة لفتوهم ، ويقول ركن الدين بيبرس المنصوري الدوادار المتوفى عام ٧٢٥ هـ بعد ذكر هذا النظام : « فصففت هيئة الخاطئة بذلك ، وطبع القصوص والعيارون ، وكثرت الفتن ، وكُبت دور التجرار ، وأخذت ثياب الناس في الطرق للنقطة^(٢) » .

وكذلك نصب الخليفة الحاكم بمصر في الشرطة وفي كل بلد شاهدين من المدول ، وأمر بالإقامة على ذي جريرة أو مرتكب جريمة حدّاً إلا بعد أن يصح عند ذنبك الشاهدين أنه مستوجب لذلك^(٣) . ولكن هاتين المحاوتين لم يكن لهما تأثير ؛ بل نجد أدوية قد انعكست ، فكانت ترفع الظلمات من حكم القضاة إلى أصحاب المظالم ، ولا سيما إلى الوزير الذي يجلس للمظالم ؛ وهذا يخالف النظرية الفقهية . وقد جاء وصف للجمهور المستصرخين إلى الوزير الذي كان يقدم للمظالم بأنهم كانوا « قوماً كثيرين قد صدوا من نواح بعيدة وأقطار شاسعة مُتَجَرِّخِينَ متظلمين ، فهذا من أمير وهذا من عامل ، وهذا من قاض وهذا من متمرز^(٤) » .

(١) مريب ص ٧١ .

(٢) زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة مخطوط باريس رقم ٧٢ ص ١٨٦ .

(٣) يحيى بن سعيد ص ١٢٣ .

(٤) كتاب الوزراء ص ١٠٧ .

وقد حدث حوالى سنة ٤٣٠ هـ - ١٠٣٩ م أن مات رجل بمصر وترك
مالاً جزيلاً ، ولم يخلف سوى بنت واحدة ؛ فورثت جميع المال ، وتناول الناس
لتزويجها لكثرة مالها ، ومن جهاتهم القاضى عبد الحاكم بن سعيد الفارق ؛ فامتنعت
عليه ، فحنق عليها ، وأقام أربعة شهود بأنها سفية ، وأخذ مالها ؛ فهربت إلى
الوزير ، وعرفته بما فعله القاضى ، فعمل محضراً برشدها وأشهد عليه ، وأمر
بإحضار القاضى ؛ فأحضرها ، وأخذ المال منه ، وأنيب ولده عنه فى الأحكام ،
ولزم داره فلم يخرج منها ؛ ثم قبض الوزير على الشهود الذين شهدوا بسفوها ،
فأردعهم السجن ، وخلع على من شهد لها بالرشد^(١) .

قد داه أحد من طلبة صاحبه . مع النظر فى المظالم بكل عناية ، « حتى
استغنى الناس عن القاضى » ، وحق كان القاضى ربما نص فى محله ، ثم انصرف
إلى منزله ولم يتقدم إليه أحد . ولم يكن فى مصر قاضٍ فى ذلك العهد سبع سنين ،
فكان كل شئ يرد إلى الناظر فى المظالم^(٢) .

وكذلك كان كافور الأغشيدى الأسود يجلس للمظالم حتى « كان القاضى
كالهجور عليه لكثرة جلوس كافور للمظالم^(٣) » .

وفى سنة ٨٣٦٩ - ٩٧٩ م وقع نزاع بين صاحب الشرطة وبين القاضى ؛
وذلك أن صاحب الشرطة حكم فى شئ ليس من اختصاصه ، فأنكر القاضى

(١) Amedroz, JRAS, 1910, S. 793. فلا من رفع الأمر مخطوط باريس

رقم ٢١٤٩ ص ١٦٠ ب ؛ انظر أيضا JRAS, 1911, S. 663 ، وملحق الكندى

ص ٤٩٨ - ٤٩٩ ، ص ٦١٣ .

(٢) ملحق الكندى ص ٥١٢ .

(٣) نفس المصدر ص ٥٨٣ . ٥٨٤ .

حكمه ، واعترض فيه ؛ فوقع الوزير بأنه ليس لأحد الفريقين أن يعترض على الآخر فيها حكم به^(١) .

وفي حوالى سنة ٤٠٠ هـ منع القاضى أصحاب الشرطة من التكلم فى الأحكام الشرعية ، ثم أنهى الخليفة النزاع بأن أضاف للقاضى النظر فى المظالم^(٢) .

وكانت الظالمات تقدم مكتوبة^(٣) ، وكان يحدث أحياناً حوالى عام ٨٣٢٠ م ٩٣٢ م أن ترى الرقعة فى ورق المظالم أمام القاضى فى المجلس^(٤) .

وكانت الأحكام تصدر مكتوبة ، وقد جرت بعض هذه التوقيعات بحرى النصوص الأدبية المشهورة التى تؤثر لحسنها ، وهى شبيهة بمواشى فريدريك الأكبر التى كان يكتبها على هامش ما يرفع إليه^(٥) .

وكان يختص فى دار الخلافة يوم فى الأسبوع لسماع المظالم ، وكذلك كان الحال من قبل فى العصر البوزنطى ؛ ففى سنة ٤٩٦ م كان حاكم الرها يجلس كل يوم جمعة فى المكتبة لقضاء^(٦) .

(١) نفس المصدر ص ٥٩١ .

(٢) نفس المصدر ص ٦٠٤ .

(٣) كتاب الوزراء ص ٥٢ ، ١٠٧ . وكان على صاحب ديوان المظالم أن يمدل بجميع الاصل جاساً يُسَرَّس على الخليفة فى كل أسبوع (انظر كتاب المراج لقداسة خطوط باريس ٥٩٠٧ ص ٢٣ ب) .

(٤) كتاب الوزراء ص ٥٢ ، وملحق الكندى ص ٥٤١ .

(٥) ومن هذه التوقيعات توقيعات طاهر التى ذكرها مايفور فى كتاب بغداد ص ٥٠ ب وتوقيعات للأمنون عند اليهيق فى الحسن والساوى ص ٥٣٤ وما بعدها ، وتوقيعات صاحب ابن هباد عند التالى فى خاس الحاس طبعة القاهرة ١٩٠٩ م ص ٧٣ .

Joshua Stylites, S. 89. (٦)

وفي عصر الخليفة المأمون مثلاً خصَّص يوم الأحد للنظر في المظالم^(١) .
 وكان أحمد بن طولون بمصر يجلس لذلك يومين في الأسبوع^(٢) .
 وكان الأخشيدي يجلس المظالم بنفسه كل يوم أربعاء^(٣) ؛ وبعده كان كافور
 يجلس كل سبت ، ويحضر عنده الوزير وسائر الفقهاء والقضاة والشهود
 ووجوه البلد^(٤) .

وأول من جلس من الخلفاء المهدي وآخرهم المهدي (٢٥٥ - ٢٥٦ هـ
 = ٨٦٨ - ٨٦٩ م)^(٥) . وكان المهدي يجلس المظالم وينظر فيها بنفسه إليه
 العام والخاص ، وقد بنى قبة لها أربعة أبواب كان يجلس فيها وسماها قبة المظالم ؛
 وكان نقيّاً ، فأمر بالعروف ونهى عن المنكر . وكان يحضر كل جمعة إلى المسجد
 الجامع فيخطب الناس ويؤمّ بهم^(٦) . وكان إذا جلس للنظام أمر بأن توضع
 كواوين الفحم في الأروقة والمنازل عند تحريك البرد ؛ فإذا جلس المتظلم « أمر بأن
 يَدْفَأَ ويجلس ليسكن وينوب إلى عنه ، ويتذكر حاجته ، ثم يدنيه ، ويسمع
 عنه ، ويقول : متى يلحق المتظلم بحجته إذا لم يُقْتَلْ به هذا ، وقد تداخلته رهبة
 الخليفة والمُعدِّد ؟ »^(٧) .

(١) الأحكام السلطانية المأوردى ص ١٤٢ طبعة إنجر (Eger) .

(٢) المساط القرينى ج ٢ ص ٢٠٧ .

(٣) للشرب لابن سعيد ص ٣٩ .

(٤) ملحق الكندي ص ٥٧٧ ، والقرينى ج ٢ ص ٢٠٧ .

(٥) القرينى خمس النسخ تلامن المأوردى ، ويذكر هنا أن الأخشيدي وأبيه كانا يجلسان
 المظالم يوم السبت ، واللمعة التاريخية التي ذكرها القرينى مأخوذة من الأحكام السلطانية
 ص ١٤٨ والصفحات التالية .

(٦) مروج الذهب للمأوردى ج ٨ ص ٢ .

(٧) المحاسن والمساوى لابن أبي عمير ص ٥٧٧ - ٥٧٨ .

وكان مما وعد به الخليفة القاهر ، وهو يطلب الخلافة ، أن يقدم للنظر في
المظالم بنفسه^(١) .

وفي عهد الخليفة المعتضد قام مقام الخليفة في النظر في مظالم العامة الوزير
عبيد الله بن سليمان ، وناب عنه القائد بدر في النظر في مظالم الخاصة ؛ وكان يوم
المظالم يوم الجمعة^(٢) . ولكننا نجد الوزير في أوائل القرن الرابع يجلس المظالم يوم
الثلاثاء ، وكان أكثر الكتاب يحضرون مجلسه^(٣) .

وفي سنة ٣٠٦ هـ - ٩١٨ م جلست المظالم تهرمانة لأمر القنديل
تسمى غل^(٤) .

ولما كان النظر في المظالم غير مقيّد بتدقيقات الفقهاء ، فقد كان صاحب
المظالم أكثر حرية من القاضي . وقد بين الماوردي بما له من قدرة على
الإحصاء وبيان الفروق أن الفرق بين نظر المظالم ونظر القضاء من عشرة أوجه :
أهمها أن لنظر المظالم من فضل الهيبة وقوة اليد ما ليس للقضاء بكف الخصوم عن
التجاحد ومنع الظلمة من التغالب والتجاذب ، وأنه يستعمل من الإرهاب ومعرفة
الأمارات والشواهد ما يصل به إلى معرفة الحق من المثل ، وأنه يستطيع رد

(١) Amedroz, JRAS, 1911, s. 657 ، وابن الأثير ج ٨ ص ١٩٣ .

(٢) كتاب الوزراء ص ٢٢ .

(٣) نفس المصدر ص ٦٦ .

(٤) مريب ص ٧١ ؛ وأبو الحسن - ليلة إيدن ج ٢ ص ٢٠٣ ؛ وقد اختلف في الرأي :
هل تقضى ؟ فقال أبو حنيفة يجوز أن تقضى فيما تسمع فيه شهادتها ، وأغلب العلماء على أنها
لا تقضى ، وشذ الطبري المتوفى عام ٣١٠ هـ لجوز القضاء على جميع الأحكام (الماوردي
ص ١٠٧ - ١٠٨) ، ثم اشترط فيما بعد في القاضي أن يكون ذكراً ، أما في النظر في
المظالم فلم يشترط ذلك .

المحسوم إذا أعضلوا إلى ساطة الأمناء ، ليفصلوا التنازع بينهم صلحاً عن تراخٍ ،
وليس للقاضي ذلك إلا بعد رضا المحصنين بالرد ، وأنه يجوز له إخلاف الشهود
عند إيجابه بهم والاستكثار من عددهم ليزول عنه الشك ، وأنه يجوز له أن
يبتدئ باستدعاء الشهود وسؤالهم عما عندهم ؛ وعادة القضاة تكليف المدعى إحضار
بيئته ، ولا يسمون البيئته إلا بعد سؤاله^(١) . ولكن هذا كله لا يسدو الكلام
النظري ، وكان يعمل في كل بلد بحسب قانونها وعاداتها . وكانت الوسائل القديمة
التي أثبتت التجربة قيمتها كأضرب مثلاً منتشرة ، وإن كانت محرمة على
القاضي^(٢) .

(١) الأحكام السلطانية للماوردي ص ١٤١ - ١٤٢ .

(٢) انظر الفصل الخامس بالأخلاق والعادات (الفصل العشرون) -

الفصل السادس عشر

علم اللغة

فتح القرن الرابع الهجرى فتحاً جديداً فى كل من الناحيتين الرئيسيتين لعلوم اللغة العربية ، وهما : النحو ، وعمل اللغويين . وقد تخلص علم اللغة ، كما تخلص علم الكلام من طريقة الفقهاء ومناهجهم حتى من الناحية الشكلية ؛ ويصف السبولى طريقة علماء اللغة المتقدمين فى تعليمهم فيقول : « وظائف الحفاظ فى اللغة أربعة ، أحدها — وهى العليا — الإملاء ، كما أن الحفاظ من أهل الحديث أعظم وظائفهم الإملاء ... وطريقتهم فى الإملاء كطريقة المحدثين سواء : يكتب المتعلم أول القائمة : بحسب أملاء شيخنا فلان بجامع كذا فى يوم كذا ، ويذكر التاريخ ؛ ثم يورد المولى بإسناده كلاماً عن العرب والقصصاء فيه غريبٌ يحتاج إلى التفسير ، ثم يفسره ، ويورد من أشعار العرب وغيرها بأسانيد ، ومن القوائد القوية بإسناد وغير إسناد ما يختاره ؛ وقد كان هذا فى الصدر الأول قاصياً كثيراً ، ثم مات الحفاظ وانقطع إملاء اللغة من دهر مديد واستمر إملاء الحديث ... وآخر من علمته أملى على طريقة القويين أبو القاسم الزجاجي ، له أمال كثيرة فى مجلد ضخم ؛ وكانت وفاته سنة تسع وثلاثين وثلثمائة ولم يمتح على أمال لأحد بعده » (١)

كان هؤلاء العلماء المتقدمون يضمون معارفهم بعضها إلى جانب بعض ، مفككة لا رباط بينها ، وكان اهتمامهم ينصب على الجزئيات : على حادثة

(١) الزهر السبولى ج ٢ ص ١٩٩ من طبعة القاهرة سنة ١٣٢٥ هـ .

واحدة ، أو صورة من صور التعبير واحدة ، أو كلمة واحدة ، كما نجد ذلك في كتاب البرزخ (المتوفى عام ٨٢٨٥ - ٨٩٨ م) ، وفي كتاب القائل (المتوفى سنة ٨٣٥١ - ٩٦٧ م) وفي كتب مؤلفة من علوم اللغة ومن القصص والتاريخ ، وكان أبو عمر محمد بن عبد الواحد اللخوي ، المعروف بفلام ثعلب (توفى سنة ٨٣٤٥ - ٩٥٦ م) يحمل كلامه بحسب أسئلة الحاضرين فمثلاً كان يسأله بعضهم : أيها الشيخ ما القنطرة عند العرب ^(١) ؟ .

أما أئمة اللغة في القرن الرابع الهجري فقد شعروا بالحاجة إلى منهج يسيرون عليه ، وإلى تناول مادة بحثهم على طريقة منظمة . وقد كان لمعرفة العرب بعلوم اليونان اللسانية أثر كبير في ذلك . وكان البحث يدور في مجلس عضد الدولة (المتوفى عام ٨٣٧١ - ٩٨١ م) حول الفرق بين النحو العربي والنحو اليوناني ، وأصل استنباطهما ؛ وقد ميز أبو سليمان السجستاني النزعة الجديدة في النحو بأن قال : نحو العرب فطرة ، ونحونا فطنة ^(٢) . وإذا وجدنا ابن فارس (المتوفى عام ٨٣٩٥ - ١٠٠٥ م) يؤلف لأول مرة « مقدمة في النحو » فينبغي ألا نرى في هذا سوى وليد اللقدمات (إيساغوجي) التي كتبها علماء اللغة اليونان .

وأكبر مانع على أيدي علماء اللغة هو تحديد معاني الكلمات وعمل المراجع ؛ ونجد هنا حداً واضحاً يفصل بين مهدين وطريقتين ؛ وكان حزة الأصمعي (المتوفى بين ٨٣٥٠ ، ٨٣٦٠ = ٩٦١ ، ٩٧٠ م) خاتمة اللغويين القدماء الذين كانت كتبهم لا تشمل إلا على عبارات الخطباء والبلغاء والذين ألفوا كتباً من الترادف وأخرى يستعين بها الخطباء في الخطابة ؛ ففي كتاب الموازنة مثلاً ذكر أرمائة

(١) المنظم ص ١١٥ ، وليس في النص ما يدل على أن هذه كانت تاريخية . (المترجم)

(٢) إخبار العلماء بأخبار الحكماء : ٢٨١ . في اللغة الأوربية .

كلمة في معنى « الشق » ، وكذلك جمع في كتاب الأمثال أكثر ما يعرض في لغة الخطباء من عبارات المفاضلة من نحو أبيض من الثلج وأجشع من الفيل ، وقد كان يجمعه وافيًا ، بحيث لم يضيف علماء القرون التالية شيئًا إليها ؛ وكان سلفه قد جمع من هذه العبارات ثمانية وتسعين فجمع هو ألفا وثمانمائة ، ولم يفعل الميداني (المتوفى عام ٥١٨ هـ - ١١٢٤ م) أكثر من نقل ما كتبه حمزة ، واستطاع أن يزيد على كل فصل مثلاً واحداً أو مثليين أو أربعة على الأكثر . وكذلك أخذ الميداني كل للشروح عن سلفه^(١) . وفيما يتعاقب بالأمثال الخالصة نجد أن أكبر كتاب هو الذي ألفه في القرن الرابع الحسب العسكري (المتوفى سنة ٣٩٥ هـ - ١٠٠٥ م) . على أن المدة الجديدة أظهرت بعد جيل ما كانت تُعفى ، ويتجلى ذلك في كتاب الصحاح للجوهري (المتوفى عام ٣٩٢ هـ - ١٠٠١ م) . وتدل كل مقارنة لهذا المعجم بالمعجم الكبير الذي ألفه ابن دريد (المتوفى عام ٣٢١ هـ - ٩٣٣ م) على مقدار التقدم في النهج وفي الوضوح . ويقول ابن فارس المتوفى (عام ٣٩٥ هـ - ١٠٠٥ م) في مقدمة معجمه للسمي بالجميل : « والقصود من كتابنا هذا من أوله إلى آخره التقريب والإبانة عما اختلف من حروف العربية فكان كلاماً^(٢) » ؛ وكان شأن الجوهري عظيماً حتى إن الكتب الكثيرة أتت في الطعن فيه والدفاع عنه^(٣) ، بل نجد (السيوطي المتوفى عام ٩١١ هـ - ١٥٠٥ م) قد ألف بمكة في الدفاع عن الجوهري كتاب « انظر الجوهري » ؛ في رد خيال الجوهري ، وكتاب السكر على عبد البر . وكان السيوطي قاسياً بنوع خاص على الجوهري

(١) . Mittwoch, MSOS, 19 0, S. 148 f. (٢) .

Goldziher. Beitr. Zur Gesch. d. Sprachgelehrsamkeit bei den Arabern, SWA. phil. hist. Kl. 87, S. 518.

Goldziher, SWA, 72, S. 587 : Zur Qasbali Literatur. (٣) .

معاصره (المتوفى عام ٨٨٩ هـ - ١٤٨٤) ؛ فقد أحشى في الكلام عليه وأتى فيه من الازدراء وإساءة الأدب ما يستحق التعزير عليه^(١) .

وكل المعاجم التي عملت بعد الجوهري هي أشبه بتوسيع وشرح لقاموسه ، وهنا نجد أيضاً - أعني في علم اللغة - نهاية عهد قديم وبداية عهد جديد بقي أثره قروناً متطاولة .

وكذلك ظهرت في القرن الرابع دراسة جذية للاشتقاق اللغوي ، وبقيت عصرًا طويلا ، وكان أستاذ هذه الدراسة ابن جنيّ الموصل (المتوفى عام ٨٩٢ هـ - ١٠٠٢ م) . وكانت أمه جارية رومية ، وهو الذي ينسب إليه ابتداء مبحث جديد في علم اللغة ، وهو المسمى بالاشتقاق الأكبر^(٢) ، وهو البحث الذي لا يزالنا يؤثر نوره إلى اليوم ، والذي يختص بمادة الكلمة دون هيتها ؛ ولم يكن لهذا اللغة من العرب إنتاج أعظم من هذا .

وبقيت لغة التخاطب الدارجة إلى جانب لغة الكتابة ؛ وكان الفرق بينهما كبيرا ، حتى نجد المؤرخين يذكرون مع العجب أن يكون في بغداد في القرن الثالث الهجري من يستطيع الكلام الصحيح من غير تكلف للإعراب ، بل كان ذلك له كالطبع^(٣) .

(١) طبقات الفسرين للسيوطي ص ٢٤ - ٢٥ من إضافات الناشر الأوروبي .

(٢) Goldziher, SWA, 67, S. 250 نقلا من الزهر السيوطي (ج ١ ص ١٦٤) .

وانظر ج ١ ص ٢٠١ من طبعة مصر سنة ١٣٢٥ هـ . وفي الكتاب الثاني (الفصل الثلاثين) من كتاب الخصائص تناول ابن جني الكلام في الاشتقاق الأكبر (انظر O. Rescher, Studien über Ibn Ginni, ZA, 1909, S. 20) .

(٣) مسودج الذهب ج ٨ ص ١٣١ .

وكان ما ظهر في الأدب من فناية بالعامّة وبجزائهم مما جعل علماء اللغة يهتمون
 بدراسة لغة العامّة ، وما يعرض فيها من خطأ ، فألف أبو بكر محمد بن الحسن
 الزبيدي الأندلسي (المتوفى عام ٣٣٠ هـ - ٩٤١ م) كتاباً في لحن العامّة ، ثم
 ألف ابن خالويه (المتوفى عام ٣٧٠ هـ - ٩٨٠ م) بحلب كتاباً ليس
 في كلام العرب^(١) . أما ما ترك علماء اللغة وخصوصاً الحريري فهو موضوع
 لبحث جديد .

(١) بنية الشمس في تاريخ رجال الأندلس لأحمد بن يحيى بن أحمد بن حمزة الضبي ، طبعة

محرط ١٨٨٤ ص ٥٦ .

الفصل السابع عشر

الأدب

إن اختلاط دم الأمة العربية ونضوب قوة الطبقة العليا فيها ، التي كانت يدها القيادة ، وبروز الشعوب الشرقية القديمة التي كانت تتألف من أجناس مختلطة ، كل هذه تتجلى أوضع ما تكون في الأدب . فنذ حوالى عام ٢٠٠ هـ — ٨٠٠ م بدأ الأدب يتحرك بحركات جديدة ، وأصبحت القصيدة التي جرت عادة شعراء العرب القدماء أن يسبوا عليها في التنقي بأسمى ما في حياة البداوة من مشاعر شيئاً طويلاً على الجليل الجديد ، وبدأت مسرفة في تصوير الشعور ، وأخذت تفقد ما كانت تتمتع به من تفرد بالسيادة . وعمل أهل المدن ، بعد أن صاروا من الطبقة الممتازة ، على تأخير القصائد وما كانت تتضمنه من مادة شعر البطولة وكذلك على تأخير اللغة القوية البارة التي تفيض بالحياة والبطولة إلى الحل الثانى شيئاً فشيئاً ، وأخذت الأساليب البدوية الخشنة تفسح المجال الآتية ، ومال الناس إلى الأوزان القصيرة ميلاً نندعش له .

وأصبح ميل الشعراء إلى أن يعيشوا في النفوس ما يرفعها إلى آفاق الحياة القوية أقل من ميلهم إلى أخذ الباب الناس بمادة جديدة الأدب ، وبعان دققة وعبارات وأخيلة جميلة . وتيقظ في الناس ميل إلى الطرائف المستحدثة — وهو أخطر نبيء على شعر البطولة بجميع أنواعه — وعاد الأدب مرة أخرى إلى كشف ما يحيط بالإنسان في حاضره ، وأصبح يلد له البحث فيما حوله من حياة متشعبة

الدواحي ، وإن لم تكن حياة بطولة وروح سامية وبدأ العامة — وخصوصاً عامة المدن غير المتعلمين — يدخلون في الأدب العربي ، وهم لم يقتصرُوا على تعلم القصاص والحكم عليها بنظرهم الخاص وعلى التفتي بها على أوزانهم الشعبية ، بل إن الكلام المرسل أيضاً أصبح عندهم يستعمل في التعبير عن كل ما جدَّ في الحياة من نواح متنوعة . وهكذا نشأ النثر في الأدب ، بعد أن كان حتى ذلك الحين مقصوراً على العلماء وأهل الدين ، أو على الأكثر على كتب شعبية قليلة نُقلت من الفارسية . ويحكى من قوم حوالي عام ٢٥٠ هـ — ٨٦٤ م أنهم فُتسَلُوا الكلام المنشور على المنظوم^(١) .

١ — النثر

كان التقدير والإجلال لكلام المنشور ، إلى جانب تقدير الشعر ، ذلك التقدير الذي هو مبدأ كل نثر جيد ، أكبر فضيلة للعرب القدماء ؛ وهم قد فاقوا في ذلك جميع الشعوب ، فكان في كل قبيلة خطباء إلى جانب الشعراء يساؤونهم في المكانة ، وكانت ملكة الخطابة تعتبر أشبه بملكة خارقة ، حتى نشأ الاعتقاد في بعض القبائل أنه لا ينشأ فيها خطيب قط إلا مات من قبله^(٢) .

وكانت ملكة الخطابة تعتبر شيئاً آخر مخافاً للملكة الشعرية إلى درجة أن المؤرخين يذكرون بالإعجاب من يكون إلى جانب الإحسان في الشعر مجيداً في الرسائل والخطب^(٣) . وقد بلغ من شدة تقدير الناس لفظ الحسن أنه أصاب

(١) صروج الذهب للمسعودي ج ٧ ص ٣٢٧ — ٣٤٨ .

(٢) الأغاني ج ١٨ ص ١٧٣ .

(٣) نفس المصدر ج ٢٠ ص ٣٥ ؛ وكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ، طبعه بروكلمان ص ٥٤٩ .

أهل مكة سنة ٢٠٨ هـ - ٨٢٣ م سئل مات بسببه خلق كثير ، فكتب والى المدينة إلى الخليفة المأمون طالباً عطفه ومعونته لن جرف السيل أموالهم وهدم بيئاتهم ؛ فأنذ إلى أهل مكة أموالا كثيرة ، وكتب مع ذلك كتاباً حسن العبارة ، فكان كتابه « أسر إلى أهل مكة من الأموال التي أغدعا إليهم »^(١).

وأول صورة تجلى فيها اهتمام الأدباء بما يحيط بهم إقبالهم على دراسة أخلاق العامة ، فثلاً حوالى ذلك الوقت ألف أبو عقاب الكاتب كتاباً فى أخلاق العوام ، وصف فيه أخلاقهم وشيئهم ومخاطباتهم وسماء الملئى^(٢) ؛ وكذلك ألف القاضى محمد بن إسحاق الصيمرى ، قاضى صيمر (المتوفى عام ٢٧٥ هـ - ٨٨٨ م) ، كتاب مساوى العوام وأخبار السفة والأفئام^(٣).

وكذلك كان وصف حياة المدن من الموضوعات التى أحب الجاحظ معالجتها^(٤). وهذا الأديب (المتوفى عام ٢٩٥ هـ - ٨٦٩ م) والذى يحكى الكثير من الحكايات الطريفة عن دمامة خلقتة - كانت عيناه جاحظتين ، وكان حذاه أسود^(٥) - هو أبو النثر العربى الجديد ويعتبره النعالى أول كتاب النثر^(٦).

وكان من عادة الوزير ابن العميد أكبر كتاب الرسائل الديوانية إذا ورد

(١) كتاب المحاسن والساوى للبيهق م ١٧٥ - ١٧٦ .

(٢) مروج الذهب ج ٥ م ٨٨ .

(٣) الإرشاد لبالوت ج ٦ م ١٠١ - ١٠٣ .

(٤) طراز المجالس لشمس الدين الحفائى طبعة مصر ١٢٨٤ م م ٦٧ وما بعدها .

(٥) الإرشاد ج ٦ م ٥٦ .

(٦) بلبنة المهرج م ٢٣٨ ، وقد سمي بالخرزى النعالى - بأنه جاحظ نيبابور ؛

ظرف مقدمة كتاب الإيجاز والإيجاز للنعالى طبعة القاهرة ١٨٩٧ م م ٥ .

حضرته أحد من منقحى العلم وأراد امتحان عقله سأله عن بغداد وعن الجاحظ^(١)؛
ولذلك دعى ابن العميد الجاحظ الأخير^(٢).

وبحسبى عن ثابت بن قرة العالم المشهور أنه قال : ما أحسد هذه الأمة
(الإسلامية) إلا على ثلاثة أنفس : أولهم عمر بن الخطاب ، والثاني الحسن
البصرى ، والثالث أبو عثمان الجاحظ^(٣) . وقد صنف أبو حيان التوحيدى
— الذى ربما كان أعظم كُتّاب النثر العربى على الإطلاق — كتاباً فى تزيين
الجاحظ ؛ وبلغ من مزيد اهتمامه بذلك أنه ذكر العلماء الذين كانوا يفضلون
الجاحظ وبين عظم مكانتهم^(٤) . وبلغ من تقديره للجاحظ أنه كان يسلك
سلوكه فى تصانيفه ، ويشتمى أن ينظم فى سلوكه^(٥) .

وقد كتب الجاحظ فى كل شيء ، من الكتابة فى الملل^(٦) إلى الكلام
من بنى هائم^(٧) ؛ ومن ذكر الضوض^(٨) إلى الكلام غن الضباب ؛ ومن
نقده إلى الكلام فى قبائح ما يحكى من كيد النساء .

(١) لطائف المعارف لتعالي طبعه أوروبا ص ١٠٥ ، والإرشاد بالقوت ج ١ ص ٦٨٦ (٢) .

(٢) بقية الدهر ج ٣ ص ٣ .

(٣) الإرشاد ج ٦ ص ٦٩ — ٧٠ .

(٤) المصدر ج - ص

(٥) نفس المصدر ص ٢٨٠

(٦) المنظر ج ٢ ص ٢٧٨ — ٢٧٩ طبعه مصر ١٣٠٢ هـ . أما مقدار تأثير

الجاحظ فيها كفه من الخيرة بالملل بكتب اليونان الهزلية التى كانت شخصية للعلم من أكبر
صورها فهو موضوع للبحث ، انظر Reich, Mimus, 1, 443 .

(٧) زهر الآداب البصرى على هامش المقد الفريد ج ١ ص ٦٠ وما بعدها .

(٨) ذكر التنوخى فى الفرج بعد الشدة (ج ٢ ص ١٠٦) كتاباً للجاحظ يسمى

كتاب الضوض .

وكان أسلوب الجاحظ مستحدثاً لم يستحكم في التجربة ، وكثيراً ما يشوب طريقته في الكتابة الثثرة والاستطراد إلى حد الإملال ؛ ولكن هذا بعينه هو ما كان موضع لذة المعجبين بالجاحظ ؛ وكانوا يشعرون بأنه إنفاذ لهم من طريقة العلماء السائدة إلى ذلك الحين والتي كانت ثقيلة اسكثرة ما فيها من الجد وإظهار العلم ؛ وكان المعجبون بالجاحظ يعتبرون الثثرة الطبيعية الجميلة فناً تعتمد الجاحظ أن يعالجه . وقد قدر السعدي حوالى عام ٣٣٢ هـ — ٩٤٣ م قدرة الجاحظ على التنسيق ومدح متانة بناء تأليفه بقوله : « وكان إذا تخوف مآل القارئ وسأمة السامع خرج من جد إلى هزل ، ومن حكمة بليغة إلى نادرة ظريفة » . ويذكر السعدي كتب الجاحظ فيبدأ بالبيان والتبيين ، ويقول إنه أشرف كتب الجاحظ « لأنه جمع فيه من المنثور والمنظوم ، وغرر الأشعار ، ومُسْتَعْمِن الأخبار ، وبلغ الخطب ، ما لو اقتصر عليه مقتصر لا كُتِفَ به ^(١) » . وبشبه السعدي المصنف المجيد بأنه حاطب ايل ، لأنه يذكر في تصنيفه من كل نوع ^(٢) .

نم إن التصوف الذى جاء حوالى أوائل القرن الثالث الهجرى على أثر اضمحلال الروح العربية ونضوب قوتها ساعد كثيراً على نشر الأدب وجعله شعبياً وعلى نشر الكتب بين الجماهير ، وصيغها بصيغتهم ، وساعد مساعدات كبيرة على تقوية المذهب الوائى الطيبي — كما نل ذلك أيضاً فى الآداب الأخرى — هذا إلى أن أهل التصوف كانوا يشتمون على العلماء وعلمهم ، ويعتمدون فى الغالب

(١) السعدي فى مروج الذهب ج ٨ ص ٣٤ ؛ وقد طال هذا التوزيع بين الجد والهزل منسوبة لجاحظ عند مؤرخى الأدب ؛ وقد ذكره كثير من الأدباء . انظر مثلاً رسائل الحواري ص ١٨٣ .

(٢) مروج الذهب شلاح ٤ ص ٢٠

على عامة الناس ؛ وكان هذا التصوف يتجه إلى وعظ العامة وتحليل حياتهم والعناية بمحاجتهم ، وقد تأثر بكلامهم وأساليبهم . وأخيراً فإنه يتضح لنا أنه لولا اضمحلال الطريقة والروح العربية القديمة لما دخل السجع في البلاغة العربية في ذلك العصر .

وكان لا يزال في مآثور العرب قليل من النثر الوثني المسجوع ؛ وكان المسلمون ينفرون من هذا السجع نفور المسيحيين في الإمبراطورية الرومانية من الأوزان القديمة الباقية عن اليونان والرومان . ويبين لنا الجاحظ (المتوفى عام ٢٥٥ هـ - ٨٦٨ م) علة كراهية الأسجاع ، فيقول : « وكان القدي كره الأسجاع بمنها ، وإن كانت دون الشعر في التكلف والصنعة أن كُهان العرب الذين كان أكثر أهل الجاهلية يتحاضرون إليهم ، وكانوا يدعون الحكامنة ، كانوا يتكهنون ، ومحكمون بالأسجاع ... قالوا فوقع النهي في ذلك لتقرب مذهبهم بالجاهلية ولتقيتها فيهم وفي صدور كثير منهم ، فلما زالت العلة زال التحريم ^(١) .

على أن المسيحيين الذين دخلوا في الإسلام وإن لم الشأن الأكبر في ذلك العهد كانوا قد أمضوا استعمال السجع في مواضعهم الدينية ؛ وكذلك يظهر أنه « حوالي منتصف القرن الثالث الهجري دخل للسجع عند المسلمين في الخطب الرسمية ، ومجد كثيراً منه في كتب وجه الخليفة للمسلمين ، وإن لم يكن كله مسجوعاً ^(٢) . »

وكانت طريقة كتابة الرسائل مجالاً للتبرين على إظهار صور البلاغة

(١) كتاب البيان والتبيين ج ١ ص ١١٣ .

(٢) Goldziher, Abhandlungen Zur arabischen Philologie, 1, S. 65 f.

وأساليبها ؛ ولم يتقدم قط بين الأدباء من لم يأنه الاعتبارات الدينية في كراهية السجع ، فكان يكتب سجعاً كالسجع العربي القديم الذي كان لا يزال موضع إعجاب ؛ ويمدحنا الجاحظ أن عامة أهل بغداد كانوا يحفظون رسالة إبراهيم ابن سيابة إلى يحيى بن خالد البرمكي^(١) ؛ وكان في هذه الرسالة شيء من السجع .

على أن الرسائل الدبلوماسية كانت هي مقياس العرف اللغوي العام ؛ ونجد وزير الخليفة الأمرن حوالى عام ٢٠٠ هـ يكتب كتابة مرسلة لا سجع فيها^(٢) ؛ وقد انتهى إلينا لابن ثوبة الكاتب (المتوفى عام ٢٧٧ هـ — ٨٩٠ م) رسالة فيها بعض السجع ؛ وكان هذا الكاتب معروفاً بالتكلف في كتابته^(٣) ؛ وكذلك نجد الكتاب الذي أنشأه لمن الأمويين ، وكان يراد قراءته على جميع المنابر ببغداد سنة ٢٨٤ هـ — ٨٩٧ م ، نثراً مرسلاً ، وإن كان لا يخلو من أثر طفيف لسجع^(٤) . وحوالى هذا الوقت كتب أحد النشئين في الديوان من غير سجع^(٥) .

على أن السجع قد أصبح حوالى عام ٣٠٠ هـ هو الطريقة الجديدة المستعانة عند كبار بغداد ، فنجد الخليفة المقتدر يكتب إلى عمال البلاد سجعاً^(٦) ؛ وكذلك

(١) البيان والتبيين ج ٢ ص ١١٤ .

(٢) السكندى ص ٤٤٥ — ٤٤٦ ، وفي مواضع كثيرة من كتاب بغداد لطيفور ، ويجوز القارىء كتاباً من النظم إلى عبد الله بن طاهر ، وهو نثر مرسى لا سجع فيه — انظر رسالة في المداغة للتوحيدى ص ٥٤ — ٥٥ من نسخة قسطنطينية .

(٣) الإرشاد ج ٢ ص ٣٧ .

(٤) الطبرى ج ٣ ص ٢١٦٦ وما بعدها .

(٥) الإرشاد لياقوت ج ٦ ص ٤٦٣ . ولكن الرسالة التي يشير إليها المؤلف هنا فيها سجع ، وكانت ابن ثوبة نفسه ، والمبني هنا أن المؤلف يعتمد على أمر جزئى يبنى عليه قاعدة ؛ وقد فعل هذا كثيراً في أثناء كتابته . ومما يدل على الاضطراب في استنتاجاته أن ابن ثوبة كان منشأ في ديوان المقتدر ، ويقول المؤلف إن المقتدر كان يكتب إلى عماله سجعاً . (الفرح)

(٦) كتاب الوزراء ص ٣٣٧ وما بعدها .

كان الوزير على بن عيسى يحل كنية بالجمع الكثير^(١) ؛ ولكن أمر الجمع لم يصل في سائر أجزاء المملكة إلى ما وصل إليه ببغداد ؛ فكانت رسائل الوزير ابن خاقان المجموعة تقع لدى عمال الولايات موقع الشيء الغريب^(٢) ، وكان أصحاب الدواوين في البلاد يكتبون على الطريقة القديمة من غير جمع^(٣) ؛ ثم انتشر الجمع . قال ابن خفاجة « من كتاب المحدثين من كان يستعمل الجمع ولا يكاد يخل به ، وهو أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الصابي وأبو الفرج المعروف بالنجاشي ؛ ومنهم من كان يتركه ويتجنبه ، وهو أبو الفضل محمد بن الحسين العميد ؛ وطريقة غير هؤلاء استعملها مرة ورثته أخرى ، بحسب ما يوجد من السهولة والتيسير والإكراه والتكاف^(٤) . »

ويحكى عن الوزير ابن عباد ، وزير البويهيين ، أنه كان ولو بما بالجمع إلى حد الإفراط فيه ؛ ويقول التوحيدى عن هذا الوزير : « وكان كلفه بالجمع في الكلام والنظم عند الجدل والمزلة يزيد على كلف كل من رأيناه في هذه البلاد . قلت لابن السبي . أين يبلغ ابن عباد في عشقه للجمع ؟ قال : يبلغ به ذلك لو أنه رأى سبعة تنحل بموقفها عمدة الملك ، ويضطرب بها خيل الدولة ، ويحتاج من أجلها إلى فرم ثقيل وكثافة صعبة ... لما كان يخف عليه أن يحملها ، بل يأتي بها ويستعملها^(٥) . » ويقول نقلا عن ابن العميد إن صاحب خرج من الرى متوجها إلى أصفهان ، فجاز في طريقه قرية كالمدينة إلى قرية فامرة وماء ملح ،

(١) الإرشاد ج ٦ ص ٢٨٠ ، وكتاب الوزراء ص ٢٧٧ .

(٢) انظر مثلا من سجنه في كتاب الوزراء ص ٢٧٧ .

(٣) انظر مثلا كتاب صاحب الأخبار للى بغداد من بلدة الدينور — صرب

ص ٣٩ — ٤٠ .

(٤) ابن خفاجة في مقدمة كتاب الخطب لابن نباتة ص ١٦ .

(٥) الإرشاد ج ٢ ص ٢٩١ .

لا شيء إلا ليكتب قائلا : كتابي هذا من الثوبهار ، يوم السبت نصف
 (١) ؛ ومذا ما سكا النوحدي ، وكان أتاب أهل زمانه ؛ وهو الذي يقول
 من ابن عباد أيضا إنه كان عنده أبو طالب السلمي ، فاستق غشى بسبب كلام ابن
 عباد المنجوع ، فرش على وجهه ماء الورد (٢) . وهذا هو شأن السجع
 إلى اليوم (٣) .

ورسائل القرن الرابع الهجري هي أدق آية من ازدهار الفن الإسلامي ؛
 ومادتها هي أغنى ما عالجته يد الفنان ، وهي اللغة ؛ ولولم تصل إلينا آيات الفن
 الجميلة التي صنعتها أيدي الفنانين في ذلك العهد من الزجاج والمادن لاستطعنا أن
 نرى في هذه الرسائل مبلغ تقدير المسلمين للرشاقة الرقيقة ، وامتلاكهم لفنانية
 البيان في صورته الصعبة ، وتلاعبهم بذلك تلاعبا ؛ وليس من محض الاتفاق أن
 كثيراً من الوزراء في ذلك العهد كانوا من أساتذة البيان وأعلامه ، ولذلك
 استطاعت رسائلهم أن تقال من التقدير ما جعلها خليفة أن تنشر كتباً للناس .
 وكان من أولئك الوزراء : الخنصبي ، وابن مقلة (٤) ، والمهاوي (٥) ، وابن العميد ،
 والصاحب بن عباد ، والإسكافي وزير السامانيين . ويحكي أن الإسكافي كان
 أكتب الناس في السلطانيات ، فإذا تعاطى الإخوانيات كان قصير الباع (٦) .

(١) نفس المصدر ج ٢ ص ٢٩٨ .

(٢) الإرشاد ج ٢ ص ٣٠٤ .

(٣) مع شواذ قلبه جداً ، فقد كان وزير مشهور من وزراء الرابطين الأولين يتجنب
 السجع ، وكان على طريقة قدماء الكتاب ؛ انظر المعجب في أخبار المغرب للأراكي
 طبعة مصر ص ١٠٤ .

(٤) رسائل الخوارزمي ص ٣٥ .

(٥) المهبرست ص ١٣٤ .

(٦) بنية الدهر ج ٢ ص ١١٩ ج ١ ص ٣١ ، وكتاب الإرشاد ج ٥ ص ٣٣١ .

وهذا يدل على التمييز الدقيق بين نوعي الرسائل . وكانت الرسائل الهامة مثل كتب تروية العمال ونحوها تكتب في ديوان خاص يسمى ديوان الرسائل ، وهو ديوان لم تدخل منه حكومة ما . وقد بلغ من العناية بهذا الديوان أنه قلد ببغداد لإبراهيم بن هلال الصابي (المتوفى عام ٣٨٤ هـ - ٩٩٤ م) ، وكان أكبر المنشئين في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري ؛ مع أن الصابي ظل طول حياته يمتنق دين الصابئة ، ويصر عليه ؛ وقد مرضت عليه الوزارة ، إن أسلم ، فأبى ^(١) . ولما مات ألف نقيب العلويين ، مع علو منزلته في الدين ، قصيدة في رثاء هذا الذي رفض الإسلام ؛ وهذا يدل على أن قيمة الإنشاء الجيد كانت في نظرهم أعظم من قيمة صحة العقيدة . وكان الصابي يعرف قدر نفسه ، وهو يقول مفتخراً :

وقد عَلِمَ السُّلْطَانُ أَنِّي أَحِبُّهُ وَكَاتَبَهُ الْكَافِي السَّيِّدُ لِلْوَقْ
فِيَنَائِي يُبْدَاهُ ، وَلَقَطَى لَفْظُهُ ، وَعَيْنِي لَهُ عَيْنٌ ، بِهَا الدَّهْرُ يَرْمُقُ
وَلِي قِرَرٌ تَضَعِي لِللُّوكِ قَصِيرَةً إِلَيْهَا لِي أَحْدَاثُهَا حِينَ تَطْرُقُ ^(٢)

وتنقسم رسائله كما قسمين : في الجزء الأول إجمال للخطاب الذي تُراد الإجابة عنه ، وبعد ، تنقسم كما يسمح المجال لإظهار الأدب في الثناء على المرسل وامتداحه والدعاء له ؛ فنلا كتب الصابي عن الوزير ابن بنية إلى قاضي القضاة ، فقال في أول الكتاب : « وصل كتاب قاضي القضاة بالألفاظ التي لو مازجت البحر لأعان » ، والمعاني التي لو واجهت دجى الليل لأزاحت وأذهبت ^(٣) ؛ ثم يمتدح في الإجابة عن الكتاب مبتدئاً بقوله : ونعمته ... ولا تزال رسائل الصابي تُقرأ

(١) الإشارد ج ١ ص ٣٢٤ .

(٢) رسائل الصابي طبعة ببدا بلبنان ١٨٩٨ م ص ٨ .

(٣) بنية الدهر ج ٢ ص ٢٧٧ .

إلى اليوم مع لذة يحس بها القارئ وإعجاب بامتلاكه عنان البيان : وهي تُلدِّس موضوعها ثوباً من جمال الإنشاء القشيب ؛ وحتى لو كان الكتاب يتناول أخباراً عملية رسمية أبس من شأنها أن تناسب ملكة البيان . وكان الصابي يَدَبِّج رسائله بعبارات جميلة مسببة مسجوعة في أولها وآخرها ، مائية بضروب المجازات والاستعارات وأنواع الجناس ؛ ومع هذا لا يكتفى المعنى بين ضفط الألفاظ ، ولا يطنى عليه جمال الألفاظ وموسيقى السجع ، بحيث يستطيع القارئ أن يفهم المراد من غير تلك المشقة التي يمانها الإنسان في فهم رسائل من جاء بعده . وحتى لو ترجمت هذه الرسائل ، وجُرِّدت من كل ما تتحلى به ، وعُرِضت على صورة تُفقدُها الكثير من جمالها ، فإنها لا تزال خليقة بالقراءة . وانذكر من أمثلة الرسائل الديوانية التي كتبها الصابي كتاباً عن عز الدولة إلى ابن عمه عضد الدولة جواباً عن كتاب عضد الدولة الذي أخبره فيه بفتح جبال الققص والبلوص سنة ٥٣٥٧ هـ - ٩٦٨ م :

« ... وصل كتاب سيدي الأمير عضد الدولة أدام الله غزاه بما سهل الله على يده ويسره بيئته وبركته من فتح جبال الققص والبلوص ، وما بلغه ، أدام الله علوه ! من أهلها الماديين كانوا لله ، العاديين عن سبيل الله ، حتى استنزلم عن معقل بعد معقل ، واستباحهم في موبل بعد موبل ، وقتل مُحَنَّتَهُمْ ، وأفنى كُتَنَهُمْ ، وأباد خضرهم وغبراهم ، وعفى معاهم ، وأرهم ، والجأهم إلى الإذعان وطلب الأمان ، وتسليم الرهائن ، والإفراج عن الذخائر ، والاستقامة على سواء الدين ، والداخل في عصمة المسلمين ؛ وفهمته وحدت الله على ما منح الأمير عضد الدولة ، حمد التحقيق بما أقام الله عليه ، المقتبط بما أرزله إليه ، المشارك له فيما يخصه ، المسام له فيما يبعثه ؛ ووجدت الأثر فيه كبيراً بمؤثره ، والتدبير جليلاً

كذبته ؛ وتلك مادة الأمير ، أيده الله في الصمد فافسد حتى يصلح ،
وللمعتاص حتى يسمح ، وعادة الله عنده في المودة الضامنة بالبيع ، الكافرة
بالفلاح ؛ فانترد على من جهته بشرى إلا كنت متوقفاً لتأليها لآخرى ، ولا أسفل
منها بشكر ماضٍ سالف إلا ارتهنى بترقب حادثٍ مستأنف ، والله أسأل أن
يهنئه نعمته ، ويملاؤه موهبته ، ويبلغه في الدين والدنيا آماله ؛ ويحمل فيهما
أحواله ، ويحمل رايته منصوراً على أعدائه ، صفروا أم كبروا ، ولكنه
العليا عليهم ، قلوا أم كثروا ، ويمكنه من نواصبهم ، سلموا أم حاربوا ،
ويقودهم إلى التسليم له ، رضوا أم كرهوا ؛ ولا أعده فيما اختصه به من حياء
وكرامة ، وظاهرة عنده من إعلاء وأنافة ، مزيداً تتصل مدته إليه ، وتحل عائدته
عليه بحوله وطوله ؛ والأمير عضد الدولة أطال الله بقاءه ولي مواصلي عما يهيجني
من أخباره ، ويغبطني من آثاره ، ويسرنى من عافيته ، ويؤنسني من سلامته ،
وامثله من أمره ونهيه ، وأقف عنده من حده ورسمه ، إن شاء الله (١) .

ثم انتقل استعمال الأساليب المخلّعة بالسجع من الرسائل السلطانية إلى
الرسائل الإخوانية ؛ على أنه في القرن الثالث الهجري كتب الأمير الشاعر ابن
المعز إلى الأمير الشاعر عبید الله بن عبد الله بن طاهر رسالة تعزية عن وفاة
زوجته ، وقد رد عبید الله على ابن المعز شاكرًا ، وكلا الرسالتين نثر مرسل ،
سجع فيها (٢) . أما في القرن الرابع فكان لا يخطر على البال أن تكتب مثل
هذه الرسائل من غير أن يكون فيها سجع ؛ وقد عظم شأن هذا الفن ، فن كتابة
الرسالة ، في أواخر القرن الرابع حتى كان الناس يستطيعون أن يعيشوا من

(١) رسائل العاصي ص ٥٦ — ٥٨ .

(٢) كتاب الديارات لما سبق ص ٤٦ وما بعدها .

هذه الصناعة ، كما عاش الشعراء قديماً من التكسب بالشعر . وكان أبو بكر الخوارزمي ، (المتوفى عام ٣٨٣ هـ - ٩٩٣ م) ، أشهر كتاب الرسائل الإخوانية ؛ وقد ظل زماناً طويلاً أكبر كتاب العرب .

كان أصل الخوارزمي من طبرستان ، ومولده ومنشؤه بخوارزم ؛ وقد تقلب في البلاد ، وشرقي وغربي ، واتصل بجميع الأسراء تقريباً في شرق المملكة الإسلامية . فورد بخاري ونيساوور ، وعرماة ، وأصفهان ، وشيراز ، وغيرها^(١) . وكانت رسائله توجه إلى الأسراء والوزراء والقضاة والعمال والعلماء والقوانين ، وكان موضوعها ما يرد في الرسائل عادة من التهنية بالأعياد ، وبارتفاع المنصب ، وبالنعاة من الشر ، والتزنية بالوفاة ، والكتابة بعد نكحة أو محنة أو خلم ، والكتابة بمناسبة المرض ، أو الخروج لحرب ، أو لشكر على هدية . ومن رسائله رسالة كتبها إلى صاحب ديوان الخراج جاء فيها : « حيث صرت ألزمت خراجاً التزم بنو المدبر أضاعه لبحترى ، وأصابت في ضيقة وهب أمثالها محمد بن المهيم العنوي لأبي تمام الطائي وقد عرف الشيخ أي لا أقيم على الخسف ، ولا أجل إلا خطة النصف ، فإن رأى ألا يجمع خراسان بلسانها ، ولا يخليها من سيفها وسنانها ، فعل » ، فوضع صاحب الخراج عنه خراج سنة^(٢) .

ويظهر أن صيت الخوارزمي جذب إليه كثيراً من التلاميذ ، وخصوصاً من الفقهاء ؛ ونجد في رسائله الكثير موجهاً إلى تلاميذه الجدد أو القدماء ؛ ومنها رسالة شكر فيها رجلاً على اصطناعه فقيماً من تلاميذه^(٣) . ومن أمثلة ما كتبه

(١) ينيعة الدمرج ٤ من ١٢٣ والصفحات التالية .

(٢) رسائل الخوارزمي من ٨١ .

(٣) رسائل الخوارزمي من ١١٩ .

لبعض نلاميذه : « كُتُبُكَ ، يا ولدي ، هندی تُحَفِّ وشمات وأنوار وباكورات
أفرَحُ بأولها ، وانتظر ورود ثانيها ، وأشكركَ على ماضيها ، وأعدُّ الأيام والليالي
على باقيها ، فكثُرَ على سوادها ، ووذَر على أهدادها ، وإعلم أني أحبك حباً
مستكناً وبادياً .

أُحِبُّكَ ما لو كان بين معاشر من الناس أعداء لجزء النصفايا
وأنى آنس بك حاضراً ، واشتاق إليك غائباً ، شوقاً لو عرفته لتكبرت على
الوردى ، ولم يُقِمَ وزناً لأهل الدنيا ، وكنت لا تنظر إليهم إلا بمؤخر عينك ،
ولا تسكهم إلا بيسن شنيك^(١) .

ولو قارنا بين رسائل الخوارزمي ورسائل العاصبي لوجدنا هذه أكثر اتزاناً ،
وأقل مبالغة ، وأقرب إلى الواقع ؛ وكان أهم ما عند الخوارزمي المحسنات البديعية
والسلاسة ؛ أما موضوع الرسالة فهو بمثابة خيط ينسج الفنان حوله ثمرات خياله
وبلاغته ، كما يلتف النبات المتسلق حول الخيط الذي ينصب له ؛ وبين هذا
وبين الأسلوب العربي القديم كثير من وجوه الشبه ، من شغف
الجزرة ذات الجرس ، والتشبيهات الحسنة ، وقلق نفس الكاتب ؛ غير أن
ما كانت تنطوى عليه القروضية قديماً من نبل العاطفة وقوتها قد تغير وصار موضع
سخرية ؛ وهذه هي الصورة الوحيدة التي أتيت له في مجتمعات المدن .

أما الصفات الرئيسية التي اتصف بها أسلوب الخوارزمي ، فهي أيضاً صفات
الأسلوب الساخر : وهي المبالغة والتكرار والحشو ؛ وهو يعمد إليها باعتبارها طريقة
فنية في الكتابة ؛ فن ذلك في إحدى رسائله : « فلان أبطأ على » ، فليت شعري

(١) رسائل الخوارزمي ص ٧٦ .

الريح قلعة ، أم الأرض ابتلعه ، أم الأنفى نهشته ، أم السباع افترسته ، أم الفول
أغوته ، أم الشياطين استهوته ، أم أصابعه باثقة ، أم أحرقته ، أم رفته
الجمال ، أم اقتاله الجبال ، أم انتكس على ظهر رجل ، أم تدرج من رأس جبل ،
أم وقع في بئر ، أم انهار عليه جرف شفير ، أم جفت يده ، أم قعدت رجلاه ،
أم ضرب به الجذام ، أم أصابه البرص ، أم جمس غلاماً فقتله ، أم تاه في البر ،
أم أغرق في البحر ، أم مات من الحر ، أم سال به سبل زاعب ، أم وقع فيه سهم
من سهام الآجال صائب ، أم عمل عمل أهل لوط ، فأرسلت عليه حجارة من طين
منضود مسومة عند ربك ، وما هي من الظالمين يبيد ا »^(١) . وكتب إلى
رجل طلب نسخة من رسائله : « ... ولو قدرت لجلعت الورق من جلدي ، بل
من سخن خدي ، وللقلم من بناني ، والداد من أجفاني »^(٢) . وقد تؤتينا بالفته
في كثير من الأحيان مجموعة قيمة من الأحوال المتعارضة التي قد تعرض في حياة
ذلك العمر ، كالذي كتبه الخوارزمي إلى أبي علي البليني لما فارق الحفصة وورد
نيسابور ؛ وما قاله في وصف حاله : « ... حتى لقد ركبت غير دابتي ، وأكلت
غير نفقي ، وزلت بيتاً بكرأ ، وأكلت حبزاً بسرا ، وحرمت العيني ، وشربت
الزبيبي ، ولبست الصوف في الصيف ، والبردي في الخريف ، وكوتبت مواجهة ،
وخطبت بالكاف مشافهة ، وأجاست في صف النقال ، أغنى أخريات الرجال ،
وناظرني من كان يدرس علي ، وخالفني من كان يختلف إلي ، وحتى لقد نشرزت
علي جاريتي ، وحزنت دابتي ، وتقدمني في السير رانيق الذي جمعي وإياه طريقي ،
وحتى إلى أخذت الدرهم الجيد ، فصار في يدي ستوقاً ، وقطعت الثوب المشتري

(١) رسائل الخوارزمي ص ٨٨ .

(٢) نفس المصدر ص ١٠٦ . انظر أيضاً ص ٦٨ .

فصار على بدنى مسروقاً ، وفعلت نيايى فى نموز ، فغابت الشمس وطلع السحاب ،
وسافرت فى حُزيران ، فعصفت الريح وسد الأفق الغباب ، وفقدت كل شئ .
ملكته ، غير عرضى الذى هذه الشيخ مى وصبرى الذى عرفه مى ^(١) وقد
يصل باستعمال الحشو والتكرار إلى ملاطفة من يوجه إليه الخطاب وتلقاه ، ويذكر
لنا مع ذلك مجموعة من الكتب التى يستطيع الإنسان أن يرجع إليها حينما يريد
أن يكتب خطاباً من السجع الحسن ؛ فقد جاء فى إحدى رسائله : « ذكر السيد
أنه كتب جواب كتابى من الظاهر إلى العصر ؛ ولقد استبطنته على ما أعرفه من بُعد
غوره ، وغزارة بحره ، ولكنى أخذت لهذا الجواب باي ، وأرخصت له حجابي ،
وضممت إلى نشر كتب آدبى ، وجلست من الدواوين بين آل الجراح وآل
بويه وبني الخصيب وبني مقله ؛ ونشرت من القابر آل يزداد وآل شداد ،
وحشرت من الآخرة ابن المقفع البصرى ، وسهل بن هارون الفارسى ، وابن هيدان
المصرى ، والحسن بن وهب الحارثى ، وأحمد بن يوسف المأمونى ، ووضعت عن
بني عهد أردشير بن بابكان ، وعن يسارى كتاب البيان والتبيين ، وبين بدى
فصول بزرجهر بن البختكان ، وقبل ذلك رسائل مولانا صاحب ، حين الزمان ،
وزين الشيب والشبان ؛ فازلت أسرق من هذا كلمة ، وأنظر من ذاك فقرة ،
وأستمير من هناك نادرة وثيقة ، أغضب الأعياء على بيانهم ، وأنبش الموتى من
أكتافهم ، وأنا فى أثناء ذلك رطبُ اللسان بالدعاء ، رطب العين بالبكاء ، أدهو
الله بالتمنيق والتسديد ، وبالعصاة والتأييد » ^(٢) .

على أن الخوارزمى كان فى نظر معاصره الممذاني (وكان هذا أصغر سننا من

(١) رسائل الخوارزمى ص ٣٠ .

(٢) نفس المصدر ص ٣٠ .

الأول) لا يحسن من الكتابة « إلا هذه الطريقة الساذجة وهذا النوع الواحد للتداول بكل قلم ، التداول لكل يد وفم »^(١) .

وكان أبو الفضل المزداني هو زعيم الطريقة الجديدة والحامي لها ! فارق هذان سنة ٣٨٠ هـ وهو مُقْتَبِلُ الشَّيْبَةِ ، غَضُّ الحِدَاثَةِ (كان يناهز الثانية والعشرين) ؛ وورد حضرة صاحب قزوين من تمارها ؛ ثم ورد جرجان ، وأقام بها مدة ، ووافى نيسابور سنة ٣٩٢ هـ^(٢) ، أي بعد أن فارق وطنه باثني عشر عاماً ؛ ثم شجر بينه وبين أبي بكر الخوارزمي ما كان سبباً في عُلُوِّ أمره ، وُبُعْدِ صيته ، إذ لم يكن في الحسبان أن يلجأ الخوارزمي أحداً ؛ فلما تصدَّى المزداني لمساجلته ، وجرت بينهما مكاتبات ومناظرات ومناضلات ، وغلب هذا قومٌ وذلك آخرون ، وجري من الترجيع بينهما ما يجري بين الخصمين المتصاولين ، طار ذكر المزداني في الآفاق ، وارتفع مقداره عند الملوك والرؤساء ؛ ثم أجاب الخوارزمي داعي ربه ، فخلا الجو للمزداني ، وتصرفت به أحوالٌ جسيمة ، وأسفارٌ كثيرة ، ولم يبق من بلاد خراسان وسجستان وغزنة بلداً إلا دخلها ، واستفاد خيرها ؛ وألقى هناك رسالة ، ثم صاهر أبا طاهر الحسني من محمد الخشاعي ، وهو القاضي الكركشي الأصل ، فانتقلت أحوال أبي الفضل بهذه المصاهرة ، واقتنى بمحنة صهره ومشورته ضياعاً فاخراً ، وعاش عيشة راضية ، وحين بلغ أشبه وأربع على الأربعين سنة ناداه ربه فلباه في سنة ٣٩٨ هـ ، « فقامت عليه نوادب الأدب وانظم حدُّ القلم »^(٣) .

(١) رسائل المزداني مطبوعة بيروت ص ٧٦ .

(٢) هذا هو المصواب كما في الإرشاد لياقوت (ج ١ ص ٩٦) ، ٣٨٢٧ هـ كما

في بنية النهر لشمالي (ج ٤ ص ١٦٨) .

(٣) بنية النهر ج ٤ ص ١٦٧ — ١٦٨ . وقد ذكر ابن ... (ج ...)

كان أبو الفضل مشهوراً بذكاء الفريضة وقوة الحفظ ؛ وكان يُشَدُّ القصبدة التي لم يسمها قط ، وهي أكثر من خمسين بيتاً ، فيحفظها كلها ، ويؤديها من أولها إلى آخرها ، لا يخرم حرفاً ، ولا يُخِلُّ بمعنى^(١) . وكان من المعجائب التي يقدر عليها ، ويمجّز منها الخوارزمي أنه كان يستطيع أن يكتب كتاباً يُقرأ فيه جوابه ، أو كتاباً يُقرأ من آخره إلى أوله ، أو كتاباً إذا قرئ من أوله إلى آخره كان كتاباً ، فإن عكست سطوره مخالفة كان جواباً ، أو كتاباً لا يوجد فيه حرف منفصل ، من راء يتقدم الكلمة أو دال يفصل عنها ، أو خالياً من الألف واللام ، أو من الحروف السوائل ، أو أول سطوره كلها ميم وآخرها ميم ، أو كتاباً إذا قرئ معرجاً وسُرد معوّجاً كان شعراً ، أو إذا فسر على وجهه كان مدحاً ، وإذا فسر على وجهه كان قدحاً^(٢) . وكان هذا وأشباهه يعتبر أعلى درجات القدرة على الإنشاء في ذلك العصر

وكذلك يوجب المزداني الملاحظ بأن كلامه سهل ، قليل الاستعارات ، قريب العبارات ، وأن الملاحظ « مُنْقَادُ أُرْبَانِ الْكَلَامِ بِمَعْمَلِهِ ، نَقُورٌ مِنْ مَعْتَاصِهِ بِهَيْئِلِهِ^(٣) » .

فيران رسائل المزداني التي انتهت إلينا ليس بها حسن أصح مثل هذه الإشارات المعاصرة ، فهي قد كفتنا مشقة ذلك ، ولكنها أكثر التواء وتكلفاً من رسائل الخوارزمي وأفضل بالتشبيهات البعيدة المطلب وبأروع الجناس .

== ٦٩ من طبعة فستقلاذ أن يدعى الزمان مات من السكتة ، وعجل بدنه . « ٥٥ في خبره ، وسمع صوته بالليل ، فنبشوا عنه فوجدوه قد مات من هول الخبر .

(١) ينمية الدرر ج ٤ ص ١٦٧ . (٢) رسائل المزداني ص ٧٤ .

(٣) مقامات المزداني طبعة بيروت ١٨٨٩ ص ٧٢ .

وفد ظاهر شيء جديد تجاوز أسلوب الرسائل ، وهو الميل إلى القصص والحكاية ؛ فنجد الأدباء يذكرون في سياق رسائلهم بين حين وآخر حكايات طويلة أو قصيرة على سبيل التمثيل ؛ فمثلاً يشبه الحمذاني في إحدى رسائله حال الطامع الذي يذهب به الأمل والطمع بعيداً ، والظهر منه قريب ، بحال الرجل البخاري الذي ضاع حماره . يقول الحمذاني : « ... ثم لم يكن مثلي معه إلا مثل البخاري الذي ضاع حماره ، وخرج في طلبه ، حتى عبر جيعون بـبيه ، يطلبه في كل منتهية ، وينشده في كل مرحلة ، وهو لا يجد ، حتى جاوز خراسان ، وانتهى إلى طبرستان ، وأتى المراق ، وطاف الأسواق ؛ فلما لم يجده ، وأيس ، عاد ، وقد طالت أسفاره ، ولم يتفعل حماره ، حتى إذا حصل في بلده ، بين أهله وولده ، أحب أنه أن يتطأف به لطفاً ليعتبر به ، فنظر ذات يوم إلى اصطبله فإذا الحمار بسرجه ولجامه وثغره وحزامه قائماً على التلف ينش ... » (١) .

وهو يقول مدلاً على أن الإنسان يظل هواه دائماً مع وطنه : « إن الإبل على غلظ أكبادها لتحن إلى بلادها ، وإن الطير لتقطع عرض البحر إلى مظاتها » .

ويذكر عن ذي اليمين طاهر بن الحسين أنه « لما ولي مصر واقفا مضروبة قبائها ، مفروشة أرضها ، مزخرفة جدرانها ، والناس ركبانا ورجالا ، والتناثر يمينا وشمالا ؛ فأطرق لا ينطق حرفاً ، ولا يرفع طرفاً ، ولا يهش إلى أحد ، فقيل له في ذلك ، فقال : ما أصنع بهذا ، وليس في النظارة مجاز بوشنج (وهي بلدة) » (٢) .

(١) رسائل الحمذاني ص ١٧٤ — ١٧٥ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٧٠ .

وكذلك يحكى المزداني حكاية التاجر مع ولده ويتنزل بها ؛ وكان التاجر قد جهز ولده بمال للتجارة ، وأوصاه عند ما خرج من بلده بأن يحذر النفس وسلطانها . وكان إنما قاله له مستحدثك النفس بمعنى اسمه القرم ، ويخبرك الله بهاء عن نبيه يقال له الكرم ؛ وقد جربت الأول فوجدته أسرع في اللال من اللوس ، ونظرت إلى الثاني فوجدته أشأم من اللوس ؛ ودعنى من قولهم : أليس الله كريماً ؟ بل ، ولكن كرمه يزيدنا ولا ينقصه ، وينقصنا ولا يضره ؛ فأما كرم لا يزيدك حتى ينقصنى ، ولا يريشك حتى يبرينى ، فهو خذلان ؛ فلما فصلت المير لجئت باللقى همة العلم ، فأنتقى مامعه من اللال في طلبه ، فلما انسلخ من طارفه وتلاهه رجع بالقرآن وتفاخيره إلى والده ، فقهر لا يملك نفهراً ، وقال : يا ابت جئت بك بسلطان الدهر ، وعز الأبد ، وحياة الخلد ؛ جئت بك بالقرآن وتفاخيره ، والحديث بأسانيده ، والفقہ بأبازيره ، والكلام بأفانيه ، والشعر بنزيبه ، والنحو بتعاريفه وألفه بأصولها ، فأجنى العلم نوراً ونوراً والأدب حراً وحوراً ؛ فأتى به إلى السوق وقدمه للصراف والبزاز والمطار والخباز والقصاب ، وانتهى إلى البقال ؛ فساربه عن هاقه بقل ، وقال : انتقى تسمير أى سورة شئت ، فتنتجى البقال ، وقال : إنما نتج بالكثرة الكثرة لا بالسورة التفسر ، فأخذ الوالد تراجماً بيده ، ووضع على رأس ولده ، وقال : يا ابن للشثومة ، ذهبت بقناطير ، وجئت بأساطير ، لا يبيع بها ذو عقل باقة بقل^(١) .

وإذا كنا نجد عند المزداني ميلاً إلى القصص والحكاية ، فقد كان يقابل ذلك عند صاحب بن عباد ومن يتصل به اهتمام خاص شديد بالجوالين المكذبن

(١) رسائل المزداني ص ٣٩٣ وما بعدها .

وحكاياتهم ومخاطراتهم وانتمهم . وكان الصاحب بن عباد نفسه يحفظ « مفاتيح »
 بنى سامان « حفظاً عجيباً ؛ ويعجبه من أبى دلف الخزرى الشاعر وفور حظه
 منها ؛ وكانا يتجادلان أمدابها ؛ وكان أبو دلف هذا شاعراً كثير الملح والطرف
 « أخلق التسعين فى الأطراف والاعتراب ، وركوب الأسفار الصعاب ، وضرب
 صنعة الحراب بالجراب فى خدمة العلوم والآداب » ، وقد دَوَّخ البلاد ، فطاف
 بالهند والصين ، « وكان ينتاب حضرة الصاحب بن عباد ، ويكثر المقام عنده ...
 وينزود كتبه فى أسفاره ، فتجربى مجرى المنافع فى قضاء أوطاره ^(١) » .

ولم تقتصر دقة ملاحظته بالعين والأذن على أحوال البلاد الأجنبية ،
 بل شملت أخطأ طبقات أمته ، وهى الطبقة التى يحملها المتنقون فى المادة جهلهم
 لما ليس فى بلادهم ؛ وكان الجاحظ أيضاً هو أول من كشف عن هذه الناحية ؛
 فقد تكلم قبل ذلك المهد بمسألة وخمين سنة عن المُسَكِّدِينَ ، وأسمائهم ،
 وما يمتازون به ، ويمتثلون به ^(٢) ؛ ثم جاء البيهقى فى أوائل القرن الرابع فنقل
 عن الجاحظ ، وتوسع فى الكلام عن أصناف المُسَكِّدِينَ وأفعالهم ونواذرهم ^(٣) .
 أما أبو دلف فإنه ألف قصيدة طويلة فى أصناف المُسَكِّدِينَ وشرحها شرحاً
 وافياً كافياً وتقدم كثيراً على كل من الجاحظ والبيهقى ^(٤) .

ويرجع الفضل فى حفره على ذلك إلى الأحنف السكبرى الشاعر ؛ فقد كان
 الأحنف أيضاً من طائفة طاف البلاد وتنبى تنبياً ، وثراً بحرمانه من وطن بأوى .

(١) بنية الدهرج ٣ من ١٧٤ — ١٧٥ .

(٢) كتاب البخل الجاحظ ، طبعة فان فلوتس من ١٧ وما بعدها .

(٣) المحاسن والماوى من ٦٢٢ — ٦٢٧ .

(٤) بنية الدهرج ٣ من ١٧٥ وما بعدها .

إليه ؛ ولكنه ألزم طريقة الشعراء الحقيقيين ، ولم يحاول أن يذكر في شعره كل الألفاظ الصلوكية التي تبين أصناف المُسكِّدين وأفعالهم ؛ وإنما ترك بعض ذلك لأبي دَأَن^(١) .

أما الهمداني فقد طهر في هذا الميدان منيراً بنزعة خاصة إلى الحكايات القصصية التخييلية القصيرة التي تغلب عليها الصبغة البلاغية ؛ وكانت ثمرة ذلك مجموعة من المقامات ، منها واحدة تسمى الرصافية ، وهي معرض تجتمع فيه الاصطلاحات المتعلّقة بالمسكِّدين ، كما هو الحال في قصيدة أبي دلف^(٢) . والهمداني نفسه يشير إلى تأثيره في مقاماته بأبي دلف ؛ وذلك بأن أخذ من قصيدته الأبيات التي ذكرها في المقامة الأولى^(٣) . وقد قدح الخوارزمي في الهمداني بأنه لم يحسن سوى هذه المقامات ؛ فثارت لهذه التهمة تائرة الهمداني^(٤) . ومن أسف أننا لا نعرف الناحية التي أجمعت الخوارزمي في هذه المقامات .

أما عندنا فالتقدم الكبير الذي نلاحظه هو أن جميع المقامات تدور كلها حول رجل واحد هو أبو الفتح الأسكندري ؛ وبذلك تقوم الحكايات المختلفة

(١) نفس المصدر ص ١٧٥ . هل أنه يمال في هذا النمى إله كان للمكبرى نصيدة دالية في الناكاة وذكر للمسكدين . (الترجم) .

(٢) يفتخر الهمداني (رسائل ص ٣٨٩ — ٣٩٠ ، ٥١٦) بأنه أمل في الكدية أربعمئة مقامة لا مناسبة بين القامتين لا لفظاً ولا معنى ؛ ولكن لم يصل إلينا إلا نحو من خمسين مقامة منها ؛ وبقي الأربعةمئة رقفاً دقيقاً ، فإن الهمداني يؤكد في رسائله (ص ٧٤) أنه يسر على أربعمئة صنف من القوسل .

(٣) الزينة ج ٣ ص ١٧٦ . هل أن المقامات لم يذكر تاريخ تأليفها ، فيقول المصري (هل هاشم المقد الفردي ج ١ ص ٢٨٠) إن المقامة الحمدانية (ص ١٥٠) وما بعدها من طبعة بيروت) أُمليت سنة ٣٨٥ هـ — ٩٩٥ م .

(٤) رسائل الهمداني ص ٣٨٩ — ٣٩٠ .

الأشكال على أساس واحد ، وهذا تمهيد للكتابة الروائية على صورة أكبر ؛ ولم يكن قد أتى على المذاني إلا خطوة واحدة أي أني أنا بقصص المتألفين والقصص من أعف والطبوع لم يصل إليه أحد إلى اليوم . ولكن هذه الخطوة لم تتم مع الأسف ؛ ولم يكن ذلك نقص أو قصور في القدرة على نسج القصص وربط أجزائها ؛ فهذه القدرة كانت موجودة ، ونحن نلاحظها في القصص الشعبية ؛ ولكن السبب هو أن المقامات كانت ولا تزال أدباً يؤلف للبلاء ، وهؤلاء لا يعنون بربط أجزاء القصة بعضها ببعض ، وإنما يعنون بالألفاظ والأساليب البليغة . وقد أوجدت هذه المقامات ميلاً إلى الخلط ذات الأساليب الوضاعة التي تشبه « السوارخ » التي تنطلق لامة ، ثم تنفي . وكذلك أساليب البلاء لم يكن لها ، رغم جمالها ، أثر في وضع قصة طويلة متماسكة الأجزاء .

على أنه قد جمعت أشعار المذاني أيضاً^(١) ؛ وهي قصائد تدل على أن صاحبها كان بفطرتة كاتباً موهوباً ، ولم يكن شاعراً ؛ فهي أساليب بلاغية مخمضة مجردة من كل عاطفة شعرية ، وفيها أثر تكلف في الألفاظ والمعاني ، فثلاً يقول المذاني :

إذا سجع القمري دأملت لحنه يلقاع دمع لغناء موافق^(٢)
وهو يتلاعب في شعره بعلم الله أن فيكتب سجدة معرأة من الواو ، وهو ما لم يستطع صاحب بن عباد أن يفعله ، مع أنه استطاع حل قصائد كل واحدة منها خالية من حرف من حروف الهجاء^(٣) .

(١) طبع ديوانه بمصر عام ١٣٢١ هـ ، ومخطوط باريس (٢١٤٧) أدق وأوفى .
(٢) الديوان ص ٥٩ ، والظاهر أن المؤلف لا يمجبه تشبيه الدمع بالإلهام الموسقى . (الترجم)
(٣) بقية المخرج ص ٢٢٣ ؛ والديوان مخطوط باريس ص ١٥٤ - ب .

وتدل عناية الحمصى^(١) (المتوفى عام ٤٥٣ هـ - ١٠٦١ م) برسائل
الهمداني على أن الهمداني قد غلب على من تقدمه ؛ فالحمصى يذكر أجزاء طويلة
من رسائل الهمداني ؛ أما الخوارزمي فلا يذكره أصلاً .

وكان أبو العلاء المرقى (٣٦٣ - ٤٤٩ هـ = ٩٧٣ - ١٠٥٧ م) أكبر
كتاب الفخر في عصر الحمصى . ويقول ناصر خسرو الرحالة الفارسي الذي ورد
المرّة سنة ٤٢٨ هـ - ١٠٣٧ م « إن فضلاء الشام والمغرب والعراق يقرءون أنه
لا نظير له في هذا العصر ، ولن يكون له نظير » ، وقد أشاد الرحالة الفارسي إشادة
خاصة بوصف كتاب لأبي العلاء « جاء فيه بكلمات مرموزة وأمثلة بألفاظ
فصيحة ومجيبة ، بحيث لا يقف عليه الناس إلا قليل منهم ، وهؤلاء يقرءون
عليه أيضاً »^(٢)

وكان ذلك هو النثر الأعلى للفخر الجيد في ذلك العصر ؛ وقد أذخر أبو العلاء
العويصة لقصائده ، ولكننا نجد الأسجاع قد صارت في رسائله أقصر مما
نجد في همداني ، كما أننا نجد تشبيهاته أكثر تكلفةً ؛ وكثيراً ما تطنى الصناعة
والتكلف اللغويان على الترهش من الرسالة ، حتى نجد القارئ مشتت في الوصول
إلى معرفته ؛ وكثيراً ما نجد في رسائله تشبيهات متكلفة مطوّلة كثيراً بالنسبة
العارف من قبل ، فن ذلك قوله : « وأسنى لفراق سيدي الشيخ ، أدام الله
عزه ، أشرف ساق حرّ ، ساقه الطرب إلى الحر ، توارى بالوريقة ، من حر
الوديقة ، كاه قينة وراء ستر ، أو كبير حجب من المقر ، في عنقه طوق ، كرب

(١) زهر الآداب المطبوع بمصر على هامش المقد الفريد .

(٢) ناصر خسرو ص ١١ من طبعة شيفر . [وهذا النص نقله إلى العربية من

كتاب سفر نامه ص ١٦ من طبعة كاويار بيرلين - المترجم] .

بصحة الشوق ، لو قدر لانتزعه باليد ، من القلْب أسفاً على إلفه ، غادره لكمد ،
أى حلفت ، أرسله ، فهلاك ، نوح ، فالحنن عليه نوح ، يسمك بالحناء أصناف
الحناء ، ويظهر في النصوص خبيّ الوجد المصون ، ، وهلمّ جرّاً^(١) .

وبجد الكلام تلح من ثنائه الإشارات الطيفة وأنواع الجنس اللفظي ،
وسكاد نجد في كل جملة صدى من ذلك قليلاً أو كثيراً .

وهذا التعبير عن الشوق المرسل إليه هو الموضوع الذي تبدأ به الرسائل
عادة . على أننا نجد الحمزاني قد عبر عن شوقه بما هو أبسط من ذلك ، مثال ذلك
قوله : « معاذ الله أن أشتاق إلى حضرته ، لكنني أفقتر إليها اقتتار الجسد إلى
الحياة ، والحوث إلى الفرات »^(٢) .

أما بعد ذلك فنجد الكتّاب يهيمون عن الشوق ، ويبالغون في التمثيل بالحمام
أو نحوه مما لم نجربه عادة .

فتلا يقول أبو الملاء : « وشوق إليّ وإلى الجماعة الذين عرفتهم بمدينة
السلام كالنسيم لا يجمد ، ونار فارس ليس تحمد ؛ وفقرى إلى لقائه ولقايم فقرُ
الذي أملتق إلى الصلة ، وبيت الشعر إلى القافية المتصلة » .

ويقول أيضاً : « شوق إلى مولاي الشيخ مناسب طول الدهر لا ينفد
بسنة وش ، ، كما ذهب زمان صادف ، أعقبه من الأزمنة رادف » .

ويقول : « شوق إلى سيدي الشيخ شوق البلاد المحلة ، إلى السحابة
النسحلة ، وانتظارهم أقدمه انتظار تاجر مكة وفد الأعاجم » .

(١) رسائل أبي العلاء نشرة مرجليوث ص ٤٦ - ٤٧ ، ص ٥٢ .

(٢) رسائل الحمزاني ص ٨ .

ويقول أيضاً : « وأنا والجماعة نبث إلى سيدى الشيخ مع راكب الطريق ونسيم الريح الطريق ، والعقيق المومض ، والليلال المتعرض ، سلاماً تأرجح رجالُ الرفقة إذا استودعته ، وتبهج قلوب النفر إن الآذان منهم سمعته ^(١) » .

أو نجد في بعض الرسائل مبالغة في المجاملة والملاطفة لا حد لها ؛ فمن ذلك ، أن أحد الأدباء أهدى إلى أحد الأسراء مختصراً لكتاب مشهور في النحو ، فذكر الممرى عن إيجابه بالختصر بأن شبهه في دقته وإحاطته بما في الأصل بالقرات ، جرى من سم الخطاط ؛ وأول ما نجد في رسائله التي بعث بها إلى بمصر ، وفي أولها يقول : « إن كان للآداب ، أطال الله بقاء سيدنا ، نسيم يتضوع ، ولذا كما نارتشرق وتطلع ، فقد فقمنا على بعد الدار أراج أده ومحا الليل عنا ذكركم بتأهيه ، وخول الأسماع شوقاً غير ذاهبة ، وأطلع في سويداوات القلوب كواكب ليست بغاربة ؛ وذلك أنا معشر أهل هذه البلدة نؤمب لنا شرف عظيم ، وألقى إلينا كتاب كريم ، صدر عن حضرة السيد الخبر ، ومالك أعتة النظم والنثر ، قراءته نكت ، وختامه ، بل سائر ، منك ؛ وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ؛ أجل عن التقييل ، فظلاله المقبلة ، ونزّه أن يبتذل ، فنسخه المبتذلة ؛ وإنه عندنا لكتاب عزيز ... وإنما المنازل التي ينزلها السيد كالشهب الشامية الموفية على العشرين بثمانية ، نزل بها الزبرقان فتشهرت ، ونسبت العرب إليها كل سحابة أمطرت ^(٢) » . وكتب أبو الملاء إلى رجل أخبره بأنه سيزور بلدته للمرّة ، فوصفها له بقوله : « مثله بقدم هذه الناحية مثل النسر الذي هو من ملوك الطير وعظائها ، تنصل من أوصاله راحة المسك ، يهبط

(١) رسائل أبي الملاء من ٣٦ ، ٤٥ ، ٥٤ ، ٨٨ .

(٢) رسائل أبي الملاء من ٣ وما بعدها .

على نبيلة جد وبيلة ، وهذه جل من صفة المرأة : هي ضد ما قال الله عز وجل :
 (مثل الجنة التي وعد المتقن فيها أنهار من ماء غير آسن ...) اسمها طيرة ، وعند
 الله تُرجى الخير ؛ الورد بها محتبس ، وظاهر ترابها في الصيف يابس ؛ ليس لها
 ماء جاز ، ولا تتركس بها غرائب الأشجار ، وإذا أبرز لأهاها ذُبُجٌ ، يؤمل به
 الريح ، تحسبه صبح بخطر ، فكأنما يرمق به هلال القطر ؛ وقد يجيئها وقت يكون
 فيها جدى المعز في العزة كجلى الفرقد ، ومثل جل الكواكب حمل النقد ،
 ويكر فقيرها على الهداية قبل أبى القرخين ابن داية ، حتى يقف بياتع الرسل ،
 فكأنما وقف برضوان يستوهبه ماء الحيوان ^(١) .

والقن العظيم القى يتجلى في هذه الطريقة بما فيها من زخارف كثيرة تشبه
 « السوارخ » جعل اللغة سلسة القياد إلى درجة نادرة ، قوية التعبير رغم
 الاختصار ، وهو الطريقة التي استند إليها كل الذين كانوا يريدون التعبير عما في
 نفوسهم صراعين في ذلك غاية ما أرادوا من الإيجاز والقوة والحرية في التعبير .

وقد بانح أبو حيان للتوحيدى (التوفى حوالى عام ٥٤٠٠ هـ - ١٠٠٩ م) مرتبة
 الأسناد لهذه الطريقة ، وكان على ذروة من ذراها . وأول ما نلاحظه أنه كان
 عالماً بدقائق الأسلوب الرائع ، وقادراً عليه ؛ غير أننا نكاد لا نلاحظ في أسلوبه
 ذلك التكلف الذى نجده عند غيره من الأدباء . ولم يُكْتَبْ في النثر
 العربى بعد أبى حيان ما هو أبسط وأقوى وأشدّ تعبيراً من مزاج صاحبه
 مما كتب أبو حيان ؛ ولكن الجمهور كان يميل إلى طريقة الآخرين في البديع ،
 فيجربى عليها ويعظم أصحابها ؛ ولقد كان أبو حيان فناناً غريباً بين أهل عصره ،
 وكان يمانى وحشة من يرتفع عن أهل زمانه ، ويتقدم عليهم ؛ وهو يقول :

« فقدت كل مؤنس وصاحب ، وصرفق ومشفق ؛ والله لربما صليت في المسجد ، فلا أرى إلى جنبى من يصلى معى ؛ فإن اتفق فبقال ، أو عصار ، أو نذاف ، أو قصاب ، ومن إذا وقف إلى جانبى أسدرنى بصنائه ، وأسكرنى ببدنته ؛ فقد أمسيت غريب الحال غريب النحلة ، غريب الخلق ، مستأنساً بالوحشة ، قائماً بالوحدة ، معتاداً للصمت ، ملازماً للحيرة ، ومحتلاً للأذى ، يائساً من جميع من ترى ، متوقفاً ما لا بد من حلوله ؛ فشمس العمر على شفا ، وماء الحياة إلى نضوب ، ونجم العيش إلى أفول^(١) . »

وفي آخر حياته أحرق كتبه ، فلما عُدل في ذلك قال : « إني فقدت ولداً نجيباً ، وصديقاً حبيباً ، وصاحباً قريباً ، وتابعاً أديباً ، ورئيساً منيباً ؛ فشق على أن أدها لقوم يتلاعبون بها ، ويدنسون عرضى إذا نظروا فيها ... وكيف أتركها لأناس جاورتهم عشرين سنة ، فاصح لى من أحدم وداد ، ولا ظهري من إنسان منهم حفاظ ؛ ولقد اضطرت بينهم ، بعد الشهرة والمعرفة ، في أوقات كثيرة إلى أكل الخضر في الصحراء ، وإلى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة ، وإلى بيع القدين والمروءة^(٢) . »

وكتابه في ذم الوزيرين مشحون بالثلب المذذع ، وقد ظل الناس زماناً طويلاً يعتقدون أن هذا الكتاب يجلب النحس على من يفتنيه .

وآخر مظاهر لضعف الذوق العربى الأصيل أنه منذ القرن الثالث الهجرى

(١) رسالة في الصداقة والصديق طبع القسطنطينية ١٣٠١ هـ ص ٥ - ٦ . ويقول

أبو حيان إنه كتب هذه الرسالة « لما بلغت شمسه رأس الحائط » (ص ١٦٦) .

(٢) الأرشاء لياكوت ج ٥ ص ٣٨٧ - ٣٨٨ .

بدأت قصص السر الأجنبية تحتل مكاناً كبيراً في الأدب العربي^(١). وكانت الإسرائيليات وقصص البحريين تقوم ، حتى ذلك الحين ، بحاجة من يريد التسلية . أما منذ القرن الثالث فقد أضيف إلى ذلك ما ترجم من قصص الهند والفرس ، وكان أهمها في ذلك العصر حكايات ألف ليلة وليلة أو « هزار آفان » ، (ألف حكاية) ، وهو اسمها الفارسي ، وإن كانت هذه الحكايات دون المائتي سر موزعة على ألف ليلة^(٢).

غير أن هذه الحكايات لم تكن تروق الأدباء الذين يؤثرون قراءته الذي يهز أرجاء النفس والذي لا يخلو إلى جانب ذلك من زخرفة ؛ وسر واثق يرون أنها « كتاب غث بارد الحديث »^(٣) ؛ وكذلك نجد أبا العلاء ، الفنان الكبير ، يتكلم عن كتاب كليلة ودمنة كلام من لم يقمضه ؛ فيقول إنه لم يفتن هذا الكتاب ، ولم يتمكن علمه بما فيه ، ولم يسفكه سماعاً^(٤).

(١) جاء في أخبار العرب أن أحسن الناس جواباً وأخضرهم لحيث ثم العرب ، وأن الموالي تأتي أجوبتها بعد فكرة وروية (أمالي الرضى ج ١ ص ١٩٧ طبعة القاهرة ١٩٢٥ م) .

(٢) هل كانت قصص السندباد ضمن حكايات ألف ليلة وليلة ؟ كانت تلك القصص موجودة قائمة بذاتها ، على تفاوت في طولها ؛ وكذلك كان يعرف أنها من كتب الهند (صروج الذهب للمسعودي ج ٤ ص ٩٠ ، والفهرست لابن النديم ص ٣٠٥) . وقد ذكر الصولي في الأوراق (مخطوط باريس ص ٩) وابن الحاجب الشامي (ديوان ابن الحاجب المتوفى عام ٣٩١ هـ - ١٠٠٠ م) مخطوط مدينة جوتا ص ١١١) أن هذا الكتاب ، كتاب السندباد من كتب الحكايات المحبوبة ، التي يجلب إليها الناس ميلاً خاصاً . ويال إن مؤلفه طبيب هندي يسمى سندباد ، وهو يحتوي على كتاب الوزراء السبعة والملك والفلام وامرأة الملك (صروج الذهب ج ١ ص ١٦٢) .

(٣) الفهرست لابن النديم ص ٣٠٤ .

(٤) رسائل ابن العلاء للمري طبعة صرمان ص ١٠٢ .

ولسكن روح ذلك العصر الجديدة التي خرجت من البرقة العربية الأولى كانت تتجه إلى ما هو أجنبي ، وسرطان ما وجدنا حتى من العلماء والمعتبرين من الأدباء من لم يجد فضاعة على مكانته أن يؤلف أسماراً من النثر السهل ، غابتها مجرد التسلية ؛ فنلا ابتداء أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهمياري ، صاحب تاريخ الوزراء ، بتأليف كتاب على نسق كتاب ألف ليلة وليلة ، فاختار ألف سمر من أسمار العرب وغيرهم ، وكتب منها أربعمائة وثمانين سمرًا ، ولكن النتيجة عاجلته قبل تنسيبه الألف . وما يجب ملاحظته أن الجهمياري لم يهتم لوصول قصصه بعضها ببعض ؛ ولهذا الوصل سحره وتأثيره الخاص فينا ، لأنه يجنبنا في مواصلة القراءة بل جعل الجهمياري كل سمر قائماً بذاته ، ويكفي ليلة واحدة^(١) . ومن هذا النوع الكتبُ المليئة التي ألّفها القاضي التنوخي (المتوفى عام ٣٨٤ هـ — ٩٩٤ م) . وأخيراً جاء المؤرخ الكبير مكبوه (المتوفى حوالي عام ٤٢٠ هـ — ١٠٢٩ م) ، وكان أكبر مؤرخي القرن الرابع ، فألف كتاب « أنس الفريد » ، وهو أحسن كتاب صُنّف في الحكايات القصص والفوائد الطاف^(٢) .

وهذه القصص الجديدة هي من نوع يفاير كل المغامرة القصص القديمة التي ألّفها ابن قتيبة وصاحب العقد ؛ ففيها نجد لأول مرة تمام الأسلوب القصصي الإسلامي ، أعنى طريقة القصص التي ليست عربية خالصة ؛ وإلى جانبها انتشرت كتب شعبية كثيرة لا يُعرف مؤلفوها ؛ منها قصص في القروسية كالتي تحكى عن عمرو بن عبد الله ، وأبي عمر الأهرج ، وكتب في النوادر والحكايات مثل حكايات جحا وحكايات ابن الماعلى الذي المشهور ، وكتب هزلية مثل

(١) القمصن ص ٣٠٤ .

(٢) تاريخ الحكماء للعلّص ص ٣٣١ — ٣٣٢ من الطبعة الأوروبية .

قصة عاشق البقرة ، والبنور والفأر^(١) ، وخزء الطائر ، وكتاب ذات الطيب ،
 ثم مجموعة كبيرة من القصص الغرامية وخصوصاً حكايات الشعراء المشهورين
 وأهل الدهاء من النساء العاشقات وكذلك شغلت قصص الحب بين الآدميين
 وبين الجن مكاناً كبيراً^(٢) ؛ وقد ذكر المؤرخ حمزة الأصفهاني حوالي عام ٨٣٥٠
 — ٩٦١ م أنه كان في عصره من كتب السر التي تداولها الأيدي ما يقرب
 من سبعين كتاباً^(٣) . وكان من بين هذه الكتب القصص التي كان يؤثرها أهل
 الطبقة الراقية والتي يغلب عليها الولة واللذة بفتح الهموع ؛ وكان يشير تولة
 المشاق ما روى عن بني عذرة من أن أحدهم « كان يموت إذا عشق » ، وعن
 أبطال القصص الغرامية الذين يموتون من شدة الفقد ، وتتضعضع أعضاؤهم من
 شدة الوجد^(٤) .

وإلى هنا وقف النثر العربي إلى اليوم .

٢ — الشعر

كانت مدن العراق الكبرى مهداً لشعر المحدثين ؛ أما قائم فيصنبر
 بشار بن برد الذي نشأ بالبصرة ، وتوفي عام ١٦٨ هـ — ٧٨٤ م^(٥) . وكان

(١) الأوراق المصولة ص ٩ .

(٢) الفهرست ص ٣٠٨ .

(٣) كتاب تاريخ سق ملوك الأرض والأنبياء عليهم الصلاة والسلام تأليف حمزة بن حسن
 الأصفهاني طبعة حوتفالد ص ٤١ — ٤٢ .

(٤) الرششي لوشناه ، طبعة لندن ١٣٠٢ هـ ص ٦٤ وما بعدها .

(٥) ألف المزياني (المتوفى عام ٣٧٨ هـ) كتاباً كبيراً في أخبار الشعراء المحدثين
 وجعل أولهم بشار بن برد وآخرهم ابن المعتز (الفهرست ص ١٣٢) . ويقول ابن خلدون =

أبوه طلياناً يضرب الابن^(١) . وقد ولد بشار أمى ، وكان ضعفاً طويلاً عظيم الخلق والوجه ؛ وقد سخر منه ربهل بأن قال له كأنك فيل عمرضك أقتل من طورك ؛ وذلك عند ما روى له قول بشار :

فِي حُلَّتِي جِسْمٌ نَتَى نَاحِلٌ لَوْ هَبَّتِ الرِّيحُ بِهِ طَاحاً^(٢)

وكان بشار إذا أراد أن ينشد شعراً صفق بيديه ، وتنحنح ، ويصق من عينيه وشماله ، ثم ينشد ، فيأتى بالعجيب^(٣) . ويحكى عن رجل أنه قال : « عهدي بالبصرة وليس فيها غزل ولا غزلة إلا يروى من شمرى بشار ؛ ولا نائحة ، ولا مغنية إلا تتكسب به ، ولا ذو شرف إلا وهو يهابه ويخشى معرفته لسانه^(٤) » . هل أن بشاراً قصد بغداد وأنشد قصائده أمام الخليفة المهدي ؟

= الشاعر في شطر بيت له : والآخرون يعودون بشار (بقية المخرج ٣ من ٢٣٥) ؛ وهو يسمى قائد المحدثين (حزة الأسفهاى في ديوان أبى نواس طيبة القاهرة ١٨٩٨ م ، ص ١٠ - ١١ ، والمصرى على هامش المقدج ٢ من ٢١) .

(١) الأغاني ج ٣ من ٢٠ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٢ و ٦٥ . ويحكى عن رجل أنه قال : مهزت بشار ، وهو منبسط في دهايزه كأنه جاموس (نفس المصدر ص ٥٦) .

(٣) نفس المصدر ص ٢٢ . وكذلك كان النجاشى من أغنى الناس إنشاداً ، فكان ينشد ويتراور في مشية مرة جانباً ومرة الظهرى ، ويهز رأسه مرة ومنكبته أخرى ، ويشير بكفه ، ويقول : أحسنُ واثق ؛ ثم يقبل على المستمعين فيقول : ما لكم لا تهللون : أحسن ، هذا واثق ما لا يحسن أحد أن يقول مثله (الإرشاد لياقوت ج ٦ من ٤٠٤) . وكان في بعض البلاد في أثناء القرن الرابع الهجرى شعراء يظهرون شذوذاً الشعراء كما كان الحال في المصور المتقدمة ؛ ويحكى عن أحدهم أنه دخل على بعض الولاة ، وقد طاب وجهه بطين أحمر ، وليس لبداً أحمر وحمالة حمراء ، وأمسك عكازاً أحمر ، وليس في رجليه خفين أحمرين (كتاب الديارات ص ٨٦ ب) .

(٤) الأغاني ج ٣ من ٢٦ .

ريقال : إنه ألف اثني عشر ألف قصيدة من الشعر ، وهو من أحسن ما ينثر^(١) .
 وكانت لغة شعر بشار هي لغة كل الشعراء القدماء ؛ ويذكر أنه كان ينزل
 بظاهر البصرة قوّم من أعراب قيس عيلان ؛ وكان فيهم بيان وقصاحة ، فكان
 بشار يأتيهم وينشدهم أشعاره^(٢) ؛ وكان بشار حليماً بأسرار الافة حتى اعتبره
 القويون حجة . ولكن هذا كله كان على الطريقة القديمة ، فلم يبتكر الشعراء
 المحدثون صورا جديدة ، ولا هم اكتشفوا مادة جديدة إلا
 افتتحوا قصائد بذكر الورد والنيلوفر وما أشبههما من أزهار
 على حين كان أهل البادية يفتتحون قصائدهم بذكر الخزامى والبحار والمرار وبحموها
 من زهر البرية^(٣) ، وإن كانوا أيضاً تركوا وصف حمار الوحش إلى وصف
 البهائم ، كما فعل القاسم بن يوسف أخو أحمد بن يوسف الكاتب الذي كان
 يتولى ديوان الرسائل للأمون^(٤) ، أو إلى وصف القطط المنزلية ، كما فعل
 ابن العلاف (المتوفى عام ٣١٨ هـ - ٩٣٠ م)^(٥) .

(١) وقد قتل بشار ، وهو ينازع التين أو ليف على السجين ؛ وقد نكبه الدهر بفقد
 جميع أصدقائه قبل ذلك . وقد قال في أشعاره إنه لم يبق إلا الناس الذين لا يعرفون ما هو
 الكلام ؛ وقد ذم المهدي ، وأقضى به إليه ، وقيل له إنه زنديق ؛ فأمر بضربه ضرب التلف
 حتى مات ؛ يقال لبيت جنته بالبطيحة ، ثم غلغله الماء إلى دجلة البصرة ؛ فأخذ ودفن ، وأخرجت
 جنازته فأتبعها أحد الأئمة له سواد سندية يجهاد بها تصيح ؛ رؤيت قبر خلف جنازته
 وتصيح : واسيداه واسيداه (الأغاني ج ٣ ص ٧٤ - ٧٧) .

(٢) كتاب الأغاني ج ٣ ص ٥٧ .

(٣) المئدة لابن رشيق ص ١٥٠ طبع مصر ١٣٢٥ هـ - ١٩٠٧ م .

(٤) الأغاني ج ٣ ص ٥٦ .

(٥) الديري ج ٧ ص ٣٢١ . لابن العلاف قصيدة طويلة رثى بها مرأ . وقد اختلف
 في سبب محاسنها ، فقيل : كان له قط حبيبة ؛ فقتله الجيران ، فقاموا وقيل : بل رثى بها صديقه
 ابن القمر ، ولم يصرح بذكره خوفاً من المتندر ؛ فورى بالقط . ونسب . بل هو بيت جارية لعل =

أما الجديد فكان وهو التبعث عن الطوائف البدوية التي تخالف المألوف
والتي نسمي الطيفية^(١) ، وهو أثر من آثار تدهور الحضارة التي دخلت في الشعر
العربي حينما آلت القيادة إلى الأخلاط الذين سكنوا المدن .

وحدث في الشعر ما حدث في النثر ؛ ذلك أن الميل إلى الطوائف وللإيديات
قتل في الناس الميل إلى شعر البطولة القديم ؛ وقد امتدح الجاهظ . لأنه كان
مؤسس الطريقة الجديدة التي تجمع بين الجد والمزح ؛ وكذلك نال بشار - زعيم
الشعراء المحدثين - إعجاب أبي زيد الأنباري والأصمعي . وأول ما أعجبهما فيه أنه
كان بمحة وبهزل ، على حين أن منافسيه من المتسكين بمذهب الأوائل لم يكونوا
يحسنون إلا واحداً من هذين^(٢) . وكذلك أعجب الأصمعي في بشار أنه كان
أكثر تصرفاً في فنون الشعر ؛ وأغزر وأوسع بديعاً من غيره^(٣) . أما إسحاق
الموصلی الذي كان يتحمس لمذهب القدماء فقد كان لا يمتدح بشعر بشار ، ويقول :
هو كثير التخليط في شعره ، وأشعاره مختلفة لا يشبه بعضها بعضاً ، فمنها المتناهي
في الجودة ومنها غير الجيد ؛ وهو يذكر لبشار هذين البيتين .

إنما عظم سلاحي حبتى فصب السكر لا عظم الجمل
وإذا أدنيت منها بعسل غلب المسك على ربح البصل

== ابن عيسى الوزير غلاماً لابن العلاف ؛ ففطن بهما على بن عيسى ، ففناهما جميعاً . فرق ابن
العلاف علاه وكفى بالمر (تاريخ أبي الفدا ج ٢ ص ٢٦١ - ٢٦٢ تحت عام ٢١٨) ،
وقد كتب لصاحب بن عباد مزية لقط عارض بها ابن العلاف (ينية الدر ج ٣ ص ٢٣) .
(١) أخذت كلمة « طيب » تظهر في سفة ذلك ، ومن من الكلمات المحبوبة عند

الملاحظ ؛ انظر Van Vloten, Livre des Avars, S. III.

(٢) الأغانى ج ٣ ص ٢٥ . (٣) الأغانى ج ٣ ص ٢٤ .

ويقول إن هذا يزرى شعره ، مهما كان فيه من الجيد^(١) .

وكان « الطيب » ، وهو البديع المستطرف ، في نظر الشعراء القدماء ، شيئاً زائفاً ، لا حقيقة وراءه ؛ ولكنه انتشر عند المحدثين ، وكانت الكلمة الجارية في وصف الشعر الحسن في القرن الثالث هي « البديع » ، أى الطريف المبتدع^(٢) . وقد كتب ابن المعتز (المتوفى عام ٣٩٦ هـ - ٩٠٩ م) — وهو من أكبر الشعراء — كتاباً خاصاً بهذا المعنى .

وقد نبهت المعاني المقام الأول ، كما هو الحال في كل شعر غايته الجرى وراء المستطافات وكان الشعراء يتلصسون بالمبارات ذات المعاني الرائقة والتنويع في تأليف الأبيات الشعرية وفيما تتضمنه من تشبيهات وتصورات . ومن هنا جاءت المعاني التي زادها بشار بن برد وأصحابه ، فإنهم أتوا « بعمان ما سرت قط بخاطر جاهل ولا مخضرم ولا إسلامي »^(٣) . وقيل لبشار : يَمْ تَقَّتْ أَهْلَ عَصْرِكَ فِي حَسَنِ مَعَانِي الشَّعْرِ وَنَهْذِيبِ أَلْفَاظِهِ ؟ قال : « لَأَنِّي لَمْ أَقْبَلْ كُلَّ مَا تَوَرَدَهُ عَلَى قَرِيبَتِي ، وَبَنَاجِينِي بِهِ طَبِيعِي ، وَيَبِيعُ بِهِ فِكْرِي ؛ وَنَظَرْتُ إِلَى مَنَاسِرِ الْقَطَنِ ، وَمَعَادِنِ الْحَقَائِقِ ، وَلَطَائِفِ التَّشْبِيهَاتِ ؛ فَسَرْتُ إِلَيْهَا بِفِكْرٍ جَيِّدٍ ، وَغَرِيزَةٍ قَوِيَّةٍ ؛ فَأَحْكَمْتُ سَبْرَهَا ، وَانْتَقَيْتُ حُرَّهَا ، وَكَشَفْتُ مِنْ حَقَائِقِهَا ، وَاحْقَرَزْتُ عَنْ مَتَكَلِّفِهَا »^(٤) .

(١) نفس المصدر ص ٢٨ .

(٢) وتتصل كلمة « بديع » من حيث الاشتقاق بمعنى ما هو فريد في بابه أو غريب أو مستحدث .

(٣) الممدوح ج ٢ ص ١٨٥ .

(٤) نفس المصدر .

ومن شعر بشار الذي يُعتبر « مستحدثاً » ومثالا المعاني المبتكرة والشعر
 الجيد قوله في وصف حُبّه ، وهو المكفوف البصر ، لصوت امرأة تكلمت معه :
 يا قوم ! أذنى لبعض الحى عاشقة . والأذن نَشَق قبل الدين أحيانا
 قالوا : بمن لا ترى تهذى ، فقلت لم : الأذن كالعين توفى القالب ما كانا
 وهو يزيد هذا المعنى بساطة ودقة في صورة أخرى له ، حيث يقول :
 قالت عقيل بن كعب إذ تعلقها قلبي ، وأمسى به من حبها أثرُ :
 أنى ، ولم ترها ، تهذى اقللت لم : إن الفؤاد يرى ما لا يرى البصر^(١)
 وكانت عادة الشعراء ، بما سلف ، أنهم كانوا يشبهون الخلدود بالورد ؛ أما
 ليوم فإن الورد يشبه بالخلدود يضاف بعضها إلى بعض .
 وقد أنشد أحد الشعراء أمام رجل هذا البيت :
 عشية حيّان جورد كأنه خدود أضيفت بعضهم إلى بعض
 فأعجب السامع حتى زحف إلى للنشد وطلب الزيادة^(٢) . وقد قال أعظم
 الإحجاب ، واعتُبر من « البديع » قولُ ابن الرومي (المتوفى عام ٢٨٠ هـ -
 ٨٩٣ م) :

يجذب من فقرته طيرة إلى مدي ، فمدي من نيله
 فوجهه يأخذ من رأسه أخذ نهار الصيف من ليله
 وهو يشهر بالليل والنهار إلى لون الشاهر الأسود وجمال بياض جلد الرأس^(٣) .

(١) المدة ج ٢ ص ١٨٨ ؛ وتجد صورة أخرى لهذه الأبيات في الأغاني ج ٣ ص ٦٧ ،
 وقد كان عمر بن أبي ربيعة هو صاحب طريقة قالوا وقت في شعر الغزل
 (٢) كتاب الديارات ص ٥ ب .
 (٣) المدة ج ٢ ص ١٨٨ .

وكان ابن الرومي هذا متطرفاً في حكمه على الشعراء المحدثين ، حتى كان يزعم أن بشاراً أشعر الناس جميعاً ممن تقدم وتأخر^(١) ، وهو حكم كان يقف له شاعر الأديباء والقوميين في ذلك العصر .

على أن ابن رشيق ، ناقد الشعر المعروف (المتوفى عام ٨٤٦٣ - ١٠٧١ م) ، قرر بعد ذلك بماتى عام أن ابن الرومي نفسه أكبر الشعراء المحدثين . وهو يروى له البيت المتقدم ويقدمه بقوله : فقال ابن الرومي ، وأحسن ما شاء^(٢) .

وهذه الطريقة الجديدة قوت ما عند الشعراء الموهوبين من ميل طبيعي إلى الاستقلال في رؤية الأشياء بعيونهم لا بعيون المتقدمين وإلى الابتكار في عبارتهم ، تقوية كبيرة ، وأصبح لا يحمد لهم أن يسيروا على المناهج السهلة المطروقة . ولهذا الطريقة الجديدة يرجع الفضل في هذه الملاحظة الطبيعية التي تشبه الكحل من غير تكحل والتي نجدها مثلاً في رثاء بشار لبُنيّة صغيرة له^(٣) :

يا بنت من لم يَكُ بهوى بنتا ما كنت إلا خسة أو سقا
حق حلت في الحشى وحق ننت قلبى من مجوى قانقا
لأنت خير من غلام بتا يصبح سكران ويمسى بهتا
أو ما قيل في وداع جارية^(٤) :

نقول غداة البين إحدى نسايم : لي الكبدُ الحزى ، فسير أولك الصبر
وقد خنقتهما هبرة ، فدموعها على خدها بيض وفي نحرها صفر

(١) حرة الأسفهانى في ديوان أبى نواس طبعة القاهرة ١٨٩٦ ص ١٠

(٢) الصدة ج ٢ ص ١٨٨ ، ١٩٤ (١)

(٣) الأغاني ج ٣ ص ٦٣ .

(٤) حلة الكيت ص ١٩١ .

أوفى أنواع التصوير القوية التي نجدها عند أبي نواس^(١) (التوفى حوالي عام ١٩٥ هـ - ٨١٠ م) والتي تذكرنا بما في أغانينا الشعبية من نحو تشبيه فعل الحب بالقلب بفعل الاطبال بالفأر^(٢).

أوفى التمثيل الرفيع الذي نجده عند ابن المعتز (التوفى عام ٢٩٦ هـ - ٩٠٩ م) في قوله^(٣) :

وجلجل رعد من بعيد كأنه أمهر على رأس اليفاع خطيب
أوقوه^(٤) :

وددت إلى التي نفسي ، فقرت ، كما ردّ الحمام إلى القرب
أوقوه في إحدى المحرقات^(٥) :

فانظر إلى دنيا ربيع ! أقبلت مثل النساء تبرجت لزناة
والكساء الصفراء باد حجبها ، فيكل أرض موسم الحماة
أوقوه^(٦) :

زارني ، والدحي أسم الحواشي ، والثريا في الغرب كالمنقود

س في البصرة ، وكثيراً ما كان يلجج بشاراً وحب على قوالب ممانيه ،
باني (ديوان أبي نواس س ١٠) . ويمكن من الجاهل للتوفى عام
٢٥٥ هـ - ٨٦٩ م أنه قال : لا أمرف بعد بشار مولدنا أعمر من أبي نواس (ديوان
أبي نواس س ٩) .

(٢) ديوان أبي نواس ، مخطوط فينار رقم ٧٣٤ س ١٦٧ ب (١) .

(٣) ديوان ابن المعتز ج ١ س ١٥ . وكذلك يقول أبو تمام (في الديوان طبعة بيروت
١٨٨٩ م ، س ٣٧٠) :

فقام فيها الرعد كالخطيب وحنن الريح حنين التوب

(٤) ديوان ابن المعتز ج ١ س ١٦ .

(٥) ديوان ابن المعتز ج ٢ س ٣٤ . (٦) نفس الصدر ج ٢ س ١١٠ .

وهلال السماء طوق عروس بات يحلى على غلائل سود
أو قوله^(١) :

أطال الدهر في بغداد هي وقد يشق المسافر أو يفوز
ظلات بها على كرو مقياً كعنين تعانقه مجوز
وكثيراً ما يكرن في شمر هؤلاء الشعراء ابتكاراً كبير فن ذلك قول
أبي نواس :

تقول غداة البين إحدى نسايم لي الكبد الحزى فيراً ولك الصبر
وقد حصّيتها عبرة ، فلدستها على خدّها خدّ وفي نحرها نحر^(٢)
أو قول ابن المعتز^(٣) :

انظرُ إلى حُسنِ هلال بدا يهتك من أنواره الحندسا
كينجَلٍ قد صيغ من فضة يحصد من زهر الدجى رجسا
أو قول ابن الرومي^(٤) :

وقد نشرت أيدى السحاب مطارفا
على الأرض دُكناً وهي خُضرٌ على الأرض
بطرزها قوسُ الغمام بأصفر على أحمر في أخضر وسطه بُيُض
كأذيال خود أقبلت في غلائل مصبغة ، والبعضُ أفتَرُ من بعض
ونجد هذا الجرمي وراء ما هو غير مألوف من المعاني الجديدة يندش في الشر

(١) ديوان أبي نواس ص ٨ .

(١) نفس المصدر ص ١٢٢ .

(٢) السدة ج ٢ ص ١٨٤ .

(٣) الديوان ج ٢ ص ٦٢٢ .

(٤) السدة ج ٢ ص ١٨٤ .

العرب طول القرن الرابع الهجرى ؛ وهو قد أيقظ جميع حواس الشاعر ونهها
 تنبيهها كثيراً ، ليستخرج أعماق ما فى باطن الأشياء من أسرار ، وليكشف عن
 أغرب خصائصها . وأول ما نلاحظه أن الشعر لم يكن له بد من أن يقوم مقام
 الفن التصويرى ؛ فالكثير مما يعبر عنه الشعر ما هو إلا تصوير ورسم لما تبحش
 به نفس الشاعر ويضطر إلى إرازه فى صورة من الألفاظ . وقد قويت فى الشعراء
 رغبة عظيمة فنظر بأعينهم ، وقامت فى نفوسهم حاجة إلى النظر فى الأشياء نظرة
 فنية ، وإلى الإبانة عنها إبانة توضيحية لم . وهذا ما لم يعرفه العرب الأولون ؛ فقد
 كان فهم فناً لغوياً أداته الألفاظ . وقد اتصل العرب بشعوب أخرى تختلف
 عنهم اختلافاً تاماً ؛ وقد كان لهذه الشعوب فنون غير الفنون الكلامية ، ولكن
 العرب لما غلبوا عليهم علوم الكلام لا التصوير ، أى أنهم وضعوا فى أيديهم
 القلم بدلا من ريشة الرسام المصور ؛ ولما آل الأمر إلى هذه الشعوب وأصبحت
 هى القابضة على زمام الفن الأدبى ، زاد الشعر التصويرى زيادة كبيرة ، بد أن
 لم يجد أبو تمام ما يصلح للاختيار فى باب الأوصاف حتى يذكره فى ديوان الحاسة
 إلا بضعة عشر بيتاً . وكان شعراء العرب القدماء قد اختصروا دائماً فى وصف
 الطبيعة المحيطة بهم بنوع خاص ، وكانوا منذ القدم يذكرون شيئاً من وصفها فى
 شعر الشراب ، وخصوصاً فى وصف الأيام اعطرت المذجنة التى كان يحلو لهم فيها
 الشراب عادة ؛ أما الشعراء المتأخرون فقد جاءوا فى هذا الباب بأدق التشبيهات ؛
 فيقول ابن الرومى مثلاً^(١) :

يومنا قد سديم يوم سرور والتذاذُ ونعمةُ وابتهاجُ

(١) بنية المهرج ٢ ص ٢٠ .

ذو سماء كاد كن الخرز قد غيبت وأرض كأخضر الديباج
ويقول الوزير أبو محمد المهلبى ^(١) :

يوم كُأف سماء شبه الحصان الأبرش
وكان زهرة روضه فرشت بأحسن مفرش
فسماؤه دكن الخرز وأرضه حصر الوشى
وكان القدماء يفضلون الشراب في الليل أو عند طلوع الفجر الأول ، في
الوقت الذى قال فيه ابن المعتز ^(٢) :

حان ركوع أبريق لكأس ونادى الديك حى على الصبح
وَدَلَّتْ قال أبو نواس في مصيدى به شياً من هذا ، فن ذلك ^(٣) .
قد هتك الصبح سنور الدجى فأنحسرت أنواره الجوف
فأصبح نداماك سخامية أنى لها فى دَهْها حين
وبعد ذلك بنحو قرن نجد ابن المعتز قد جاء فى هذا بالكثير المتنوع فن
ذلك قوله ^(٤) :

- (١) ينبة الدهرج ٢ ص ٢٠ . (٢) الديوان ج ٢ ص ٣٦ .
(٣) ديوان أبى نواس ص ٣٤٩ ؛ وقد افتتح أبو نواس إحدى غرقاته بما هو
أكثر تواضعاً :
طاب الزمان وأورق الأشجار ومضى الشتاء وقد أتى آذار
وكس الربيع الأرض من أنواره وشبا تحار لحته الأبصار (ص ٢٩٠)
أما كلامه بعد ذلك من الجنان الخضراء وغناء الأطياف فلا يمتنى مع بقية القصيدة ، ولله
من وضع الآخرين ؛ ومن هذا القليل ما نسبته للسعوى (مروج الذهب ج ٨ ص ١٠٧ -
١٠٩) لأبى نواس من قتال بين الأزهار فى لصيدة له ؛ فهو لا يوجد فى الديوان ،
وأصله يرجع إلى الآخرين .
(٤) ديوان ابن المعتز ج ٢ ص ٣٧ .

قم يا نديى نصطبج بسواد قد كاد يبدو الصبح أروباد
وأرى الثريا في المنام كأنها قدم نبذت في ثياب حداد
بقوله (١) :

قد بدت فوق الهلال كرتة كهامة الأسود شابت لحيتة
على أنه في عمر ابن المعتز نفسه بدأ الناس ينصرفون عن الشراب في هذا
نوقت التريب ، وابن المعتز يصفه أحيانا بعدم الملازمة ، فمن ذلك قوله (٢) :

إذا أردت الشرب عند الفجر والنجم في لجة ليل يسرى
وكان برد بالنسيم يرتد وريقه على الثنايا قد جدد
والفلام ضجرة وهمه وشمة في صدره مجحه
يمشى بلا رجل من النعاس ويدفق الكأس على الجلاس
أجل من مساكن وزينته وهيئة تنظر حسن صورته
لجاءم بفسوة العاف محولة في التوب والأعطاف
للعصوح يعرف على الصبوح والظلام مسرف

وعند ابن المعتز نفسه نجد الشعور بجمال الطبيعة والتمتع به يظهر قويا في
الخرجات ؛ فقد بدأ أصحاب الشراب يتمتعون بجمال الجنان والأشجار ، ويشربون
بين الورد والزرجس والجلنار والأقحوان وغناء الطيور ، وذلك كله في الربيع
« وموسم الحياة » (٣) .

(١) ديوان ابن المعتز ج ٢ ص ١١٠ .

(٢) ديوان ابن المعتز ج ٢ ص ١١٣ .

(٣) ديوان ابن المعتز ج ٢ ص ٣٤ ، ٥١ ، ١١٠ ، ١١١ .

وفي النصف الأول من القرن الرابع الهجري نبغ شاعران شاميان ، وكانا صديقين ؛ فأنشأ قصائد تغنيا فيها بالبساتين وما لها من جمال داني القطوف متنوع النواحي بخاب الألباب ، وبلغا بذلك الشعر إلى القدوة .

أما أولهما فهو أبو بكر محمد بن أحمد الصنوبري^(١) . ولد هذا الشاعر بأطاكية ؛ وكان أميناً على خزانة كتب سيف الدولة^(٢) . ويدل لقبه ، « الصنوبري » ؛ على أنه هو أو أباه كان يتجر في خشب الصنوبر^(٣) . ولما كان الخروط الشكل يسمى الصنوبري تشبيهاً له بحمل شجرة الصنوبر^(٤) ، فقد يجوز أن يكون هذا الشاعر لقب بهذا القب على سبيل الإشارة إلى صفته وصورته . وله لقب آخر هو « الصيفي » ، وليس في هذا ما يدهونا إلى الظن بأنه ذهب إلى الصين ؛ فقد كان بالكوفة مثلاً رجل يسمى الصيفي ، لأنه كان يتجر إلى الصين ، فأنسب إليها^(٥) . وقد مات الصنوبري في عام ٨٣٣٤ - ٩٤٥ م^(٦) ، وهو يناهز الحسين على الأهل^(٧) . ونعرف من حياته أنه كان صديقاً للشاعر

(١) حكفا في القهرست ص ١٦٨ ، وعند أبي الحسن (ج ٢ ص ٣١٢ تحت عام ٣٢٤) : أحمد بن محمد بن الحسن الضبي الحلبي ؛ وعند ياقوت (ج ٢ ص ٣١١) : محمد بن مرار ، وعند الكشي (ج ١ ص ٦١) : أحمد بن محمد .

(٢) . طالع البدور للغزولي ج ٢ ص ١٧٦ .

(٣) يذكر ابن حوقل (ص ١٢١) أنه كان على شط البحر مكان يعرف بمصن الثينات فيه مقام لحشب الصنوبر الذي كان ينقل إلى مصر الشام والقفور . ويقول العريف الإدريسي (رحلة الشناق في اختراف الآفاق طبعة برامل ص ٢٣) أنه كان لبيروت غبضة أشجار صنوبر مما يلي جنوبها تصل إلى جبل لبنان ، وتكسر هذه الغبضة اثنا عشر ميلاً في مثلها .

(٤) مفاتيح العلوم للخوارزمي ص ٢٠٧ .

(٥) معجم البلدان لياقوت ج ٣ ص ٤٤٤ .

(٦) أبو الحسن ج ٢ ص ٣١٢ .

(٧) معجم البلدان لياقوت ج ٢ ص ٦٦٥ .

كشاجم ، وأن كشاجم وصفه بأنه « بحر ماله شط »^(١) ، وأنه طلب
يد ابنته^(٢) ، وعزاه من فقد ابنة أخرى له توفيت بكراً^(٣) .

وقد تنفى كثيراً بذكر حلب والرقّة ، وهما أكبر بلدين كما مفرّاً لسيف
الدولة . على أنه سكن الزها ، وكان يجتمع في دكان وراق يقال له سعد بكثير من
أدباء الشام ومصر والعراق^(٤) . وكانت له بمدينة حلب حديقة بها قصر فم حوله
الغروس والرياحين وشجر النارج^(٥) ، وذلك يسمى الحاي . وكان الصنوبرى
صغيراً فلم ينل مكاناً في كتاب الأغاني ، وكان مستأفلاً ينل مكاناً في بقيمة
الدهر ؛ ولذلك بنى ديوانه مفرّاً ، ولم يوجد منه إلا أجزاء صغيرة ؛ وإن كان
الصولى قد رتبته على حروف المعاء ، وجمعه في مائتى ورقة^(٦) ؛ فلا بد أن تجمع
بقاياها من كل ناحية . يقول الصنوبرى في وصف سرير من الشقيق أحاط به
ورد أبيض^(٧)

قد أحرق الورد بالشقيق خلال بستائك الأنيق
كان حوله وجوه مستشرقات إلى حريق
ويقول^(٨) :

وكانت تحترق الشقيق إذا تصوب أو تصعد

(١) ديوان كشاجم طبعة بيروت ١٢١٣ هـ ، ص ١١٦ .

(٢) نفس المصدر ص ٧٤ وما بعدها .

(٣) نفس المصدر ص ٧١ وما بعدها .

(٤) الإرشاد لباقوت ج ٢ ص ٢٢ .

(٥) ديوان كشاجم ، ص ٧٤ .

(٦) الفهرست ص ١٦٨ .

(٧) كتاب الفهارات ص ١٩٧ .

أعلامٌ ياقوتٌ نُشرَ ن على بساط من زبرجد

ويقول^(١) :

ياريم قومي الآن، وبمك افانظري ما لرؤي قد أظهرت إجابها
كانت محاسن وجهها محجوبة فالآن قد كشف الريح حجابها
ورَّد بدا بمكي الحدود ورجس بمكي العيون إذا رأت أحبابها
وثياب باقلاء يشبه نوره باق الحمام مُشيلة أذناها
والسرو تحميه العيون خوانيا قد شمرت عن سوقها أثوابها
وكان إحداهن من فح الصبا خود تلامب موهنا أزيابها
لو كنت أملك للرياض صيانة يوما لما وطئ الثام تربها
ويعتبر الصنوبري^٤ النرجس ملكا للأزهار، فمن قوله في النرجس^(٢) :

أرأيت أحسن من عيون النرجس أم من تلاحظين وسط المجلس
درر تفتق عن يواقيت على قضب الزمرد فوق بسط السندس
أجفان كافور حقفن بأعين من زعفران ناعمات اللبس
فكأنها أقمار ليل أهدفت بشموس أفق فوق غصن ألبس
والنرجس هو أعظم أزهار الشام، وهو الذي يحمل سراويلها بيضاء ناصعة^(٣).

(١) فوات الوفيات للكتبي ج ١ ص ٦١ ؛ وكتاب من غاب عنه للطرب لشمالي ،
طبعة بيروت ١٣٠٩ هـ ص ٢٥ .

(٢) فوات الوفيات للكتبي ج ١ ص ٦١ طبعة القاهرة ١٢٩٩ هـ .

(٣) رحلة ناصر خسرو (سفرنامه) ص ٣٩ من ترجمة شيفر (Schiefer) . بعد
ذلك يذكرنا ناصر خسرو بجزيرة النرجس التي في طرابلس الشام .

وكذلك وصف هذا الشاعر معركة بين الأزهار فقال (١) :

خجل الورد حين لاحظته النرجس من حسنه وغار البهار
فعلت ذاك حرّةً وعلت ذاك صفرةً واعترى البهار اصفرارُ
وغدا الأخوان يضحك عجباً عن ثنائنا لثامهن نضار
نم نم للثام واستمع السوسن لما أذيعت الأمرار
عندما أبرز الشقيق خدودا صار فيها من اطمه آثار
سكبت فوقها دموع من الطل كما تسكب الدموع الفزار
فاكتمى البنفسج الغض أنواراً بحداد دخانها الاصطبار
وأضرّ السقام بالياسمين الفتى حتى آذى به الإضرار
نم نادى الخبير في سائر الزهور فوافاه جعفل جرار
فاستجاشوا على محاربة قلندر جس بالجعفل الذي لا يبار
فأتوا في جواشن سابقات تحت صيف من المعجاج يثار
نم لما رأيت ذا النرجس للفضض ضميماً ما إن لديه انتصار
لم أزل أعمل التلطّف لورده حذاراً أن يُغلب النوار
لجميعنا هو لدى مجلس فيه تنقي الأطيّار والأوتار
لو نرى ذا وإذا قلقت خدود تدمن اللحظ حولها الأبصار

(١) فوات الوفيات ج ١ ص ٦١ ؛ وينسب المسمى (ج ٨ ص ١٠٧) لأبي نواس
قصيدة يصف فيها قتالاً بين الزهور حيث نجد الزهور ، الحمراء مثل الورد والبنار ونفاح لثان
تغارب الأزهار الصفراء مثل النرجس والبهار والأنرج . وهذه النسبة لا يمكن أن تكون
محيطة لأسباب يفتضحها النقد القائل . ولا نجد هذه القصيدة في نسخة الديوان التي طبع
بيروت ، ولا يمكن أن تكون هذه القصيدة من قول الصوري لذكره في المتن . ولأن
الورد فيها أفضل على النرجس

وفي القرن الثالث وصف البحري بركة في دار الخلافة فقال :

تنصبّ فيها وفود الماء مُثَجَّلَةً كالخليل خارجة من حبل مجريها
كأعما الفضة البيضاء سائلة من البائث تجري في مجاريها
إذا النجوم تراءت في جوانبها ليلاً حسبت سماء ركبت فيها
لا يبلغ السمك المحصور غايتها ليمد ما بين قاصيها ودانها
يؤمن فيها بأوساط مجنحة كالطير تنقض في جو خوافها^(١)
والآن نجد الصنوبري يشبه بركة بموضع يصفه ، نشيها لا يغلو من تطرف
ومبالغة ، فيقول^(٢) :

هي الجو من رقة غير أن مكان الطيور يطير السمك
ولكن لما كان الصنوبري شاعراً وصافاً للجنان فهو بقول في تلك
القصيدة :

وقد نظم الزهرُ نظم النجوم فتهرق النظم أو مشبك
وكان الصنوبري ، وهو أول شاعر للطبيعة في الأدب العربي ، يجمع إلى
ذلك ولوفاً شديداً بالسما والضياء والهواء مع التطلع إلى أسرارها الجميلة ، فهو
يقول في إحدى أغاني الربيع^(٣) :

إن كان في الصيف ريحانٌ وفاكهة والأرض مستوقدة والجو تُشور
وإن يكن في الخريف النخل مخترقاً فالأرض عريانة والجو مقرر

(١) ديوان البحري ج ١ ص ١٧ .

(٢) المحصري على هامش القدرح ١ ص ١٨٣ .

(٣) نازن الوفايات للشكشي ج ١ ص ٦١ ، ونزاعظم ص ١٤٥ .

وإن يكن في الشتاء الغيث مقصلاً فالأرض محصورة والجو مأسور
 ما الدهر إلا الربيع المستنير إذا جاء الربيع أذاك النور والنور
 والأرض يا قوتة والجو لؤلؤة والبت فيروزج والماء بلور
 تبارك الله ما أحلى الربيع ! فلا تفرق فقايقه بالصيف مغرور
 من ثم طيب جنيات الربيع بقل لا الملك منك ولا الكافور كافور
 وكان أول من تنفى بالقصائد التاجيات ، ومن ذلك قوله ^(١) :

ذُفِّبَ كُؤُوسُكَ يَا غَلَا مَ فُلَانَهُ يَوْمَ مَفْضُضٍ
 والجو يُجَمِّلُ فِي الْبَيَاضِ وَفِي حُلِيِّ الْفَرَسِ يَمْرُضُ
 أَنْظُرْ ذَا ثَلَجًا وَذَا وَرْدٍ عَلَى الْأَغْصَانِ يَنْفُضُ
 وَرْدَ الرِّيحِ مَلُونِ وَالْوَرْدُ فِي كَانُونِ أَيْضُ
 وقد ترك الصنوبري آثاراً قوية في الأدب العربي ، وقد ظهر أول أثره
 عند كشاجم ^(٢) شريكه في الوطن وصديقه الحميم ؛ وقد عبر كشاجم عن هذه
 الصداقة بقوله ^(٣) :

أَنْسَى زَمَنًا كُنَّا بِهِ كَالْمَاءِ فِي الْخَمْرِ
 أَلْفَيْنِ حَلِيفَيْنِ عَلَى الْإِسَارِ وَالْمَسْرِ
 مَكْبُتَيْنِ عَلَى الذَّاتِ فِي الصَّحْرِ وَفِي الْكَمْرِ

(١) نثر الظلم للشمالي طبعة دمشق ١٣٠٠ هـ ، ص ١٣٧ .

(٢) كان كشاجم شاعراً كاتباً ؛ وإلى جانب ذلك كان سهواً وصاحباً . طبع لبف

الدولة ، (انظر ديوانه ونبذة الدهرج ٤ ص ١٤٧) .

(٣) ديوان كشاجم ص ٧٤ .

نرى في فلك الآداب كالشمس وكالبدر
وقد سار كشاجم في شعره على الطريق الذي رسمه صديقه الصنوبري ،
فانتدى به ، في التغني بالذات العينية ، فن ذلك قول كشاجم^(١) :

أقبلت في غلالة زرقاء زرقاة لقيت بحرى الماء
تأملت في الغلالة نهبا جسد النور في قيص الهواء
هي بدر ، وإن أحسن لون ظهر البدر فيه لون السماء
وهو يصف مليحة في لباس حداد بقوله :

في حداد كأنها وردة في بنفج
ويقول في غلام :

كلف الفؤاد بشادن أبصرته في مأنم يبكي بطرف أدهج
ما زال يغمش خده بينانه حتى تنقب وردة يبتسج^(٢)
وقال يتغزل في نهر قويق بحلب^(٣) :

والأرض تكسى زهرار باض وشيا معد
كان خرد عينا بها يضاكن خرد
.....

وحمة في شقيق وخضرة في زبرجد

(١) ديوان كشاجم ص ٦ .

(٢) نفس المصدر ص ٢١ ، ٢٢ .

(٣) نفس المصدر ص ٤٨ وما بعدها .

والغوان كنفد من لؤلؤ قد تبدد
والترجس الغض يرو إلى البهار المنفد
كما أشار حبيب إلى حبيب بموعده
وللتبر بين اعتدال من سيرة وتأود
كأنفوان اللوى ثم استوى وتدد
كان فيه سيوفاً مهندات تجرد
فتارة هي تنفى وتارة هي تنفد
كان لنيلوفر النهر فيه سراج توقد
طوراً تنفى وطوراً بشدة الريح تخمد
وهـ قد فـ، وصف نيل مصر^(١) :

كان النيل حين أتى بمصر وقاض بها وكسرت القراع
واحدف بالقرى من كل وجه سماوات كواكبها ضياع
وكذلك نظم قصائد فـ، وصف الثلج منها قصيدة أولها :
الثلج يسقط أم لجين يسبك أم ذا حصا الكافور ظل يفرك
على أنه في هذه القصيدة قال ما يدل على عدم انصقال الذوق ، ومن ذلك
قوله في وصف الثلج :

راحت به الأرض القضاء كأنها من كل ناحية بثغر تصحك^(٢)

(١) كتاب الديارات ص ١١٠ .

(٢) ديوان كينام ص ١٤٠ .

وكان لكشاجم كثير من المجهين ، وقد قال أحدهم :

يا بؤس من يُنفى بدمع ساجم يهسى على حجب الفؤاد الواجم
لولا تطله بكأس مدامة ورسائل الصابي وشعر كشاجم^(١)

وكان كشاجم يلقب في منتصف القرن الرابع الهجري « ربحانة أهل الأدب » في بلاد الموصل ؛ وكان الخالديان : أبو بكر محمد وأبو عثمان سميد ابنا هاشم شاعرين كبيرين في الموصل ؛ وكان بهذه المدينة من الشعراء السريّ بن أحمد السكندی المعروف بالرقاء . وكلهم — رغم ما كان بينهم من تنازع وعداوة وكيد — كانوا يسهرون في طريق كشاجم ، وينهجون منهجه . وكان السريّ يشتم على الخالدين ويقض منهما ؛ فكان ينسج ديوان كشاجم ، ويدرس فيه أحسن شعر الخالدين ، ليزيد في حجم ما ينسخه من شعر كشاجم ، ويُظهر صدق ما يدميه على الخالدين من سرقة شعره ، ولذلك يقول النعالي : « فن هذه الجهة وقعت في بعض النسخ من ديوان كشاجم أشعار ليست في الأصول المشهورة منها ، وقد وجدتها كلها للخالدين »^(٢) .

وكان أبو الحسن محمد بن عبد الله السلامي (المتوفى عام ٥٣٩٤ هـ — ١٠٠٤ م) من أشعر أهل العراق ؛ وورد الموصل صبيّاً ، فوجد بها أبا عثمان الخالدي وشيوخ

(١) يتيمة الدهرج ٧ ص ٧٤ .

(٢) اليتيمة ج ١ ص ٤٥٠ — ٤٥١ . ومن رسائل الصابي رسالة بحث بها إلى الخالدين برآ فيها نفسه مما طناه به من مصادرة السري على عداوتهما والرضا بطعنه عليهما . وقال فيها أيضاً إن السريّ سأله استماع شعر مدحه به ، فلم يجبه إلّا ذلك إلا بعد أن شرط عليه ألا يمس في ذلك ذكر الخالدين بسوء ولا غمز . ويذكر الصابي أيضاً أن السريّ أضر طعنة من شعره فيها أشعار الخالدين ، فأخرج ما طعنه من نسج لدمرهم ، ونال السريّ عليها لئلا يثبت أنها ليست له ؛ انظر رسائل الصابي مخطوط لندن ص ١٧٤ — ١٧٥ .

الشعراء ، فمحبوا منه ، واتهموه بأن الشعر ليس له ، فأنخذ الخالدي دعوة ، ورجع
الشعراء ، وعسر السلافي معهم ؛ فما توسطوا الشراب أخذوا في ملاحمته واثبتوا
على قدر بضاعه ، فلم يلبثوا حتى جاء مطر شديد وزرقة مسير الأرض ، فأتى
أبو عثمان فارحاً كان بين أيديهم على ذلك البرد ، وقال : يا أصحابنا هل لكم في
أن نصف هذا ، فقال السلافي ارتجالاً^(١) .

فـ ذر الخالدي الأوحـد النذب الخطير
أهدى لماء المزن عند جوده نار السعير
حتى إذا صدر العنا ب إليه عن حلق الصدور
بشت إليه بعذره من خاطري أيدى السرور
لا تذلو فانه أهدى الخدود إلى الثفور

وقال أحد الخالدين في وصف القبر^(٢) :

أرعى النجوم كأنها في أنقها زهر الأفاقي في رياض بنفسج
والمشترى وسط السماء تحاله وسناء مثل الزئبق المترجرج
مسار نبر أصفر ركبته في فص خانم فضة فيروزج
ونمايل الجوزاء يحكي في الدجى ميلان شارب قهوة لم تمزج
وتنقبت بخفيف فم أبيض هي فيه بين نغمز وتبرج
الحساء في المرأة إذ كملت محاسنها ولم تنزوج

(١) بليمة الدهرج ٢ ص ١٥٧ — ١٥٨ .

(٢) نفس المدرج ١ ص ٥١٤ .

ويقول أيضاً^(١) :

ومدادة صفراء في قارورة زرقاء تحملها يد بيضاء
 فالراح شمس والحبار كواكب والسكاف قطب والإناه سماء
 وكانت الوزير المهلي شاعراً في مرتبة أرق من مرتبة الطبقة الوسطى
 من الشعراء ؛ وقد أنشأ مجلداً حافلاً بالأدباء ، وكان يحب الطبيعة والشراب ، فشر
 طريقة الصنوبري ببغداد . وبمحدثنا صاحب بن عباد في كتاب الروزنامة ،
 وهو يوميات رحلته إلى بغداد ، أن الوزير المهلي كان كثير الإشاد لشعر
 الصنوبري^(٢) ؛ بل نجد المهلي ينسج على منوال أستاذه ، فيصف الثلج ، وهو
 من الأعاجيب ببغداد ، ومن ذلك قوله^(٣) :

الورد بين مضج ومضج والزهر بين مكل ومكول
 والثلج يهبط كالنار ، فقم بنا نلتذ بآنية صكرمة لم نخرج
 وكذلك يقول القاضي التنوخي — وكان من ندماء المهلي — متأثراً بطريقة
 الصنوبري في وصف امرأة مسها خجل ، وقد بدت في رداء معصر^(٤) .
 لم أنس شمس الضحى تطالعني وعن من رقبة على فرق
 وجفن عيني بدمعه شرق لما بدت في معصر شرق

(١) نفس المصدر ص ٥١٩ .

(٢) بليدة الدهرج ٢ ص ١٢ .

(٣) نفس المصدر ج ٢ ص ٢٠ ؛ ونجد قصيدة أخرى للمهلي في كتاب من فاب عنه

للطرب قتالي ، طبعة بيروت ١٣٠٩ هـ ، ص ٤٨ .

(٤) الإرشاد لبالوت ج ٥ ص ٣٣٨ .

سكانه آدمى ووجنتها لما رمتا الوشاة بالحدق
 ثم تنطت بكهما خجلا كالشمس غابت في حرة الشفق
 ويقول^(١) :

لم أنس دجة والدجى منصوب والبدر في أفق السماء مغرب
 فكأنها فيه بساط أزرق وكأنه فيها طراز مُذهب
 وإذا وجدنا سيف الدولة صاحب حلب يشبه نار الكانون والرماد
 برجته عذراء مسها خجل فاستقرت بحجاب أشهب ، فهو يرى ذلك بين
 الصنوبري^(٢) . وكذلك الواصل يتأثر بالصنوبري حين يصف نار غم
 النضا بقوله^(٣) :

وليلة شاب بها الفرق قد جد الناظر والنطق
 كأنما غم النضا بيننا والنار فيه ذهب محرق
 أو سيج في ذهب أحمر بينها نيلوفر أزرق
 ولما قال صاحب بن عقاد بخراسان أواخر القرن الرابع في التلج :
 هات المدامة يا غلام معجلا فالنفس في قيد الهوى مأثورة
 أو ما ترى كانون ينثر ورده وكأنما الدنيا به كافورة

(١) بنية الدهرج ٢ من ١٠٩ والإرشاد ج ٥ من ٣٣٥ .

(٢) بنية الدهرج ١ من ٢١ :

كأنما النار والرماد معا وضوؤها في ملأه بحجب
 وجنة عذراء مسها خجل فاستقرت تحت غير أشهب

(٣) البنية ج ١ من ١١٣ .

لا حظ أبو بكر الخوارزمي أن هذه وأمثالها من التلجيات كلها هيال على قول
الصنوبري^(١).

وكان الشريف أبو الحسن المظيلي بمصر حوالي عام ٤٠٠ هـ يمثل طريقة
الصنوبري في الوصف ، وكان من أكبر المبرزين في هذا الباب ، وكان له
مقترحات بجزيرة القسطنطين ، ولم يكن يشتغل بخدمة سلطان ولا يمدح أحداً^(٢) ،
ومن شعره^(٣) :

ونهر من الأنهار ألقى يد الصبا عليه شقيقاً ناره تنضرم
كان ايضاً ض الماء تحت احمراره صفيحة سيف قد جرى فوقها الدم
وقد أهل وصف السموعات إجمالاً شديداً ؛ فنلا وصف السلاوي الشاعر
(المتوفى عام ٣٩٤ هـ - ١٠٠٤ م) السكر البني بشيراز من غير أن يذكر شيئاً من
خرير المياه أو صوتها^(٤) ؛ ولم أجده من هذا القبيل إلا مثالا في شعر للأُمير البويهي
عز الدولة ، وهو قوله في سياق قصيدة له^(٥) ، وصف فيها مجلساً على شاطئ الدجلة :
والماء ما بين الفصوص مصفق مثل القيان رقصن حول الزاسر
وفي أواخر القرن الرابع الهجري أولع الأدباء بوصف جميع الأشياء على
اختلافها ، فنجد وصف اليزاب إلى جانب وصف الشاعر صورته في المرأة^(٦) ،

(١) نفس المصدر ج ٣ ص ٩٥ .

(٢) الغرب لابن سعيد ص ٥٢ .

(٣) نفس المصدر ٧٨ .

(٤) بقية الدر ج ٢ ص ١٧٨ - ١٧٩ .

(٥) نفس المصدر ج ٢ ص ٥٠ .

(٦) كما فعل القصار الشاعر المعروف بصريح قتلاء المتوفى عام ٤١٠ هـ . انظر بقية

البقية فاشألى مخطوط فينا رقم ٦٦٨ ص ٢٨ (٢) .

وذلك إرضاء لرغبة الناس في السَّخَّات . وقد وصف المأمون الشاعر ببخارى
جميع أصناف الأطعمة من جبن وزيتون والسمك المشوى وماء الخردل والبيض
الفلق والقالودج والمريسة وغيرها كثير^(١) . وقال أبو العباس الفضل بن علي
الأسفراييني من كور نيسابور في وصف شجرة نصبت في بركة :

وشجرة وسط أيمن البرك تميس في الماء ميس مرتبك
كأنها البدر في السماء سرى فغار في أوجه الفلك
وقال في فؤارة أفلت تفاحة :

وفؤارة سائل ماؤها بتفاحة مثل خد المشيق
كمنفخة من رقيق الزجا ج تدار بها كرة من عقيق^(٢)
وقال عبد الوهاب بن حسن بن جعفر الحاجب الشاعر المصري (المتوفى
عام ٣٨٧ هـ - ٩٩٧ م) في وصف الحرمين^(٣) :

أنظر إلى الحرمين إذ برزا للعين في علو وفي صعد
وكأما الأرض المريضة قد ظلمت لطول حرارة الكبد
حسرت عن التدين بارزة تدهو الإله لفرقة الولد
فأجابها بالنيل يشبها رباً وينقذها من الكد
وما هو عظيم الدلالة أننا لا نجد في الشعر العربي مكاناً للمكدين الطوائفين

(١) بقيمة الدرر ج ٤ ص ٩٤ - ١١٢ .

(٢) نفس المصدر ص ٣١٦ .

(٣) المخطط للفرزى ج ١ ص ١٢١ .

قبل القرن الرابع ، فن ذلك قول الأحنف المكبرى مفتخراً^(١) .

على أي محمد الله في بيت من الجند
ياخواني بني ساسا ن أهل الجند والجند
لم أرض خراسا ن قفاشان إلى الهند
إلى الروم إلى الزنج إلى اللبخار والسند
إذ ما أعوز الطرق على الطراق والجند
حذاراً من أعاديهم من الأعراب والكرد
قطعتنا ذلك النهج بلا سيف ولا غمد
ومن خاف أعاديه بنا في الروع يستمدى

وقد دخل في الأدب على أيدي المكدين شعر حر مزهر ترغوا به ، كما دخل
الشعر العاطفي الغنائي المرح الذي لا تكلف فيه . وأكبر شعراء المكدين وظهرتهم
هو الأحنف المكبرى ، من مدينة مكبرى بالعراق ؛ وهو لم يبق في خرياته بوصف
شيء من جمال الطبيعة الذي يلتذ منه الشعراء ، فن قوله^(٢) :

شربت بماخور على دفء وطينبور
وصوت الطبل كردم وصوت الناي طابير
فصرنا من حي البيت كأنما وسط تنور

(١) بنية الدرر ج ٢ ص ٢٨٥ — ٢٨٦ . .

(٢) نثر المصدر ج ٢ ص ٢٨٧ ، ويروى من الحليقة المعتد أنه قال :

ويغنى الأمير أبو أحمد ويضرب بالطلل كردم كدم

(انظر كتاب الديارات ص ١٢ ب) .

وصرنا من أذى الصفع كمثل المصى والمور
 لقد أصبحت غموراً ولكن أئ غمور
 وقال يصف آلام الكدّين^(١) :

عشت في ذلة وقلة مال واغتراب في معشر أنذل
 بالأمانى أقول لا بالماني ففدائي حلاوة الآمال
 لي رزق يقول بالوقف في السراى ورجل تقول بالاعتزال
 وقال :

العنكبوت بنت بيتاً على وهن تأوى إليه ومالى مثله وطن
 والخنفساء لما من جنسها سكن وليس لى مثلها إلف ولا سكن
 ولا نجد في هذا الشعر صناعة لفظية ولا زخرفة ولا عبارات من التي تجري
 مجرى الأمثال أو الحكم . هذا هو الأسلوب الذي جرى عليه الأدب الفرنسي
 من عهد فيلون Villon إلى عهد فرلين Verlaine . وقد جرى على هذه الطريقة
 الشاعر محمد بن عبد العزيز السوسي ، أحد شياطين الإنس ؛ فقد قال قصيدة تربي
 على أربمانية بيت ، وصف فيها حاله وتنقله في الأديان والمذاهب والصناعات
 وقد افتتحها بقوله :

الحمد لله أليس لي نخت ولا ثياب يضمتها تحت^(٢)

(١) البنية ج ٢ ص ٢٨٦ ، وكتاب الإبحار لثمالي ص ٧٣٦ ، وكتاب غار القلوب

في اللغات والمذاهب للدوايف نفسه ص ٣٤٢ .

(٢) محمد الفصيدة كماله في البنية ج ٣ ص ٢٣٧ .

وإلى جانب هذا الشاعر نجد الشعراء الشعبيين الذين ظهروا في مدن العراق الكبرى مثل أبي الحسن محمد بن أنسكك البصري ، « وما أشبه شعره في الملاحه وقلة مجاوزة البيتين والثلاثة إلا بشعر كفته أبي الحسن بن فارس . . . إذا قال البيت والبيتين والثلاثة أغرب بما جلب وأبدع فيما صنع ؛ فأما إذا قصد القصيد فقلما يفلح وينجح »^(١) ؛ وابن سكرة الذي كان شاعراً متدفع الباع ، إذ يقال إن ديوانه يربى على خمسين ألف بيت ، منها أكثر من عشرة آلاف بيت قالها في قيمة سوداء يقال لها خمرة^(٢) .

وكان أكبر هؤلاء الشعراء الشعبيين غير مدافع ابن الجباج الذي كان يفتناده . وتوفي عام ٨٣٩١ هـ - ١٠٠١ م^(٣) . وكان نهمياً ولذلك يقول^(٤) :

لا تخافى على دقة كشي لا تكال الرجال بالقفران

(١) البيهية ج ٢ ص ١١٦ - ١١٧ ؛ ولد جمع ابن أنسكك ديوان صهر بن أحد الحجازي البصري الشاعر للتوف عام ٨٣٢٠ هـ - ٩٤١ م (المنتظم لابن الجوزي ص ٧٠ ب) ؛ وكانت أشعار الحجازي قصائد نصيرة في الفحل ، وكانت حرفته غزير الأرز ، فكان يجيز وينشد أشعاره والناس يزدهجون عليه ليسموها ؛ وكان معطاه في الفلجان ، وكان أحداث البصرة يتنافسون في ميله إليهم وذكره لهم ، ويحفظون كلامه العرب مأخذه وسموائه (بيته الدهر ج ٢ ص ١٢٧) . ويقول للسعودي عام ٨٣٢٢ هـ - ٩٤٤ م . (الروح ج ٨ ص ٢٧٤) « وأكثر الفناء المحدث في وقتنا من شعره » . وكان الحجازي أوزي محبوباً حتى بعد موته

(٢) البيهية ج ٢ ص ١٨٨ .

(٣) هو أبو عبد الله الحسين بن أحمد ؛ توفي في طريق النبل بالعراق ، وهو طائفة منها ، في ٢٧ جمادى الآخرة (وفي كتاب الوزراء ص ٤٣٠ لسبع بلقين من سنة ٨٣٩١ هـ) ، ودفن إلى جانب قبر جعفر الصادق عمة منه للشيعة ؛ وقد أمر أن يكتب على قبره : وكلهم بأسط فراهبه بالسيدة (سورة السكهف آية ١٧) . انظر الهمداني مخطوط باريس ص ٣٤٠ ب (٢) . وكان سكن سوفي يحيى ، وقد نفق بها في شعره (انظر مجمع البلدان لياقوت ج ٢ ص ١٩٥) .

(٤) البيهية ج ٢ ص ٢٤٧ .

وقد قال مدافعاً من نفسه ، لما خرج هارباً من غُرَمائه (١) :
 هربت من وطني إلى بلد قد صفر الجوع فيه منقارى
 يقول قوم : فرّ الخسيس ، ولو كان فقياً كان غير فرار
 لا عيب لا عيب في الفرار فقد فرّ نبي الهدى إلى القار
 ويظهر أنه قال في ذلك الوقت المصيب هذين البيتين الآتيين
 مفتخراً (٢) :

قد قلت لما غدا مدحى ، فاشكروا وراح ذى ، فما بالوا ولا شعروا
 على نحت القوافي من معادنها وما على إذا لم تفهم البقر
 وكان ابن الحجاج لسخفه ورداءة لسانه تخشى الجانب ، مقضى الحاجة ،
 مقبول الشفاعة ؛ ولم يزل أمره يتزايد حتى حصل الأموال ، وصار من أهل الجاه ؛
 وقد قال ابن الحجاج نفسه لبعض الرؤساء ، حين كتب إليه يذكر أن سخفه
 جاوز التمام :

سبى ! سخفى الذى قد صار يأتى بالدهامى
 أنت تدرى أنه يدفع من مالى وجامى (٣)
 وقد كان ابن الحجاج من أولاد المال ، واشتغل بالكتابة في أول أمره ،
 ثم ضمن فرائض الصدقات بسق القرات ، وصار أخيراً محتسباً على مدينة بغداد .

(١) نفس المصدر ص ٢٢٨ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٦٠ .

(٣) نفس المصدر ص ٢١١ ؛ ودبوان ابن الحجاج مخطوط بغداد (مرصاة)

نسخة المثلث ص ٢٥٨ من ج ١٠ .

ولقد ما حده ابن سكرة ، زميله في الذهب الثمري ، لأنه كان أقل نجاسة من ابن الهجاج^(١) .

وكان ابن الهجاج في قصائده يستعمل عبارات المكذّبين وأهل الشطارة^(٢) . وقد أتاح هو وأمثاله فرصة لظهور الفحش المستبشع في المدن الشرقية ، فرفع هذا الفحش رأسه بعد أن كانت قد أخمدته الروح العربية وأخرجته من الأدب العربي ؛ لأن الذي كان يسيطر على النزعة الأدبية هم البدو القديين هم أكثر عفة واعتدالا^(٣) . وما أشبه ابن الهجاج برجل كانت تقيدته سلطة خارجية ، فتمرد منها وانطلق في السخف . وكان أساس مبالنته في ذلك أنه أراد أن يتخذ من الإسراف في الفحش طريقاً لممارسة الشراء الآخرين القديين كانوا يعالجون في شعرم للوضوعات المستهة ؛ وهو يقول^(٤) :

وشعري سخفة لا بد منها فقد طبتنا وزال الاحتشام
وعلى دار تكون بلا كنيف فيمكن مائلا فيها القام

وهو يقول :

تراني ساهكناً حانوت عطر فإن أنشدتُ نازك الكنيف

(١) ديوان ابن الهجاج ج ١٠ ص ٢٤٠ ، وكتاب الوزراء ص ٤٣٠ والنبية ج ٢ ص ٢١٩ .

(٢) النبية ج ٢ ص ٢١١ .

(٣) ولو أراد الإنسان أن يغمس من أصل هؤلاء الحبان القديين يجهضون بالفحش لوجد أكثرهم يقال لهم مثل ما قبل من ابن الراوندي (المتوفى عام ٢٩٨ هـ — ٦١١ م) : اللاجن المنسوب إلى المزمل والزندقة ، وكان أبوه يهودي مأسلم (أبو الحسن ج ٢ ص ١٨٤ من طبعة لندن) .

(٤) النبية ج ٢ ص ٢١١ .

ومن قوله :

ومن كل بحوى المطر دكان شعره فإني صكتاس وشعري مخوج
ولهذا جاء في كتاب في الحبة مؤلف متأخر ما يقضى بمنع الصبيان من حفظ
أشعار ابن الحاجاج والنظر فيها وبضربهم على ذلك^(١) . ولكن يظهر أن
ابن الحاجاج لم يلحقه عند معاصره ضرر بسبب ذكره للمقادير وإفصاحه عن
السخت والفحش والمجون . فثلا كان الشريف الرضى تقييد الملوكين وأكبر
أصحاب المكنانة في الدولة العباسية من أكبر المدحجين بابن الحاجاج والمنتمين له ؛
وقد رثاه بقصيدة ، واختار من شعره السليم أشياء كثيرة . وقد حل إليه الخليفة
الفاطمي ، صاحب مصر عن مدح مدحه به ألف دينار مصرية على سبيل
الصلة^(٢) . ويحكى أنه كتب ما بيع ديوان شعره بخمسين ديناراً إلى سجين .
وقد سأل المفكرى متقى سيف الدولة ابن الحاجاج أن يصنع شعراً ليقى به بين
يدى سيده ، فألف له شيئاً^(٣) . ويقول ابن الحاجاج نفسه^(٤) .

لو جد شعري رأيت فيه كواكب الليل كيف تسرى
وإنما مره بحوت يمشى به في الماش أسرى
وكان ابن الحاجاج لا يلقى حل أقواله إلا على سخر ، ولم ير كاتقذاره
على ما يريد من الماني مع سلامة الألفظ وحذوبتها ؛ وكان لا يبال بالوزن
والقافية ؛ وقد حوى ديوانه كثيراً من السكيات غير المعروفة أخذها من لغة العامة

(١) مجلة الشرق السنة العاشرة ص ٥٠٨٥ .

(٢) كتاب الوزراء ص ٤٣٠ ، وديوان ابن الحاجاج ص ١٠ ص ٢٢٢ .

(٣) نهضة مصر ص ٢ ص ٢١٥ ، ٢٢٦ .

(٤) هس الصدر ص ٢١٣ .

يبنداد في القرن الرابع الهجري^(١). وكان يعرف النماذج الشعرية للأتورة ، غير أنه يتجاهلها ويعارضها بمعارضة سخرية وهزل ، فيما قاله عند موت سبكتكين .

واسقى تبكى بفرد عين لقد عيني سبكتكين
إلى أن قال :

ما لك تيف دفت فيه لا زال يُسقى غيث البطون^(٢)

ولكما نرى بين حين وآخر من خلال هذا الضباب الذي يتكون من السخف والمجون معاني وأفانطاً مثل كواكب الليل ، ونستطيع أن ندرك لماذا كان معاصرو هذا الملاحن يعدونه شاعراً كبيراً .

أما المتنبي الذي يرجع أصله إلى العراق أيضاً ، والذي نشأ في الشام ، فنجده يتمسك بطريقة العرب القدماء ، خلافاً لهؤلاء الشعراء^(٣) المحدثين .

(١) ومن أسف أنها لم تفرح إلا شعراً جزئياً وذلك في نسخة ديوان المحفوظة بالمتحف البريطاني .

(٢) ديوان ابن المهجاج مخطوط ببغداد م ٨٠ ؛ ومخطوط دار الكتب المصرية رقم ٧٣٤٢ م ٦١ - ٦٢ .

(٣) وكذلك كان الشاعران الشافعي أبو تمام (المتوفى عام ٢٣٠ هـ - ٨٤٥ م) والبحتري (المتوفى عام ٢٨٤ هـ - ٨٩٧ م) عافطين ، وقد نهجا طريقاً - لأنهما من شعراء دمشق وم الفرزدق وحرير والأخطل - على أنه قد بلغ من الحبس الشعري عند البحتري أنه قال :
لئن أبواش أشعر من مسلم بن لويد ، لأنه يتصرف في كل طريق ، إن شاء جد وإن شاء هرل . وسلم يلزم طريقاً لا يتعداه ؛ فقبل له إن تلبأ لا يوافقه قال : ليس هذا من علم نطب وأخراجه ممن يحفظ الشعر ولا يملأه ، وإنما يعرف الشعر من دفع إلى مضايقه ؛ (انظر : Goldziher, Abhandlungen Zur arabischen Philologie S. 164, Anm. 4)

على أنه كان بالشام شاعر مشهور هو أبو حامد أحمد بن محمد الأنطاكي المعروف بابن الراسبي المتوفى عام ٣٩٦ هـ . وقد تصرف بالشعر المزمل في أنواع المد والحد ، وكان بالشام كاتب المهجاج في العراق (بنية العصر ج ١ م ٢٤٨ - ٢٦١) ؛ آخر للاستزادة من أخباره معاهد النسخ مخطوط برلين رقم ٧٢٢٤ م ١١٥٦ .

كان أولئك الشراء واقعيين في نزعتهم الشعرية ، فكانوا يتفننون بما يروونه
و يحسونه ويشاهدونه ؛ أما المتنبي فهو مثال الأستاذ العالم الذي يستهويه الهوى
الكلبي ؛ فمن ذلك أن رجلاً خرج للصيد مرة ، وكان معه كلب فطرد به ظلياً ،
ولم يكن معه صفر ، فاستحسن صيد الكلب ؛ وقال المتنبي . وَدِدْنَا يَا أَبَا الطَّيِّبِ
لو كنت معنا ! فقل له : أنا قليل الرغبة في مثل هذا ؛ فقل له الرجل . إنما اشتيت
أن نراه ، فستحسنته ، وتقول فيه شيئاً ؛ فأجاب المتنبي إنه يستطيع أن يفعل ذلك
من غير أن يحضر الصيد أو يرى الكلب ؛ وقال قصيدة وصف بها الكلب
وسرعته ، على الطريقة المأثورة ^(١) .

وكان المتنبي كثير الأخذ من ابن المعتز على تركه الإقرار بالنظر في شعر
المحدثين ^(٢) . وقد ماداه شعراء العراق كابن سكرة وابن لكاك ^(٣) ،
وابن الحاجب ^(٤) ، وحملوا على ثلثه والتماحن به والتنادر عليه ؛ وقد انتهى إلينا
وصف محاوراة جرت بينه وبين أحد الشعراء لما ورد المتنبي مدينة السلام .
وتدل هذه المحاوراة على سوء ما وقع بين المتنبي وشاعر الملوك وبين أدباء بغداد ؛
ذلك أن المتنبي قدم إلى مدينة السلام ، وقد التحف رداء الكبير ، وصغر خده ؛
فذهب إليه الخاتمي الشاعر ، فوجده بلبس سبعة أبنية ، كل قباء منها لون ، مع أن
الوقت كان أحرّ أيام الصيف وأخلفها بتخفيف اللبس ؛ فأعرض المتنبي عنه ،

(١) ديوان المتنبي طبعة القاهرة ١٣١٥ هـ — ١٨٩٨ م ص ٩٧ — ٩٨ .

(٢) البنية ج ١ ص ٩٨ .

(٣) حسن الصغور ج ١ ص ٨٥ — ٨٦ .

(٤) ديوان ابن الحاجب مخطوط بغداد ص ٢٧٠ .

وتجاهله ، ولم يأنه من قصده ، ثم كله الحائمي وأغظ له القول^(١) .

وكذلك كان أبو فراس الشاعر الشامي (المتوفى عام ٢٥٧هـ - ٩٩٨م) ينجح على منوال القدماء ، لم يجد عن ذلك قط . وأغرب ما نراه فيه قلة تعرضه في قصائده ، أو بالأحرى أنه لم يرد أن يتعرض في قصائده ، لذكر الحروب الشعواء التي كانت ناشبة في غرب المملكة الإسلامية ؛ ونظراً لأنه كان ابن خال سيف الدولة الأمير الحمداني ، فلا بد أن يكون قد ذاق الكثير من آثر حوادث ذلك العصر ، وإن كان الكثير من شعره في الفخر ليس إلا خيالاً لا حقيقة وراءه . وقد يستحيل على من لم يكن ملماً بحوادث ذلك العصر أن يستنبط من قصائده أن الروم والمسلمين والنصارى كانوا يتحاربون بمجوش جرارة مسلحين بأكل سلاح حربى عرفه ذلك العصر ؛ ولا يزيد وصفه لهذه الحروب الكبيرة في شعره عما يمكن أن يقال في وصف قتال بين قبيلتين من البدو . ولا أرى في القصائد التي قالها في سجنه ببلاد الروم إلا أنها نثر مسجوع ؛ وإذا وجدنا من يبالغ في امتداحها من المؤلفين كالمصاحب والتمالي فهذا برهان جدير على ضعف الفارق بين الكاتب والشاعر .

وقد ولد الشريف الرضى عام ٣٦١هـ - ٩٧٠م ببغداد ؛ وكان في الثلاثين من عمره ، لما مات ابن الحجاج ؛ وكان الرضى شاعراً عظيماً ، وقد اختار من شعر

(١) الإرشاد لياقوت ج ٦ ص ٥٠٥ وما بعدها ؛ وطراز المجالس الخفاجي طبعة مصر ١٨٩٤م ، ج ٢ ص ٦٥ وما بعدها والقيمة ج ١ ص ٨٥ ؛ وقد ترك أبو الملاء الشاعر الشامي مدينة بغداد في عام ٤٠٠هـ ، وذلك لأن الرضى طعن في النبي ومدحه أبو الملاء ، فأخرج الرضى من التربة (انظر مقالة مرابطات لرسائل أبي الملاء ص ٧٨ ، وقد ألف أبو الملاء شعراً كبيراً لأشعار النبي صلى الله عليه وآله وسلم ككتاب الملائك والضوئيات) : Kretzer, SWA, 117, S. 69 .

بن الحاج كئاباً سماه الحسن من شعر الحسين^(١). وكان الشريف الرضى متيناً كبيراً انحدر من شجرة عظيمة طريقة النسب، فلم يستطع نخالفة التقاليد والنزول إلى ما نزل إليه ابن الحاج من إسفاف ومعالجة لنواحي الحياة التي لا تليق بالرضى؛ فقد كان أبوه نقيباً للملويين جميعاً، فلما مات في سنة ٤٠٠ هـ - ١٠٠٩ م تولى الرضى منصب أبيه وجميع ما كان يفتلده ويُعهد به إليه، وإن لم يكن الشريف أكبر إخوته. وكانت داره مثال الأبهة في المظهر، وقد اتخذ داراً لطلبة العلم سماها دار العلم، وهياً لم فيها ما يحتاجون إليه^(٢)، وكان الرضى مشهوراً بأنه لا يقبل من أحد شيئاً، وقد رفض مرة هدية من وزير^(٣)؛ وكان خفواً بأنه قاضٍ على من تحت أسره من الملويين؛ وكان ينسب إلى الإفراط في معاقبة الجاني منهم، وله في ذلك حكايات مشهورة؛ منها أن امرأة ملوية شككت إليه زوجها، وأنه يقاسم بما يتحصل له من حرفة يمانيتها، وأن له أطفالاً، وهو ذو عيلة وحاجة؛ وشهد لها من حضر بالصدق فيما ذكرت؛ فاستحضر الرجل، وأمر به فبُطِخ، وأمر بضربه؛ فزال يضربه، والمرأة تنظر أن يكف، والأسر يزيد، حتى بلغ ضربه مائة خشبة، فصاحت المرأة: وإيتم أولادى كيف تكون صورتنا إذا مات أفكلمها الشريف بكلام نط، وقال: ظننت أنك تشكيتني إلى العلم^(٤)؛ وكان الشريف الرضى أول عظيم من عظام الملويين أتى سلاح الفضل لباس

(١) ديوان الرضى طبعة بيروت ١٣٠٧ هـ، ص ٢.

(٢) قصص المدرس ص ٣.

(٣) قصص المدرس ص ٢، ٣.

(٤) ديوان الشريف الرضى ص ٣ و ص ٩٢٩.

السواد بلباس البياض على الرسم المباسى لجمال ورجال الخلانة تاركاً الشمار الذي
كان يلبسه آؤه بكبرياء يوازي ما كانوا يشعرون به من حزن . وهو يشير في
بعض شعره إلى أن حذره راجع إل شيء من الكتابة والم التي انطوت عليه
نفسه ! فهو يقول مثلاً^(١) :

أروم اتصافى من رجال أباعد ونفسى أعدى لى من الناس أجمع
ويقول :

إذا لم تكن نفسُ الفقى من صديقه فلا يحذرنه فى خلة الغير مطلبها
ويقول :

وقالوا : تملأ ! إنما العيش نومة تقضى ، ويمضى طارقُ المم أجمع
ولو كان نوماً ساكناً لمحدثه ولكنه نوم مروع مفزع
ولم يكن يخرج من فم هذا الرجل البليل حقيقة كلمة واحدة من الكلمات الذبيحة
التي يتلفظ بها العامة ، والتي ترى مثلاً عند إبراهيم الصابى صاحب ديوان
الوسائل وعند الوزير الملبى ، وعند الوزير ابن عياد . وإذا كان غيره من الشعراء
قد استباحوا لأنفسهم فى القدم كل قببج فإننا لا نجد للشريف الرضى فى باب
المجاء أقوى من ذمه لقن بارد قببج الوجه ، وهو^(٢) :

تقن بمنظره الميسون إذا بدا وتقن عند غفاته . الأسماع

(١) نفس المصدر ص ٥٠٠ ، ٥٠٦ ، وكان الشريف لا يشتد شعره إلا للخلعاء ،
حتى قال أمدآؤه لبهاء أدوة إنه يتكرر عليه بترك الإنشاد بين يديه (الديوان ص ٩٥٤) .
وبما يجب أن يلاحظ من أسباب كتابته أنه ولد لأبيه وهو فى الخامسة والستين من العمر .
(٢) ديوان الرضى ص ٥٠٤ .

أشعى إلينا من غنائك مسمعا زجل الضراغم بينت قراع
 وإذا كنا نجد رجلا كالشريف الرضى قد كلف نفسه مشقة قراءة ديوان
 ابن الحجاج وانتخاب أشعاره الخالية من السخف والمجون ، ثم ألف سرية لهذا
 الشاعر^(١) فإن في ذلك شرفا لهذين الرجلين معا . على أن الرضى كان أكثر
 ميلا إلى التنبؤ ، لأن ابن جني صاحب الشرح لحيوان التنبؤ كان أستاذه ؛ وهو
 يقول الشعر في كل ما كان يقرئ الشعر فيه الشعراء للتسكون بمذهب القدماء
 في ذلك العصر كالتهنئة بالبروز ، وعيد الفصح ، وبشهر رمضان ، وبانتهاء شهر
 الصوم ، وبالمهرجان ، وبالتهنئة بمولد بنت أو ولد ، وبمدح الخلفاء والولاة
 والوزراء ، وبثناء من يموت من المظالم أو من المقيمين إليه ، وخصوصاً بثناء
 الحسين في عيد وفاته ، وهو يوم عاشوراء . وهو يفخر بأهل بيته والأشراف ،
 وبشكو الزمان والشيب . وقد شكى الشيب وهو صغير ، كما جرى عرف
 الشعراء ؛ ولحسن الحظ حلق الشريف مقدم رأسه مرة وفاة يمين ، فوجد شعرا
 أبيض ، وكان إذ ذاك في العشرين من العمر ، فكان هذا على الأقل سبب
 شخصي يبرره أن يبدأ الكلام في الشيب^(٢) .

(١) الديوان ص ٨٦٢ — ٨٦٤ .

(٢) وروى مثل هذا من أبي فراس الأمير الشافعي الشاعر ، وقد لوحظ أنه أخذ ذلك
 من أبي نواس . أما أبيات أبي فراس فهي : (ملاح من كتاب : Dvorak : Abu Firas :
 : (1895, S. 161)

هذيري من طوالع في عذارى	ومن رد الشباب المنيار
وثوب كنت إليه ألبق	أجرر دله بين الجوارى
وما زادت على العشرين سى	فا عذرى الشيب إلى عذارى

ويعتبر الشريف الرضى في تاريخ الأدب العربي سيد أصحاب الرأي^(١) ،
وهو يعمل ذلك متبعاً للطريقة المأثورة تماماً من غير تعرض لشخص الرضى ، وهذا
غريب ومما لا يكاد يصدق .

وفي سنة ٥٣٩٢ هـ - ١١٠٢ م فقد الشريف الرضى أستاذه وصديقه ابن جني
الافوى المشهور وقد بدأ رثاءه له بالشكوى من الفناء ، وهو يقول^(٢) :

كأنا قذى يرى به السيل كلما تطارح ما بين الرنى والأماق
ثم يعض مكثراً من نساؤه أين ؟ مثل قوله :

فأين الملوك الأقدمون ناسدوا إلى جذم أحساب كرام المارق

.....

وبعد هذا يذكر ما امتاز به النقيض من الواهب فيقول :

فن لأوائ القول يبلو عرا. كما	وبحذفها حذف النبال الموارق
إذا صاح في أعقابها اضطردت له	توانى بالأعناق طرد الواسق
وسوءها ملئس التون كأنها	نزاع من آل الوجيه ولاسق
تغافل في أعقابهن وسوم	بأق بقاء من وسوم الأياق
ومن للماني في الأكمة أقيت	إلى باقر غيب الماني وفائق
يطوح في أنفاسها بضميره	سرب القوى ولأج تلك المضائق
نسم أعلى طودها غير عائر	وجاوز أنعمي خفها غير زائق

(١) البنية ج ٢ ص ٣٠٨ .

(٢) ديوان الشريف الرضى ص ٥٦٤ .

وهنا ينتهي كلام الشريف الرضى عن صفات الرثى ؛ أما بقية القصيدة فهو مما يصلح أن يقال في كل رثاء .

وزعم أن الشريف الرضى كان يقيم بينداد عاصمة المملكة ، وكان حالاً هادئاً ، فإنه تجاوز حياة المدن ، ومضى في شعر القروسية الخيالي من كلام في الحرب والصحراء والجمال وكرام الخليل .

على أن الكثير من شعره نمره لتجربته الخاصة أحس به إحساساً عميقاً ، وعبر عنه تعبيراً خاصاً به ، بحيث نستطيع أن نستشف من وراء هذه الأشعار التي تجري على نسق واحد أنه تلميذ لابن الجعاج . ومن غرر قصائد الشريف الرضى القصيدة التي ألقاها في مجلس الخليفة القادر ، حينما جلس يحتفل بالمجيج من أهل خراسان ومطلمها^(١) :

لمن الحدوج تهزهن الأبنق والركب يطقو في السراب ويفرق
يقطن أعراض الحقيق فمشمم يحمدو ركائبه الغرام ومُغرق
أبقوا أسيراً بدم لا يفتدى مما يحزن وطالباً لا يلحق
يهنو الولوع به فيطرف طرفه وبزبد جولان الدموع فيطرق
ومن أروع قصائده قوله في النسيب^(٢) بأسراء جية في قاذة تدير ليلاً :

طلعت والهيل مشتمل سابع الأذبال والأزر
من خصاصات التبيط ، وقد غرد الحادى على أذر

(١) ديوان الشريف الرضى ص ٤٤١ .

(٢) نفس المصدر المتقدم ص ٣٩٤ .

ورقاب القوم مائلة من بقايا شدة السهر
 فاستقاموا في رءوسهم يتبعون الضوء بالنظر
 فامتدنا ، ثم قلت لهم : ايس هذا مطالع القمر
 وهكذا نجد الصنوبري والمتنبى وابن الحجاج والشريف الرضى يفتنون جنباً
 لجنب في القرن الرابع الهجري ، وكل واحد منهم يشبه في الناحية التي نبتغ فيها
 حجة تشرف على كل القرون التالية للأدب العربي .

(تم الجزء الأول ويليه الجزء الثاني)

فهرس تفصیلی بمحتویات هذا الكتاب

سما

لم يكن من السهل عمل فهرس أعلام وأماكن لهذا الكتاب الطويل وقد اكتفينا بهذا الفهرس التفصيلي لمحتوياته وعلى من يريد الانتفاع به أن يقرأه كله لما في ذلك من الفائدة الأكيدة .

الفصل الأول : المملكة الإسلامية

أجزاء المملكة ص ١ ؛ سيادة الخليفة ص ١-٢ ؛ تعدد الخلفاء ص ٢ -٣ ؛ حدود المملكة ص ٤ ؛ الوحدة الاجتماعية والدينية ص ٤ ؛ الفاطميون والعباسيون ص ٤ - ٥ ؛ النزاع حول مكة والمدينة ص ٥ - ٦ ؛ العلويون ص ٦ ؛ زحف الروم ص ٦ - ٨ ؛ منديل المسيح ص ٧ ؛ ضعف المسلمين واختلافهم ص ٩ ؛ الحدود الجنوبية ص ٩ ؛ اتساع المملكة نحو الشرق ص ١٠ - ١١ ؛ نظرة إلى انقسامها ص ١١ ؛ تدهور مدينة بغداد ص ١١ - ١٤ .

الفصل الثاني : الخلفاء

الاعتبارات الخفية في اختيار الخلفاء ببغداد ص ١٥ ؛ أم المقتدر وسلطانها ص ١٥ - ١٦ ؛ شخصية المقتدر واستشهاده ص ١٦ - ١٧ ؛ القاهرة وخلعه ص ١٧ - ١٨ ؛ الراضى وصفاته وأعماله ص ١٨ - ٢٠ ؛ المتقى وملازمة البؤس له ص ٢٠ - ٢١ ؛ المستكنى ص ٢١ - ٢٢ ؛ الخلفاء المتأخرون : المطيع ، الطائع ، القادر ص ٢٢ - ٢٤ .
خلفاء الفاطميين ص ٢٤ ؛ شخصية العزيز ص ٢٤ - ٢٥ ؛ الحاكم بأمر الله ص ٢٥ - ٢٦ .

لقب الأمراء وعلامتهم الرسمية ص ٢٧ - الخليفة وإدارة العراق .
ص ٢٧ - ٢٨ .

بنو حمدان وخصاصم : على بن حمدان وناصر الدولة بن حمدان ٢٨ - ٢٩ .
البريديون ص ٣٠ : قواد الشمال : السامانيون ص ٣٠ - ٣١ . عضد
الدولة وتعرضه للسامانيين ص ٣١ - ٣٢ . قواد الحبل : مرداويج وآماله
ومشروعانه ص ٣٢ - ٣٤ .

بنو بويه وخصاصم ص ٣٤ - ٣٧ . عماد الدولة ص ٣٥ - ٣٨ على بن بويه .
ركن الدولة ص ٣٦ - ٤٠ : فخر الدولة ص ٣٦ . معز الدولة ص ٣٧ .
٤٠ - ٤١ . ركن الدولة ص ٣٦ - ٤٠ . ابن العميد ص ٣٩ .
عز الدولة مختار ص ٤١ - ٤٢ . حكم عضد الدولة ص ٣٦ . ٣٧ .
٤٢ - ٤٩ .

أمراء الترك : بحكم ص ٥٠ - ٥٢ . الإخشيد محمد بن طغج ص ٥٢ - ٥٦ .

أهل الذمة وبناء الدولة ص ٥٧ . التسامح ونشوء علم مقارنة الأدب ص ٥٧ .
تغيير الدين ص ٥٧ - ٥٨ . الزواج والميراث ص ٥٩ - ٦٠ :
العابثون ص ٦٠ : حماية الخووس ص ٦٠ : الحكم بين اليهود والنصارى
ص ٦٠ - ٦١ : عهد تولية الخائليق والبظريق ص ٦١ - ٦٢ . رأس
الخائوت ص ٦٢ - ٦٣ . توزيع اليهود وعددهم في المملكة لاسلامية
ص ٦٣ - ٦٥ . عدد النصارى ص ٦٥ - ٦٧ . عدد الخووس ص ٦٧ :
الصائبة ص ٦٧ - ٦٨ . أهل الذمة والعمل ص ٦٨ - ٦٩ : دم الذي

سنة

ص ٦٩ : حرية أهل الذمة في شعائرهم . أدبرتهم وازدهارها ص ٦٩
 ٧١- : الإسلام أكثر تسامحاً مع طوائف النصارى من الدولة الرومانية
 الشرقية ص ٧١-٧٢ : الدولة الإسلامية تحمي بعض طوائف النصارى
 من البعض الآخر ص ٧٢-٧٣ : بناء الكنائس ص ٧٣-٧٤ :
 معاملة الذميين في المستشفيات ص ٧٤ : دفن المسلمين والنصارى معاً
 ص ٧٤-٧٥ : لم يكن للذميين أحياء خاصة ص ٧٥ : قضاة النصارى
 منهم ص ٧٥-٧٦ : قضاء بعض قضاة الإسلام بين النصارى ص ٧٦ :
 نوع العقوبة بين النصارى ص ٧٦-٧٧ : نصارى الأندلس يفصلون
 في خصوماتهم بأنفسهم ص ٧٧ : شهادة الذمي ص ٧٧ : الجزية من
 أهل الذمة ومن المسلمين ص ٧٨-٨٠ : مقدار الجزية وتقسيمها
 ص ٨٠-٨١ : أصل علامة دفع الجزية أو الضريبة ص ٨١-٨٢ :
 الإعفاء من الجزية ص ٨٢-٨٣ : لباس أهل الذمة وارتفاع بيوتهم
 ص ٨٣-٨٦ : حكم المسلمين على الذميين بحسب المثل الأعلى خولاء
 ص ٨٦-٨٧ : كثرة العمال والمتصرفين من أهل الذمة ص ٨٧-٨٨ :
 كانت مقاومة النصارى دوماً لتلصصهم على المسلمين ص ٨٨ : سلطان
 النصارى ص ٨٨-٩١ : رد فعل من جانب المسلمين ص ٩١-٩٤ :
 تدمير القاطنين وسبيهم وسلطان النصارى في عهدهم ص ٩٤-٩٧ : عهد
 الحاكم ص ٩٧-٩٩ : سلطان اليهود ص ٩٩-١٠٠ .

١٠١

الشيعة

الفصل الخامس :

التشيع من مميزات القرن الرابع ص ١٠١ : التشيع ليس رد فعل إيراني
 ص ١٠١-١٠٢ : مراكز الشيعة : الكوفة ، البصرة . الشام ، طرابلس .
 جزيرة العرب . فارس : قم . أصفهان . نيسابور . قهستان . هراة

سنة

ص ١٠٢ - ١٠٦ : الشيعة والمعزلة ص ١٠٦ : الفاطميون . الزيدية
 ص ١٠٦ ، الشيعة والزندقة ص ١٠٦ - ١٠٧ : لأهوتية على ص ١٠٧ .
 - ١٠٨ : ملابس الشرقي ص ١٠٨ - ١٠٩ : على مصدر الأخبار ص ١٠٩
 - ١١٠ : وضع الأخبار ص ١١٠ : وضع حديث لرفع شأن معاوية
 ص ١١٠ : المتوكل يفيض عليا ص ١١٠ - ١١١ : الحميداني
 والتشييع ص ١١١ : تبادل الاضطهاد بين الشيعة وغيرهم ص ١١١ :
 العلويون ص ١١٢ : صيحة أهل السنة ص ١١٢ - ١١٣ : اعتدال
 الفاطميين ص ١١٣ - ١١٤ : الخليفة الحاكم ص ١١٤ : التشيع
 لم ينتشر ص ١١٥ : مكانة بغداد ص ١١٥ : جميع الحركات الروحية في
 الإسلام تتلاطم أمواجه في بغداد ص ١١٥ : الحمدانيون ص ١١٨ :
 الديلم ص ١١٨ : استغلال الأعياد في المنافسات المذهبية ص ١١٨ - ١٢١ :
 مشاهد الشيعة وقبر على ص ١٢١ - ١٢٣ : الفرق بين الشيعة وأهل
 السنة ص ١٢٤ - ١٢٦ : أخطاء في الحكم على الشيعة ١٢٦ - ١٢٨ .

١٢٩

الإدارة

الفصل السادس :

دولة الخلفاء أشبه باتحاد ص ١٢٩ : الإدارة مركزية ص ١٢٩ :
 أقسام الديوان ص ١٢٩ - ١٣٠ : أهم اللواوين : ديوان الجيش ،
 ديوان النفقات ، ديوان بيت المال ، ديوان المصادرين ، ديوان الرسائل
 ديوان البريد ، ديوان التوقيع ، ديوان الخاتم ، ديوان القرض ، ديوان
 الجبهة ، ديوان البر والصدقات ص ١٣٠ - ١٣٧ : طبقات أصحاب
 اللواوين وأرزاقهم ص ١٣٧ - ١٣٨ : رؤساء الولاية ص ١٣٨ - ١٣٩ :
 ككرة عدد العمال ص ١٣٩ - ١٤٠ : أول ترتيب الرواتب ص ١٤٠ :
 العمال في العهد الفاطمي ص ١٤٠ - ١٤١ : كثرة العمال من القرمس

محنة.

ص ١٤١ - ١٤٢ : الفرق بين العمال والعلماء ص ١٤٢ - ١٤٣ .
 سطحية عمال الدواوين ص ١٤٣ ؛ شروط عمر على العامل ص ١٤٣ ؛
 المال يلعب دوراً سبباً في حياة عمال الدواوين ص ١٤٣ - ١٤٤ ؛ ممتلك
 المتورعين إزاء العمال ص ١٤٤ - ١٤٦ ؛ أول مصادرة العمال ص ١٤٦ ؛
 ظهور الألقاب ص ١٤٦ - ١٤٨ ؛ الحاكم بأمر الله يحاول إلغاء الألقاب
 ص ١٤٨ ؛ إغلاق الدواوين في يوم الجمعة والثلاثاء في عهد المقتدر
 ص ١٤٩ .

١٥٠ الفصل السابع : الوزارة والوزراء

نشأة الوزارة ص ١٥٠ ؛ الوزير والقواد ص ١٥٠ - ١٥١ ؛ لباس
 الوزير ص ١٥١ - ١٥٢ ؛ حفل تقليد الوزير ص ١٥٢ ؛ العمل اليومي
 للوزير ص ١٥٢ - ١٥٣ ؛ السجلات ص ١٥٣ ؛ دار الوزير ص ١٥٣ ؛
 حرس الوزير ص ١٥٣ - ١٥٤ ؛ الوزير ودار الخلافة ص ١٥٤ - ١٥٥ ؛
 تعيين الوزير ص ١٥٥ ؛ الوزارة في الأسر الأرستقراطية ص ١٥٥ -
 ١٥٦ ؛ أثر البويهيين ص ١٥٧ ؛ الفاطميون واستوزارهم لليهود ص ١٥٨ ؛
 مهمة الوزير في إمارات الأطراف ص ١٥٨ - ١٥٩ ؛ سقوط هيئة
 الوزراء ص ١٥٩ - ١٦٠ ؛ الوزراء النصاري ص ١٦١ ؛ مساومة حول
 الوزارة ص ١٦١ - ١٦٢ ؛ الألقاب ص ١٦٢ - ١٦٣ ؛ الوزراء في
 القرن الرابع الهجري : علي بن القرات ص ١٦٣ - ١٦٧ ؛ علي ابن
 عيسى ص ١٦٧ - ١٦٩ ؛ الخاقاني ص ١٧٠ - ١٧١ ؛ حامد ابن
 العباس ص ١٧١ - ١٧٣ ؛ ابن مقلة ص ١٧٣ - ١٧٥ ؛ الخصبي
 ص ١٧٥ ؛ المهدي ص ١٧٥ - ١٧٩ ؛ صاحب بن عباد ص ١٧٩

مفحة

١٨٠ - . صاحب والتوحيدى ص ١٨٠ - ١٨٥ : ابن العميد
ص ١٨٥ - ١٨٨ .

١٨٩

المسائل المالية

الفصل الثامن :

تشعب التشريع فى أمر الضرائب ص ١٨٩ - . الضرائب الثابتة ص ١٨٩ -
مرعد افتتاح الخراج ص ١٨٩ - ١٩١ ، دواوين الخراج تقوم مقام
الخزائن ص ١٩١ - ١٩٢ . دفاتر الدواوين ومواضعها ص ١٩٢ -
١٩٣ . أبواب ميزانية عام ٣٠٦ هـ - ٩١٨ هـ . ص ١٩٣ - ١٩٤ .
الإقطاع ص ١٩٤ - ١٩٦ . خراج التكملة ص ١٩٦ . الضياع
السلطانية ص ١٩٦ - ١٩٧ . إخلاء الأرض إلى الأقوياء ص ١٩٧ .
بعض الأخماس التى ترد إلى بيت المال ص ١٩٧ - ١٩٨ . التركات
التي لا وراث لها ص ١٩٨ . ديوان الموارث ص ١٩٩ . تعرض
الأقوياء للتركات ص ١٩٩ - ٢٠١ . الاستغلال والمصادرات للعمال :
الأخشيد : معز الدولة . فخر الدولة . المتقى ومصادروهم ص ٢٠١
- ٢٠٥ . الرسوم الجمركية ص ٢٠٥ - ٢٠٧ . ضرائب المصادرات
ص ٢٠٧ - ٢٠٩ . استقلال بيت المال العام عن خزنة الخليفة (بيت
مال الخاصة) ص ٢٠٩ . بيت مال الخاصة ومهامه وما يحمل إليه
ص ٢٠٩ - ٢١٤ . تشعب ديوان فارس ص ٢١٤ - ٢١٥ .
الضرائب غير القانونية ص ٢١٥ - ٢١٦ . استمرار الوسائل القديمة
وثقلها ص ٢١٦ - ٢١٧ . الاحتكار ص ٢١٧ - ٢١٨ . شمول
الضرائب لأدوات الترف والضروريات ص ٢١٨ - ٢١٩ . الضرائب
فى الشام ص ٢١٩ - ٢٢٠ : بيت المال فى المسجد ص ٢٢٠ - ٢٢١ :
جور بن حمدان ص ٢٢١ - ٢٢٣ . عدل السامانيين ص ٢٢٣ - ٢٢٤ .

- ممة

خراج مصر ص ٢٢٥ . أدريبيجك ص ٢٢٥ ، العراق ص ٢٢٥ - ٢٢٦ :
 إقراض الحكومة ص ٢٣٦ - ٢٣٨ . وسائل تحصيل الخراج ص ٢٢٨ .
 ٢٣١ - ٢٣٣ : تضمين الخراج ص ٢٣٨ - ٢٣٠ . وصورة ظهوره
 ص ٢٣٠ - ٢٣١ . التعذيب لاسترداد أموال الدولة المذبوبة ص
 ٢٣٣ - ٢٣٦ .

٢٣٧ رسوم دار الخلافة : الفصل التاسع :

لون شعاع الخلفاء ولباسهم ص ٢٣٧ - ٢٤٠ : ظهور ألقاب الخلفاء
 ص ٢٤٠ - ٢٤١ : ألقاب الأمراء ص ٢٤١ - ٢٤٢ : لقب السلطان
 ص ٢٤٢ - ٢٤٣ : لقب ملك الملوك ص ٢٤٣ : شراء الألقاب
 وقيمتها ص ٢٤٣ - ٢٤٤ : صور الأدب في الخطاب ص ٢٤٤ - ٢٤٥ :
 تقبيل الأرض ص ٢٤٥ - ٢٤٦ : حفلة تتويج عضد الدولة ص ٢٤٦ -
 ٢٤٧ : إجلال خلفاء الفاطميين ص ٢٤٧ - ٢٤٨ : أدب أحد رجال
 الحاشية ص ٢٤٨ - ٢٤٩ : كلام الأمراء عن الخليفة ص ٢٤٩ .
 ضعف الخلافة وسقوط هيبتها ص ١٥٠ - ٢٥٢ : طبقات الحاشية
 ص ٢٥٢ - ٢٥٤ : زواج الخلفاء بأجنبيات ونتائجها ص ٢٥٤ - ٢٥٥ .
 الندماء ص ٢٥٥ - ٢٥٧ : نفقات دار الخلافة ص ١٥٧ - ٢٥٩ .
 الخليفة ورياسته الروحية كالإمام ص ٢٥٩ - ٢٦٠ .

٢٦١ الأشراف : الفصل العاشر :

أصل الشرف عند العرب ص ٢٦١ : خصال الشريف وعلاماته
 ص ٢٦١ - ٢٦٢ : طبقات الناس ص ٢٦٢ : أعمال مسألة الدم ص ٢٦٢ .

صفحة

شرف مصدود الدين ص ٢٦٢ . أهل البيت . الثعالبيون . اداسميون
 وغيرهم . روايتهم وأحوالهم ص ٢٦٢-٢٧٠ . الحمدانيون والبرهانيون
 والأخشيديون واحترامهم لأبناء النبي عليه السلام ص ٢٧١ . وساطة
 العلويين في الحصومات بين الأمراء ص ٢٧١ - ٢٧٢ . أبناء الخلفاء
 الراشدين الثلاثة ص ٢٧٢ - ٢٧٣ . أشرف ما قبل الإسلام ص ٢٧٣ -
 ٢٧٤ . المهالبة ، البنيون ص ٢٧٤-٢٧٥ . أصل بعض البيوت ص
 ٢٧٥ - ٢٧٦ .

٢٧٧

الفصل الحادى عشر : الرقيق

الرقيق حيد جميع أهل الديانات ص ٢٧٧ - ٢٧٨ . ولد الأمة وأم الولد
 وحقوقها ص ٢٧٨ . الاسترقاق بين الديانات الأخرى ص ٢٧٨ .
 أكبر أسواق الرقيق ص ٢٧٨ - ٢٧٩ . قيمة الغلمان والحوارى
 ص ٢٨٠ - ٢٨١ . القرامطة ورأيهم في الاسترقاق ص ٢٨١-٢٨٢ .
 طرق جلب الرقيق ص ٢٨٢-٢٨٤ . وصف سوق للرقيق ص ٢٨٤ .
 خداع النخاسين ص ٢٨٤ - ٢٨٥ . خمس أمم أنواع النساء ص ٢٨٥ -
 ٢٨٨ . تسمية الرقيق في الإسلام وتوصية النبي بحسن معاملته ص
 ٢٨٨ - ٢٨٩ . الإسلام والنصرانية والرقيق ص ٢٨٩ - ٢٩٠ .
 ترف الحواري ومنزلة بعض الغلمان ص ٢٩٠ - ٢٩٣ . علو شأن العبيد
 ص ٢٩٣-٢٩٤ . حال العبيد بالإجمال وثورتهم ص ٢٩٥ . الحرب ونشأة
 الرقيق ص ٢٩٦ . من العبد في الإسلام ؟ ص ٢٩٦ . الرق عند بني
 إسرائيل ص ٢٩٦ - ٢٩٧ . الرقيق عند البابليين ص ٢٩٨ . معاملة

صفحة

الرفيق في الإسلام ص ٢٩٨ - ٢٩٩ ؛ تحرير العيد في الإسلام ص

٢٩٩ - ٣٠٠ .

٣٠١

العلماء

الفصل الثاني عشر :

نشأة التميز بين الأدباء والعلماء ص ٣٠١ ؛ تكون المناهج العلمية ص ٣٠١ - ٣٠٢ ؛ الفقهاء والعلماء على الحقيقة وقيمة علم الفقه في الحياة العملية ص ٣٠٢ ؛ نبوض علم الكلام وارتفاع شأن العلماء ص ٣٠٢ - ٣٠٣ ؛ لباس الكتاب ولباس العلماء ص ٣٠٣ - ٣٠٤ ؛ المكتبات وتنافس الملوك في اقتناء الكتب ص ٣٠٤ - ٣٠٥ ؛ مقارنة مع مكتبات الغرب ص ٣٠٥ - ٣٠٦ ؛ عشاق الكتب : الحافظ . الفتح بن خاقان ، إسماعيل ابن إسحاق . السجستاني ، البرقاني ، أبو يوسف القزويني ، علي بن يحيى المنجم ، محمد بن نصر الحاجب . ابن العميد . الصاحب بن عباد ، أبو المطرف قاضي قرطبة ص ٣٠٦ - ٣٠٩ ؛ تزيين الكتب عند المانوية وأصحاب الخلاج ٣٠٩ ؛ زخرفة خطابات الملوك وعهودهم ص ٣٠٩ - ٣١٠ ؛ تأسيس دور العلم والكتب للطلبة ص ٣١١ - ٣١٤ ؛ التدريس في المساجد ص ٣١٤ - ٣١٥ ؛ كثرة طلاب الفقه ص ٣٥١ - ٣١٦ ؛ الإملاء ص ٣١٦ - ٣١٨ ؛ نشأة المدارس ص ٣١٨ ؛ نيسابور ص ٣١٨ - ٣١٩ ؛ وصف الدرس ص ٣١٩ - ٣٢٠ . احترام علم الحديث ص ٣٢٠ - ٣٢٢ ؛ السن عند التصدي للتدريس أو سماع الحديث ص ٣٢٢ - ٣٢٣ . حرفة النسخ ص ٣٢٤ - ٣٢٥ ؛ حرفة التعليم ص ٣٢٥ - ٣٢٨ ؛ التفهاء والعلماء من أهل الأرقاء ص ٣٢٩ ؛ العلماء والصناعة ص ٣٢٩ - ٣٣١ ؛ ألقاب العلماء ص ٣٣١ ؛ خصال بعض العلماء ص ٣٣٢ .

٣٣٣

علوم الدين

الفصل الثالث عشر

تحرر علم الكلام . من الفقه ص ٣٣٣ . عداة الصوفية للفقه وللعلم الديني :

من

ابن خفيف ، الحلاح ، الحنيد ص ٣٢٣ - ٣٢٥ : دراسة القرآن
والحديث . رواية الحديث دون لقاء رجاله حلول دراسة الكتب محل
الأسفار : ابن ، يونس الصفدي ، ابن مندة ، السرخسي ، الغزالي ، أبو الفرج
الأصفهاني ص ٣٣٥-٣٣٧ . شأن علماء الحديث وسعة حفظهم ص ٣٣٧-
٣٣٨ : الخطيب البغدادي ، الدارقطني ، الحاكم النيسابوري وتأليفهم
الجديدة : المستدرجات ، والمخرجات . معرفة الرجال والجرح والتعديل ،
نواربغ المدن ونحوها ص ٣٣٨-٣٤١ ، قيمة الدراسات التاريخية ص
٣٤١ : أصول نقد الحديث وألفاظه ص ٣٤١-٣٤٢ : مقرئو القرآن : ابن
مجاهد ، ابن شنبوذ ، أبو بكر العطار والقراءات الشاذة ص ٣٤٢-٣٤٤ :
تفسير القرآن واتجاهاته : ابن عباس ، الأصمعي ، الشعبي والسدي .
الطبري ، السمرقندي ، الجبائي ، الأشعري وقبول تفسيره في المغرب .
ابن تومرت ، الرماني ، النقاش ، أبو بكر الأذفوي ، القزويني .
الأسدي ص ٣٤٥ - ٣٤٨ : تأويلات الشيعة والصوفية ص ٣٤٨ .
المفسرون العلماء ، أبو زيد البلخي ص ٣٤٨ - ٣٤٩ : الظاهرية ص
٣٤٩ : التأليف في المعجزات ص ٣٤٩ ، الولوع بالغرائب ص
٣٤٩ - ٣٥٠ : الرازي الطيب وإنكاره للمعجزات ص ٣٥٠ ؛
التأويل العقلي ص ٣٥٠ - ٣٥١ ؛ معجزات النبي وتأويلها ص ٣٥١ -
٣٥٢ : المطهر المقدسي ودفاعه عن بعض المعجزات ص ٣٥٢ -
٣٥٣ ، مجددو الملة ص ٣٥٣ : خلاف المعتزلة مع أهل السنة ص
٣٥٣ - ٣٥٤ : بعض رجال الاعتزال والشيعة ص ٣٥٤ - ٣٥٥ ؛
أثر القنوسطية في بعض المعتزلة ص ٣٥٥ ؛ المعتزلة والفلسفة والنصرانية
ص ٣٥٥-٣٥٦ ؛ أثر الاعتزال في سينوزا ص ٣٥٦ ؛ اختراع المعتزلة
لفظ الصفات ص ٣٥٦ ؛ خصال المعتزلة ص ٣٥٦ - ٣٥٧ ؛ نقد

صفحة

الفلاسفة لامتكلمين ص ٣٥٧ ؛ المتكلمون دعاء إلى حرية الفكر والاستنارة ص ٣٥٧ - ٣٥٨ ؛ كبار المتكلمين : الجاحظ ، اللطفي ، البلخي ونظراؤهم من الأوروبيين ص ٣٥٨ - ٣٥٩ ؛ ثمامة بن أشرس ص ٣٥٩ ؛ ظهور الأشعرى ص ٣٥٩ - ٣٦٠ ؛ معاداة الخنابلة للأشعرى ص ٣٦٠ ؛ ميل تلاميذ الأشعرى إلى المذهب العقلي : الباقلاني ، عبد الجبار ص ٣٦٠ - ٣٦١ ؛ اضطهاد مذهب الأشعرى وانتشار مذهبه ببطء ص ٣٦١ - ٣٦٢ ؛ تدخل الحكومة لفض المنازعات المذهبية : القادر وكتبه المعتزلة ، الاعتقاد القادري ص ٣٦٢ - ٣٦٦ ؛ تسامح المسلمين مع اليهود والنصارى ، وظهور علم مقارنة الملل : النوبختي ، المسعودي ، المسبّحي ، البغدادي ، ابن حزم ، البيروني ، الشهرستاني ص ٣٦٦ - ٣٦٨ .

٣٦٩

المذاهب الفقهية

الفصل الرابع عشر :

مسألة ركود الاجتهاد ص ٣٦٩ ؛ أثر التشريع الأجنبي ومعارضة أصحاب الحديث ص ٣٦٩ - ٣٧٠ ؛ أهم مذاهب أصحاب الحديث : الخنابلة الأوزاعية ، الثورية ٣٧٠ - ٣٧١ ؛ الخنابلة غير فقهاء ص ٣٧٠ ؛ إحصاء المذاهب وأحوالها ص ٣٧٠ ؛ اضطهاد الطبري ص ٣٧٠ ؛ الظاهرية وخصالهم ونقدهم للشافعي ص ٣٧١ - ٣٧٢ ؛ الطبري وابن شجرة ص ٣٧٢ - ٣٧٣ ؛ ابن حريويه ص ٣٧٣ ؛ استقرار المذاهب ص ٣٧٣ ؛ انتشار مذهب الشافعي ومركزه ص ٣٧٣ - ٣٧٤ ؛ المالكية والشافعية وتنافسهم بمصر ص ٣٧٤ - ٣٧٥ ؛ محاربة الفاطميين للمالكية ونصر الأيوبيين للشافعي ص ٣٧٥ ؛ مركز مذهب أبي حنيفة

صفحة

ص ٣٧٥ : مذهب مالك في المغرب ٣٧٥ - ٣٧٦ ؛ الحنابلة يرهجون بغداد وبعادون الشيعة ص ٣٧٦ ؛ التنقل بين المذاهب ص ٣٧٦-٣٧٧
تنافس المذاهب بعد المسألة ص ٣٧٧ .

٣٧٨

الفصل الخامس عشر : القضاة

عدم الفصل بين السلطين التنفيذية والقضائية ، اصطدام الوالى والقاضى
٣٧٨ - ٣٧٩ : القضاء على الإدارة الإقطاعية وتعيين الخليفة للقضاة
ص ٣٧٩ - ٣٨٠ : عظم شأن القاضى وخروجه عن السلطان الوالى
ص ٣٨٠ - ٣٨١ : ابن حربويه وقوة شخصيته وعدالته ص ٣٨١-
٣٨٢ : أبو حامد الاسفرائينى ص ٣٨٢ ؛ رهبة منصب القضاء وندرة
تعرض القاضى لما يتعرض له الأمراء والوزراء ص ٣٨٢ ؛ أبو أمية القاضى
ص ٣٨٢ - ٣٨٤ : الرهبة من تولى القضاء : ابن ضنة ، ابن حجرية ،
أبو قلابة ، سفيان الثورى ، أبو حنيفة ، أبو يوسف ، شريك ، إسماعيل
ابن إسحاق وابن أبى الورد وغيرهم ص ٣٨٤ - ٣٨٥ ؛ قبول الخفية
للقضاء ص ٣٨٥ - ٣٨٧ : هل يأخذ القاضى رزقاً ؟ ص ٣٨٧ ؛ مرتب
القاضى ص ٣٨٧ ؛ اشتغال القاضى بمناصب أو أعمال أخرى ص ٣٨٨ ؛
تحرز بعض القضاة : أبو خزيمه ص ٣٨٨ ؛ رفع العباسيين لمنصب
القاضى ورزقه ص ٣٨٨ - ٣٨٩ ؛ تغير اليقيم عند قاض ص ٣٨٩ ؛
الحاكم ورفع رزق القضاة ص ٣٨٩ - ٣٩٠ ؛ دخل القاضى بمصر
وغيرها ص ٣٩٠ ؛ تعفف بعض القضاة عن الرزق : الحسن ابن
عبد الله . محمد بن صالح اخاشمي وغيرهما ص ٣٩٠ - ٣٩٢ ؛ مرتب
القاضى في عهد الترك وفي مراكش ص ٣٩٢ ؛ قاض سبي السير يدفع
مالاً لأهل منصبه : ابن أبى الشوارب ص ٣٩٢ - ٣٩٣ ؛ تولى القاضى

للأوقاف (الأحباس) ولأموال اليتامى ص ٣٩٣ - ٣٩٤ : ضياع مال
 اليتامى ص ٣٩٤ : القاضي ينظر في الموارث ويتولى الإشراف على السجون
 وعلى المحبوسين للدين ص ٣٩٤ : رقاع الدعوى وقبولها ص ٣٩٤ -
 ٣٩٥ : الحلقات علنية ص ٣٩٥ : رجل يحاصم المأمون فيقضى يحيى ابن
 أكرم بينهما في دار الخلافة في جلسة علنية يُقضى فيها للعامة أولاً ص
 ٣٩٥ : مكان القضاء : المسجد . دار القاضي ص ٣٩٥ : علامة
 السخط على القاضي ٣٩٥-٣٩٦ : العدول (الشهود) ص ٣٩٧ : مجلس
 القضاء في مصر الفاطمية ص ٣٩٧ : المتحاكمون يسيطون قضيتهم وقوفاً
 ثم جلوساً متساوين حتى لو كان الخليفة نفسه خصماً ص ٣٩٧ - ٣٩٨ :
 نقادى ما يؤثر على عدالة القاضي : التحية ، الكلام ، المسارة ،
 المزاح ص ٣٩٨ : القاضي يتجنب كل تأثير على المتخاصمين ص ٣٩٩ :
 لباس القاضي ٣٩٩-٤٠١ : قضاة الفاطميين يحملون سيوفاً ص ٤٠١ :
 موظفو مجلس القاضي ص ٤٠١ : ظهور جماعة الشهود الدائمين والسؤال
 عنهم ص ٤٠١-٤٠٢ : بطانة القاضي ٤٠٢ : عيسى بن المنكسر القاضي
 واهتمامه بالشهود ص ٤٠٣ : عضد الدولة والشفاعات ص ٤٠٣ :
 الحاكم بأمر الله ومسألة العدول ص ٤٠٣ : عزل العدول بعزل القاضي
 ص ٤٠٤ : جلوس الشهود مع القاضي ص ٤٠٤ : القاضي التيمى
 يعين ستة وثلاثين ألف شاهد بالبصرة ص ٤٠٤ : الشاهد يتوب عن
 القاضي في القضايا الصغيرة ص ٤٠٥ : وصية الخليفة الطائع في عهده
 لقاضي القضاء ص ٤٠٦ - ٤٠٧ : توارث منصب القضاء : أسرة
 أبي الشوارب . بنو أبي بردة . آل النعمان ص ٤٠٧ - ٤٠٨ : الدوائر
 القضائية ص ٤٠٨ - ٤٠٩ : النظر في المظالم واختصاص القاضي ص

صفحة

- ٤٠٩ ؛ الفقهاء والإشراف على أعمال الشرطة ص ٤١٠ ؛ الوزير يجلس للمظالم ص ٤١٠ ؛ اصطدام القاضي بصاحب المظالم ص ٤١٠ ؛ ابن طولون والأخشيد يجلسان للمظالم ص ٤١١ ؛ النزاع بين صاحب الشرطة والقاضي ص ٤١١ - ٤١٢ ؛ تقديم الظلمات وإصدار الأحكام كتابة ص ٤١٢ ؛ الخلفاء يجلسون للمظالم ص ٤١٢ - ٤١٤ ؛ قهرمانة تجلس للمظالم ص ٤١٤ ؛ مقارنة بين القاضي وصاحب المظالم ص ٤١٤ - ٤١٥ .

٤١٦

الفصل السادس عشر : علم اللغة

- الفتح في علوم اللغة كان في النحو وعمل المعاجم ص ٤١٦ ؛ الإملاء ص ٤١٦ ؛ معارف المتقدمين مفككة ص ٤١٦ - ٤١٧ ؛ أثر علوم اليونان وتأليف « مقدمة في النحو » ص ٤١٧ ؛ تحديد معاني الكلمات وعمل المعاجم ص ٤١٧ - ٤١٨ ؛ الجوهرى وشأنه ، ابن جنى والاشتقاق ؛ دراسة لغة العامة ص ٤١٨ - ٤٢٠ .

٤٢١

الفصل السابع عشر : الأدب

- أثر المجتمع الجديد في الأدب ص ٤٢١ .
أولاً : النثر ص ٤٢٢ فما بعدها ؛ قيمة النثر قديماً ص ٤٢٢ ؛ الخطابة والرسائل ص ٤٢٢ - ٤٢٣ ؛ دراسة أخلاق العامة ووصف حياة المدن كموضوعين للأدب ص ٤٢٣ ؛ مكانة الجاحظ وأسلوبه ص ٤٢٣ - ٤٢٥ ، ٤٥٤ ؛ أبو حيان ومكانته ص ٤٢٤ ؛ أثر التصوف في نشر الأدب بين العامة ص ٤٢٥ - ٤٢٦ ؛ ظهور السجع نشأ عن اضمحلال

مقدمة

الروح العربية ص ٤٢٦ : أسباب كراهية السجع ص ٤٢٦ - ٤٢٧ ؛
الرسائل الديوانية مقياس العرف اللغوي ص ٤٢٧ . السجع منذ حوالى
عام ٣٠٠ هـ هو الطريقة الجديدة ص ٤٢٧ - ٤٢٨ ؛ ولع ابن عباد
بالسجع ص ٤٢٨-٤٢٩ ؛ قيمة رسائل القرن الرابع من حيث ما فيها من
فن ، وكبار كتاب الرسائل ص ٤٢٩-٤٣٠ ؛ ديوان الرسائل وشأنه ،
ابن هلال الصائى ص ٤٣٠-٤٣٢ ؛ استعمال الأساليب المحلاة فى الرسائل
الإخوانية واستقرار السجع فيها ص ٤٣٢-٤٣٣ ؛ أبو بكر الخوارزمى
أشهر كتاب الإخوانيات ص ٤٣٣ - ٤٣٤ ؛ الخوارزمى والصائى ص
٤٣٤ ؛ صفات أسلوب الخوارزمى ونموذج من رسائله ص ٤٣٤ -
٤٣٦ ؛ رأى الهمذانى فى الخوارزمى ص ٤٣٦ - ٤٣٧ ؛ أبو الفضل
الهمذانى : حياته وفته ورأيه فى الملاحظ ص ٤٣٧ - ٤٣٨ ، بعض
التجديد على يده (التمثيل والقصص) ص ٤٣٩ ؛ مقارنة الهمذانى بالصاحب
ص ٤٤٠ ؛ الاهتمام بالخوالين والمكدين ص ٤٤٠ - ٤٤١ ؛ أبو دلف
وقصيدته فى أصناف المكدين ، وتأثير الأختف العكبى فى ذلك
ص ٤٤١-٤٤٢ ؛ مقامات الهمذانى والتمهيد للكتابة الروائية ص ٤٤٢ -
٤٤٣ ؛ شعر الهمذانى ص ٤٤٣-٤٤٤ ؛ أثر العلماء ونثره وخصائصه ص -
٤٤٤-٤٤٧ ؛ التوجيه ص ٤٤٤ ، ٤٤٧ - ٤٤٨ ؛ ضعف الذوق
العربى ودخول قصص السر الأجنبى فى الأدب ونقد الأدباء لذلك
ص ٤٤٨ - ٤٤٩ ؛ الاتجاه إلى ما هو أجنبى ، والتأليف فى قصص
السر : الجهمشيارى والتنوخى وابن مسكويه وقصصهم ومخالفاتها
للمتقدمين ص ٤٥٠ ؛ كتب السر الشعبية ص ٤٥٠ - ٤٥١ .
ثانياً : الشعر ص ٥١ : فابعداً ، مدن العراق مهد الشعراء المحدثين ص
٥١ ؛ بشار بن برد ص ٥١-٥٦ ؛ ظهور الطرائف البديعة الطيبة بسبب
تدهور الحضارة على أيدي اختلاط المدن ص ٥٤-٥٦ . بعض الملاحاة فى

منحة

الطريقة الجديدة ٤٥٦ - ٤٥٧ : ناحيتها الابتكارية وظهور الشعر
 التصويرى على يد غير العرب ٤٥٧ - ٤٥٨ ؛ أمثلة من ذلك ٤٥٨ -
 ٤٦٢ ؛ شاعران شاميان: أبو بكر الصنوبرى وتغنيه بالبساتين والزهور
 والطبيعة ص ٤٦٣-٤٦٨ ؛ الصنوبرى أول منشىء للثلجيات ص ٤٦٨ ؛
 كشاجم وترسمه لأثر صديقه الصنوبرى ص ٤٦٨ - ٤٧١ ؛ الخالديان
 والسرى الرفاء وسيرهم على طريقة كشاجم ص ٤٧١ ؛ أبو الحسن السلاوى
 والخالديان ص ٤٧١-٤٧٣ ؛ الوزير المهلبى كشاعر، نشره طريقة الصنوبرى
 ببغداد، وتأثر آخرين كالقاضى التنوخى وسيف الدولة والصاحب بن عباد
 بطريقة شعراء الشام ص ٤٧١ - ٤٧٥ ؛ إهمال وصف المسوعات
 ص ٤٧٥ ؛ اتساع دائرة الموصوفات ، أمثلة ص ٤٧٥ - ٤٧٧ ؛
 الأحنف العكرى ووصف المكنتين ص ٤٧٧ - ٤٧٨ ؛ مادة شعر
 المكنتين ومقارنته بالأدب الفرنسى ص ٤٧٨ ؛ الشاعر محمد ابن
 عبد العزيز السوسى وقصيدته ص ٤٧٨ ؛ الشعراء الشيعيون : ابن لنكك
 وابن سكرة وابن الحجاج ، ابن الحجاج والفحش الغريب عن الروح
 العربية ص ٤٧٩ - ٤٨٣ ؛ المتنبي وأبو فراس ممثلان لطريقة القدماء
 ص ٤٨٣ - ٤٨٥ ؛ الشريف الرضى ص ٤٨٥ فما بعدها ؛ نشأته
 ومكانته ص ٤٨٥ - ٤٨٧ ، عفة أسلوبه ص ٤٨٧ - ٤٨٨ ، مقارنة
 بينه وبين إبراهيم الصائى ص ٤٨٧ ، ميل الشريف الرضى للمتنبي بتأثير
 ابن جنى ص ٤٨٨ ، الشريف الرضى سيد أصحاب المراثى ص ٤٨٩ ،
 رثاؤه لابن جنى ص ٤٨٩ - ٤٩٠ ، شعره فى القروسية ص ٤٩٠ ،
 تأثير ابن الحجاج فى شعره ص ٤٩٠ ، شذرات من غرر قصائده ص
 ٤٩٠ - ٤٩١ ، الشريف الرضى أحد أربعة ص ٤٩١ .

استدراكات

ص ٣٨٨ س ٥	كان	بدل	كان
ص ٤٠٨ س ١٤	الشهود	بدل	القعود
ص ٤١٠ س ١٥	المستصرخين	بدل	الستصرخين
ص ٤٢٩ س ١٣	الوزراء	بدل	الوزاء

